مع

قصص السابقين في القرآن

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي





الطَّبْعَةُ الخَامِسَةُ
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم ـ دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية ـ بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير ـ جدة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

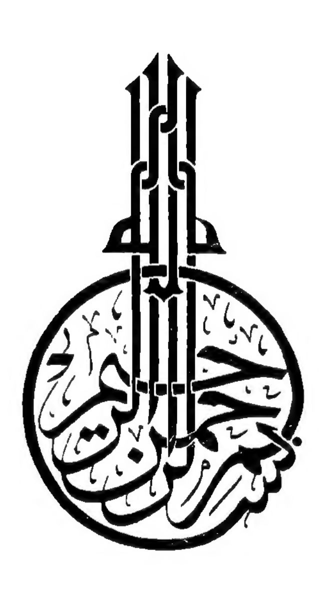
من كنوز القرآن

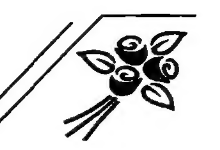
(٥)



الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق





مقدمة الطبعة الرابعة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهدِ اللَّهُ فلا مضل له، ومَنْ يضللْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فقد أعددتُ هذه الدراسة: «مع قصص السابقين في القرآن: دروس في الإيمان والدعوة والجهاد» قبل أكثر من خمسةَ عشر عاماً. وطبعت الطبعةُ الأُولى عام: ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

وقد أصدرتُها في ثلاث حلقات:

الحلقة الأُولى: تحدثتُ فيها عن قصص بني إسرائيل من غير الأَنبياء في القرآن، وكانت سبعَ قصص: قصة أُم موسى عليه السلام في سورة طه وسورة القصص، وقصة مؤمن آل فرعون في سورة غافر، وقصة تيه بني إسرائيل في سورة المائدة، وقصة قارون في سورة القصص، وقصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة، وقصة أَصحاب السبت في سورة الأَعراف، وقصة طالوت في سورة البقرة. ومهدتُ لهذه القصص السبع بتمهيد، ذكرتُ فيه معالم حديثِ القرآن عن قصصه، وأُسس منهج النظر في قصص السابقين في القرآن.

الحلقة الثانية: خصصتُها للحديثِ عن قصص سورة الكهف: قصة أَصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين.

الحلقة الثالثة: تحدثتُ فيها عن باقي قصص غير الأَنبياء في القرآن

التي لم أتحدثْ عنها في الحلقتين السابقتين، وكانت ثماني قصص: قصة هاروت وماروت في سورة البقرة، وقصة الذي مر على قرية في سورة البقرة، وقصة ابني آدم في سورة المائدة، وقصة الذي انسلخ من آيات الله في سورة الأعراف، وقصة لقمان في سورة لقمان، وقصة سبأ في سورة سبأ، وقصة أصحاب القرية في سورة يس، وقصة أصحاب الأُخدود في سورة البروج.

وكان مجموعُ قصص غيرِ الأنبياء في الحلقات الثلاث تسعَ عشرةَ قصة. وكان وقوفي أمامَ آياتِها منطلقاً من آيات القرآن، وما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ، وحرصتُ على أن لا أُوردَ شيئاً من الإسرائيليات أو الأخبار والرواياتِ التي لم تثبت.

وقدمتُ فيها تحليلاتٍ ولطائفَ بيانية بلاغية، وركزتُ على استخراجِ دروسٍ عديدة منها، وسجلتُ أهمها، مما يتعلقُ بالإيمان والدعوة والجهاد.

ويَسَّرَ اللَّهُ الحكيمُ الخبيرُ لي دراسة قصص الأنبياءِ في القرآن، بعد عشر سنوات من هذه الدراسة، حيثُ أصدرتُ عام: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م كتاب: «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث». وجاء في أربعة مجلدات، وتحدثتُ فيه عن قَصصِ الأنبياء من آدم إلى عيسى ابنِ مريم، عليهم الصلاة والسلام. والتزمتُ فيه بالبقاءِ مع آياتِ القرآن وما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ.

وأصدرتُ بعد ذلك دراسةً أُخرى، خصصتُها للحديثِ عن مواقفِ الأنبياء في القرآن، وهي تلك التي ذكرَها القرآن، وتثيرُ إشكالاتٍ أو شبهات، ويقع قارئُ القرآن في لبسٍ وسوءِ فهمٍ لها، وقد يَنسبُ للأنبياءِ أشياء لا تليق بهم، ولا تتفقُ مع عصمتهم، وقد ذُكِرَتْ إسرائيلياتٌ كثيرةٌ في تفصيلِ تلك المواقف، وكانتْ تَنسبُ إلى الأنبياءِ أباطيل ومنكرات، تتعارضُ مع نبوتهم! وقد صدر «مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه» هذا العام: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م ولله الحمد والشكر!.

ولما أرادتْ دارُ القلم العامرة إعادةَ طبعِ هذا الكتاب «مع قصص السابقين في القرآن»، بعد نفادِ نسخه من المكتبات، رأيتُ أنَّ الأنسبَ هو أنْ أُدمجَ الحلقات الثلاث معاً ليخرجَ كتاباً واحداً مجلَّداً، يسهلُ على القارئ الحصولُ عليه والتعامُل معه.

وكان ترتيبُ قصص السابقين في الحلقاتِ الثلاث السابقة ترتيباً «موضوعياً»، حيثُ خَصصتُ الحلقةَ الأُولى لقصصِ غير الأنبياءِ من بني إسرائيل، وخصصتُ الحلقة الثانية لقصص سورة الكهف، وباقي القصص ذكرتُها في الحلقة الثالثة.

ولما رأيتُ إخراجَها في مجلَّد واحد، وجدتُ أنَّ الأفضلَ هو إعادةُ ترتيبِ القصص، ليكونَ على أساسِ ترتيبِها في المصحف.

ومن ثم جاءَ ترتيبُ هذا الكتاب: «مع قصص السابقين في القرآن» وفق ما يلي:

- مقدمةُ الحلقةِ الأُولى: لأنها تكشفُ عن طبيعةِ الدراسة، وأهدافِها، ومنهج إعدادها، وأصناف القصص القرآني.

- التمهيد: وفيه الحديثُ عن طبيعةِ القصص القرآني، ومعالمِ حديث القرآن عنه، وأُسسِ منهجِ النظر فيه، لتكونَ التحليلاتُ صحيحة.

- قصة البقرة في سورة البقرة.

- قصة هاروت وماروت في سورة البقرة.

- قصة طالوت في سورة البقرة.

- قصة الذي مر على قرية في سورة البقرة.

- قصة تيه بني إسرائيل في سورة المائدة.

- قصة ابني آدم في سورة المائدة.

- قصة أصحاب السبت في سورة الأعراف.

- قصة الذي انسلخ من آيات الله في سورة الأعراف.
- قصة أصحاب الكهف في سورة الكهف.
- قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف.
- قصة موسى مع الخضر عليه السلام في سورة الكهف.
- قصة ذي القرنين في سورة الكهف.
- قصة أم موسى عليه السلام في سورتي طه والقصص.
- قصة قارون في سورة القصص.
- قصة لقمان في سورة لقمان.
- قصة سبأ في سورة سبأ.
- قصة أصحاب القرية في سورة يس.
- قصة مؤمن آل فرعون في سورة غافر.
- قصة أصحاب الأخدود في سورة البروج.

وقد أبقينا تحليلَنا لقصصِ السابقين كما هو، لأننا ركَّزْنا فيه على تسجيلِ اللطائفِ والنظراتِ البيانية البلاغية، واستخراجِ الدلالات والدروس، وبخاصة تلك المتعلقة بالإيمان والدعوة والجهاد.

ونُشيرُ إلى أَنَّ دراساتنا الثلاث التي أَصدرناها حول قصصِ القرآن متكاملة، تكملُ كلٌّ واحدةٍ أختَيْها.

الأُولى: مع قصص السابقين في القرآن: وهي تسعَ عشرةَ قصةً لأَشخاصٍ مذكورين في القرآن، من غير الأنبياء.

الثانية: القصصُ القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث: وهي خاصةٌ باستعراض قَصص الأنبياء فقط، فهي ليس تكراراً للدراسة الأولى، لأَنَّ الأُولى لقصص غير الأنبياء، وهي لقصص الأنبياء.

الثالثة: مواقفُ الأَنبياء في القرآن: وهي خاصةٌ في جانبٍ خاص من

قصص الأنبياء، وهو الجانب المتعلقُ بإِزالةِ الشبهات، وحلِّ الإشكالات، وتوجيهِ التصرفات والمواقف.

وننصحُ القراءَ الكرام بالتعامل مع هذه الدراسات الثلاث على هذا الأساس، وملاحظة التكامل بينها.

ونرجو من الله حسن القبول، وحسن الجزاء.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الأربعاء ١٦/ ١/ ١٣٢٤هـ
١٩/٣/٢٠٠٣م

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

مقدِّمة الطبعة الأولى

إن الحمد للَّه. نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فقد قصَّ الله في القرآن قصصاً للسابقين، ووصف هذا القصص بأنه الحق الذي لا يتطرق إليه شك، كما وصف هذا القصص بأنه «أحسن القصص».

وأخبرنا الله بأنه يقص علينا ذلك القصص لعلنا نتفكر، وأمرنا أن نقص هذا القصص على الناس لعلهم يتفكرون.

كما أخبرنا الله بأنه يقص علينا ذلك القصص للمواساة، والتثبيت، والصبر على المجاهدة والمواجهة.

وقرر الله سبحانه أن في قصص السابقين عبرة لأولي الألباب، الذين يقفون على تلك القصص، ويدركون ما فيها من عبر وعظات، ويستخرجون ما فيها من دروس ودلالات.

وقد أمرنا الله بأن نقتدي بالصالحين والمصلحين من السابقين، الذين عرض علينا قَصصهم، وأطلعَنا على طريقتهم في الدعوة والإصلاح والمواجهة والجهاد، والصبر والثبات.

وأوجب الله علينا أن نتدبر القرآن، وأن نفهم ما يريد أن يقرره من عبر

ودروس، وإيحاءات ودلالات، من خلال عرضه لقصص السابقين.

وإدراكاً منا لأهداف القرآن من قصصه، والتفاتاً منا لما في هذا القصص من حقائق ومبادئ وتوجيهات، وتنفيذاً منا لأمر الله بالتدبر والتفكر والاعتبار، ورغبة منا في خدمة كتاب الله، وبيان ما نقدر عليه من علومه ودروسه وتفسيره، قمنا بإعداد هذه الدراسة عن قصص السابقين في القرآن.



إن المسلمين يعيشون في هذا العصر تحدياً عالمياً كبيراً، وإن هجمة أعدائهم عليهم تزداد كل يوم قوةً وعنفاً وشراسة، وتنوعاً وشمولاً، وقد وصلوا إلى مواقع متقدمة في الواقع الإسلامي المعاصر، ولكنهم لم يصلوا ـ ولن يصلوا إن شاء الله ـ إلى مركز القيادة!.

ولقد قام دعاة ومصلحون ومربون بواجبهم تجاه هذه الأمة، فنصحوها ووجَّهوها وأرشدوها، وبصَّروها بالطريق، وعرَّفوها على معالمه وسماته، وقادوها في المواجهة والجهاد.

واستجاب صالحون وصالحات من جنود الله للنصح والبيان، والتزموا طريقَ الحق والهدى، وواجهوا قوى الباطل والشر والفساد، ودخلوا ميدان الجهاد والمواجهة والتحدي بإيمان واستعلاء، وصبر وثبات، وهمة وعزيمة، وصدق وإخلاص، وثقة ويقين، وإيثارٍ لما عند الله، ورغبةٍ في رضوانه.

وتزداد طريق الحق في كل فترة وضوحاً، ويزداد الصالحون والصالحات في الإقبال عليها والسير فيها والالتزام بها.

وسوف يصلون بإذن الله إلى نهاية الطريق المستقيم القاصد الراشد، ويحققون بإذن الله ما يريده الله لهم، وما يطلبه منهم.

وسوف يُغيِّرون بإذن الله واقع الأمة السيئ، وحياتها الشائهة، ويعالجون أمراضها الخطيرة، وسوف ينجحون بإذن الله في مقاومة قوى الباطل والشر والفساد، وإبطال كيدها ومكرها، ودحرها وهزيمتها، لأن هذه سنة الله، وهذا قدَره سبحانه، وهذا وعد الله لهذه الأمة، أمة الخلافة والشهادة والقيادة والريادة.

إننا على يقين تام بأن الغاشية التي غشيت سماء الأمة المسلمة ستزول بإذن الله، وأن أعداءها سيُهزمون ويندحرون ويفشلون بإذن الله، وأنها سوف تسترد عافيتها، وتتجدد فيها دماؤها، وتعود إلى موقعها الرائد، ورسالتها الهادية، وخلافتها الراشدة.

لكن هذه الآمال والأماني والرؤى الحقيقية العملية الواقعية الواعية تحتاج إلى مضاعفة الجهود، وتحقيق المطلوب، والتحقق بالشروط والمواصفات التي قررها الله للأمم الغالبة المنتصرة وفق سنته التي لا تتخلف.

ونعتقد أن القرآن الكريم هو الأساس والمنطلق لما نرجوه لهذه الأمة من مستقبل واعد، ومكانة عالية سامية.

فهو الذي أخرجها أول مرة من العدم، وجعلها خير أمة أُخرجت للناس، وسلمها قيادة البشرية، وهو وحده الكفيل بإعادة إخراج الأمة وقيادتها في حياتها، وتوصيلها إلى مركز القيادة والريادة مرة أخرى، ولن يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها!.

إنني أرى من الواجب علي أن أساهم في الجهود المبذولة لبعث الأمة الإسلامية من جديد، بما أقدر عليه من وقت وجهد، وعمل وقول، وفكر وبيان. وأرى أن ما عندي من ذلك قليل لا يكاد يُذكر، ولكنّه جهدُ المُقِلّ.

وإنني أرى وجوب الانطلاق للبعث الإسلامي من القرآن، باعتباره المنطلق لذلك، ولذلك كانت هذه المكتبة القرآنية التي نويت تقديمها للأحباب الكرام «من كنوز القرآن». وقد صدر منها أربعة كتب، وهذا هو خامسها ـ ولله الحمد ـ وإنني أنوي استمرار العمل في هذا المشروع القرآني، وتقديمَ ما أراه مناسباً في حلقات ودراسات قرآنية قادمة، وأستمد من الله سبحانه التوفيق والعون، وأرجو منه السداد والقبول.

إن القرآن الكريم هو أوْلى ما تتوجه إليه النظرات، وتُنفَق فيه الجهود والأوقات والأعمار، وتُعد حوله البحوث والدراسات، وتستخرج منه القواعد والمناهج والأسس والنظريات.

وإن هذا القرآن يَكفي ويُغني، ويُسعف كل من يقبل عليه، ويلبي له حاجته، ويقدم له بغيته. إنه منهل عذب يروي الظامئين، ومعين ثرّ غزير يكفي جميع الواردين، وكنوزٌ وافرة مذخورة تغني كل الراغبين فيها والقاصدين إليها.

ولو أن جميع الجهود توجهت لهذه الكنوز القرآنية فلن تأتي عليها ولن تستنفدها، ولو أن الباحثين كلهم على اختلاف تخصصاتهم وميولهم ونظراتهم ودراساتهم توجهوا إلى القرآن، فلن يقدِّموا كل ما في القرآن من علوم ومعارف، وأحكام ومبادئ، ودروس ودلالات، ولطائف وتوجيهات. وكم ترك الأول للآخر!!.

وصدق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁، عندما وصف هذا القرآن قائلاً:

«ستكون فتن، والمخرج منها كتاب الله، فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحكمُ ما بينكم. هو الفصْل ليس بالهزْل. من تركه من جبار قصمهُ الله، ومن ابتغىَ الهُدى في غيره أضلّه الله، وهو حبلُ الله المتين. وهو الذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لا تَزيغُ به الأهواء، ولا تَلْتبسُ به الألسنة، ولا يَشْبع منه العلماء، ولا تَنْقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرد. من قال به صَدَق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم».



قصص القرآن كثيرة منوعة، شملت مختلف سوره وآياته، منها القصير ومنها المطوَّل، منها القصة القصيرة ذات اللقطة السريعة أو اللقطات القصيرة، ومنها القصة متوسطة الطول ذات المشهد الواحد أو المشاهد القصيرة، ومنها القصة المطوَّلة ذات المشاهد الكثيرة، والعرض المنوَّع المكرَّر.

قصة إلياس مع قومه في سورة الصافات مثال للقصة القصيرة، وقصة سليمان مع النملة والهدهد وملكة سبأ وعرشها في سورة النمل مثال للقصة متوسطة العرض، وقصة يوسف في سورة يوسف مثال للقصة المطولة المعروضة

كلها في موضع واحد، بينما قصة موسى مع فرعون، ثم مع بني إسرائيل، التي عرضت في كثير من سور القرآن مثال للقصة المطولة المكررة المنوعة.

وهناك تقسيم آخر لقصص القرآن، من حيث موضوعُه وأشخاصه وأحداثه، وهو التقسيم الذي يرتبط بكتابنا هذا أكثر من غيره.

قصص القرآن قسمان:

القسم الأول: قصص الأنبياء والمرسلين.

القسم الثاني: قصص غير الأنبياء والمرسلين.

ولكنه يوجد تداخل بين القسمين، لذلك يستحيل فرزهما عن بعضهما، إذ يدخل بعض القسم الثاني ضمن القسم الأول، ويجد الباحث نفسه يخوض فيه، وينظر في أحداثه، أثناء نظره في القسم الأول!.

ولي على القسم الثاني، وهو قصص غير الأنبياء تقسيمان آخران:

الأول: قصص بني إسرائيل.

الثاني: قصص السابقين من غير بني إسرائيل.

ومثال النوع الأول، قَارون، وطالوت، وأصحاب السبت، والبقرة، والتيه.

ومثال النوع الثاني، قصص: أصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان، وابنيْ آدم.



قصص الأنبياء في القرآن، صدرت عنها كتب ودراسات كثيرة، من أجودها ـ فيما أرى ـ كتاب «مع الأنبياء في القرآن» لعفيف عبد الفتاح طبّارة.

وقد عرضتْ هذه الكتب والدراسات كثيراً من المعاني والعبر والعظات، وجزى الله أصحابها خير الجزاء.

ولذلك لا نية لي ـ حتى الآن ـ في الكتابة عن قصص الأنبياء في القرآن، مع يقيني بأنه يمكن إضافة جديد ومفيد من النظرات والدروس والدلالات،

وبخاصة في الإيمان والدعوة والجهاد والثبات والنصر والتمكين. وأشعر أنه قد تكونت لديَّ ـ بفضل الله ـ بعض الإضافات في هذا المجال، لكنني لم أنوِ ـ حتى الآن ـ إفراد الحديث عنها بدراسة، ولا أدري ما سيكون في قادم الأيام، والخيرة فيما يختاره الله، ونسأل الله أن يختار لنا الخير، وأن يقْدُره لنا، وأن يرضينا به، وأن يعيننا على أدائه.



كانت وقفتي أمام قصص السابقين من غير الأنبياء، لقلة الدراسات التحليلية المنهجية العلمية حولها، ولحاجتنا الماسة للوقوف أمامها، واستخراج ما يقدِّرنا الله عليه من دروسها وعبرها ودلالاتها.

وقد رأيت أن أجعل هذه الدراسة في قسمين، لتصدر في كتابين، تسهيلاً على القراء الكرام.

القسم الأول: لقصص بني إسرائيل في القرآن، وهو هذا الكتاب.

القسم الثاني: لقصص السابقين الآخرين من غير بني إسرائيل.

وقد جاء هذا الكتاب في تسعة فصول:

الفصل الأول: حديث القرآن عن قصصه سجلتُ فيه أهم سمات قصص القرآن كما عرضها القرآن نفسه، وبينت هدفه من عرضها، ومدى الفائدة منها، وما يمكن أن يُستخرج منها من دروس ودلالات. وأخذت كل هذا من آيات القرآن.

الفصل الثاني: منهج النظر في قصص السابقين،حيث استخلصتُ هذا المنهج من القرآن، ومن أحاديث رسول الله ﷺ، ومن نظرات العلماء المنصفين المحققين الموضوعييِّن. وحرصت على الالتزام بذلك المنهج، ودعوت كل باحث وناظر وكاتب وواعظ ومحاضر أن يلتزم بذلك المنهج، ليتصف جهده بالحق، ويعرض على الناس الحق، ولا يخرج من الحق إلى الباطل، ومن العلم إلى الادعاء والافتراض.

الفصل الثالث: قصة أم موسى عليه السلام، كما عُرضت في سورتي طه والقصص.

الفصل الرابع: قصة مؤمن آل فرعون ﵁، كما عُرضت في سورة غافر، أو المؤمن.

الفصل الخامس: قصة قارون في سورة القصص.

الفصل السادس: قصة تيه بني إسرائيل في سورة المائدة.

الفصل السابع: قصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة.

الفصل الثامن: قصة أصحاب السبت في سورة الأعراف.

الفصل التاسع: قصة طالوت في سورة البقرة.

وأنوي ـ إن شاء الله ـ إصدار قسم ثانٍ أخصصه لقصص سورة الكهف الأربعة،وهي قصة أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وموسى مع الخضر ﵉، وذي القرنين.

وأسأل الله أن يعينني بعون من عنده، فهو وحده المستعان.



لقد كانت النظرات في قصص هذا الكتاب شاملة، والدروس والدلالات المستخرجة منها منوعة.

لكن حرصتُ في دراستي لتلك القصص على الأمور التالية:

١ ـ البقاء في جو النص القرآني في عرضه لتلك القصص، وعدمُ الخروج عنه إلا إلى الأحاديث الصحيحة التي بيَّنَتْ ما فيه من إبهام، ووضحتْ ما فيه من غموض أو إشكال، والاكتفاء بما ورد في هذين المصدرين اليقينييْن: القرآن والحديث الصحيح.

٢ ـ الحرص على عدم قبول أي خبر أو تفصيل أو بيان من الإسرائيليات، وغيرها من الأخبار والروايات الخرافية والأسطورية، ورفض أي قول أو بيان لأي إنسان مهما كان، ما لم يعتمد في قوله وبيانه على القرآن الصريح أو الحديث الصحيح لاعتقادي بوجوب الاكتفاء بالبيان القرآني والنبوي، ووجوب السكوت عن ما سكتا عنه من الأحداث والتفصيلات،

وحرمةِ تفسير كلام الله الصادق بما لم يثبت صدقه ولا صحته من الروايات والأخبار، وحرمة الكلام في غيب السابقين بما قاله اليهود المحرِّفون، المزوِّرون للتاريخ، الكاذبون في الأخبار والأقوال.

٣ ـ الالتفات إلى الأبعاد الواقعية لتلك القصص، والإشارة إلى انطباق بعض لقطاتها ومشاهدها ونماذجها على الواقع المعاصر، وانطباق هذا البعد الواقعي العملي الحي على ما يؤخذ من تلك القصص من دروس ودلالات.

٤ ـ الاعتقاد بأن تلك القصص تعتبر كنوزاً مذخورة، تحوي الكثير من الدروس والعبر، والحقائق والمبادئ، والنظرات واللفتات، وأن ما تحويه هذه الكنوز من ذلك منوَّع وشامل، منه الإيماني والدَّعَوي، والأخلاقي والتعليمي، والسياسي والاقتصادي، والعسكري والجهادي، والحضاري والإنساني. وقد حاولتُ الإشارة إلى بعض تلك الأبعاد والجوانب والمعاني، وسجلتُ ما وفقني الله إلى إدراكه والالتفات إليه منها.

٥ ـ التركيز على الدروس الإيمانية والدعوية والجهادية والسُّنَنِيَّة المستخرَجة من تلك القصص، باعتبارها أهم ما يحتاجه الدعاة والمصلحون في هذا الزمان.

٦ ـ يقيني الجازم بأن ما عرضْتُه من هذه الدروس والعبر والدلالات يسيرٌ قليل لا يكاد يذكر، ولا يمثل بالقياس إلى الكنوز المذخورة منها إلا أقلَّ مما تمثله قطرة ماء بالقياس إلى المحيط، أو حبة رمل بالقياس إلى كثبان رمال الصحراء!.

فلا أزعم أنني حصرت تلك الدروس والدلالات أو استقصيتها، بل أجزم أنني تركت منها الكثير ـ لا عن قصد، بل عن عجز وتقصير ـ للناظرين في آيات القرآن، والمتدبرين لقصصه، فكم تركتُ لهم منها! وكم سيتركون هم بدورهم لمن جاء بعدهم!.

ويطيب لي أن أردد مع سيد قطب قولَه في استخراجه دروس وإيحاءات قصة طالوت: «ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة. فالنصوص

القرآنية ـ كما علمتْنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه. ويبقى لها رصيدها المذخور، تتفتح به على القلوب في شتى المواقف، على قدر مقسوم».



وأتوجه بهذا العمل ـ وبغيره من الأعمال ـ إلى الله وحده، وأسأله أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله لي ذخراً ورصيداً في الميزان، وأن يكتب لي النجاة والفوز يوم القيامة.

وأقرر أن ما كان في هذا العمل من حق وخير وصواب فهو من الله وحده، وأحمده أن وفقني إليه، وأسأله من ذلك المزيد.

كما أقرر أن ما فيه من خطأ ونقص وقصور ـ وهو موجود لا محالة ـ فمن نفسي ومن الشيطان، وأتوب إلى الله وأستغفره من ذلك، وأرجو من القارئ الكريم الذي يقف على شيء منه أن يدعو لي بالمغفرة، وأن يُسامحني تجاهه، وأن يرشدني إليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

صويلح: في ١/ ١٢/ ١٤٠٧هـ
٢٦/ ٧/ ١٩٨٧م.

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي



حديث القرآن عن قصصه

قص القرآن علينا كثيراً من قصص السابقين، من الأنبياء ومن غير الأنبياء، منه ما كان من قصص المؤمنين، ومنه ما كان من قصص الكافرين.

وقد تحدث القرآن عن قصصه الذي أورده، وبيّن لنا الحكمة من إيراده، وماذا يمكن أن نستفيد نحن منه، ومواطن العبرة فيه، ومنهج فهمه وتدبره والتعامل معه.

وسوف نقف وقفة سريعة مع حديث القرآن عن قصصه، لتكون هذه الوقفة تمهيداً لكلامنا عن قصص السابقين في القرآن، ومدخلاً للتعامل مع ذلك القصص.

○ مادة «قَصص» في القرآن:

أورد القرآن مادة «قصص» في عديد من حالاتها واستعمالاتها وتصريفاتها: في صورة الفعل الماضي، وفي صورة الفعل المضارع، وفي صورة فعل الأمر، وفي صورة المصدر.

قال الإمام الراغب الأصفهاني في مفرداته عن هذه المادة:

«القَصُّ: تتبُّع الأثر. يقال: قَصصتُ أثره.

والقَصص: الأَثَر. قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ [الكهف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: ١١].

والقصص: هو الأخبار المتَتَبَّعَة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ﴾ [القصص: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

والقِصاص: تتبع الدم بالقَوَد»[1].

○ هو القَصص الحق:

قصص القرآن عن السابقين هو القصص الحق، وروايته لبعض تلك الأحداث هي الصدق والصواب؛ لأن الله هو الذي يقص علينا في القرآن ذلك القصص، ولقد كان الله مطَّلعاً على تلك الأحداث، مقدِّراً لها، حيث وقعت بعلمه وإرادته وقدره ـ سبحانه ـ فكلام الله عنها لا يأتيه الباطل، ولا يتطرق إليه الشك، ومَن أصدق من الله حديثاً؟ ومن أصدق من الله قيلاً؟ لا أحد.

وقد وُصِف قصص القرآن بأنه القصص الحق:

ففي سورة آل عمران، وبعد أن وردت عدة آيات تجادل النصارى بشأن بشرية عيسى ابن مريم عليه السلام وتُبطل مزاعمهم حول نسبته إلى الله ـ سبحانه ـ وتقص عليهم أحداث حمل أمه مريم رضي الله عنها به، ثم ولادتها له؛ وردت آية وصفت هذا القصص بأنه هو القصص الحق، الذي لا خطأ فيه ولا كذب ولا باطل. فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وفي سورة النمل، قص القرآن علينا، طرفاً من قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ثم طرفاً من قصة داود عليه السلام. وأطال الوقفة ـ قليلاً ـ أمام قصة سليمان عليه السلام مع النملة، ومع الجيش، ومع الهدهد، ومع ملكة سبأ، ومع متابعتها لسليمان عليه السلام ودخولها في دينه.

ثم عقَّب القرآن على ذلك القصص بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦].

وفي سورة الكهف، وفي بداية ذكر القرآن لقصة أصحاب الكهف، مهَّد لذلك بوصف ما سيقصه عنهم بأنه قصص حق، فقال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣].

فوصْفُ القرآن لقصصه بأنه قصص حق، وإخباره بأنه سوف يقص قصص

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٤٠٤.

السابقين بالحق، يوحي لنا بالمنهج العلمي الرصين، في فهم قصص القرآن، وبحثه وتدبره.

○ هو أحسن القصص:

في سورة يوسف، وَصَف الله قصص القرآن بأنه أحسن القصص. فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ . . .﴾ [يوسف: ٢ ـ ٤].

لماذا قصص القرآن هو أحسن القصص؟ ولماذا ورد هذا الوصف في سورة يوسف بالذات؟.

إن سورة يوسف تخصصتْ بقص قصة يوسف عليه السلام، حيث أفردت لها مائةَ آية، من آياتها التي بلغت مائة وإحدى عشرة آية، والآيات الأخيرة منها كانت في التعقيب على قصة يوسف. عرضتْ قصة يوسف عليه السلام، منذ أن رأى رؤياه وهو غلام صغير إلى أن تحققت رؤياه عملياً، وتم تأويلها في عالم الواقع.

وقصة يوسف من أحسن القصص ـ وكل قصص القرآن حسن ـ لأنها تقدِّم البشرى والأمل للمكروبين وأصحاب الابتلاءات والمحن، والذين يعانون آلام الاضطهاد والفتنة، بأن الفرج آت، والأمل قادم، والمحنة ستزول، المهم هو أن يُحسنوا الإِيمان بالله والتوكل عليه، والثبات على صراطه. كما حصل مع يوسف عليه السلام.

وإنَّ قصص القرآن لهو أحسن القصص، وكأن القرآن يدعونا ـ من خلال هذا الوصف ـ إلى أن نكتفي بما قصه علينا القرآن من أحداث قصص السابقين، وأن لا نتجاوز القرآن إلى مصادر بشرية ـ مثل الإسرائيليات والأساطير ـ نطلب فيها تفصيلاتٍ لما سكت عنه القرآن.

هناك من يفعلون هذا، ويأخذون من تلك المصادر، رغبة منهم في إشباع الحاجة القصصية لدى السامعين، وتقديم متعة فنية قصصية لهم، بزعْم أن ما يقدمونه لهم هو حسن لأنه يلبي فيهم تلك الحاجة، ويحقق لهم تلك المتعة!!.

إن وصف القصص بالحُسْن، ليس لأنها تتوسع في التفصيلات، وتُكثر من سرد الأحداث، وتحدد الأسماء والأماكن. فقد لا يكون الحديث عن هذه الجوانب حسناً، وذلك إذا استند على المصادر غير الصحيحة.

إن وصف القصص بالحُسن، يتحقق لها إذا اتصفت قبله بصفة الحق والصدق والصواب. فالحَسَن مبني على الحق. فإذا فقدت القصص صفة الحق، فقدت تلقائياً صفة الحسْن.

الإِسرائيليات والأساطير لا حُسْن فيها، لأنها فقدت صفة الحق والصدق والصواب. وقصص القرآن هي القصص الحق، لذلك فهي أحسن القصص.

ولعله لأجل هذا المعنى، وصف القرآن قصصه بأنه أحسن القصص ـ والله أعلم ـ.

❍ الله يقص قصص السابقين:

قص الله ـ سبحانه ـ على رسوله ﷺ قصص السابقين في القرآن، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: ٩٩].

وعقّب على قصص الأقوام السابقين، وما جرى لهم، في سورة الأعراف بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٠١].

كما عقَّب على نفس القصص الوارد في سورة هود، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٢].

وأَنْ يقص الله علينا في القرآن قصص السابقين، فهذا تكرُّمٌ منه سبحانه، وهو مظهر من مظاهر رحمة الله بنا، وفضله علينا، إذ بصَّرنا بما يصلحنا، وأرشدَنا إلى طريق محبته ورضاه، وحذرنا من طريق غضبه وسخطه وعذابه. وذلك من خلال ما قصه علينا من قصص السابقين.

فعلينا أن نَقْبل نعمة الله فيما قصه علينا، وأن نكتفي بما بينه الله لنا، وأن لا نترك ذلك البيان الرباني الصادق الصحيح، إلى افتراضات وادعاءات وروايات، مأخوذة من الأساطير والإسرائيليات.

بماذا نصف الذين يتركون ما قصه الله علينا إلى تلك المصادر البشرية التي نالها من التحريف والتزوير ما نالها؟.

○ فاقصص القصص:

أمر الله رسوله ﷺ بأن يقص القصص على الناس، وبيّن أن هذا قد يدفع السامعين إلى التفكر والاعتبار.

وجاء هذا الأمر صريحاً في آية من سورة الأعراف، وبعدما ذكر القرآن قصة رجل آتاه الله علماً، فتخلى عن ذلك العلم، واستخدمه في الباطل، وأتْبعه الشيطان، وصار يعيش حالة «لُهاثٍ» دائم، كَمَثَل الكلب في لهاثه.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧].

وتعقيب القرآن على قصة هذا الرجل الذي انسلخ عن علم الله، بالأمر للرسول ﷺ بقص القصص، يدل على أهمية القصص عند الناس، وضرورتها لنشر الدعوة، وترسيخ معاني العقيدة، وضرْب النماذج الإنسانية للمعاني التي يدعو إليها الدعاة.

يجب أن يتحول ذكر القصص للمسلمين، من قِبَل الكاتبين والمتحدثين والواعظين، من كونه هدفاً أساسياً، إلى جعله وسيلة ضرورية، لتحقيق هدف إسلامي أصيل. ويجب أن يتحول هدفنا من الحديث عن قصص السابقين، فلا نهدف إلى مجرد «إمتاع أسماع» السامعين، وتقديم روايات وأقاصيص، يطربون منها ويتلذذون بها، ويُشبِعون بها حاستهم الفنية، بل نهدف إلى أن نجعلهم

يتفكرون فيما يسمعون، فيستخرجون منه دروساً في الإِيمان والدعوة والجهاد والثبات.

إن ذكر القصص وسيلة لا بد منها من وسائل الدعوة، وأسلوب ضروري لإِحقاق الحق، ومحاربة الباطل.

إن السامعين يفرقون بين رجلين من المتحدثين: بين رجل يعرض أفكاره ودعوته عليهم من خلال القصص، وبين رجل آخر يعرض الأفكار نظرية مجردة مثالية جافة.

إنهم يتفاعلون مع الأول منهما، ويتأثرون به، ويؤيدونه وينقادون إليه.

علينا نحن الدعاة أن ننفذ أمر الله بقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ وأن نستخدم هذا الأسلوب الرباني الحكيم.

لكننا علينا أن نَحْذَر من الخروج عن القرآن الكريم - والحديث الصحيح - في مادة قصصنا وتفصيلاتها، وأن لا نأخذ في شيء منها عن غير هذين المصدرين اليقينيْن الموثوقَيْن.

○ لعلهم يتفكرون:

أشار القرآن - أثناء حديثه عن القصص - إلى ثلاثة أهداف من ذكره لتلك القصص، ودعانا إلى أن نلتفت إليها، وأن نحققها ونحن نقرأ تلك القصص، ونتدبرها ونتعامل معها.

أما الهدف الأول: فهو قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إن سماع قصص القرآن والوقوف أمامه وتدبره، يقود إلى التفكر. والتفكر عملية عقلية، يُعْمِل بها الإِنسان فكره، ويُشغل عقله فيقف على مواطن العظة والعبرة.

إن القرآن يريد منا أن نتفكر ونتعظ، وإنه يدعونا في آيات كثيرة إلى التفكر والاتعاظ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦].

إن التفكير واجب قرآني، وفريضة إسلامية، وضرورة حياتية.

وإن الذين لا يقومون بهذا الواجب، ويعطلون هذه الفريضة، يهدرون هذه النعمة الربانية التي منحها لهم ربهم سبحانه، ويضيعون هذه الطاقة الهائلة التي وهبها لهم.

التفكير والتعقل والاتعاظ ثمرةٌ من ثمار قراءة قصص السابقين في القرآن، ونتيجةٌ من نتائج سماع قصص القرآن، وهدفٌ رفيع يجب أن يهدف إليه كل من قرأ قصص القرآن، أو سمعه، أو قصه على السامعين.

قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

ويلاحظ أن الآيتين الأخيرتين، أوردهما القرآن، في التعقيب على قصة قوم لوط في سورة الصافات. وهو فيهما يخاطب قريشاً، ويذكِّرهم بأنهم يمرون على قرى قوم لوط أثناء تجارتهم إلى الشام، يمرون عليهم في الصباح وفي المساء. ويذمهم لأنهم لم يُعْملوا عقولهم، ويُديروا أفكارهم، ويُجيلوا نظراتهم، فيما جرى لقوم لوط، فيقودهم هذا إلى الإيمان بالله، وترك كل ما يغضبه، ويكون سبباً في عذابه.

○ ما نثبت به فؤادك:

الهدف الثاني الذي ذكره القرآن هو تثبيت الفؤاد.

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

تثبيت الفؤاد على الحق، واستعلاؤه بالحق على كل قوى الباطل، وإيثاره

لما عند الله، ويقينه بوعد الله، وبقاؤُه مع جنود الله، ومواجهته لأعداء الله، واستمراره على هذا النهج حتى يلقى الله.

كل هذه المعاني يأخذها المؤمن من قصص السابقين وأنباء الرسل.

الآية خطاب لرسول الله ﷺ وردتْ بعد عرض قصص الأنبياء: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام في سورة هود وقد نزلت سورة هود على رسول الله ﷺ في فترة حرجة قاسية، من أحرج الفترات التي مرت بها الدعوة في مكة فاحتاج الرسول ﷺ ـ والمسلمون معه ـ إلى مواساة وأُنس وتثبيت فجاء قصص الأنبياء يحقق هذا الهدف القرآني العظيم.

إن الخطاب في الآية شامل للمسلمين أينما كانوا، وموجَّه لكل مسلم في كل زمان ومكان ـ رغم كونه موجَّهاً أساساً لرسول الله ﷺ، لأن خطاب الرسول خطاب لكل فرد في أمته، ما لم يقم دليل على تخصيص الخطاب به وحده.

كل صحابي وجد في قصص السابقين ما ثبت به فؤاده، وكل مسلم أحسن التعامل مع قصص السابقين في القرآن، وجد عنده ما ثبت به فؤاده.

ومسلمو هذا الزمان أحوج ما يكونون إلى تحقيق هذا الهدف القرآني من قصصه، نحن أحوج ما نكون إلى أن نثبِّت بقصص القرآن أفئدتنا، ونحقِّق الطمأنينة لقلوبنا، ونرسِّخ على طريق الحق مواقعنا، ونثبِّت عليها أقدامنا.

نحن أحوج الناس إلى هذا لكثرة المثبِّطات والمعوِّقات والمغريات التي تميز بها هذا العصر، واشتداد المعركة بين الحق والباطل، وهجمة أهل الباطل الشرسة ضد جنود الحق، وغياب الوجود الإسلامي الواقعي المتمثل في مجتمع وكيان ونظام.

وتخبرنا الآية أنه قد جاءنا في قصص القرآن: الحق، وموعظة، وذكرى للمؤمنين. والمهم هو أن نحسن ملاحظة هذه المعاني فيه.

○ عبرةٌ لأولي الألباب:

والهدف الثالث من قصص القرآن، هو في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

وهذه هي الآية الأخيرة في سورة يوسف، وكأنها تدعونا إلى ملاحظة الهدف من قصة يوسف التي ذكرتْ في السورة كاملة.

وقد مرت بنا من قبل الآية التي بينت منهج القصص القرآني في بداية سورة يوسف وهي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

وعندما ننظر في الآيتين، نقف على لفتة لطيفة:

آية في مطلع قصة يوسف عليه السلام تبين لنا مصدر قصص القرآن، وتصفه بأنه أحسن القصص، وتعرِّفُنا على المنهج القرآني البديع في تلقِّي هذا القصص وأخذه وتدبره والتعامل معه.

وآية في آخر السورة تشير لنا إلى الهدف من إيراد هذا القصص في القرآن، وكأنها تدعونا إلى أن نوجِد فينا هذا الهدف، فلا نجعل القصص هو الهدف بحد ذاته.

آية في بداية القصة تعرِّف على النهج، وآية في نهاية القصة تحدِّد الهدف منها. ويا ليت قومي يعلمون!.

لماذا قصص القرآن عبرة؟.

العِبرة من العُبور، وكأنّ الواحد منا عندما يقف أمام قصصِ السابقين في القرآن، يعْبُر إلى الماضين، كأنه يتخلص من قيد الزمان والمكان، ويتحرر من أسْر الواقع، ويستعلي على النظر القاصر القصير، وينطلق إلى عوالمَ فسيحةٍ من تاريخ الأقدمين، وقصص السابقين فيعايشهم ويراقبهم ويتعظ بهم.

إنها نماذج بشرية مكرورة، تقدمها لنا قصص السابقين في القرآن: نماذج المؤمنين ونماذج الكافرين، نماذج الضعفاء الأذلاء، ونماذج الرجال الصادقين الأقوياء. وإنها قيم دائمة توحي لنا بها قصص السابقين: قيم الحق وقيم الباطل، قيم الفضيلة وقيم الرذيلة.

إنها المعركة مستمرة بين الحق والباطل، وإن التاريخ يعيد الكثير من ميادين هذه المعركة وأساليبها وصورها ومجالاتها. ولا يختلف فيها إلا الأشخاص فقط.

كم يقدمُ لنا قصص القرآن من دروس ودلالات وعبر، ومن قيم وحقائق وسنن، ومن زاد وعدة وسلاح، ومن طمأنينة وثقة وسعادة وثبات.

إن قصص القرآن كنزٌ لا ينفد، ومَعين لا ينضب، في دروسه ودلالاته وعِبَره، في الإِيمان والعقيدة،وفي العمل والدعوة، وفي الجهاد والمواجهة، وفي المنطق والأسلوب، وفي الصبر والثبات، وفي الموازين والحقائق...

وصدق الله ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

إنه لا يستفيد الجميع من قصص السابقين في القرآن، وإن الجميع لا يقدرون على الالتفات إلى دلالات ودروس وعبر تلك القصص.

إن العِبَر فيه خاصة لأولي الألباب، وأصحابِ العقول الواعية، والنظراتِ النافذة، والاهتمامات العملية، والخبرات الدعوية، والجهود الجهادية.

هناك من ينشغل عن هذه الدلالات والعبر والدروس، بمجرد القراءة والتلاوة والاستمتاع.

وهناك من ينشغل عن هذه الدلالات والدروس والعبر، بنظرات لغوية بلاغية فنية بيانية.

وهناك من ينشغل عن هذه الدلالات والدروس والعبر، بالروايات والأساطير والخرافات التي يأخذها من الإِسرائيليات والأقاويل غير الثابتة.

لكنْ لأولي الألباب منهجاً آخر في فهم قصص القرآن، يحققون به هذا الهدف القرآني العظيم، ويستخرجون به ما يجدونه من دلالات ودروس وعبر، ولا يَقْبلون أن ينشغلوا هم - ولا أن يُشْغلوا الآخرين - بأي شيء يحجبهم عن هذه الدلالات والدروس والعبر.

فما هو هذا المنهج الذي يلتزمه أولو الألباب في استخراج الدلالات والدروس والعبر من قصص القرآن؟ تعالوا معنا إلى الفصل التالي، لنتعرف عليه!.



منهج النظر في قصص السابقين

أخطأ بعض الدارسين والكاتبين والمتحدثين من المسلمين في نظرهم في قصص السابقين في القرآن، وخالفوا ـ بحسن نية ـ المنهجَ الصائب الرصين في دراسة تلك القصص، وقدموا للقارئين والمستمعين «رُكاماً» من الأقوال والأخبار والروايات والتفصيلات، لا تعدو أن تكون من الأساطير والأباطيل والموضوعات. أخذوها من مصادر تحريفية باطلة، وهي «الإسرائيليات» وأخبار أهل الكتاب!.

لا بد للناظر البصير من أن يكون له منهج سليم صائب حتى يقف على مواطن العبرة في قصص السابقين، وحتى لا يَخرج إلى «تيه» الخرافات والأساطير والأباطيل، وحتى لا «يُشغل» نفسه، أو يُشغل القارئ أو السامع بما يحجبه عن الالتفات إلى تلك الدروس والدلالات والعبر.

وهذا المنهج يؤخذ من الكتاب والسنة.

في القرآن الكريم إشارات حول النظر في قصص السابقين، وحول منهج البحث العلمي الموضوعي السليم.

وفيما يلي بعض تلك الإشارات والتوجيهات القرآنية:

١ ـ هي من غيب الماضي:

قصص السابقين في القرآن تدخل ضمن «أنباء الغيب» لأن الغيوب في الإسلام ثلاثة أقسام:

١ ـ غيب الماضي: وذلك مثل قصص السابقين، كقصة آدم عليه السلام مع إبليس، وأكله من الشجرة، وإخراجه إلى الأرض، وكقصص قوم نوح وعاد وثمود ومدين، وكقصص بني إسرائيل مع أنبيائهم.

وهي غيب الماضي لأنها أحداث حدثت في الزمان الماضي وانتهت، وأصبحت من الأخبار الماضية. وهي غيب بالنسبة لنا، لأننا لم نشهد أحداثها، ولم نسمعها، ولم نعاصرها.

٢ ـ غيب الحاضر: «مثل «العوالم» الموجودة الآن، والتي لها كيانها وحياتها ووجودها، ولكننا لا نراها ولا نسمعها مثل «عالم الملائكة الأبرار» و«عالم الجن والشياطين». بل إن وجود الله ـ سبحانه ـ يدخل ضمن غيب الحاضر، لأنه موجود ونحن لا نراه في هذه الدنيا.

٣ ـ غيب المستقبل: مثل الآيات والأحاديث الصحيحة، التي تحدثتْ عن أشياء وأحداث ستحدث في مستقبل تاريخ البشرية، كأشراط الساعة مثل: نزول عيسى عليه السلام، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج. كما يدخل ضمن غيب المستقبل «مشاهد القيامة» ابتداء من نفخة البعث، وانتهاء بإدخال المؤمنين الجنة، وإدخال الكافرين النار.

والناظر في أركان الإيمان الستة، يجد أنها كلها من عالم الغيب، وأن الإيمان بها هو إيمان بالغيب، وأن من أوضح وأبرز صفات المؤمنين، هي إيمانهم بالغيب، وأن العقلية الإسلامية «عقلية علمية غيبية»، والعقلية المادية المنكِرة للغيب هي «عقلية مادية جهلية»!.

والقرآن صريح في اعتبار قصص السابقين من عالم الغيب:

ففي سورة هود، وبعدما قص القرآن قصة نبي الله نوح عليه السلام ابتداءً من دعوتِهِ قومَه إلى الله، إلى أن أغرق الله قومه بالطوفان، وأنجاه مع المؤمنين في السفينة، وأهبطه إلى الأرض بسلام ـ عقّب على تفصيلات تلك الأحداث بكونها من أنباء الغيب، التي أوحاها الله إلى رسول الله ﷺ. فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

وفي ختام قصة يوسف، أشار القرآن إلى كونها من أنباء الغيب، وأن الرسول ﷺ ما كان ليعلمها، لو لم يُعْلِمْه الله بها. فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝١٠٢﴾ [يوسف: ١٠٢].

ونفس التعقيب ورد على أحداث قصة مريم رضي الله عنها، منذ أن حملت بها أمها، وكفالة زوج أختها زكريا عليه السلام لها فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

حيث عرفنا من الآية أن العابدين المتنسكين اختصموا وتنافسوا على كفالة مريم، وأن زكريا الذي فاز من بينهم بكفالتها، بعدما ألقوا أقلامهم.

٢ ـ وما كنتَ لديهم:

وبما أنها من غيب الماضي، فقد اختص الله وحده ـ سبحانه ـ بالعلم بها، وبأحداثها وتفصيلاتها.

إن الله وحده هوالذي يعلم الغيب ـ بأنواعه الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل ـ.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

ونفى الله علم الغيب عن أحد من البشر، إلا إذا علَّمه الله ذلك، وأطلعه عليه.

فقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ولقد صرح رسول الله ﷺ بأنه لا يعلم الغيب ـ إلا من خلال ما علَّمه الله ـ وعلَّمه الله أن يقول للناس: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ

كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وبما أن الله وحده هو الذي اختص بالعلم بتفصيلات قصص السابقين، فلا يجوز لأحد الخوض فيها، وادعاء أنه يعلمها، وإذا كان الرسول الكريم ﷺ لم يبيِّن لنا تلك التفصيلات، فمنْ هو المؤهَّل بعده ﷺ لبيان تلك التفصيلات؟ وقد ارتفع الوحي ولم يتصل الله بأحد من الناس بعده، ولم يخبره عن تلك الغيبيات!.

ولقد استوقفني قول القرآن لرسول الله ﷺ، وهو يعرض عليه قصصاً للسابقين: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حيث ينفي عن رسول الله ﷺ علمه بها لو لم يكن نبياً ولو لم يخبره الله بها، كما ينفي عن رسول الله ﷺ كونَه هناك مع السابقين، ووجودَه بينهم وحياته معهم.

صحيح أن الهدف من هذا النفي إثبات الوحي والرسالة، وبيان أن هذه الأخبار إنما هي من عند الله، وأن محمداً ﷺ، لو لم يكن رسولاً لما علم بها.

ولكننا نأخذ من تلك العبارة: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ لفتةً من لفتات القرآن، في إرشادنا إلى منهجنا في دراسة قصص السابقين، والنظر فيها، ومصادرنا في أخذها.

إن هذا النفي نقدمه لكل من خاض في تفصيلات تلك القصص، وأورد الروايات والأقوال والأخبار في ذلك. نقول له: هل كنت لديهم وهم يقومون بما رويتَه أنت عنهم، هل رأيتهم وهم يقولون ويفعلون! هل سمعتهم؟... إنك ما كنت لديهم هناك! إنك ما كنت معهم، فكيف تنسب لهم أشياء أنت لستَ مطلعاً عليها؟.

قد يقول: إنني أروي عن الآخرين، وأنقل عن السابقين، وأرجع إلى المصادر التي نقلتْ عنهم ونسبتْ ذلك لهم!.

فنقول له: هل كان أولئك الذين نقلتَ أنتَ عنهم معهم؟ هل عاشوا بينهم؟ إن الرواة الذين أخذتَ عنهم هم من بني إسرائيل، وهم غير مُؤْتَمَنين

على أحداث السابقين، وإن مصادرك هي إسرائيليات أصابها ما أصابها من تحريف وتبديل!.

٣ ـ لا يعلمهم إلا الله:

أخبرَنا القرآن بأن بعض الأحداث عن قصص السابقين وأشخاصهم، لا يعلمها إلا الله وحده سبحانه. وهذا معناه أنه لا يعلمها أحد من البشر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [إبراهيم: ٩].

فقوْلُ الله في الآية: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ نص صريح في نفي العلم بتلك التفصيلات عن أحد من البشر، وقَصْره على الله وحده سبحانه.

ونأخذ من هذه الإشارة القرآنية بصيرةً قرآنيةً نافذة في النظر إلى التاريخ ودراسته والتعامل معه.

إن التاريخ البشري لحياة البشرية، الذي كتبه البشر وصاغوه وأوردوه، مولودٌ حديثُ العهد، وعى قليلاً من أحداث وتفصيلات ذلك التاريخ، وفاتَه الكثير من تلك الأحداث والتفصيلات. بالإِضافة إلى ما يوجَّه إلى عملية «التأريخ» البشري الصِّرْف ـ الذي لا يصدر عن المصادر الربانية الصادقة ـ من انتقادات صادقة، تشكِّك في صحة المادة التاريخية المروية.

كما نأخذ من هذه الآية، وجودَ ما يسمى باسم «الحَلقات المفقودة» في تاريخ السابقين. وهذه الحلقات التاريخية المفقودة، التي فات التاريخَ البشري تسجيلُها، ولم يتمكن أحد من البشر من العلم بها، يجب أن نَدَعَ العلم بها إلى الله، ويجب أن نتوقف عن الخوض فيها، وأن نتأدب مع كلام الله، وأن نلتزم بما يقدمه لنا، وأن نعترف ـ بعلمية ومنهجية وموضوعية ـ بجهلنا بتلك الحلقات، واستحالة علمنا بها ـ طالما أن الله لم يخبرنا بها ـ.

لا أدري كيف أجاز بعض المتحدثين والكاتبين لأنفسهم مخالفة صريح هذه الآية؟ وظنَّ أن بعض السابقين من أهل الكتاب يمكن أن يعلموا بها.

القرآن يقول: والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله. واليهود يقولون: نحن نعلمهم، ويوردون روايات وتفصيلات في ذلك، فكيف نصدِّق الذين يناقضون صريح القرآن، ويزعمون أنهم يملكون ما نفاه القرآن صريحاً عن أحد من البشر؟.

كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، إذا نُقِل له كلام السابقين من النسابين في تاريخ السابقين يقول: «كذب النسابون».

وكذلك كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يحتج على تكذيب النسابين بهذه الآية، ويقول: كذب النسابون.

وجاء رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أنا أَنْسَبُ الناس. قال له علي رضي الله عنه: أرأيتَ قول الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]؛ فقال الرجل: أنا أنسب ذلك الكثير.

فقال له علي: أرأيت قول الله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسكت الرجل، ولم يُحر جواباً»؟.

٤ ـ ولا تستفت فيهم منهم أحداً:

نهى القرآن نهياً صريحاً عن سؤال أهل الكتاب في أخبار السابقين، وتفصيلات قصصهم، وتحديد أشخاصها وأماكنها وأحداثها.

وقد ورد هذا النهي في أثناء ذكر قصة أصحاب الكهف، والخلاف بين السابقين في عدتهم.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: ٢٢].

لا تستفت فيهم، يعني لا تسأل في شأن أصحاب الكهف، وعدتهم، وأخبارهم.

لاتستفت منهم أحداً، يعني لا تسأل في ذلك أحداً من هؤلاء. فكلمة «منهم» تعود على الآخرين، الذين قد يخوضون في أخبار السابقين وقصصهم، ويوردون تفصيلات لحياتهم، بدون علم، وإنما «رجماً بالغيب». وأبرز الذين تنطبق عليهم كلِمة «منهم» هم أهل الكتاب، هم اليهود والنصارى، لأنهم كانوا «يتعالَمون» على الآخرين، ويُظهرون بأنهم الذين انتهى إليهم العلم بأخبار السابقين.

والنهي في الآية، موجه لكل مسلم، كما هو موجه لرسول الله ﷺ ـ لأن خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام خطاب لأمته ـ إنه موجه لكل مؤلف وكاتب، ينهاه عن الذهاب إلى الإسرائيليات، وأخْذ رواياتها وتفصيلاتها عن قصص السابقين.

كما أنه موجه لكل متحدث ومتكلم وواعظ، ينهاه عن إيراد شيء من تلك الإسرائيليات.

وقد فهم علماء السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، من الآية هذا الفهم، فهموا منها أنها تنهاهم عن الرجُوع إلى أهل الكتاب بشأن قصص السابقين، أو إيراد شيء من أقوالهم بشأنها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما «فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً» يعني: حسبُك ما قصصتُ عليك، فلا تمار فيهم.

وقال قتادة: فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً: حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم.

وقال ابن زيد: ولا تستفت فيهم منهم أحداً: لا تستفت في عدة الفتية من أصحاب الكهف من أهل الكتاب أحداً، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول:

وقال ابن عباس: لا تستفت فيهم منهم أحداً: هم أهل الكتاب.

وقال مجاهد: ولا تستفت فيهم منهم أحداً: من يهود، ولا تسأل يهود

عن أمر أصحاب الكهف، إلا ما قد أخبرتُك من أمرهم[١].

وقال الإمام ابن كثير في تفسير الآية: «ولا تستفت فيهم منهم أحداً: فإنهم لا علم لهم بذلك، إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم، رجماً بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق، الذي لا شك فيه، ولا مرية فيه»[٢].

وقال سيد قطب: «يوجه القرآن الرسول ﷺ إلى تَرْك الجدال في هذه القضية، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم، تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تُبدَّد في غير ما يفيد، وفي ألا يقفوَ المسلم ما ليس له به علم وثيق»[٣].

٥ ـ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم:

آية من كتاب الله تدلنا على المنهج القرآني في البحث والمعرفة، وفي صيانة الطاقة العقلية أن تُبدَّد في غير ما يفيد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال الإمام سيد قطب في تفسير الآية: «إن هذه الآية تقيم منهجاً كاملاً للعقل والقلب، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً، ويضيف إليه استقامة القلب، ومراقبة الله.

فالتثبت من كل خبر، ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة، قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق. ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج، لم يَبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في تفسير الطبري، وبهامشه تفسير القمي ١٥: ١٥٠، ١٥١.
(٢) تفسير ابن كثير ٣: ٧٨.
(٣) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٦٥.

للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم.

ولا تقْفُ ما ليس لك به علم: ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين، وما لم تتثبت من صحته، من قول يُقال، وروايةٍ تُروى، من ظاهرة تفسَّر، أو واقعة تُقلَّل، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية»[١].

وانطلاقاً من هذه الآية، ومن النهي الصريح فيها، ومن الإشارة الواضحة إلى منهج القرآن في البحث والعلم والمعرفة، فإننا لا نأخذ في قصص السابقين شيئاً عن أهل الكتاب مما لم يَرِد عنه كلام في الكتاب والسنة.

نأخذ من الآية دليلاً على عدم الرجوع ـ بشأن قصص السابقين ـ إلى الإسرائيليات. لأن هذه الإسرائيليات مما لا علم فيه، وهي تدخل باب الأساطير والخرافات والافتراضات، ولا يمكن أن يتأكد الباحث من صحتها، ولا يمكن أن يتثبت من صدق رواياتها.

وطالما أنها كذلك، فلا يجوز أن نقفوَها أو نتتبعَها أو نرويَها، لأنها مما ليس لنا به علم.

٦ ـ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٦].

تقدم لنا هذه الآية منهجاً قرآنياً علمياً في تمحيص الأخبار والتثبت منها، إذا كان مصدرها من عند الفاسقين.

إن الفاسقين غير مُؤتمنين، وإن الكذب والتحريف والتزوير، يَرِد على ما ينقلونه من أخبار وأنباء. ولهذا لا بد أن يتطرق الشك وسوء الظن إلى رواياتهم وأخبارهم، ولا بد أن نضع هذه الأخبار والأنباء والروايات على ميزان النقد والتمحيص والتثبت.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٢٧.

كل هذا نفعله بالأخبار والروايات التي تردنا من الفاسقين من المسلمين.

فكيف بالأخبار والروايات التي تردنا من الكافرين؟.

إن اليهود في إسرائيلياتهم يتقنون الكذب والتحريف، ولا يؤتمنون على التاريخ ولا الأخبار ولا الروايات. وكثيرٌ مما يصدر عنهم يحمل طابع الاختلاق والادعاء والتزوير والخرافة، فكيف نأخذ تلك الإسرائيليات والأخبار على ما فيها؟ وكيف نقبلها على عواهنها؟ ونرويها على أنها حقائق ثابتة، ونفسر بها كلام الله الثابت، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفِهِ!.

يجب أن نكون أكثر تحرزاً واحتياطاً وتمحيصاً عند رواية أخبار الكافرين، ولا نأخذ منها إلا ما علِمْنا صِدقَه، ولا يكون هذا إلا لما ورد في الكتاب والسنة فقط.

هاتان الآيتان تقدمان لنا منهجاً قرآنياً فريداً في البحث والعلم والمعرفة، وإشارة هامة في تعاملنا مع قصص السابقين.

آية الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ تمنع رواية الأخبار **إلا** بعد التأكد العلمي منها: تمنع إيراد أي شيء إلا بعد التوثق منه والعلم به.

وآية الحجرات: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ توجب التمحيص والتبيين في كلام الآخرين.

٧ ـ كأنهم لا يعلمون:

اليهود قوم لا علم لهم، وما علمهم إلا أمانيّ وظنون ومزاعم وادعاءات. ولقد قال القرآن عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨].

وهم كاذبون مفترون، يكذبون على الله، ويفترون عليه، فهل يتورَّعون بعد ذلك عن الكذب على الناس والافتراء عليهم؟ هل يتورعون عن الكذب على السابقين؟ هل يتورعون عن الكذب على العلم والتاريخ؟.

بيَّن القرآن افتِراءهم على الله بقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ

فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران: ١٨١ ـ ١٨٣].

وهم مفترون على الأنبياء والصالحين والصالحات. ينشرون عنهم الأكاذيب والأباطيل، وينسبون لهم النقائص والرذائل. ماذا قالوا عن الصِّدِّيقة مريم البتول أم عيسى عليه السلام؟ قال القرآن عنهم: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧].

وهم يحسدون المؤمنين، ويريدون ـ بودّ ورغبة ولهفة وتصميم ـ أن يردوا المسلمين عن دينهم، فكيف نأخذ أقوالهم ورواياتهم الممزوجة بهذه الرغبة، والتي تحقق لهم تلك الغاية؟ قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وهم يكتمون الحق، وينشرون الباطل والكذب، ليُغْروا ويَخْدعوا الآخرين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

وهم يكتمون الحق وهم يعلمون. كما قال الله عنهم: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وهم لهذه الرذائل والجرائم لا علم عندهم، لأن العلم الصحيح ينفع صاحبه ويُسْعده ويصلحه، ويجعله مع الحق وأهله، فإذا لم يوصل العلم صاحبه إلى هذا، فكأنه غير موجود.

إن تصرفات اليهود كتصرفات الذين لا يعلمون، وإن أخلاقهم وأقوالهم مثل الذين لا يعلمون، وإن القرآن يقرر أنهم لو كانوا يعلمون لماقاموا بتلك الرذائل والانحرافات، ولذلك صاروا بتلك الأفعال والأقوال كأنهم لا يعلمون.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٣].

وهذه نظرة على الجُمل التي تحدثت عن علم اليهود في هذه الطائفة من الآيات:

١ ـ علمهم قادهم إلى أن ينبذوا ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢ ـ علمهم جعلهم مع الشياطين الذين ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

٣ ـ علمهم جعلهم ﴿يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

٤ ـ هم فعلوا كل ذلك مع أنهم قد ﴿عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

ونتيجة لهذه الجرائم يقرر القرآن أنهم لو كانوا يعلمون لما قاموا بها، إذن هم لا يعلمون:

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

العلم الصحيح النافع هو ذلك الذي يقود للإيمان ويحقق التقوى، فإذا لم يثمر العلم هذه الثمرة فكأنه غير موجود.

وبما أن علم اليهود لم يوصلهم إلى هذه النتيجة الصالحة النافعة، فكأنه غير موجود، بل إن علم اليهود قادهم إلى نتيجة عكسية، قادهم إلى رذائل ومفاسد وانحرافات وأباطيل وأكاذيب.

اليهود قوم لا يعلمون إِلَّا أمانيّ وظنوناً وأوهاماً، وهم يكونون مع الذين لا يعلمون، ويتصرفون كأنهم لايعلمون، وما كانوا ليفعلوا ذلك لو كانوا يعلمون!.

هذا ما يقرره القرآن عن علمهم. فكيف نثق بما عندهم؟ وكيف نزعم أنهم يعلمون؟ وكيف نفسر بتلك الأباطيل والأكاذيب كلامَ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

○ حكم رواية الإسرائيليات:

اختلف المسلمون في حكم رواية الإِسرائيليات:

فمنهم من منع روايتها مطلقاً، واستند في هذا على آيات صريحة وأحاديث صحيحة، ولاحظَ منهج الإِسلام في البحث والعلم والمعرفة، ووجَّه ما واجهه من أحاديث وأقوال قد تدل على جواز الرواية.

ومنهم من أجاز روايتها مطلقاً، وفتح الباب على مصراعيه، وسوَّد بها صفحات من كتب التفسير والتاريخ والقصص، وفسر بها كلام الله الحكيم.

ومنهم من وضع شروطاً لروايتها، ولم يأخذ إلا أنواعاً معينة منها، وفي مجالات محدودة.

وليس هذا مجال التوسع في عرض أدلة هذه الآراء ومناقشتها. فلعلنا نعود إليها في رسالة قادمة، عند حديثنا عن «مبهمات القرآن بين التبيين والإِبهام» بعون الله.

إننا نتابع المحققين من العلماء في موقفهم من الإِسرائيليات، ونظرتهم

إليها، ونرجِّح أنه لا يجوز إيراد شيء من هذه الإسرائيليات وروايته على سبيل القول والاحتجاج، أو على سبيل الاستشهاد والاستئناس. فإذا أردنا أن نروي منها شيئاً، فمن أجل التنبيه والتحذير والتعليم والإرشاد.

وسوف نورد الأدلة لهذا الرأي بعد حديثنا عن تقسيم العلماء للإسرائيليات.

○ أقسام الإسرائيليات:

أمامي رسالة قيمة لطيفة بعنوان: «الإسرائيليات في التفسير والحديث» للمرحوم الشهيد الدكتور محمد حسين الذهبي. يتحدث فيها عن أقسام الإسرائيليات وحكم روايتها، وأدلة المانعين وأدلة المجيزين.

وسوف أنقل من تلك الرسالة خلاصة أقسام الإسرائيليات:

«للإسرائيليات تقسيمات ثلاثة باعتبارات ثلاثة:

١ ـ أقسامها باعتبار الصحة وعدمها.

٢ ـ أقسامها باعتبار موافقة ديننا أو مخالفته.

٣ ـ أقسامها باعتبار موضوعها.

١ ـ فهي من حيث الصحة وعدمها تنقسم إلى قسمين:

(أ) صحيح، مثل ما جاء مصدِّقاً لما في القرآن من كلام عن صفات النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

وقد وردت هذه الصفات في التوراة، وصرح بذلك المطَّلعون على التوراة. فقد روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل. والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكِّل، ليس بفظّ، ولا

غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله. ويفتح الله به قلوباً غُلْفاً، وآذاناً صُمّاً، وأعيناً عُمياً.

قال عطاء: ثم لقيتُ كعباً ـ كعب الأحبار ـ فسألتُه عن ذلك، فما اختلف حرفاً»[1].

(ب) **موضوع**: مثل خرافة جبل «ق» المحيط بالسموات والأرض، كما زعم الكاذبون.

٢ ـ **الاعتبار الثاني للإسرائيليات من حيث موافقتُها لديننا أو مخالفتها له.** حيث تنقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام:

(أ) **ما ورد منها موافقاً لما في ديننا**. ومثاله ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خُبْزَة واحدة، يتكَفَّؤُها الجبارُ بيده، كما يَكْفَأُ أحدكم خبزته في السفر، نُزُلاً لأهل الجنة.

فأتى رجلٌ من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنُزُل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خُبزةً واحدة ـ كما قال النبي ﷺ ـ فنظر النبي ﷺ إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: بالامٌ ونون. قالوا: ما هذا؟ قال: ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً»[2].

(ب) **ما جاء مخالفاً لما في شريعتنا**. ومثاله: ما نسبه اليهود إلى النبي هارون عليه السلام ـ في سِفْر الخروج ـ من أنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل، ودعاهم إلى عبادته. وما نَسبه سفر التكوين إلى الله سبحانه، من أنه لما خلق السموات والأرض في ستة أيام، تعب ﷻ فاستراح في اليوم السابع، الذي هو يوم السبت.

(هـ) **القسم الثالث**: وهو ما سكت عنه شرعنا، وليس فيه ما يؤيده أو

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، رقم ٦٥، باب ﴿أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ رقم ٣، حديث رقم ٤٨٣٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق رقم ٨١، باب: يقبض الله الأرض رقم ٤٤، حديث رقم ٦٥٢٠.

يفنده. ومثاله: ما رُوي من الإسرائيليات حول تفصيلات قصة بقرة بني إسرائيل، من قتْل الرجل لعمه، ثم مطالبته آخرين بدمه، وذبْح البقرة، وإحياء القتيل بها، وإخباره عن قاتله.

٣ ـ الاعتبار الثالث: من حيث موضوعُها. حيث تنقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام أيضاً:

(أ) **القسم الأول: ما يتعلق بالعقائد**. ومثاله ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: جاء حَبْر من أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأَرَضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك.

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحَبر. ثم قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧][1].

(ب) **القسم الثاني: ما يتعلق بالأحكام**. ومثاله: ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو ﵄: أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ، برجل منهم وامرأة قد زنيا. فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنا منكم؟ قالوا: نُحَمِّمُهُما [أي نسوِّد وجهيهما] ونضربهما. فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ قالوا: لا نجد فيها شيئاً.

فقال عبد الله بن سلام: كذبتم. فأْتوا بالتوراة فاتْلوها إن كنتم صادقين.

فوضع مِدْراسها ـ الذي يدْرسها منهم ـ كفه على آية الرجم. فطفق يقرأ ما دون يده، وما وراءها، ولا يقرأ آية الرجم. فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير: ٦٥، باب قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ رقم ٢، حديث رقم ٤٨١١.

هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم.

فأَمَر بهما، فرُجِما، قريباً من حيث موضِع الجنائز عند المسجد.

قال ابن عمرو: فرأيت صاحبها يَجْنَأ عليها [أي ينحني عليها] يقيها الحجارة»[1].

(ج) القسم الثالث: ما يتعلق بالمواعظ والرقائق والقصص والتاريخ: ومثاله ما روته الإسرائيليات عن تفصيلات صنع سفينة نوحٍ عليه السلام، وخشبها وطولها وعرضها، وما جرى فيها من أحداث»[2].

وعندما ننظر في أقسام الإسرائيليات باعتباراتها الثلاثة، فإننا نستخلص منها ما يلي:

١ ـ إننا لا نجزم بصحة شيء منها، إلا إذا ورد في الكتاب والسنة ما يوافقه، وإنما جزمنا بصحته لأنه ورد عندنا، وليس لأنه من قبيل «الإسرائيليات».

٢ ـ إن هذا الصحيح في مصادرنا الصحيحة، والموافقَ لشريعتنا، لا يبقى من الإسرائيليات، وإنما يأخذ طابع وصفة أحكامنا، فيكون من إسلامنا وثقافتنا وديننا.

٣ ـ إن المُعارض لدينا المخالف لشريعتنا، لا تجوز روايته، إلا من باب التحذير منه، وبيان كذبه وزيفه، علماً بأن بعض السابقين من المسلمين كان يورده على سبيل القبول والرضى.

٤ ـ إن الموضوع والضعيف من الإسرائيليات ليس من باب العلم، لأنه لم يحْدث ولم يقع، وإيراده في قصص السابقين، وتفسيرُ آيات القرآن به، من باب تفسير القرآن بالمكذوب والموضوع! ومن قال بجواز هذا؟.

---

(١) رواه البخاري: في كتاب التفسير، رقم ٦٥. باب قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ رقم ٦، حديث رقم ٤٥٥٦.

(٢) الإسرائيليات في التفسير والحديث، للدكتور محمد حسين الذهبي: ٤٧ ـ ٥٤ بتصرف واختصار.

٥ ـ إن المسكوت عنه عندنا، والذي لا يتعارض معه، والذي لا يتعلق بالعقائد ولا بالأحكام عندنا ـ وهو ما أجاز المجيزون من العلماء روايته على سبيل الاستشهاد والتذكير ـ لا نجيز ذكرَه وروايته إلا من قبيل التحذير ـ تبعاً للمحققين من العلماء ـ لكونه يتعارض مع منهج القرآن في البحث والعلم والمعرفة، الذي أشرنا إليه.

○ أدلة منع رواية الإسرائيليات:

١ ـ تحريف اليهود للكلم عن مواضعه، مما جعلهم غير أمناء على التاريخ. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

٢ ـ اليهود كاذبون مفترون فيما يوردونه من أقوال وأخبار: قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

٣ ـ اليهود يودون فتنة المسلمين عن دينهم، ويحققون هذا عن طريق إسرائيلياتهم. قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٤ ـ اليهود يكتمون الحق وهم يعلمون، ويحرفونه إلى الباطل وهم يعلمون، وما إسرائيلياتُهم إلا مظهر من مظاهر الكتمان والتحريف. قال تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

٥ ـ علمُ اليهود مجرد أماني وظنونٍ وأوهام. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨].

٦ ـ اليهود يتركون الحق عامدين، ويتبعون الباطل قاصدين، وإسرائيلياتهم

يتوفر فيها هذا المنكر. كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢].

٧ ـ اليهود قوم لا يعلمون، ولا يفقهون، ويتصرفون كأنهم يعلمون، ولو كانوا يعلمون لما نشروا الأباطيل والأكاذيب. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٢، ١٠٣].

٨ ـ إن قصص السابقين هي من غيب الماضي، وعلمُ غيب الماضي اختص به الله وحده، واليهود لم يكونوا مشاهدين أحداث الذين سبقوهم، حيث يقول الله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

٩ ـ إن القرآن عَلَّم المسلمين كيفية جدال اليهود، ونقْض شبهاتهم وإشاعاتهم وإسرائيلياتهم بأن يقولوا لهم: أأنتم أعلم أم الله؟.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٩، ١٤٠].

١٠ ـ وجود حلقات مفقودة في تاريخ السابقين: نفى الله علم أحد بها، واختص هو وحده سبحانه بالعلم بها، فالإسرائيليات عندما تدّعي علمَها تخالف صريح القرآن مخالفة صريحة، المتمثل بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

١١ ـ نهيُ القرآن الصريح لنا عن سؤال أهل الكتاب بشأن أخبار الماضين، واستفتائهم في قصص السابقين. ذلك النهي المتمثل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

١٢ ـ نهيُ القرآن الصريح للمسلمين عن القول بدون علم، والإسرائيليات

من القول بدون علم، وأصحابُها يتبعون ما ليس لهم به علم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

١٣ ـ إيجابُ القرآن علينا أن نتثبت عند سماع أخبار الفاسقين، وأن لا نقبل أخبار وروايات الفاسقين، والكافرين، إلا بعد عرضها على ميزان النقد الصحيح، فنأخذ ما سلم لنا منها، وما رجَّحنا صحته وصوابه، ونترك ما عداه. وهكذا يجب أن نفعل بالإسرائيليات. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

١٤ ـ نهيُ رسول الله ﷺ الصريح عن أخذ شيء من اليهود. حيث روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا»[1].

١٥ ـ إنكار رسول الله ﷺ على عمر بن الخطاب عندما رأى معه صحيفة من أهل الكتاب. حيث روى أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب عليه الصلاة والسلام، وقال: أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟ [والمتهوِّك: الشاك المتحير] والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أوبباطل فتصدقوا به. والذي نفسي بيده، لو أن موسى ﷺ كان حياً، ما وسعه إلا أن يتبعني»[2].

١٦ ـ إنكار الصحابة على من يذهب إلى بني إسرائيل، ويأخذ منهم الإسرائيليات.

ومثاله: ما رواه البخاري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، رقم ٦٥، باب: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، رقم ١١، حديث رقم ٤٤٨٥.

(٢) فتح الباري بشرح البخاري، لابن حجر ١٣ : ٣٣٤.

ابن عباس ﷺ قال: «يا معشر المسلمين: كيف تسألون أهل الكتاب؟ وكتابكم الذي أنزله الله على نبيه ﷺ، أحدثُ الأخبار بالله، تقرؤونه لم يُشَبْ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أُنزل إليكم»[1].

١٧ ـ ومن ذلك ما قاله عبد الله بن مسعود ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب، فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، فتكذِّبوا بحق، أو تصدِّقوا بباطل»[2].

○ معنى: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»:

واستكمالاً منا للحديث عن حكم رواية الإسرائيليات، نتحدث عن ما استند إليه الذين جوَّزوا الحديث عنهم.

إن أهمَّ أدلتهم وأشهرَها هو حديث لرسول الله ﷺ:

روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: «بلِّغوا عني ولو آية. وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3].

وجه الدلالة من الحديث ـ عندهم ـ أنه أجاز للمسلمين الحديث عن بني إسرائيل، ورَفَع الحرج عمن فعل ذلك. فصاروا يملأون كتبهم بالروايات والأخبار والقصص والخرافات الإسرائيلية.

وقبل أن نقدم فهمنا لمعنى الحديث، ننظر في شرح الإمام ابن حجر له.

---

(١) البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة: ٩٦، باب قول النبي ﷺ: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء: ٢٥، حديث رقم ٧٣٦٣.

(٢) فتح الباري بشرح البخاري ١٣: ٣٣٤.

(٣) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: ٦٠، باب ما ذكر عن بني إسرائيل: ٥، حديث رقم ٣٤٦١.

ما معنى «حدّثوا عن بني إسرائيل»؟ أورد ابن حجر في هذا عدة أقوال:

١ ـ قيل المراد ببني إسرائيل في الحديث، هم أولاد إسرائيل نفسه ـ يعقوب عليه السلام ـ والمراد: حدِّثوا عنهم بقصتهم مع أخيهم يوسف عليه السلام. وهذا أبعد الأوجه!.

٢ ـ وقال مالك رحمه الله: المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمرٍ حسن، أما ما عُلم كذبه فلا.

٣ ـ وقيل: المعنى حدثوا عنهم بمثل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح.

٤ ـ وقيل: المعنى، جواز التحدث بأي صورة وقعت، من انقطاع أوبلاغ، لتعذر الاتصال في التحدث عنهم، بخلاف الأحكام الإِسلامية، فإن الأصل في التحدث بها الاتصال.

٥ ـ قال الإِمام الشافعي: من المعلوم أن رسول الله ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب. فالمعنى: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تُجوِّزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم.

أما معنى نفي الحرج في التحدث عنهم، فقد ذكر ابن حجر فيه عدة أقوال أيضاً:

١ ـ لا ضيق عليكم في الحديث عنهم. لأنه كان قد تقدم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم. ثم حصل التوسع في ذلك، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الشرعية والقواعد الدينية خشية الفتنة. ثم لمَّا زال المحذور وقع الإِذن في ذلك، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار.

٢ ـ وقيل معناه: لا تَضِقْ صدوركم، بما تسمعونه عنهم من الأعاجيب، فإن ذلك وقع لهم كثيراً.

٣ ـ وقيل: لا حرج في أن لا تحدثوا عنهم. لأن قوله أولاً «حدثوا» صيغة أمر تقتضي الوجوب، فأشار إلى عدم الوجوب، وأن الأمر فيه للإِباحة بقوله: «ولا حرج». أي في ترك التحديث عنهم.

٤ ـ وقيل: المراد رفع الحرج عن حاكي ذلك، لما في أخبارهم من الألفاظ الشنيعة، نحو قولهم: اذهب أنت وربك فقاتلا. وقولهم: اجعل لنا إلهاً[١].

لكن هل يفهم من «حدثوا عن بني إسرائيل» الرجوع إليهم، ونقل رواياتهم وأخبارهم، وإيرادها في كتبنا الإسلامية في التفسير والأخبار والقصص والتاريخ؟.

هناك فرق بين قولك: رويتُ عن فلان» وقولك: «حدثتُ عن فلان».

عندما تقول: «رويت عن فلان» فإن معناه أنك نقلتَ كلامه للآخرين. فأنت راويةٌ لكلامه، ولهذا كان المحدِّثون يروون عن أشياخهم بقولهم: حدثنا فلان عن فلان.

أما عندما تقول: «حدثت عن فلان»، فإنه يحتمل معنيين:

الأول: الرواية عنه، بنقل كلامه للآخرين.

الثاني: الإخبار عنه، بمعنى أنك أخبرت الآخرين بما جرى له من أمور، وتحدثتَ للآخرين عن قصته وحياته.

فقول رسول الله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل» يحتمل المعنيين.

إنه يحتمل معنى: ارووا كلام بني إسرائيل، وانقلوه في كتبكم، وهذا ما فهمه بعض السابقين، نقلوا من الإسرائيليات في كتبهم، وعرضوها على أمتهم.

كما يحتمل المعنى الثاني: وهو أنْ تتحدثوا عن قصة بني إسرائيل، وأن تعرضوا على أمتكم ما جرى لهم في تاريخهم، ليَحذروا السير في طريقهم، مما جرى لهم!.

وأنا أميل إلى ترجيح هذا الاحتمال لورود نصوص تنهانا عن الأخذِ عنهم، وروايةِ كلامهم وأخبارهم.

---

(١) فتح الباري ٦: ٤٩٨، ٤٩٩ باختصار.

حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج: معناه: أَخبِروا المسلمين بما جرى لبني إسرائيل، وأطْلِعوهم على تاريخهم، وبيِّنوا لهم انحرافاتهم، واكشِفوا لهم مخازيهم ومؤامراتهم. لأن تاريخهم حافل بالمخازي والرذائل ـ باستثناء أنبيائهم وصالحيهم ـ وإن قصصهم مليئةٌ بانحرافاتهم وضلالاتهم. ولقد تكفل القرآن بالحديث عنهم وكشْف رذائلهم ومخازيهم.

فالرسول ﷺ يطالب المسلمين بالاطلاع على قصة اليهود، ودراسة تاريخهم، والوقوف على طبيعتهم ونفسيتهم وحقيقتهم، وتقديم هذا للآخرين بعلمية ومنهجية قرآنية، وأن لا يتحرجوا من هذا، وأن لا يظنوا أنهم بذلك يُغضبون الله، أو يعادون المؤمنين، بشرط أن يُنزهوا أنبياءهم وصالحيهم عن الانحرافات والمخازي.

ولو أن الذين أباحوا لأنفسهم الخوض في الإسرائيليات، وتقديمها للمسلمين، وتشويه أفكارهم بها، لو فهموا من الحديث هذا الفهم لقدموا للمسلمين النفع والفائدة، ولوظفوا الإسرائيليات توظيفاً إيجابياً في تحصين الأمة المسلمة فكرياً وثقافياً وعلمياً، وفي تميُّزها بإيمانها وأخلاقها وتاريخها وثقافتها.

ولو أن السادة المفسرين فهموا من الحديث هذا الفهم، لنزهوا كلام الله من أن يفسروه بالخرافات والأباطيل الإسرائيلية، ولما سوَّدوا صفحات كثيرة من تفاسيرهم بهذا الهراء والركام الإسرائيلي.

يا ليتنا نقدم للمسلمين التاريخ اليهودي بصدق وأمانة، ويا ليتنا نحلل نفسيتهم وندرس شخصيتهم بعلمية ومنهجية، ليحذورا السير على طريق اليهود، وليستخدموا هذا في توضيح حقيقة اليهود للأمم الأخرى، ليكون أداةً من أدوات الحرب الطويلة وسلاحاً من أسلحة المعركة العنيفة بيننا وبينهم[١].

---

(١) حاولت أن أقوم ببعض الواجب علي في ذلك في كتابي: «الشخصية اليهودية من خلال القرآن» و«مع قصص السابقين في القرآن» ـ وهو هذا الكتاب ـ.

إننا نردد مع الإمام أحمد شاكر قوله في كتابه «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير»:

«إنّ إباحة التحدث عنهم، فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء، وذِكْرَ ذلك في تفسير القرآن، وجعْلَه قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعيَّن فيها، أو في تفصيل ما أُجمل منها، شيءٌ آخر.

لأن في إثبات ذلك بجوار كلام الله، ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه، مبيِّن لمعنى كلام الله سبحانه، ومفصِّل لما أُجمل فيه. وحاشا لله ولكتابه من ذلك.

وإن رسول الله ﷺ - إذْ أَذِن بالتحدث عنهم - أَمَرَنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم. فأيُّ تصديق لرواياتهم وأقاويلهم، أقوى من أن نقرنَها بكتاب الله ونضعَها معه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غَفراً!»[1].

ونحن مع المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي في تعليقه على ذلك الرأي: «وأنا أميل إلى هذا الرأي، حماية لكتاب الله ﷻ عن لغو الحديث، وصوناً عن الفضول، والتَّزيُّد بما لا طائل تحته، ولا خير فيه»[2].

* * *

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لأحمد شاكر ١: ١٥.

(٢) الإسرائيليات في التفسير والحديث، للمرحوم الذهبي: ٢٠٣.



قِصَّة بَقرة بَني إِسْرائيلَ

○ القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

[البقرة: ٦٧ ـ ٧٤].

○ موجز القصة من خلال الآيات:

وقعت جريمة قتل في بني إسرائيل، زمن موسى عليه السلام، ولم يُعرف القاتل، وتدافعوا في القتل، بحيث صار بعضهم يتهم الآخر بأنه هو القاتل. ورفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام، ليحكم بينهم.

وأراد الله أن يكشف لهم القاتل، بواسطة معجزة مادية محسوسة. فأوحى إلى موسى عليه السلام أن يأمرهم بذبح بقرة! أية بقرة كانت، بدون تحديد

لمواصفاتها. ولو أخذوا أية بقرة وذبحوها لنفذوا الأمر وقاموا بالواجب!.

ولكن طبيعة اليهود في الجدال والتلكؤ في التنفيذ تأبى ذلك:

فسألوا موسى عليه السلام عن عمر البقرة، فقال: إنها ليست صغيرة ولا كبيرة، بل متوسطة العمر.

ثم سألوه عن لونها، فقال: صفراء فاقعة تسر الناظرين.

ثم سألوه عن عملها، فقال: إنها معززة عند أهلها، لا تعمل في الحرث ولا في السقي.

وأخيراً: ذبحوها. وما كادوا يفعلون!.

ثم أمرهم موسى عليه السلام أن يضربوا جسد القتيل الميت بجزء من البقرة المذبوحة، ففعلوا، فأحيا الله القتيل، ودبت فيه الروح، وأخبر عن قاتله، وقال: قتلني فلان.

ثم مات. وسط دهشة بني إسرائيل، واستغرابهم مما يشاهدون.

○ إسرائيليات حول القصة:

قال الإِخباريون الذين ينقلون عن الإِسرائيليات:

كان شاب في بني إسرائيل، وكان له عم غني له مال كثير، وكانت له ابنة جميلة، وكان ابن أخيه ينتظر موته بلهفة، ليتزوج ابنته ويرث ماله. ولكنه امتد بذلك الرجل العمر. فتعجل الشاب موت عمه، فعمد إليه فقتله! وحتى تضيع الجريمة، ولا يتهمه أحد بقتله، ألقى جثته أمام أحد بيوتهم! وقعد على باب البيت يبكي، ويتهم أصحاب البيت بقتلهم لعمه، ويطالبهم بديته. فأقسموا أنهم ما قتلوه.

ولما رفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام، أمرهم بذبح بقرة! فتعجبوا من هذا الأمر، وظنوا أنه لا صلة له بالقضية التي تُشغلهم، فاعترضوا على موسى عليه السلام، فأكد لهم الطلب. فسألوه عن عمرها وعن لونها وعن عملها، وأجابهم على ذلك، فضيقوا على أنفسهم.

أخذوا تلك المواصفات من موسى عليه السلام، وراحوا يبحثون عن بقرة تتصف بها.

بحثوا عند بني إسرائيل، فلم يجدوا إلا بقرة واحدة فقط تتصف بها، وكان لتلك البقرة قصة أخرى ـ إسرائيلية طبعاً ـ.

كانت تلك البقرة لشاب يتيم فقير. كان باراً بأبيه الذي مات، وباراً بأمه التي ما زالت تعيش.

فساوموه على بيعها لهم، فساومهم، وبقي يساومهم، ويرفع سعرها تدريجياً، وهم يراجعونه ويساومونه: رفع سعرها من مائة دينار. ثم إلى مائتين. ثم إلى أربعمائة. ثم إلى ثمانمائة. ثم طلب منهم أن يضعوها في الميزان، وأن يدفعوا له ثمنها ما يساوي وزنها ذهباً! فاضطروا إلى الموافقة لعدم وجود بقرة غيرها. ودفعوا للشاب ما طلبه، فصار من كبار الأغنياء لبرِّه بوالديه.

أخذوا البقرة وذبحوها، ثم أخذوا جزءاً منها ـ وقد اختلف رواة الإسرائيليات اختلافاً كبيراً في تحديد ذلك الجزء: أهو يدها أم رجلها أم فخذها أم رأسها أم...؟ ـ وضربوا به جسد القتيل.

أحيا الله القتيل، وتكلم لهم قائلاً: لقد قتلني فلان ابن أخي. ثم مات.

فحُرِم الشاب القاتل من ميراث عمه، عقوبة له على جريمته ومنذ ذلك اليوم لم يُوَرَّث قاتل من ميراث المقتول[1].

هذه الروايات الإسرائيلية، منها ما ذكرته آيات القصة في سورة البقرة، فنأخذه ونلتزمه ونقول به. ومنها ما سكتت عنه الآيات. فنحن نسكت عنه ولا نقول به، ولا نجيز لأنفسنا ولا لغيرنا الذهاب إلى الأباطيل والأساطير والإسرائيليات، فنفسر بها كلام الله سبحانه.

○ الكلمات الغريبة فيها:

١ ـ أتتخذنا هزوا: أتتخذنا سخرية.

---

(١) انظر هذه الروايات في الدر المنثور ١: ١٨٦ ـ ١٩٧.

٢ ـ لا فارض ولا بكر: لا عجوز مسنَّة، ولا صغيرة فتية.

٣ ـ عوان بين ذلك: وسط في العمر بين العمرين.

٤ ـ فاقع لونها: أصفر شديد الصفرة.

٥ ـ لا ذلول: ليست هينة سهلة الانقياد.

٦ ـ تثير الأرض: تقلب الأرض للزراعة.

٧ ـ تسقي الحرث: تسقي الزرع.

٨ ـ مسلَّمة: سالمة من العيوب.

٩ ـ لا شية فيها: لا علامة لها، ولا لون غير اللون الأصفر.

١٠ ـ ادَّارأتم فيها: تدافعتم وتخاصمتم في القاتل للنفس.

○ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة:

طلب موسى عليه السلام من قومه أن يذبحوا بقرة:

«إن الله يأمركم» إنه أمر الله سبحانه، وليس أمره هو. وأمر الله يجب أن يقابَل بالقبول والتسليم والتنفيذ.

وكأن موسى عليه السلام يعلم طبيعة قومه، وتأخرهم في التنفيذ، وتحايلهم في الأوامر، وهو يريد لهم أن يسارعوا في التنفيذ، ولهذا أسند الأمر إلى الله. فلو أسنده إلى نفسه لربما ناقشوه ورفضوا أمره ـ مع أن الالتزام بأمر الرسول ﷺ واجب، لأنه لا يأمر بشيء من عنده بل بأمر الله، فطاعته هي طاعة لله ـ.

وأخبرهم بأن أمر الله واضح محدد مفهوم: أن تذبحوا بقرة.

بقرة: بهذا التنكير المقصود. فالتنكير يفيد العموم. اذبحوا بقرة. أية بقرة كانت. لا يهم لونها ولا حجمها ولا عمرها ولا عملها ولا ثمنها. بقرة. أية بقرة من بين البقر.

ولا يمكن أن يشتبه الأمر على من يريد أن يلتزم به وينفذه، لوضوح العبارة!.

○ قالوا: أتتخذنا هزواً:

لم ينفذ اليهود الأمر فوراً، ولم يطيعوا الله ورسوله، وأنّى لهم أن يفعلوا ذلك؟ إنهم لا يملكون القلوب المنفّذة!.

إنهم بدل أن يوقّروا نبيهم وينفذوا أمره، تَوقَّحوا عليه، وأساؤوا الأدب معه، واعترضوا عليه قائلين: أتتخذنا هزواً؟.

أتسخر منا وتستهزئ بنا عندما تطلب منا هذا الطلب؟ وما هي الصلة بين ذبح البقرة وبين الكشف عن هوية القاتل؟ نحن جئناك في حل قضيتنا، نريد أن نعرف القاتل، وبما أنك نبي تعلم الغيب بإذن الله، فعليك أن تخبرنا عن القاتل، إنك تطلب منا ذبح بقرة، بدل أن تكشف عن القاتل. وهذا طلب غريب، يدل على أنك تتخذنا هزواً!.

وهذا الاعتراض منهم يكشف عن طبيعة اليهود وصِلَتهم بأنبيائهم وموقفهم من أوامر ربهم:

١ ـ إنهم يعتبرون أمر الله نوعاً من الهزء والسخرية.

٢ ـ إنهم يظنون أن موسى بهذا الطلب يريد أن يشغلهم عن قضيتهم الأساسية.

٣ ـ إنهم يظنون أن نبيهم الجاد، يستهزئ ويلعب ويسخر ويلهو من خلال الأوامر التي يوجهها لهم!.

وهذا يذكرنا بمقالة قوم إبراهيم عليه السلام، عندما طلب منهم أن يعبدوا الله وحده وأن يتركوا عبادة الأصنام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦].

قوم إبراهيم الكفار اعترضوا عليه قائلين: أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟.

وقوم موسى الذين يزعمون الإيمان به، اعترضوا عليه قائلين: أتتخذنا هزواً؟

ما هو الفرق بين الاعتراضيْن؟ لا نكاد نرى فرقاً!.

رغم اختلاف القائلين: فقوم إبراهيم عليه السلام كفار عابدون للأصنام. وقوم موسى عليه السلام مؤمنون به. لكن بماذا تصف قوماً مؤمنين بنبيهم، يمكن أن يخطر ببالهم أن هذا النبي الذي يؤمنون به ويتبعونه، يمكن أن يكون ساخراً مستهزئاً بهم؟.

○ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين!.

رد موسى عليه السلام على اعتراض قومه، بأن نفى عن نفسه الهزء والسخرية، عندما نفى عن نفسه الجهل «قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين».

وهذا يدل على أن السخرية والاستهزاء جهل، وبخاصة إذا كانت في الموضوعات الدينية والأحكام الشرعية.

جاهلون: أولئك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، والذين جعلوا كل شيء لهواً ولعباً، حتى دينهم وإسلامهم وأحكامهم.

جاهلون: أولئك الذين لا يحلو لهم إلا أن «ينكِّتوا» على القيم الدينية، والتعاليم الشرعية، والتوجيهات الإسلامية.

جاهلون: أولئك الذين حوّلوا حياتهم وحياة الآخرين إلى ضحك دائم، وتنكيت متواصل، وكوميديا مستمرة.

إن المسلم الصادق جادٌّ ملتزمٌ. قد يمزح ولكنه لا يقول إلا حقاً. وقد يضحك ولكن بأدب ووقار. أما أن يحوّل حياته إلى سخرية وهزء ولعب ولهو، فهذا ما يتعارض مع رسالته وهدفه في الحياة، ولا يرضى هذا المسلم الجاد أن يكون من الجاهلين!.

○ قالوا: ادع لنا ربك:

تتضمن هذه العبارة وقاحة أخرى من وقاحات اليهود، وسوء أدبهم في مخاطبة نبيهم، وفي حديثهم عن الله رب العالمين.

ادع لنا ربك... ربك، حيث أضافوا الرب إليه هو، ولم يضيفوه إليهم. وفرق بعيد بين قول: «ربك» وبين قول «ربنا».

كأنه ربك أنت، وليس ربنا نحن. ربك الذي أمرنا بهذا الأمر. فادْعُهُ أن يبين لنا المطلوب، وأن يوضح لنا الأمر، وأن يزيل لنا الإشكال.

أين هذا الكلام الصادر عن اليهود الذي يكشف عن طبيعتهم، من قول الصحابة الكرام ﷺ عندما كان كلامهم للرسول عليه الصلاة والسلام، ودعاؤهم الله سبحانه،كله أدب ووقار. وذلك كما في مثل قوله سبحانه عنهم: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

○ سؤالهم عن عمر البقرة:

«قالوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِي. قال: إِنَّهُ يقول: إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْر، عَوانٌ بَيْنَ ذٰلِك».

ظنوا أن الإبهام والحيرة من جهة عمر البقرة، وأروه أنه لو حدد عمرها لعرفوها، ولهذا سألوه عن عمرها قائلين: «ما هي؟».

أجابهم على سؤالهم بقوله: «إنه يقول» وإسناده القول إلى الله، لينفي أنه قوله هو، وليوجد في قلوبهم الحافز على الالتزام، والباعث على التنفيذ، إنه قول الله، وهذا يوجب عليكم المسارعة في تنفيذ قوله سبحانه.

عمرها وسط، فلا هي فارض مسنة كبيرة، ولا هي بكر صغيرة.

ولعل كونها عواناً وسطاً في عمرها يشير لنا إلى أن أطيب الحيوانات لحماً، وألذها طعماً، وأجودها أكلاً، هو ما كان وسطاً في عمره. فلحم الحيوان الصغير ما زال في بداية نموّه، وقد تقلّ بعض فوائده الغذائية. ولحم الحيوان الكبير يكون قد قسا ويبس، وفقد بعض فائدته الغذائية.

○ افعلوا ما تؤمرون:

عجب موسى عليه السلام من تلكؤ قومه في تنفيذ أمر الله، وأزعجتْه لجاجتهم وكثرة أسئلتهم، التي لا ضرورة لها، ولا فائدة منها. ولا تقود إلا إلى تضييع التكليف، والتخلف عن التنفيذ.

ولهذا وجَّههم إلى التنفيذ قائلاً: «افعلوا ما تؤمرون».

وهو بهذا يدعوهم إلى أن يغيروا موقفهم من أوامر الله، وأن يكون هو المسارعة في الأداء والحرص على التنفيذ.

يجب أن يكون تلقيهم لأوامر الله للتنفيذ، وليس للاعتراض والمزاجية.

وفرْق بين هذا الموقف اليهودي، وبين موقف الصحابة رضوان الله عليهم من أوامر الله، حيث كان تلقيهم لها لتنفيذها وأدائها والالتزام بها. وقد ضربوا في ذلك أمثلة عالية،وقدموا نماذج سامية.

○ سؤالهم عن لون البقرة:

لم يفعلوا ما طلبه موسى عليه السلام منهم، ولم يسارعوا بذبح البقرة. وإنما قادتهم لجاجتهم إلى سؤال جديد.

لمّا أزال الإبهام عن عمر البقرة، أَرَوْه أن الإِبهام في جانب آخر، إنه لونها، إنهم لا يعرفون لونها، ولوعرفوا لونها لذبحوها: «قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟». فأزال الإِبهام بقوله: «إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين».

بين لهم أنها صفراءُ فاقعٌ لونها. بمعنى أنها خالصة الصفرة، لا اختلاط فيها ولا تشابه، وليس فيها شعرة غير صفراء فاقعة.

وهذا تشديد من الله عليهم،ووضعهم في ضيق بالغ عقوبة لهم. لأن البقر الأصفر قليل، والأصفر الفاقع نادر الوجود.

ثم هي «تسر الناظرين» وعندما ننظر في هذه الجملة نستخرج منها بعض اللفتات:

١ ـ إن البقرة الصفراء ذات الصفرة الفاقعة عزيزة عند أهلها، لأنها تسر الناظرين، ولهذا لن يبيعوها إلا بثمن مرتفع. وهذا من التضييق عليهم.

٢ ـ إن اللون الأصفر الفاقع لون جميل ومحبب للنفوس، يسر الناظرين.

٣ ـ إن الإنسان السوي الفطرة، مفطور على محبة الألوان الجميلة. وإن محبة الجمال لا تتعارض مع الدين، ولا تُنافي الالتزام به، بل إن الدين يحضُّ عليه ويشير إليه. ويضع عليه القيود والضوابط حتى لا يتحول إلى شهوات إباحية، ونزوات حيوانية.

٤ ـ الأوْلى للمسلم عندما يختار شيئاً أو يشتري سلعة، أن يختارها جميلة تسر الناظرين، سواء كانت حيواناً أو فاكهة أوطعاماً أو لباساً أو أثاثاً. فالحاسة الفنية هي أساس الاختيار.

٥ ـ إنها دعوة إلى «تجميل» حياة المسلم، وإدخال السرور عليه بما ينظر إليه، ولذلك يعيش حياته ويمارس وظيفته ويقوم بعمله، بسرور نفسي، وذوق فني، وحسٍ جمالي!.

○ إن البقر تشابه علينا:

سألوا موسى عليه السلام السؤال الثالث، حيث أرَوْه أن الإبهام الآن في طبيعة عمل البقرة وفي وظيفتها عند أهلها. «قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟».

وهنا فقط، أحسوا بلجاجتهم وتأخرهم وتكاسلهم، وبحثهم عن ما لا خير فيه، فاعتذروا لموسى عليه السلام عن أسئلتهم وعن تأخرهم، فقالوا: «إن البقر تشابه علينا. وإنا إن شاء الله لمهتدون».

تشابه البقر علينا واختلط الأمر فلا ندري أية بقرة هي المطلوبة من بين البقر!.

تشابهَ البقر عليهم. نعم. لكن من هو السبب في هذا؟ إنهم هم أنفسهم. فلو لم يسألوا موسى أي سؤال، ولو استقبلوا أول أمر وجهه إليهم بالتنفيذ،

ولو تناولوا أية بقرة من بين البقر وذبحوها، فلن يختلط الأمر عندهم، ولن يتشابه البقر عليهم، ولقاموا بالواجب ونفذوا المطلوب!.

إن الاشتباه والالتباس والحيرة، ضريبة يدفعها كل من يترك التشريع الرباني الميسر، ويذهب إلى التشديد والتعقيد والبحث عما لا فائدة منه ولا خير فيه.

كم نرى في الحياة من نماذج لأناس رفضوا اليسر والخير والبيان في التشريع الرباني، فوصلوا إلى التعقيد والعسر والضيق والحرج، والالتباس والاختلاط والاشتباه.

أجابهم موسى عليه السلام على سؤالهم بأن حدد لهم طبيعة عمل البقرة عند أصحابها فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١].

إنها ليست مذلَّلة للعمل، لاتحرث الأرض، ولا تسقي الزرع، ولكنها معززة مكرمة عند أصحابها، وهي «مسلَّمة» خالصة من العيوب والنقائص والآفات، سواء في جسمها ولحمها، أو في لونها ومنظرها، أو في عمرها وحياتها، أو في عملها ووظيفتها.

وهي «لا شيةَ فيها» ليست فيها علامة فارقة، ولا فيها شعرة غير صفراء فاقعة...

هذه هي البقرة المطلوبة منهم! فأين سيجدونها؟ ومتى سيجدونها؟ وكم سيكون ثمنها؟.

○ قالوا: الآن جئت بالحق:

بعدما قدم موسى عليه السلام لقومه هذا البيان، وأجابهم على أسئلتهم، قالوا له: «الآن جئت بالحق!».

ونتعرف من هذه العبارة على أخلاق اليهود المرذولة، ووقاحتهم البذيئة، وسوء أدبهم في كلامهم وتعبيرهم، وموقفهم من أنبيائهم.

قالوا لموسى عليه السلام ما قالوا! ومن هو موسى؟ إنه نبيهم الذي يزعمون أنهم به مؤمنون، والذي أنقذهم من الذل، وقادهم إلى الحرية والعزة.

قالوا: الآن جئت بالحق، الآن فقط، وكأنه قبل ذلك لم يأتهم بالحق، وكأنه قبل ذلك كان يتكلم بالباطل. وكأن الحوار السابق بينه وبينهم كان بالباطل، وكأن موسى النبي الكريم يخوض فيه بالباطل.

كأنه جاء بالباطل عندما أمرهم بذبح البقرة، وعندما بين لهم عمرها ولونها وعملها.

كأنه جاء بالباطل عندما قال: «إن الله يأمركم» وعندما قال: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» وعندما قال: «افعلوا ما تؤمرون».

كأن السابق كله باطل. والآن فقط جاءهم بالحق.

إنهم اليهود، وإنها طبيعة اليهود، وإنها أخلاق اليهود.

○ فذبحوها. وما كادوا يفعلون:

وأخيراً. نفذ اليهود الأمر، وذبحوا البقرة. ذبحوها بعد هذه اللجاجة والأسئلة والتكاسل والتأخير.

ذبحوها. وكأنهم لم يذبحوها!.

إنهم لو ذبحوها منذ صدور الأمر الأول إليهم لكانوا منفِّذين للأمر، مسارعين فيه، مأجورين مثابين عليه!.

أما الآن، وبعد هذه الأسئلة والتأخير والتكاسل، فإنهم فقدوا عنصر المسارعة في التنفيذ، وصفة الجندية لله، والرغبة في الالتزام بأوامره والحصول على رضوانه.

ولهذا قال: «فذبحوها وما كادوا يفعلون»!.

ما كادوا: تدل على حصول الفعل بعد عسر ومشقة. كما تدل على بُطْئهم في التنفيذ، ومراوغتهم فيه، بحيث لم ينفذوا إلا مضطرين مكرهين.

قال الإمام الراغب الأصفهاني عن «كاد»: «كاد الزَّنْد: إذا تباطأ بإخراج

ناره. ووُضِع «كاد» لمقاربة الفعل. يقال: كاد يفعل، إذا لم يكن قد فعل.

وإذا كان معه حرف نفي يكون لما قد وقع، ويكون قريباً من أن لا يكون»[1].

إن الذي ينفذ الأمر مضطراً مكرهاً، كأنه لم ينفذه، لأن الله يريد من المأمور أن ينفذ الأمر بتفاعل وهمة وحيوية وشوق ولهفة، أن ينفذه برغبة ومحبة ورضى. يريد أن يشارك كيانُ الإنسان كله لذةَ التنفيذ والالتزام والجندية، وهذا لا يتحقق إلا عند المسارعة في التنفيذ، والنشاط في الأداء.

إن الذي ينفذ الأمر متأخراً، ويسبق التنفيذَ التكاسلُ والتحايل والتفلت والتهرب، فإذا فشل في تلك المحاولات، نفذ مُضطراً مُكرَهاً مُرغَماً، كأنه لم ينفذ، لأنه لم يشارك كيانه لذة التنفيذ، بل نفذت أعضاؤه فقط، وبذلك لم تتحقق فيه الحكمة من الأمر والتكليف، فتنفيذه وعدمه سواء، من حيث البعد التربوي والتوجيهي!.

قال تعالى عن الأضاحي والهَدْي الذي يذبحه الحجاج في الحج: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٦ ـ ٣٧].

الأوامر الربانية لا تُراد لذاتها ـ وإنْ وجب على المسلم القيام بها بالكيفية التي حددها الشرع ـ إنما تُراد لثمرتها وهدفها وأثرها في المسلم.

إن المسلم مطالب من خلال الأوامر الربانية بشيئين مرتبطين معاً:

تنفيذ الأمر بالكيفية التي بينها الإسلام.

وتحقيق الهدف من الأمر على حياته وكيانه وسلوكه.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٤٤٣.

أما اليهود الذين ذبحوا البقرة متأخرين. فإنهم لم يحققوا الحكمة من الأمر، لم يسارعوا بالتنفيذ، ولم يشارك كيانهم لذة الجندية والالتزام. ولأنهم فقدوا هذه الآثار العظيمة، والمعاني المقصودة، فكأنهم لم ينفذوا! ولهذا قال القرآن عنهم: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

○ سبب ذبح البقرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ﴾.

لقد أَخَّر القرآن ذكر سبب أمرهم بذبح البقرة، فالقارئ للقصة يقف أولاً على توجيه الأمر لهم بذبح البقرة، ثم يقف على تلكؤهم في التنفيذ. أما لماذا يذبحونها فلا يعرفه إلا في آخر السياق.

هذا أسلوب من أساليب العرض الفني في القرآن.

قال سيد قطب في الظلال: «وأخيراً نجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق. هذه قصة قصيرة نبدؤها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه. نحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا. وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم.

ثم تتابَعَ الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه، فلا نرى الحوار ينقطع، ليثبت ما دار بين موسى وقومه، على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه، فكان يسأله، ثم يعود إليهم بالجواب. ولكن سياق القصة لا يقول: إنه سأل ربه، ولا إن ربه أجابه، إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله، التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل!.

ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة ـ كما بوغت بها بنو إسرائيل ـ انتفاض الميت مبعوثاً حياً، على ضربة من بعض جسده لبقرة بَكماء مذبوحة، ليس فيها حياة، ولا مادة حياة!.

ومن ثم يلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في قصة قصيرة من القصص القرآني الجميل»[1].

ولعل الحكمة من تأخير بيان السبب، هو أن يقف السامع على صورة من رذائل اليهود، وسوء أخلاقهم، وموقفهم من أنبيائهم وأوامر ربهم.

إنهم هم الذين يحتاجون لذبح البقرة، وهم المستفيدون منه، ومع ذلك فعلوا ما فعلوه، فكيف لو لم يكونوا هم المستفيدين؟.

أراد الله أن يخرج ما كانوا يكتمون، وأن يكشف عن القاتل الحقيقي.

وهكذا كان. فأخذوا جزءاً من جسد البَقرة وضربوا به جسد الإنسان الميت، فعادت إليه الروح، ودبت فيه الحياة، وتكلم عن قاتله. «فقلنا: اضربوه ببعضها».

وقد اختلف السابقون في تحديد بعض البقرة الذي ضُرب القتيل به، ولا نجيز الاختلاف في ذلك ولا الخوض فيه، ولا محاولة تحديده، لعدم وجود ما يشير إليه في المصادر الصحيحة، ولعدم حصول فائدة في معرفته والوقوف عليه.

قال الإمام الطبري ينكر على أولئك خلافاتهم: «والصواب عندنا من القول في تأويل قوله: «فقلنا: اضربوه ببعضها» أن يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب. ولا دلالة في الآية، ولا في خبر تقوم به حجة، على أي أبعاضها التي أُمِر القوم أن يضربوا القتيل به. وجائز أن يكون الذي أمِروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائز أن يكون ذلك الذنب أو غضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها. ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها، فأحياه الله»[2].

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٨٠.

(٢) تفسير الإمام الطبري بعناية محمود شاكر ٢: ٢٣١.

○ كذلك يحيي الله الموتى:

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

إن ذبح البقرة لا يُراد لِذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق هدف آخر. وهو إقامة الدليل العملي الواقعي على قدرة الله على إحياء الموتى، ليزداد المؤمنون إيماناً، وينتقل الآخرون من موقع الشك إلى موقع الإيمان.

كذلك يحيي الله الموتى. لقد شاهدتم أمام أعينكم معجزة ربانية باهرة: إنسان ميت، جسد لا روح فيه ولا حراك. وبقرة عجماء بكماء. ذبحتم أنتم البقرة، وتحولت إلى جسد لا روح فيه ولا حراك. وأخذتم أنتم جزءاً ميتاً من أجزاء البقرة الميتة، وضربتم به جسد الإنسان الميت. وفوجئتم بالمفاجأة المدهشة: دبت الحياة في الإنسان الميت ـ من تلك الضربة ـ وتحرك حركة الأحياء، وتكلم كما يتكلم الأحياء.

كذلك المشهد الذي شاهدتموه، يحيي الله الموتى، ويبعثهم يوم القيامة، ويخرجون من قبورهم بكامل خصائص الحياة ومظاهرها وحقيقتها.

وتوظيف القرآن لقصة البقرة دليلاً على قدرة الله المطلقة، وعلى إحياء الموتى يوم القيامة، يطلعنا على طريقة القرآن في تقرير حقائق الإيمان وأسس التصور الإِسلامي، وعرض الأدلة عليها.

إن القرآن لا يعرض حقائق الإِيمان مجردة مستقلة، وإنما يقرنها بالأدلة القوية، وهذه الأدلة منتزعة من عالم الواقع المشاهَد، مأخوذة مما يعيشه الناس ويدركونه ويتعاملون معه. وبهذا يكون للدليل القرآني سهولته ويسره، وقوته وفاعليته، وتأثيره وحيويته، ونجاحه في تقرير الحقائق التي يتحدث عنها.

وإن القرآن يتخذ من قصصه لإِقرار حقائق الإِيمان، ويكون هذا السياق مجالاً لعرض تلك الحقائق والتأكيد عليها. وهذا دليل ما نقوله بأنَّ قصص القرآن لا يُراد لذاته، ولا يُهدف منه إلى المتعة القصصية واللذة النفسية ـ فهذا

متحقق فيه ـ ولكن القرآن يوظفه وسيلة إلى غاية شريفة، وهي إقرار حقائق الإيمان والتدليل عليها.

فذبح البقرة، وضرب القتيل بجزء منها، وانبعاث ذلك القتيل حياً، هدف منه القرآن إلى تحقيق عدة أهداف. منها:

١ ـ الكشف على القاتل الحقيقي، وتعريف اليهود عليه.

٢ ـ إقامة الدليل العملي على قدرة الله على إحياء الموتى.

٣ ـ تقديم آية من آيات الله، ومعجزة من معجزاته، التي تخرق سنن الطبيعة ونواميس الكون، فلم يحصل أن بُعِث ميت حياً بضربة من قطعة لحم ميت، إلا عن طريق معجزة ربانية باهرة.

٤ ـ تعريفنا على طبيعة اليهود، من خلال نظرتهم لأوامر الله، وتعاملهم مع أنبيائهم.

٥ ـ تحذير المؤمنين من أن يتخلقوا بأخلاق اليهود المرذولة.

○ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

ماذا ترتب على ذبح البقرة وإحياء القَتيل بها عند اليهود؟ وما أثر هذا على قلوبهم وحياتهم؟ لقد قست قلوبهم بعد ذلك، فأصبحت كالحجارة في قسوتها، بل هي أشد قسوة من الحجارة.

حقاً إن اليهود يهود، وإنهم يملكون قلوباً يهودية عجيبة!.

والإنسان يستغرب من تلك القلوب وقسوتها، التي أصبحت أشد قسوة من الحجارة القاسية.

ووجه الاستغراب أن تكون تلك القلوب البشرية، مركز المشاعر والعواطف والانفعالات، أن تكون أقسى من الحجارة القاسية. أن تكون تلك القلوب أقسى وأجمد وأصلد من الحجارة الجامدة القاسية الصلدة التي لا تنفعل ولا تتأثر ولا تحب ولا تكره، ولا تغضب ولا ترضى.

وماذا يُرجى ممن يحمل قلباً أقسى من الحجارة؟ وماذا بقي من ذلك الحطام المادي الذي يسمونه «الإنسان اليهودي» ـ وكذلك كل من كان مثله ـ عندما يفقد قلبه؟ ماذا يبقى منه إذا فسدت تلك المضغة التي بفسادها يفسد الإنسان كله، وبصلاحها يصلح الإنسان؟ كما قال رسول الله ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

لقد عرض القرآن قلوب اليهود كما هي. على حقيقتها وطبيعتها، وذلك ليتعرف المسلمون على أعدائهم اليهود، وليعرفوا كيف يتعاملون معهم.

وهناك فرق بين من يساوي القلوب الجامدة الصلبة بالحجارة في قسوتها، وبين من يجعل هذه القلوب أقسى من الحجارة.

لقد شبَّه أحمد شوقي قلوب الفرنسيين بالصخر، وجعلها مساوية للصخر في القسوة والصلادة، وذلك في قصيدته «دمشق» التي نظمها بمناسبة دخول الفرنسيين دمشق إبان الاستعمار الفرنسي لسورية، وتخريبهم فيها. فقال:

سَلي مَنْ راع غِيدَكِ بَعْدَ وَهْن   أَبَيْنَ فؤادِهِ والصَّخْرِ فَرْقُ؟

أما القرآن فقد عدَّ قلوب اليهود أقسى من الحجارة، واعتبر الحجارة الصماء ألين من تلك القلوب! وهذا حق وصدق، لا مبالغة فيه ولا إفراط، وليس مجرد تصوير وتشبيه.

والتاريخ البشري يدل على مصداق هذه الحقيقة القرآنية، والتاريخ المعاصر أكبر شاهد على ذلك، حيث اكتوت البشرية بنار الحقد اليهودي، المنبعثة من قلوب هي أقسى من الحجارة.

وإن مما يؤسف له أن يقتدي أناس باليهود في قسوة القلوب، فيحملون بين جوانحهم قلوباً أقسى من الصخر، ويتعاملون مع الناس بهذه الحجارة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان ٢ باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه رقم ٣٩. ورواه مسلم في كتاب المساقاة رقم ٢٢ باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم ٢٠، عن النعمان بن بشير الأنصاري ﷺ.

الصلدة ـ أعني القلوب القاسية ـ فيظلمون ويبغون ويتجبرون ويؤذون ويحاربون بلا رحمة ولا إنسانية!.

وماذا بقي لمن يملك قلباً أقسى من الحجارة؟ وما هي آثار حكمه عندما يُبتلى به الناس؟.

○ نماذج لحجارة ألين من قلوب اليهود:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

قلوب اليهود أقسى من الحجارة! نعم! والحجارة ألين من قلوب اليهود! نعم!.

وللدلالة على هذه الحقيقة، أوردت الآية نماذج وأمثلة لهذه الحجارة اللينة الخاشعة، وهذه النماذج عملية واقعية، مأخوذة من حياة اليهود أنفسهم، إنها حوادث رآها اليهود، وشاهدوا فيها ليونة الحجارة.

«إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار» وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى تمثيل، لأنه يعرفها اليهود وغيرهم. فمن أين تنبع الأنهار وتتفجر؟ أليس من الجبال؟ لقد لان الصخر حتى تفجر منه النهر!.

«وإن منها لما يشَّقَّق فيخرج منه الماء» وهذه الحادثة شاهدها اليهود بعيونهم! لقد عطشوا في الصحراء، فاستسقوا موسى عليه السلام، فاستسقى موسى عليه السلام ربه، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر، ففعل. فرأى اليهود اثنتي عَشْرَة عيناً تنبجس ـ أي تنز من بين الصخر كمرحلة أولى للتفجر ـ ثم تنفجر منه انفجاراً، تسيل فيه مياهها بغزارة. وفي ذلك يقول الله: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٦٠].

«وإن منها لما يهبط من خشية الله» وهذا نموذج عملي آخر، علم به اليهود عن طريق نبيهم موسى عليه السلام، إذ حصل معه شخصياً. فعندما ذهب عليه السلام

لمناجاة ربه، طلب أن يراه، وأخبره الله بأنه لن يراه في الدنيا، وتجلى ربه للجبل فجعله دكاً. لقد هبط الجبل من خشية الله. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ . . .﴾ [الأعراف: ١٤٣].

○ طبيعة اليهود وأخلاقهم من خلال قصة البقرة:

قلنا إن قصة البقرة تقدم لنا الطبيعة اليهودية مكشوفة، وتبين لنا الأخلاق اليهودية على حقيقتها.

وهذا بعض ما يمكن أن نأخذه منها:

١ ـ محاولتهم إخفاء الحقائق. فقد تدارؤوا وتدافعوا في القاتل للنفس، وحاولوا أن يتهموا الأبرياء.

٢ ـ سوء أدبهم مع أنبيائهم، وعدم توقيرهم لهم. حيث سألوه عن البقرة أسئلة لا داعي لها ولا ثمرة منها، وكذلك عندما قالوا له: أتتخذنا هزواً. وأخيراً عندما قالوا له: الآن جئت بالحق.

٣ ـ عدم احترامهم لأوامر الله وأحكامه وتعاليمه، ومحاولة التهرب منها والتحايل عليها.

٤ ـ تأخرهم وتلكؤهم في تنفيذ أوامر الله، حيث لم ينفذوا الأمر إلا أخيراً وهم مضطرون مرغمون «فذبحوها وما كادوا يفعلون».

٥ ـ لجاجتهم وكثرة أسئلتهم فيما لا داعي له.

٦ ـ انشغالهم فيما لا ينفع، وبحثهم عما لا يجدي.

٧ ـ الاهتمام بالشكليات والفرعيات، والالتفات إلى الهامشيات والثانويات، على حساب الأصول والأساسيات.

٨ ـ وهم بهذه الطبيعة الرخوة، والنفسية المائعة، استحقوا أن يشدد الله عليهم، وأن يحرِّم عليهم طيبات أُحلت لهم.

٩ ـ وهم بذلك أيضاً استحقوا أن يعاقبهم الله عقوبة شديدة، وهي قسوة قلوبهم.

وصاحب القلب القاسي، ينال عقوبة شديدة، تهون أمامها كل العقوبات، لأنه إنْ ملك قلباً خاشعاً ليناً فإنه يقدر على أن يصحح المسار، ويسارع بالخير والتوبة. أما إذا ملك قلباً قاسياً فالمرض في الأساس، في الشجرة وليس في الثمرة.

١٠ ـ الحجارة والجمادات أصبحت أكثر ليونة وتأثراً وخشوعاً من قلوب اليهود، فماذا بقي لهؤلاء اليهود؟.

○ قصة البقرة وطريقة اليهود في المفاوضات:

إن قصة البقرة تقدم لنا حقيقة قاطعة، نتعرف منها على طريقة اليهود في المفاوضات، حرِيٌّ بنا نحن مسلمي هذا الزمان، أن نقف أمامها، لنستخلص منها ما ينفعنا، وتُعرفنا على الطريقة الناجحة في مواجهة اليهود والتعامل معهم.

ها هم مع نبيهم موسى عليه السلام. كم مرة سألوه؟ وكم أعادوا عليه؟ وكم اعترضوا عليه؟ وهو نبيهم وقائدهم، فكيف يفاوضون أعداءهم؟ وكيف يتعاملون معهم؟.

ثم إن قضية البقرة بسيطة سهلة، وجزئية صغيرة، وهي تخصهم وتهمهم، وهم المستفيدون منها، ومع كل ذلك كم أخذت منهم ومن موسى عليه السلام وقتاً وجهداً؟ وكم حاولوا أن يتحايلوا وأن يتملصوا وأن يتخلصوا من التكليف؟.

إن اليهود لا يملُّون ولا يضجرون ولا يسأمون من المفاوضات، لأنهم يتقنون فنَّ التهرب والتملص والتحايل فيها، وهم يتمتعون أثناءها بنفس طويل، وأعصاب باردة، وهم على استعداد لأن يضيعوا فيها الكثير من الجهود والأوقات، وأن يعودوا من حيث بدأوا مرات ومرات!.

إن قضية شكلية هامشية تأخذ من اليهود ـ ومن الطرف الآخر في المفاوضات ـ أوقاتاً طويلة، قد تستغرق شهوراً أو سنوات. وإن قضية صغيرة، يعيدون فيها ويزيدون ويقفون أمامها ما يشاؤون، ويكتبون فيها الكتب

والمذكرات، ويقومون فيها بالزيارات والرحلات، بدون ملل أو ضجر!.

ليس المهم عندهم حل المشلكة، بل هم حريصون على تعليقها وتأخير حلها، وليس المهم عندهم إظهار الحق، بل هم حريصون على تضييقه، وليس المهم عندهم الخروج بنتيجة معقولة، بل هم حريصون على إبقاء القضية في الغموض والضباب، وأن يُبقوا خصومهم في ضياع وفراغ.

هذا ما عرفناه عن اليهود من خلال قصة البقرة، وهذا ما عرفناه عنهم في تاريخهم كله، وأبرز ما تكون طريقتهم واضحة في هذا الزمان، من خلال المفاوضات ـ المباشرة وغير المباشرة ـ التي يُجرونها مع أعدائهم!.

لما احتل اليهود الضفة الغربية وغيرها عام سبعة وستين، اتخذ مجلس الأمن الدولي قراره رقم ٢٤٢ يطالب اليهود بالانسحاب من الأراضي العربية التي احتلت بعد ذلك العام، وصاغ القرار اللورد كارادون ـ مندوب بريطانيا في مجلس الأمن ـ.

ولكن اليهود تحايلوا على القرار، وفهموه فهماً يهودياً، وفق طريقتهم في المفاوضات، وجرت معهم مفاوضات طويلة وشاقة ومضنية، عن طريق المبعوثين الدوليين ـ ابتداء من المبعوث جو ناريارنج ـ ولكن بدون جدوى.

قالوا: إن مجلس الأمن لا يطالبنا بالانسحاب من كل «الأراضي» المحتلة في الحرب، وإنما الانسحاب من «أراضٍ» محتلة، وتحديد هذه الأراضي وتعيينها يحتاج إلى مفاوضات مباشرة بيننا وبين العرب.

هل ينسحبون من الأراضي المحتلة ـ حسب المفهوم العربي ـ أو ينسحبون من «أراضٍ محتلة» ـ حسب المفهوم اليهودي ـ أخذت هذه المسألة أكثر من عشرين سنة ـ حتى الآن ـ ولم تسفر عن نتيجة!.

ولما وقعت دولة عربية في الفخ الأميركي اليهودي ـ مصر ـ عقدت مع اليهود اتفاقية ـ كامب ديفيد ـ المعروفة، وانسحب اليهود من معظم سيناء مقابل إنهاء الحرب بين البلدين، وإنشاء علاقات دبلوماسية بينهما ـ وغير ذلك مما لم يظهر على الناس ـ ولكن اليهود أثاروا مشكلة عويصة. هي مشكلة «طابا».

حيث رفضوا الانسحاب منها باعتبارها أرضاً يهودية. وطالبت مصر بالانسحاب منها، باعتبارها أيضاً مصرية.

قال اليهود: بيننا وبينكم المفاوضات، وهيئات التحكيم الدولية، والمبعوثون الدوليون، والخبراء والمحامون! وبدأوا مفاوضات طويلة، مضى عليها ـ حتى الآن ـ عشر سنوات، ولم تنته الأزمة، ولم يتم الانسحاب.

علماً بأن «طابا» مساحة من الأرض صغيرة، لا تتجاوز ملعباً لكرة القدم.

فإذا كان انسحابهم من قطعة أرض، بمساحة ملعب لكرة القدم، احتاج إلى أكثر من عشر سنوات! فكم هي المدة التي يقدرها العرب لانسحاب اليهود من الضفة الغربية و... وجنوب لبنان؟ وكم سينفق العرب في مفاوضاتهم مع اليهود للانسحاب، من أوقاتهم وأعمارهم وجهودهم وأموالهم وأعصابهم؟ ولن يحصلوا بعد ذلك من اليهود على شيء إلا الفتات!.

يا قوم: إن اليهود يجيدون فن المراوغات والتحايل في المفاوضات. وإنهم لن يستجيبوا إلا لصوت واحد هو صوت القوة، ولن يُخرجهم من فلسطين إلا أسلوب واحد هو أسلوب الجهاد والقتال!.

○ أهم الدروس من قصة البقرة:

نوجز فيما يلي أهم الدروس والعبر والدلالات التي تؤخذ من قصة البقرة.

١ ـ وجوب تلقي أوامر الله وأحكام الشريعة لتنفيذها وأدائها والالتزام الكامل بها. وهذا يعني مسارعة المأمورين بالأداء والتنفيذ.

٢ ـ عدم التحايل على أوامر الله أو التملص والتهرب منها.

٣ ـ إن العامل المباشر في الالتزام أو عدمه هو القلب، فإذا امتلأ القلب بالإيمان بالله وتعظيمه واحترام أوامره، وجدت عنده الرغبة في الأداء، والمسارعة في التنفيذ، فيُصدر القلب أمره للكيان الإنساني، فتلبي أجهزته فوراً.

وإذا كان القلب لا يوقر الله، ولا يحترم أوامره، ولا يريد أداءها، حاول التعلل والتهرب والاعتذار، وكأنه يُصدر أوامره للكيان، فتضعف أجهزته عن الأداء.

فإذا ما رأينا إنساناً نشيطاً، مسارعاً في الطاعات، سبّاقاً إلى الخيرات، جاداً في الالتزام والتنفيذ، علمنا أن قلبه سليم جاد مؤمن بالله معظِّم له.

وإذا ما رأينا إنساناً على العكس من ذلك، كسولاً ضعيفاً عاجزاً، متحايلاً على أحكام الله، متهرباً منها، عرفنا أن العلة في قلبه، وعندما يُعرَف مكمن الداء، يصدُق تشخيص المرض، ويسهل السير نحو العلاج، وتنجح التربية.

٤ ـ عدم الانشغال بالأمور الثانوية والمسائل الهامشية، لأن البحث فيها لا يجدي ولا ينفع، ولأنها مضيعة للوقت والجهد، ولأنها تعيق عن التنفيذ.

٥ ـ أوامر الله تؤخَذ كما أمر الله، ولا داعي للزيادة عليها والإنقاص منها، ولا داعي للإكثار من المسائل والتفصيلات والفرعيات التي لا حاجة لنا بها.

٦ ـ التشديد والتعقيد ضريبة تصيب كل الذين لم يكتفوا بالبيان الرباني، ونتيجة محقَّقة، تقع بالذين تنكبوا طريق الوضوح واليسر إلى التفصيلات الفرعية، التي لا داعي لها، ولا ثمرة منها.

فها هم اليهود قد شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم. ولو ذبحوا أية بقرة جاز.

ولهذا نهى الله المؤمنين عن التفصيلات التي لا داعي لها، والأسئلة التي لا فائدة منها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

خطبَنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا.

فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت. حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ:

لو قلت: نعم. لَوَجَبتْ. ولما استطعتم. ثم قال: ذروني ما تركتكم. فإنما هلكَ من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[1].

وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أعظم المسلمين في المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء لم يحرَّم، فحرِّم على الناس من أجل مسألته»[2].

٧ ـ وجوب احترام الأنبياء والمرسلين، والعلماء العاملين، والأدب في الحديث معهم وعنهم.

٨ ـ على العالم والداعية أن يخاطب قلوب المسلمين، وأن يلمس أوتارها، وذلك ليتم التأثر والانفعال، وإذا ما وجد عندهم تلكؤاً أو تكاسلاً، عالج هذا بحكمة.

٩ ـ إن الالتزام بالأوامر الربانية وأداءها، يقود إلى خشوع القلب وصلاح النفس، وإصلاح الحياة، وإن عدم الالتزام والتنفيذ يقود إلى أقسى عقوبة وهي قسوة القلب.

١٠ ـ يريد الإسلام من المسلم أن ينفذ أوامر الله بحيوية ولذة ونشاط واندفاع، وأن يشارك كيانه كله لذة التفاعل والرضى والتنفيذ، مثل الشعور والعقل والخيال والنفس والحواس والأعضاء.

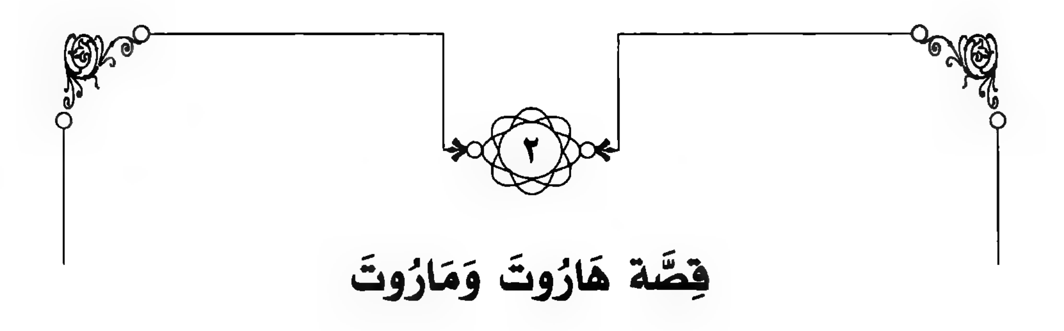
وهذا لا يتحقق إلا عند المسارعة في الأداء، والمباشرة في التنفيذ.

أما إذا حاول المسلم التهرب والتملص والتحايل، فإن الرغبة عنده تفتر، والهمة تضعف، والرضى والقبول يزول، والحواس تفقد لذة المشاركة، فإذا ما اضطر للتنفيذ كان تنفيذاً بارداً ميتاً، وأداء آلياً جامداً. «فذبحوها. وما كادوا يفعلون»!.

---

(١) مسلم، كتاب الحج ١٥، باب فرض الحج مرة في العمر ٧٣، حديث رقم ١٣٣٧.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل ٤٣، باب توقيره ﷺ ٣٧، حديث رقم ٢٣٥٨.



قِصَّة هَارُوتَ وَمَارُوتَ

○ القصة في السياق القرآني:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٣].

○ معاني الكلمات الغريبة:

مصدِّق لما معهم: ما جاء به الرسول ﷺ مصدّق لما في التوراة، ومقرِّر له.

نبَذ: طرح وألقى.

كتاب الله: المراد بِهِ هنا التوراة.

تتلو الشياطين: تَقرأ وتُخبر كذباً وباطلاً.

على ملك سليمان: في فترة ملكه وحكمه.

وما أنزل على الملكين: ما هنا اسم موصول بمعنى الذي والواو قبلها حرف عطف.

بابل: مدينة أثرية في العراق، كانت مركز حضارة البابليين.

هاروت وماروت: اسمان للمَلَكَيْن اللَّذَيْن كانا ببابل.

نحن فتنة: نحن اختبار وامتحان وابتلاء.

المرء وزوجه: الرجل وامرأته.

من خلاق: من حظ ونصيب.

شروا به أنفسهم: باعوا به أنفسهم.

مثوبة: ثواب.

○ إسرائيليات حول القصة:

أورد الإخباريون رواياتٍ إسرائيلية حول قصة «هاروت وماروت». واطَّلع مفسرون على تلك الروايات، وراقت لهم، وأوردوها في تفاسيرهم، وفسَّروا بها كلام الله سبحانه.

وخلاصةُ تلك الروايات الباطلة:

إن الملائكة اعترضتْ على كوْن الإنسان خليفةً في الأرض! وعلى تفضيل الله للإنسان المؤمن على الملائكة! فبيَّن لهم الله أن الإنسان المؤمن مفضَّل، لأنه جُعلت فيه شهوة وميل للمعصية، ولكنه يجاهد نفسه، ويأخذها بالشدة حتى تستقيم على طاعة الله.

فقالوا: لو جعلْتَ في نفوسنا شهوةً لما عملنا المعاصي.

واختاروا مَلَكَيْن منهما، ليجريَ عليهما الامتحان، وهما «هاروت وماروت».

فجعل الله بهما الشهوة، وأنزلهما إلى الأرض، ونهاهما عن ارتكاب الفواحش والمعاصي.

ونزلا في مدينة «بابل»، وعبدا الله ما شاء لهما.

وشاهدا في بابل امرأة جميلة جداً، من أجمل النساء، فوقعتْ في نفس كل منهما، واشتهاها.

وراوداها عن نفسها، فلم تستجب أول الأمر، وخيَّرتْهما بين عبادة الصنم أَو قتْل الصَّبيّ أو شرب الخمر، قبل أن تُمْكِّنهما من نفسها.

فقالا: عبادة الصنم كفر، وقتل الصبي جريمة كبيرة، أمَّا شرب الخمر فهو ذنب صغير! فاختارا شُرب الخمر. ولما شربا الخمر سكرا، فقتلا الصبي، وعَبَدَا الصنم، ثم ارتكبا الفاحشة ووقعا عليها.

فأخذت منهما اسمَ الله الأعظم، الذي كانا يصعدان به إلى السماء، وطارت صاعدةً إلى السماء.

فمسخها الله في الجو، وبقيت نجماً مضيئاً، هو كوكب «الزهرة» أحد الكواكب السيارة، أعضاء المجموعة الشمسية!.

أما هاروت وماروت، فإن الله قد غضب عليهما بعدما ارتكبا من ذنوب، وخيَّرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذابَ الدنيا لأنها زائلة، على أمل نجاتهما يوم القيامة.

فتمَّ تعليقُهما من رأسيْهِما في سماء «بابل» بين السماء والأرض، فهما معلَّقان هناك منذ ذلك التاريخ، وحتى قيام الساعة.

وما زالا في بابل يعلِّمان الناس السحر، رغم تعذيبهما وتعليقهما في السماء، فكل من رغب في تعليم السحر وممارسته يذهب إليهما في بابل، ويتعلم منهما[1]!!.

○ العلماء المحققون يردون تلك الإسرائيليات:

قلنا إن تلك القصة عن معصية الملَكيْن هاروت وماروت من الإسرائيليات، ولم ينقل شيء منها بسند صحيح عن رسول الله ﷺ.

(١) انظر: تفسير الطبري بتحقيق شاكر ٢: ٤٢٧ ـ ٤٣٥. والدر المنثور للسيوطي ١: ٢٣٨ ـ ٢٤٩ وتفسير ابن كثير ١: ١٣٨ ـ ١٤٢. ومسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٩: ٢٩ ـ ٣٤ حديث رقم ٦١٧٨.

وقد ردَّ العلماء المحققون تلك القصة ورفضوها، وأبطلوها من ناحية السند، ومن ناحية المعنى.

قال الإمام ابن كثير بعد إيراده تلك الروايات: «وقد رُوي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسُّدّي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصَّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين.

وحاصُلها راجِع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذْ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى. وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة من غير بَسْط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن، على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال»[1].

وفي كتابه «البداية والنهاية» في التاريخ، أورد الإمام ابن كثير خلاصة الإسرائيليات في قصة هاروت وماروت. ثم علق عليها قائلاً:

«وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت، من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها، فأبت إلَّا أن يُعلِّماها الاسم الأعظم، فعلَّماها، فقالته، فرُفعت كوكباً إلى السماء، فهذا أظنه من وضْع الإسرائيليين. وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار، وتلقاه عنه طائفة من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية، والتحديث عن بني إسرائيل»[2].

وبعد أن أورد روايات عنها قال: «وإذا أحسنّا الظن، قلنا هذا من أخبار بني إسرائيل، كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار، ويكون من خرافاتهم التي لا يُعوَّل عليها»[3].

أما الإمام المحقق أحمد محمد شاكر، فقد تكلَّم عن تلك الإسرائيليات في ثلاثة مواضع:

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ١٤١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١: ٣٧.

(٣) المرجع السابق ١: ٣٨.

الموضع الأول: في تعليقه على الروايات الكثيرة التي أوردها الإمام الطبري، حيث قال: «وهذه الأخبار في قصة هاروت وماروت، وأنها كانت امرأة فَمُسِخت كوكباً، أخبارٌ أَعَلَّها أهلُ العلم بالحديث»[1].

ثم ذكر كلام ابن كثير في تفسيره وتاريخه ـ وقد أوردناه ـ.

الموضع الثاني: في اختصاره تفسير ابن كثير، الذي أسماه «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير» حيث كان يعلق على أسانيد الروايات التي أوردها ابن كثير بشأن القصة.

علق على إسناد رواية ذكرها ابن كثير نقلاً عن ابن أبي حاتم بقوله: «إسناده الذي نقله ابن كثير ـ وحذفناه ـ صحيح. وهذا موقوف من كلام ابن عبّاس. ونحن نقف فيه، فلا نقول شيئاً. وقد أطال ابن كثير في نقل أخبار هذا المعنى، رحمه الله وإيانا، وغفر لنا وله»[2].

وأشار شاكر إلى سبب إيراده تلك الإسرائيليات الباطلة في «عمدة التفسير» فقال: «وكنتُ على أن أحذف هذا الحديث أيضاً من هذا الكتاب «عمدة التفسير» ـ على ما شرطتُ في المقدمة ـ ولكني رأيت أن معناه يدور على ألسنة الناس، وتجري به أقلامُهم، وأنه يجب البيان، فعملتُ الذي هو خير، ثم نفيتُ سائر الروايات التي أطال ابن كثير بذكرها، وإنْ لم يُقصِّر في الكشف عن عوارها رَحِمَهُ اللَّهُ»[3].

الموضع الثالث: في شرحه وتحقيقه لمسند الإمام أحمد بن حنبل، لأن الإمام أحمد أورد بسنده حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو الذي جعل بعضهم يظنه صحيحاً.

فتكلم أحمد شاكر طويلاً عن الحديث ـ وهو حديث رقم ٦١٧٨ـ من جهة السند، حيث بيَّن مطاعن العلماء على رجال السند، والأسانيد الأخرى

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر ٢: ٤٣٤ حاشية.

(٢) عمدة التفسير ١: ١٩٢ حاشية.

(٣) المرجع السابق ١: ١٩٧ حاشية.

المشابهة. كما تكلم عن الحديث من جهة المعنى وغرابتِه ونكارتِه.

وأورد كلام علماء محققين في ضعف الحديث ونكارته، وفي كونه من الإسرائيليات، منهم ابن كثير، ومحمد رشيد رضا.

وختم كلامه على الحديث بقوله: «وكل هذا يرجِّح ما رجحه ابن كثير: أَن الحديث من قصص كعب الأحبار الإسرائيلية، وأنه ليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وأنَّ من رفعه فقد أخطأ ووهِم، وأنَّ الذين رووه من قصص كعب الأحبار أحفظ وأوثق ممن رووه مرفوعاً، وهو تعليل دقيق من إمام حافظ جليل»[1].

أما الأستاذ الإمام سيد قطب فيقول عن قصة هاروت وماروت: «أما من هما الملكان هاروت وماروت؟ ومتى كانا ببابل؟ فإن قصتهما كانت متعارَفَة بين اليهود، بدليل أنهم لم يكذِّبوا هذه الإشارة، ولم يعترضوا عليها. وقد وردت في القرآن الكريم إشاراتٌ مجملة لبعض الأحداث التي كانت معروفة عند المخاطَبين بها، وكان في ذلك الإجمال كفايةٌ لأداء الغرض، ولم يكن هناك ما يدعو إلى تفصيل أكثر، لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود.

ولا أحب أن نجري نحن ـ في ظلال القرآن ـ خلف الأساطير الكثيرة، التي وردتْ حول قصة الملكين، فليست هنالك رواية واحدة محقّقة يوثَقُ بها»[2].

○ ما هي قصتهما إذن؟

لا نجدُ في الأحاديث الصحيحة بياناً عن قصة هاروت وماروت، ولا كلاماً عن مهمتهما في بابل.

وإذا كنا نريد أن نعرف قصتهما، فلا بدَّ أن نقف عند بيان القرآن لها، وأن نأخذ عنه ما يوضحه لنا منها.

---

(١) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٩: ٣٢ حاشية. وانظر: الكلام كاملاً في: ٢٩ ـ ٣٣ حاشية.

(٢) الظلال ١: ٩٧.

يشير القرآن إلى أن الله سبحانه اختار ملَكيْن من ملائكته، اسم أحدهما «هاروت» واسم الآخر «ماروت»، وأهبطهما في مدينة «بابل» وهي مدينة معروفة في العراق، كانت عاصمة الحضارة البابلية القديمة، وكان من ملوكها «حَمورابي» و«نَبوخَذْ نَصَّرْ».

ولا ندري لماذا أُنزلا إلى بابل؟ ولا متى تم ذلك النزول؟.

ويبدو أن لمهمتهما في بابل صلةً بالسحر، ومعروف أن السحر كان منتشراً في بابل، ولعلَّه انتشر فيها على أيدي اليهود، الذين سَباهم الملكُ البابلي «نبوخذ نصر» إلَيها، بعدما دمَّر مملكتهم في فلسطين، ومعروف أن السحر مرتبطٌ باليهود ارتباطاً مباشراً، وأنهم أكثر الأمم والشعوب ممارسةً ونشراً له.

ويبدو أن هؤلاء اليهود ـ أو غيرهم ـ أفزعوا الآخرين وأرهبوهم بالسحر، ورسموا حول السحر «هالةً» ضخمةً، وأوهموهم أن الساحر يقدِر على الضرر والنفع، ويملك كل شيء، فأخضعوا الآخرين لهم، واسترهبوهم واستغفلوهم.

فكانت مهمةُ هاروتَ وماروتَ في بابل متعلقةً بالسحر والسحرة، وإزالة ما علق في نفوس الناس من هلعٍ وفزعٍ بسببه. فكانا يُعلِّمان الناس في بابل السحر، ويكشفان لهم حقيقته، ويُقدمان لهم المبادئَ والأُسسَ التي يقوم عليها، ويُزيلان «الهالة» الضخمة المرسومة حوله.

وكأنهما يقولان لهم: إن السحر يمكن أن يتعلمه الإنسان وإنه ليس ألغازاً وطلاسم، بل هو مثْلُ أَي علم من العلوم، يحصل بالتعليم والكسب، وإن الساحر لايضر شخصاً ولا ينفع آخر، إلَّا بإذن الله.

ولكنهما كانا يُعلِّمان السحر لكشف حقيقته وتحذير الناس منه، لا ليتعلموه ويمارسوه ويعملوا به، ولهذا كانا لا يُعلِّمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة، فلا تكفر. أي فلا تعمل بالسحر ولا تمارسه.

وانتهت مهمةُ الملَكين ببابل «هاروت وماروت». وصعدا إلى السماء ملكيْن كريميْن، كما نزلا منها ملكيْن كريميْن.

ولكن أهلَ بابل لم يأخذوا بنصيحة الملكين الكريمين، بل استغلوا تعليمَهما السحر لهم في الشر والفساد، وصاروا يمارسون السحر مع الآخرين، ويفرقون به بين المرء وزوجته.

وقد ذمَّهم الله بذلك التصرف الضال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

❍ اليهود يتركون الحق إلى الباطل:

وردتْ قصةُ هاروت وماروت في سياق الحديث عن اليهود، وكشْفِ تصرفاتهم وممارساتهم ومكائدهم ضدَّ الإِسلام والمسلمين.

فماذا قالت الآيات عن أولئك اليهود؟.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾.

اليهود ضالون يكذبون بالحق وبالذي جاء به، وذلك الكفر والتكذيب منهم موقف أصيل ثابت، وقرار جاهز نافذ، فما أن يأتيهم الحق حتى يكفروا به، وما أن يأتيهم الرسول بالحق حتى يكذبوا به. وهذا هو ما توحي به كلمة «لَمّا» التي تدل على الموقف المسبق والحكم الجاهز.

إن الرسول عليه الصلاة والسلام، مصدِّق لما مع اليهود، والقرآن مصدِّق لما في التوراة، كيف لا والقرآن كلام الله، والتوراة أيضاً كلام الله.

وتأكد اليهود من أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو رسول الله، فماذا فعلوا؟ هل آمنوا به واتبعوه؟.

كلا. لقد نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. تركوا كتاب الله وألقوه، وكأنهم طرحوه وراء ظهورهم.

وكتاب الله الذي نبذوه في قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ليس هُوَ القُرآن، ولكنه التوراة، التي يزعم اليهود إيمانهم بها. نبذوها عندما كفروا بما بشرت به التوراة، وهم بذلك عطّلوا نصوص التوراة المبشِّرة بالنبي، وتعطيلُها كفرٌ بها، وكفرُهم بتلك النصوص هو كفر بالتوراة كلها، وهذا هو النبذ والترك والإِهمال والإِلقاء.

وبذلك التصرف اليهودي الحاقد، نرى أنهم قد تركوا الحق، وكفروا به، وكذّبوا صاحبه.

ثم ماذا بعد؟ ماذا فعل اليهود بعد نبذ كتاب الله والكفر بالحق؟.

لقد اتبعوا الباطل «وَاتَّبَعواما تَتْلوا الشَّياطينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمان». إنها تجارة خاسرة، وصفقة بائرة، تلك التي قام بها اليهود. تركوا الحق واتبعوا الباطل، كفروا بالرسول وآمنوا بالشياطين، وصدقوا بأخبارهم وأقاويلهم وأكاذيبهم.

إنهما طريقان لا ثالث لهما: إما طريق الحق وإما طريق الباطل، وكل من لم يكن في طريق الحق، فهو حتماً في طريق الباطل، وكل من ترك الهدى، فهو بالضرورة مُتَّبع للضلال «فَماذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلال؟».

وهذه حقيقة قرآنية قاطعة، والواقع البشري هو مصداقها الواقعي العملي الحي، كم رأينا أناساً يُجانبون طريق الحق ويتخلون عنها، فإذا بهم يسيرون في طريق الباطل والضلال.

○ الشياطين والسحر وسليمان عليه السلام:

أشارت الآية إلى افتراءات الشياطين وأكاذيبهم، حيث نسبوا السحر إلى سليمان عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾.

وَكَذَّبَت الآية الشياطين، ونزَّهت سليمان عن السحر: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

وَأورد الإِخباريون رواياتٍ عن أكاذيب الشَّياطين، وافترضوا افتراضاتٍ حول صِلَتهم بسليمان عليه السلام.

فقد روى ابن حاتم عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان «آصِفْ» كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان، ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان عليه السلام، أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل به فأكفره جُهّال الناس، وسبّوه، ووقف علماؤهم، فلم يزل جهالهم يسبونه، حتى نزلت الآية فبرَّأَتْه.

○ تعقيب على رواية ابن عباس:

وقد أورد الإمام ابن كثير هذه الرواية عن ابن عباس[١].

وإذا نظرنا في هذه الرواية، فإننا لا نراها مُسْنَدَة إلى رسول الله ﷺ، لأن ابن عبّاس لم يرفعها إلى الرسول عليه السلام، ولذلك فهي موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما.

وكلام ابن عباس فيها إنما هو عن أحداث سابقة، وتلك الأحداث أصبحتْ من غيب الماضي، ومعلوم أن غيب الماضي لا نأخذه إلَّا من كتاب الله، وما صحّ من حديث رسول الله ﷺ، ولا نقبل كلام أي إنسان عن ذلك الغيب إلَّا إذا بيَّن دليلَه، المعتمِد على كتاب الله، أو حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وبما أن كلام ابن عباس رضي الله عنهما السابق، لم يَعتمد على هذا، فنحن مضطرون إلى عدم قبوله، بل إلى التوقف فيه.

وقد علَّق المحقق أحمد شاكر في «عمدة التفسير» على الرواية السابقة: «إسناده الذي نقله ابن كثير ـ وحذفناه ـ إسناد صحيح. وهذا موقوف من كلام ابن عباس. ونحن نقف فيه فلا نقول شيئاً. وقد أطال ابن كثير في نقل أخبار في هذا المعنى. رحمه الله وإيانا، وغفر لنا وله»[٢].

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١ : ١٩٢.

(٢) المرجع السابق: ١ : ١٩٢ حاشية.

○ من هم الشياطين؟.

وهناك ارتباطٌ وثيق بين السحر والشياطين، لأن السحر وسيلة من وسائل الشياطين في استهواء الناس وإغوائهم، وقيادِهم والتأثير فيهم.

والشياطين هنا كلمة عامة، تنطبق على صنفين منهم:

الصنف الأول: وهو الذي تنصرف إليه كلمة «شياطين» عند إطلاقها، وهذا الصنف هوشياطين الجن، الذين لا نراهم، ولكنهم يوسوسون لنا ويزينون لنا المعاصي والكفر والانحراف.

الصنف الثاني: وهو شياطين الإِنس من البشر، وهم الكافرون الذين يستعين بهم شياطين الجن، وأبرزُ مَنْ يمثل هذا الصنف هم اليهود، الذين هم أكثر الناس سحراً وكفراً وشيطنةً وإغواء.

مَنْ هم الشياطين الذين أكثروا من تلاوة السحر ونسبته إلى سليمان؟. من هم أكثر الشياطين تلاوة لذلك السحر؟.

إنهم اليهود!.

يتلون على ملك سليمان لأنه كان نبياً لهم، وملكاً عليهم. ولأنه حَكَمَ الجن والشياطين أيضاً.

ولأنهم هم المستفيدون من رواية تلك الأكاذيب، ونَشْرها بين الناس، حتى يسترهبوا الناس ويُغْووهم ويُخضِعوهم لهم.

○ معنى «تتلو الشياطين على ملك سليمان»:

اختلف المفسرون في معنى كلمة «تتلو». وقد ذكر الإِمام ابن جرير في تفسيره أهم معانيها المحتَمَلة.

قال بعضهم: تتلو معناها تحدِّث وتَروي، وتتكلم به وتُخبر، نحو «تلاوة الرجل للقرآن» وهي قراءته.

وقال آخرون: ما تتلو: ما تَتْبَعه وتَرويه وتعمل به.

وعندما أراد ابن جرير التوضيح، جمع بين المعنيين، واعتبر الكلمة دالةً عليهما معاً.

قال: «هو يتلو كذا» في كلام العرب له معنيان:

أحدهما: الاتِّباع، يقال: تلوتُ فلاناً: إذا مشيتُ خلفه، وتَبِعْتُ أثره.

والآخر: القراءة والدراسة، تقول: فلان يتلو القرآن، بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه.

وقد يجوز أن تكون الشياطين تلتْ ذلك دراسة ورواية وعملاً، فتكون متَّبعتَه بالعمل، ودَارِسَتَه بالرواية، فاتبعت اليهود منهاجها في ذلك، وعملتْ به، وروتْه[1].

الشياطين تَروي وتُخبر وتُحدث الأكاذيب على ملك سليمان.

واليهود يتَّبعون ما تتلوه الشياطين، ويعملون به، وينقلونه للآخرين، ويتلونه هم بدورهم للآخرين.

أما قوله: «على ملك سليمان» فإن حرف الجر «على» بمعنى «في» عند الإمام الطبري، قال: «على ملك سليمان» في ملك سليمان، وذلك أن العرب تضع «في» موضع «على»، و«على» في موضع «في» من ذلك قول تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] يعني به: على جذوع النخل، وكما قالوا: فعلتُ كذا في عهد كذا، وعلى عهد كذا، بمعنى واحد»[2].

وعندما تكون «على» بمعنى «في» يكون معنى الآية: إن الشياطين كانت تتحدث بالكذب وترويه وتخبر به، في فترة ملك سليمان، عندما كان حاكماً على بني إسرائيل، أي كانت تفعل ذلك في حياة سليمان عليه السلام.

أما عند الإمام ابن كثير فإن معنى «تتلو» تكذب، و«على» على ظاهرها: «ما تتلو الشياطين: أي ما ترويه وتخبر به وتُحدِّثه الشياطين على ملك سليمان،

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢: ٤٠٩.

(٢) تفسير الطبري ٢: ٤١١، ٤١٢.

وعدّاه بِـ«على» لأنه ضَمَّن «تتلو» تكذب، وقال ابن جرير: «على» ههنا بمعنى «في» أي: تتلو في ملك سليمان. والتضمين أحسن وأولى»[1].

○ السحر كفر والساحركافر:

حاربت الآية السحر والساحرين، وحارب هاروت وماروت السحر والساحرين.

وعند إمعان النظر في الآية، فإننا نجدها تعتبر السحر كفراً، وتعتبر الساحر كافراً، والأدلة على ذلك من الآية هي:

١ ـ نفيُها للسحر عن سليمان بهذه العبارة: «وما كفر سليمان» أي إن سليمان لم يكن ساحراً، ولم يكن يتعامل بالسحر.

إن الآية عندما نفت السحر عن سليمان، نفت عنه الكفر، وهذا يدل على التلازم بين السحر والكفر، والارتباط الوثيق بينهما.

٢ ـ إثبات الكفر للشياطين حالة تعليمهم السحر للناس: «ولكن الشياطين كفروا يُعَلِّمون الناس السحر». إن الشياطين قد كفروا لأنهم علَّموا الناس السحر، أي كفروا عندما مارسوا السحر وعملوا به وعلَّموه للآخرين.

وموقع جملة «يعلمون الناس السحر» في محل نصب على الحال، لأنها جملة حالية، أي كفر الشياطين حالة تعليمهم الناس السحر.

٣ ـ تحذيرُ الملكين هاروت وماروت للناس من ممارسة السحر والعمل به، ورد بهذه الصيغة: «وَمَا يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُر».

ومعلوم أن اختيار الكلمات مقصود في القرآن. حيث يوحي هذا الاختيار بما يوحي به.

قالا: إنما نحن فتنة واختبار، وابتلاءٌ وامتحان، فلا تعمل بالسحر، لا

---

(١) عمدة التفسير ١: ١٩٣.

تكفر، لم يقولا له: لا تَسْحَر، بل قالا: لا تكفر، وما هذا إلَّا للتلازم والارتباط بين السحر والكفر.

وهذا من لطائف الاستدلالات القرآنية:

فعندما أراد القرآن نفي السحر عن سليمان، نفى عنه الكفر.

وعندما أراد الملكان نهي الناس عن ممارسة السحر نهياهم عن الكفر.

٤ ـ الرسول عليه الصلاة والسلام يَعْتبر السحر كفراً، ويَعتبر مَنْ صدَّق العراف والكاهن كافراً.

قال ابن حجر في فتح الباري: «وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رَفَعَه: «مَنْ أتى كاهناً أوعرَّافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد».

وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندَيْن جيدَيْن...

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يُقال بالرأي...»[1].

○ هل «ما» نافية أو موصولة؟.

وقف المفسرون طويلاً أمام قوله: «وَما أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هاروتَ ومَاروتَ».

فقد اتفقوا على أن الواو في «وما أنزل» عاطفة، وأن هذه الجملة معطوفة على ما سبق.

لكنهم اختلفوا في الجملة التي عُطفت عليها.

ومنشأ اختلافهم في المعطوف عليه، هو اختلافُهم في «ما» هل هي حرف نفي، أو اسم موصول بمعنى الذي؟.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٧: ٢١٧.

سنقف مع الإمام ابن جرير الطبري في اختياره وترجيحه، ومع الإِمام ابن كثير في التعقيب عليه. ونرجح القول المناسب إن شاء الله.

القول الأول: أن «ما» معناها الجَحد والنفي، فهي حرفُ نفي، بمعنى «لَمْ» وهذا القول منسوب إلى الإِمام ابن عباس.

وقد وضَّحَ الطبري هذا الرأي بقوله: «فتأويل الآية ـ على هذا المعنى ـ واتبعوا الذي تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملَكين ـ ولكن الشياطين كفروا، يُعلِّمون الناس السحر ـ ببابل هاروت وماروت.

فيكون حينئذ قوله: «ببابل هاروت وماروت» من المؤخَّر الذي معناه التقديم»[1].

وعلى هذا القول يكون المراد بالمَلَكين: جبريل وميكائيل.

ويكون «هاروت وماروت» اسمين لرجلين من الشياطين، ويعلمان الناس السحر ببابل[2].

وعلى هذا القول تكون معطوفة على قوله: «ما كفر سليمان».

أي أن القرآن نفى كفرَ سليمان، ونفى إنزالَ السحر على الملكين ببابل، ولكن الشياطين كذبتْ ونسبتْ السحرَ والكُفْرَ لسليمان ﷺ، وكذَبت عندما ادعتْ إِنزال السحر على الملكين ببابل.

القول الثاني: أن «ما» اسم موصول بمعنى «الذي».

وهذا القول نسبه الطبري إلى عبد الله بن مسعود وقتادة والزهري والسُّدِّي، وغيرهم.

قال الطبري في توضيح هذا القول: «فمعنى الآية على هذا القول: واتبعت اليهودُ الذي تلت الشياطين على ملك سليمان، واتبعت الذي أُنزل على

---

(١) تفسير الطبري ٢: ٤١٩.

(٢) المرجع السابق ٢: ٤٢٠.

الملكين ببابل هاروت وماروت»[1].

وقد رجح الطبري هذا القول.

لكن الإمام ابن كثير عقب على شيخه الطبري، وردَّ ترجيحه، وعلَّق عليه قائلاً: «ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذي، وأطال القول في ذلك، وادّعى أن هاروت وماروت مَلَكان، أنزلهما الله في الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر، اختباراً لِعِباده وامتحاناً، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل. وادعى أن هاروت وماروت مُطيعان في ذلك، لأنهما امتثلا ما أُمِرا به.

وهذا الذي سلكه غريب جداً!»[2].

لكن الإمام أحمد شاكر علق على تعليق ابن كثير بقوله: «ولستُ أستنكر ما قاله أبو جعفر، كما استنكره ابن كثير. ولو أنت أنصفْتَ وتتبعْتَ كلام أبي جعفر، لرأيت فيه حجةً بيِّنَةً ساطعةً على صواب مذهبه الذي ذهب إليه، ولرأيت دقةً ولُطْفاً في تناول المعاني، وتدبير الألفاظ، لا تكاد تجدهما في غير هذا التفسير الجليل القدر»[3].

○ كيف تعلم الملائكة السحر؟.

تساءل الإمام الطبري عن مهمة الملَكين ببابل:

بما أن الله أنزلهما على بابل، ليعلما الناس هناك السحر، فهل يجوز أن يُنزل الله عليهما السحر؟ وكيف جاز لهما أن يعلماه للناس؟ وقد أجاب الإمام الطبري على ذلك:

إن الله ﷻ قد أنزل الخير والشر كله، وبيَّن جميع ذلك لعباده، فأوحاه إلى رسله، وأمرهم بتعليم خلقه، وتعريفهم ما يحل لهم مما يَحْرم عليهم،

---

(١) تفسير الطبري ٢: ٤٢١.

(٢) عمدة التفسير ١: ١٩٤.

(٣) تفسير الطبري ٢: ٤٢٢ حاشية.

وذلك كالزنا والسرقة وسائر المعاصي التي عرَّفَهُموها، ونهاهم عن ركوبها، فالسحر أحد تلك المعاصي، التي أخبرهم بها، ونهاهم عن العمل بها.

وليس في العلم بالسحر إثم، كما لا إثم في العلم بصنعة الخمر، ونحت الأصنام والطنابير والملاعب. وإنما الإِثم في العمل به، وأن يضرَّ به من لا يحل ضرُّه به.

فليس في إنزال الله إياه على المَلَكين، ولا في تعليم المَلَكين مَنْ علَّماه من الناس إثم، إذ كان تعليمهما من علَّماه ذلك، بإذن الله لهما بتعليمه، بعد أن يخبراه بأنهما فتنة، وينهياه عن السحر والعمل به والكفر، وإنما الإثم على مَنْ يتعلمُه منهما ويعملُ به. إذ كان الله تعالى ذكره قد نهاه عن تعلمه والعمل به، ولو كان الله أباح لبني آدم أن يتعلموا ذلك، لم يكن مَنْ تَعَلّمَهُ حرجاً، كما لم يكونا حرِجين لعلمهما به، إذ كان علمهما بذلك عن تنزيل الله إليهما»[1].

ولا يضير المَلَكين مخالفةُ الناس لهما، وارتكابهُم ما نهياهم عنه، وممارستُهم للسحر، واستخدامُه في التفريق بين المرء وزوجه، والأمر كما قال الإِمام الطبري:

«وقد عُبِد من دون الله جماعةٌ من أولياء الله، فلم يكن ذلك لهم ضائراً، إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عَبَدَ بعضُهم والمعبود عنه ناه.

فكذلك الملكان، غير ضائِرهما سِحْرُ مَنْ سَحَر، ممن تعلم ذلك منهما، بعد نهيهما إياه عنه، وعظتِهما له، بقولهما: «إنما نحن فتنة فلا تكفر». إذ كانا قد أدَّيا ما أُمرا بقيلهما ذلك»[2].

○ ذكْر «ما» في الآية:

ذُكرت «ما» في الآية تسعَ مرات. وكانت أحياناً حرف نفي بمعنى «لم» وأحياناً اسم موصول بمعنى «الذي».

---

(١) تفسير الطبري ٢: ٤٢٢، ٤٢٣.

(٢) المرجع السابق ٢: ٤٢٦، ٤٢٧.

١ ـ واتبعوا ما تتلو الشياطين: هنا اسم موصول بمعنى «الذي» أي اتبعوا الذي تتلوه الشياطين.

٢ ـ وما كفر سليمان: هنا حرف نفي تنفي الكفر عن سليمان.

٣ ـ وما أنزل على الملكين: الراجح هنا أنها اسم موصول. أي اتبعوا السحر الذي أُنزل على الملكين.

٤ ـ وما يعلِّمان من أحد حتى يقولا: هنا حرف نفي، أي لا يعلِّمان أحداً حتى يحذراه.

٥ ـ ما يفرقون به: هنا اسم موصول. أي يتعلمون الذي يفرقون به بين المرء وزوجه.

٦ ـ وما هم بضارين به من أحد إلَّا بإذن الله: هنا حرف نفي.

٧ ـ يتعلمون ما يضرهم: هنا اسم موصول.

٨ ـ ما له في الآخرة من خلاق: هنا حرف نفي.

٩ ـ لبئس ما شروا به أنفسهم: هنا اسم موصول بمعنى الذي.

وأنت عندما تمعن النظر في ورود «ما» في الآية، ترى أنها منسقة بترتيب متدرج، فهي اسم موصول، ثم حرف نفي، ثم اسم موصول، ثم حرف نفي، وهكذا، وهذا الترتيب ملحوظ في الأسلوب القرآني.

○ أنواع السحر:

السحر أنواع، فمنه الحقيقي، ومنه التخييلي.

قال الإمام الراغب في أنواع السحر:

«السحر يقال على معانٍ:

الأول: الخداع، وتخييلاتٌ لاحقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ، بصرْف الأبصار عمّا يفعله لخفّة يده، وما يفعله النمّام، بقول مزخرف شائق للأسماع، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٦٦]. وقال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

الثاني: استجلاب معاونة الشيطان، بضرب من التقرّب إليه، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وعَلَى ذَلِكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

الثالث: مَا يذهب إليه الأغتامُ السحرة، وهو اسم لفعل، يزعمون أنَّ من قوّته، أنْ يغيّر الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حماراً، ولا حقيقة لذلك عند المحصّلين.

الرابع: وَقَدْ تُصُوِّرَ من السحر تارة حسْنُه. فقيل: إنّ من البيان لسحرا، وتارة دقّةُ فعله، حتى قالت الأطباء: الطبيعة ساحرة. وسمّوا الغذاء سحراً، من حيث إنّه يدقّ ويلطف تأثيره[1].

أمّا الإمام فخر الدين الرازي فقد ذكر أنواعاً من السحر. هي:

الأوّل: سحْر الكِلدانيين والكَسْدانيين، الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قومٌ يعبدون الكواكب، ويزعمون أنّها المدبّرة لهذا العالم.

الثاني: سحْر أصحاب الأوهام والنفوس القويّة في تأثيرهم في الآخرين، وسِحرهم لهم.

الثالث: الاستعانة بالجنّ والأرواح الأرضية.

الرابع: التخيلات، والأخذ بالعيون.

الخامس: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركّبة على النِّسب الهندسية تارة، وعلى ضروب الخيلاء أخرى. وكان سحْر سَحَرة فرعون من هذا الضرب.

السادس: الاستعانة بخواص الأدوية، مثل أن يجعل في طعامه بعض الأدوية المبلِّدة، المزيلة للعقل، والدُّخَنِ المُسْكِرة، نحو دماغ الحمار إذا تناوله الإنسان تبلّد عقله وقلّت فطنته.

---

(١) المفردات للراغب: ٢٢٦.

السابع: تعليق القلب، وهو أن يدّعي الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم، وأنّ الجنّ يطيعونهُ، وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السّامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنّه حقّ، وتعلّق قلبهُ بِذَلِكَ، وحصل في نفسه نوع من الرعب والخوف، وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحسّاسة، فحينئذٍ يتمكن الساحر من أن يفعَل ما يشاء، وإن مَن جَرّب الأمور وعرف أحوال أهل العلم، علم أن لتعلق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار.

الثامن: السعي بالنّميمة من وجوه خفيفة لطيفة)[١].

○ هل للسحر تأثير أم هو تخييل؟.

عرفنا أنّ السحر أنواع، منها ما هو حقيقي، ومنها ما هو تخييلي يقوم على الوهم والرهبة والخداع.

وقد اختلف المسلمون في السحر، هل هو حقيقي له تأثير في المسحور، أم هو تخييلي لا حقيقة له ولا تأثير؟.

الإمام الطبري يرى أنّه لا حقيقة له، وأنّه يقوم على التخييل والخداع.

وفي ذلك يقول: «هو خُدعٌ ومخاريق ومعانٍ يفعلها السّاحر، حتى يُخيَّل للمسحور الشيءُ أنّه بخلاف ما هو بِهِ، نظير الذي يرى السراب من بعيد، فيخيّل إليه أنّه ماءٌ، ويرى الشيء من بعيد فيُثبته بخلاف ما هو على حقيقته. وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً، يخيّل إليه أنّه ما عاين من الأشجار والجبال سائرٌ معه، فكذلك المسحور، ذلك صفته، يحسب بعد الذي وصل إليه من سحر الساحر، أنّ الذي يراه أو يفعله، بخلاف الذي هو به على حقيقته وتأثيره»[٢].

أما الإمام الرازي فقد ذهب إلى أنّ السحر له حقيقة وتأثير، وأن الساحر يقدر على الضر بإذن الله.

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ٣: ٢٠٦ ـ ٢١٣.

(٢) تفسير الطبري ٢: ٤٣٦.

قال: «وأمّا أهل السنّة فجوّزوا أن يقْدر الساحر على أن يطير في الهواء، ويقلب الحمار إنساناً والإِنسان حماراً، إلّا أنّهم قالوا: إنّ الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء، عندما يقرأ الساحر رُقى مخصوصة وكلمات معينة، فأمّا أن يكون المؤثّرُ النجومَ والفلك فلا.

وقد احتجوا على وقوع هذا النوع من السحر، بالقرآن والخبر.

أمّا القرآن فقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والاستثناء يدل على حصول الآثار بسببه.

وأمّا الأخبار فهي واردة عنه ﷺ، متواترةً وآحاداً»[1].

وأمّا المحدّثون فيرون أنّ السحر له حقيقة، وأنّ الساحر يقدر بإذن الله على التأثير في المسحورين.

قال الإمام ابن حجر في الفتح: «واختُلف في السحر:

فقيل: هو تخييل فقط، ولا حقيقة له. وهذا اختيار أبي جعفر الأسترابادي من الشافعية، وأبي بكر الرازي من الحنفية، وابن حزم الظاهري، وطائفة.

وقال النووي: والصحيح أنّ له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنّة الصحيحة.

لكن محل النزاع: هل يقع بالسحر انقلابُ عيْن أوْ لا؟ فمن قال إنّه تخييل فقط، منع ذلك.

ومن قالوا: إنّ له حقيقة. اختلفوا: هل له تأثير فقط، بحيث يُغيِّر المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، أو ينتهي إلى الإِحالة بحيث يُصيّر الجمادَ حيواناً وعكسه؟.

فالذي عليه الجمهور هو الأوّل. وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني.

---

(١) تفسير الرازي ٣: ٢١٣ باختصار.

وقال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر، وأن له حقيقة. ونفى بعضهم حقيقتَه، وأضاف ما يقع منه إلى خيالاتٍ باطلة، وهو مردود، لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفّق أو تركيب أجسام، أو مزْجٍ بين قوى، على ترتيب مخصوص»[1].

○ سِحْر رسول الله ﷺ:

الراجحُ ما ذهب إليه جمهور أهل السنّة: مِنْ أنّ السحر له حقيقة وتأثير، وأن الساحر يقْدر على أن يؤثّر في خصمه وأن يضره، لكن بإذن الله.

هذا هو الراجح لأنه دلّت عليه النصوص، من القرآن والحديث.

أما القرآن فمنه ما ورد في قصّة هاروت وماروت. وسنعود لذلك بعد قليل بإذن الله.

وأمّا الحديث، فحادثة سحْر اليهوديّ لرسول الله ﷺ. هذه الحادثة التي أوردها الإِمام البخاري في عدة مواضع من صحيحه:

عن عائشة ﵂، قالت: سَحَرَ رسولَ الله ﷺ رجُلٌ من بني زريق، يقال له: لَبيدُ بن الأعْصَم، حتى كان رسول الله ﷺ، يُخيَّل إليه، أنّهُ كان يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندي، لكنه دعا ودعا. ثم قال: يا عائشة: أشعرتِ أنّ الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟

أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليَّ، فقال أحدهما للآخر: وما وجَع الرجل؟.

فقال: مطْبوب.

قال: مَن طبَّه؟

قال: لبيدُ بن الأعصمْ.

قال: في أيِّ شيء؟

---

(١) فتح الباري للإمام ابن حجر ١٠: ٢٢٢، ٢٢٣.

قال: في مشْط ومشاطَة، وجُفِّ طَلْعِ نَخلةٍ ذَكَر.

قال: وأين هو؟

قال: في بئر ذَرْوَان.

فأتاها رسول الله ﷺ، في ناس من أصحابه.

فجاء فقال: يا عائشة: كأنَّ ماءها نقاعةُ الحِنّاءِ، وكأنَّ رؤوس نخلها رؤوس الشّياطين.

قلت: يا رسول الله: أفَلا استخرجْتَهُ؟

قال: قد عافاني الله، فكرهتُ أن أُثير على الناس فيه شراً.

فأمر بها فدُفنتْ»[1].

ورواه البخاري في كتاب الطب، باب هل يُستخرج السحر؟ برواية أخرى فيها بعض الإضافات، قال:

«عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ سُحِر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنّ ـ قال سفيان راوي الحديث: وهذا أشدّ ما يكون من السّحر، إذا كان كذا ـ.

فقال يا عائشة: أعلمتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيتُه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال ومَنْ طبَّهُ؟ قال: لبيد بن الأعصم ـ رجل من بني زريق، حليفٌ ليهود، كان منافقاً ـ قال: وفيمَ؟ قال: في مشْط ومُشاطة. قال: وأين؟ قال: في جُفّ طَلَعَةٍ ذَكَر، تَحت رَعُوفَةٍ، في بئر ذروان.

قالت: فأتى النبيُّ ﷺ البئرَ حتى استخرجه.

فقال: هذه البئر التي أُريتُها، وكأنّ ماءَها نقاعةُ الحِنّاء، وكأنّ نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستُخْرِج.

---

(١) صحيح البخاري ٧٦، كتاب الطب ٤٧، باب السحر. حديث ٥٧٦٣.

قالت: فقلت: أفلا ـ أي تَنَشَّرْتَ ـ؟ فقال: أمّا واللَّهُ قد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا[1].

وقد تكلّم ابن حجر على الحديثين كلاماً مطوَّلاً، ونختار منه شرح بعض الكلمات فيهما.

فقول عائشة عن سحر رسول الله ﷺ أنّه كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنّ: إن هذا من باب التخيُّل والظن. وقد استدل القاضي عياض بذلك «على أن السحر إنّما تسلّط على جسده، وظواهر جوارحه، لا على تمييزه ومُعتقَده»[2].

وسحْر رسولِ الله ﷺ، لا يتعارض مع عصمةِ الرسول عليه السلام، وحفظِه وصونِه من الشياطين: «فصون النّبيّ ﷺ من الشياطين، لا يمنع إرادتهم كيدَه، وما ناله من ضرر السحر لا يُدخِل نقصاً على ما يتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض، من ضعفٍ عن الكلام، أو عجزٍ عن بعض الفعل، أو حدوثِ تخيُّل لا يستمر، بل يزول، ويبطل الله كيدَ الشياطين»[2].

وقول أحد الملَكين لصاحبه عن الرسول عليه السلام: إنّه مطبوب، يعني: إنّه مسحور، وكنُّوا عن السحر بالطب تفاؤلاً، كما قالوا للَّديغ سليم[3].

وقوْل أحدهما إن الذي سحره هو لبيد بن الأعصم. ورد عند مسلم «سحَر النبيَّ يهوديّ من يهود بني زريق هو لبيد بن الأعصم»[4].

وبيّن الواقدي أن هذا السحر وقع، لما رجع الرسول ﷺ، من الحديبية، في المحرم من السنة السابعة، حيث جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم ـ وكان حليفاً في بني زريق وكان يهودياً ساحراً ـ وطلبوا منه أن يجعل للرسول ﷺ سحْراً يؤثّر فيه، على أن يعطوه ثلاثة دنانير»[4].

---

(١) صحيح البخاري ٧٦، كتاب الطب ٤٩، باب: هل يستخرج السحر؟ حديث: ٥٧٦٥.
(٢) فتح الباري ١٠: ٢٢٧.
(٣) المرجع السابق ١٠: ٢٢٨.
(٤) فتح الباري ١٠: ٢٢٦.

وإن أخت لبيد قالت له: إن يكن نبياً فسيخبره الله، وإلَّا فسوف يذهله السحر حتى يَذهب عقلُه[1].

أما المشط الذي استخدمه لبيد بن الأعصم في السحر، فهو الآلة المعروفة، التي يسرَّح بها شعرُ الرأس واللحية[2].

وأمّا المشاطةُ فهي: ما يخرج من الشعر إذا مشَّطه صاحبه بالمشط.

وَجُفّ الطَّلعَةِ الذَكَر الذي وضع الساحر فيه المشط والمشاطة، هو: الغشاءُ الرقيق الذي يكون على الطَّلْع. والطلع هو ثمر النخيل، ويطلق على الذكر والأنثى»[3].

ولف الساحر لبيد المشط والمشاطة بغشاء الطلع، ووضعه تحت «رعوفة» بئر ذروان. والراعوفة هي: حجرٌ يوضع على رأس البئر، لا يُستطاع قلعُه، يقف عليه الشخص الذي يأخذ الماء من البئر. وقد يكون أسفل البئر[3].

وبئر ذروان: هي بئر بني زريق.

وقول عائشة لرسول الله ﷺ: ألا تنشّرت؟ وقوله لها: إنّ الله قد شفاني.

والنُّشرَة هي ضرب من العلاج، يعالَج به من يظّن أنّ بِهِ سحراً، حيث بها يحل السحر عن المسحور، ولا يقدر على هذا إلّا رجل يعرف السحر»[4].

وقد روى الإِمامُ البيهقي في دلائل النبوة زيادةً على ذلك: أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام بعث رجلاً إلى بئر ذروان. «فنزل الرجل فاستخرج جُفّ طلْعة من تحت الراعوفة، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ، ومن مُراطة رأسه، وإذا تمثال من شمع لرسول الله ﷺ، وإذا فيها إِبَر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة.

فأتاه جبريل عليه السلام بالمعوِّذتين. فقال: يا محمد «قل أعوذ برب الفلق»

---

(١) المرجع السابق ١٠: ٢٢٧.
(٢) المرجع السابق ١٠: ٢٢٩.
(٣) المرجع السابق ١٠: ٢٣٤.
(٤) فتح الباري ١٠: ٢٣٣.

وحلّ عقدة «من شر ما خلق» وحل عقدة. حتى فرغ منها ثم قال: «قل أعوذ برب الناس» وحل عقدة. حتى فرغ منها. وحلّ العقد كلّها.

وجعل لا ينزع إبرةً إلا وجد لها ألماً، ثم يجدُ بعد ذلك راحة.

فقيل: يا رسول الله: لو قتلتَ اليهودي. فقال رسول الله ﷺ: قد عافاني الله ﷻ، وما وراءه من عذاب الله أشد»[1].

وقد يستبعدُ بعضُ المسلمين حادثة سحر رسول الله ﷺ، ويعتبرها متعارضةً مع عصمة رسول الله ﷺ، وحفظِه من الشياطين.

ولا داعي لذلك الاستبعاد، بعدما ثبتت الحادثة في كل كتب الحديث، فهي من المتَّفق عليه بين البخاري ومسلم، وهي مذكورة عند كل كتب الحديث والسيرة والتفسير.

أمّا عن التوفيق بين الحادثة وبين العصمة، فسأكتفي فيه بذكر كلام الإمام «المازري» الذي أورده الإمام النووي في شرحه لصحيح الإمام مسلم:

قال المازري: «وقد أنكر بعضُ المبتدعة، هذا الحديث، بسببٍ آخر، فزعم أنّه يحطُّ منصب النبوة، ويشكِّك فيها، وأنّ تجويزَهُ يمنع الثقة بالشرع.

وهذا الذي ادَّعاه هؤلاء المبتدعة باطل.

لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدْقه وصِحته، وعصمتُه فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك. وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل.

فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا، التي لم يُبعث بسببها، ولا كان مفضَّلاً من أجلها، وهو مما يعرض للبشر:

فغيرُ بعيد أن يخيَّل إليه من أمور الدنيا، ما لا حقيقة له.

وقد قيل: إنه إنما كان يُخيَّل إليه أنه وطئ زوجاتِه، وليس بواطئ، وقد يتخيلُ الإنسانُ مثل هذا في المنام، فلا يبعد تخيُّله في اليقظة، ولا حقيقة له.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٧: ٩٤ وانظر: فتح الباري ١٠: ٢٣٠.

وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله، وما فعله، ولكن لا يَعتقد صحةَ ما يتخيلُه، فتكون اعتقاداته على السداد.

قال القاضي عياض: وقد جاءت روايات هذا الحديث مبيِّنة أن السحر إنما تسلَّط على جسده وظواهرِ جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده.

ويكون معنى قوله في الحديث: «حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن»، ويروى «يخيل إليه»، أي يَظهر له من نشاطه ومتقدِّم عادته، القدرةُ عليهن، فإذا دنا منهن أخذتْه أخذةُ السحر، فلم يأتهن، ولم يتمكن من ذلك، كما يعتري المسحور.

وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيَّل إليه فعلُ شيء لم يفعله، ونحوه، فمحمول على التخيُّل بالبصر، لا لخلل تطرق إلى العقل.

وليس في ذلك ما يُدخل لَبساً على الرسالة، ولا طعناً لأهل الضلالة»[1].

○ السحر الحلال: إن من البيان لسِحراً:

عرفنا أن السحر يطلق على كل ما لطُف وخَفي مدخله ودقّ وأثّر في الناس.

ونقرر هنا أن السحر نوعان:

نوع مذموم منكَر باطل، يحاربه الإسلام ويرفضه وينقضه، وهو معظم ممارسات السحرة وأعمالهم.

ونوع محمود ممدوح مرغوب فيه... حلال.

وكلامنا هنا عن النوع الثاني الحلال.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه قدِم رجلان من المشرق، فخطبا، فعجب الناس لبيانهما. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسِحراً، أو إن بعض البيان لسحر»[2].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤: ١٧٤، ١٧٥.

(٢) صحيح البخاري ٧٦، كتاب الطب ٥١، إن من البيان لسحراً. حديث ٥٧٦٧.

وهذه القصة التي أوردها البخاري موجزة، ذكرها كتّاب السيرة مفصلة.

ونأخذ رواية الإِمام البيهقي في دلائل النبوة:

عن عبد الله بن عباس ﵄ قال: جلس إلى رسول الله ﷺ، قَيْسُ بنُ عاصِم، والزِّبْرِقانُ بنُ بَدْر، وعمْرو بن الأهتَم، التمِيميُّون. ففخر الزبرقان، فقال: يا رسول الله: أنا سيد تميم والمطاعُ فيهم، والمُجابُ، أمنعهم من الظلم، وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا يعلم ذلك ـ يعني عمرو بن الأهتم ـ.

فقال عمرو بن الأهتم: إنه لشديد العارضة، مانعٌ لجانِبهِ، مُطاعٌ في أُذنيهِ.

فقال الزبرقان بن بدر: والله يا رسول الله، لقد علم مني غيرَ ما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد.

فقال عمرو بن الأهتم: أنا أحسدك؛ فوالله إنك لئيمُ الخال، حديثُ المال، أحمقُ الولد، مُضَيَّع في العشيرة.

والله يا رسول الله، لقد صدقتُ فيما قُلت أولاً، وما كَذبتُ فيما قلتُ آخراً. ولكني رجل إذا رضيتُ قلتُ أحسنَ ما علمت، وإذا غضبتُ قلتُ أقبحَ ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعاً.

فقال النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً»[1].

وقد قال الإِمام الخطابي في المراد بالبيان هنا:

البيان اثنان:

أحدهما: ما تقع به إبانة عن المراد بأي وجه كان.

والآخر: ما دَخَلتْهُ الصَّنعة؛ بحيثُ يروق السامعين، ويَسْتَميل قلوبهم. وهو الذي يشبَّه بالسحر إذا خَلَبَ القلب، وغلب على النفس، حتى يُحوِّل الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظِر في معرض غيره.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥: ٣١٦، ٣١٧. وانظر: فتح الباري ١٠: ٢٣٧.

وهذا إذا صُرف إلى الحق يُمدحُ، وإذا صُرف إلى الباطلِ يُذَم.

وقد حمل بعضهم الحديثَ على المدح، والحثِّ على تحسين الكلام، وتحبير الألفاظ»[1].

أما ابن بطَّال فقد ذكر الإمامُ ابن حجر قوله في شرح الحديث:

«أحسنُ ما يُقال في هذا: إن هذا الحديثَ ليس ذماً للبيان كله، ولا مدحاً لقوله «من البيان» فأتى بلفظة «من» التي للتبعيض. وكيف يُذم البيان، وقد امتنَّ الله به على عباده ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ٣ ـ ٤].

وعلق ابن حجر على كلام ابن بطال: «وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مدْح الإطناب في مقام الخطابة بحسب المقام. نَعَم الإفراطُ في كل شيء مذموم، وخير الأمور أوسطها»[2].

○ إنما نحن فتنة:

ماذا كان يقول المَلَكان لأهل بابل، وهما يعلمانهم السحر؟ كانا يقولان: «إنَّما نَحْنُ فِتْنةٌ فلا تَكْفُر».

قرّرا أن الله أنزلهما على بابل فتنةً لأهلها، وكانت مهمتُهما فتنةً لأهلها، وكان تعليمُهما فتنةً لأهلها.

والفتنة هي: الابتلاء والامتحان والاختبار، كما قال موسى عليه السلام لربه: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي هي ابتلاؤك لنا. ونتيجةُ هذه الفتنة والامتحان والابتلاء مختلفةٌ متباينة، فمن الناس من يضل بها، فيسقط في الامتحان، ومن الناس من يهتدي بها، ويزدادُ إيماناً، فينجح في الامتحان.

---

(١) فتح الباري ١٠: ٢٣٧.

(٢) فتح الباري ١٠: ٢٣٨.

وكان هاروت وماروت فتنةً للبابليين، وكان تعليمهما السحر فتنة لهم.

لقد أراد المَلَكان تحذير البابليين من ممارسة السحر: إنهما يعلمانهم السحر ليكشفا حقيقته، ويعرِّفاهم على طبيعته، أمّا أن لا يثبت هؤلاء أمام إغراء السحر وممارستِهِ والعمل بِهِ، وإضرار الآخرين به، فهذا معناه أنهم سقطوا في الامتحان.

كانا فتنة، وحذَّرا الناس من السحر والكفر والسقوط، ولكن الناس لم يُحسنوا التعامل مع الفتنة، لذلك سقطوا فيها، فمارسوا السحر وكفروا.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب «ولقد مضى في تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالتَها، وإدراكَها في كل طور من أطوار حياتها.

فإذا جاء الاختبار في صورة مَلَكين ـ أو في صورة رجليْن طيبيْن كالملائكة ـ فليس هذا غريباً ولا شاذّاً، بالقياس إلى شتى الصُّور وشتى الابتلاءات الخارقة، التي مرت بها البشرية، وهي تحبو، وهي تخطو، وهي تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة، في غياهب الليل البهيم»[1].

الناس في هذه الحياة، يفتنهم الله ويبتليهم ويمتحنهم، لكن كم من هؤلاء من يلحظ معنى الفتنة في الحياة؟ وكم من هؤلاء من يحسن التعامل مع أدوات الفتنة ووسائلها؟ وكم من هؤلاء من ينجح في هذه الفتنة ويكون من الفائزين؟.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

○ الرجل والمرأة: كل منهما زوج للآخر:

أثبت القرآن حقيقةً لبعض أنواع السحر، وجعل للساحر قدرة على التفريق بين المرء وزوجه.

---

(١) الظلال ١: ٧٨، ٩٧.

فَأهل بابل خالفوا وصيةَ هاروت وماروت، ومارسوا السحر، وعملوا به، واستخدموه في الأذى والضرر، والتفريق بين المرء وزوجه.

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

المَرْء هو الرجل، والمرأة هي الأنثى، يُقَال: مَرْءٌ وامْرُؤٌ، ومَرْأَةٌ وامْرأة. ويثنى فيقال: هذان امْرءان، كما يقال: هاتان امرأتان.

لكنه لا يُجمع. فيقال: هؤلاء رجال. بدل هؤلاء امرؤو صدق.

أما كلمة «زوج» فهي تطلق عى كل من الرجل والمرأة، بل تطلق على كل قرينيْن مقترنيْن معاً.

قال الإِمام الراغب: «زوج: يُقَال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى، في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينيْن فيها وفي غيرها زوج، كالخفِّ والنعل، ولكل ما يَقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً، زوج، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٩]. وقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وزوجة لغة رديئة، وجمعُها زوجات قال الشاعر:

فَبَكا بَنَاتي شَجْوَهُنَّ وَزَوْجَتي

وجمع الزوج أزواج.

وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذريات: ٤٩].

وهذا فيه تنبيهٌ على أن الأشياء كلَّها مركبةٌ من جوهر وعَرَض، ومادةٍ وصورة، وأن لا شيء يتعرى من تركيب، يقتضي كونَه مَصْنوعاً، وأنه لا بد من صانع، تنبيهاً أنه تعالى هو الفرد.

وقوله: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ فبيَّنَ أن كل ما في العالم زوج، من حيث أن له ضِداً أو مِثْلاً أو تركيباً ما، بل ما ينفكّ بوجه من تركيب.

وإنما ذَكر ههنا زوجين، تنبيهاً أن الشيء وإن لم يكن له ضد ولا مِثْل،

فإنه لا ينفك من تركيب جوهر وعَرَض، وذلك زوجان»[1].

الرجل زوج للمرأة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

والمرأة زوج للرجل، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

فكل منهما زوج للآخر.

وهناك لفتة لطيفة من إطلاق كلمة «الزوج» على كل منهما: إن الرجل بمفرده ناقص، لا يكون كياناً مستقلاً. وإن المرأة بمفردها ناقصة لا تكون كياناً مستقلاً. ولذلك لا بدّ من اجتماعهما واقترانهما ليكونا معاً كياناً مستقلاً.

كذلك هناك جوانب في الرجل لا تكمّلها إلّا المرأة، وبدونها يبقى الرجل ناقصاً. وهناك جوانب نقْص عند المرأة، لا يكمّلها إلّا الرجل عندما يقترن بها، وبدونه تبقى المرأة ناقصة.

الرجل يكمّل نقص المرأة فهو لها زوج، والمرأة تكمّل نقص الرجل فهي له زوج. ولذلك كل منهما زوج للآخر.

○ الساحر يفرّق بين الزوجين:

أثبت القرآن للساحر قدرةً على التفريق بين الزوجين، فقال عن أهل بابل: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

وهذا فيه إشارة إلى أن بعض أنواع السحر لها حقيقةٌ وتأثير في الآخرين، فالسحرة يفرقون بالسحر بين المرء وزوجه.

ولاحظ الفاعل في قوله: «يفرقون» إنه «واو الجماعة» وهي عائدة إلى السحرة. والفاعل هو الذي يقوم بالفعل، أي أن السحرة يقدرون على التفريق بين المرء وزوجه.

---

(١) المفردات للراغب: ٢١٥، ٢١٦.

إن التفريق بين المرء وزوجه، وإحلالَ الخصام والنزاع محلَّ المحبة والاتفاق، هي رسالةُ الشيطان الأساسية، وهي مهمةُ جنوده، عندما يرسلهم لإغواء الناس والتفريق بينهم. وإن الجنديَّ المقدَّم من هؤلاء عنده، هو الذي يقْدر على التفريق بين المرء وزوجه، فبذلك ينال الحَظْوة والمنزلة عند شيطانه الحاقد الكبير!.

وهذا ما بيَّنه رسول الله ﷺ.

فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الماء. ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاه. فَأَدْناهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتنةً. يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيقُول: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيقُول: مَا صَنَعْتَ شَيْئاً. ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيقول: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ. فَيُدْنيهِ مِنْه، ويَقُول: نِعْمَ أَنْت»[1].

قلنا: إن هذه العبارة «يُفرقون به بين المرء وزوجه» تدل على أن السحر قد يؤثِّر في الآخرين، وأن الساحر قد يفرق به بين المرء وزوجه. لكنّ الإمام الطبري يرى أن السحر لا حقيقة له، وأنه تخييل وخداع. وحَمَل التفريق بين الزوجين في الآية، على الناحية التخييلية. قال: «فتفريقُه بين المرء وزوجه: تخييلُه بِسحره إلَى كُل واحد منهما شخصَ الآخر، على خلاف ما هو به في حقيقته، من حُسْن وجمالٍ، حتى يقبِّحه عنده، فينصرفَ بوجهه ويعرض عنه، حتى يُحْدِث الزوجُ لامرأته فراقاً. فيكون الساحر مفرِّقاً بينهما بإحداثه السبب الذي كان منه فرقةُ ما بينهما.

وإنّ العرب تضيف الشيء إلى مسبِّبه من أجل تسبُّبه، فكذلك تفريق الساحر بسحره بين المرء وزوجه.

وقد أورد الطبري قول قتادة في التفريق: «وتفريقُهما أن يُؤخَذ كل واحد منهما عن صاحبه، ويُبَغَّض كل واحد منهما إلى صاحبه»[2].

---

(١) مسلم ٥٠، كتاب صفات المنافقين ١٦، باب تحريش الشيطان. حديث رقم ٢٨١٣.
(٢) تفسير الطبري ٢: ٤٤٧.

فنسبةُ التفريق إلى السحرة نسبةٌ مجازية، وليست حقيقية، ويبقى السحر تَخْييلياً تمثيلياً، لا حقيقة له، وإنما يقوم على الإيحاء النفسي، والمسحور هو الذي يستجيب لذلك التخييل والإيحاء أو لا يستجيب، فإذا لم يستجب وبقي في مناعة فإن الساحر عاجزٌ عن التأثير فيه، وإن السحر لم يضره، أما إذا استجاب لذلك الإيحاء واستسلم لذلك التخييل، فهو الذي اختار واستسلم، وقام بكرْهِ وبغضِ زوجه، فحصل التفريق بينهما.

هذا رأي الطبري في تأثير السحر، وفي كونه مفرِّقاً بين المرء وزوجه. ونحن معه في هذا التأويل والتفسير، لكننا نجعله مقصوراً على بعض صور السحر وأنواعه، ولا نعمّمه على كلِّ تلك الصور والأنواع، ولسنا مع الطبري في التعميم والشمول، فمن السحر ما له حقيقةٌ وتأثير، وليس مجرد تمثيل وتخييل.

وحول هذا المعنى يقول الأستاذ الإمام سيد قطب: «وقد تكون صورةً من صور السحر، القدرةُ على التأثير والإيحاء إمّا في الحواس والأفكار، وإمّا في الأشياء والأجسام...

وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعَه من سحرة فرعون، كان مجرد تخييل لا حقيقة له: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلةً للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه، فالانفعالات تنشأ من التأثرات. وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسبّبات، لا تقع كلُّها إلا بإذن الله»[1].

السحر سبب للتفريق بين المرء وزوجه. بإذن الله.

والساحر يقدر على التفريق بين المرء وزوجه. بإذن الله.

ولا يهم بعد ذلك إن كان التفريق لأن السحر له حقيقة وتأثير ـ فهذا موجود ومسلَّم به ـ أو أن التفريق عن طريق الإيحاء النفسي في نفس المسحور ـ كما قال الإمامان الطبري وسيد قطب ـ.

---

(١) الظلال ١: ٩٧.

○ السحر يضر بإذن الله:

بعدما أثبت القرآن للساحر قدرةً على التفريق بين المرء وزوجه، ربط هذا بإذن الله وأمره. قال: «فَيَتَعَلَّمُون مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ. وَمَا هُمْ بِضَارِّينْ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ».

وإذْن الله هنا معناه: علْم الله سبحانه، وقضاؤه، والتخليةُ بين المسحور وبين السحر، بحيث يضره ذلك السحر[1].

وهذه الحقيقة القرآنية يقدّمها القرآن هنا، في قصّة هاروت وماروت، وأثناء الحديث عن ضرر السحر للناس، وإيذاء الساحر للآخرين. يقدّمها القرآن لحرصه على صفاء العقيدة ونصاعة الإيمان، وتجريد كل الأشياء والقوى والأسباب والظواهر من القدرة الذاتية والتأثير الذاتي، والضر والنفع الذاتي.

إن الإيمان بالله يعني - في جملة ما يعني - أن الله كان عالماً بكل ما كان وما سيكون حتى قيام الساعة، وأن علمه بالأشياء قبل وقوعها. وإنّه يعني - في جملة ما يعني - أن كل شيء يحدث في هذا الكون بأمر الله وإذنه وإرادته ومشيئته وقضائه، وأن شيئاً لن يحدث إذا لم يشأه الله ولم يقدّره ولم يأذن بِهِ، ولو أراده كل النّاس، وأن ما أراده الله وشاءه وقدّره فلا بد أن يقع، ولو وقف في وجهه كل الناس.

إن الأشخاص والقوى والأسباب لا تعمل إلّا بإذن الله، ولا تؤثر ولا تضر ولا تنفع إلّا بإذنه، وإن الله يعطلها إذا لم يشأ أن تعمل، ويوقفُها عندما يشاء. فما هي إلا أسباب فقط، بيد المسبِّب المقدِّر المريد سبحانه.

وهكذا السحر:

السحر يضر، نعم. والسحر يؤذي، نعم. والسحر يفرق بين المرء وزوجه، نعم.

لكنّه لا يعمل هذا إلّا بإذن الله وعلمه ومشيئته وقضائه، سبحانه. وإذا لم

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢: ٤٤٩، ٤٥٠.

يشأ الله أن يضر فلن يضر، وإذا لم يشأ الله أن يفرق بين المرء وزوجه، فلن يفرق، «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلّا بِإِذْنِ الله».

قال الأستاذ الإمام سيد قطب في هذا المعنى: «فبإذن الله تفعل الأسباب فعلَها، وتُنشئ آثارها، وتحقق نتائجَها.

وهذه قاعدة كلية في التصور، لابد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً.

وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنّك إذاعرَّضْتَ يدك للنار فإنها تحترق، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله. فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق، وأودع يدك خاصية الاحتراق بها، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية، حين لا يأذن، لحكمة خاصّة يريدها، كما وقع لإبراهيم عليه السلام.

وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، يُنشئ هذا الأثَرَ بإذن الله، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه، حين لا يأذن، لحكمة خاصة يريدها.

وهكذا بقية ما نتعارف عليه، بأنه مؤثِّرات وآثار. كل مؤثِّر مودَعٌ خاصية التأثير بإذن الله. فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقِف مفعولَه، كما أعطاه هذا المفعولَ حين يشاء...»[1].

وإيمان المؤمن بهذه الحقيقة الإيمانية، يحقّق إيمانه بالله كما يريد الله، وإنّه يُبعدُ عن نفسه كل صورة من صور الشرك الجلي أو الخفي بالله، إنه لا يجعل الأسبابَ أو القوى أو الأشخاص شركاءَ لله، أو آلهة فاعلة من دون الله.

ثم إن إيمانه بهذه الحقيقة الإيمانية، يُضْفي على حياته المعاني الإيجابية الحيّة، من العزّة والجرأة والشجاعة والإقدام، لأنه لا يخشى إلّا الله، ولا يرجو إلّا الله، ولا يخضع إلّا لله، ولا يذل إلّا لله.

---

(١) الظلال ١: ٩٦.

وهذا يسكُبُ عليه معاني السعادة والهناء، والأمن والأمل، والرضى واليقين. وهذه المعاني يحتاجها كلُّ إنسان، ويخسر كلّ شيء إذا فقدها...

○ العلم الضارّ:

ماذا تعلَّم أهلُ بابل؟ لقد تعلموا السحر.

وماذا عملوا بذلك العلم؟ لقد استخدموه في إيقاع الضرر، والتفريق بين المرء وزوجه.

كان بمقدورهم استخدامُ العلم فيما ينفع، ينفعهم وينفع الآخرين، ولكنّهم أبَوْا ذلك، واستخدموه فيما يضر ويؤذي.

وقد سجل القرآنُ هذا التصرف العجيب بقوله: «وَيَتَعَلَّمونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاه مَالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاق، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون».

وإن الإنسان البصير ليتعجب من أولئك، ويأسىٰ لهم ويحزن لِمَا أصابهم، حيث تعلّموا ما يضرّهم ولا ينفعهم، كان بمقدورهم استخدامُ العلم فيما ينفع، فحوّلوه إلى ما يضرّ. فأوقع الضرر والشرّ بهم.

من العلم ما ينفع، ومن العلم ما يضرّ!

وتعلُّم العِلْمِ شاق وعسير، ويحتاج إلى جهود ونفقات وأوقات، يعلمها كل من أنفقها ليتعلم.

والإنسان يجد راحةً ولذةً في طلب العلم، ويستعذب كل ما يبذله في سبيل تعلُّمه، لأنه ينظر إلى النهاية والثمرة، فتحدوه إلى متابعة المسيرة.

فكيف إذا بذل طالب العلم ما بذل، وشقي في تحصيل العلم ما شقي، ثم ينظر في حصيلة ما جنى واكتسب، فإذا به يضرُّه ولا ينفعه. كم ستكون خسارته؟ ألا تنظرُ لهذا الخاسر نظرة إشفاق وحزن؟ ألا تعتقد بأنّه لو بقي جاهلاً لكان خيراً له؟ كما قال الشاعر الجرجاني:

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتي ... لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لَأُخْدَمَا

أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْساً وَأَجْنِيْهِ ذِلّةً إِذَنْ فَاتّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَسْلَمَا

وإذا نظرتَ إلى الذين يطلبون العلوم الدنيوية اليوم، فكم من هؤلاء من يتعلمون ما ينفعهم، وكم من هؤلاء من يتعلمون ما يضرهم. كم من العلوم اليومَ ما تضرُّ أصحابها ولا تنفعهم، ويحققون بها الشر والأذى، بدل الخير والنفع.

العلوم التي تردُنا من العالم الغربي، معظمها مما يضرّ ولا ينفع، وإلا فما هو النفع في الموسيقى والرسم والنحت والتمثيل والسياحة والآثار؟؟.

○ لو كانوا يعلمون:

وردَتْ هذه العبارة «لو كانوا يعلمون» مرتين في قصّة هاروت وماروت:

المرة الأولى: في سياق ذمّ أهل بابل لتعلّمهم السحر، واستخدامه فيما يضرّ «وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاق، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَو كَانُوا يَعْلَمُون».

وفي هذا نفيٌ للعلم عنهم، فلو كانوا يعلمون، لما تعلّموا ما يضرّهم ولا ينفعهم، ولو كانوا يعلمون لما تركوا الآخرة، وَلَما زهدوا في نصيبهم منها، ولو كانوا يعملون لما باعوا أنفسهم للباطل والشر والأذى والشيطان.

هل هناك صاحب علمٍ نافع يتصرف هذا التصرف؟ هل هناك صاحب علم يؤثر الدنيا على الآخرة؟ هل هناك من يزهد في الآخرة وخيراتها ونعيمها، ليُقبل على الشّر والباطل والشّيطان؟.

كل من فعل هذا، نوقن أنّه لا علم عنده، ولو حمل أرفع الشهادات العلمية، وأمضى في العلم سنوات عمره!.

المرة الثانية: في سياق دعوتهم إلى البديل النافع، والطريق الصحيح، الذي يجب أن يقودهم له العلم: «وَلَوْ أَنَّهُمْ آمنوا واتَّقَوْا، لَمَثُوبَةٌ مِنْ عند الله خَيْرٌ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونْ».

لَو كَانوا يعلمون لاختاروا الإيمان والتقوى، لوكانوا يعلمون لآثروا ثواب الله، وطلبوا الخير الذي عند الله.

وبما أنّهم لم يفعلوا ذلك، فهم لا يعلمون، وبما أنّ العلم لم يأخذ بأيديهم إلى ذلك فهو غيرُ موجود.

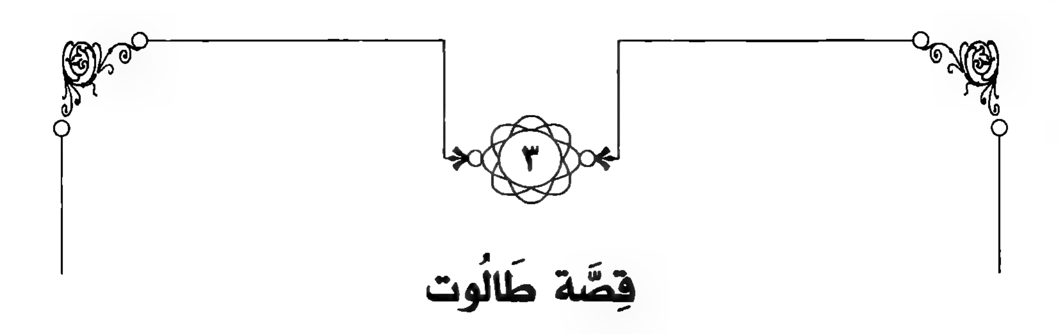
ولا ننسى ما ذكره القرآن عن سوء تصرُّف اليهود، وسوء نظرتهم للحقّ. قبل حديثه عن هاروت وماروت، واتِّباع اليهود للسحر، حيث قال:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

اليهود هناك تصرفوا تصرُّف الذين لا يعلمون، وهم هنا يسيرون في طريق الذين لا يعلمون، ولو كانوا يعلمون لما فعلوا ما فعلوا.

العلم المعْتَبَرُ هو الذي ينفع صاحبه ولا يضرُّه، والعلم المقبول هو الذي ينفع الآخرين. فإن لم يكن كذلك، فكأنّه غيرُ موجود، وأصحابه يكونون من الذين لا يعلمون، ولو ظنّوا أنّهم يعلمون، فالعلم بنتيجته وثمرته!!.

* * *



قِصَّة طالُوت

○ القصة في العرض القرآني:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥٢].

○ موجز القصة من خلال العرض القرآني:

تشير آيات القرآن إلى قصة وقعت لبني إسرائيل، في فترة من فترات حياتهم في الأرض المقدسة، كانوا مضطَّهَدين مهزومين أمام أعدائهم، وقد سلب أعداؤهم منهم «التابوت» الذي فيه سكينة من الله، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

وقد شعر القوم بالذل ومرارة الهزيمة والهوان، وكان هذا الشعور عند الجميع، العامة والملأ المالكون فيهم. فأرادوا أن يغيِّروا واقعهم الذليل، وأن يبدلوا ذلهم وهزيمتهم نصراً. وعلموا أن السبيل الوحيد لذلك هو الجهاد والقتال.

لذلك لجأ الملأ الحاكمون فيهم إلى نبيهم، وفزعوا إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم ملكاً يتولى أمورهم، ويقودهم إلى العزة والنصرة، ويقاتل بهم أعداءهم، في سبيل الله.

ويبدو أن ذلك النبي كان يعلم طبيعتهم المائعة وهمتهم الرخوة، وأنهم عندما يؤمَرون بالقتال، فسوف ينكصون عنه، ويقعدون عن خوضه، فقال لهم: هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألّا تقاتلوا؟ يعني: هل تقاتلون أم تتخلفون عندما نطالبكم بالقتال؟ إنني أعلم أنكم ستتخلفون!.

فطمأنوه بأنهم سوف يقاتلون ولا يتخلفون، وأن الذي يمنعهم من القتال هو عدم وجود ملك لهم يقودهم، وأنه إن جاءهم بالملك فسيسارعون في القتال معه. وبيَّنوا له الباعث القوي الذي يدفعهم للقتال، إنه الذل الذي يعيشونه، وإخراجهم من ديارهم، وهزيمتهم أمام أعدائهم. وإنهم حريصون على هزيمة الأعداء وتحرير الديار، فلماذا لا يقاتلون؟.

لمّا سمع نبيهم كلامهم، ولاحظ حماستهم واندفاعهم، سأل ربه، فأوحى الله إليه أن «طالوت» هو ملكهم الذي يقودهم إلى النصر والعزة والتحرير.

فوجئوا بذلك، إذ كانوا يتوقعون الملك قادماً من بيت الملك وعائلة

الملوك، وطالوت ليس من هذا البيت، ثم إنه فقير لا يملك المال الكافي الذي يؤهله للملك، فاعترضوا على نبيهم قائلين: أنّى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه، ولم يُؤتَ سعة من المال!.

عجب النبي من موقف القوم الذين كانوا يريدون أي ملك، فلما اختار الله لهم طالوت ملكاً اعترضوا. فبين لهم النبي المواصفات التي تؤهله للملك، وأنه هو أنسب الناس للملك حسب الميزان الرباني الإيماني: إن الله اصطفاه عليكم، والله حكيم خبير. وإن الله زاده بسطة في العلم وتمكناً منه، وأن الله زاده بسطة وقوة في الجسم تعينه على النهوض بأعباء الملك ومشقات القيادة. ثم لماذا يعترضون عليه؟ إن الله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم، وطالما أن الله آتى طالوت الملك فهو الملك المؤهل له.

وأراد نبيهم أن يزيل ما في عقولهم ومشاعرهم من اعتراض على طالوت، فبين لهم آيةً وعلامةً يأتيهم بها الله،ومجيئها يدل على أن الله هو الذي رضي لهم طالوت ملكاً. وقال لهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت، فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، تحمله الملائكة: إن في ذلك لآية لكم، إن كنتم مؤمنين.

يأتيهم التابوت الذي كان لهم، يأتيهم وحيداً بدون قتال ولا حرب، ولا انتصار على أعدائهم الذين سلبوه منهم، إن الملائكة هي التي ستحمل هذا التابوت، وتوصله إليهم.

وحمْل الملائكة للتابوت وتوصيله إليهم دليل على أن الله رضي لهم طالوت، والملائكة رضيت لهم طالوت.

وهذا التابوت كان يحوي سكينةً من ربهم، والسكينة هي الطمأنينة والراحة والرضى واليقين، كما كان يحوي بقيةً مما ترك آل موسى وآل هارون. ولعل هذه البقية شيء مادي ورثوه عن آل موسى وآل هارون.

وتحققت الآية التي وعدهم بها نبيهم، وحملت لهم الملائكة التابوت، وأوصلتْه إليهم، فوافقوا على تملك طالوت عليهم مُكرَهين!.

تسلم طالوت الملك والسلطان، وعبأ قومه للقتال، وجهزهم لمحاربة أعدائهم الكافرين.

ولما خرج بهم للمعركة الفاصلة، تصرف معهم بحزم وحنكة وذكاء وعلم، وحقق ما وصفه به نبيهم من أن الله زاده بسطة في العلم والجسم.

إنه يعلم أن قومه متحمسون للقتال مندفعون إليه، ويعلم أنها «فَوْرَة» عارمة سرعان ما تزول، ويعلم أن الوعود والأماني ليست مثل التجربة العملية، ويعلم أن كثيراً من الاندفاع والحماس يتبدد عند الامتحان العملي، وأن كثيراً من الوعود والأماني ينقضها أصحابها عند التطبيق الواقعي، ولهذا اختبرهم ليرى ما هم عليه.

خرج من بلادهم إلى أعدائهم، ولما فصل بهم وغادر العمران والديار، قال: إن الله مبتليكم بنهر، فعندما تمرون عليه لا تشربوا منه، فمن خالف أمري وشرب منه فليس من جيشي، فلا يتبعني، لأنه ليس جندياً منضبطاً مطيعاً. أما من لم يشرب من النهر والتزم الأمر وأطاع فإنه مني.

وكمظهر من حنكته وفطنته، أجاز لهم أن يغترف الرجل منهم من النهر غرفة واحدة بيده، يبل بها فمه ويخفف عطشه. وإذا أردت أن تطاع، فاطلب ما يستطاع!.

فلما وصلوا النهر عصوا طالوت، وشربوا منه، إلا قليلاً منهم التزموا الأمر وأطاعوا القائد.

ترك طالوت جموع العصاة المخالفين، وسار بالقلة المؤمنة المطيعة، حتى وصل بها أرض المعركة الفاصلة.

نظر جنوده إلى جنود الأعداء، فخافوا قتالهم، وجبنوا عن مواجهتهم.

وكان أعداؤهم الكفار بقيادة «جالوت» وكانوا أكثر منهم عدداً.

فخاطب كثير من تلك القلة طالوتَ، وقالوا له: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، ولا قدرة لنا على حربهم، ولهذا لن نحاربهم.

تركت جموع الخائفين الجيش، وجبنوا عن المعركة، وبقي الملك

طالوت مع قلة قليلة من جيشه، وهم الذين يظنون أنهم ملاقو الله، والراغبون في جنته ونعيمه.

وعلَّم هؤلاء الرجال القلائل، الجموع الخائفة أسس النصر ومقوماته، فقالوا لهم: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. والله مع الصابرين.

دخل طالوت المعركة مع الرجال القلائل المؤمنين الصابرين، ولما بدأت المعركة، طلبوا النصر من مالكه سبحانه، فاستغاثوا به، وتضرعوا إليه، وقالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

وحقق الله لهم وعده، وأنزل عليهم نصره، طالما أنهم صدقوا الله ما وعدوه، فهزموهم بإذن الله.

وكان من بين هؤلاء الرجال الصابرين، داود عليه السلام ـ ولم يكن نبياً ولا ملكاً في ذلك الوقت، حيث نُبِّئَ ومَلَك بعد ذلك والله أعلم ـ فتوجه داود إلى جالوت وقتله. ومنَّ الله على داود بعدها بالملك والحكمة، وعلَّمه مما يشاء.

عاد طالوت بالقلة المؤمنة المنتصرة إلى مملكته. بعدما حرر الديار، واسترد التابوت، وهزم الأعداء، ومكَّن لقومه.

عاد بعد أن اكتشف حقيقة بني إسرائيل، وكشف لنا الكثير من خفاياهم وطبيعتهم.

عاد بعد أن عرف حقيقة مطالب الجماهير، وعرف كيف يتعامل مع الجماهير، وعرف من هم المجاهدون الثابتون، وأنهم دائماً قلائل وسط الجماهير والجموع.

وبعد طالوت، حكَم بني إسرائيل داودُ ـ النبي الملك الخليفة عليه السلام ـ.

○ قصة طالوت في الإسرائيليات:

قصة طالوت معروفة عند بني إسرائيل، وهي مذكورة بتفصيل واسع في العهد القديم، وكتب بني إسرائيل.

لقد فصلت كتب بني إسرائيل الحديث عن واقع بني إسرائيل قبل طالوت.

كما فصلت الحديث عن بداية أمر طالوت، وتوجهه لمحاربة الأعداء وظهور داود، وما جرى بينه وبين طالوت بعد قتل جالوت.

امتلأت صفحات بهذه الإسرائيليات المفصَّلة. وتناقلها رواة الإسرائيليات، وقاموا بروايتها للمسلمين، وأُعجب بعض الإخباريين من المسلمين بتلك الإسرائيليات، ووردت في بعض كتب الأخبار والتاريخ والقصص والتفسير. وفسِّرت آيات القرآن الكريم بتلك الإسرائيليات!.

ونرى أن لا نورد هذه الإسرائيليات في حديثنا عن قصة طالوت، ولو من باب التحذير منها ـ كما فعلنا في القصص السابقة من هذا الكتاب ـ لأنها طويلة، وإنْ أوردناها ستأخذ منا عدة صفحات.

ولهذا سنشير إليها إشارات لنحذر منها وننبه عليها.

قالوا: إن بني إسرائيل دخلوا فلسطين، وانتصروا بقيادة فتى موسى عليه السلام يوشع بن نون، على سكان البلاد. واضطروهم للإقامة في الساحل الجنوبي لفلسطين ـ في غزة وعسقلان ـ بينما أقام بنو إسرائيل في الشمال والوسط.

وبقي الملك والقوة والنصر لبني إسرائيل أربعمائة وستين سنة، لأنهم كانوا عابدين لله.

ولكن بني إسرائيل بعد ذلك كفروا وطغوا وبغوا. فسلّط الله عليهم أعداءهم الفلسطينيين، فهزموهم وأسروا أبناء ملوكهم وأخذوا تابوتهم.

قالوا: ولد لهم غلام بعد قصة عجيبة، وهذا الغلام اسمه صمويل ـ أو شمويل أو شمعون ـ وكان عندهم كاهن اسمه «عيلي» وكان منافقاً كاذباً، فاختار الله شمويل نبياً عليهم، ومات الكاهن «عيلي».

قالوا: جاء الملأ من بني إسرائيل إلى نبيهم «شمويل» وطلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله. فأخذ عليهم العهود والمواثيق على الطاعة.

ثم أخذ عصا وقَرْن فيه دهن مقدّس، وقال لهم: إن الملك المختار عليكم، هو الذي طوله طول العصا.

قالوا: مر بالنبي رجل اسمه «شاول» وهو الذي سماه القرآن طالوت. وكان من عامة الشعب، وكان يدبغ الجلود، وضاع حماره فقام يبحث عنه، ولما دخل على شمويل قاس طوله فعرف أنه الملك، فقال لهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً. فاعترض قومه على ذلك لأنه لم يكن من سبط يهوذا سبط الملوك ـ ولا من سبط لاوي ـ سبط الأنبياء، فكان علامة ملكه مجيء التابوت إليهم.

قالوا: وكان التابوت قد هبط مع آدم من الجنة، وبقي الأنبياء يتوارثونه حتى وصل إلى أنبياء بني إسرائيل. حيث وضعوا فيه السكينة. والسكينة حيوان بحجم الهر، كان يصرخ في أعدائهم عند الحرب فينهزمون.

ولما هَزم الفلسطينيون اليهود وأخذوا التابوت إلى بلادهم، تحول إلى لعنة عليهم ونزل بهم بسببه العذاب، وكلَّما وضعوه في موضع نزل به وبأهله العذاب، فاتفقوا على أن يعيدوه إلى بني إسرائيل، فجعلوه على عجلة، ثم وضعوا أمامها ثورين، فجرّاها إلى بني إسرائيل. فلما رأوا التابوت قادماً إليهم، خضعوا لطالوت.

وجهز طالوت جيشه وسار لحرب جالوت ـ أو جوليات كما يسميه اليهود ـ ومر بهم على نهر الأردن ـ الشريعة ـ وكان عددهم أربعة آلاف، فنهاهم عن الشرب منه، إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً التزموا وأطاعوا. فسار بهم وحدهم لحرب جالوت.

وكان معه في الجيش فتى صغير مغمور، هو داود عليه السلام وكان معه مقلاع عجيب، ما ضرب به شيئاً إلا أصابه، ولا ضرب به إنساناً ولا حيواناً إلا قتله.

فخرج من جيش الأعداء جالوت، وكان عملاقاً ضخماً، وطلب المبارزة، فخاف جيش طالوت، ولم يخرج أحد منهم.

فأوحى الله إلى نبيهم شمويل أن في الجيش راعي غنم صغير هو «داود بن إيشا» وهوالذي يقتل جالوت، ويعطيه الله الملك والخلافة.

وبعد بحث شاق وجده، وجرى حوار بينه وبين طالوت، ثم توجه إلى مبارزة جالوت. ومر في الطريق بأحجار ثلاثة، فخاطَبَتْهُ وطلبَتْ منه أن يحملها، لأنه بها يقتل جالوت، فحملها في مقلاعه.

فلما رآه جالوت استصغره ورده. ولكن داود أصر على المبارزة والمصارعة، وجعل الحجارة الثلاثة في مقلاعه، وسمّى الله، فصارت الثلاثة حجراً واحداً، ثم رمى به جالوت. فكسر البيضة التي على رأسه، ودخل رأسه، وفتَّت دماغه، وخرج من الخلف وأصاب الذين وراءه فقتل ثلاثين رجلاً منهم. ثم تفتت الحجر، وأصابت كل قطعة منه جندياً في جيش جالوت فقتلته!!.

وبذلك انتصر طالوت وجيشه. بفضل داود وقوته، بل بفضل مقلاعه وحجارته.

فعظمت منزلة داود عند بني إسرائيل، وأحبوه وتعلقوا به، فحقد عليه طالوت، وكان قد زوَّجه لأنه قتل جالوت.

وقام طالوت بعدة محاولات لقتل داود، ولكنها فشلت كلها، وقدِر عليه داود عدة مرات ولم يقتله. واستمر الصراع حاداً بين طالوت وداود.

ولكن داود آثر الهرب، فترك طالوت، وجلس في رأس جبل مع عابدين يعبد الله، وصار علماء بني إسرائيل يلومون طالوت على موقفه من داود، ولكن طالوت طغى وبغى، فكان يقتل كل من لامه، حتى قتل منهم آلافاً.

ثم تاب طالوت وندم على ما فعل، وبكى كثيراً، فرحمه الناس، وأراد أن يكفر عن أفعاله، فدلوه على امرأة منهم كانت تعرف اسم الله الأعظم. فسارت معه إلى قبر النبي شمويل، ودعت الله، فأحياه الله لها، وخرج من قبره حياً، فسأله طالوت هل له من توبة، فقال: أن تقاتل الأعداء فتُقْتَل أنت وأولادك العشرة، فقاتل طالوت هو أولاده، وقُتِلوا.

ثم ملكهم داود عليه السلام فكان نبياً ملكاً!.

وكانت الفترة من قتْل داود لجالوت إلى أن صار داود هو الملك، سبع سنوات[1]!

هذه خلاصة قصة طالوت وجالوت وداود، كما وردت في الإسرائيليات، وكما نقلتها عنهم بعض كتب التاريخ والتفسير.

أوردناها بإيجاز، لنحذِّر منها وننبه عليها، ونشير إلى تركها وإهمالها وإغفالها.

لقد تعب العلماء السابقون الذين أوردوا هذه الإسرائيليات في كتبهم،حيث وصلت عندهم حجماً كبيراً، وسوَّدت عشرات الصفحات ـ بلغت عند الطبري أكثر من ثمانين صفحة ـ.

ولقد أتعب هؤلاء القارئين عندما قدموا لهم هذه الإسرائيليات، فضيعوا فيها أوقاتهم، وحجبَتْهم عن تدبر آيات القصة، والالتفات إلى دلالاتها ودروسها.

أوردنا تلك الإسرائيليات بإيجاز لننبه عليها، ولا نجيز لأحد أن يرويها عنا ـ أو غيرنا ـ إلا ليحذر منها وينبه عليها. أما إذا أوردها راضياً بها معتمداً لها، أو رواها ساكتاً عنها، فنرى أنه مخالف للمنهج الصحيح، وبذلك يعرض نفسه للمسؤولية أمام الله.

○ من مبهمات القرآن في القصة:

مبهمات القرآن: هي تلك التفصيلات التي لم يبيّنها القرآن في قصص السابقين، والتي تتعلق بزمان القصة أو مكانها أو أشخاصها أو أحداثها.

فإذا أبهمها القرآن، وأبهمها الحديث، فلا يمكننا أن نبينها أو نحددها أو نعرفها، ولا يقبل كلام أي إنسان في بيانها ما لم يذكر دليله الذي أخذ منه،

---

(١) انظر هذه الإسرائيليات عند الطبري في تفسيره ٥: ٢٩١ ـ ٣٧٨؛ والسيوطي في الدر المنثور ١: ٧٤٩ ـ ٧٦٤؛ والثعلبي في عرائس المجالس، ٢٣٢ ـ ٢٤٤، على سبيل المثال.

عندها ننظر في دليله، فإن كان آية صريحة أو حديثاً صحيحاً، أخذنا به، وإلا رددنا ذلك الكلام، ورفضنا ذلك البيان.

وفي قصة طالوت نرى المبهمات كثيرة. منها:

١ ـ الزمان الذي وقعت فيه قصة طالوت. فكل ما يؤخذ من الآيات أنها وقعت لبني إسرائيل من بعد موسى، يعني بعد إقامتهم في فلسطين. أما تحديد السنة أو الفترة أو الحالة التي عليها بنو إسرائيل، فهذا لا يمكن تحديده.

٢ ـ اسم النبي الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً. فقد يكون شمعون أو شمويل أو صمويل وقد يكون غيره. فلا نجعل أحداً مع الأنبياء إلا بنص صريح، لاحتمال أن لا يكون نبياً. وبذلك نؤمن بنبوة غير النبي! وهذا لا يجوز.

٣ ـ السبب الذي دفعهم ليطلبوا من نبيهم ذلك الطلب.

٤ ـ نسب طالوت، وبداية أمره، وتفصيلات حياته قبل تملكه عليهم.

٥ ـ تفصيلات بسطة طالوت في العلم والجسم.

٦ ـ تفصيلات تملك طالوت عليهم.

٧ ـ التابوت وقصته وتاريخه عندهم ومقاساته، وتفصيلات السكينة والبقية التي فيه، التي تركها آل موسى وآل هارون.

٨ ـ كيف كانت تحمله الملائكة، وتفصيلات قدوم التابوت إليهم.

٩ ـ عدد بني إسرائيل عندما خرج بهم طالوت لقتال الأعداء.

١٠ ـ اسم النهر الذي مر به طالوت ومنعهم من الشرب منه، وهل هو نهر الأردن الذي يفصل بين الأردن وفلسطين، أو نهر آخر يفصل بين شمال فلسطين وجنوبها.

١١ ـ عدد الذين خالفوا وشربوا من النهر.

١٢ ـ من هو جالوت، وما هي قوته وصورته وحجمه وشكله؟.

١٣ ـ تفصيلات أعداء بني إسرائيل، وعددهم، ومكانهم، وديارهم.

١٤ ـ مكان المعركة الفاصلة بين طالوت وجالوت.

١٥ ـ تفصيلات بداية أمر داود وطفولته ونسبه.

١٦ ـ تفصيلات المعركة بين الجيشين.

١٧ ـ كيفية قتل داود لجالوت.

١٨ ـ ماذا جرى لداود بعد قتل جالوت، وقصته مع طالوت.

١٩ ـ نهاية طالوت وكيف كانت.

٢٠ ـ كيف انتقل الملك من طالوت إلى داود.

والعجيب أن بعض المفسرين والمؤرِّخين والكاتبين والمتحدثين، لم يقفوا عند هذا البيان القرآني والنبوي، فذهبوا إلى الإِسرائيليات، وطلبوا منها حل تلك المبهمات، وتفصيل تلك الأحداث، ولم يقدموا لنا علماً ولا فائدة ولا عبرة!.

○ القصة مليئة بالدروس والعبر:

لا ندري لماذا يذهب بعض المسلمين إلى الإِسرائيليات يأخذون منها تفصيل الأحداث وبيان المبهمات التي في القصة، ويغفلون عن الوقوف أمام عرض القرآن لها، ولا يأخذون منها بعض ما فيها من دروس ودلالات وعبر.

إن القصة مليئة بالدروس والدلالات والعبر والعظات، وإن المسلم مأمور بالوقوف أمامها، وتدبرها، وإدراك بعض ما فيها.

فيها دروس للدعاة في التعامل مع الآخرين، ودروس للمصلحين الذين يريدون تغيير الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة، ودروس للمجاهدين الذين يعملون على تبديل الذل إلى عزّة، والهزيمة إلى نصر، ودروس للذين يعتمدون على الجماهير، ويصدِّقون اندفاعهم وحماستهم، ويضعون على أساسها خططهم وبرامجهم، فتتخلى عنهم الجماهير وقت الحاجة، ودروس في التربية الفردية والجماعية، ودروس في الضبط والحزم والامتحان، ودروس في الجهاد والقتال وخوض المعركة، والتوجه إلى الله والاستنصار به، وعدم الرعب والهلع من قوة الأعداء، وفيها دروس في أسس اختيار الحكام والمسؤولين، ومواصفات الحاكم المناسب.

وبهذا نرى أنه يستفيد من القصة كل داعية ومصلح وحاكم وقائد ومجاهد ومسؤول.

وأنها تضم إشارات وإيحاءات في الإيمان والعقيدة، والدعوة والجهاد، والإصلاح والتغيير، والتربية والتوجيه، والسياسة والولاية، والحكم والسيادة.

وبهذا نعرف كم أغفل أولئك الذين تجاوزوا هذه الكنوز من الدروس والدلالات، وذهبوا إلى«تيه» الإسرائيليات والخرافات والأساطير.

ولئن جاز للسابقين الذهاب إلى الإسرائيليات ـ وهو غير جائز ـ في فترة الترف الفكري والعلمي التي عاشوها، فلا يجوز لنا نحن في هذا العصر أن نفعل فعلهم، لأننا مطالبون بالإصلاح والدعوة والتغيير. وعلينا مسؤوليات عظيمة، لنغير واقع الأمة من الحضيض الذي هي فيه إلى قمة العزة والتمكين التي يريدها الله لها. فلا وقت لدينا لتلك الخرافات والإسرائيليات. وإن أعمارنا وأوقاتنا وأوراقنا وأعصابنا وأفكارنا أثمن من أن نضيعها فيما لا خير فيه، وسوف يسألنا الله عنها، وعن ما عملناه فيها.

وهناك مفسرون صادقون، منّ الله عليهم بصواب المنهج، ودقة النظرة، وحسن الاستنباط، فتجاوزوا الإسرائيليات والمبهمات إلى تقديم ما فيه خير ونفع للقراء.

وفي مقدمة هؤلاء المفسرين، الإمامان «محمد رشيد رضا» في تفسير المنار، و«سيد قطب» في «الظلال».

ومن خلال تعاملنا مع المفسرين السابقين، وجدنا أن هذين الإمامين يقفان في مقدمة المفسرين، وأن الله وهبهما علماً وحكمة وفطنة، كانا بذلك، أعمق نظراً، وأنفذ بصراً، وأصوب منهجاً، وأدق استنباطاً، وأصدق لهجة، وأقوم أسلوباً.

وإن تفسيريهما ـ المنار والظلال ـ يحويان كنوزاً وافرة من الدروس والعبر والدلالات ومعلومات نافعة في التفسير وعلوم القرآن.

رضي الله عن الإمامين الجليلين ـ وعن علماء التفسير الآخرين ـ وتقبل الله جهودهما وجهادهما، وأجزل لهما الأجر والثواب!.

○ مع الأستاذ الإمام سيد قطب في تقديمه للقصة:

نورد فيما يلي تلخيصاً لما أورده سيد قطب من دروس ودلالات في تقديمه لقصة طالوت.

قال في التعريف بالدرس الذي ضم آيات القصة:

«ندرك قيمة هذا الدرس. وما يتضمنه من تجارب الجماعات السابقة، والأمم الغابرة. حين نستحضر في أنفسنا: أن القرآن هو كتاب هذه الأمة الحي، ورائدها الناصح، وأنه هو مدرستها التي تلقت فيها دروس حياتها. وأن الله سبحانه كان يربي به الجماعة المسلمة الأولى، التي قسم لها إقامة منهجه الرباني في الأرض، وناط بها هذا الدور العظيم، بعد أن أعدها له بهذا القرآن الكريم. وأنه تعالى أراد بهذا القرآن أن يكون هو الرائد الحي ـ الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ ـ لقيادة أجيال هذه الأمة، وتربيتها، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذي وعدها به، كلما اهتدت بهديه، واستمسكت بعهدها معه، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن، واستعزَّت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية. وهي بصفتها هذه، مناهج الجاهلية!.

إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يُتلى، ولكنه دستور شامل. دستور للتربية، كما أنه دستور للحياة العملية، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويربيها. وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض، من لدن آدم عليه السلام وقدمها زاداً للأمة المسلمة في جميع أجيالها: تجاربها في الأنفس، وتجاربها في واقع الحياة. كي تكون الأمة المسلمة على بيِّنة من طريقها، وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم، وذلك الرصيد المتنوع.

ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء.

وقصص بني إسرائيل هو أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم لأسباب عدة، ذكرنا بعضها في الجزء الأول من الظلال، عند استقبالنا أحداث بني إسرائيل، وذكرنا بعضها في هذا الجزء في مناسبات شتى ـ وبخاصة في أوله ـ.

ونضيف إليها هنا ما نرجحه. وهو: أن الله سبحانه علم أن أجيالاً من هذه الأمة، ستمر بأدوار كالتي مر فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل، فعرض عليها مزالق الطريق، مصوَّرة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة، ولترى صورتها في هذه المرآة المرفوعة لها بيد الله سبحانه قبل الوقوع في تلك المزالق، أو اللجاج فيها على مدار الطريق.

إن هذا القرآن ينبغي أن يُقرأ، وأن يُتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي. وينبغي أن يُتدبر على أنه توجيهات حية، تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه مجرد كلام جميل يرتَّل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود!.

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة.

وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد. وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية، تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق، وتقول لنا: هذا فافعلوه. وهذا لا تفعلوه. وتقول لنا: هذا عدو لكم وهذا صديق. وتقول لنا: كذا فاتخذوا من الحيطة، وكذا فاتخذوا من العدة، وتقول لنا: حديثاً طويلاً مفصلاً دقيقاً في كل ما يعرض لنا من الشؤون.

وسنجد عندئذ في القرآن متاعاً وحياة. وسندرك معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فهي دعوة للحياة. للحياة الدائمة المتجددة. لا لحياة تاريخية محدودة، في صفحة

غابرة من صفحات التاريخ»[1].

ولقد أشار سيد قطب إلى أهم ما يؤخذ من القصة، في تقديمه لها. فقال:

«والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها، هي أن هذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق على الرغم من هذا كنه، فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل، والذل تحت أقدام المتسلطين.

ومن خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين:

من ذلك:

١ ـ إن الحماسة الجماعية، قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها، فيجب أن يضعوها على محك التجربة، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.

فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل ـ من ذوي المكانة والرأي فيهم ـ إلى نبيهم، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعدائهم. فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال، وقال لهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذروة. ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها. وتهاوت على مراحل الطريق.

ومع أن لبني إسرائيل طابعاً خاصاً، في النكول عن العهد. والنكوص عن الوعد، والتفرق في منتصف الطريق إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغاً عالياً من التدريب.

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٦٠، ٢٦١.

وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل.

٢ ـ ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الغائر في نفوس الجماعات، ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول:

(أ) فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولَّوا بمجرد أن كُتب عليهم القتال استجابة لطلبهم، ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيهم. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت.

(ب) ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى. وضعفوا أمام الامتحان الأول. وشربوا من النهر. ولم يجاوز معه إلا عدد قليل.

(ج) وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية، فأمام الهول الحي، أمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم، وزلزلت القلوب.

(د) وأمام هذا التخاذل ثبتت القلة القليلة المختارة، اعتصمت بالله، ووثقت بوعده، وهي التي رجحت الكفة، وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين.

لقد تمت تصفية بني إسرائيل ثلاث مرات. وخلاصة خلاصة الخلاصة، هم الذين صدقوا الله في الجهاد فصدَقهم الله وعده، وأنزل عليهم نصره.

٣ ـ وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها:

(أ) خبرته بالنفوس.

(ب) وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة.

(ج) وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى.

(د) ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة.

(هـ) وفصْله للذين ضعفوا، وترْكهم وراءه.

(و) ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله، وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة.

٤ ـ والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة... أن القلب الذي يتصل بالله، تتغير موازينه وتصوراته: لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود.

فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها، ما يراه الآخرون الذين قالوا: «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده». ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف. إنما حكمت حكماً آخر، فقالت: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين». ثم اتجهت لربها تدعوه: «ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين». وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده. فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه.

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح. وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون!.

ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة.

فالنصوص القرآنية ـ كما علمتْنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه.

ويبقى لها رصيدها المذخور، تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف، على قدر مقسوم»[١].

○ مع الأستاذ الإمام رشيد رضا في تعقيبه على القصة:

كانت وقفة سيد قطب أمام آيات القصة وقفة حركية دعوية،

---

(١) في ظلال القرآن ١: ٢٦٠ ـ ٢٦٣ بتصرف واختصار.

استخلص منها دروساً في الإيمان والدعوة والحركة والتربية والجهاد.

أما وقفة رشيد رضا أمام آيات القصة فقد كانت وقفة سُنَنِيَّة اجتماعية، استخلص فيها أهم السنن الاجتماعية في حياة الأمم والمجتمعات.

ونحن نلخص فيما يلي أهم السنن التي أوردها.

قال تحت عنوان «السنن الاجتماعية في القرآن والأمم والاستقلال».

«وأذكر ما يظهر لي من السنن والأحكام الاجتماعية في آيات هذه القصة، مفصلة معدودة لعلها تُوعىٰ، وتُحْفَظ فلا تُنسىٰ إن شاء الله تعالى.

السُّنَّة الأولى: إن الأمم إذا اعتُدِي على استقلالها، وأوقع الأعداء بها، فهضموا حقوقها، تتنبه مشاعرها لدفع الضيم، فتسعى للوحدة التي يمثلها الزعيم العادل، فتتوجه إلى طلبه، كما وقع من بني إسرائيل، بعد تنكيل أهل فلسطين بهم.

السُّنة الثانية: إن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها، يكون موجوداً عند خاصتها وأهل الفكر والرأي فيها. فالملأ من بني إسرائيل، هم الذين طلبوا الملك.

السُّنة الثالثة: متى عظم الشعور بوجوب حفظ حقوق الأمة ومحاربة أعدائها عند خواص الأمة، فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها، حتى إذا خرجت من طور الفكر والشعور إلى طور العمل والظهور، انكشف عجز الأدعياء، ولم ينفع إلا صدق الصادقين.

السُّنة الرابعة: من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس، والاختلاف مدعاة للتفرق، فلا بد من مرجِّح ترضى به الأمة، كما طلبت بنو إسرائيل من نبيهم اختيار ملك لهم، فكان هو المرجح. والمرجح عند المسلمين هم أهل الحل والعقد منهم.

السُّنة الخامسة: إن الناس لا يتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مخالفاً لمصلحتهم الاجتماعية، ولذلك اختلف بنو إسرائيل على نبيهم في جعْل طالوت ملكاً عليهم، واحتجوا على ذلك بما لا ينهض حجة إلا في ظن

المنكرين. ومن عجيب أمر الناس أن كلاً منهم يحسب أنه على الصواب في السياسة ونظام الاجتماع في الأمم والدول.

السُّنة السادسة: إن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالمُلك والزعامة أصحاب الثروة الواسعة، كما في قول المنكرين على طالوت «أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤتَ سعة من المال؟» فهذا الاعتقاد من السنن العامة في الأمم الجاهلية.

السُّنة السابعة: إن الشروط التي تُعتبر في اختيار الرجل في الملك هي في رد النبي على اعتراض قومه على ملك طالوت: «إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم».

ويؤخذ من هذا الرد شروط أربعة:

(أ) الاستعداد الفطري للشخص «إن الله اصطفاه عليكم».

(ب) السَّعة في العلم الذي يكون به التدبير «وزاده بسطة في العلم».

(ج) بسطة الجسم المعبَّر بها عن صحته، وكمال قواه المستلزم ذلك صحة الفكر «. . . والجسم».

(د) توفيق الله تعالى الأسباب له، وهو المعبَّر عنه بقوله: «والله يؤتي ملكه من يشاء».

السُّنة الثامنة: هي ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ فمشيئة الله سبحانه، إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في تغيير أحوال الأمم، بتغييرهم ما في أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين وإيراث الأرض للصالحين. وتأويل هذه الآيات وأمثالها مشاهَد في كل زمان، وأين المبصرون؟.

السُّنة التاسعة: إن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه، شرط في الظفر واستقامة الأمر. وقوانين الجندية في هذا الزمان حتى عند الغربيين مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره والمعقول وغير المعقول.

السُّنة العاشرة: إن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر والثبات وطاعة القواد، الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد، مع طاعة القواد، لأن النصر مع

الصابرين، أي جرت سنته بأن يكون النصر عند الثبات والصبر، وإن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم، وهذا مشاهد في كل زمان.

السُّنة الحادية عشرة: إن الإيمان بالله، والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجِلاد والقتال.

السُّنة الثانية عشرة: إن التوجه إلى الله بالدعاء مفيد في القتال، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء، وذلك معقول المعنى، فإن الدعاء هو آية الإيمان بالله والتصديق بلقائه.

السُّنة الثالثة عشرة: دفْعُ الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبِّر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون إن الحرب طبيعية في البشر لأنها من فروع سنَّة تنازع البقاء العامة. وأنت ترى في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ليس نصاً فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة.

ويظن بعض المتطفلين على علم السنن في الاجتماع البشري، أن تنازع البقاء الذي يقولون إنه سنة عامة هو من أثرة الماديين في هذا العصر، وأنه جور وظلم، هم الواضعون له والحاكمون به، وأنه مخالف لهدى الدين. ولو عرف من يقولون هذا، معنى الإنسان، أو لو عرفوا أنفسهم، أو لو فهموا هذه الآية، لما قالوا ما قالوا.

السُّنة الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ يؤيد السنة التي يعبِّر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي، أو بقاء الأمثل، ووجْهُ ذلك جعْلُ هذا من لوازم ما قبله، فإنه تعالى يقول إن ما فُطر عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضاً، عن الحق والمصلحة، هو المانع من فساد الأرض. أي هو سبب بقاء الحق وبقاء الصلاح.

ويعزز ذلك قوله تعالى في بيان حكمة الإِذن للمسلمين بالقتال في سورة الحج:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١].

فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء، والدفاع عن الحق، وأنه ينتهي ببقاء الأمثل، وحفظ الأفضل»[1].

○ بعض لفتات ولطائف الآيات:

نقف فيما يلي وقفة سريعة نشير فيها إلى بعض لفتات ولطائف الآيات، التي عرضت قصة طالوت.

ونحاول أن لا نكرر ما ذكره الإمامان رشيد رضا وسيد قطب. وإنما نضيف إلى ما أوردناه من نظراتهما ودلالاتهما، هذه النظرات والدلالات.

١ ـ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرؤية علمية لا عينية، بمعنى: ألم تعلم قصة أولئك الملأ من بني إسرائيل. وهذا الاستفهام يدل على الحث على التعلم والدعوة إليه، فكأنه يقول له: تعلَّم قصة أولئك الملأ.

٢ ـ في قوله: «الملأ من بني إسرائيل». هم سادتهم وكبراؤهم والمقدمون فيهم.

قال الراغب: «الملأ جماعة يجتمعون على رأي، فيملأون العيون رَواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً»[2].

وقال الإمام الرازي «الملأ: الأشراف من الناس. وأصلها من المَلأ. وهم الذين يملأون العيون هيبة ورواءً. وقيل: هم الذين يملأون المكان إذا

---

(١) تفسير المنار ٢: ٤٩٢ ـ ٤٩٨ بتصرف واختصار.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ٤٧٢.

حضروا. وقال الزجاج: الملأ الرؤساء، سموا بذلك لأنهم يملأون القلوب بما تحتاج إليه»[1].

وما من قوم من الأقوام، ولا أمة من الأمم، إلا كان بينهم «الملأ» من الأشراف والرؤساء والقادة. فوجود «الملأ» ظاهرة طبيعية بين الأقوام. وغالب استخدام القرآن لكلمة «الملأ» في إطلاقها على القادة والرؤساء الكافرين الذين يقودون أقوامهم في مواجهة دعوات الأنبياء والمصلحين. فما من نبي إلا واجه «الملأ» من قومه، الذين حاربوه وآذوه، فيهلكهم الله بسبب ذلك.

أطلق القرآن كلمة «الملأ» على الكافرين ثماني عشرة مرة، من اثنتين وعشرين مرة هي مجموع ورود هذه الكلمة فيه!.

٣ ـ في قوله: «إذ قالوا»:

إذ: أداة تستعمل للزمان الماضي. فهي ظرف لما مضى من الزمان.

أما إذا: فهي ظرف لما يُستقبل من الزمان.

ولذلك يستخدم القرآن «إذ» أداة للتعبير عن الأحداث الماضية في قصص السابقين. فإذا قرأها القارئ أيقن أن ما بعدها رواية لأحداث ماضية.

بينما يستخدم القرآن «إذا» أداة للتعبير عن الأحداث المستقبلية، التي لم تكن قد وقعت عند نزول الآية التي وردت فيها الأداة.

وقد وردت «إذ» في القرآن: مائتين وتسعاً وثلاثين مرة[2].

بينما وردت «إذا» في القرآن: أربعمائة وثلاثاً وعشرين مرة[3].

٤ ـ التنكير في قوله: «لنبي لهم» مقصود، وفيه إيحاء لطيف للناظرين في قصة طالوت. وكأنه يطلب منهم أن لا يخوضوا في اسم ذلك النبي، وأن لا يحاولوا معرفته، وكأن القرآن يقول لهم: لقد تعمدنا إغفال اسمه، وتنكير

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٧٠.

(٢) معجم الأدوات والضمائر في القرآن للدكتور إسماعيل عمايرة، ١١ ـ ١٦.

(٣) المرجع السابق ١٧ ـ ٢٦.

صفته، ولو أردنا أن نحدده لحددناه، ولو علمنا أن في بيانه خيراً لكم لبيناه، فعليكم الاكتفاء بما أوردناه.

٥ ـ يؤخذ من قولهم: «ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله» أهمية وجود القائد الذي يقود الأمة، ويوجهها للجهاد. ووجوب تعيين أمير للقتال والغزو. قال السيوطي في الإكليل: «فيه أن البعوث والسرايا لا بد لهم من أمير يُوَلَّى عليهم، يرجعون إليه، ويقتدون به»[١].

٦ ـ كان نبيهم ذكياً وحكيماً عندما قال لهم: «هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟» وهذا يدل على أنه كان عالماً بصفاتهم، خبيراً بطبائعهم، مطَّلعاً على تمكن صفات الجبن والتراجع ونقض العهد والتولي عن القتال والقعود عن الواجب منهم. وهذه النقائص متأصلة في طبيعة اليهود ونفوسهم، وأخلاقهم وتصرفاتهم.

٧ ـ صدقت فراسة نبيهم، وتحقَّق علمه بهم، عندما تولوا عن القتال بعد حماستهم له. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ﴾.

ويؤخذ من هذا ـ بالإضافة إلى ما ذكره رشيد رضا وسيد قطب فيما سبق ـ اختلاف الوعود والأمنيات عن العمل والتنفيذ، فكثيرون هم الذين يعدون ويتمنون ويتحمسون، لكن كثيراً من تلك الوعود والتمنيات والأمنيات يتبدد على أرض التجربة وميدان التطبيق.

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «وهذا شأن الأمم المتنعِّمة، المائلة إلى الدَّعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب كَعَّتْ وانقادت لطبعها»[٢].

ولقد عتب القرآن على بعض المسلمين الذين كانوا يتمنون الجهاد

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي: ٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣: ٢٤٢.

ويتحمسون للقتال، ويطالبون به، فلما أوجب الله عليهم ما تمنوه وطالبوا به، كأنهم جبنوا وتخاذلوا. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

ونظراً لهذه الطبيعة في النفس الإنسانية، فإن رسول الله ﷺ، يدعونا إلى أن لا نكثر من الوعود والأمنيات الجهادية، وأن لا نسرف في إظهار الرغبة في القتال، بل نتواضع في ذلك قبل وقوعه، ونتمنى أن لا تقع المواجهة مع الأعداء، وأن تكتب لنا العافية. لكن إذا وقعت الواقعة وتمت المواجهة ونشبت المعركة، فعند ذلك يكون الصدق والثبات والصبر.

روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ، كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، ينتظر، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم [خطيباً] فقال: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[1].

٨ ـ ملكهم الذي اختاره الله لهم، اسمه في القرآن «طالوت» بينما اسمه في أخبار بني إسرائيل ـ والكتب التي نقلت عنهم ـ «شاول» وملك الأعداء اسمه في القرآن «جالوت» واسمه في أخبار بني إسرائيل ومن نقل عنهم «جوليات».

وقد شكك بعض الإخباريين والمؤرِّخين في تسمية القرآن لهما، وطعن في صحتها أو رفضها لأنها لا تتفق مع تسمية بني إسرائيل لهما. فقدم تسميتهم على تسمية القرآن، ورجحها على القرآن! وهذا هو الضلال البعيد العريض.

فعندما يتعارض ما ورد في القرآن مع ما ورد في أخبار بني إسرائيل،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير رقم ٣٢، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء رقم ٦، حديث رقم ١٧٤٢.

يقدَّم الصحيح اليقيني الثابت، على ما كان مظنَّة التغيير والتحريف والتزوير.

والمؤرِّخون والباحثون على أن أخبار بني إسرائيل ليست موثوقة ولا صادقة، وأن التوراة والعهد القديم والأسفار والتلمود، دخلها ما دخلها من صياغة اليهود وكلامهم وفكرهم، ومزجوا كلام الله فيها بكلامهم، والحقَّ الرباني فيها بأكاذيبهم وزيفهم وضلالهم، أما القرآن فإن الله قد تكفل بحفظه سبحانه.

لذلك يجب اعتماد ما ورد في القرآن من قصص السابقين، ومن أسماءِ لأحداث وأشخاص تلك القصص، وعندما يتعارض ذلك مع ما ورد في أخبار السابقين، فالمعتمَد هو ما ورد في القرآن، فنحن نجزم بأن اسم ملكهم هو «طالوت» واسم ملك أعدائهم هو «جالوت».

وبهذه المناسبة نرفض تنطع بعض الباحثين حول اسم «طالوت» حيث ذهبوا إلى أنه اسم عربي مشتق من الطول. وأن الواو والتاء فيه تفيد المبالغة، مثل «طاغوت» و«ملكوت» و«جبروت»، وليدللوا على صحة ادعائهم، افترضوا خرافات أسطورية عن طول «طالوت».

نرفض ذلك كله لأن اسم «طالوت» أعجمي وليس عربياً، والأسماء الأعجمية كلها جامدة وليست مشتقة، لأنها ليست عربية، فكيف نبحث لها عن مادة اشتقاق في اللغة العربية، طالما أنها مستعملة قبل العرب، ومتداولة بين أقوام من غير العرب.

إن أسماء «آدم» و«إبليس» و«نوح» و«إبراهيم» و«يعقوب» و«لوط» و«طالوت» و«جالوت» و«داود»، وغيرها كثير، أعجمية جامدة وليست عربية مشتقة!.

٩ ـ بنوا اعتراضهم على ملك طالوت على أمرين «نحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال».

فكانت نظرتهم للملك والإمامة والولاية والسلطان تقوم على الوراثة والنسب، وبما أنه لم يكن أحد من آباء طالوت ملكاً فلا حق له في الملك.

وهذه هي نظرة المادية الجاهلية للملك والإمامة والولاية والسلطان.

١٠ ـ رد نبيهم اعتراضهم على «طالوت» بأن بين لهم مواصفات الملك والحاكم الأساسية المقبولة: «**إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم**».

وقد استنبط العلماء من هذا القول بطلان نظرية الوراثة في الملك والحكم والسلطان.

قال الإمام الرازي «هذه الآية تدل على بطلان قول من يقول: إن الإمامة موروثة»[١].

وقال السيوطي: «فيه أن الإمامة ليست وراثة متعلقة بأهل بيت النبوة والملك. وإنما تستحق بالعلم والقوة دون المال. وأن النسب مع فضائل النفس والعلم لا عبرة به، بل هي مقدَّمة عليه»[٢].

١١ ـ تقديم الزيادة في العلم على الزيادة في الجسم، لحكمة لطيفة، ذكرها الرازي قائلاً: «وهذا منه تنبيه على أن الفضائل النفسية، أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية»[٣].

١٢ ـ ذهب بعضهم إلى أن المراد بالبسطة في الجسم التي منحها الله لطالوت، البسطة المادية، من حيث طولُ القامة وامتلاءُ الجسم وجماله. وهذا لا حرج فيه.

لكن بعض العلماء رجح أن المراد بالبسطة هنا، البسطة المعنوية، من حيث زيادة معاني القوة والخير والشجاعة فيه.

قال الرازي: «وقيل: المراد بها القوة. وهذا القول عندي أصح، لأن المنتفَع به في دفع الأعداء هو القوة والشدة، لا الطول والجمال»[٤].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٧٣.
(٢) الإكليل للسيوطي: ٤٥.
(٣) التفسير الكبير: ١٧٤.
(٤) المرجع السابق ٦: ١٧٤.

وقال القرطبي: «وقيل: «زيادة الجسم كانت: بكثرة معاني الخير والشجاعة، ولم يُرد عِظَم الجسم.

ألم ترَ إلى قول الشاعر:

تَرى الرجل النحيفَ فتزدريه	وفي أثوابه أسدٌ هَصورُ
ويعجبُك الطّريرَ، فَتبتليه	فَيُخْلِف ظنك الرجلُ الطّريرُ
وقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ	فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ[1]

وهذه الأبيات للشاعر العباس بن مرداس[2].

١٣ ـ في مجيء التابوت إلى بني إسرائيل، تحمله الملائكة التي لا يرونها، معجزة من معجزات الله، وآية من آياته. وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وتم هذا الأمر الرباني الخارق كمعجزة لذلك النبي الذي بلّغهم اختيار الله لطالوت ليكون ملكاً عليهم. كما أن هذا الأمر يعتبر كرامة من الله لذلك الملك الصالح المجاهد «طالوت».

وتأييد الله له عن طريق هذه الآية البينة، يدل على أن الله ينصر أولياءه وجنوده، ويدافع عنهم، ويقدم لهم من الآيات والكرامات ما يجعل الناس ـ أحياناً ـ يؤيدونهم.

١٤ ـ منْعُ طالوت لقومه من الشرب من النهر الذي مروا به. مع أن الشراب أساساً مباح، يدل على أنه يجوز للأمير أو الحاكم أحياناً أن يقيد المباح، وأن يمنع رعيته ـ أو بعض أفرادها ـ من استعمال ذلك المباح.

وهو بذلك التصرف لا يحرِّم المباح، لأن التحريم والتحليل حق لله وحده، ولايملك أحد من البشر حق التحليل والتحريم والتشريع.

ولكنه يملك تقييد المباح أحياناً، والمنع من استعماله أحياناً، تنظيماً للحياة، وتربيةً للنفوس، وتُعتبر طاعة الأمير في هذا المنع أو التقييد واجبة شرعاً، ومخالفته محرمة شرعاً، لورود النصوص بذلك.

(١) تفسير القرطبي ٣: ٢٤٣.

(٢) انظر لسان العرب: ص٢٦٥٤ مادة مزر.

١٥ ـ هناك دلالة تؤخذ من منع طالوت لجيشه أن يشربوا من النهر، وسماحه للرجل منهم أن يغترف منه غرفة بيده. فهو لم يكلفهم بما لا يطاق، وإنما كلفهم بما في وسعهم.

ثم هو لم يشتط في التكليف، ولم يغلق عليهم كل الوسائل والسبل، وإنما منعهم من شيء، وأباح لهم شيئاً آخر. وتبدو في هذا التكليف حنكته وكياسته، وخبرته بالنفوس، ومعرفته بكيفية تربية الآخرين وقيادتهم.

فهو قد منعهم من الشرب من النهر، والشرب هو أن يَعُبَّ الإنسان من النهر عَباً، ويَكْرَع منه كرعاً، بدون وسيلة، وإنما بالفم مباشرة.

وأباح للرجل منهم أن يغترف من النهر غرفة بيده. غرفة واحدة، يقتل بها عطشه، ويروي بها ظمأه.

١٦ ـ هناك لفتة لطيفة تؤخذ من قوله: «ومن لم يطعمه فإنه مني».

فما هو سر التعبير عن الشرب بالطَّعْم؟ ولماذا عدل عن الشرب إلى الطعم؟.

قال الراغب عن معنى الطَّعْم: «الطَّعْم تناول الطعام. ويسمى ما يُتناول منه: طعم وطعام.

وقد يستعمل طعمت في الشراب كقوله: «ومن لم يطعمه فإنه مني»[1]. وكقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . . .﴾ [المائدة: ٩٣].

وهذه الآية نزلت بخصوص الصحابة الذين كانوا يشربون الخمر قبل تحريمها، فماتوا. فتساءل إخوانهم عن مصيرهم بعد التحريم. فقالوا: «ماذا يفعل الله بإخواننا الذين ماتوا قبل تحريم الخمر، وهي في بطونهم؟ وهل هم معذبون؟».

فرفعت الآية الجُناح والإثم عنهم: لا إثم عليهم فيما طعموه ـ أي شربوه ـ

---

(١) المفردات: ٣٠٤.

من الخمر قبل تحريمها[1].

والمراد بالطعم هو الذوق. أي: ومن لم يذقه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده.

أما لماذا عدل عن التعبير بالشرب إلى الطعم؟.

قال القرطبي: «ولم يقل: ومن لم يشربه. لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئاً أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات»[2].

أما الرازي فله في هذا تعليلان لطيفان.

«**أحدهما**: أن الإنسان إذا عطش جداً، ثم شرب الماء. وأراد وصف ذلك الماء بالطيب واللذة، قال: إن هذا الماء كأنه عسل، فيصفه بالطعوم اللذيذة. فقوله: «ومن لم يطعمه» معناه: أنه وإن بلغ به العطش إلى حيث يكون ذلك الماء في فمه كالموصوف بهذه الطعوم الطيبة، فإنه يجب عليه الاحتراز منه.

الثاني: أن من جعل الماء في فمه وتمضمض به ثم أخرجه من الفم، فإنه يصدق عليه أنه ذاقه وطعمه، ولا يصدق عليه أنه شربه. فلما قال: ومن لم يطعمه، كان المنع من الشرب ومن المضمضة. ومعلوم أن هذا التكليف أشق، لأن الممنوع من شرب الماء إذا تمضمض به وجد نوع خفة وراحة»[3].

وعند الراغب الأصفهاني تعليل آخر. «إنما قال: ومن لم يطعمه، تنبيهاً: أنه محظور أن يتناول منه، إلا غرفة مع طعام. كما أنه محظور عليه أن يشربه إلا غرفة. فإن الماء قد يُطعَم إذا كان مع شيء يُمضغ.

ولو قال: ومن لم يشربه، لكان يقتضي أن يجوز تناوله إذا كان في الطعام، فلما قال: ومن لم يطعمه، بين أنه لا يجوز تناوله على كل حال، إلا

---

(١) انظر: ـ على سبيل المثال ـ الدر المنثور ٣: ١٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٥٢.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٨١.

قدر المستثنى، وهو الغرفة باليد»[1].

الماء قد يكون مطعوماً، وقد يغني صاحبه عن الطعام ـ إلى حين ـ إذا لم يجد أمامه إلا الماء. فيسد الماء مسد الشراب والطعام في هذه الحالة.

وقد حدث هذا مع الصحابي أبي ذر الغفاري ﷺ أثناء بحثه عن رسول الله ﷺ. فقد ضربه الكافرون عند الكعبة، ففر منهم واختفى عند ماء زمزم، وبقي هناك في مكمنه شهراً، يعيش على ماء زمزم، ويغنيه عن الطعام والشراب.

روى مسلم عن أبي ذر في قصة إسلامه. لما دخل على رسول الله ﷺ، قال له: متى كنت ههنا؟.

قلت: قد كنت ههنا منذ ثلاثين، بين ليلة ويوم.

قال: فمن كان يطعمك؟.

قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم. فسمنت حتى تكسرت عُكَنُ بطني، وما أجد على كبدي سُخْفَةَ جوع.

قال: إنها مباركة. إنها طعامُ طُعم»[2].

فالعدول عن الشراب إلى الطعام في قوله: «ومن لم يطعمه» لهذين الاعتبارين:

كون الماء يغني عن الطعام لمن لم يجد إلا الماء.

وكون الإنسان العطشان يلحظ هذا، وتوحيه به نفسه إليه ـ والله أعلم ـ.

فنهى طالوت عن كل تناول للماء سواء كان للشراب أو كان للطعام، إلا غرفة واحدة فقط.

١٧ ـ قوله: «إلا من اغترف غرفة بيده».

---

(١) المفردات للراغب: ٣٠٤.

(٢) مسلم، كتاب فضائل الصحابة: ٤٤، باب من فضائل أبي ذر رقم ٢٨. حديث رقم ٢٤٧٣.

أجاز طالوت لجيشه الاغتراف من الماء باليد.

وتبدو في هذا حنكة طالوت وفطنته. فقد منعهم من الشرب من النهر لكنه استثنى الاغتراف، لأن الذين يشعرون بعطش شديد بحاجة للماء، فأسعفهم في هذا الاستثناء، ولبى لهم حاجتهم.

فالذي يأمر أو ينهى لا بد أن يلاحظ حاجات الذين معه ونفوسهم، وأن يكون موضوعياً واقعياً مرناً في تكليفاته. وإذا أردتَ أن تطاع، فاطلب ما يُستطاع.

وهناك لفتة صحية من منع طالوت الشرب من النهر، وجوازه للاغتراف:

فالذي يشعر بعطش شديد، يضره ويؤذيه الشرب الكثير للماء، وبخاصة إذا كان العطش بسبب عمل شاق أو مجهود كبير مثل جرْي أو سفر أو حمل.

ولهذا يُنصح هذا الإنسان بأن يستريح قليلاً، ثم يشرب من الكأس على دفعات متواليات.

أما الغَرف فقد قال عنه الراغب: «الغَرف: رفع الشيء وتناوله. يقال: غرفت الماء والمرق.

والغُرفة: ما يغترف.

والغَرفة: للمرة.

والمِغرفة: لما يُتناول به»[1].

وقد أراد طالوت التقليل عندما أجاز لهم الاغتراف مرة واحدة: لأن الغُرفة هي الشيء القليل الذي يحصل في الكف.

١٨ ـ في قوله: «فشربوا منه إلا قليلاً منهم».

دليل على مخالفة الأغلبية، وشربهم من النهر، ولم يثبت على التكليف إلا عدد قليل منهم.

---

(١) المفردات: ٣٦٠.

ويبدو أنهم كانوا راغبين في المخالفة كي لا يواصلوا السير للقتال. وقد التفت الإمام الرازي إلى هذه الإشارة النفسية فقال: إنهم لما علموا «أن كل مَن شرب منه فإنه لا يكون مأذوناً في القتال، وكان في قلبهم نفرة شديدة عن ذلك القتال، لا جرم أقدموا على الشرب، فتميز الصديق عن العدو، والموافق عن المخالف»[1].

١٩ ـ التقليل في آيات القصة مقصود. وقد ذُكر ثلاث مرات.

(أ) في قوله: «فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم».

(ب) في قوله: «فشربوا منه، إلا قليلاً منهم».

(ج) في قوله: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله».

وذكَر العدد القليل ثلاث مرات، ليدل على التصفية التي كانت تتم في القوم، وفي كل مرة كان يتخلف الكثير، ولا يبقى إلا القليل.

٢٠ ـ الظن في قوله: «قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله» فيه قولان:

(أ) قد يُحمل على اليقين. بمعنى أنهم موقنون بلقاء الله. إلا أنه أطلق لفظ الظن على اليقين مجازاً، لما بين الظن واليقين من المشابهة في تأكد الاعتقاد.

(ب) وقد يبقى الظن على ظاهر معناه، فيؤدي معنى الشك المائل للرجحان، لكن كيف يشكون في لقاء الله، وهم صفوة الصفوة، وخلاصة خلاصة الخلاصة؟ وأعظم الموجودين إيماناً؟ ليس المراد بلقاء الله هو البعث بعد الموت، أو تحقُّق الوعد الرباني، فهذا عندهم يقين لا شك فيه، ولكن المراد به القتل مع طالوت والموت في المعركة، فهذا شك راجح وليس يقيناً قاطعاً، فقد يموت المجاهد على أرض المعركة، وقد يمتد به العمر إلى حين.

قال الرازي عن هذا الاحتمال: «وهؤلاء المؤمنون لما وطَّنوا أنفسهم

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٨٢.

على القتل، وغلب على ظنونهم أنهم لا يتخلصون من الموت. لا جرم قيل في صفتهم: إنهم يظنون أنهم ملاقو الله»[1].

وقال القرطبي حول هذا المعنى «ويجوز أن يكون شكاً لاعلماً. أي قال الذين يتوهمون أنهم يُقتلون مع طالوت، فيلقون الله شهداء، فوقع الشك في القتل»[2].

٢١ ـ دعاء القلة المؤمنة «ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين» ليس خاصاً بها، بل يصلح لكل فئة مؤمنة مجاهدة صابرة، تقف أمام أعدائها. ولهذا قال السيوطي: «فيه استحباب هذا الدعاء عند القتال»[3].

وهناك لفتة في ترتيب فقرات الدعاء الثلاثة: الصبر وتثبيت الأقدام والنصر. فكل فقرة مبنية على ما قبلها، وترتيبها ترتيباً مرحلياً. فعند مواجهة الأعداء، يحتاج المجاهد أولاً إلى الصبر ـ بمفهومه الشامل وميادينه المتعددة ـ فإذا صبر، حاز المرحلة الثانية وهي ثباته وتثبيت قدميه، ولن تثبت الأقدام إلا عند الصابرين. وإذا ثبتت القدمان، واستبسل المجاهد في القتال نصره الله على الأعداء.

ونلاحظ في الدعاء الالتفات إلى أهمية الحالة النفسية والناحية المعنوية، وتقديمها على الحالة الخارجية المادية، ولذلك قدم الصبر على المعركة، وعلى تثبيت الأقدام فيها.

كما نلاحظ تناسقاً وتنسيقاً بين موقفين: اغترافهم من النهر اغترافاً، بينما يطلبون إفراغ الصبر عليهم إفراغاً، وصبَّه عليهم صباً! ولعل في هذا إشارة أخرى: فمن استعلى على الدنيا وحاجاتها، ولم تتعبده ملذاتها، وحرَم نفسه من بعض متعها ومباحاتها، ابتغاء وجه الله، عوَّضه الله عن ذلك، وأمده بمدد من

---

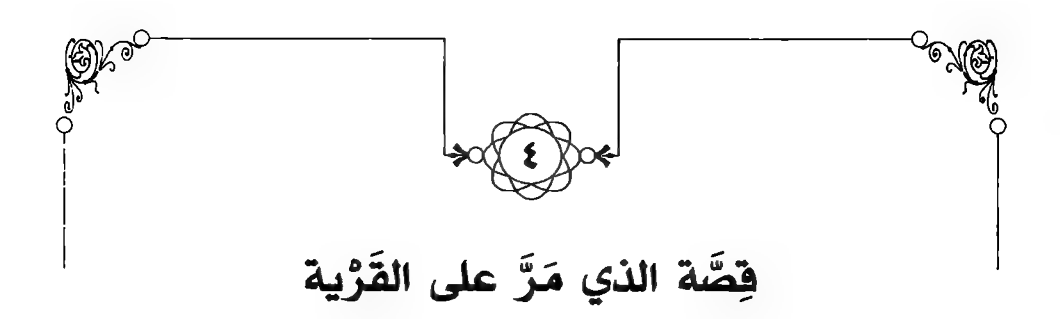
(١) التفسير الكبير للرازي ٦: ١٨٤.
(٢) تفسير القرطبي ٣: ٢٥٥.
(٣) الإكليل للسيوطي: ٤٥.

عنده. فها هي القلة المؤمنة امتنعت من الشرب من النهر، واستعلت بذلك على متع الدنيا ومباحاتها، فعوَّضها الله عن ذلك الصبر حيث أفرغه عليها إفراغاً.

٢٢ ـ كان ظهور داود من وسط الجيش المجاهد. فمن ميدان المعركة بدأ أمره، وترقى في طريق القيادة والملك والحكمة والمسؤولية.

وفي هذه إشارة إلى أن العمل هو الذي يُظهر القادة، والميدان هو الذي يكشف عن المواهب، فالقائدان طالوت وداود ظهرا من وسط الناس، وقدمهما للناس الميدانُ والعمل والواقع. فهذه هي طريق إيجاد القادة وتأهيلهم، وهؤلاء هم القادة الذين يقودون الأمة إلى طريق النصر والتمكين.

* * *



قِصَّة الذي مَرَّ على القَرْية

○ القصة في سياقها القرآني:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

○ تفصيلات القصة إسرائيليات:

أورد كثير من المفسرين والإخباريين تفصيلاتٍ لقصة الذي مرّ على القرية. وفسّروا بهذه التفصيلات كلام الله. وهذه التفصيلات لم تُنقل بحديث صحيح عن رَسُولِ الله ﷺ. ولذلك فهي من الإسرائيليات، التي يبدو عليها طابع الاختلاق والادعاء والبطلان.

قالت تلك الإسرائيليات: إن الذي مرّ على هذه القرية هو «عزير» وأن القرية هي «بيت المقدس» بعدما دمرها «بختنصر» وأجلى اليهود منها إلى بابل.

ونورد فيما يلي رواية واحدة من تلك التفصيلات الإسرائيلية، لنحذّر منها:

روى السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس وكعب الأحبار والحسن البصري ووهب بن منبه قالوا:

إن «عُزَيْراً» كان عبداً صالحاً. خرج ذات يوم إلى «ضَيْعَةٍ» له يتعاهدها.

فلما انصرف انتهى إلى خِربةٍ ـ وهي خرائب وأطلال بيت المقدس ـ وحين قامت الظهيرة، أصابه الحر، فدخل الخربة وهو على حمار له، فنزل عن حماره، ومعه سلَّة فيها تين، وسلَّة فيها عنب، فنزل في ظل تلك الخربة.

وأخرج قصعة معه، فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة، ثم أخرج خبزاً يابساً معه، فألقاه في تلك القصعة، ليبتل ليأكله، ثم استلقى على قفاه، وأسند رجليه إلى الحائط.

فنظر سُقف تلك البيوت، ورأى منها ما فيها، وهي قائمة على عُرشها، وقد باد أهلها، ورأى عظاماً بالية، فقال: «أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا». فلم يشك أن الله يحييها، ولكن قالها تعجباً.

فبعث الله ملك الموت، فقبض روحه. فأماته الله مائة عام.

فلما أتت عليه مائةُ عام، وكان فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمورٌ وأحداث، فبعث الله إلى «عُزَيْر» ملَكاً، فخلق قلبَه ليعقل به، وعينيه لينظر بهما، فيعقل كيف يُحْيي الله الموتى، ثم ركَّب خلقه وهو ينظر، ثم كسا عظامَه اللحم والشعر والجلد، ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك يرى ويعقل.

فاستوى جالساً فقال له المَلك: كم لبثتَ؟ قال: لبثتُ يوماً ـ وذلك أنه كان نام في صدر النهار عند الظهيرة، وبُعث في آخر النهار والشمس لم تغب ـ أو بعض يوم، ولم يتم لي يوم.

فقال له الملك: بل لبثتَ مائةَ عام. فانظر إلى طعامك وشرابك، يعني بالطعام الخبزَ اليابس، وبالشراب العصيرَ الذي اعتصره في القصعة، فإذا هما على حالهما، لم يتغيرا، فذلك قوله: «لم يَتَسَنَّهْ» أي لم يتغير. وكذلك التين والعنب غضٌّ لم يتغير عن حاله.

وكأنه أنكر ذلك في قلبه.

فقال له الملَك: أنكرتَ ما قلتُ لَكَ، اُنظر إلى حمارك. فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة! فنادى الملَك عظام الحمار فأجابت، وأقبلت من كل ناحية، حتَّى ركَّبها الملَك وعزيرٌ ينظر إليها، ثم ألبسها العروق

والعصب، ثم كساها اللحم، ثم أنبت عليها الجلد والشعر، ثم نفخ فيه الملَك، فقام الحمار، رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ يعني انظر إلى عظام حمارك، كيف يرْكب بعضها بعضاً في أوصالها، حتى إذا صارت عظاماً صارت حماراً بلا لحم، ثم انظر كيف نكسوها لحماً. «فلما تبيَّن له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير» من إحياء الموتى وغيره.

فركب حماره حتى أتى محلَّته فأنكره الناسُ، وأنكر الناسَ، وأنكر منازلَه. فانطلق على وهْم منه، حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مُقعَدة، قد أتى عليها مائةٌ وعشرون سنة، كانت أَمَةً لهم، خرج عنهم «عُزَيْر» وهي بنت عشرين سنة، وكانت عرفتْه وعقلتْه.

فقال لها عزير: يا هذه أهذا منزل عزير؟.

قالت: نعم. وبكت. وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا يذكر عزيراً، وقد نسيه الناس.

قال: فإني أنا عزير.

قالت: سبحان الله! فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة، فلم نسمع له بذكر!.

قال: فإني أنا عزير، كان الله قد أماتني مائة سنة، ثم بعثني!.

قالت: فإن عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة، يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يرد عليّ بصري حتى أراك، فإن كنتَ عزيراً عرفتُكَ.

فدعا ربّه، ومسح يده على عينيها ففتَحتْهُما، وأخذ بيدها وقال: قُومي بإذن الله، فأطلق الله رجلَها فقامت صحيحة، كأنّما نشطت من عِقال.

فنظرت إليه، فقالت: أشهد أنّك عزير.

فانطلقتْ إلى مَحلَّة بني إسرائيل، وهم في أنديتهم ومجالسهم. وابنٌ لعزير

شيخٌ ابنُ مائة وثمان عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخٌ في المجلس.

فنادتهم فقالت: هذا عزير قد جاءكم!.

فكذّبوها.

فقالت: أنا مولاتكم فلانة، دعا لي ربه، فردَّ عليَّ بصري، وأطلق رجلي، وزعم أن الله كان أماته مائة سنة، ثم بعثه.

فنهض الناس، فأقبلوا إليه، فنظر إليه ابنه، وقال: كانت لأبي شامةٌ سوداء بين كتفيه! فكشف عن كتفيه، فإذا هو عزير!.

فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة غيرَ عزير، وقد حرَّق بختنصر التوراة، ولم يبقَ منها شيء إلّا ما حفظت الرجال، فاكتبْها لنا.

وكان أبوه «سَروخا» قد دفن التوراة أيام بختنصر، في موضع لم يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع، فحفره، فاستخرج التوراة، وكان قد عَفِن الورق ودَرَس الكتاب.

فجلس في ظل شجرة، وبنو إسرائيل حوله، فجدد لهم التوراة، فنزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه، فتذكر التوراة، فجددها لبني إسرائيل.

فمن ثَمَّ قالت اليهود: عُزَيْر ابن الله. للذي كان من أمر الشِّهابَيْن، وتجديدِه للتوراة، وقيامِه بأمر بني إسرائيل.

وكان جدّد لهم التوراة بأرض السواد، بدير «حِزْقيل». والقَرية التي مات فيها يقال لها: «سابر آباد»[1].

○ رأي الطبري في هذه التفصيلات:

للإمام ابن جرير الطبري رأيٌ سديد في تفصيلات الذي مرَّ على القرية، ونقدٌ علمي رصين على تفصيلات قصته.

قال: «وَأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكْرُه،

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٢: ٢٧ ـ ٢٩.

عجَّب نبيّه ﷺ ممن قال ـ إذ رأى قرية خاويةً على عروشها ـ «أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟» مع علمه أنه ابتدأ خلقَها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها، حتى قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها!.

ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصحّ من قِبَله البيان، على اسم قائل ذلك.

وجائز أن يكون ذلك «عزيراً» وجائز أن يكون «أورميا» ولا حاجة بنا إلى معرفةِ اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريفَ الخلق اسمَ قائل ذلك.

وإنما المقصود بها تعريفُ المنكرين قدرةَ الله على إحيائه خَلْقَهُ بعد مماتهم، وإعادتِهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت ـ من قريش ومَنْ كان يكذِّب بذلك من سائر العرب ـ وتثبيت الحجة بذلك، على مَن كان بين ظهراني مهاجَر رسول الله ﷺ، من يهود بني إسرائيل، باطلاعه نبيَّه محمداً ﷺ على ما يزيل شكَّهم في نبوته، ويقطع عذرَهم في رسالته.

إذ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيّه محمد ﷺ في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومه، ولم يكن علم ذلك إلّا عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد ﷺ منهم، بل كان أمّياً، وقومُه أمّيون.

فكان معلوماً بذلك عند أهل الكتاب أن محمداً ﷺ، لم يعلم ذلك إلّا بوحي من الله إليه.

ولو كان المقصود بذلك الخبرَ عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبةً عليه نصباً يقطع العذر، ويزيل الشك. ولكن القصد كان إلى ذم قيله، فأبان تعالى ذِكْرُهُ ذلك لخلقه»[1].

○ ورأي سيد قطب فيها:

وللأستاذ الإمام سيد قطب رأيٌ لطيف، وموقف رصين من تلك التفصيلات الإسرائيلية.

---

(١) تفسير الطبري ٥: ٤٤١، ٤٤٢.

قال: «مَنْ هو الذي مرَّ على قرية؟ ما هذه القرية التي مرّ عليها وهي خاوية على عروشها؟».

إن القرآن لم يُفصح عنهما شيئاً، ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمةُ النص لا تتحقق إلّا بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن.

فلنقف نحن ـ على طريقتنا في هذه الظلال ـ عند تلك الظلال.

إن المشهد ليرتسم للحس قوياً واضحاً موحياً... مشهد الموت والبلى والخواء... يرتسم بالوصف «وهي خاوية على عروشها». محطّمة على قواعدها. ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مرّ على القرية. هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره: أَنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟»[1].

○ السياق الذي وردت فيه القصة:

وردت قصة الذي مرّ على قرية في سياق خاص، هو سياق الحديث عن الحياة والموت.

سبقتْها إشارةٌ إلى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع الملِك الذي ادّعى الربوبية، ومناقشةِ إبراهيم له، وإقامتِه الحجَّةَ عليه.

وجاءت بعدها إشارةٌ إلى قصة إبراهيم عليه السلام، مع مثال عملي للحياة والبعث، وهو الطيور التي أَتته سعياً.

وحتى نعيش في جو «الحياة والموت» ونلحظ الظلال العامة للسياق، نورد الآيات الثلاث:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ

(١) الظلال ١: ٢٩٩.

بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨ ـ ٢٦٠].

قال الأستاذ الإمام سيد قطب عن موضوع الآيات الثلاث: «هذه الآيات الثلاث تتناول موضوعاً واحداً في جملته: سرُّ الحياة والموت، وحقيقةُ الحياة والموت.

وهي بهذا تؤلف جانباً من جوانب التصور الإسلامي، يُضاف إلى القواعد التي قررتها الآيات السابقة، منذ مطلع هذا الجزء، وتتصل اتصالاً مباشراً بآية الكرسي، وما قررتْه من صفات الله تعالى...

وهي جميعاً تمثّل جانباً من جوانب الجهد الطويل المتجلّي في القرآن، لإنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود، في ضمير المسلم وفي إدراكه»[1].

○ أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟.

لمّا شاهَد ذلك الرجل القرية، وهي خاويةٌ على عروشها، انطلق لسانه بهذا التساؤل العجيب: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وهل تساءَلَ هذا التساؤلَ لأنه يشكّ في قدرة الله على إحياء الموتى، وإحياءِ تلك القرية بعد موتها؟ وهل مبعث التساؤل هو شكُّه في القدرة الربّانية؟.

بعض المفسرين قال بهذا، واعتبره لذلك شاكّاً في قدرة الله، ومعلوم أنّ الشك في قدرة الله المطلَقَة كفرٌ، وأن الشاكّ في ذلك كافرٌ وليس مؤمناً.

---

(١) الظلال ١: ٢٩٦.

فكيف يكون شاكّاً بالله، أيْ كافراً به، مع قولهم بأنه «عزير» وأنه كان نبياً؟.

لكن جمهورَ المفسرين على أن الرجل كان مؤمناً بالله، مؤمناً بقدرة الله المطلقة، مؤمناً ببعث الله للموتى.

قال سيد قطب: «إن المشهد ليرتَسم للحس قوياً واضحاً موحِياً. مشهد الموت والبلى والخواء... يرتسم بالوصف ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ محطمةٌ على قواعدها. ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مرَّ على القرية. هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

إن القائل ليعرف أن الله هناك. ولكن مشهدَ البلى والخواء ووقْعَه العنيف في حسّه جعله يحار: كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟ وهذا أقصى ما يبلغه مشهد من العنف والعمق في الإيحاء. وهكذا يلقي التعبيرُ ظلالَه وإيحاءاتِهِ، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخِص تجاه الأبصار والمشاعر.

أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟

كيف تدبّ الحياة في الموات؟»[1].

تساؤل الرجل إذن، لم يكن لشكّه في قدرة الله على إحياء الموتى. وإنما كان نتيجةَ المفاجأة مما يراه أمامه. قريةٌ ميتة خاوية على عروشها، كيف يحييها الله؟

ثم الرجل قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ولم يقل: هل يحيي هذه الله بعد موتها؟.

صحيح أن الكلمتين «أنّى» و«هل» للاستفهام. لكن السائل يعبّر بـ: هل إذا شك في قدرة وقوة صاحبه على فعل الشيء. عندما يقول له: «هل تقدر على حمل هذا؟»، أما إذا قال له: «أنّى أنت تحمل هذا؟» فإنه يسأل عن الكيفية.

فالرجل كان يحب أن يعرف كيف يحيي الله القرية بعد موتها. يحب أن يرى هذا، أو يطلعَ عليه.

---

(١) الظلال ١: ٢٩٩.

وهذا التساؤل كتساؤل إبراهيم عليه السلام، الذي ذكرته الآية السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وهذه كتلك، لأن السياق واحد.

○ معجزات في قصة الذي مر على القرية:

يقدِّم لنا القرآن ـ وهو يعرض قصة الذي مرّ على القرية ـ معجزاتٍ ربانية في موضوع الحياة والموت والبعث والصلاح والفساد، وهي تدل على قدرة الله المطلقة، التي لا تخضع لقوانين الكون ونواميسه وسننه، لأن الله هو الذي خلق النَواميس والسنن، وجعلها تحكم حياة البشر، ولكنها لا تحكم الله سبحانه، ولا تقيدُ إرادته ومشيئته.

من هذه المعجزات:

١ ـ أماتهُ الله لهذا الرجلِ مائةَ عام، ثم بعْثُه له: «فأماته الله مائة عام ثم بعثه».

وكان ذلك الموت والبعث جواباً على تساؤله «أنَّى يحيي هذه اللَّهُ بعد موتها؟» حيث أراه الله بعينيه تجربةً عملية، جرت معه شخصياً، أخذ منها الجواب على تساؤله. فها هو قد مات مائة عام ثم بُعث، والله الذي فعل هذا به قادر على إحياء القرية بعد موتها.

«لم يقل له كيف. إنما أراه في عالم الواقع كيف! فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا تعالَج بالبرهان العقلي، ولا حتى بالمنطق الوجداني، ولا تعالَج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان... إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلئ بها الحس، ويطمئن بها القلب، دون كلام!»[1].

٢ ـ موتُ حماره، وبقاءُ عظامه، هيكلاً عظمياً، مجرَّداً من اللحم والدم والوبر. وهو ما نأخذه من قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾.

---

(١) الظلال ١: ٣٠٠.

ثم بعْثُ الله لذلك الحمار، بطريقةٍ معجزةٍ، رآها الرجل أمام عينيه: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾. حيث رأى الهيكلَ العظميَّ للحمار، ثم رأى ـ وبالتدريج العجيب المعجز ـ اللحم ينبت على العظام شيئاً فشيئاً، ويكسوها تباعاً، حتى تكامَلَ تركيبُ اللحم عليها، وعاد للحمار جسمُهُ الذي كان له.

ثم أعاد الله له روحَه، فسرتْ في جسمه، ودبَّتْ فيه الحياة!.

٣ ـ عَدَمِ تغيُّر طعامِه وشرابِه طيلة هذه السنوات المائة! ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾. حيث بقي محتفظاً بفائدته وقيمته، وصالحاً للاستعمال البشري، لم تصل إليه عفونة، ولم يتطرقْ إليه فساد.

ويبدو لنا الإعجاز الباهر في هذا الاختيار الرباني:

فالمتوقَّع أن تطول حياته ـ وفق نظرة البشر وتقديراتهم ـ أماته الله، وهو ذلك الرجل وحماره.

والمتوقَّع منه سرعة الفساد والخراب والعفونة والبلى، وهو الطعام والشراب، أبقاه الله صالحاً طيباً مقبولاً، بدون تغيُّر أوتعفُّن، لمدة مائة سنة.

لقد ازداد ذلك الرجل المؤمن إيماناً ويقيناً، وتصديقاً واطمئناناً، لمّا شاهد تلك المعجزات معه.

ولقد ازددنا نحن الذين نقرأ هذه القصة في القرآن، ونتابع في كل مرة لقطاتها ـ بتلهُّف وتأثر وانفعال ـ إيماناً ويقيناً، وتصديقاً واطمئناناً، عندما قرأنا عن تلك المعجزات الربانية الباهرة.

○ كان موته موتاً خاصاً:

قد يعتبر بعضهم أن موتَ ذلك الرجل مائة عام ثم بعْثَه، متعارضٌ مع النصوص الأخرى التي تقرر أن الإنسان عندما يموت، لا ترجع له روحه إلا عند البعث يوم القيامة.

من تلك النصوص قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ

﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

ومنها قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٤٩ ـ ٥٠].

ولكننا لا نرى تعارضاً في ذلك:

فتلك النصوص تقرر حقيقةً قاطعةً، وهي أن الإنسان عندما يموت لا يعود للحياة الدنيا، ولا يرجع إليها، إنه قد غادر هذه الحياة الدنيا، وروحُه تعود لجسده في قبره، ويبقى فيها منعَّماً أو معذَّباً ـ حسب عمله في الدنيا ـ إلى يوم القيامة، حيث يبعثه الله مع المبعوثين من قبورهم.

لكنه الإنسان الذي يموت موتاً حقيقياً، وينتهي أجله في الدنيا نهائياً، ويَستوفي ذلك الأجلَ الذي كتبه الله له قبل خلق الكون.

أما إذا قدَّر الله لرجل أو جماعة، أن يموت موتاً خاصاً، وقدَّر أن يكون له بقيةٌ من الأجل الذي قدَّره الله له منذ الأزل، فإن ذلك الموت ليس هو الموت الحقيقي النهائي الذي تنتفي معه العودة للحياة الدنيا.

ولذلك عندما طلب الشهداءُ من الله العودة للدنيا، ليقاتلوا ويُقتلوا في سبيله مرة أُخرى، لم يستجب لطلبهم، لأن الله قرر أن لا يرجعوا للدنيا:

فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أَرواحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْر. لها قناديلُ مُعَلَّقَةٌ بالعَرْش. تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ. ثُمَّ تأوي إلى تِلْكَ القَناديل. فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ إطْلاعَةً. فقال: هَلْ تَشْتَهونَ شَيْئاً؟ قالوا: أيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنا. فَفَعَلَ ذلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّات. فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكوا مِنَ أَنْ يَسْأَلوا، قالوا: يا رَبِّ: نُريدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْواحَنا في أَجْسادِنا حَتّى نُقْتَل في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حاجَةٌ تُرِكوا»[1].

فهذا الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، لم يكن موته هذا هو

---

(١) مسلم ٣٣، كتاب الإمارة ٣٣، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة. حديث ١٨٨٧.

الحقيقيَّ النهائيّ، وإنما كان موتاً خاصاً، ليريه آياتٍ عملية من نفسه وطعامه وحماره، ويُري الآخرين آيات من قصته ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

وبعد أن بعثه الله، عاش حياته الباقية له، واستوفى أجله الذي قدّره الله له. ثم مات الموت الحقيقي، كما يموت سائر البشر.

وليس هو أول منْ مات هذا الموت الخاص، ثم بُعث ليستكمل أجله. فقد أخبرنا القرآن الكريم عن مجموعات ثلاثة، جرى لها ما جرى له:

الأولى: فريق من بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، عندما طلبوا منه أن يروا اللَّهَ جهرة، فأماتهم الله ثم بعثهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦].

الثانية: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، فأماتهم الله ثم أحياهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الثالثة: أصحاب الكهف، الذين أماتهم الله ثلاثمائة سنة وتسع سنوات: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥].

○ من أدلّة البعث في القرآن:

من أكثر الأمور التي كان يستغربها الكفّار ويستبعدونها، البعثُ والحساب يوم القيامة. كيف تُعاد أرواحهم في أجسادهم بعدما بليت وصارت تراباً؟.

وقد سجل القرآن شبهاتهم، وردّ عليها وفنّدها، في كثير من آياته، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سبأ: ٧ ـ ٨].

وأورد القرآن عدة أدلة للبعث، ليقرر هذه العقيدة في النفوس، وهي أدلة

يقينية صادقة، منتزَعة من واقع الحياة من أشياء يراها الناس ويعيشونها، فلا يشكُّون فيها لحظة.

من أشهر هذه الأدلة:

١ ـ خلْق السموات على ضخامتها وسَعتها، وخلْق الأرض على كبرها. فالله القوي القادر الذي خلق السموات، قادر على بعث هذا الإنسان الصغير الضئيل. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ [الأحقاف: ٣٣].

٢ ـ حالةُ الأرضِ قَبْلَ نزول الماء عليها. كيف تكون ميْتة مجدِبة، وكيف تدب فيها الحياة بعد نزول الماء عليها، وتُنتج ما تنتج من أصناف النبات. فالذي أحياها بعد المَوات قادر على أن يُحيي الأموات من قبورهم. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾ [فصلت: ٣٩].

٣ ـ الإنسانُ نفسه، وكيف خلقه الله من العدم. وأطوارُ حياته منذ أنْ كان نطفة، ثم مراحل حياته في رحم أمه، ثم مراحل حياته على وجه الأرض، ثم موته ودفنه تحت التراب. فالله الذي خلقه، ورعاه في مراحل حياته، قادر على أنْ يبعثه يوم القيامة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

٤ ـ قُدرةُ الله على خلقِ المتناقِضات المتضادّات، فالله خلق الليلَ والنهار، والظلامَ والنور، والماءَ والنار، والأخضرَ واليابس، والحياةَ والموت،

وهو قادر على بعث الإنسان حياً بعد موته. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٢].

٥ ـ معلوم لدى الناس أن إعادةَ الشيء مرة ثانية، من قِبَل الإنسان، أهونُ عليه من إنشائه أول مرة. وقد استخدم القرآن هذه البديهية دليلاً على البعث، فالله خلق الإنسان أول مرة، وأنشأه من العدم، وهو قادر على إعادته للحياة مرة ثانية، وبعْثِهِ من جديد. لأن الإعادةَ أهونُ عليه من الإنشاء ـ وهذا بالنسبة للإنسان، أمابالنسبة لله فإنه ليس أمامه صعب، فالكل عنده هيّن، لأنه فعّال لما يريد، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإذا أرادَ شيئاً فيقول له: كن فيكون ـ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

٦ ـ أحال القرآن على دليلٍ عملي يومي، يَحْدُث لكل إنسان منّا يومياً! إنه أمْر النوم واليقظة. كلٌّ واحد منا يعمل في يومه ونهاره، وفي الليل يدب إليه النعاس، ويسيطر عليه النوم فينام. وهو نائم يكون ميتاً، حيث تخرج روحه من جسده، وعندما يستيقظ يرُدُّ الله إليه روحه، ويبعثه من موته. إن النومَ موت. والاستيقاظَ بَعْثٌ. وبما أن الله يُجري هذا الأمر لكل منا يومياً، فهو قادر على بعث الأموات يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

٧ ـ يقدم القرآن معجزات ربّانية دليلاً على البعث. منها:

﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وما حصل مع إبراهيم عليه السلام، حيث قال له الله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وما جرى مع الرجل المؤمن الذي مر على قرية، وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وما جرى مع أصحاب الكهف، حيث أماتهم الله ثلاثمائة وتسع سنوات. ثم بعثهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف: ١٢].

○ قراءات في كلمات الآية:

هناك قراءات في ثلاث كلمات من الآية، ونورد فيما يلي تلك القراءات وتوجيهها، من كتاب «حُجَّةُ القراءات» لابن زنجلة:

الأولى قوله: «لَمْ يَتَسَنَّهْ» في جملة: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾.

قال الإمام ابن زنجلة:

قرأ حمزة والكِسائي «لم يَتَسَنَّ» بحذف الهاء في الوصل. أي لم تغيِّرْهُ السِّنون. والهاء زائدة للوقف.

وحجتهما: أن العرب تقول في جمع السنّة: سنوات. وفي تصغيرها سُنَيَّة. فالهاء زيدت لبيان الحركة في حال الوقف، فإذا وصل القارئ قراءته، اتصلت النون بما بعدها، فاستُغْني عن الهاء حينئذٍ، فطَرَحها لزوال السبب الذي أدخلها من أجله. وكان في الأصل «لم يتسنّى» فحُذِفَت الألفُ للجزم، وكان الفرّاءُ يقول: «لم يَتَسَنَّهْ». لم يتغير. من قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وكان الأصل «لم يَتَسَنَّنْ» ثم قُلبت النون الأخيرة ياءً، استثقالاً لثلاث نونات متواليات.

وقرأ الباقون: «لم يتسنّه» بإثبات الهاء في الوصل. أي لم تأتِ عليه السّنون. فالهاء لام الفعل، وسكونها علامة الجزم.

وحجتُهم: أن العرب تقول: سَانَهْتُ مُسَانَهَةً. وفي التصغير «سُنيهَة» فلهذا أثبتوا الهاء في الوصل لأنها لام الفعل[1].

وخلاصة هاتين القراءتين. أنّهم اختلفوا في الفعل الماضي الذي أُخذ منه الفعل المضارع «يتسنّه».

فعند حمزة والكسائي هو «سَنَنَ» ومضارعه «يَسْنَنُ» فالنون فيه أصلية، والهاءُ زائدة للوقف وهو بمعنى التغير. وعند الباقين، الماضي هو «سَنَهَ» ومضارعه «يَسْنَهُ» فالهاء فيه أصلية، والمعنى واحد: أي لم يتغير.

الثانية: قوله: قوله: ﴿نُنشِزُهَا﴾ في جملة ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾:

قال الإمام ابن زنجلة:

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «نَنْشُرُها» بالراء. أي: كيف نُحييها. وحجتهم قوله قبلها: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

ولو كانت بالزاي «ننشزها» لكان معناها: كيف نرفعها من الأرض إلى الجسد. وذلك الرجل لم يكن في شك في رفع العظام، إنما شكُّه في إحياء الموتى. فقيل له: انظر كيف نَنْشُرُ العظام فنحييها.

وقرأ الباقون: «كيْفَ نُنْشِزُهَا» بالزاي. أي نرفعها.

وحجتهم قوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ وذلك أن العظام إنما توصَف بتأليفها، وجمْع بعضها إلى بعض، إذا كانت نفسها لا توصف بالحياة.

وحجةٌ أخرى: قوله: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ دل على أنها قبل أن يكسوها اللحم غيرُ أحياء، لأن العظم لا يكون حيًّا وليس عليه لحم. فلما قال: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ عُلم بذلك أنّه لم يحيها قبل أن يكسوها اللحم»[2].

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة: ١٤٢، ١٤٣.

(٢) حجة القراءات: ١٤٤.

فالخلاصة أنّها: إمّا أن تكون بالراء «نَنْشُرُهَا» وهو من النشور بمعنى الإحياء. أي إن الله نَشَر العظام، وجعل الحياة تدبّ فيها.

وإمّا أن تكون بالزاي «نُنْشِزُهَا» وهو من النشوز بمعنى الارتفاع. أي أنّ الله يُنْشِزُ العظام ويرفعها عن الأرض، ويركّب بينها، ثم يكسوها اللحم.

الثالثة: قوله: ﴿أَعۡلَمُ﴾ من جملة ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

قال الإمام ابن زنجلة:

قرأ حمزة والكسائي: ﴿قَالَ اعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جَزْماً عَلَى الأَمْرِ مِنَ الله.

وحجتهما: قراءةُ ابن مسعود «قِيلَ اعْلَمْ أنّ الله على كل شيء قدير».

وكان ابن عباس يقرؤها أيضاً: «قال: اعْلَمْ» ويقول: أهو خير أم إبراهيم، إذ قيل له: «وَاعْلَمْ أَنّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

وحجةٌ أخرى: وهي التوفيق بين ذلك وسائرِ ما تقدَّمه، إذ كان جرى ذلك كلّه بالأمر. فقيل: فانظر إلى طعامك. وانظر إلى حمارك. وانظر إلى العظام. وكذلك أيضاً قوله: «اِعلمْ أن الله» إذ كان في سياق ذلك.

قال الزّجّاج: من قرأ «اِعْلَمْ» فتأويله: أنّه يُقبل على نفسه فيقول: اِعلم أيّها الإِنسان أنّ الله على كلّ شيء قدير.

وقرأ الباقون: «قال: أعلمُ» رفعاً على الخبر عن نفس المتكلّم.

وحجتهم: ما روي في التفسير قالوا: لمّا عاين من قدرة الله ما عاين قال: أَعْلَمُ أن الله على كل شيء قدير. قالوا: فلا وجه لأن يؤمر بأن الله على كل شيء قدير، وقد عاين وشاهد ما كان يستفهم عنه.

وقال الزّجّاج: ليس تأويل قوله: أَعْلَمُ أنّ الله على كل شيء قدير، أنّه ليس يعلم قبل ما شاهد، ولكن تأويله: إنّي علمتُ ما كنتُ أعلمه غيباً، مشاهدةً»[1].

---

(١) حجة القراءات: ١٤٤ ـ ١٤٥.

والخلاصة أنّها إمّا أن تكون «اِعْلَمْ» فعل أمر، فيأمره الله أن يعلم بعدما شاهد. أويأمر هونفسه أن تعلم.

وإما أن تكون فعلاً مضارعاً «أَعْلَمُ» أي أنّه يعترف بأنّه علم، ويقرر عن نفسه حقيقة علمه.

في ختام كلامنا عن القراءات في الآية، نقرر أنّ هذه القراءات من عند الله، وليست باجتهاد القراء، ويجب قبولها، ولا يجوز الترجيح بينها.

○ إلى أيّة عظام ينظر؟

أمر الله ذلك الرجل أن ينظر إلى العظام. فقال له: «وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً».

وقد اختلف المفسرون في العظام التي أُمر أن ينظر إليها. هل هي عظامه هو؟ أم هي عظام حماره؟.

ذهب بعضهم إلى الأوّل. وقالوا: إن الله بعثه بالتدريج، وإن الروح أول ما دبّت في قلبه، ثم في عينيه، حيث كان ينظر بعينيه إلى هيكله العظمي، وهو مجرد عظام بدون لحم، ثم رأى كسوتها بلحمه بالتدريج.

وهذا القول مردود، لأنه يَفترضُ حدوث أمور لذلك الرجل، لم يدل عليها حديث صحيح عن رسول الله ﷺ. فهي مستمدَّة من الإسرائيليات.

وذهب المحققون من المفسرين إلى الثاني، حيث أمره الله أن ينظر حوله، ليرى معجزاتٍ لله، تدل على قدرة الله على البعث وإحياء الموتى. ومنها عظام حماره.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب: «أيّة عظام؟ عظامه هو؟ لو كان الأمر كذلك ـ كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هي التي تعرَّتْ من اللحم ـ للفت هذا نظرَه عندما استيقظ، ووخزَ حسّه كذلك، وَلَما كانت إجابته «لبثتُ يوماً أو بعض يوم».

لذلك نرجّح أن الحمار هو الذي تعرَّتْ عظامُه وتفسّخت. ثم كانت الآية

هي ضمُّ هذه العظام بعضها إلى بعض، وكسوتها باللحم، وردُّها إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذي لم يمسَّه البلى. ولم يُصب طعامَه ولا شرابه التعفن.

ليكون هذا التباين في المصائر، والجميع في مكان واحد، معرَّضون لمؤثرات جويَّة وبيئية واحدة، آيةً أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء، والتي تتصرف مطلَقَة من كل قيد، وليدرك الرجل كيف يحيي هذه الله بعد موتها»[1].

ونقف لحظة أمام كلمة «كيف» في العبارة: «وانظر إلى العظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسوها لَحْماً» حيث يُدعىٰ ذلك الرجل للوقوف على «الكيفية» كيفية رفع العظام، وكيفيةِ الجمع بينها، وترتيبِها مع بعضها، وتوصيلِها مع بعضها، بتناسق وانسجام، حتى تكون هيكلاً عظمياً متكاملاً. ثم تُكْسى بعد ذلك باللحم، وهو يُدعى إلى الوقوف على «كيفية» كسائها باللحم.

وهذا التوجيه إلى إمعان النظر وملاحظةِ «الكيفية» يوحي لنا بأهمية معرفة «كيفية» الحقائق والظواهر المادية التي تحيط بنا، ومحاولة إنفاذِ النظرات فيها، وتحليلِها ماديّاً وعمليًا.

ولعل هذا التوجيه القرآني، كان هو ـ وأمثاله من التوجيهات القرآنية الكثيرة التي تدعو إلى ملاحظة الكيفية للظواهر المادية ـ من أكبر الحوافز على توجُّه علماء المسلمين نحو «كيفيات» العلوم الماديّة، والوقوف عليها وعلى تفصيلاتها وجزئيّاتها، وإيثارهم الناحية العملية للعلوم على الناحية النظرية الذهنية، وتأسيسِهم للمنهج العلمي التجريبي المادي التطبيقي للعلوم، وسيرِهم فيه خطوات، قبل أن تغرب شمس التقدم العلمي عندهم، لتشرِق على العالَم الغربيّ، الذي أَخذَ منهجَ المسلمين التجريبيّ العلميّ وجَعَلَهُ أساس النهضة العلمية الغربية المعاصرة.

---

(١) الظلال ١: ٣٠٠.

فالقرآن يحثّنا على الناحية العلمية التجريبية «المَعْمَلِيّة» وعلى الوقوف على «كيفية» حدوث الظواهر الكونية والفلكية.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

○ العلم بعد التبيّن:

لمّا شاهد ذلك الرجل معجزات الله أمامه، وعرف أنّ الله أحياه بعد مائة سنة من موته، وتبيّن له الأمر، قال: «أَعْلَمُ أنّ الله على كُلِّ شيء قَدِيْر».

ونقف لحظة أمام هذه الجملة، لنفهم عنها بعض ما توحي به:

إنّ الرجل مؤمنٌ بقدرة الله المطلقةِ، غيرُ شاك فيها، وعندما قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ لم يكن شاكاً في قدرة الله، وإنما كان يريد أن يرى تجربة عمليّة واقعيّة، فَتَمَّت له التجربة، تمت معه هو شخصياً.

لكن إيمانه بقدرة الله زاد بعد ملاحظة تلك التجربة، ولم يبقَ على ما هو عليه قبلها.

ثم هذه التجربة العملية الميدانية، أوْجَدتْ عنده العلم اليقيني الواثق الجازم. وقد أخبَرنا عن أثرها عليه بقوله: «فلمّا تبيّن له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير».

لقد حصَلَ منها على العلم والجزم واليقين، وهذه أمور تُقوي الإيمان وتزيده.

ولعل هذا يقودنا إلى ملاحظة أثر الدليل العملي والنموذج الواقعي والمثال الحسّي، على تثبيت الحقائق النظرية ورسوخها والإيمان بها... وهذا ملاحَظ عند الناس. فالطبيب تَبقى معلوماته الطبية نَظريةً ذهنية، ولا ترسخ وتثبت عنده إلا إذا ذهب للمعمل والمختبر، وقام بتجارب فيه، قام بها بيده، ولاحَظَها بعينيه.

وقل مثلَ هذا في المهندس والسائق والمعلم وغيرهم.

وفي قصّة إبراهيم عليه السلام مع طيوره ـ التي وردت بعد قصة ذلك الرجل ـ إشارةٌ إلى أهمية التجربة العملية، وإلى أثرها في الإيمان والعلم والجزم واليقين: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فالرجل المؤمن قال بعدما شاهد المعجزات: «أَعْلَمُ أن الله على كل شيء قدير».

وإبراهيم عليه السلام، يأمره الله بالعلم بعد التجربة «واعْلَمْ أنّ الله عزيز حكيم».

وكأن هذه الأمثلة القرآنية تدعونا إلى الالتفات إلى الأمثلة والنماذج والتجارب العملية، التي تُصدِّق وتثبت المعلومات النظرية الذهنية، وأن نستخدمها في عرض حقائق الدين وقضاياه.

○ سيد قطب يناقش الماديين:

وقف سيد قطب وقفةً لطيفةً، حيث اعتبر قصة الذي مرّ على القرية، وما تحمله من معجزات ربانية حول قدرة الله على الموت والحياة، فرصة مناسبة لمناقشة الأفكار المادية. فناقش الماديين الملحدين الذين ينكرون قدرة الله والبعث بعد الموت، ويَنْفون وجود الله. ونورد فيما يلي كلامه في مناقشتهم:

«أما كيف وقعت الخارقة؟ فكما تقع كل خارقة! كما وقعت خارقة الحياة الأولى. الخارقة التي ننسى كثيراً أنها وقعت، وأننا لا ندري كيف وقعتْ! ولا ندري كذلك كيف جاءت، إلا أنها جاءت من عند الله، بالطريق التي أرادها الله.

وهذا «دارون» أكبر علماء الحياة يظل ينزل في نظريته بالحياة درجة درجة، ويتعمق أغوارها قاعاً قاعاً، حتى يردَّها إلى الخلية الأولى. ثم يقف بها هناك.

إنه يجهل مصدر الحياة في هذه الخلية الأولى. ولكنه لا يريد أن يسلِّم

بما ينبغي أن يسلِّم به الإدراك البشري، والذي يلح على المنطق الفطري إلحاحاً شديداً. وهو أنه لا بد من واهب، وهب الحياة لهذه الخلية الأولى.

لا يريد أن يسلِّم، لأسباب ليست علمية، وإنما هي تاريخية في صراعه مع الكنيسة! فإذا به يقول: (إن تفسير شؤون الحياة بوجود خالق، يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة، في وضع ميكانيكيٍّ بحت!).

أيُّ وضع ميكانيكي؟! إن الميكانيكية هي أبعد شيء عن هذا الأمر، الذي يَفرض على الإدراك فرضاً، أن يبحث عن مصدر لهذا السر القائم تجاه الأبصار والبصائر!.

وإنه ـ هو نفسه ـ ليجفل من ضغط المنطق الفطري، الذي يُلجئ الإدراك البشري إلجاءً إلى الاعتراف بما وراء الخلية الأولى، فيُرجع كلَّ شيء إلى «السبب الأول»! ولا يقول: ما هو هذا السبب الأول؟ ما هو هذا السبب الذي يملك إيجاد الحياة أول مرة، ثم يملك ـ حسب نظريته هو، وهي محل نظر طويل ـ توجيهَ الخلية الأولى في طريقها، الذي افترض هو أنها سارت فيه صعداً، دون أي طريق آخر غير الذي كان! إنه الهرب والمراء والمحال.

ونعود إلى خارقة القرية لنسأل: وما الذي يفسر أن ينال البلى شيئاً، ويترك شيئاً، في مكان واحد وفي ظروف واحدة؟ إن خارقة خلق الحياة أول مرة أو خارقة رجْعها كذلك، لا تفسِّر هذا الاختلاف في مصائر أشياء ذات ظروف واحدة.

إن الذي يفسِّر هذه الظاهرة هو طَلاقةُ المشيئة. طلاقتها من التقيد بما نحسبه نحن قانونياً كلياً لازماً ملزِماً، لا سبيل إلى مخالفته أو الاستثناءِ منه.

وحسباننا هذا خطأً بالقياس إلى المشيئة المطلقة: خطأ منشوه أننا نفرض تقديراتِنا نحن ومقرراتنا العقلية أو«العلمية!» على الله سبحانه! وهو خطأ يتمثل في أخطاء كثيرة:

فأولاً: ما لنا نحن نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه؟ قانونٌ

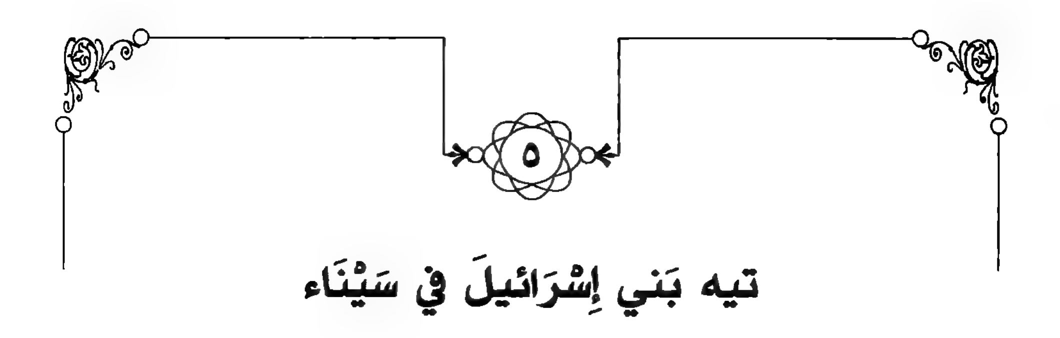
مستَمَدٌّ من تجاربنا المحدودة الوسائل، ومن تفسيرنا لهذه التجارب ونحن محدودو الإدراك؟.

وثانياً: فهبه قانوناً من قوانين الكون أدركْناه. فمن ذا الذي قال لنا: إنه قانون كلي نهائي مطلق؟ وأنْ ليس وراءه قانون سواه.

وثالثاً: هبْهُ كان قانوناً نهائياً مطلقاً. فالمشيئة الطليقة تُنشئ القانون، ولكنها ليست مقيَّدةً به. إنّما هو الاختيار في كل حال»[1].

* * *

(١) الظلال ١: ٣٠٠، ٣٠١.



تيه بَني إِسْرَائيلَ في سَيْنَاء

○ القصة في العرض القرآني:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

○ موجز القصة:

أنقذ الله بني إسرائيل من فرعون، وأخرجهم إلى سيناء بقيادة موسى عليه السلام، وأنعم عليهم في صحراء سيناء بنعم عظيمة، حيث فجَّر لهم من الحجر اثنتي عشرة عيناً، وظلَّل عليهم الغمام، وجعل طعامهم فيها المنَّ والسلوى.

طلب منهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة ـ وهي فلسطين ـ وأخبرهم أن الله سينصرهم على أعدائهم الكافرين الذين فيها، وما عليهم إلا أن يقاتلوا في سبيل الله.

ولكن اليهود جُبلوا على الجبن والذل، ولم يعرفوا طريق الشجاعة

والرجولة، فرفضوا تنفيذ أمر موسى عليه السلام. وقالوا: إن فيها قوماً جبارين، لا طاقة لنا بقتالهم، فلن ندخلها حتى يخرجوا منها.

وخرج من بينهم رجلان، منَّ الله عليهما بالشجاعة والقوة، وعجبا من موقف القوم الجبان، فرسما لهم طريق القتال والنصر: أُدخلوا عليهم الباب، وابدءوا أنتم بالهجوم ـ والنصر لمن هاجم وبدأ الحرب ـ فإذا فعلتم ذلك فإنكم غالبون. ثم إن الله قد ضمن لكم النصر، فتوكلوا عليه واطلبوا النصر منه.

وشعر اليهود بأن الرجلين قد أفحماهم، وقضيا على أعذارهم. فتوقحوا، وأعلنوا التمرد، وقالوا لموسى عليه السلام: إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون.

وتوجه موسى عليه السلام إلى ربه قائلاً: «رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافْرُق بيننا وبين القوم الفاسقين».

وعاقب الله ذلك الجيل الجبان من اليهود، بأن حرمهم من شرف الشجاعة والجهاد، ولذة الانتصار، والتنعم بدخول الأرض المقدسة. فكتب عليهم أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة، وهي مدة كافية ليموت ذلك الجيل الخنوع الذليل الجبان. ويظهر بدلهم جيل جديد، ينشأ على الخشونة والهمة والجلد، في جو الصحراء، فيقْدر على قتال الكافرين، ويكتب الله له الانتصار. قال: فإنها محرمة عليهم، أربعين سنة يتيهون في الأرض. فلا تأس على القوم الفاسقين.

○ إسرائيليات حول قصة التيه:

أورد بعض المفسرين والإخباريين روايات وأقوالاً بشأن بعض تفصيلات القصة أخذوها من الإسرائيليات، ومن هذه الروايات ما هو منكر وخرافي وأسطوري.

من تلك الروايات، تحديدهم المدينة التي أمرهم موسى عليه السلام بدخولها، بأنها مدينة «أريحا» الواقعة في الغور الأوسط من فلسطين.

ومنها تحديدهم أحجام القوم الجبارين، الذين قال عنهم اليهود: «إن فيها قوماً جبارين».

قالوا في تلك الروايات: إن موسى ﷺ، أرسل اثني عشر رجلاً من بني إسرائيل ليستطلعوا أخبار مدينة الجبارين. فذهبوا إلى مشارف المدينة، وشاهدوا رجلاً قادماً من الجبارين، ففزعوا منه، واختفوا في العشب والزرع. فجاء هذا الرجل الضخم إلى الحقل، وشاهد اليهود فيه، وبَدَوْا أمامه أقل من الأقزام. فصار يأخذهم، ويضعهم في كُمِّه وحُجْزَة سراويله، وسار بهم حتى وصل إلى قصر الملك، فنثر اليهود الذين معه بين يدي الملك ورجاله، فتعجبوا من صغر أحجامهم، وسأل الملك: مَنْ هؤلاء ولم يصدق أن يكونوا من البشر!.

فلما علم أنهم من اليهود، أكرمهم وأعطاهم قطف عنب، كل حبة منه تُشبع الرجل!.

قالوا: وكان مع هؤلاء الجبارين، عوج بن عناق. وهو شخصية أسطورية خرافية غريبة، حيث زعم الخرافيون الكاذبون، أن عوج كان مع الكافرين من قوم نوح وأنه نجا من الطوفان العظيم الذي أغرق قمم الجبال العالية، لكن هذا الطوفان الهائل، لم يبلغ إلى كعبي عوج بن عناق! وأنه كان يسير وسط الطوفان بأمان وسلام، وكان عندما يجوع يمد يده بسهولة فإذا هي تصل قاع البحر، فيأخذ منه السمك، ويرفع يده إلى أعلى باتجاه الشمس، فيشوي ذلك السمك وهو بيده، وينضجه على حر الشمس اللاهبة.

قال الإسرائيليون الخرافيون الكاذبون: وبقي عوج بن عناق حياً حتى عهد بني إسرائيل، وأنه كان يسكن «أريحا» مدينة الجبارين، وأنه حارب موسى معهم.

وأضافوا قائلين: كان طول عوج بن عناق ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً.

ولما توجه عوج إلى جيش موسى ليقتله، اقتلع قمة جبل عظيمة ليهوي بها على موسى ومن معه، فجاء طائر ونقر تلك الصخرة العظيمة، فصارت طوقاً في عنق عوج بن عناق. فعمد موسى ﷺ إليه، فوثب في الهوة عشرة أذرع، وطول موسى عشرة أذرع، وبيده عصا طولها عشرة أذرع. فوصل إلى كعب عوج، فقتله!.

وبهذا عجز الطوفان عن إهلاك عوج بن عناق، ولم يقتله إلا بنو إسرائيل!.

وقالوا عن أحجام الجبارين العماليق: استظل سبعون رجلاً من بني إسرائيل في خف رجل من العماليق.

وقالوا: إن ضبعاً ربضت هي وأولادها في فجاج عين رجل من العماليق الجبارين»[1].

○ الإمام ابن كثير رفض تلك الإسرائيليات:

كم يعجبني في هذا المقام قولُ الإمام ابن كثير في حكمه على تلك الخرافات والأساطير الإسرائيلية حيث قال: «وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدل النقل والعقل على خلافها. من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً».

وبعد أن أورد ـ في تاريخه ـ بعض تلك الإسرائيليات، قال: «يُروى هذا عن نوف البكالي، ونقله ابن جرير عن ابن عباس، وفي إسناده إليه نظر.

ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذا من وضع جُهال بني إسرائيل، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم، ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم. وقد ذمهم الله على نكولهم، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم، ومخالفتهم رسولهم»[2].

○ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين:

يُذكِّر موسى عليه السلام بني إسرائيل ببعض نعم الله عليهم، وذلك في قوله لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) انظر: الدر المنثور، للسيوطي ٦: ٤٨، ٤٩؛ والبداية والنهاية ١: ٢٧٧، ٢٧٨.
(٢) البداية والنهاية ١: ٢٧٨.

وعندما ننظر في الآية، نجد أنها تشير إلى بعض نعم الله على بني إسرائيل. منها:

١ ـ ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾: ووجود الأنبياء بينهم مظهر من مظاهر نعمة الله عليهم، لأنهم يدلونهم على الخير، ويحكمونهم بالحق، ويقودونهم إلى السعادة.

٢ ـ ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾: ولا يعني هذا أنهم جميعاً أصبحوا ملوكاً، إذ من غير المعقول أن يكون كل فرد منهم ملكاً! ملِك على من؟ وأين هو الشعب الذي يتملك عليه؟ فمعنى قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾: عندكم الأهلية لتكونوا ملوكاً، لو توفرت لكم الظروف المناسبة.

قال الإمام الراغب الأصفهاني: «والمُلْك نوعان:

(أ) مُلك هو التملك والتولي. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].

(ب) ملك هو القوة على ذلك. تولى أم لم يتولَّ. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾. فجعل النبوة مخصوصة، والملك عاماً. فإن معنى الملك ههنا هو القوة التي بها يرشح للسياسة، لا أنه جعلهم كلهم متولين للأمر، فذلك مناف للحكمة، كما قيل: لا خير في كثرة الرؤساء»[1].

٣ ـ ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إن الله أعطى بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، ما لم يعط أحداً من العالمين، حيث أعطاهم التمكين والنصر، فأنجاهم من فرعون وجنوده، وأهلك أعداءهم الكافرين.

إن هذه النعمة محدودة بزمان معين ولأقوام مخصوصين، وليست عامة مطردة لليهود على اختلاف الزمان والمكان، كما يدَّعي اليهود، ويحاولون إقناع الآخرين بذلك. فيقولون: إن الله أعطانا ما لم يعط أحداً من العالمين، وهذا

(١) المفردات في غريب القرآن ٤٧٢.

مذكور في القرآن كتاب المسلمين وليس فقط في كتابنا التوراة. وعطاء الله لنا باعتبارنا يهوداً، وهو مستمر حتى قيام الساعة.

وقد يُخْدع أُناس بهذه الدعايات الإِسرائيلية.

إن معنى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قريب من معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

العالمون الكافرون مثل فرعون وجنوده، ومثل الكافرين الذين كانوا يسكنون الأرض المقدسة.

ولقد فضَّل الله بني إسرائيل على أولئك العالَمين لا لجنسهم ولا لأصلهم. بل لعقيدتهم وإيمانهم. كانوا هم المؤمنين وسط أقوام من الكافرين، ومن الطبيعي أن يفضل الله المؤمنين على الكافرين، وأن يؤتيهم ما لم يؤت أحداً من الكافرين.

أما بعد تلك الفترة فقد أزال الله عن اليهود ذلك التفضيل، وذلك بعد أن كفر اليهود وطغوا وبغوا وأفسدوا. فبعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام، وجعل الإِسلام دين العالمين، وكان المسلمون خير أمة أخرجت للناس.

○ الأرض المقدسة التي كتب الله لكم:

الأرض المقدسة هي فلسطين. وهي الأرض المباركة التي قال الله عنها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وقال الله عنها في سياق قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧١].

وخاطب موسى عليه السلام قومه قائلاً: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

وما قلنا من قبل عن قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نقوله هنا عن الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم.

إن اليهود يعتبرون أن حقهم في الأرض المقدسة ـ فلسطين ـ حق دائم حتى قيام الساعة، وأنهم عندما يطالبون بها فإنما يطالبون بحقهم الذي قرره الله لهم. وأنهم عندما يعودون إليها يعودون إلى الأرض التي كتبها الله لهم، وأن عودتهم في هذا العصر إلى فلسطين واحتلالهم لها، وإقامة دولة لهم فيها، وإخراج أهلها منها، كل هذا ليس عدواناً ولا ظلماً ولا باطلاً، وإنما هو تحقيق لوعد الله الذي قطعه لهم.

إنهم يحاولون إقناع الآخرين في العالم بهذه الإشاعات، ويستشهدون أثناء ذلك بهذه الآية، ويقولون إن القرآن يقرر هذا، وها نحن نعود إليها، فلماذا ينكِر علينا العرب والمسلمون والآخرون العودة إلى أرضنا التي قررها القرآن لنا؟.

ويصدِّق أُناس بهذه الدعاية اليهودية، ويُخدع أُناس بهذا التحريف وهذه المغالطة.

فلسطين أرض مباركة مقدسة. نعم. وكتبها الله لبني إسرائيل. نعم!.

لكن من هم بنو إسرائيل الذين كتب الله لهم الأرض المقدسة؟ وهل هذه الكتابة مستمرة دائمة؟ وهل هي لكل يهودي حتى قيام الساعة؟.

إن الذين كتب الله لهم الأرض المقدسة هم بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى عليه السلام، وخرجوا معه من مصر، وهم بنو إسرائيل المؤمنون الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام، واتبعوا أنبياءهم وآمنوا بهم، مثل داود وسليمان عليهما السلام.

كتب الله لأولئك المؤمنين من بني إسرائيل الأرض المقدسة، لا لجنسهم ولا للونهم ولا لنسبهم، ولكن لدينهم وإيمانهم وعقيدتهم.

كانوا في ذلك الوقت مؤمنين وسط أقوام من الكافرين في مصر والأرض المقدسة، ومعلوم أن الله يفضل المؤمن على الكافر، ولذلك جعل الله الأرض المقدسة لبني إسرائيل المؤمنين، وكتبها لهم بسبب إيمانهم.

وبعد ذلك تغير اليهود، وكذبوا رسول الله ﷺ، وكفروا بالدين الحق الذي جاء به، وبذلك اعتُبروا كافرين ظالمين باغين، ففقدوا أي حق لهم في

الأرض المقدسة، إذ انتزعها الله منهم، وجعَلَها لعباده الصالحين المؤمنين، وهذا موافق لسنة الله التي لا تتبدل، في توريث الله الأرض لعباده الصالحين.

آيات صريحة تقرر هذه السنة، وتوضح هذه الحقيقة. منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٧ ـ ١٦٨].

الأرض المقدسة كتبها الله لبني إسرائيل السابقين المؤمنين، وفق سنَّته في تفضيل المؤمنين على الكافرين. والأرض المقدسة انتزعها الله من أحفادهم اليهود الكافرين، وفق سنته سبحانه.

○ إن فيها قوماً جبارين:

لما طلب موسى عليه السلام من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة، وضمن لهم انتصارهم على أعدائهم فيها، جبُنوا عن القتال، ورفضوا الدخول.

ردوا على طلب موسى عليه السلام بأنه لا قدرة لهم على دخولها، لأنه لا طاقة لهم بقتال أهلها: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

وقد ابتعد بعض المفسرين كثيراً، عندما صاروا يتخيلون صورة هؤلاء القوم الجبارين، وخرجوا بذلك عن المعقول إلى الخيالات الغريبة الخرافية الأسطورية، حيث تخيلوا لهم أشكالاً ضخمة غريبة ـ أوردنا بعضها عند كلامنا عن إسرائيليات القصة ـ.

ونرى أن هؤلاء الخرافيين قد خالفوا المنهج الصحيح، والبحث

المعقول، وجاوزوا ما يوحي به القرآن، إلى خرافات وأساطير باطلة. وليتهم لم يُشغلوا أنفسهم بذلك، بل بقوا ضمن إيحاء النص.

إن جملة: ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا يلزم منها التجبر والجبروت عن طريق ضخامة الجسم وعظمة الصورة، فقد تجد جباراً متحكماً باغياً طاغية، ولكنه ضئيل الجسم صغير الحجم نحيف البدن قصير القامة. وقد يكون الإنسان ضخماً طويلاً سميناً، ولكنه ضعيف عاجز.

فقد يكون القوم الجبارون سكان الأرض المقدسة طوالاً، وقد يكونون قصاراً، وقد يكونون ضخاماً سماناً، كما أنهم قد يكونون ضعافاً هزيلين، المهم أنهم قوم جبارون!.

ثم إن كونهم قوماً جبارين، هو وفق نظرة اليهود إليهم، وتقويمهم لقوتهم. ومن يدري هل اليهود صادقون في هذا التقويم؟ وهل هذه هي الصورة الحقيقية التي عليها القوم؟.

ألا يمكن أن يكونوا مبالِغين في التقويم؟ مضخِّمين لصورة الخصم؟ ليبدوا معذورين في عدم قتالهم! ألا يمكن أن يكون الدافع لهذه الجملة التي قالوها هو جبنهم وخوفهم ورعبهم، وهذا الخوف ضخَّم لهم صورة عدوهم وكبَّرها، بحيث بدت أكبر مما هي عليه.

إن خيال الجبان الضعيف، يُكبِّر له الأشياء، ليزداد منها خوفاً ورعباً. وصدق المتنبي في تصويره جبن الجبان الهارب:

وضاقت الأرض حتى كان هاربُهم   إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

○ لن ندخلها حتى يخرجوا منها:

﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

جُبْن اليهود هو الذي ضخَّم لهم صورة أعدائهم. وجُبْن اليهود هو الذي حال بينهم وبين قتالهم. وجُبْن اليهود هو الذي منعهم من دخول الأرض المقدسة. وجُبْن اليهود هو الذي جعلهم يتصورون أن الجبارين يمكن أن

يخرجوا من الأرض المقدسة بدون قتال. فجلسوا ينتظرون خروجهم من تلقاء أنفسهم، ليدخلوها بعد ذلك. فقالوا: «إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون».

لن ندخلها: النفي التأبيدي الذي توحي به «لن» التأبيدية. لن ندخلها دخولاً ذاتياً، إننا لن نقاتل القوم الجبارين، ولن نحاربهم.

لن ندخلها حتى يَخرجوا منها: يعني سنبقى منتظرين خروجهم، فإذا خرجوا منها فسندخلها.

وأدعو إلى إمعان النظر في الفعل المضارع المكرر في قولهم: «حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها». إنه مبني للمعلوم، وفاعله واو الجماعة، وهي تعود على القوم الجبارين.

وبناء الفعل المضارع للمعلوم له دلالة ذات اعتبار: إن القوم الجبارين هم الذين يقومون بالخروج من الأرض المقدسة، هم الذين يخرجون خروجاً ذاتياً اختيارياً إرادياً، فلا يُكرههم أحد على الخروج.

هذه نظرة اليهود الجبناء للتمكين والنصر، إن الله وعدهم الأرض المقدسة، ولكنهم يريدونها بدون قتال. إنهم ينتظرون أن يخرج أصحابها منها، ليحلوا محلهم فيها.

وهذه نظرة كل كسول جبان ذليل، وما هكذا تحارَب الأقوام، ولا هكذا تحرَّر البلدان. فما عهدْنا قوماً منتصرين يتخلون عن انتصارهم طائعين، ويتركون الأرض التي فتحوها مختارين، ويخرجون منها منسحبين.

إن اليهود يريدون أرضاً بدون قتال، وينتظرون أن يخرج أصحابها منها ليدخلوها.

ومما يؤسَف له أن هذه النظرة الناتجة عن جُبْن اليهود وذلهم، هي نظرة قوم من العرب والمسلمين في هذا الزمان، الذي نجح فيه اليهود في احتلال فلسطين ـ وبلاد عربية أخرى ـ وضَعُفَ العرب وجبنوا عن قتال اليهود، وتحرير الأرض المقدسة منهم. وأوحى لهم جبنهم وضعفهم بأمر خيالي لا يراه إلا

الواهمون الحالمون الخياليون، إنهم ينتظرون أن يتكرم اليهود بالانسحاب من الأراضي التي احتلوها ـ بعد عام سبعة وستين وتسعمائة وألف ـ وأن يخرجوا منها طائعين مختارين، وأن يتركوها للعرب المظلومين.

لسان حال هؤلاء العرب الضعفاء يقول: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

○ ادخلوا عليهم الباب: والحرب الهجومية:

لما رفض الجبناء من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة مجاهدين، وجلسوا ينتظرون خروج أهلها منها مختارين، وقف رجلان منهم يبيّنان لهم طريقة الحرب:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

خرج رجلان من بين المجموع الخائف الجبان: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

أي: قال رجلان من بين الذين يخافون. أنعم الله عليهما بالشجاعة والجرأة والثبات، فسيطرا على الخوف، واستعليا على الجبن والضعف.

وإن الإنسان ليعجب لذلك المجموع الذليل الجبان. الذي لم يوجَد فيه إلا رجلان اثنان فقط، تمتعا بالشجاعة والقوة. ومَنْ هو ذلك المجموع. إنه مجموع بني إسرائيل الذين أنقذهم الله من فرعون، وأوصلهم إلى مشارف الأرض المقدسة، ومع ذلك بقي الجبن والخوف مسيطراً عليهم، متمكناً من نفوسهم وقلوبهم.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾. ووصْفُهم بالرجولة في هذا المقام له حكمة باهرة، فهما رجلان وسط مجموع لا رجولة فيهم. وفرْق بين الذكورة التي هي عكس الأنوثة، وبين الرجولة التي تعني القوة والشجاعة والعزة. فكل رجل ذكر، وليس كل ذكر رجلاً. وصدق الله القائل: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ماذا قال الرجلان لباقي الجبناء الخائفين؟.

قالا لهم: أُدخلوا عليهم الباب.

وعندما نمعن النظر في هذا القول الصائب، فسنجده يحوي إشارات وتوجيهات هامة في موضوع الجهاد والحرب والانتصار. منها:

١ ـ هو يشير إلى نظرية جهادية هامة، هي نظرية «الحرب الهجومية»، التي قرر الخبراء العسكريون أنها طريق النصر، وأن من أراد أن يكسب المعركة فعليه أن يبدأ هو بالهجوم، وأن يغزو عدوه في بلاده، وأن يدخل عليه داره. «أُدخلوا عليهم الباب».

ومما يصدِّق هذه النظرية القرآنية الجهادية الهجومية، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وقد كانت مواقف الرسول الجهادية ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفق هذه النظرية القرآنية الهجومية، نظرية «أُدخلوا عليهم الباب». فكان ـ غالباً ـ هو الذي يهاجم الأعداء ويغزو بلادهم، ويدخل عليهم الباب، ويباغتهم بالهجوم. وبخاصة جهاده لليهود في المدينة وحولها. هذا ما فعله عندما غزا يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير، ويهود بني قريظة، ويهود خيبر، وهذا ما فعله عندما فتح مكة، وحارب هوازن وتوجه إلى تبوك، وأرسل الجيش إلى مؤتة، وجهَّز جيش أسامة!.

وقد وعى الصحابة الكرام من القرآن هذه الإشارة، وحفظوا من رسول الله ﷺ هذا الدرس، وكانت مواقفهم الجهادية وفق هذه النظرية القرآنية الهجومية، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما غُزِيَ قوم في عُقر دارهم إلا ذُلّوا».

وفي عصرنا الحاضر وعى اليهود هذا الدرس القتالي، وطبَّقوا على العرب نظرية «أُدخلوا عليهم الباب» فكانوا هم الذين يباغتون العرب، ويبدأون

القتال، ويوجهون للعرب «الضربة الأولى» وكان العرب يواجهون هجوم اليهود بدفاع ضعيف كليل عاجز، ولهذا كان اليهود يكسبون الجولات، وكان العرب يخسرونها، لأن موقف المهاجم قوي، وموقف المدافع ضعيف.

ولما فكر العرب مرة بالقتال وفق نظرية الحرب الهجومية القرآنية، نظرية «أُدخلوا عليهم الباب»، ووجهوا لليهود الضربة الأولى، باغتوا اليهود وأربكوهم وهزموهم ـ في بدايات الحرب ـ ولولا ما رافق تلك الحرب وسبقها وتلاها من ألاعيب ودسائس ومؤامرات وخيانات لتم تحرير البلاد والعباد.

كان هذا في حرب رمضان عام ٩٣هـ وفق أكتوبر ١٩٧٣. عندما حطم المقاتلون خط «بارليف» اليهودي المنيع على السويس، وتوغلوا في سيناء إلى مسافات بعيدة.

○ لن ندخلها أبداً ما داموا فيها:

ماذا فعل المجموع اليهودي الجبان بتشجيع الرجلين القويين؟ وما أَثَرُ نصيحتهما فيهم؟ وما هو موقفهم من نظراتهما الجهادية الهجومية؟.

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

طالبوا موسى عليه السلام أن يقطع الأمل منهم، وأن يتوقف عن تشجيعهم، وأن لا يُتعب نفسه في حثهم وترغيبهم.

﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ حيث أكدوا كلامهم بكلمتين هما: «لن» التأبيدية. و«أبداً» التأبيدية.

وتأبيدهم مقيد ببقاء القوم الجبارين في الأرض المقدسة، فإذا خرجوا منها دخلها اليهود.

ويوحي جزمهم بعدم القتال وتأكيدهم عليه، بأنهم لا يريدون الخيار العسكري الجهادي، لا يريدون طريق الرجولة والعزة والشهادة والجنة، وإنما يريدون الذل والجبن والضعف.

إن جبن اليهود وخوفهم وذلهم هو الذي كرَّه إليهم القتال والجهاد، ورغَّبهم في القعود والاستسلام.

وهذا الجبن والخوف والوهن هو أساس الداء عند أية أمة تسلك ما سلكه أولئك اليهود، حيث ترفض طريق القتال والجهاد والاستشهاد، وتُؤثِر عليه طريق الذل والضعف والاستسلام، وخداع النفوس بأوهام وخيالات، تتوهم فيها الانتصار على الأعداء عن طريق الضغط السلمي أو المفاوضات المباشرة وغير المباشرة. أو تنتظر خروج أعدائها من البلاد، وانسحابهم من الميدان بكرم وأريحية، وتعتبر هذا المنطق هو قمة الوعي والفطنة والدهاء والواقعية والاعتدال!.

أليس هذا ما عليه بعض العرب في هذا الزمان، في نظرتهم لصراعهم مع اليهود، وتصورهم لطريق إعادة الأراضي التي احتلها اليهود ـ بعد عام ١٩٦٧ طبعاً ـ.

وبسبب هذه النظرة الكليلة والتصور القاصر والفهم الساذج، نرى قضية فلسطين تتراجع باستمرار، ويخسرها العرب أمام اليهود في كل المجالات والمواقع.

ولو أن هؤلاء اختاروا الطريق الآخر، طريق الحرب الهجومية «أُدخلوا عليهم الباب» لأسرعوا في إنهاء المشكلة، وحل القضية، وهزيمة الأعداء، وتحرير الأوطان، إنه لا حل إلا بهذا الطريق. فهل العرب فاعلون؟ وفي الطريق الصحيح سائرون؟ وللباب داخلون؟ وللبلاد محررون؟ وعلى اليهود منتصرون؟.

○ اذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ههنا قاعدون:

أخبر اليهود نبيهم موسى عليه السلام برفضهم الخيار العسكري الجهادي. ويا ليتهم اكتفوا بهذه الجريمة الجبانة الذليلة.

لقد انتقلوا إلى جريمة أفظع، ومنكر أعظم، حيث قالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾.

وعندما ننظر في هذه العبارة فإننا نجد فيها بعض الأمور، منها:

١ ـ إن اليهود جبناء. وإن جبنهم حال بينهم وبين شرف الجهاد، لأن الذليل الجبان لا يحارب، مهما قُدم له من حوافز ومرغبات ومسوغات.

٢ ـ إنهم توقحوا على موسى عليه السلام وأساؤوا الأدب معه، فقالوا له: اِذهب أنت وربك فقاتلا.

إن الجبان لا يستحيي، وقد يجمع بين الجبن والوقاحة. فإذا ما أُحرِج هذا الجبان، وأُوصِدت في وجهه الأبواب، وأُبطِلت له جميع الحلول والمعاذير الباطلة، وأُقيمت عليه الحجة العقلية الواضحة، ولم يَبق أمامه عذر، فإنه يتوقح ويسيء ويشتم.

٣ ـ تخلّى اليهود الجبناء عن موسى عليه السلام نبيهم ومحررهم ومنقذهم، وتركوه يقاتل وحده. وهذا ما يفعله الجبناء دائماً بالمجاهدين الأشداء، حيث يتخلون عنهم، ويتركونهم وحدهم في الميدان، على اعتبار أنهم متطرفون مندفعون متهورون.

٤ ـ قالوا لموسى عليه السلام: «إِذهب أنت وربك» ربك: بالمفرد، وكأنه ربه وحده، وليس ربهم هم، وهذا فيه سوء أدب مع الله. وكأنهم لا يريدون هذا الرب الذي يطالبهم بالجهاد والقتال، فيجعلونه كأنه رب لموسى وحده.

إن الضعفاء الجبناء لا يريدون التكاليف ولا المشقات ولا التضحيات، ولهذا يكرهون هذه التكاليف، ويكرهون من يكلفهم بها.

كم من الضعفاء الجبناء في هذا الزمان، من يتصرفون مع الدعاة والمجاهدين وفق قول اليهود لموسى عليه السلام، ويقولون لهم: «اِذهبوا أنتم وربكم فقاتلوا إنا ههنا قاعدون. فإن كنتم صادقين في أن اليهود سيخرجون من فلسطين، وأنكم ستنتصرون عليهم، وأن الله معكم، فاذهبوا وقاتلوا اليهود مع ربكم، ولا تكلفونا ما لا نطيق».

٥ ـ إنا ههنا قاعدون. قعدوا رغم كل التشجيع والحشد والإقناع! فلماذا قعدوا؟ لقد قعدت بهم هممهم وعزائمهم، لقد ضعف الإِيمان في قلوبهم، ولقد ضمرت معاني العزة والكرامة في قلوبهم، ولقد ماتت معاني الجهاد والرغبة في

الاستشهاد في قلوبهم. ولقد آثروا أرخصَ التكاليف وأقل التضحيات، فوجدوها في القعود، فقعدوا أذلاء جبناء. وهكذا كل القاعدين عن الجهاد، رغم قيام دواعيه!.

○ لا أملك إلا نفسي وأخي:

بعد ما سمع موسى عليه السلام من قومه الجبناء التأكيد القاطع بعدم القتال، وبعد ما أساؤوا الأدب معه ومع الله، توجه إلى ربه، يشكو إليه قومه، وعصيانهم له، وأعلن أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه. «قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي».

أما تلك الجموع من بني إسرائيل، فإنه لا يملكها، ولا يقدر على تكليفها، لأنها تمردت عليه وعصت أوامره.

لماذا تمردوا عليه وعصوا أوامره؟ وما الذي طلبه منهم؟ ما الذي قادهم إلى التمرد والعصيان؟ لقد طلب منهم دخول الأرض المقدسة، والجهاد والقتال، وسلوك طريق العزة والنصر والتمكين. فهل هذا يمكن أن يوجِد التمرد والعصيان؟ إنه لا يفعل ذلك إلا الذليل الجبان!.

متى نفض موسى عليه السلام يديه منهم، وتبرأ منهم؟ لقد كان ذلك بعد سنوات طويلة قضاها معهم في مصر وسيناء، وبعد جهود مضنية بذلها في تربيتهم وتقويمهم وبعد خبرة طويلة بهم وبنفسياتهم.

بعد ما تبرأ موسى عليه السلام منهم، طلب من ربه أن يفرق بينه وبينهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾. فما عادوا يستحقون صحبة موسى عليه السلام، وما عادوا أهلاً لأن يتشرفوا بمعيته. لأنهم فاسقون عصاة، أذلاء جبناء، ومن كان كذلك لا يستحق أن يكون مع الرجال المجاهدين.

○ إنها محرمة عليهم:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾.

بما أنهم جبُنوا عن الجهاد والقتال، فقد حرَّم الله عليهم دخول الأرض المقدسة، وحَرَمَهم من شرف تحريرها والإِقامة فيها.

الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، أصبحت محرمة عليهم. لماذا؟.

لقد دلهم موسى عليه السلام على طريق تحرير الأرض المقدسة والتمكين فيها، فرفضوا ذلك الطريق الوحيد إليها. لقد كان موسى عليه السلام يريد لهم النفع والخير، ويريد لهم العزة والكرامة والنصر والتمكين، كان يريد لهم أن يكونوا سادة وأساتذة للآخرين.

والطريق الوحيد لكل ذلك هو الجهاد والقتال. فلما رفضوه حُرِموا من كل ثماره الطيبة العظيمة.

لقد عزَّت عليهم أنفسهم وأعمارهم ودماؤهم، فلم يضحوا بها في سبيل الله، ولم يبذلوها ثمناً للنتيجة المضمونة العظيمة.

في الجهاد نجد التضحيات شاقة، والطريق صعبة طويلة قاسية، والنفسُ تكره كل ذلك في بداية الأمر - بنص القرآن - كل هذا صحيح لا يُنكر. ولكن نتيجة الجهاد عظيمة، وثمنه مرغوب مطلوب، وغايته سامية، وهذا كله يستحق كل ما يبذَل له، ويدفَع في سبيله. ولهذا تهون على المؤمنين المجاهدين نفوسهم ودماؤهم وأموالهم وكل ما يملكون، فيدفعونه عن رضى وإيمان وإخلاص.

منذ متى كان التمكين والنصر بدون تضحيات؟ ومنذ متى كانت الرجولة بدون ضريبة؟ ومنذ متى كانت الحياة بدون مشقات ومحن؟ ومنذ متى كانت الجنة بدون ثمن؟.

واهمون حالمون أولئك الذين يريدون النصر والتحرير وهم قاعدون! وواهمون وحالمون أولئك الذين يريدون العزة والكرامة والسيادة وهم جبناء أذلاء! وواهمون وحالمون أولئك الذين يريدون جنة الله بدون جهاد واستشهاد!.

وبما أن اليهود قد اختاروا القعود الذليل الجبان، فقد فشلوا في الاختيار، وسقطوا في الامتحان.

وبذلك حرِموا من شرف تحرير الأرض المقدسة، حرِموا من شرف السير في طريق العزة والرجولة والحرية والتمكين، وهي طريق تهفو إليها قلوب الرجال، وتتطلع إليها نفوسهم، وترنو إليها أبصارهم.

وفي هذا الزمان، احتل اليهود الكافرون الأرض المقدسة، وجبُن أناس من العرب والمسلمين عن قتالهم، ورفضوا طريق الرجولة والعزة والتحرير والنصر، طريق الجهاد، وآثروا طريق الضعف والذل والاستجداء، وصاروا يستجدون اليهود والآخرين، لكي يمنَّ عليهم اليهود بشيء من البلاد، ولو كان يسيراً. وأغمدوا سيوفهم وألْقوا أسلحتهم. ورفعوا أغصان الزيتون، وأطلقوا حمامة السلام، ولم يحصلوا على شيء. ولن يحصلوا على شيء!.

لقد فقدوا ـ باختيارهم لذلك السراب الخادع ـ طريق الجهاد والاستشهاد وخسروا شرف التحرير، وآثروا حياة الذل والجبن والمسكنة. وبذلك حرمهم الله من شرف الجهاد والتحرير، وكأن هذه العبارة «إنها محرمة عليهم» تنطبق عليهم تماماً.

إن الجهاد والتحرير، واستعادة البلاد والمقدسات، شرف عظيم، ووسام رفيع، وفضل رباني كريم. ويأبى الله أن يجعل هذا لمن ليس أهلاً له. إن جيل الهزيمة لا يصنع النصر، وإن رموز الذل لا يقودون للعزة.

○ أربعين سنة يتيهون في الأرض:

حَرَم الله أولئك الجبناء اليهود من شرف الجهاد والتحرير، والتمكين في الأرض المقدسة، وكتب عليهم «التيه» في أرض سيناء، وقدَّر مدة التيه بأربعين سنة.

فلماذا الأربعون سنة؟.

إن الأربعين سنة تشمل حياة جيلين! ولعل الحكمة من هذا التحديد، هي أنْ ينتهي ذلك الجيل الجبان من بني إسرائيل، الذي لم ينفع معه شيء من الحوافز والبواعث والمنشطات. إنه جيل لا يُتوقع منه جهاد، لأنه لا همة له ولا عزيمة. فليُنظر حتى يموت هذا الجيل، ويأتي بعده جيل جديد عنده القدرة على القتال والتحرير. والأربعون سنة مدة كافية لانقراض هذا الجيل.

ماذا يفعل هذا الجيل الجبان، وهو ينتظر دنو أجله؟ إنه التيه في الصحراء «أربعين سنة يتيهون في الأرض».

وتاهوا في سيناء، وعاشوا في الصحراء، وقاسوا مرارة الحياة وشظف العيش.

ويعجب الإنسان مما وقع لذلك الجيل الجبان!.

لقد فتح الله لهم طريق الرجولة والعزة فرفضوا السير فيه. ولقد دعاهم الله إلى التنعم في الأرض المقدسة وخيراتها، بشرط دفع الثمن وهو الجهاد. فنكصوا، فأبدلهم الله بذلك التيه في الصحراء.

التيه في الصحراء بدل الأرض المقدسة! كيف قبلوا هذا البدل؟ وكيف استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ ما الذي دفعهم إلى هذه الصفقة الخاسرة؟.

إنه الجبن والذل والضعف والوهن. وإنه الحرص على الحياة. أليسوا في الصحراء أحياء؟ ألم يحتفظوا بأرواحهم ودمائهم؟ وطالما ضمنوها فلماذا يُعَرِّضون حياتهم للخطر في الطريق إلى الأرض المقدسة؟ فلْيتركوا الأرض المقدسة، ولْيقبلوا بالصحراء التي تحقق لهم الحياة. وصدق الله عنهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

وتبدو لنا بعض الحكم من التيه في الصحراء. منها:

١ ـ إن التيه بديل عن الأرض المقدسة. فهما طريقان لا ثالث لهما:

إما طريق العزة والكرامة والنصر والتمكين، وقتال الأعداء وتحرير البلاد.

وإما طريق الجبن والذل والحرص على الحياة الدنيا، والضَّنُّ بالأرواح والأموال. وهذا الطريق يوصل للضياع والضلال والتيه.

لقد اختار ذلك الجيل الطريق الثاني، فحقت عليهم النتيجة. وتاهوا في الأرض.

٢ ـ التيه نفسه هو الضياع والضلال، وهو ملازم لكل من لم يسلك طريق الجهاد، طريق الرجال المجاهدين الأبطال.

إن الذين لا يجاهدون في سبيل الله، ولا يقاتلون عدوهم، يتيهون

ويضيعون ويخسرون. كما تخسر الأمة من حياتها ووجودها وطاقاتها عندما تتخلى عن طريق الجهاد!.

إنه التيه الكامل والخسارة الشاملة. إنهم يضيِّعون أموالهم وأوقاتهم وأعمارهم ومواهبهم وقدراتهم وطاقاتهم وإمكاناتهم وجهودهم وشبابهم وأوطانهم وآمالهم وتاريخهم ووجودهم وسعادتهم. فكم يخسرون بترك الجهاد!.

هذا ما نراه ونلمسه في هذه الأمة في هذا العصر، حيث رفضت طريق قتال اليهود، واختارت طريق السلام الصعب الذليل، فوقعت في تيه مطلق، وضياع شامل وخسارة عامة.

٣ ـ لقد كان التيه من أجل أن يموت ذلك الجيل الجبان. إن الذليل الجبان لا يستجيب لدعوة الجهاد مهما كانت صواباً وحقاً.

لذلك، إن أُريدَ للناس السير في طريق الجهاد، فلا بد أن يُترك الجيل الجبان، لأنه يُتعب الناس ولا يتجاوب معهم، يترَك ذلك الجيل ليموت وينشأ جيل جديد.

وحتى تثمر الجهود، لا بد أن توجَّه لجيل جديد، ينشأ على معانٍ وطرق وأساليب جديدة.

لماذا يبقى بعض الناس في زماننا يتعبون أنفسهم، ويضيِّعون جهودهم في مخاطبة أناس جبناء، ومطالبتهم بالجهاد والتحرير، ويقدمون لهم الخطط، ويعلقون عليهم الآمال؟.

إنهم لا يفهمون هذه اللغة، ولا يسمعون هذا الصوت، ولا يستجيبون لهذا النداء:

إنه لا حياةَ لِمَنْ تنادي وما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

وفِّروا جهودكم وأوقاتكم، ووجهوها لإيجاد جيل جديد، ينشأ على الرجولة، ويمقت الذل والجبن، ويرغب في الجهاد والاستشهاد، فهو الذي ينفع معه الكلام، وتنجح فيه التربية.

٤ ـ ومن حِكَم التيه في سيناء، أن سيناء صحراء، ذات بيئة قاسية،

وظروف طبيعية صعبة وحياة شاقة، اختارها الله مكاناً للجيل الجديد من بني إسرائيل، لينشأ فيها النشأة التربوية الجديدة. ويُعَد فيها الإعداد الخاص الذي يؤهله لدخول الأرض المقدسة، وتحريرها من الجبارين وهكذا كان! وهذا يقودنا إلى أهمية إيجاد الجيل الجهادي، والتركيز على توفير الأجواء المناسبة له، ليشب على هذه المعاني.

إنه لا بد من التخلي عن مظاهر الترف والبذخ والإسراف، والخروج من حياة اللهو والعبث والضياع. وترك الدلال والتنعم الفاجر والرفاه القاتل، وعدم العبودية للأهواء والكماليات.

لا بد أن يقلِّل جيل الجهاد من هذه المظاهر الاستهلاكية الكمالية وأن ينشأ على الزهد في الدنيا، والاستعلاء على فتنها ومغرياتها وملذاتها وشهواتها حتى لا يكون أسيراً لها، وحتى لا يفضلها على الجهاد، وحتى لا يجبن عن مواجهة الأعداء طلباً لتلك المتع والأشياء.

○ فلا تأسَ على القوم الفاسقين:

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَسِقِينَ﴾ مواساة لموسى ﷺ، بعدما فُجع في همة قومه. وتسلية لموسى ﷺ. وتوجيه رباني له، بأن لا يَأْسَ على القوم الفاسقين، ولا يحزن عليهم.

إنه لم يقصِّر في تربيتهم وتشجيعهم، ولكنهم أبوا أن يتجاوبوا معه، أو أن يستجيبوا له، لأنهم فاسقون، فلماذا يأسى على قوم فاسقين.

وتدل هذه الجملة على السبب الذي حملهم على رفض أوامر موسى ﷺ. إنه الفسق.

والفسق هو الخروج عن أوامر الله ـ من قولهم: فسقت الفأرة إذا خرجت من جُحرها ـ فهم فاسقون، خارجون عن الحدود التي رسمها الله لهم، عاصون للأوامر الصادرة إليهم.

وقد ذكرت كلمة «الفاسقين» مرتين في هذه القصة:

الأولى: عندما قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

والثانية: عندما قال الله له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

هم فاسقون فتبرأ موسى منهم. وهم فاسقون فدعاه الله أن لا يأسى عليهم. وهكذا كل الفاسقين دائماً!.

○ تلخيص لأهم دروس القصة:

١ ـ تكشف القصة عن ما جُبلت عليه نفوس اليهود من الذل والجبن والضعف.

٢ ـ تدل القصة على تمرد بني إسرائيل على نبيهم موسى عليه السلام، ورفضهم تنفيذ أوامره.

٣ ـ تدل القصة على سوء أدبهم مع الله سبحانه، ومع نبيهم موسى عليه السلام.

٤ ـ إن الأرض المقدسة ـ فلسطين ـ قد كتبها الله لجيل خاص من اليهود، وهم المؤمنون الذين نشأوا في الصحراء نشأة رجولية إيمانية. أما أحفادهم الكافرون الذين كفروا بالحق وحاربوا، فلا حق لهم في تلك الأرض المقدسة.

٥ ـ إن تفضيل الله لبني إسرائيل على العالمين، وإعطاءهم ما لم يُعطِ أحداً من العالمين، ليس عاماً شاملاً مطرداً، وإنما هو خاص بالمؤمنين منهم، الذين وُجدوا قبل رسالة محمد ﷺ.

٦ ـ إن خوف اليهود وجبنهم، دفعهم إلى التخلي عن الحل الجهادي، وإيثار الحل الخيالي، المتمثل في قعودهم وانتظارهم خروج أهلها الجبارين بطوعهم وإرادتهم.

٧ ـ لم يوجد من ذلك الجيل الجبان، إلا رجلان غير خائفين، بسبب قوة إيمانهم.

٨ ـ إن قصر الخوف على الله، وعدم الخوف من غيره، نعمة غامرة، ينعِم الله بها على من يشاء من عباده.

٩ ـ تشير القصة إلى أفضل وسائل الانتصار في المعركة، وهي الحرب الهجومية، أو نظرية «أُدخلوا عليهم الباب» كما تصرح بذلك الآيات.

١٠ ـ إن صاحب الأرض لن يخرج منها بإرادته واختياره. وإن المنتصر لن يتخلى عن انتصاره ـ ولو كان معتدياً ظالماً مثل اليهود الآن في فلسطين ـ بطوعه وإرادته، ولن يخرج من تلك البلاد التي احتلها بتفضل وكرم.

١١ ـ إن الجبان الكسول يُؤثِر القعود على العمل والجهاد.

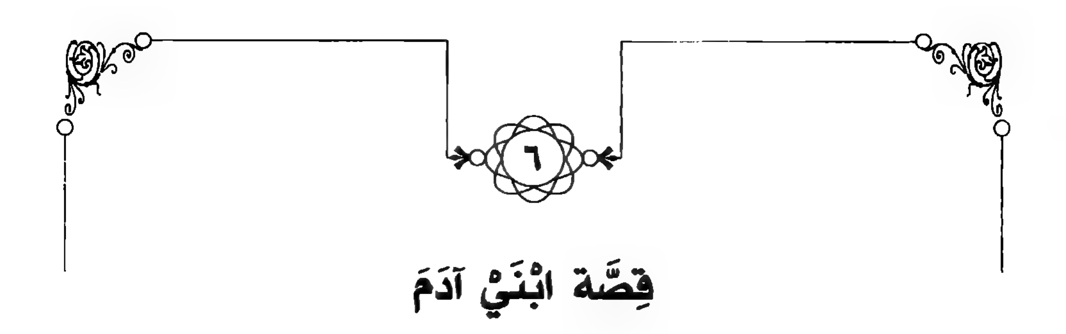
١٢ ـ إن الجبان الضعيف الكسول، يحرَم من شرف الجهاد والتحرير والاستشهاد، ولذلك لا يطالَب بهذه الفضائل، لأنه غير مؤهَّل لها.

١٣ ـ إن جيل الهزيمة غير جيل التحرير، وإن من نشأ على الجبن والذل لا يُطلب منه الجهاد، ولذلك لا تعلق عليه الآمال.

١٤ ـ إن ترك الجهاد والقتال يقود إلى التيه والضياع، حيث تعيشه الأمة في كافة مجالات حياتها. ولا يجمعها، ولا يقضي على حيرتها، ولا يزيل تيهها، ولا يوحد كلمتها إلا الجهاد.

١٥ ـ وجوب إعداد أجيال الجهاد والاستشهاد، ورجال التحرير والإِنقاذ، إعداداً جهادياً، في بيئة جهادية مناسبة، يتخلون فيها عن الترف والبذخ والميوعة، ويعيشون حياة الجد والرجولة، ويرغبون في الشهادة والجنة!.





قِصَّة ابْنَيْ آدَمَ

○ القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٢].

○ نجاح الشيطان في إغواء ابن آدم:

أخذ الشيطان على نفسه عهداً أمام الله ـ بعدما رفض السجود لآدم ـ أن يبذل كل جهده في إغواء بني آدم، وذلك في قوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وأهبط الله آدم والشيطان إلى الأرض، وأخبره بعداوة الشيطان له ولبنيه، وحذرهم من هذه العداوة، فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا

﴿تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧].

وأمرنا الله أن نتخذ الشيطان عدواً، وأن نحذر وساوسه ونزغاته، وقال لنا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].

وكان آدم عليه السلام نبياً، أرسله الله إلى أولاده ليذكِّرهم بالله، ويحذِّرهم من الشيطان.

والدليل على نبوّة آدم، أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال:

يا رسول الله: كم الأنبياء؟

قال: مائة ألف وأربعةٌ وعشرون ألفاً.

قلت: يا رسول الله: كم الرسل منهم؟

قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر. جم غفير.

قلت: يا رسول الله: من كان أولهم؟

قال: آدم.

قلت: يا رسول الله: نبي مرسل؟

قال: نعم. خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه»[1].

ومارس الشيطان وظيفتَه الشيطانية ضد أولاد آدم، ووسوس لهم، وزيَّن لهم المنكر والعصيان.

ونجح الشيطان في إغواء أحد أولاد آدم، فاستحوذ عليه، واستماله إلى صفه، وأوقعه في الشر، حيث ارتكب جريمة قتْل أخيه.

وتقص هذه الآيات قصة ذلك الابن الضال، وتخبرنا بجريمته البشعة التي ارتكبها بإيحاءٍ وتوجيه من الشيطان.

---

(١) رواه أحمد وابن حِبان وابن سعد وأبو داود الطيالسي.

○ القصة عند رواة الإسرائيليات:

ذكر بعض المفسرين والمؤرِّخين والإخباريين رواياتٍ وأخباراً عن قصة ابنَيْ آدم، فصَّلوا فيها بعض الأحداث، وأخذوها عن الإسرائيليات والأساطير.

ونحن هنا نورد أبرز تلك الإسرائيليات، لننبِّه عليها، ونحذِّر منها، وندعو إلى عدم روايتها وذكرها إلّا من أجل التحذير والتنبيه.

قالوا: لما أهبط الله آدم وزوْجه حواء إلى الأرض، كان يولَد لهما الأولاد، وكانت حواء تحمل في كل بطن ذكراً وأنثى. وقد وُلِدَ لهما أربعون مولوداً: عشرون ذكراً، وعشرون أنثى.

وقد أمر الله آدم أن يفرِّق بينهم في النكاح، فكان يزوِّج غلام هذا البطن لجارية البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن لغلام البطن الآخر.

وُلد له بعد هبوطه إلى الأرض بمائة سنة، ذكر وأنثى في بطن واحد. فسمّى الذكر «قابيل» وسمّى الأنثى «إقليما». وبعد سنتين ولد له ذكر وأنثى، فسمّى الذكر «هابيل» وسمّى الأنثى «لَبودا».

أمر آدم أن يتزوج قابيل لبودا، وأن يتزوج هابيل إقليما.

ولكن قابيل رفض إلّا الزواج من أخته «إقليما» لكونها أجمل وأحسن من لبودا».

وبسبب الخلاف قال لهما آدم: قَرِّبَا قُرباناً. فأيّكم يُقبل قربانه، فهو أحَقُّ بها.

وكان قابيل مزارعاً صاحب زرع. وكان هابيل راعياً صاحب ماشية.

فاختار هابيل كبشاً سميناً من خيار ماشيته، واختار قابيل «حزمة» من السنابل، ولما رأى فيها سنبلة عظيمة فركها وأكلها.

فنزلت النار، وأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل. وما زال كبش هابيل يرتع في الجنة، حتى فُدِيَ به إسماعيل عليه السلام.

وقد غضب قابيل لمّا ردَّ الله قربانه، وحسد أخاه، وحقد عليه، وقال له:

لأقتلنّك. قال له أخوه: ولماذا؟ قال: لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قرباني. وتنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدَّميمة.

فقال له أخوه هابيل: إنما يتقبّل الله من المتقين. لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك. إني أخاف الله رب العالمين. وكان هابيل أقوى وأشد من قابيل، لكنَّ خوف الله منعه من أن يبسط يده بالسوء لأخيه.

وجاء قابيل ليقتل هابيل، فزاغ هابيل منه؛ وفرَّ إلى رؤوس الجبال. فجاءه قابيل يوماً وهو نائم، ورفع حجراً ضخماً ليقتله، ولم يدْرِ كيف يقتله. فتمثّل له الشيطان، وأخذ طيراً أمامه، ووضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر. ففعل قابيل ذلك بأخيه، وحطَّم رأسه فقتله.

وكان عمر هابيل لمّا قُتل عشرين سنة!.

وكان قَتْلُه على قمة جبل قاسيون بدمشق.

ولمّا قُتِل هابيل رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام، واشْتاكَ الشجر، وتغيّرت الأطعمة، وتحمَّضت الفواكه، ومُرَّ الماء، واغبرّت الأرض.

وكان آدم بمكة، فاستغرب مما جرى، فلما ذهب إلى الهند ليستطلع الخبر، علِمَ أن قابيل قد قتل هابيل.

ولم يدْرِ قابيل ماذا يفعل بجثة أخيه، وناداه الله: يا قابيل أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري. ما كنتُ عليه رقيباً؟ فقال له الله: إن دم أخيك ليناديني من الأرض، فلِمَ قتلتَ أخاكَ؟ قال: فأين دمه إنْ كنتُ قتلتُه؟ ـ وكانت الأرض قد شربت دمه ـ فحرَّم الله على الأرض يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً.

ولم يدْرِ قابيل كيف يتصرف بجثة أخيه، فحملها على ظهره سنة كاملة، حتى أنْتنت. وكانت السباع والطيور تنتظر أين يرمي بها لتأكلها.

وبعث الله له غرابيْن، فاقتتلا. فقتل أحدُهما الآخر. ثم حفر الغراب القاتل بمنقاره ورجليه في الأرض حفرة، ثم وضع فيها جثة الغراب القتيل، ودَفَنَه. وقابيل ينظر. فقام وحفر لأخيه ثم دفنه.

ولمّا عَلِم آدم عليه السلام بما جرى، رثى ابنَه القتيل بشِعْر ـ عربي عمودي! ـ فقال:

تغيَّرَت البلادُ وَمَنْ عَلَيْها فَوَجْهُ الأرضِ مغبَرٌّ قبيحُ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذي لون وَطَعْم وَقَلَّ بَشاشَةَ الوجهُ الصبيحُ
وقابيلٌ أذاق الموت هابيل فواحَزَناً لَقَدْ فُقِدَ المليحُ

فردَّت عليه حواء قائلة:

دع الشكوى فقد هلكا جميعاً بموتٍ ليس بالثمن الربيحِ
وما يُغْني البكاءُ عن البواكي إذا ما المرء غُيِّبَ في الضريحِ
فإبْكِ النفس وانزل عن هواها فلستَ مُخَلَّداً بعد الذبيحِ

فأجابهما إبليس شامتاً بهما:

تنحَّ عن البلادِ وساكنيها ففي الجناتِ ضاق بك الفسيحُ
وكنتَ بها وزوجَكَ في رخاء وقلبُكَ من أذى الدنيا مُريحُ
فما زالت مكايدتي ومكري إلى أن فاتك الثمنُ الربيحُ

ومكث آدم بعد قتل هابيل مائة سنة حزيناً لا يضحك. فأتى إليه الملك وقال له: حيّاك الله وبيّاك، وبشّره بغلام. فضحك.

أما قابيل فقد قيل له: إذهب. فذهب طريداً شريداً مرعوباً. فأخذ بيد أخته «إقليماً» وذهب بها إلى عدن في اليمن!.

فأتاه الشيطان فقال له: إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يخدم النار ويعبدها. فبنى قابيل بيتاً للنار وعَبَدَها.

وكان لقابيل ولد أعمى، ومعه ابن له. فقال الابن لأبيه: هذا أبوك قابيل، فرماه بما كان في يده، فقتله. وهكذا كانت نهايته.

وقيَّد الله قابيل يديه إلى رجليه، ووجهَه إلى الشمس، يدور معها حيث دارت ليذوق حرّها. وعليه في الصيف حظيرةُ نار، وفي الشتاء حظيرة ثلج. إلى يوم القيامة[1]!

---

(١) انظر هذه الإسرائيليات في عرائس المجالس: ٣٧ ـ ٤١، وفي الدر المنثور ٣: ٥٤ ـ ٦٤.

○ رفْض تلك الإسرائيليات:

لا يظنَّنَّ أحد أننا أوردنا تلك الإسرائيليات حول قصّة ابنَيْ آدم، راضين بها، مصدّقين لها، واثقين فيها، أو أننا نقبلها ونعتمدها ونفسّر بها كلام الله سبحانه.

إننا أوردناها محذِّرين منها منبِّهين عليها، داعين إلى رفْضها وترْكها، وذكرناها من باب «عرفتُ الشر لا للشر، لكن لتوقِّيه». ورويناها على طريقة علماء الحديث الذين كانوا يوردون الأحاديث الموضوعة، ويروونها، ثم ينبِّهون على وضعها لئلا يغترَّ أحد بها.

إننا لا نريد لأحد أن يغترَّ بما يقرأه أو يسمعه من هذه الروايات، كما أننا ـ استنباطاً من منهج القرآن والسنّة في قصص السابقين ـ لا نجيز لأحد أن يروي تلك الروايات الإسرائيلية في كتابته أو في حديثه، إلّا ليحذِّر منها وينبِّه عليها.

ونحن مع الأستاذ الإمام محمد رشيد رضا في رفْضه لتلك الإسرائيليات، حيث يقول: «وقد ذكروا في ذلك رواياتٍ غريبة، لا يمكن أن يُعرَف مثلُها إلّا بوحي من الله. وهي لم تُرْوَ عن أحد من رسل الله. ومنها أن آدم رثى هابيل بشعر عربي.

فنُعْرِض عن هذه الروايات التي لا تصحّ، ولا تفيد. ووصْف ما قصّه الله تعالى بالحق، يُشعر بأن ما يلوكه الناس في ذلك مما سواه باطل»[1].

ونحن مع الأستاذ الإمام سيد قطب في رفضه لتلك الإسرائيليات، حيث يقول: «ولا يُحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة. وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن «قابيل وهابيل» وأنهما هما ابنا آدم في هذه القصة، وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع على أختين لهما. فإننا نُؤْثِر أن نستبقي القصة ـ كما وردتْ ـ مجمَلة بدون تحديد. لأن هذه الروايات كلَّها موضع شك في أنها مأخوذة عن أهل الكتاب ـ والقصة واردة في

---

(١) تفسير المنار ٦: ٣٤١.

العهد القديم محددةٌ فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذي تذكره الروايات ـ»[1].

○ هما ابنا آدم من صلبه:

ذهب بعض المفسرين إلى أن ابنَيْ آدم المذكورة قصتهما، لم يكونا ولديْه من صلبه، وإنما كان من ذريته ونسله، وبالتحديد كانا من بني إسرائيل.

ودليلهم على ذلك قول الله في آخر القصّة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فَقَتْلُ أحد الأخَوين للآخر، ليس سبباً لكتابة القصاصِ والعقاب على بني إسرائيل، لو كانا ولدَيْن لآدم من صلبه.

وذهب بعض العلماء إلى أن قصة ابنيْ آدم قصة تمثيلية خيالية، ولم تَحدث على أرض الواقع، وإنما مثَّل القرآن بها لطبيعة الخير والشر عند الناس، وصوَّر لنا نموذجين بشريَّيْن لكل من الخير والشرّ.

لكن جمهور العلماء والمفسرين على أن القصة حقيقية واقعية، حدثت فعلاً في عالم الواقع. وذهب الجمهور إلى أن ابنَيْ آدم، هما ولداه من صلبه، عاشا معه، وجرَت قصتهما في عهده عليه السلام!.

إن الأصل في قصص القرآن أن يكون لها بُعْد واقعي، ووجودٌ حقيقي، وشخصياتُ القصص القرآني شخصيات حقيقية، وأحداثُه حدثت فعلاً في فترة من فترات التاريخ الماضي.

وإن ابنَيْ آدم ليسا من بني إسرائيل، لبُعْد الفترة الزمنية بين آدم وبني إسرائيل، فلو كانا من بني إسرائيل لما جهل القاتل كيفية دفْن أخيه، حتى يدلّه عليه الغراب، لأنه لا أحد من بني إسرائيل يجهل كيفية دفن الموتى. فاقتداء القاتل بالغراب في الدفن، وتعلُّمُه منه دفنَ أخيه، دليل على أن الحادثة وقعت في «طفولة» البشرية على وجه الأرض، ويبدو أنها أول جريمة قتل متعمَّد على وجه الأرض! ـ والله أعلم ـ.

---

(١) الظلال ٢ : ٨٧٥.

والدليل على كونهما ولدين لآدم من صلبه، قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾، والابن يُطلق على الولد من الصلب، ويُطلق على الابن من النسب مجازاً، والقاعدة في التعامل مع القرآن، هي حمل اللفظ القرآني على حقيقته اللغوية، ولا نَعْدِل عن الحقيقة إلى المجاز، إلّا عند تعذُّر حمله على الحقيقة. وهنا لا محذور من حمله على الحقيقة.

ثم إنّ مما يدل على ذلك أيضاً، الحديثَ الصحيحَ عن رسول الله ﷺ، حيث روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال:

قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفسٌ ظُلماً، إلّا كانَ على ابْنِ آدَمَ الأَوَّل كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْل»[1].

يدلّ الحديث على أن ابن آدم كان ولده من صلبه، لأنه يقول: «ابن آدم الأول» والأوَّلية هنا أوَّلية زمانية تاريخية.

ويُحَمِّل الحديث ابنَ آدم الأول القاتل الظالم نصيباً من دم كل نفس تُقْتل ظلماً، منذ عهده حتى قيام الساعة.

وتَخَيَّلْ كم من الناس قد قُتل ظلماً فيما مضى من تاريخ البشرية! وكم من الناس سيُقتل ظلماً في مستقبل البشرية حتى قيام الساعة! وعندها تَخَيَّلْ مقدار الإثم الذي يحمله ابن آدم الأول!.

ويقدِّمُ الحديثُ التعليلَ لمسؤولية ابن آدم القاتل عن كل قتلٍ ظالم، فهو «أوّل من سنَّ القتل».

وهذه الأوَّلية كذلك أوَّليَّة تاريخية زمانية، فهو أوّل من قتل، وهو أوّل قاتل. وهو بذلك قد فتح باب سفك الدماء، ودعا الظالمين المعتدين إلى الاقتداء به في جريمته.

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ في الإِسلام سُنَّةً حَسَنَة، فَلَهُ

---

[1] رواه البخاري في كتاب الأنبياء: ٦٠، باب خلق آدم: ١ حديث رقم ٣٣٣٥، ورواه مسلم في كتاب القسامة: ٢٨، باب بيان إثم من سنَّ القتل: ٨، حديث رقم ١٦٧٧.

أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1].

○ معنى أن يتلو القصة بالحق:

نقف لحظة أمام قول الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾.

ما معنى الحق هنا؟

إنه الصدق والصحة والصواب، بمعنى أن لا تؤخَذ قصتُهما إلّا مِن الأخبار الصحيحة، والروايات الصادقة، من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

إن المسلم إذا التزم بهذا المنهج في التعامل مع قصص القرآن ـ ومنها قصة ابنَيْ آدم ـ فإنه يكون قد حقَّق في علمه وكلامه هذه الصفة، وتلا على الناس تلك القصص بالحق!.

لهذا نقول إلى كل الذين ذهبوا إلى الإسرائيليات في قصة ابنَيْ آدم، وأوردوا منها تفصيلات لأحداث القصة: إنكم لم تلتزموا بهذا التوجيه القرآني في تلاوة القصة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾. ولهذا جاء الكثير من كلامكم حولها، فاقداً لصفة الحق التي اشْترطها القرآن. ومن ثَمَّ جاء فاقداً لصفة العلمية والمنهجية، وهي صفة ضرورية للأفكار والعلوم والمعارف.

○ تقبُّل القربان من أحدهما:

اختلف الأخَوان على أمر ـ لاندري ما هو ـ واحتكما إلى أبيهما آدم عليه السلام. فطلب من كل منهما أن يقدّم قرباناً إلى الله، فمن كان الحق معه، تقبّل الله قربانه، وما على الآخر إلّا أن يتراجع عن موقفه، لأنه ليس على الحق!.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة: ١٢، باب الحث على الصدقة ٢٠، حديث رقم ١٠١٧؛ وفي كتاب العلم: ٤٧، باب من سنَّ سنَّة حسنة أو سيئة: ٦، حديث ١٠١٧.

والقربان هو شيء خاص ـ لا نملك تحديده ـ يقرِّبُه كل منهما إلى الله، قد يكون طعاماً أو شراباً أو متاعاً، وقد يكون حيواناً أو زرعاً، وقد يكون غير ذلك.

قرَّبا قُرباناً، فتُقُبِّل من أحدهما، ولم يُتَقَبَّل من الآخر.

ولا ندري كيف تقبَّل الله القربان، بل إن القرآن يدعونا إلى عدم البحث في كيفية تقبُّل القربان، لأن البحث في ذلك لا فائدة منه، ولا ثمرة له، ولا نملك الأداة التي نبحث فيه من خلالها، فيكون البحث مضيعةً للوقت، وإنفاقاً للجهد العقلي فيما لا خير فيه.

قال سيد قطب في الظلال:

«والفعل مبني للمجهول، ليشير بناؤه هكذا إلى أن القبولَ وعدمَه موكول إلى قوة غيبية، وإلى كيفية غيبية.

وهذه الصياغة تفيدنا أمرين:

الأول: ألّا نبحث عن كيفية هذا التقبُّل، ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير، في روايات نرجح أنها مأخوذة عن أساطير العهد القديم.

الثاني: الإيحاء بأن الذي قُبل قربانه، لا جريرة له، توجب الحفيظة عليه، وتبييت قتله. فالأمر لم يكن له يدٌ فيه. وإنما تولتْه قوة غيبية بكيفية غيبية، تعلو على إدراك كليهما، وعلى مشيئته»[١].

○ حقد الحاقد في قوله: «لأقتلنك»:

تمكَّن الشر من قلب الأخ الحاقد على أخيه، واستحوذ عليه الشيطان، فأغلق قلبَه عن الاستجابة للحق، أو الرجوع للصواب.

لقد عرَف هذا الأخ أنه ليس على حق، وإنما هو مع أخيه، لأن الله تقبَّل قربانه. والأصل أن يتراجع عن موقفه، وأن يتراجع عن رأيه.

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٧٥.

لكن أنّى له أن يفعل هذا، والشيطان قد سيطر عليه، وألغى كل محاولة منه للتفكير الهادئ، وأغلق عنده كل باب للمراجعة والتراجع، ولم يُبْق عنده إلّا شيئاً واحداً، هو: الإِصرارُ على الخطأ، والانتصارُ للرأي الباطل، والنفس الشريرة.

وليت الشيطان اكتفى من ذلك الأخ الحاقد بذلك وهل يَقبل الشيطان من أوليائه الوقوفَ عند مرحلة من مراحل الباطل؟ إنه يقودهم في الباطل من مرحلة إلى مرحلة أخرى أشنع، وينقل خطواتهم من باطل إلى باطل أكبر... وهكذا.

لقد نقل الشيطان ذلك الأخ الحاقد إلى مرحلة أخطر. إنها التفكير في قتل أخيه، والتصميم على ذلك!.

ومجرد تفكير الأخ بقتل أخيه جريمة عظمى، فكيف إذا حوَّل هذه الفكرة إلى عزم وتصميم؟ وكيف إذا انتقل من العزم والتصميم إلى التوكيد البالغ؟ وكيف إذا انتقل بعد ذلك إلى الفعل والتنفيذ؟.

الكلمة الفاجرة التي جهر بها الأخ الحاقد «لأقتلنك» تحمل عدة إشارات:

١ ـ إنها تشير إلى تمكُّن الشيطان من نفسه، واستحواذه عليه.

٢ ـ إنها تشير إلى تكبُّره وعناده، وعدم استجابته للحق الذي مع أخيه.

٣ ـ إنها تترجم عن الحقد الأسود الذي ملأ قلبه.

٤ ـ إنها تعني زوال كل معاني الأخوّة والإنسانية من قلبه تجاه أخيه.

○ طبيعة أخيه في رده على تهديده:

بماذا أجاب الأخ المؤمن أخاه على تهديده؟.

قال له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وعندما نقارن بين الأخوين، من خلال كلام كل منهما، ونحاول

التعرُّف على طبيعة كل منهما، ندرك أنهما نموذجان مختلفان، ورجلان متغايران.

وحول هذا المعنى يقول سيد قطب: (هذه القصة تقدِّم لنا نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان، ونموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرِّر له. كما تقدم لنا نموذجاً لطبيعة الخير والسماحة، ونموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة، وتَقفهما وجهاً لوجه، كل منهما يتصرف وِفْقَ طبيعته)[1].

وسر اختلاف موقفي الأخوين، هو ما يدين به كل منهما، وما يفكر فيه، فأقوال الإِنسان وأفعاله مرتبطة بتصوره وفكره.

كان الحاقد الظالم متسجيباً للشيطان، ولذلك قال ما قال وفعل ما فعل.

وكان المؤمن الوادع مستجيباً للحق مؤمناً بالله، ولذلك قال ما قال.

ولا ننسى أنهما أخوان شقيقان، أبوهما واحد، وأمهما واحدة، وجمعَهما رحم واحد، ورضعا من ثدي واحد، وعاشا في بيت واحد.

ومع هذه الوحدة والاتفاق في الأمور الخارجية، اختلفا تصوراً وفكراً وموقفاً وسلوكاً وقولاً وفعلاً...

ولعلّ في هذا إشارةً إلى «المسؤولية الفردية» التي جعلها الله للإِنسان، والقدرة على اختيار الموقف والتصرف والطريق، التي مكَّن الله الإِنسان منها، فالإِنسان مخيَّر في الطريق الذي يسلكه، والتصرف الذي يقوم به، والله يحمّله تبعة اختياره، ويرتّب على ذلك نتيجته التي تنتج عنه.

○ إنما يتقبَّل الله من المتقين:

يقدم لنا الأخ المؤمن قاعدة قرآنية إيمانية ثابتة، وأساساً مطرداً في وزْن الأقوال والآراء، وفي اعتماد الأفعال والتصرفات، وقبولها عند الله، وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٧٤.

بهذا الحصر والتوكيد. إن الله لا يتقبَّل إلّا من المتقين، وإن التقوى هي شرطٌ لقبول الأعمال عند الله، والإيمان أساسٌ لاعتمادها ورجاءِ الانتفاعِ منها.

لماذا الإيمان والتقوى أساس قبول الأعمال عند الله؟.

لأن الأعمال لا تُرادُ لذاتها، فلا نفع فيها عندما تكون مجرَّدةً من معناها، منقطعة عن حياتها.

فكما أن الثمرة لا تنبت إلّا على شجرة، فكذلك العمل لا يكون صالحاً صادقاً صحيحاً، ولا يُقبلُ عند الله، إلّا إذا انبثق من الإيمان، ونتج عن التقوى.

وإن الله لا يريد الأعمال مجرّدة، وإنما يريد أثرها في نفوس أصحابها، يريد قلوبهم ومشاعرهم، ويريد تربيتهم وتقويمهم من خلال الأعمال. إن المهم هو أن يحصل المؤمن على التقوى، وأن تملأ عليه حياته ووجوده.

قال تعالى عن الحكمة من ذبح الهَدْي والأضاحي: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٦ ـ ٣٧].

وقد روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ، ولٰكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلوبِكُمْ وأَعْمَالِكُمْ»[1].

وإذا لم تصدر الأعمال عن الإيمان، ولم تَنتج عن التقوى، فإنها تكون مردودة عند الله ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب رقم ٤٥، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ١٠، حديث رقم ٢٥٦٤.

وقد كان الصالحون من المسلمين يقفون طويلاً أمام قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فيقومون بالعبادات والطاعات والقربات، ومع ذلك يخافون أن لا يقبلها الله منهم، ويخشون أن لا يكونوا من المتقين.

وقد ذكروا أقوالاً في ذلك.

قال الصحابي الجليل أبو الدرداء: (لئن أستيقن أن الله تقبَّل مني صلاة واحدة، أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: (لا يقلُّ عمل مع تقوى، وكيف يقلّ ما يُتَقَبَّل؟).

وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ يوصي أحد عماله: (أوصيك بتقوى الله الذي لا يَقبل غيرها، ولا يرحم إلّا عليها، ولا يثيب إلّا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل).

وقال عامر بن عبد قيس: (آية في كتاب الله، أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً، أن يجعلني الله من المتقين، فإنه قال: إنما يتقبّل الله من المتقين).

وقد دخل سائل إلى عبد الله بن عمر ﷺ، فقال لابنه: أعطه ديناراً، فأعطاه. فلما انصرف قال ابنه: تقبَّل الله منك يا أبتاه. فقال: لو علمتُ أن الله تقبَّل مني سجدة واحدة، أو صدقة درهم، لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت، تدري ممن يتقبَّل الله؟! إنما يتقبَّل الله من المتقين.

وكان مطرِّف بن عبد الله يقول في دعائه: اللهم تقبَّل مني صيام يوم، اللهم اكتب لي حسنة، ثم يقول: (إنما يتقبل الله من المتقين).

ولمّا كان عامر بن عبد الله على فراش الموت، بكى. فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله. فقيل له: أيَّةُ آية؟ قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]

---

(١) انظر: هذه الأقوال في الدر المنثور ٦: ٥٦ ـ ٥٧.

○ المؤمن لا يفكر في قتل أخيه:

بعد أن قدَّم الأخ المؤمن لأخيه الظالم أساس قبول الأعمال عند الله ردَّ على تهديده الفاجر بقتله. وكان ردّه لطيفاً رقيقاً وادعاً: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾.

ويتضمَّن هذا الردّ:

١ ـ الجواب الهادئ والرد الوادع على تهديد أخيه وتوعُّده.

٢ ـ تطمين الأخ بأنه لا يفكر في قتله، ولا يريد ذلك.

٣ ـ الدلالة على طبيعة هذا الأخ الهادئة المسالمة، ونفسه المؤمنة الراضية.

إن الأخ المؤمن لم يَرُدَّ على التهديد بتهديد مثله أو أشدّ، ولم يقابل السيئة بسيئة مثلها، ولم يتصرف بجهل يفوق جهل خصمه، كما قال ذلك الشاعر الجاهلي «عمرو بن كلثوم»:

أَلَا لا يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

إن موقف الأخ المؤمن لا يقْدر عليه إلّا عظماء الرجال.

مقابلة السيِّئة بمثلها سهلة ميسورة، وكل الناس يقدرون عليها. لكن أن تتعالى على الشر والباطل، وأن تكون أكبر من الجاهل الجهول، وأن لا تتصرف تصرف الصبيان في نزاعاتهم، وخلافاتهم، وأن تقابل السيِّئة بالحسنة، فلن تقدر على كل هذا إلّا إذا كنت رجلاً عظيماً، صاحب نفسٍ عظيمة، وقلب ودود رحيم، وإيمانٍ غامر، وسعادة فائقة، وأخلاقٍ سامية، وصدق الله الذي يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

○ المانع له من قتل أخيه:

إن الأخ المؤمن لن يبسط يده إلى أخيه ليقتله.

وحتى لا يسيء أخوه الحاقد تفسير موقفه هذا، وحتى لا يظن أن عدم تفكيره بقتله إنما هو لعجزه وقلة حيلته، تولّى هو تعليل موقفه، وتقديم السبب فيه. وذلك في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

إنه الخوف من الله رب العالمين.

إن الخوف من الله يوجِدُ عند المؤمن حالةً من الإيمان والتقوى والمراقبة لله، وهذه الحالة الإيمانية تمنع صاحبها من ارتكاب المحرمات، وفعل المعاصي والمنكرات.

إن الخوف من الله هو صمّام الأمان في حياة الأفراد والجماعات، وإنه أقوى حارس لهم، يمنعهم من الاعتداء والظلم والإيذاء.

ويجب على المفكّرين والمنظّرين والمربّين، أن يحرصوا على تنشئة الأفراد على مراقبة الله والخوف منه، والرغبة في ثوابه، والحرص على مرضاته، ليتمسكوا بالحق، ويقلعوا عن الباطل.

وهذا هو التعليل الوحيد الصحيح الذي يجب أن يعلَّل به ابتعادُ الصالحين عن الحرام، ورفضُهم الوسائل والأساليب المنكرة في الحياة. ولكن الخبثاء الماكرين لا يعللون هذا التعليل، وإنما ينسبون امتناع الصالحين عن الحرام والمنكر والظلم إلى عجزهم وقلة حيلتهم. ويدَّعي هؤلاء الماكرون أنه لو توفرت للصالحين الفرصُ والإمكانات، لأقبلوا على المنكر والحرام! وهذا ادعاء باطل، يكذبه ذلك الرجل المؤمن في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

○ معنى أن يبوء بالإثمين:

أضاف الرجل المؤمن سبباً آخر يحمله على عدم قتل أخيه، وذلك في قوله له: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وهذا يوحي بأن القاتل يبوء بالإثمين: إثم القاتل، وإثم القتيل.

أما إِثم القاتل فهذا لا إشكال فيه، لأنه ارتكب الجريمة وقام بالفعل، وكونه يبوء بالإِثم منطقي ومفهوم، من باب ترتُّب النتائج على المقدمات.

أما أن يبوء القاتل بإِثم القتيل، فهذا فيه إشكال! فما معنى ذلك؟.

هل معناه: أن القاتل يأخذ كل ذنوب القتيل، بحيث لم يَبْقَ على القتيل منها ذنب؟ لا أظن ذلك!.

يبدو أن معناه: أن القاتل يبوء بإثم القتيل بخصوص القتل، فلو كان القتيل هو القاتل لباء بالإِثم. وعندما يقع قتال بين شخصين، فيحتمل وقوع القتل من كل منهما بنسبة متساوية. ولذلك إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. القاتل في النار لكونه قتل وقام بالجريمة، والمقتول في النار لكونه كان حريصاً على قتْل خصْمه، والذي منعه من قتله أمر لا إرادي فوق إرادته وقدرته.

وهذا المعنى القرآني قرَّره رسول الله ﷺ.

فقد روى مسلم في صحيحه عن الأحنف بن قيس رضي الله عنه، قال: خرجتُ وأنا أريد هذا الرجل [يعني علي بن أبي طالب]، فلقيني أبو بكرة رضي الله عنه، فقال: أينَ تريد يا أحنف؟ قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ. فقال لي: يا أحنف! ارجع. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَان بِسَيْفَيْهِمَا، فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ في النَّار، فَقُلْتُ ـ أو قِيل ـ يا رسول الله: هَذا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولُ؟ قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»[1].

وبما أن الأخ المؤمن لم يفكر في قتْل أخيه الظالم، فقد ألغى احتمال كونه قاتلاً، وبذلك يحوَّل هذا الاحتمال إلى القاتل، فيحمل القاتل النسبتين معاً، وعندها يبوء بالإثمين ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن ٥٢، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٤، حديث رقم ٢٨٨٨.

○ من التفسير النفسي: تطويع النفس لصاحبها:

حاول الأخ المؤمن أن يليِّن قلب أخيه الحاقد، وأن يستعطفه، وأن يستجيش معاني الأخوة والسماحة في نفسه، وأن يُزيل وساوس الشيطان عنه، وأن يقضي على نزغات القتل عنده.

ولكن الرجل الحاقد لم يستجب لتلك المحاولات الصادقة، بل مضى قُدُماً في تنفيذ ما صمَّم عليه من القتل. وما زال بذلك الشعور الحاقد والتفكير الأسود حتى نفّذ الجريمة وقَتَلَ أخاه.

وقد أخبر القرآن عن هذه الفترة التي سبقت القتل بجملة عجيبة معجزة. قال: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخيهِ. فَقَتَلَهُ».

معنى طَوَّعت: شجَّعت ووسَّعت وسهَّلت وزيَّنت.

ونحب أن ننظر في هذه الجملة على ضوء علم النفس التحليلي، وأن نقدِّم من خلال هذا لوناً من ألوان التفسير النفسي للقرآن.

لقد كان الأخ الحاقد الظالم يعيش صراعاً نفسياً حاداً مريراً، وكانت تتجاذبه شتى النوازع والأفكار والهواجس المتعارضة المتناقضة، وكان يُصغي إلى أصوات متباينة:

كلام أخيه في استعطافه، كان يوقظ في نفسه وشعوره وكيانه معاني الخير، ويدعوه إلى أن يعدل عن القتل. فهو أخوه، وهو مسالم هادئ وادع، لا يريد قتله لأنه يخاف الله. فلماذا يقتله؟ ما هو ذنبه؟ ألأن الله تقبَّل منه قربانه؟ وماذا في ذلك؟ أليس يتقبَّل الله من المتقين؟ ثم إن هذا فضيلة لأخيه يستحق الثناء عليها، وليس جريمةً يُقتَل بسببها!.

لعله كان يعيش لحظات بهذا الشعور الطيب، وتتوارد على نفسه هذه التساؤلات وغيرها، فيكاد ينحاز إلى جانب الحق، ويعدل عن القتل، ويُصغي إلى صوت العقل والمنطق.

ولكن هل يتركه الشيطان مع هذه المعاني الخيِّرة الطيِّبة؟ هل يتخلى عنه وهو أول ضحاياه من بني آدم؟.

كان الشيطان يوسْوِس له ويوسْوِس، ويثير في نفسه معاني الحقد والكراهية، ويوقظ نوازع القتل والاعتداء.

وكانت نفسه الباغية الشريرة، تدعوه إلى القتل، وتلحُّ عليه إلحاحاً مستمراً، وتُطَوّعه للقتل تطويعاً، فتسهّله وتزيّنه له وترغّبه فيه، وتشجّعه عليه.

وكانت تتولى إسكات صوت المنطق والعقل والحق، فلا تُسمعُه إلّا صوت الحقد، ولا تُريه إلّا صورة القتل، ولا تُقدّم له إلّا معاني العدوان.

وعاش ذلك البائس التعيس فترة مريرة قاسية عنيفة من هذا الصراع النفسي الحاد العنيف، ووقع في حيرة بالغة: لمن يستجيب؟ وأي الأصوات يسمع؟ وأية طريق يسلك؟..

وأخيراً انتصر الشيطان، وانتصر الحقد والعدوان، وانتصرت نفسه الشرّيرة الباغية. وطوَّعت له قتلَ أخيه، وسهَّلَتْهُ له.

قال الإِمام محمد رشيد رضا حول التفسير النفسي لهذه الآية:

«ولم أرَ أحداً شرح بلاغة هذه الكلمة ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُۥ﴾ في هذا الموضوع ببعض ما أجد لها من التفسير في نفسي. وإنها لبمكان من البلاغة يحيط بالقلب، ويضغط عليه من كل جانب.

إنني أكتب الآن، وقلبي يُشغلني عن الكتابة، بما أجد لها فيه من الأثر والانفعال.

إن هذه الكلمة تدل على تدريج وتكرار في حمل الفطرة على طاعة الحسَد الداعي إلى القتل، كتذليل الفرس والبعير الصَّعب، فهي تمثّل لمن يفهمها ولدَ آدم، الذي زيَّن له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام، يفكر في كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة، فيجد في كلٍّ منها صارفاً له عن الجريمة، يدعَم ويؤيد ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة، فيكرُّ الحسَد من نفسه الأمّارة على كل صارف في نفسه اللوّامة. فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان، حتى يغلب الحسدُ كُلًّا منها، ويجذبه إلى الطاعة.

فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة، لداعي الحسد، هو التطويع

الذي عناه الله تعالى. فلمّا تمَّ كل ذلك قتله»[1].

○ فقتله!

استجاب الحاقد أخيراً لتطويع نفسه له قتلَ أخيه، وقام بجريمته، وسفَكَ دم أخيه وقتَلَه.

«فَقَتَلَهُ». هكذا، بكلمة واحدة انتهى هذا المشهد. وأوجز القرآن الكلام عن الجريمة، ولم يفصّلها، بل تجاوزها إلى آثارها ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وهناك بعض الحِكَم من التعبير عن الجريمة بهذه الكلمة الموجزة «فقتَلَه»:

١ ـ رغبة القرآن في تجاوز مشهد قتل الأخِ لأخيه، لأنه لا يستحق الذكر المفصّل، ولا الوقفة المطوّلة. أليس قد حصل المحظور؟ ووقعت الجريمة؟ إن كلمة واحدة تكفي لذلك.

٢ ـ إن القرآن لا يريد أن يُبقي هذا المشهد المروّع مفصّلاً عالقاً في ذهن السّامع وشعوره، حتى لا يوجد عند السامع قبولاً له، أو اقتداءً بذلك المجرم. وإنّما يريد القرآن للسامع أن يجاوز مشهد القتل إلى ما بعده من الآثار والنتائج والخسائر، ليزيل ما قد يعلق في ذهنه من شعورٍ بالإعجاب، ورغبةٍ في الاقتداء.

٣ ـ وكأن القرآن يدعونا إلى الاكتفاء بإخباره هو عن القتل. فبما أنّه لم يفصّل تلك الجريمة، فلا يجوز لنا أن نخوض في ذلك، فنحن مُلْزَمون أن نبقى مع البيان القرآني، ونتجاوز كل كلام مفصّل عن عملية القتل، لأنه كلام أخذه مفسرون من الإسرائيليات، ولا يجوز تفسير كلام الله بالخرافات والأساطير والأكاذيب، وهي الصفة الغالبة على الإسرائيليات!.

○ الخسارة المطلقة في قتل الأخ:

قتل الأخ أخاه! لكن ماذا استفاد من ذلك؟ هل حققّ مراده وأهدافه؟ هل نال ما وعده به شيطانه اللعين ونفسه الشرّيرة؟.

---

(١) تفسير المنار ٦: ٣٤٥.

إنّه لم يجنِ من سفك دم أخيه خيراً، ولم يستفد منهُ شيئاً. لقد خسر خسارة مطلقة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

كانت خسارته عامة شاملة، مستوعبة لكل ما في كلمة «الخسارة» من المعاني، وما فيها من الصور والظلال، وما تحمله من المظاهر.

ومن مظاهر خسارته:

١ ـ لقد خسر أخاه، عندما سفك دمَهُ.

٢ ـ لقد خسر والدَيْهِ وَأَهْلَه. حَيثُ غَضِبُوا عَلَيْهِ لِجَرِيْمَتِهِ.

٣ ـ لقد خسر معاني الأخوة التي كانت تربطه بأخيه.

٤ ـ لقدْ خَسِرَ كُلّ مَعَانِي الإِنسانِيَّة الخيّرة، مثل الرحمة والمودّة والتسامح.

٥ ـ لقد خسر نفسه وهدوءهُ واطمئنانه وسعادته.

٦ ـ لقد خسر حياته حيث حوّلها من حياة خيِّرة نافعة إيجابية إلى حياة شريرة ظالمةٍ معتدية.

٧ ـ لقد خسر آخرته، بأن أخرجها من رحمة الله وجنّته إلى عذابه وناره.

٨ ـ لقد خسر تاريخه، حيث صار تاريخاً للبغي والظلم والعدوان. وكان هو مثالاً لمعاني الشر والفساد، وقدوةً لكل قاتلٍ ظالم شرّير.

إلى غير ذلك من صور الخسارة ومظاهرها وألوانها، التي يلقيها قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وهذه الخسارة كلها كان سببها استجابته لوساوس الشيطان.

وهذه الخسارة يقع فيها كل من عصى الله، لأنها نتيجةٌ طبيعيةٌ لكل ذنب ومعصية، ونهايةُ كلّ من اتّبع خطوات الشّيطان، وحصيلةُ الكفر والفسوق والعصيان.

ونتجاوز خسارة ذلك الأخ الحاقد الظالم، لنتظر في دلالةٍ أعمّ وأشمل للخسارة تتجاوز الزمان والمكان، لتنطبق على كلّ زمان ومكان.

كلّ من سَفَكَ دَمَ أخيه فهو خاسر، وكل من قتل إنساناً بغير حق فهو خاسر. وصدق الله القائل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وهذه الخسارة تنسحب على الأمّة المسلمة، عندما تتقاتل فيما بينها، وعندما تحل العداوة والبغضاء في قلوب أبنائها مَحَلَّ الأخوة والمحبّة والتّسامح.

ويخبرنا التاريخ خبر صدقٍ بهذه الحقيقة، فعندما كانت تجتمع الأمة على الأخوة والمحبّة والتّعاون، وتلتقي على قلب رجل واحد، كانت تربح وتنجح وتفلح وتفوز، وعندما كانت الأمة تختلف وتتنازع وتقتتل، كانت تخسر كل شيء.

وأبرز مثال على خسارة الأمة، هو ما تُعانيه في عصرنا الحاضر، حيث تفرقت كلمة الأمة، فاختلف أفرادُها واقتتلوا، وتخلّوا عن وحدتهم وأخوَّتِهمْ وقوَّتِهمْ، وبذلك أصبح المسلمون خاسرين، وكانت خسارتهم شاملة لكل شيء، فقد خسروا دماءهم وأبناءهم، وخسروا أخلاقهم وروابطهم، وخسروا أموالهم واقتصادهم، وخسروا وجودهم وكيانهم، وخسروا تأثيرهم ومنزلتهم.

○ الغراب يعلم القاتل العاجز:

قتل الأخ الحاقد أخاه، ثم عجز عن التصرف، فلم يدرِ ماذا يفعل بجثّةِ أخيه، وبَدَا هذا القوي العنيد ضعيفاً عاجزاً، وأراد الله أن يريه ضعفه وعجزه، فبعث غراباً ليعلّمه. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾.

هل كان غراباً واحداً، أم كانا غرابيْن اثنيْن؟ وهل اقتتل الغرابان؟ وهل قام القاتل منهما بالحفر في الأرض لدفن جثّة الغراب القتيل؟.

هذه أسئلة لا جواب عليها عندنا! لأن القرآن والحديث الصحيح لم يقدما الجواب عليها. ويسعنا ما وسع الصحابة في فهم الآية.

المهم أن القاتل عجز عن التصرف، فجاء الغراب ليعلمه كيفية دفن الجثة، فصار الغراب يحفر في الأرض ويحفر فيها، واستمرّ حفره وبحثه فيها ـ كما يوحي الفعل المضارع «يبحث» الذي يدل على التجدّد والاستمرار ـ حتّى لفت نظر القاتل العاجز إليه، وكأنّه يدعوه إلى الاقتداء به في الحفر، وفهمَ العاجز عن الغراب إشارته، وحفر في الأرض، ودفن الجثة.

وعندما نمعن النظر في تعليم الغراب للإنسان القاتل كيفية الدفن، فإننا نخرج بعدة إشارات. منها:

١ ـ إن هذه الحادثة هي أول جريمة قتل تقع، لأن القاتل لم يعرف كيف يتخلّص من الجثّة، وهذا يدل على أنّه ابن آدم من صلبه ـ كما قلنا ـ.

٢ ـ إنها تسجل عجز الإنسان الحاقد، الذي يدّعي القوّة والفطنة والذكاء وحسن التصرف، والذي يتيه ويبطش ويظلم ويعتدي، ثم يعجز عن التصرف في مشكلة أمامه، فيأتي غرابٌ لا علم عنده، ولا وعْي ولا ذكاء، ليعلم هذا الإنسان الواعي الذكي.

٣ ـ إنها تسخر من هذا الإنسان في عجزه وتتهكّم عليه لجهله وغبائه وسذاجته، إذ بقي واقفاً عاجزاً ينتظر من يعلّمه، حتّى جاء الغراب فعلّمه.

تَبًّا للإنسان الذي يملأ الدنيا ادعاءً وتعالماً وضجة وصياحاً، ثم تخفى عليه بعض البدهيات، ويعجزُ أمام بعض الأوليّات، وكم من الأمور الأساسية تخفى على هذا الإنسان المتعالم الجهول!.

○ ندم القاتل ندم العاجز الخاسر لا ندم التائب:

بعدما دفن القاتل أخاه، أحسّ بندم كبير. كما قال الله عنه: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

ولم يكن ندمه ندماً إيجابياً، ولكنّه كان ندماً سلبياً. كان ندمَ العاجز الحاقد، وليس ندمَ المذنب التائب، كان ندمَ الذي شعر بالخسارة البالغة؛ وهو الذي كان يرجو النفع العميم.

قد يثير بعضهم هنا تساؤلاً: بما أنّ القاتل ندمَ على جريمته - بنص القرآن - فلماذا لم يتب الله عليه؟ ولماذا لم يغفر الله له؟ علماً بأن كل من أذنب، وندم على ذنبه، وتاب إلى ربه، فإن الله يتوب عليه.

والجواب على هذا التساؤل، أنّ القاتل لو نَدِمَ نَدَم التائب لتاب الله عليه.

لكن القاتل لم يندم هذا الندم، إنه لم يتب، ولم يستغفر، ولم يشعر بالخطأ والإثم، ولو فعل هذا لتاب الله عليه، لأن الله يغفر الذنوب جميعاً، وكلُّ مَنْ تاب صادقاً مخلصاً، فإن الله يتوب عليه.

لقد كان ندمُ القاتل ناتجاً عن عجزه عن التصرف في الجثّة، فلمّا جاء الغراب وعلمه ذلك، كأنّه شعر بانتقاص في إنسانيته، وطعْن في قوّته وفطنته، فأحسّ بالندم البالغ.

ثم قد يكون لندمه سبب آخر: إنّه لم يحقق ما أراد من القتل، لقد خسر أخاه ونفسه وأهدافه، فكان ندمه على فوات مقصوده، وضياع آماله.

ولقد جمع القاتل بين الحسرتين، حسرة الخسارة وحسرة الندم، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ و﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

○ فكأنّما قتل الناس جميعاً... وكأنّما أحيا الناس جميعاً:

عقبت الآيات على قصة ابني آدم، وعلى موقف القاتل الحاقد منهما بقولها: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

إنها حقيقة قرآنية قاطعة صادقة، صيغت بجملة الشرط التي تفيد الجزم واليقين:

من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

كل من قتل نفساً ظلماً بغير حق فكَأَنّما قتل النّاس جميعاً! كيف ولماذا؟.

١ ـ إن قتْل نفس واحدة هو قتل لكل الناس! لأنه يصعب على الإنسان أن يقتل الإنسان أوّل مرة، ويبقى فترة طويلة بين إحجام وتردد وخوف ووجل ـ كما فعل ابن آدم الأول ـ ثم يتغلّب صوت الباطل والعدوان، فيقدِم على القتل، فيكسَر «الحاجز النفسي» بينه وبين القتل.

فإذا أراد هذا القاتل أن يقتل شخصاً آخر في المرة الثانية، فإن الأمر يكون أسهل عليه، وتأنيب ضميره يكون أقلّ. وتزول المعاناة ويتلاشى التردد والخوف والوجل عند جريمة القتل الثالثة أو الرابعة أو الخامسة، وهكذا تتحول عملية القتل فيما بعد، عند ذلك القاتل المحترف، إلى مسألة طبيعية مقبولة، لا غرابة فيها، ولا تحرُّج منها، وبذلك يكون ذلك القاتل ﴿كَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

٢ ـ وهناك معنى آخر توحي به جملة ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وهو أن العدوان على النفس الواحدة وسَفكَ دَمِهَا ظلماً، هو عدوان على كلّ الناس، وإزهاق تلك الروح عند النفس الإنسانية، كأنّه إزهاق للروح الموجودة عند كل بشر!.

إن المعنى الإنساني مكرَّم عند الإنسان، وإن إنسانية الإنسان محفوظةٌ مُصانةَ معتبرة، وعلى كل النّاس أن يتفقوا على احترامها واعتبارها والمحافظة عليها. وأن يمنعوا أيَّ إنسان حاقد ظالم من انتهاكها أو الاعتداء عليها وقتل صاحبها، لأنه يكون بذلك كأنما قتل الناس جميعاً.

أما قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ فيوحي لنا بأمرين:

١ ـ إن إحياء الإنسان لنفس أخيه الإنسان، ومحافظته عليها، دليلٌ على تمكُّن المعاني الإنسانية من نفسه، وتوفُّر الأخلاق الإنسانية الفاضلة فيه. وتوجيهها لسلوكه وحياته.

٢ ـ إن هذا الذي يحترم النفوس الإنسانية ويصونها، يكون قدوةً للآخرين في هذا السلوك الإنساني النبيل، ويكون هذا الإنسان صاحب أثر في تحويل

النّاس إلى الجانب العملي الإيجابي، في إحيائهم لنفوس الآخرين.

وللحقيقة نقرر: إنه لا يُلحظ هذا المعنى الإنساني عند الإنسان مثل ما يُلحظ في الإسلام، ولا يكرِّم إنسانية الإنسان مثل الإسلام، ولا يحافظ عليها أُناسٌ مثل المسلمين الملتزمين بالإسلام. والتاريخُ شاهد على مصداق هذه الحقيقة.

وصدق الشاعر القائل:

مَلَكْنَا فَكَانَ العَدْلُ مِنّا سَجِيَّةً ... فَلَمّا مَلَكْتُمْ سَالَ بِالدَّمِ أَبْطَحُ
وَحَلّلْتُمْ قَتْلَ الْأَسَارى وَطَالَمَا ... غَدَوْنَا عَلَى الأَسْرَى نَمُنُّ ونَصْفَحُ
فَحَسْبُكُمُ هَذَا التَفَاوُتُ بَيْنَنَا ... فَكُلّ إِنَاءٍ بِالّذِي فِيهِ يَنْضَحُ

إن أسهل شيء عند غير المسلمين هو قتل النفوس، وإزهاق الأرواح، وسفكُ الدماء، بدون سبب، كما نراه في هذا العصر!.

○ لماذا «كتبنا على بني إسرائيل»؟

وتستوقفنا في آية التعقيب على القصة أيضاً، هذه الجملة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فما هي الصلة بين قصة ابنيْ آدم وبين بني إسرائيل؟ ولماذا خُصِّصوا هم بالذكر دون غيرهم من الأقوام والأمم؟.

يبدو أنّ الصلة بين بني إسرائيل وبين ابنيْ آدم ـ أو ابن آدم القاتل بلفظ أدقّ ـ هي صلة القتل، وأن الرابط بينهما هو الرغبة في القتل.

ولم يفطن لهذا المعنى المفسرون الذين ذهبوا إلى أن ابني آدم المذكوريْن في القصّة، هما من بني إسرائيل، وأن نسبتهما إلى آدم إنّما هي نسبة عامّة باعتباره هو أبو البشر جميعاً، والذي حملهم على هذا القول، هو هذه الجملة ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وسبق أن ناقشْنا هذا الرأي، وأوردْنا الأدلّة على أنّهما ابنا آدم من صلبه، حسب ظاهر النص القرآني.

إن ذكر بني إسرائيل هنا يشير إلى بعض الحقائق:

١ ـ وحدة الرسالات، واتفاقُها في أصول العقائد والتشريعات، فالقتل عدواناً حرام في شريعة آدم عليه السلام التي بلّغها لأولاده، وحرام في شريعة بني إسرائيل، وحرام في شريعة الإسلام.

٢ ـ إن بني إسرائيل قد تمكنت من نفوسهم فكرة القتل، وتأصَّلتْ في حياتهم، ورسخت في تاريخهم، وصبغت تصرّفاتهم وأعمالَهم، وبها تحوّلوا إلى أكثر الشعوب رغبة في القتل، وممارسةً له.

وإن التاريخ البشري يسجّل مصداق هذه الإشارة. حيث نرى أن الكثير من جرائم القتل الفردية والجماعية، كان وراءها اليهود.

٣ ـ وتجمع بين ابن آدم القاتل، وبين الكافرين من بني إسرائيل، صفةٌ أخرى وهي عداؤهم للمعاني الإنسانية، وحقدهم على القيم الإيمانية، وإصرارهم على الخطأ والباطل، وحسدهم للآخرين، واعتداؤهم عليهم، بدون ذنب ارتكبوه، ومتابعتُهم للشيطان.

○ تلخيص لأهم دروس القصّة:

١ ـ إن ابنَيْ آدم يمثلان نموذجين مختلفين من نماذج البشر: نموذج المؤمن الهادئ المسالم الوادع. ونموذج الشرير الحاقد الظالم. وهذان النموذجان لا تخلو منهما البشرية في أي زمان ومكان.

٢ ـ إن الرجل القاتل قد أسلم نفسه للشيطان، وإن جريمته هي النتيجة الطبيعية للاستجابة للشيطان، واتباع خطواته.

٣ ـ إن الرجلَيْن ابنان لآدم من صلبه.

٤ ـ كون الرجل القاتل ابناً لآدم من صلبه يوحي بإشارة هامة، فمع أنّ آدم عليه السلام نبيٌّ، إلّا أن ابنه اختار طريق الكفر والباطل، وقد يكون للأنبياء أولاد فاسدون كافرون ـ مثل ابن آدم وابن نوح ـ وقد يكون للصالحين أبناء فاسدون، وهذا لا يعيب الآباء الصالحين، بشرط أن يقوموا بواجبهم مع أولادهم بالدعوة والنصح والتذكير.

٥ ـ من لوازم تلاوة القصّة بالحقّ ـ كما أمرنا الله ـ أن نكتفي بما ورد عنها في القرآن والحديث الصحيح، ولا نذهب إلى المصادر الأخرى من إسرائيليات وأساطير وخرافات.

٦ ـ وجوبُ ردّ الأمورِ المتنازع عليها إلى الله، والقبول بحكمه، وهذا دليل صدق الإيمان، وبهذا يُحل الخلاف، ويُؤْتى بالحكم الصائب.

٧ ـ إنّ الله يتقبّل من المتّقين. وكل من أحبّ أن يقبله الله، وأن يتقبل منه أعماله، فعليه أن يحقّق فيه صفة التقوى.

٨ ـ إذا كان الحقّ مع أخيه، فعلى المؤمن أن يتنازل له، وأن لا يسمح بأي شيء أن يؤثر على علاقته مع أخيه ومحبته له.

٩ ـ لا يمكن لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأً.

١٠ ـ إن الذي يمنع المؤمن من سفك دم أخيه هو الخوفُ من الله رب العالمين. وليس هو الضعف والعجز والجبن وقلة الحيلة.

١١ ـ إن القاتل يبوء بإثمين: إثمُه هو لأنه قتل، وإثم القتيل فيما لو كان هو القاتل.

١٢ ـ إن القاتل أو المجرم يعيش فترة من الصراع النفسي المرير، وذلك عندما يقوم بجريمته لأول مرّة، حيث تصطرع في نفسه معاني الحق والخير، مع نزغات الشيطان ووساوس النفس.

١٣ ـ وجوب الاستعانة بالعلوم والمعارف الحديثة في توسيع مفهوم الآيات، وإضافة أبعاد جديدة لها، كما مرّ معنا في وقفتنا التحليلية أمام هذه العبارات ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

١٤ ـ إن المجرم عندما يرتكب جريمته يخسر كل شيء.

١٥ ـ إن الإنسان الذي يتيه ويتجبر ويطغى، يقف أحياناً عاجزاً عن حل بعض المشكلات والمسائل السهلة الميسَّرة.

١٦ ـ الندم ندمان: ندم يقود للتوبة والمغفرة، وهو ندم التائب المنيب، وندم لا يقود لذلك، وهو ندم العاجز الفاشل الخاسر.

١٧ ـ إن مَنْ أجاز لنفسه قتل إنسان بدون حق فكأنّما قتل النّاس جميعاً، لأن التحرُّج من القتل موجود قبل ارتكاب الجريمة، أمّا بعدها فإنه يزول ويتلاشى، حيث يتحول القتل إلى مهنة أو عادة أو هواية.

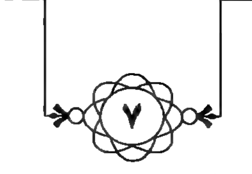
١٨ ـ على البشرية أن تقف أمام القتلة والمعتدين، وأن تأخذ على أيديهم، وأن تمنعهم من ممارسة «هوايتهم» الشيطانية.

١٩ ـ اليهود من أكثر الشعوب ممارسةً للقتل عدواناً وظلماً، وسفكاً لدماء الآخرين.

٢٠ ـ كل من سنّ سنّة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لأنه يكون قدوة للآخرين في فعل الخير، وكل من سنّ سنّة سيئة فعليه وِزْرُهَا وَوِزْر من عمل بها إلى يوم القيامة، لأنّه يكون قدوة للآخرين في فعل الشر.

ولذلك يكون على ابن آدم الأول الحاقد القاتل نصيبٌ من كل قتلٍ بغير حق إلى يوم القيامة، لأنّه أوّل من سنّ القتْل!!.

* * *



قِصَّة أَصْحَاب السَّبْتِ

○ القصة في العرض القرآني:

قال الله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٨].

○ موجز القصة:

تتحدث هذه الآيات عن قصة قرية من قرى اليهود، تقع على شاطئ البحر، هي قرية من بين تلك القرى التي كانوا يسكنون فيها، تقع على شاطئ بحر من تلك البحار!.

وقد أُمِر اليهود سكان القرية بعدم صيد الحيتان والأسماك يوم السبت وأبيح لهم الصيد في باقي أيام الأسبوع.

وقد ابتلاهم الله في هذا التكليف، حيث كانت الأسماك تبتعد عنهم في أيام الصيد، بينما كانت تأتيهم يوم السبت «شرّعاً».

ووسوس الشيطان في نفوس طائفة من أهل القرية، وزين لهم اصطياد الأسماك. ولكن كيف يتحايلون على أمر الله؟ هداهم شيطانهم إلى حيلة شيطانية ماكرة. وأرشدهم إلى طريقة اصطادوا فيها الأسماك يوم السبت!.

انقسم أهل القرية إزاء تصرف الفريق المعتدي إلى فريقين:

الفريق الأول: هم الصالحون الدعاة، قاموا بواجبهم في الدعوة، وأنكروا على المتحايلين على أوامر الله تحايلهم وعدوانهم وصيدهم يوم السبت.

الفريق الثاني: هم الساكتون، سكتوا عن عدوان المعتدين. وتوجهوا باللوم والإِنكار على الصالحين الدعاة، بحجة أنه لا فائدة من نصح ووعظ قوم هالكين معذَّبين.

أجاب المصلحون اللائمين الساكتين، بأنهم يهدفون من الإِنكار إلى: الإِعذار أمام الله وأداء الواجب، ثم لعل القوم المعتدين يتقون.

ولما وقع بالمعتدين عذاب الله، مسخهم الله قردة خاسئين، وكان المسخ حقيقياً، ولم يتناسل القردة الممسوخون، ولم يعيشوا بعد ذلك إلا قليلاً.

وأنجى الله فريق المصلحين الدعاة. وسكت القرآن عن مصير فريق الساكتين. سكت عنهم لهوانهم على الله. وبما أنهم لم يُذكَروا مع الناجين، فيبدو أنهم كانوا من الهالكين الممسوخين ـ والله أعلم! ـ.

○ إسرائيليات في القصة:

أضاف رواة الإِسرائيليات ومروِّجوها إضافات على ما عرضه القرآن منها.

حدّد بعضهم اسم القرية، فقالوا هي: «أيلة» أو «إيلات» أو «العقبة» على خليج العقبة. وقال آخرون بأنها «طبرية» الواقعة على بحيرة طبرية.

قالوا: وكان في القرية صَنَمان على ساحل البحر، يقال لأحدهما: «لقيم» ويقال للآخر: «لقمانة» فأوحى الله إلى السمك أن يحج إلى الصنمين يوم السبت. وطالب الله اليهود بأن لا يصيدوا السمك يوم السبت لقدومه للحج.

وكانت الأسماك تأتي يوم السبت بكثرة، وكأنها أشرعة تسير على وجه الماء، وكانت تبتعد عن الساحل في الأيام الأخرى.

فقال بعض اليهود: إنما نُهينا عن الصيد يوم السبت. فتعالوا نعمل للسمك البِرك والحياض ليسقط فيها يوم السبت، فنأخذه ونأكله فيما بعد. وقام المعتدون بجريمتهم وعدوانهم.

قام فريق من أهل القرية ينهون المعتدين عن السوء والعدوان. ولامهم فريق من الساكتين.

قال الآخرون: لا نبيت معكم الليلة في القرية. فخرجوا منها، وباتوا على مشارفها. وفي الصباح: نظروا إلى أهل القرية المعتدين والساكتين، فلم يخرج منهم أحد، ولم يُفتح لهم بيت، فتعجبوا. وبعثوا رجلاً منهم يستطلع الخبر. فنظر في دار فإذا أهلها قردة، ونظر في دار أخرى فإذا جميع أهلها قردة. وهكذا باقي البيوت!.

فرجع إلى جماعته فأخبرهم، فجاؤوا وفتحوا الأبواب، وإذا جميع أهلها قردة! فجعل الرجل منهم يومئ إلى القرد: أأنت فلان؟ فيومئ القرد برأسه: أن نعم، وهو يبكي. فقالوا لهم: لقد حذرناكم!

وفتحوا الأبواب، فخرجوا وانطلقوا إلى البرية وماتوا[1].

○ الكلمات الغريبة فيها:

١ ـ **حاضرة البحر**: على ساحل البحر.

٢ ـ **يعْدون في السبت**: يعتدون فيه بمخالفة أمر الله.

٣ ـ **السبت**: أصل السبت القطع. وسمي يوم السبت: لأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، من يوم الأحد ليوم الجمعة.

٤ ـ **يوم سبتهم**: يوم انقطاعهم عن العمل يوم السبت.

---

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي ٣: ٥٨٧ ـ ٥٩٢.

٥ ـ **شرَّعاً**: تسير على وجه الماء، ظاهرة بارزة كأنها شراع.

٦ ـ **نبلوهم**: نمتحنهم ونختبرهم.

٧ ـ **عذاب بئيس**: عذاب شديد مؤلم موجع.

٨ ـ **عتوا**: تمردوا وتجبروا وتكبروا.

٩ ـ **خاسئين**: أذلاء مهانين، معذبين.

○ القرية حاضرة البحر:

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾.

يأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يواجِه اليهود بهذه القصة التي وقعت لفريق من أسلافهم، الذين كانوا يسكنون مدينة ساحلية على شاطئ البحر.

وهذا يدل على أن هذه الآيات مدنية، وضِعت في سورة الأعراف المكية ـ ومعروف أن ترتيب الآيات في السور توقيفي، وليس اجتهادياً من قبل الصحابة ـ ولهذا قال العلماء بأن الآيات من ١٦٣ ـ ١٧٠ من سورة الأعراف مدنية، لأنها تتحدث عن أصحاب السبت، وتأمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يواجههم بها، وأن يسألهم عنها، واليهود كانوا في المدينة، ولم تكن مواجهة بينهم وبين رسول الله ﷺ قبل الهجرة في مكة!.

وليس المراد بسؤال اليهود عن ما جرى لأسلافهم المعتدين، أن يتعلم منهم تلك القصة، ولا أن يأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام من اليهود معلومات تاريخية ـ فقد نُهِي عليه السلام من أن يأخذ عنهم وأن يتعلم منهم وأن يستفتيهم، لأنهم حرَّفوا الأحداث وزوروا التاريخ، فلا يؤتَمنون على علم أو معرفة ـ.

إنه سؤال تبكيت واستهزاء وإحراج، فعندما يعلمون أنه يعلم عن مسخ فريق من أجدادهم قردة وخنازير، فسوف يقعون في خزي وخجل وذلة ومهانة.

القرية التي كانت حاضرة البحر ـ والتي جرت فيها أحداث القصة ـ لا

يفصِّل القرآن عنها شيئاً. لم يبين اسم القرية أو موقعها، ولم يبين زمان القصة أو تفصيلاتها.

ويمكن أن تكون هذه القرية «أيلة» أو «إيلات» أو «العقبة» أو «طبرية» وقد تكون غيرها، وقد تكون القصة زمن موسى أو داود أو سليمان أو غيرهم من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

لا نملك أداة يقينية، ولا وسيلة علمية، نحدد فيها أحد الممكنات، أو نرجح أحد الاحتمالات، كما أن هذا التحديد والترجيح لا يقدم فائدة، فهذه من «مبهمات القرآن» وهذه المبهمات لا تحدَّد إلا من القرآن أو الحديث الصحيح، فإن لم يتم التحديد منها فيجب أن تبقى مبهمة! فهذا هو منهجنا في التعامل مع قصص السابقين في القرآن!.

○ اليهود والسبت:

قال الإمام الراغب في المفردات: «أصل السَّبْت: القطع. يقال: سَبَتَ السيرَ: أي قطعه. وسبت شعره: أي قطعه.

وقيل سمي يوم السبت: لأن الله ابتدأ خلق السموات والأرض يوم الأحد، فخلقها في ستة أيام، فقطع عمله يوم السبت، فسمي بذلك الاسم.

وسُمي النوم سباتاً: لأن النائم ينقطع عن العمل أثناء النوم»[1].

ويوم السبت مقرون باليهود، وهو مناسب لهم من حيث اسمه ومعناه.

وقد ذُكر «السبت» ومشتقاته في القرآن سبع مرات، ووردت المرات السبع كلها في سياق واحد، وهو الحديث عن اليهود.

في هذه القصة ذكرت كلمة السبت ومشتقاتها ثلاث مرات: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

---

(١) المفردات للراغب: ٢٢٠ بتصرف.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ﴾ [النساء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥].

فالسبت لليهود، حيث طلب الله منهم الانقطاع عن العمل فيه، وعدم القيام بأي عمل. حيث قال لهم: ﴿لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

لكن اليهود الذين نشأوا على المخالفة وارتكاب المحظور، عصوا ربهم، وخالفوا أمره، فاعتدوا في السبت، وقاموا بالأعمال المحظورة، فحقت عليهم لعنة الله ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ﴾. وعذبهم الله بأن مسخهم قردة وخنازير: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ، أن الله فرض على اليهود يوم الجمعة، فأضلهم الله إلى يوم السبت. وهدانا نحن ليوم الجمعة.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة. بيْدَ أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم. ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا، هدانا الله له. فالناس لنا فيه تبع. اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخِرون، الأولون يوم القيامة. ونحن أول من يدخل الجنة. بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم. فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا

فيه من الحق. فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه. هدانا الله ليوم الجمعة، فاليوم لنا، وغداً لليهود، وبعد غد للنصارى»[1].

وروى مسلم عن حذيفة بن اليمان وأبي هريرة ﵄ قالا: قال رسول الله ﷺ: أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد. فجاء الله بنا. فهدانا الله ليوم الجمعة. فجعل الجمعة والسبت والأحد. وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة. نحن الآخِرون من أهل الدنيا. والأولون يوم القيامة، المقضِيُّ لهم قبل الخلائق»[2].

ورفْض اليهود ليوم الجمعة، واختيارهم ليوم السبت، دليل على مزاجيتهم البغيضة في تلقي أوامر الله. وفرق بين التلقي المزاجي اليهودي لتلك الأوامر، وبين التلقي للتنفيذ والالتزام الذي قام به الصحابة.

○ ابتلاء الله لسكان القرية اليهود:

إبتلى الله اليهود سكان تلك القرية، حيث نهاهم عن صيد الأسماك يوم السبت. وفي ذلك يقول: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

الابتلاء هنا هو الامتحان والاختبار. فالتكليف ابتلاء وامتحان، ولله حِكَم بالغة من الابتلاء بالتكليف.

إن الإِنسان غير المكلف بتكاليف ربانية لا يسير في طريق المجاهدة، ولا ينجح في ضبط نفسه وتربيتها، والله يريد من الإِنسان أن يجاهد نفسه، وأن يربيها ويضبطها، ويكبح اندفاعها، ويفطمها عن شهواتها ومغرياتها. فيستعلي على شهواته، وينتصر على ضعفه، وينمي معاني الخير في نفسه، ويكون أهلاً لتكريم الله ودخول جنته.

فلو لم تكن تكاليف لما عُرف المجاهد من الغافل، ولا الصالح من

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة رقم ٧، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة رقم ٦، حديث رقم ٨٥٥.

(٢) رواه مسلم في الكتاب والباب السابق حديث رقم ٨٥٦.

الطالح، ولا القوي من الضعيف، ولا الجاد من الهازل، ولا الناجح من الخاسر.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ابتلاء الله لليهود إعدادٌ لهم للاستعلاء على شهواتهم، والانتصار على ضعفهم، إن الانتصار على الشهوات والنفوس طريق للانتصار على الأعداء.

لكن أنّى لليهود أن ينجحوا في الامتحان؟.

○ بين ابتلاء اليهود وابتلاء المسلمين:

رأينا من ابتلاء الله لليهود كيف أن فريقاً منهم تحايلوا وارتكبوا المحظور. وأن فريقاً منهم سكتوا عن النصح والإنكار.

معظم اليهود ـ قبل الإسلام ـ لا ينجحون في الامتحان ولا يثبتون في الابتلاء.

أما المسلمون: فإنهم يلتزمون بأوامر الله، وينجحون في الابتلاء.

ابتلاهم الله بالتحول عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام في الصلاة، وجعَل القبلة الجديدة هي الكعبة. وبيَّن القرآن حكمة هذا التحويل بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ونجح المؤمنون في الابتلاء، ونفذوا التكليف الرباني بالتزام فوري دقيق.

وفي موضوع الحج والصيد والإحرام، نهى الله المسلمين عن الصيد في الحرم وهم مُحرمون، وبيَّن لهم الحكمة من هذا التكليف. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: ٩٤].

لا يجوز للمسلمين وهم محرِمون بالحج أو العمرة أن يصطادوا، ولوكان هذا الصيد قريباً جداً منهم، تناله أيديهم ورماحهم.

أما لماذا هذا التكليف؟ ولماذا الابتلاء به؟ ليعلم الله من يخافه بالغيب! إن الله يعلم من يخافه بالغيب ومن لا يخافه قبل التكليف. لأن علم الله شامل للكليات والجزئيات قبل وقوعها. ولكن ليظهر علمه على الناس، فيرى الناس من يخاف الله ومن لا يخافه. ولتتم محاسبة الناس على ما عملوا وليس على ما عَلِمَهُ الله منهم!.

ومعنى «من يخافه بالغيب»: من يراقب الله، ويمتلئ قلبه إيماناً به، وخوفاً منه، ورجاء في ثوابه. فيلتزم بالأوامر والتكاليف، سواء كان حاضراً مع الناس، أو كان غائباً عنهم، لأنه يعلم أن الله لا يغيب عنه، وأنه لا تخفى عليه خافية.

ابتلى الله اليهود بمنعهم من الصيد يوم السبت، فتحايلوا على الأمر وارتكبوا المحظور! وابتلى الله المؤمنين بمنعهم من صيد البر وهم محْرِمون بالحج أو العمرة ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾ [المائدة: ٩٦].

شتان بين الموقفين: تحايل اليهود، والتزام المؤمنين.

الإغراء بالمخالفة قائم في الحالتين:

فعند اليهود ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ﴾.

وعند المسلمين، الصيد قريب جداً منهم وفي متناولِ أيديهم ورماحهم ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾.

لكن سقط اليهود في الامتحان، بينما نجح فيه المسلمون!.

السبب في سقوط اليهود هو فسقهم وتمردهم على أوامر الله: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

والسبب في نجاح المؤمنين هو أنهم يخافون الله بالغيب: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾.

○ الحيتان تغري اليهود وتداورهم:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

في هذه الآية ثلاثة ابتلاءات:

الأول: نهيهم عن الصيد يوم السبت.

الثاني: مجيء الحيتان إلى اليهود يوم السبت «شرَّعاً» كأنها أشرعة على وجه الماء بحيث تكون قريبة منهم، تغريهم بصيدها.

الثالث: ذهاب الحيتان يوم لا يسبتون، واختفاؤها عندما يتوجهون لصيدها في الأيام الأخرى.

أما اختفاء الحيتان أيام الصيد، فهذا أمر طبيعي ومنطقي. إذ كيف تسلّم نفسها للصائدين، وتكون طعماً لشباكهم؟.

وأما مجيئها يوم سبتهم إليهم، شرَّعاً على وجه الماء، فهذا هو الابتلاء والامتحان: إنهم يبحثون عنها في الأيام الأخرى فلا يجدونها، وها هي تأتيهم يوم السبت، لتثير في نفوسهم عوامل صيدها، وتوقظ عندهم الرغبة القوية في تناولها. إنها تأتيهم وتغريهم بأخذها. إنها تحاورهم وتداورهم، وتهيِّج فيهم مطامعهم وشهواتهم.

فهل يصمد الشهوانيون أمام هذا الإغراء؟ هل يستعْلون بعزائمهم على هذه الرغبات؟ هل يوقظون عوامل المجاهدة والصبر والمصابرة على الأمر؟ هل يُسكتون أصوات الاعتداء والتحايل والمخالفة التي تنبعث من نفوسهم؟.

لعل هذه هي الحكمة من هذه المحاورة والمداورة والإغراء من الحيتان.

لكن الشهوانيين المعتدين منهم لم يصمدوا ولم يصبروا ولم ينتصروا! بل تحايلوا.

○ تحايل اليهود على الأمر الرباني:

لم يصمد فريق من سكان القرية أمام إغراء الحيتان لهم، فتحايلوا على

أمر الله لهم، واصطادوها في اليوم الذي نُهوا فيه عن صيدها.

ويذكر بعض المفسرين تفصيلات لذلك التحايل، أخذوها من الإسرائيليات: قالوا: إن المتحايلين من اليهود، قد حفروا البِرك والحياض بجانب البحر، فكان الماء يغمرها في حالة المد، حيث يقع السمك فيها. وعندما ينحسر ماء البحر في حالة الجزر، يبقى الماء والسمك في البرك والحياض. فإذا كان يوم الأحد يأتون إليها فيصطادون السمك منها. ويقولون: نحن ملتزمون بالأمر الرباني، فنحن لم نصطدها يوم السبت، وإنما اصطدناها يوم الأحد.

وهذه التفصيلات لم ترد في حديث صحيح، ولهذا لا نقول بها ولا بغيرها، فمن المحتمل أنهم فعلوا ذلك، ومن المحتمل أنهم فعلوا غيره. إننا لم نعرف كيف تحايلوا واصطادوا، ولا يهمنا أن نعرف، ولا يضرنا أننا لم نعرف، ومعرفتنا بذلك لا نحصل منها على علم أو فائدة!.

وبدل أن نخوض في الإسرائيليات، ونضيع أوقاتنا فيما لا يفيد، علينا أن نتوقف أمام تصرفهم لنتساءل: لماذا تحايل المعتدون على أمر الله؟.

إنه لا يتحايل على أوامر الله قلب متصل بالله، ممتلئ إيماناً بالله، معظِّم لله، راغب في نعيم الله. إن القلب المؤمن يستقيم على صراط الله، ويلتزم بأوامر الله، ويبقى على هذه الحالة في ليله ونهاره.

إنه لا يتحايل إلا القلب البعيد عن الله، إن القلب عندما يفسق عن منهج الله، ويلتوي عن صراط الله، يتعامل مع الأوامر بتحايل وتفلت والتواء!.

إن الشريعة والأوامر والتكاليف لا يحرسها إلا القلب المؤمن المتقي لله، وإن القلوب الأخرى تُكثر من التحايل على الأوامر والتكاليف، مثل ما فعل اليهود.

وهذا هو سر نجاح الإسلام في تشريعاته ونصوصه، حيث أحيا قلوب المؤمنين، وربطها بالله، فالتزمت القلوب بالنصوص والتشريعات.

وهذا هو سر فشل الأنظمة والمناهج والتشريعات الأرضية، لأنها تغفل

التعامل مع القلوب، فلا يكون عندئذ إلا النصوص والقضاة والشرطة والحرس، وما أسهل أن يتفلت الإِنسان من هؤلاء، فيخرج من الالتزام إلى التحايل والانحراف!.

○ أصحاب القرية ثلاث أمم:

انقسم أهل القرية إزاء مخالفة المعتدين إلى ثلاث فرق ـ أو أمم بتعبير أدق حسب نص القرآن ـ.

١ ـ الأمة المعتدية الباغية التي صادت السمك يوم السبت.

٢ ـ الأمة الواعظة الصالحة، التي وعظت المخالفين.

٣ ـ الأمة الساكتة عن الإِنكار، التي توجهت باللوم على الواعظين، بدل أن تتوجه به على المخالفين!.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾.

ويستوقفنا التعبير بكلمة «أمة» في الآية!.

أهل القرية ثلاث أمم ـ كما أسلفنا ـ.

فكيف انقسموا إلى ثلاث أمم؟ وهم من جنس واحد وأصل واحد، ويسكنون قرية واحدة، وبينهم روابط عرقية وقومية واجتماعية وحياتية واحدة؟.

إن هذا يدلنا على أن الأمة في المفهوم القرآني والتصور الإِسلامي، لها معنى غير معناها في المفهوم الجاهلي.

الأمة في المفهوم الجاهلي الأرضي هي: جماعة من الناس، يعيشون في إقليم واحد، ويجمعهم تاريخ واحد ولغة واحدة.

أما الأمة في المفهوم القرآني، فقد قال عنها الراغب في المفردات: «الأمة: جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الجامع تسخيراً أو اختياراً»[1].

---

(١) المفردات: ٢٣.

وقال سيد قطب عن معنى الأمة في التعريف الإسلامي: «الأمة في التعريف الإسلامي هي: مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد، وتدين لقيادة واحدة وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث: مجموعة من الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض، تحكمها دولة واحدة».

وعن انقسام أهل القرية ثلاث أمم، قال سيد قطب: «وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم: أمة عاصية محتالة. وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة. وأمة تدَع المنكر وأهله، وتقف موقف الإنكار السلبي، ولا تدفعه بعمل إيجابي.

وهي طرائق متعددة من التصور والحركة، تجعل الفرق الثلاث أمماً ثلاثاً»[1].

وهذا يدل على أن الإسلام والإيمان، يقسم الأمة الواحدة إلى قسمين وأمتين. وهذا التقسيم يكون على أساس إيماني إسلامي، وليس على أساس من أسس التصنيف والتقسيم الجاهلية.

كل مجتمع فيه مؤمنون وكافرون، ينقسم إلى أمتين:

١ ـ **الأمة الأولى**: أمة المؤمنين المسلمين، وهم الذين جمع بينهم هذا الدين، فوحد كلمتهم، ونسق بينهم، وربط قلوبهم عليه.

٢ ـ **الأمة الثانية**: أمة الكافرين: وهم الذين جمعهم الكفر بهذا الدين، ومحاربة أهله.

○ لم تعِظون قوماً؟

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

هذا هو منطق الأمة الساكتة عن المنكر. وهو منطق كل ساكتين عن المنكر، قاعدين عن النصيحة والتذكير، في أي زمان ومكان.

---

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٨٥.

ويتلخص منطق هؤلاء بما يلي:

١ ـ ترك المنكر ينتشر. وترك أهله يزاولونه. واعتزال المجتمع الممارس للمنكرات.

٢ ـ القعود عن العمل الإيجابي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ الاكتفاء بالإنكار السلبي، المتمثل في إنكار القلب.

٤ ـ التوجه باللوم والتأنيب للمصلحين الناصحين.

٥ ـ الحكم على أهل المنكر بأن الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً. ولذلك لا فائدة من نصحهم وتذكيرهم.

○ قالوا: معذرة إلى ربكم:

أجاب المصلحون الناصحون الساكتين اللائمين ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ حيث بيَّنوا لهم أن هناك دافعين يدفعانهم للنصح والتذكير وإنكار المنكر.

الدافع الأول: «معذرة إلى ربكم».

كأنهم يقولون لهم: إننا نريد أن نقدم العذر لأنفسنا أمام الله، حتى ننجو من المحاسبة والعقاب.

إننا عندما ننكر المنكر، إنما نحرص على أن نحقق ما يلي:

١ ـ أن نقوم بالواجب الذي كلفنا الله به، في كثير من الآيات والأحاديث، لأننا إن لم نقم بالواجب فسوف نكون عرضة للعذاب.

٢ ـ أن نقدم الاعتذار إلى الله، وأن نعذر أنفسنا أمامه ـ سبحانه ـ فقد بذلنا جهدنا واستطاعتنا، وقمنا بالمطلوب منا.

وإن من رحمة الله بنا أنه لم يطالبنا بالنتائج، وإنما طالبنا ببذل الجهد. ولم يحاسبنا على الثمرة والنتيجة. فنحن قائمون بالواجب عندما نذكر وننصح وننكر المنكر، ولو لم يستجب لنا الناس. ولقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٤].

وتقديمنا للمعذرة ينجينا من العذاب الدنيوي عندما يقع بأهل المنكر: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

٢ ـ أن نقيم الحجة على أصحاب المنكر. لأن لهم علينا حق النصح والتذكير، وهو حق مقرر في القرآن والحديث.

فالتذكير قد ينفع، والنصيحة قد تنفع، والإنكار قد ينفع، فيقلع هؤلاء عن منكراتهم. فإذا لم تفلح معهم النصيحة، ولم ينفع عندهم التذكير، ولم يقتربوا من الاستقامة أو الإصلاح، نكون قد أقمنا الحجة عليهم. وأقمنا عليهم شاهداً من أنفسهم!.

○ ولعلهم يتقون:

الدافع الثاني: هو «ولعلهم يتقون».

أي لعل وعظهم وتذكيرهم، يوجِد عندهم التقوى والطاعة والالتزام.

إن قيام الدعاة المصلحين بواجب النصح والبيان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد يُوجِدُ عند الناس تقوىً وعبادة، وإيماناً والتزاماً.

قد يعترض بعضهم على الدعاة المصلحين، ويُرُونَهم أن جهودهم الإصلاحية الوعظية ضائعة، لا ثمرة لها ولا نتيجة. لأن بضاعتهم مجرد كلام، والكلمة ليست نافعة ولا مثمرة، والناس لا يلتزمون من الكلام، بل هم قد شبعوا من الكلام، فعلى المصلحين توفير جهدهم، والاحتفاظ بأصواتهم وحناجرهم وكلامهم!.

إن كلامهم هذا مرفوض، واعتراضهم باطل، وفيه أخطاء ومغالطات، وقائله إما مغرض حاقد معاد للدعاة، وإما غافل عن الدعوة، جاهل بقوة الكلمة وأثرها!.

للكلمة قوة ملحوظة في عالم الأفكار والمبادئ والدعوات، حيث قامت هذه الدعوات والمبادئ على الكلمة.

لقد اعتمد الأنبياء والمرسلون على الكلمة والدعوة والتذكير والوعظ، في

دعوة أقوامهم إلى الدين. وكل منهم كان يطلب من قومه طلباً أساسياً محدَّداً ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠].

ودِيننا يقوم على الكلمة. وأول كلمة نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١].

والقرآن يطالب المسلمين بأن يبلِّغوا الكافرين القرآن، ويُسمِعوهم كـــلام الله: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦].

وما هذا إلا إدراكٌ لقوة الكلمة، وإيمان بأثرها في نفس السامع المدعو.

على أن الكلمة والوعظ لا يستمدان قيمتهما، ولا يؤديان دورهما، ولا تظهر قوتهما، إلا من خلال: الإيمان الجاد بما يقوله الداعية، ثم الالتزام العملي بما يدعو إليه، ثم تقديم كلامه للناس ممزوجاً بالقوة والصراحة والجرأة وحسن الأسلوب وصدق المعاناة. بحيث يدرك السامع أن هذا الكلام خارج من القلب، قد اقتات دم قائله، وعاش في قلبه، وملأ عليه وجوده وعقله وحياته. لأنها ليست النائحة كالثكلى!.

فإذا تم النصح والوعظ وفق هذه الأسس فإن الكلمة ستكون قوية حية نافعة مؤثرة، وستدخل قلوب السامعين، وتُحدث فيهم تأثيراً واستجابة، وصلاحاً واستقامة، والتزاماً وتقوى. ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

○ نسيان الأحكام مقدمة للعذاب:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾.

نلاحظ أن الآية رتبت العذاب على النسيان ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝١٦٥﴾.

ونأخذ من هذا الترتيب أمراً هاماً، وهو وجوب تذكر أوامر الله وأحكامه، وتذكير الأمة بها، واستمرار استحضار الواجبات والمنهيات في تصور وشعور وفكر كل فرد في الأمة. لأن هذا كفيل بأن يُبقي هؤلاء الأفراد

عند حدودهم، ملتزمين بها، مبتعدين عن مخالفتها والعدوان عليها.

كما نأخذ من هذا الترتيب أمراً هاماً آخر، وهو خطورة نسيان الواجبات والتوجيهات من قبل أفراد الأمة، إذ أن نسيانها والغفلة عنها، يوجِد عند الناس حالة من الاستخفاف بها واللامبالاة لما فيها، وهذا يقود إلى العدوان عليها ومخالفتها.

فإذا أغرق هؤلاء الأفراد في الغفلة والنسيان، نسوا الحقائق الدينية، والسنن الربانية، والأحكام الشرعية، وبذلك يخرجونها من دائرة الفكر والتصور والشعور، بعدما أخرجوها من دائرة التذكر والاهتمام والالتزام والعمل.

وإذا وصل أفراد الأمة إلى هذه الدرجة من النسيان والغفلة، فقدوا أية صلة بالله أو الدين أو الشريعة، وعندها يحق عليهم عذاب الله.

هذا كله نأخذه من ترتيب التعذيب للمعتدين على نسيانهم ما ذكّروا به ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

وقد وردت آيات أخرى تقرر هذه الحقيقة، وتشير إلى هذه السنة الربانية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥].

وقد قرر القرآن أن التذكر الحي واليقظة المستمرة سبيل للالتزام بالأحكام.

وبها الانتصار على وساوس الشيطان: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠، ٢٠١].

تذكرُ الأحكام الربانية سبيل للالتزام بها، وطريق لرفع العذاب.

ونسيان الأحكام الربانية سبيل للعدوان عليها، وطريق لوقوع العذاب.

وهناك أُناس في الأمة حريصون على أن ينسوا أوامر الله، وحريصون على أن يُنسوا الآخرين أوامر الله.

إنهم يوقعونهم في الغفلة والنسيان، ليُبعِدوا هذه الأحكام عن الذاكرة والشعور، بعدما أبعدوها عن الواقع والممارسة والمعايشة.

ولذلك يجب على الدعاة المصلحين أن يستمروا في نصح الأمة ووعظها وإرشادها وتذكيرها، لتبقى ذاكرة الأمة مستحضرة للتوجيهات والأحكام، وليبقى التفكير في الحلال والحرام والممنوع والمسموح به، حياً في شعور الأمة.

ويجب على الأمة أن تدرك خطورة النسيان للتعاليم الربانية، لأنه سبيل العذاب والدمار.

ويجب على الدعاة الحريصين. أن يعملوا على أن تبقى الأمة متذكرة للتعاليم الربانية، فيستمروا في تذكيرها ونصحها ووعظها، ليقوْدوها إلى دائرة الالتزام وبر الأمان.

○ نجاة الدعاة:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾.

لما حلّ عذاب الله بأهل القرية، أنجى الله الذين ينهون عن السوء، وهم فريق الدعاة الناصحين المصلحين.

وهذا يوحي لنا بوجوب الدعوة إلى الله، ونصح الأمة وتذكيرها. فالقيام بهذا الواجب هو وحده طريق نجاة الدعاة من العذاب عندما يحل بالعصاة.

ويصدِّق هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ

أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

عندما تعم المعاصي والمنكرات في الأمة، يجب على الدعاة أن يقوموا بواجب النصح والتذكير، والنهي عن المنكر والفساد لينجوا من عذاب الله، فهو وحده سبيل النجاة والفوز.

○ لماذا مسْخ المعتدين قردة؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

ظلم المعتدون أنفسهم، وعتوا عن ما نهوا عنه، وتمردوا على دين الله، ورفضوا الالتزام بشرعه، وطغوا وبغوا، ولجوا في طغيانهم، واستمروا في عدوانهم.

وهم بذلك قد استحقوا عذاب الله، واستقدموا نقمته، واستعجلوا عقوبته.

لقد حقت عليهم سنة الله، ووقع بهم عذابه، وكان عذاب الله لأولئك المعتدين شديداً أليماً بئيساً ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. كما كان عذاب الله لهم فريداً متميزاً، حيث مسخهم قردة خاسئين، وحوّلهم من صورتهم البشرية إلى صورة حيوانية حقيقية، فصاروا قردة حقيقيين.

إن الله عادل عندما مسخهم قردة أذلاء صاغرين. لأنهم اعتدوا على أحكام الله. وتمردوا على أوامره، ومن العدالة الربانية أن يجزي المحسن بإحسانه، وأن يجازي المسيء بإساءته، ويعاقب المعتدي بعدوانه.

وإن الله حكيم بمسخهم قردة!.

ولعل الحكمة من هذا المسخ، هي: إن الله يريد لهم أن يكونوا بشراً آدميين، وأن يعيشوا أناساً حقيقيين، وأن يمارسوا إنسانيتهم على أحسن ما تكون. ولكنهم عندما تمردوا على أحكام الله، رفضوا هذا التكريم الرباني، وبذلك تنازلوا عن إنسانيتهم وكرامتهم، فصاروا إلى الصورة الحيوانية المعنوية،

فمسخهم الله قردة، وحوّلهم إلى حيوانات حقيقية. وهذا من باب التناسق والتنسيق بين الصورة المعنوية والصورة الحسية!.

إن الله يريد للبشر أن يكونوا بشراً مكرَّمين، وأن يعيشوا إنسانيتهم وآدميتهم، وأن يتميزوا على الحيوانات والبهائم. فكلفهم بالتكاليف الشرعية، وطلب منهم الالتزام بأمانة التكليف ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إن الشريعة الربانية مظهر من مظاهر تكريم الله للبشرية، وارتفاع لها بإنسانيتها، وإن الالتزام بالشريعة الربانية مظهر من مظاهر تحقيق المعاني الإنسانية الكريمة عند الإنسان، وإعلاء للقيم الإنسانية فيه.

أما الاعتداء على شريعة الله، والتمرد على أحكامه، فإنه طمس للمعاني الإنسانية عنده وقضاء عليها. وفي هذا يتراجع الإنسان إلى مرحلة دنيا لا تليق به، وينحط عن المنزلة السامية التي طالبه الله أن يرتفع إليها، إلى المنزلة الحيوانية الهابطة التي لا تليق به.

فإذا ما وجدنا إنساناً معتدياً ظالماً فاسقاً، فإنه متنازل عن المعاني الإنسانية إلى المعاني الحيوانية. ويكون هذا الإنسان حيواني النفس والشعور والأخلاق، وإن كان بشري الملامح والسمات والمظاهر!.

والمعوَّل عليه عند الإنسان ليس المظاهر والأشكال والصور، وإنما القيم والمعاني والأخلاق، والأعمال التي تنبثق من التصورات والأفكار والعقائد.

هذا ما قرره رسول الله ﷺ. حيث روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب رقم ٤٥، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم ١٠، حديث رقم ٢٥٦٤.

لقد كان المعتدون المتمردون من أصحاب القرية، قردة من الناحية المعنوية والشعورية، كانوا قردة بنفوسهم وتصوراتهم وأخلاقهم، وليس لهم من البشرية إلا الملامح الخارجية في الأجساد والحواس والأصوات!.

فجاء مسخ الله لهم قردة تنسيقاً بين الحقيقة والصورة! ـ والله أعلم ـ.

○ كان المسخ حقيقياً:

ظاهر القرآن على أن المعتدين في السبت، مسخهم الله قردة، وأن المسخ كان مسخاً حقيقياً ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

والأصل أن نأخذ الآية على ظاهرها، وأن لا نعْدل عن الظاهر إلا لضرورة ملجئة.

لا يوجد ما يمنع من المسخ الحقيقي، إذ لا يستحيل عقلاً أن يحوّل الله إنساناً من صورته البشرية إلى صورة حيوانية، فيكون قرداً حقيقياً، لأن الله يفعل ما شاء، وهو على كل شيء قدير، فالذي خلق الإنسان على هذه الصورة الإنسانية قادر على أن ينقله عنها إلى صورة حيوانية قردية!.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن مسخهم كان مسخاً معنوياً وليس حقيقياً، حيث كانوا قردة بأرواحهم وقلوبهم وعقولهم فقط!.

قال مجاهد رحمه الله: «مُسِخَتْ قلوبهم، ولم يمسخوا قردة: إنما هو مثل ضربه الله لهم، مثلما ضرب مثل الحمار يحمل أسفاراً»[1].

وقال سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥]. . . «وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات، تؤثر في السحنة، وتُلقي ظلها العميق»[2].

---

(١) تفسير الطبري، تحقيق محمود شاكر ٢: ١٧٢.

(٢) في ظلال القرآن ١: ٧٧.

ولكن سيد قطب تراجع عن هذا الرأي عندما فسر قصة أصحاب السبت في سورة الأعراف، فقال في ذلك الموضع عن مسخهم: «كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية. وقال: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فكانوا قردة مهينين، كما جرى القول الذي لا راد له، ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه»[1].

ويعجبني تعقيب الإمام الطبري على رأي مجاهد الذي أوردناه، حث قال مستدركاً عليه: «القول الذي ذكره مجاهد، قول لظاهر ما دل عليه القرآن مخالف، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. ومن أنكر شيئاً من ذلك، وأقر بآخر منه، سُئل البرهان على قوله، وعورض فيما أنكر من ذلك بما أقر به، ثم يُسأل الفرق من أثر صحيح أو خبر مستفيض.

هذا مع خلاف قول مجاهد قولَ جميع الحجة التي لا يجوز عيها الخطأ والكذب فيما نقلَته، مجمعة عليه. وكفى دليلاً على فساد قول، إجماعُها على تخطئته»[2].

ولعل هذا الموقف من مجاهد، واستدراك الطبري عليه ﷺ يدعونا إلى أن نقف عند ظاهر النص القرآني لا نتعداه، وأن نفهم من القرآن ما يقرره لنا.

ففي موضوع المسخ، قد يقف بعضهم ليتساءل: كيف مُسِخوا قردة؟ ويحاول أن يقحم عقله في هذه الأخبار الغيبية، التي لا يملك العقل أداة للخوض فيها، فيذهب بعضهم إلى الإسرائيليات ليتعرف منها على تفصيلات ذلك المسخ.

وخروجاً من هذه المحاذير والأخطاء، ولعدم ترتب فائدة علمية على معرفة تلك التفصيلات غير الثاتبة. لا نقف أمامها، ونردد مع سيد قطب قوله:

---

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٨٥.

(٢) تفسير الطبري ٢: ١٧٣.

«أمّا كيف صاروا قردة؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عنه جنسه؟ أم تناسلوا وهم قردة؟... إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد فيها روايات التفسير. فهذا كله مسكوت عنه في القرآن الكريم. وليس وراءه عن رسول الله ﷺ شيء. فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه»[1].

○ السكوت عن الساكتين:

نص القرآن على نجاة الدعاة المصلحين من أهل القرية، تكريماً لهم.

كما نص على تعذيب المعتدين من أهل القرية، عقوبة لهم.

أما الفريق الثالث ـ أو الأمة الثالثة ـ من أهل القرية، فقد سكت القرآن عن مصيرهم، تهويناً لهم!.

وقد اختلف المفسرون في بيان مصيرهم:

فذهب بعضهم إلى أنهم عُذبوا مع المعذبين، ومسخوا قردة خاسئين، بسبب سكوتهم عن إنكار المنكر.

وذهب بعضهم إلى أنهم كانوا مع الناجين.

ولا يعنينا الخلاف حول مصيرهم، ولا نملك ترجيح القول فيما جرى لهم، فلا ندري هل عُذبوا مع المعذبين؟ أو نجوا مع الناجين؟ ومن الاحترام لعقولنا أن لا نخوض فيما لا علم لنا به. ومن الاحترام للعلم أن لا نقول فيه فيما لا علم لنا به، ومن الاحترام لكلام الله أن لا نفسره بما لا علم لنا به!.

وبدلاً من ذلك، نقف أمام سكوت القرآن عن الساكتين، لنحاول أن نستخرج منه بعض الإيحاءات واللفتات.

قال سيد قطب: «فأما الفرقة الثالثة ـ أو الأمة الثالثة ـ فقد سكت عنها النص. ربما تهويناً لشأنها ـ وإن كانت لم تؤخَذ بالعذاب ـ إذ أنها قعدت عن

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٨٥.

الإنكار الإيجابي، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي. فاستحقت الإهمال، وإن لم تستحق العذاب»[1].

نأخذ من سكوت القرآن عن الساكتين تهويناً لهم: إن الساكت عن الحق، القاعد عن الإنكار، الجبان عن النصح والتذكير، الخائف من المواجهة، يستحق التهوين والإهمال والنسيان!.

إن الذي يستحق الذكر والمدح والثناء، والذي يخلَّد في التاريخ، والذي يبقى في سجل الوجود، وذاكرة الأحياء، إنما هو ذلك الرجل الشجاع الجريء المقدام.

ولعل القرآن يدل الذين يريدون أن يُعرفوا ويُذكَّروا ويَخلُدوا، على الطريق الموصِلة لهذا. إنها طريقة الدعوة والنصح والتذكير، طريق المجاهدة والجهاد!.

أُناس كثيرون، يعيش الرجل منهم على هامش الحياة، نكرةً مهملاً منسياً لا يسمع به أحد. ويموت نكرة مهملاً منسياً لا يشعر به أحد. ينساه الناس في حياته، قبل أن ينسوه بعد موته، لقد أغفل التاريخ ذكر هؤلاء المنسيين المجهولين، لأن التاريخ لا يذكر التافهين الفارغين!.

وهناك رجال يعيشون عظماء، ويموتون عظماء، يكونون ملء سمع الناس وبصرهم، يملأون وجودهم وحياتهم وهم يعيشون بينهم، ويكونون في ذاكرتهم وعقولهم وقلوبهم وتاريخهم بعد موتهم!.

إنهم الرجال المؤمنون الثابتون المجاهدون، الذين خلدهم التاريخ، لأن التاريخ لا يعرف إلا العاملين، ولا يذكر إلا المجاهدين!.

هذا هو طريق الذكر والخلود، فأين السائرون فيه؟.

○ أهم دروس القصة:

١ ـ إن تلك القرية مثال لأية قرية أو مدينة، في موقف أهلها من

---

(١) في ظلال القرآن ٣: ١٣٨٥.

أوامر الله، حيث ينقسمون أمامها، فيعتدي عليها فريق. ويقف في وجوههم فريق. ويسكت عن الإنكار والنصح فريق.

٢ ـ إن الله يبتلي الناس ويمتحنهم بالتكليف، فمنهم من يجاهد نفسه فيلتزم فينجح، ومنهم من يتبع هواه فيعتدي فيسقط في الامتحان.

٣ ـ الفرق بين نفسية اليهود الذين لم يلتزموا بالتوجيهات الربانية، وبين الصحابة والمسلمين الذين جاهدوا أنفسهم واستعلوا على شهواتهم.

٤ ـ الأسماك والحيتان التي توجهت لمراودة وإغراء أهل القرية، كانت جنوداً لله، أمرها الله أن تقترب منهم يوم السبت، وأن تبتعد في باقي الأيام. فالتزمت ونفذت. ولا يعلم جنود ربك إلا هو، سبحانه.

٥ ـ انقسام أهل القرية إلى ثلاث أمم: معتدون. ودعاة. وساكتون. يدل على المفهوم الصحيح للأمة ـ في المفهوم القرآني ـ باعتبارها: هي المجموعة من الناس التي يجمعها دين واحد والتزام واحد ونظام واحد.

٦ ـ إنكار المصلحين للمنكرات، هو قيام بواجب شرعي أوجبه الله عليهم، وليس تدخلاً في خصوصيات الآخرين، أو اعتداء على حرياتهم واختياراتهم.

٧ ـ لا اعتبار للحريات الشخصية والأمزجة الفردية، إذا تعارضت مع مصلحة المجموع، فحرية الفرد تنتهي من حيث تبدأ مصلحة المجموع، فلا يحق لأي فرد أن يعمل شيئاً يضر بالمجموع ويعرضهم للعذاب.

٨ ـ ارتكاب المنكر، وفعل المحظور، نذير شؤم، وطريق لغضب الله، واستقدام لعذابه وسخطه!.

٩ ـ ينطلق الدعاة في الدعوة والوعظ والنصح من باعثَيْن أساسييْن: باعث الإعذار أمام الله من خلال القيام بالواجب. وباعث الرغبة في نصح الآخرين لعلهم يتقون.

١٠ ـ إن المدعوين قد يتعظون ويتذكرون ويتقون، وذلك إذا سلك الدعاة الناصحون معهم الطريق القرآني في النصح والوعظ والتذكير.

١١ ـ الداعية مطالب بالدعوة والنصح، فإن لم يفعل عرّض نفسه للمسؤولية والعذاب. وهو ليس مطالباً بهداية الآخرين وتحقيق الاستجابة والانقياد عندهم. لأن هذا بيد الله.

١٢ ـ إن الكلمة لها قوة وقيمة وأثر، فلا يجوز أن نزهد فيها أو نتركها، فما قامت الدعوات إلا على الكلمات. المهم أن تخرج الكلمة من القلب لتصل إلى القلب.

١٣ ـ قيام الدعاة بإنكار المنكر دليل على قوة الإيمان في قلوبهم، ووجود الغيرة على أحكام الله عندهم، وتوفر الحرص على الآخرين والرغبة في تقديم الخير لهم، وبمقدار قوة هذه المعاني عندهم، تتضاعف جهودهم في الدعوة والتذكير والنصح والإنكار.

١٤ ـ هناك أفراد في الأمة يكتفون بالإنكار السلبي، ويؤْثِرون السلبية والانعزال. والهروب من ميدان النصح والدعوة والتذكير.

١٥ ـ السلبيون لا يكتفون بالسكوت عن إنكار المنكر، بل يُضيفون إليه جريمة أخرى، حيث يتوجهون إلى المؤمنين المصلحين، باللوم والتعنيف لقيامهم بالدعوة والتبليغ.

١٦ ـ عند انتشار المعاصي بين الناس، يجب على الدعاة استمرار النصح والتذكير، حتى لا ينسى الناس الحقائق الشرعية، فيتحول الحلال إلى حرام والحرام إلى حلال.

١٧ ـ إن نسيان الأحكام الشرعية مصيبة عظمى، قد تفوق مخالفتها، وإن هذا النسيان مقدمة لوقوع العذاب.

١٨ ـ عند وقوع العذاب لا سبيل للنجاة إلا لمن قام بواجبه في الدعوة إلى الله، فهي وحدها سفينة النجاة. وهذا من سنة الله أن يجازي المحسن بإحسانه.

١٩ ـ المعاصي تنتج المصائب، وارتكابها نذير للعذاب واستقدام للدمار والهلاك.

٢٠ ـ كان مسخ المعتدين من أهل القرية قردة خاسئين، وكان المسخ حقيقياً، ولم يعيشوا بعدها ولم يتناسلوا، وهذه آية يقدمها الله للعصاة ليتعظوا.

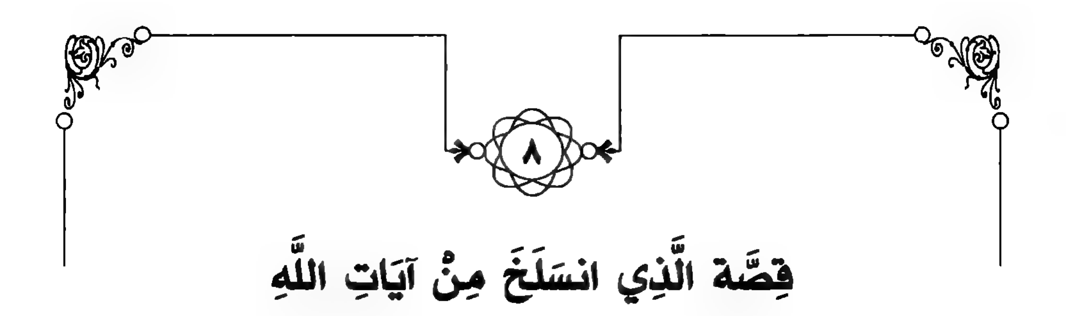
٢١ ـ وجوب الوقوف عند ظاهر النص القرآني، وعدم مخالفته أو تحريفه، كما في مسخ المعتدين.

٢٢ ـ لا تتحقق إنسانية الإنسان إلا بطاعته لله، وهذا أساس تكريمه عند الله. فإذا عصى وبغى وكفر، فقد انحطّ عن منزلته، وتنازل عن إنسانيته إلى حيوانية ذميمة.

٢٣ ـ الساكتون عن الحق يستحقون الإهمال والإغفال والنسيان، لهوانهم على الله وعلى الناس.

٢٤ ـ طريق الذكر والشهرة والخلود هو العمل والجهد والمجاهدة والجهاد. والناس لا يتذكرون إلا المخلصين العاملين. والتاريخ لا يذكر إلا هؤلاء. وشتان بين من يعيش نكرة ويموت نكرة، وبين من يكون ملء السمع والبصر والذاكرة في حياته وبعد مماته.





٨

قِصَّة الَّذِي انسَلَخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

○ القصّة في السياق القرآني:

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧].

○ تفصيلات القصّة إسرائيليات:

أورد المفسرون بالمأثور تفصيلاتٍ لقصّة الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فأَتْبعه الشيطان. حدَّدوا في تلك التفصيلات اسمَه وعملَه والآياتِ التي آتاها الله له، وحربَه لبني إسرائيل، وتفصيلاتِ تلك الحرب.

ونورد فيما يلي رواية عن تلك التفصيلات لنحذِّر منها:

روى الطبري في تفسيره عن سالم أبي النضر، أنه حدّث: أنّ موسى ﷺ لمّا نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام ـ وكان «بَلْعَمْ» ببالِعَة: قرية من قرى البلقاء، فلما نزل موسى ببني إسرائيل ذلك المنزل ـ أتى قومُ بلعم إلى بلعم، فقالوا له: يا بلعم: إن هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا، ويقتلنا، ويحلها بني إسرائيل. وإنّا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم.

فقال: ويلكم. نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو

عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم! قالوا: ما لنا من منزل. فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فافتَتَن.

فركب حِمارة له، متوجهاً إلى الجبل الذي يُطلعه على عسكر بني إسرائيل، ـ وهو جبل «حُسْبان» ـ فلما سار عليها غير كثير، ربضتْ به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أتعبها قامت فركبها. فلم تسِرْ كثيراً حتى ربضتْ به، فضربها. فأذن الله لها فكلمتْه حجة عليه.

فقالت له: ويحك يا بلعم، أين تذهب؟ ألا ترى الملائكة أمامي تردُّني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟.

فلم يزل يضربها، فخلى الله سبيلَها، فانطلقت به حتى أشرفت به على رأس جبل «حسبان» على عسكر موسى وبني إسرائيل.

فجعل يدعو عليهم، فلا يدعو عليهم بشيء إلّا صُرِف به لسانُه إلى قومه، ولا دعا لقومه بشيء إلّا صُرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا. قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلَب اللّهُ عليه.

واندلع لسانه، فوقع على صدره.

فقال لهم: قد ذهبتْ الآن منّي الدنيا والآخرة، فلم يبقَ إلّا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال.

جمّلوا النساء، وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها. فإنهم إن زنى منهم واحد، كفيتُموهم. ففعلوا.

فلما دخل النساء العسكر، دخلت امرأة من الكنعانيين، اسمها «كسبى ابنة صور» رأس أمته، برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو «زمرى بن شلوم» رأس سبط شمعون. فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها، حتى وقف بها على موسى عليه السلام، فقال له: إني أظنك ستقول: هذه حرام عليك؟ فقال له موسى: أجل. هي حرام عليك، لا تقربها!.

قال: فو الله لا نطيعك في هذا.

فدخل بها قبته، فوقع عليها.

وأرسل الله الطاعون في بني إسرائيل. وكان فنحاص بن العيزار صاحب أمر موسى، وكان رجلاً قد أُعطي بسطة في الخلْق، وقوة في البطش، وكان غائباً حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع. فجاء والطاعون يَحوس في بني إسرائيل، فأُخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليه القبة، وهما متضاجعان. فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعُهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحييه، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك.

ورُفع الطاعون، وحُسِبَ مَنْ هلك من بني إسرائيل في الطاعون في تلك الساعة، فوجدوهم سبعين ألفاً.

وفي بلعم بن باعوراء أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا . . .﴾[1].

○ رفْض تلك الإسرائيليات:

هذه التفصيلات لم تُنقل بسند صحيح عن رسول الله ﷺ، ولذلك لم يقلها عليه الصلاة والسلام.

وبما أن قصة ذلك الرجل من قصص السابقين، وبما أن تلك القصص من عالم الغيب، وذلك لا يعلمه إلا الله، فلا يجوز لأحد أن يخوض في تفصيلات تلك القصص، ولا أن يأخذ فيها عن أحد من البشر، ونحن ملزَمون أن نبقى مع ما ورد عن تلك القصص في آيات القرآن، والأحاديث الصحيحة للرسول عليه الصلاة والسلام.

لهذا كله نرفض تلك التفصيلات عن ذلك الرجل، ونعتبرها من الأساطير

---

(١) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ١٣: ٢٦٤ ـ ٢٦٧.

والإِسرائيليات. وهذه الأساطير والإِسرائيليات لا يجوز أن نفسِّر بها كلامَ الله الصادقَ المعجزَ ـ سبحانه ـ.

لقد أوردْنا تلك التفصيلات الإِسرائيلية ـ على منهجنا في النظر في قصص السابقين في القرآن ـ لنحذِّر منها، وننبِّه إلى وضْعها، وندعو إلى عدم روايتها أو ذكرها إلّا مع النص على رفضها وتركها، ولا نجيز لأحد أن يأخذها عنا معتمِداً لها، قابلاً بها، ناشِراً لها بين الآخرين.

○ سيد قطب وتلك التفصيلات:

أورد الأستاذ الإِمام سيد قطب رأياً لطيفاً في رفض تلك التفصيلات الإِسرائيلية.

قال: «وبعد: فهل هو نبأ يُتلى؟. أم أنه مثل يضرب في صورة النبأ لأنه يقع كثيراً. فهو من هذا الجانب خبر يُروى؟.

تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين ـ قبل دخول بني إسرائيل ـ وتَروي بالتفصيل قصة انحرافه وانهياره، على نحو لا يأمن الذي تمرَّسَ بالإِسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير، أن يكون واحدة منها، ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التي ورد فيها.

ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر. فقد رُوي أن الرجل من بني إسرائيل «بلعام بن باعوراء». ورُوي أنه كان من أهل فلسطين الجبابرة. ورُوي أنه كان من العرب «أمية بن أبي الصلت». ورُوي أنه كان من المعاصرين لبعثة الرسول ﷺ «أبو عامر الفاسق». ورُوي أنه كان معاصراً لموسى عليه السلام. ورُوي أنه كان بعده، على عهد يوشع بن نون، الذي حارب الجبارين ببني إسرائيل بعد تيه الأربعين سنة، على إثر رفض بني إسرائيل الدخول... كذلك روي في تفسير الآيات التي أُعطيها، أنه كان «اسم الله الأعظم» الذي يدعو به فيُجاب. كما روي أنه كتاب مُنزل وأنه كان نبياً. ثم اختلفتْ تفصيلات النبأ بعد ذلك اختلافات شتى.

لذلك رأينا ـ على منهجنا في ظلال القرآن ـ ألا ندخل في شيء من هذا

كله. بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء. ولم يَرد من المرفوع إلى رسول الله ﷺ عنه شيء. وأن نأخذ من النبأ ما وراءه»[1].

○ مبهمات في قصة ذلك الرجل:

في قصة ذلك الرجل الذي انسلخ من آيات الله، مبهماتٌ لم يبينْها القرآن ولا الحديث الصحيح، فلا سبيل إلى بيانها.

من هذه المبهمات التي يجب الوقوف أمامها بدون محاولة للبيان:

١ ـ اسم ذلك الرجل الذي انسلخ من آيات الله، وتخلّى عن العلم، واتبع الشيطان. وقد اختلَف السابقون في تحديد اسمه، فمنهم من قال: إنه «بلعم بن باعور» ـ أو بلعام بن باعوراء ـ ومنهم من قال: إنه «أمية بن أبي الصلت» ومنهم من قال: إنه «أبو عامر الفاسق»، ومنهم من قال غير ذلك.

ولا نرى هذا الاختلاف والخلاف في اسمه، فلا فائدة عملية أو علمية تتوقف على معرفة اسمه، ولو كان في تحديد اسمه عِلماً أو نفعاً أو فائدةً لحدده الله وذكره في القرآن.

ويعجبني قول الإمام الطبري معقّباً على الخلاف في اسمه: «إن الله أمر نبيه ﷺ، أن يتلو على قومه خبر رجل، كان آتاه حججه وأدلته، وهي الآيات.

وجائز أن يكون الذي أتاه الله ذلك «بلعم» وجائز أن يكون «أمية»[2].

٢ ـ الزمن الذي كان يعيش فيه ذلك الرجل، فمن الجائز أن يكون من بني إسرائيل، ومن الجائز أن يكون من الجبابرة أو الكنعانيين زمن موسى عليه السلام، أو زمن يوشع بن نون من بعد موسى، وأن يكون زمن رسول الله ﷺ وهو في مكة، أو وهو في المدينة، فلا يمكن تحديد ذلك الزمن الذي عاش فيه الرجل، أو القوم الذين كان يعيش معهم.

٣ ـ الآيات التي آتاه الله إيّاها، هل هي اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣: ٣٥٩.

به أجاب، وإذا سُئل به أعطى؟ أم هي كتاب منزل عليه من الله؟ أم هي آيات عقلية معنوية؟.

٤ ـ تفصيلاتُ انسلاخه من آيات الله، وكيفيةُ ذلك الانسلاخ، والمكان الذي تم في الانسلاخ.

٥ ـ كيفية اتباعه للشيطان، أو اتباع الشيطان له.

٦ ـ كيفية لهاثه المستمر كالكلب، وسبب ذلك اللهاث.

○ من روائع التصوير الفني في القصة:

عُرضت قصة الذي انسلخ من آيات الله، بطريقة «التصوير الفني» ـ تلك الطريقة المعجزة، المفضَّلة في التعبير القرآني، والتي استُخدمت في عرض ثلاثة أرباع موضوعات القرآن تقريباً ـ.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب ـ رائد نظرية التصوير في القرآن ـ عن روائع التصوير في القصة: «إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كلَّ الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات... إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع... ولكن: ها هوذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنَّما الآيات أديمٌ له، متلبِّس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخَ الحي من أديمه اللاصق بكيانه... أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبُّس الجلد بالكيان؟... ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى، ويهبط من الأفق المشرق ليلتصق بالطين المعتِم فيصبح غرضاً للشيطان، لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه... ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد... إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقاً بالأرض، ملوَّثاً بالطين. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب، يلهث إن طورد، ويلهث إن لم يطارَد... كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى، والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر... فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها، مشهد اللهاث

الذي لا ينقطع... سمع التعليق المرهوب الموحي، على المشهد كله:

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[١].

وننتقل من البيان العام الموجز للتصوير الفني في القصة، كما قدمه سيد قطب، إلى إشارات لبعض الصور الجزئية في المشهد المصوَّر الحيّ:

١ ـ قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ المعنى الذهني النظري أنه تخلى عن آيات الله، وترك الحق الذي فيها.

لكن الآية عَرضت هذا المعنى الذهني في صورة موحية: وكأن الآيات التي أعطيت له، التصقت به التصاقاً مباشراً، فأصبحت جلداً له. وهو عندما أراد أن يتخلى عن آيات الله، فكأنه ينسلخ من جلده. وتخيَّلْ أنت مظهر هذا البائس، وهو يقوم بمحاولات شاقة لينسلخ من جلده، وتخيَّلْ ذلك الانسلاخ الجزئي البطيء، تخيلْه وهو ينسلخ من جلد رأسه، وجلد يديه، وجلد صدره، وجلد رجليه.

وهل يمكن أن ينسلخ الإنسان من جلده؟ أو قل: وهل يمكن أن يتم سلخ جلد الإنسان؟ إذ من المعروف أن جلد الإنسان رقيق رهيف، إن عملية السلخ ـ لو تمَّت ـ ستحمل ما تحمل من العنف والشدة والقسوة والجهد والمعاناة.

فكيف إذا كان الذي سيقوم بالسلخ هو الإنسان نفسه، صاحب الجلد، وماذا يسلخ؟ إنه يسلخ جلده هو نفسه!.

هذه الصورة العجيبة، بثَّتْها كلمة ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

٢ ـ قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ حيث نتصور ذلك المخلوق البائس في صورة جديدة مُزْرية: نتصورُه وقد انسلخ من جلده، وخرج إلى الطريق يسير، يسير بدون جلد! ويا ليته يسير سيراً طبيعياً، إذن لهان الأمر، إنه يسير وخلفَه

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٦ ـ ١٣٩٧.

الشيطان، يحثه على السير بل الجري، وكلما أَعْيَىٰ وحاول التوقف، يلهبه الشيطان من خلفه بالسوط، يوقعه على جسمه، جسمه المنزوعِ الجلد، وما آلم السوط على الجلد، فكيف إذا وقع على جسم مسلوخ؟.

إن الجديد في هذه الصورة أن الشيطان هو الذي يتبع خطوات ذلك الرجل، وليس الرجل هو الذي يتبع خطواته. بينما ذكر القرآن صوراً أخرى، الناس هم الذين يتبعون الشيطان، ويقتفون خطواته.

٣ ـ ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي التصق بالأرض، وتلطخ بما عليها من أوحال وطين وقاذورات. وكان بمقدوره أن يرتفع بآيات الله، وأن يحلِّق في عالم الرفعة والعزة، والصدق والالتزام، والطهر والنقاء، لكنه آثر الهبوط والسفل والسقوط والإخلاد إلى الأرض، والالتصاق بالطين. وانظر المقابلة بين الصورتين: الارتفاع في السماء والإخلاد إلى الأرض، في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فالذي يأبى التحليق والارتفاع، فلن يكون إلّا ملتصقاً بالأرض هابطاً إلى أسفل، إما إرتفاعٌ وإما هبوط. إما تحليق وإما انحطاط.

٤ ـ قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ حيث نرى هذا الرجل يتَّبع شيئاً أمامه، إنه «هواه» والهوى شيء معنوي، ولكنه في هذا المشهد المصوَّر المتحرك يتحول إلى شيء مجسَّم، بل يتحول إلى شخص حي يتحرك ويسير، وهذا الرجل المسلوخ من جلده، يسير خلفه ويتبعه، فحيثما سار الهوى، سار المسلوخ وراءه. ولا ننسى الشيطان الذي يسير خلفه يحثه على السير، ويلهب ظهره بالسياط.

بهذا المشهد المتحرك نرى الرجل المنسلخ من جلده ـ من آيات الله ـ تابعاً لهواه، متبوعاً من قبل الشيطان. ونلاحظ الحصار المحكَم عليه حتى لا يفلت، فأمامه الهوى، وخلفه الشيطان.

٥ ـ قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾. وهذه هي الغَاية في الإزراءِ على الرجل وتشويهِ منظره، وتقبيح فعله.

إنه في هذه الصورة مثْل الكلب، وإن مثَله مثَلُ الكلب، وإنه في موقفه الجديد يُشْبه الكلب.

لكن: بماذا يشبه الكلب؟ وما هو وجه الشبه بينهما؟

إنه في اللهاث. اللهاث الدائم الذي لا ينقطع.

الكلب يلهث دائماً: إن تحمل عليه وتطرده يلهث، وإن تتركه يلهث. إن ركض يلهث، وإن سار يلهث، وإن جلس يلهث.

وذلك الرجل بعدما تخلى عن آيات الله وانسلخ منها، فهو يلهث ويلهث ويلهث، هو دائم اللهاث.

يلهث لأنه يتبع هواه، ويلهث لأنه يخلد إلى الأرض، ويلهث لأن الشيطان يحثه على السير، ويلهث لأنه ينسلخ من جلده.

○ مع سيد قطب في البعد الواقعي لتلك القصة:

القصص القرآني قصصٌ واقعي، بمعنى أن أحداثه حصلت في عالم الواقع، في فترة ماضية من الزمان.

كما أن القصص القرآني له «بُعْدٌ» واقعي، بمعنى أنه ينطبق على أي واقع يعيشه الناس، وأن صفات وسمات وملامح أشخاصه وأبطاله تنطبق على أناس وأشخاص، يوجدون في أي واقع يعيشه بنو الإنسان، فكأن الآيات التي تتحدث عن السابقين، تتحدث عن أناس وأشخاص يراهم الإنسان منا أمامه، ويلحظ انطباق الآيات عليهم.

هذه صفة عامة للقصص القرآني، وما يقدِّمه من نماذج إنسانية.

أما بالنسبة لموضوعنا، فإن ما قدمتْه الآيات من تصوير وتمثيل للذي انسلخ من آيات الله، وما عرضتْه من صفاته وسماته وملامحه، وما بينتْه من حركاته وأعماله، له «بُعْد» واقعي، إذ نراه ينطبق على أشخاص في واقعنا، نراهم من حولنا، ويعيشون بيننا. إنه ينطبق على كل من تخلَّى عن العلم، وانسلخ من الدين، ووظَّف علمه الشرعي لخدمة الطواغيت والظالمين، بدل أن يوظفه لإسعاد الآخرين، ونشر الدين.

وخيرُ مَن بيَّن «البعدَ الواقعي» لتلك القصة، الأستاذ الإمام الشهيد سيد

قطب، الذي ابتُلي بأُناس من حملة «العلم الشرعي» الذي استخدموه في التزلف للظالمين والطواغيت.

قال: «إنه يمثل حال الذين يُكذِّبون بآيات الله، بعد أن تُبَيَّنَ لهم، فيَعرفوها ثم لا يستقيموا عليها.

وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر، ما أكثر الذين يُعْطَوْن علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به... هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم ـ في وهمهم ـ عرَض الحياة الدنيا.

وكم من عالم دين رأيناه، يعلم حقيقةَ دين الله ثم يزيغ عنها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبِّت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً!.

لقد رأينا من هؤلاء من يَعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله ـ سبحانه ـ من ادَّعاه فقد ادّعى الألوهية، ومن ادّعى الألوهية فقد كفر. ومن أقرَّ له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضاً!.

ومع ذلك... مع علمه بهذه الحقيقة التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدَّعون حق التشريع، ويدَّعون الألوهية بادعاء هذا الحق... ممن حكم عليهم بالكفر! ويسميهم «المسلمين»! ويسمي ما يزاولونه إسلاماً لا إسلام بعده!.

ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً، ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه.

فماذا يكون هذا إلّا أن يكون مصداقاً لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟ وماذا يكون هذا إلَّا أن يكون المسْخ الذي يحكيه سبحانه عن صاحب النبأ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾. ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته. ولكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ، لأن ذلك الذي علِم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ولم يتبع الآيات.

إنه مَثلٌ لكل من آتاه الله من علم الله، فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإِيمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان، ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان!.

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟

إنه ـ في حسِّنا كما توحيه إيقاعاتُ النبأ وتصويرُ مشاهده في القرآن ـ ذلك اللهاثُ وراء أعراض هذه الحياة الدنيا، التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها. ذلك اللهاث القلِق الذي لا يطمئن أبداً. والذي لا يتركه صاحبه، سواء أوعظْتَه أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبداً!.

والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة. حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم، إلَّا وهذا مَثَله. فيما عدا الندرة النادرة ممَّنْ عصم الله، ممَّن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلهم الشيطان ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان! فهو مَثَل لا ينقطع وروده ووجوده، وما هو بمحصور في قصةٍ وقعت، في جيل من الزمان!.

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها. ثم ليبقى مِن بعدِهم يُتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو، فإنهم لا يظلمون إلَّا أنفسهم بهذه النهاية النكدة.

ولقد رأينا من هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ في زماننا هذا مَنْ كان كأنما يحرص على ظلم نفسه، أو كمن يعضُّ بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم، يخشى أن ينازعَه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يني يقدِّم كل صباح

ما يثبِّت به مكانه هذا في جهنم! وما يني يلهث وراء هذا المطمع لهاثاً لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا.

اللهم اعصمنا، وثبِّت أقدامنا، وأفرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين»[1].

ونعقِّب على الدعاء الحار الذي ختم الإمام سيد قطب به بيانه، بأن الله قد استجاب له، فَثَبَت على دين الله ودعوته، رغم ما لاقى من محن وإغراء، حتى لقي الله شهيداً.

○ الإيمان وجلد الإنسان:

نقف وقفة سريعة أمام الحكمة من تشبيه آيات الله بجلد الإنسان، وتصوير ذلك الرجل الذي انسلخ منها كمن ينسلخ من جلده. نقف لنشير إلى «الصِّدْق الواقعي» لتلك الصورة وذلك التشبيه.

إن جلد الإنسان ملتصقٌ به، ملازم له، ساترٌ لجسمه، واقٍ له من الآفات والأخطار، كما أن الإنسان بجلده يكتسب جمالاً وبهاءً.

وهكذا الإيمان بالنسبة للإنسان، وهكذا الآيات تُضْفي على الإنسان.

إن الأصل أن تكون آياتُ الله وما فيها من إيمان وصدقٍ والتزام، ملتصقةً بالإنسان التصاقَ جلده به، ملازمةً له ملازمةَ جلده له، فلا يُتصور أن يتخلى المؤمن عنها لحظة من ليل أو نهار، لأنه لا يُتصور تخليه عن جلده.

إن الذين يجعلون من الإيمان «بَدْلَة» تُلبس في المناسبات الإسلامية، والمجالس الدينية، لا يفهمون حقيقة الإيمان، لا يلتزمون به حق الالتزام. ليس الإيمان «موضةً» لوقت من الأوقات. ولا «زيًّا» لساعة من الساعات. ولا «ساعة» يعيشها الإنسان من يومه دون باقي الساعات. إن الإيمان «حالةٌ» دائمة تلازم المؤمن في كل وقت وزمان ومكان.

وبما أن الجلد ساتر للجسم، ومضْفٍ عليه زينةً وجمالاً وحسْناً، فكذلك

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٧ ـ ١٣٩٩.

الإيمان، فهو الذي يزيِّن صاحبه، ويمنحه ما يمنحه من حسن وجمال، وصدق الله القائل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧].

الإِنسان بالإِيمان حَسَنٌ جَمِيلٌ، وبدون الإِيمان قبيح شائه كريه، بدون الإِيمان تظهر مفاسده وقبائحه ورذائله ومباذله وانحرافاته. وما أكثرها عنده، إنه لا يسترها إلّا الإِيمان، زينة الله للمؤمن.

○ أثر التخلي عن الحق واتباع الهوى:

تشير القصة إلى أثر الانسلاخ من آيات الله والتخلي عن الحق على الإِنسان. وذلك في هذه العبارات:

١ ـ فأَتْبعه الشيطان.

٢ ـ فكان من الغاوين.

٣ ـ ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض.

٤ ـ واتَّبع هواه.

٥ ـ فمثله كمثل الكلب.

٦ ـ إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث.

إنها ستة آثار خطيرة للتخلي عن الحق والانسلاخ من آيات الله، كل واحد منها يعتبر خطراً عظيماً، وخسارةً بالغةً، فكيف باجتماعها كلها على صاحبها؟ إنها تُهلكه، وتجعله خاسراً ضائعاً، جندياً من جنود الشيطان.

ونأخذ من ذلك أن في الحياة طريقيْن اثنيْن: طريق الهدى وطريق الضلال، طريق الله وطريق الشيطان، وأن من لم يكن سائراً في الطريق الأولى، فهو ولا شك ـ بالضرورة ـ سائر في الطريق الأخرى.

كما نأخذ منه أن الالتزامَ بطريق الهدى، والتحققَ بمفاهيم الإِيمان وحقائقِه، والاعتصامَ الوثيق بحبل الله، هو وحده «صمّام الأمان» الذي يعصم ـ بإذن الله ـ من الشيطان، ويُبعد عن المؤمن الشيطان وجنوده.

أما مَنْ تخلى عن تلك الطريق، فإنه يقع فريسة للشيطان، ويكون أسيرَ حزبه، وصريعَ وساوسه. وإذا ما استسلم للشيطان؟ فإنه يسير أمامه بإسراع ولهاث، ويكون من الغاوين الضالين والمنحرفين، ويكن متَّبعاً لهواه ـ واتباع الهوى وحده آفة قاتلة ـ ويخلد إلى الأرض، ويختار سفاسِفها وملذاتها، وعندها يكون مِثْلِ الكلب، ويعيش حالة لهاث دائم، لهاث وراء متاع الأرض الزائل التي أخلد إليها.

○ طريق الرفعة وطريق الهبوط:

ونأخذ من آيات القصة طريقَ الرفعةِ وطريقَ الهبوط، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

من المتَّفق عليه بين الناس، أن كل عاقل في هذه الحياة، يحب أن يكون ذا رفعةٍ ومكانةٍ ساميةٍ، وشأن عظيم، وذكْرٍ طيب جميل بين الآخرين. ولكن تختلف طرق الناس للوصول إلى هذه الغاية النبيلة، فبعضهم يسلك لها طريقاً مُغَايِراً خاطئاً، يظنه موصِلاً للغاية، ولكنه لا يجني فيه إلَّا النقيض لها.

إن طريق العزة والرفعة هو الأخذُ الجاد الصادق الملتزم لآيات الله ودينه وشرعه، هو في قوله: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾.

إن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفضَّله على باقي المخلوقين، وإنه يريد له العزة والارتفاع والتكريم، ولذلك أرشده إلى الوسيلة التي توصله لذلك، وأنزل عليه آياته، وبعث له رسلَه، وحدّد له أحكامه. فكل مَنْ قبل أحكام الله ورضيها والتزم بها، فقد نال العزة والرفعة والكرامة.

أما نقيض ذلك الطريق، فهو طريق الهبوط، والخسارة والضياع. إن طريق الهبوط في رفْض آيات الله، والتخلي عن شرعه، والاستجابةِ لوساوس الشيطان ونزغاته، إن طريق الهبوط في الإخلاد إلى الأرض واتباعِ الهوى ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

ومعنى الإخلاد إلى الأرض هو الاغترارُ بها، وتفضيلُها على الآخرة، بل الإقبالُ عليها ونسيانُ الآخرة، والتزودُ من مفاتنها ومغرياتها ومباهجها،

و«العَبّ» من شهواتها وملذاتها ومباذلها وبهارجها. ومَنْ فعل ذلك فقد اتبع هواه، وانقاد لشهواته، وأصبح أَرْضياً بهيمياً شهوانياً إباحياً.

وبالإخلاد إلى الأرض يَسْفُل ويهبط وينحط، ويوالي سقوطه ليصل القاع.

إن الطير تمتنع عن الاصطياد والافتراس طالما هي محلِّقة في الفضاء، مرتفعة في الجو، ولكنها تقع في الفخ، عندما تهبط على الأرض، وتخدع بما في الفخ من «طعم» خادع. وهكذا الإنسان!!.

❍ لماذا الكلب دائم اللهاث:

بيَّنت القصة أن الكلب يلهث باستمرار، فهو ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾. وهذا ملاحَظ من أحوال الكلب، إنه يَلهث وهو يجري هارباً، ويلهث وهو يهجم راكضاً، ويلهث وهو يسير، ويلهث وهو رابض. فلماذا ذلك اللهاث الدائم؟.

هذه لفتة علمية من اللفتات العلمية في القرآن، إذ من المعلوم أن القرآن الكريم قد حوى لفتات علمية في شتى المجالات والموضوعات، وإن نصوصه المعجِزة لتحوي كثيراً من الإشارات العلمية، وهذه الإشارات تزداد وضوحاً كلما تقدمت البشرية من العلوم والمعارف.

إن سر اللهاث الدائم للكلب، يكمن في أن الله ـ سبحانه ـ لم يخلق في جسم الكلب «مسامات» كباقي المخلوقات. ومعلوم أن المسامات ضرورية للجسم، إذ أنها «تُفرز» العرق الذي يخرج منها، حاملاً معه من داخل الجسم سموماً وتلوُّثاً وخطراً، ولو لم تخرج تلك السموم مع العرق عن طريق المسامات، وبقيت في الجسم فإنها ستؤذيه وتفتك به، ولذلك فالمسامات وخروج العرقِ منها نعمة عظيمة من الله على الإنسان، ضِمْن نعمِهِ العظيمة التي لا يحصيها أحد.

وبما أن الكلب بدون مسامات في جسمه، فكيف يُخرج السموم الضارة من جسمه، إنه يُخرجها عن طريق اللهاث، يُخرجها عن طريق فمه ولسانه، وهذا ما فطره الله عليه، وهداه إليه بفطرته، وصدق الله القائل: ﴿الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ

شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، والقائل: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٣].

إن هذه اللفتة العلمية، تُطْلعنا على صورةٍ من صور الحكمة الربانية الباهرة البالغة، فالله حكيم عليم خبير، خلق كل مخلوق بحكمة لغاية، وألهمه ما يعيش به، وهداه إلى وسائل حياته بحكمة بالغة ـ سبحانه ـ.

○ سر التمثيل بالكلب والحمار:

ضَرَب القرآن الكريم المثل بكلٍّ من الكلب والحمار، وشبَّه بهما نموذَجاً معيَّناً من الناس، وبيَّن وجْه الشبه بين ذلك النموذج وبينهما.

أمّا الذي شُبه بالكلب، فهو ذلك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وأخلد إلى الأرض، وأتبعه الشيطان واتبع هواه. أو قل: هو ذلك العالم الذي لم يعمل بعلمه. ووجْه الشبه بينه وبين الكلب هو اللهاث الدائم المستمر. الكلب يلهث ليخرج العرق من جسمه عن طريق لسانه، والعالم الذي لم يعمل بعلمه، يلهث باستمرار جَرْياً وراء حطام الدنيا، وتزلفاً للطاغين الظالمين، وحرصاً على إرضائهم على حساب علمه ودينه، وتوظيفاً لعلمه خادماً لهم.

وأما الذي شُبِّه بالحمار، فهو ذلك العالم الذي لم يعمل بعلمه، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجمعة: ٥].

والمقصود بالقَوم في الآية هم اليهود وأحبارُهم، حيث درسوا التوراة وفهموها، وحملوها وزعموا علمهم بها. لكنهم لم يلتزموا بها في حياتهم العملية، ولم يحوِّلوا توجيهاتها النظرية إلى حقائق حياتية مُعَاشة، وهم بذلك حُمِّلوا التوراة، ولكنهم لم يحملوها، أي لم يعملوا بها. فشبَّههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار والكتب، إنه يحملها ولا يدري ما بها، وسيان عنده لو حمل كتباً أو خشباً، إنه لا يجني من كل ما يحمل إلّا ثقل الحمل ومشقته.

وماذا يختلف اليهود في حملهم للتوراة عن الحمار الذي يحمل الأسفار؟ إنهم حملوها في رؤوسهم وعقولهم وأفكارهم، وزعموا أنهم بذلك علماء، لكن هل استفادوا مما درسوا وعلموا وحفظوا؟ هل كانت حياتهم وفْق ما

درسوا وعلموا وحفظوا؟ كلا. إنهم في ذلك مثل الحمار. وماذا يفترقون فيه عن الحمار؟.

النموذجُ من الناس الذي شبَّهه الله بالكلب وبالحمار، هو العالم الذي آتاه الله العلم، ليرفعَه به، ولكنه يرفض الرفعة الرّبانية والتكريمَ الإلهي، ويؤثر أن يخلد إلى الأرض، ويتَّبع هواه.

وهذان المَثَلان القرآنيان دعوة لكل ذي علم أن يحتاط لنفسه، وأن يتقي الله بعلمه، وأن يستخدمه في الارتفاع والتكريم ونفْع الآخرين، لا في الهبوط والسفل والتبعية الذليلة لأهل الباطل.

كم من حملة الألقاب العلمية، وأصحابِ الشهادات العلمية العالية، والذين يُشغلون أرفع المناصب والوظائف الإسلامية الرسمية لدى الظالمين الطواغيت، كم من هؤلاء من ينطبق عليه هذان المثلان القرآنيان! كم من هؤلاء من هو في ذُله وهوانه ولهاثه وراء المتاع الزائل الزائف، مِثْل الكلب في لهاثه، وكم من هؤلاء من هو في عدم استفادته من علمه مِثْل الحمار في جهله وغبائه وتعبه ومشقته.

تبًّا لذلك الشخص الذي يزعم أنه عالم، ومَثَله كمثل الكلب والحمار، تباً لذلك الشخص الذي يجعلُه علمُه ذليلاً مُهاناً، تعيساً شقياً، وخاسراً هالكاً معذّباً يوم القيامة، ولا بارك الله في علم يوصِل صاحبه إلى هذه النهاية البائسة!.

○ متى يعصم العلم صاحبه من السقوط؟

متى يعصم العلم صاحبه من السقوط؟ تساؤلٌ هام نترك للأستاذ الإمام سيد قطب الإجابة عليه، حيث يقول:

«ومن أجل أن العلم وحده لا يَعصم، يجعل المنهجُ القرآني طريقه لتكوين النفوس المسلمة والحياة الإسلامية، ليس العلمَ وحده لمجرد المعرفة، ولكنه يجعل العلم عقيدةً حارةً دافعةً متحركة لتحقيق مدلولها في عالم الضمير، وفي عالم الحياة أيضاً.

إن المنهج القرآني لا يُقدِّم العقيدة في صورة «نظرية» للدراسة. فهذا مجرد علم لا ينشئ في عالم الضمير ولا في عالم الحياة شيئاً... إنه علم باردٌ لا

يعصم من الهوى، ولا يرفع من ثقلة الشهوات شيئاً، ولا يدفع الشيطان، بل ربما ذلَّل له الطريق وعبَّدها.

كذلك هو لا يقدم هذا الدين دراسات في «النظام الإسلامي» ولا في «الفقه الإسلامي» ولا في«الاقتصاد الإسلامي» ولا في «العلوم الكونية» ولا في «العلوم النفسية» ولا في أية صورة من صور الدراسة المعرفية!.

إنما يقدِّم هذا الدينَ: عقيدةً دافعةً دافقةً مُحْيِيةً موقِظةً رافعةً مستعليةً، تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل، وتُحيي مَوات القلب فينبض ويتحرك ويتطلع، وتوقِظ أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة، فترجع إلى عهد الله الأول، وترفع الاهتمامات والغايات، فلا تثقلها جاذبية الطين، ولا تخلد إلى الأرض أبداً.

ويقدِّمه منهجاً للنظر والتدبر، يتميَّز ويتفرد دون مناهج البشر في النظر، لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم، وأخطائها وانحرافها تحت لعب الأهواء، وثقلة الأبدان، وإغواء الشيطان.

ويقدِّمه ميزاناً للحق تنضبط به عقولُ الناس ومداركهم، وتقاس به وتوزن اتجاهاتُهُم وحركاتُهُم وتصوراتُهُم، فما قَبِلَه منها هذا الميزان كان صحيحاً لتمضي فيه، وما رفَضَه هذا الميزان كان خاطئاً يجب الإقلاع عنه.

ويقدِّمه منهجاً للحركة يقود البشرية خطوة خطوة في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة، وِفْق خطاه هو ووفق تقديراته... وفي أثناء الحركة الواقعية يصوغ للناس نظامَ حياتهم، وأصولَ شريعتهم، وقواعدَ اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم، ثم يصوغ الناسُ بعقولهم المنضبطةِ به تشريعاتهم القانونية الفقهية، وعلومَهم الكونية والنفسية، وسائرَ ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية... يصوغونها وفي نفوسهم حرارةُ العقيدة ودفعتها، وجدِّيةُ الشريعة وواقعيتها، واحتياجاتُ الحياة الواقعية وتوجيهاتها.

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية... أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة، فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثقلة

الأرض، ودفعة الهوى، وإغواء الشيطان، ولا يقدم للحياة البشرية خيراً»[1].

○ خاتمة: العالم الأبي للجرجاني:

نختم الكلام على هذه القصة القرآنية لذلك الذي انسلخ من آيات الله، فهلك وخاب وخسر، بقصيدة لإمامٍ عالم أبيٍّ عزيز كريم، هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، الذي كتب قصيدةً ثمينةً قيّمةً، سجّل فيها صفاتِ العالم العزيز الأبي، وأثرَ العلم النافع على صاحبه، نقَلَها كاملة الأستاذ المُحقّق «عبد الفتاح أبو غدة» في كتابه النفيس «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»:

يَقُولون لي: فيكَ انْقِباضٌ وَإِنَّما ... رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّما ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّما

وَمَا زِلْتُ مُنْحازاً بِعِرْضِيَ جَانِباً ... مِنَ الذُّلِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَما

إذا قِيل: هذا مَنْهَلٌ قُلْتُ قد أرى ... وَلٰكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّما

أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُها ... مَخَافَةَ أَقْوَالِ العِدا فِيمَ أَوْ لِما؟

فَأُصْبِحُ عَنْ عَيْبِ اللَّئِيم مُسَلَّما ... وَقَدْ رُحْتُ في نَفْسِ الْكَرِيم مُعَظَّما

وَإِنِّي إِذا ما فاتَني الأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّما

وَلَكِنَّهُ إِنْ جَاءَ عَفْواً قَبِلْتُهُ ... وَإِنْ مَالَ لَمْ أُتْبِعْهُ: هَلَّا وَلَيْتَمَا

وَأَقْبِضُ خَطْوِي عَنْ حُظوظٍ كَثِيرةٍ ... إِذَا لَمْ أَنَلْهَا وَافِرَ الْعَرْضِ مُكْرَما

وَأُكْرِمُ نَفْسي أَنْ أُضَاحِكَ عَابِساً ... وَأَنْ أَتَلَقَّى بِالْمَدِيحِ مُذَمَّما

وَكَمْ طَالِبٍ رُقِّي بِنُعْمَاهُ لَمْ يَصِلْ ... إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئيسَ الْمُعَظَّما

وَكَمْ نِعْمَةٍ كَانتْ عَلَى الحُرِّ نِقْمَةً ... وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَدُّهُ الحُرُّ مَغْرَما

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٩.

أَأَشْقَى بِهِ غَرْساً وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً إذاً فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَما

فَإنْ قُلْتَ: زَنْدُ العِلْمِ كَابٍ فَإِنَّمَا كَبَا حِينَ لَمْ نَحْرُسْ حِمَاهُ وَأَظْلَما

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي القُلوب لَعُظِّما

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَلَطَّخُوا مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّما

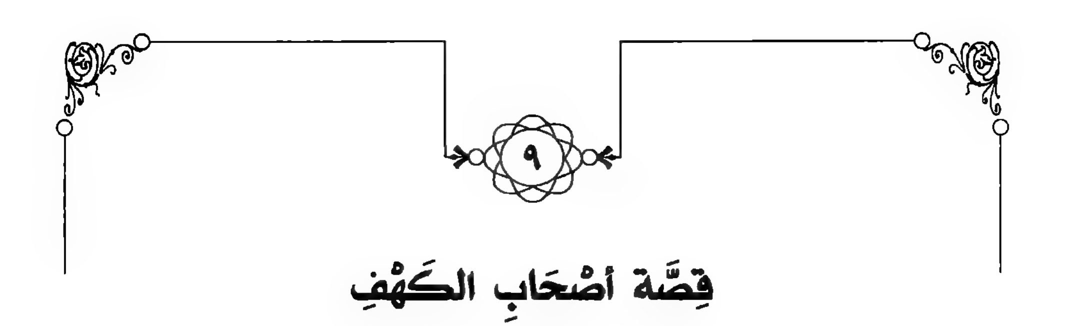
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّني وَلَا كُلُّ مَنْ في الأَرْضِ أَرْضَاهُ مُنْعِما

وَلَكِنْ إِذَا مَا اضْطَرَني الضُّرُّ لَمْ أَبِتْ أُقَلِّبُ فكْرِي مُنْجِداً ثُمَّ مُتْهِما

إِلَى أَنْ أَرَى مَا لَا أَغُصُّ بِذِكْرِهِ إِذَا قُلْتُ: قَدْ أَسْدَى إِلَيَّ وَأَنْعَما[1]

* * *

(١) صفحات من صبر العلماء لأبي غدة: ٩٥ ـ ٩٦.



قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ

○ القصة في العرض القرآني:

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ

سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾ [الكهف: ٩ ـ ٢٦].

○ موجز القصة من خلال القرآن:

سننظر في قصة أصحاب الكهف من خلال العرض القرآني لها، ولن نخرجَ عنه إلى الروايات والأقاويل والأخبار الإسرائيلية التي أوردها مؤرِّخون ومفسرون، لأنّ هذا هو المنهج الصحيح في التعامل مع قصص السابقين، كما قدمه لنا القرآن، وكما ارتضيناه لأنفسنا.

كان أصحاب الكهف مجموعةً من الفتية المؤمنين بالله، وكانت تلك المجموعة مكونةً من سبعة أفراد ـ كما أشار القرآن ـ.

لا نعرف شيئاً عن أسمائهم أو أعمالهم، أو المدينة التي كانوا فيها، أو الملكِ الذي كانوا في عهده، أو الدينِ الذي كانوا عليه، أو الكهفِ الذي أَوَوْا إليه.

وقف هؤلاء الفتية المؤمنون وقفةً للبحث والنظر، خرجوا منها بنتيجة قاطعة، هي أن الله وحده هو رب العالمين، وأنهم لن يؤمنوا إلا به، ولن يعبدوا إلا إياه.

لقد عرفوا أن قومهم كافرون، لأنهم عبدوا غيرَ الله. وكفرهُمْ هذا أوجد عندهم الظلم والكذب والافتراء. فَمَنْ أظلم ممن افترى على الله كذباً؟.

فكَّر أولئك الفتية المؤمنون في الخطوة التالية، فوجدوها في العزلة فقرروا اعتزال قومهم، إنهم مؤمنون، وقومهم كافرون، ولا مجال لأن يعيشوا معهم.

خرجوا من المدينة إلى الجبال، وقرروا أن يأووا إلى كهف في جبل!.

وطلبوا من الله أن ينشر عليهم في الكهف من رحمته.

واستجاب الله لهم، فكانت رحمةُ الله عليهم في الكهف، حيث يسّر الله لهم الأمر، وسخّر لهم الآيات. فأمر الشمس أن لا تمس أجسادِهم، حتى لا تؤذيها، كانت عند الصباح تَميلُ عن أجسادهم، فلا تقع عليها، وكانت عند الغروب تميل عنها كذلك، فلا تأتيها، وكانوا في فجوة وسط الكهف.

ومن آيات اللَّهِ عليهم في الكهف، أن عيونَهم كانت مفتوحة، فكان الناظر إليهم يحسَبُهم أيقاظاً ينظرون إليه، مع أنهم نيام راقدون.

وحتى لا تأكل الأرضُ أجسادهم، كان الله يقلِّبهم مرة على اليمين، ومرة على الشمال.

وكان معهم كلبهم الذي صحبهم، حيث جلس على عتبة باب الكهف، وبسط ذراعيه، ونام مثل نومتهم.

وحتى لا يعتدي أحد عليهم وهم رقود، قذف الله في قلب كل من ينظر إليهم الرعب، بحيث لو اطلّع عليهم، لولّى منهم فِراراً، ولمُلِئَ منهم رعباً.

وناموا نومتهم الطويلة، حيث بقوا على هذه الصورة ثلاثمائة وتسع سنوات!.

وبعد هذه المدة بعثهم الله من نومهم، فصاروا يتساءلون عن مدة نومهم واختلفوا في تقديرها. فقال بعضهم: نمتم يوماً أو بعض يوم!.

لكنهم لم يخوضوا في تقدير المدة، لعدم علمهم بها، ففوَّضوا العلم بها إلى الله،وقالوا: ربكم أعلم بما لبثتم.

واهتموا بالمُهمّ. فكلفوا أحدهم بالذهاب إلى المدينة، وناولوه ما معهم من نقود، وكلفوه أن يشتري لهم طعاماً ليأكلوه. وطلبوا منه أن يختار الطعام الطيب الحلال المباح. كما طلبوا منه أن يكون حَذِراً يقظاً منتبهاً، بحيث لا يفطن أحد إليه، ولا يَشعر أحدٌ به، لأنهم كانوا يخشون قومهم، فإذا علموا بهم وعرفوا مكانهم، فسوف يقتلونهم، أو يفتنونهم، بأن يردوهم عن دينهم، ويعيدوهم إلى الشرك.

وذهب الرجل إلى المدينة ليشتري الطعام. وحرص على الحذر والانتباه والتخفّي. لكن الله أراد أمراً آخر. أراد أن يجعل منهم آية عليه، ودليلاً على قدرته سبحانه على البعث. فكَشَف أمرهم، وأعثر عليهم قومَهم. وكان القوم مؤمنين بالله، إذ زال ذلك الجيل الكافر، الذي هرَب الفتيةُ منه إلى الكهف، ونشأ جيلٌ مؤمن بالله.

فلما رأى أهل القرية المؤمنين ذلك الرجلَ المؤمن، لحقوا به إلى الكهف، فلما وصلوا الكهف، وجَدوا الرجال المؤمنين السبعة قد ماتوا ـ ماتوا موتاً طبيعياً حقيقياً هذه المرة ـ.

فاختلفوا فيهم، وتنازعوا بينهم أمرهم، ماذا يفعلون بهم؟ فمنهم من قال: ابنوا عليهم بنياناً، ربهم أعلم بهم.

ولكن الحاكمين فيهم قرروا أن يبنوا عليهم مسجداً. وهكذا كان، حيث تم بناء المسجد عليهم!.

وبذلك طُوِيَت صفحةٌ من صفحات الإيمان والإخلاص والزهد في الدنيا واللجوء إلى الله، وبقيت قصة أصحاب الكهف، يتناقلها الناس وأصحاب الديانات السماوية، ويقف أمامها المؤمنون، ليأخذوا منها دروساً في الإيمان والإخلاص والثبات.

○ سبب نزول الآيات:

روى ابن هشام في السيرة أنه لما اشتدت المعركة الفكرية بين رسول الله ﷺ وبين قريش في مكة، استعانت قريش باليهود في المدينة.

«فبعثْ النّضر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعَيْط إلى أحبار اليهود ليسألوهم عن رسول الله ﷺ.

فجاءا إلى اليهود، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا!.

فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمرُكُم بهن. فإنْ أخبركم بهن

فهو نبي مرسَل. وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل. فرَوْا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرُهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب.

وسلوه عن رجل طوّاف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤُه.

وسلوه عن الروح.

فعادا إلى قريش وقالا: يا معشر قريش. قد جئناكم بفصْلِ ما بينكم وبين محمد. قد أخبَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها.

فجاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد: أخبِرْنا عن: فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب. وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها. وأخبرنا عن الروح ما هي.

فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غداً. ولم يَسْتَثْن ـ يعني لم يقل: إن شاء الله ـ.

ولما جاء الغد لم يأته جبريل بالجواب، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي.

فأرجف أهلُ مكة، وقالوا: وَعَدَنا محمد غداً، واليوم مضى خمس عشرة ليلة، ولم يخبْرنا محمد عن ذلك.

فأحزنَ رسولَ الله ﷺ تأخرُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به، أهل مكة.

ثم جاءه جبريل بسورة الكهف، وفيها معاتبتُه إياه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح[1].

وقد ذكر علماءُ التفسير بالمؤثور، مثلُ الطبري والسيوطي والشوكاني وابن كثير هذه الرواية عن ابن إسحاق ـ وهو الذي أخذ عنه ابن هشام روايات السيرة ـ.

---

(١) الروض الأنف شرح السيرة النبوية ٣: ١٢٨، ١٢٩.

○ **دلالات من الحادثة:**

وعندما ننظر في هذه الرواية، فإننا نخرج منها بعدة إيحاءات وإشارات ودلالات. منها:

١ ـ رغبةُ قريش في إثارة الشبهات ضد رسول الله ﷺ، وفي استخدام كل ما يؤدي إلى الوقوف في وجهه، ومنع انتشار دعوته.

٢ ـ استعانة قريش بالأقوام الأخرى لمحاربة رسول الله ﷺ، وهذا يدل على عنف المعركة التي يخوضونها، وشدتها وقسوتها.

٣ ـ إن اليهود هم أخطرُ الناس على دعوة الحق، وأشدُّ الناس عداوةً لها، ورغبةً في القضاء عليها، ولذلك لجأت قريش إليهم في محاربة رسول الله ﷺ. وعداوة اليهود للإسلام والمسلمين العنيفةُ الشديدة، بقيت موجودةً ومستمرة، منذ عهد الرسول عليه السلام وحتى عصرنا الحاضر، وستبقى كذلك في المستقبل.

٤ ـ إن اليهود هم أساتذةُ الشر وعلماء الباطل، وأكابرُ الإجرام والفساد، وشياطين الإنس، الذين يلجأ إليهم الآخرون ليتتلمذوا عليهم ويتعلموا منهم، ويستفيدوا من علومهم ومعارفهم، ويأخذوا بآرائهم، وخبراتهم ونصائحهم.

فها هم زعماء قريش يتعلمون من أحبار اليهود، ويتتلمذون عليهم في مواجهة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبقي اليهود مرجعاً للكافرين والمبطلين والمجرمين والمفسدين، ووظَّف اليهود ما عندهم من علم ومعرفة لتعليم الناس الشر والباطل والإجرام والفساد. ويا لها من رسالة يهودية خبيثة، ويا لها من ريادة يهودية في الشر والباطل والإجرام!.

٥ ـ إن اليهودَ يريدون امتحان الرسول عليه السلام عندما وجهوا له الأسئلة الثلاثة. وقد أدى الرسول عليه السلام امتحاناً صعباً قاسياً، إذ انتظر خمسة عشر يوماً حتى جاءه الجواب من عند الله.

٦ ـ لقد نسي الرسول ﷺ أن يقول: إن شاء الله. عندما وعد قومه أن يأتيهم بالجواب في الغد.

ولقد أعطى اللَّهُ رسولَه ﷺ كما أعطانا نحن درساً بالغاً. إذ تأخر عنه الوحي خمسة عشر يوماً مع شدة حاجته له، ومع أنه يقدم امتحاناً صعباً قاسياً، ومع أنه يجيب على أسئلة يهودية صعبة.

٧ ـ إنَّ تأخرَ الوحي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام خمسة عشرة يوماً، وقريشٌ تراجعه كل يوم، ويقول في كل مرة: لم يأتِني الجواب حتى الآن، دليلٌ واضح بيِّن على أن القرآن من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ. فلو كان القرآن من عنده لما احتاج إلى هذا الانتظار، ولأجابهم فوراً، ونسبه إلى الله.

فتوقُّفُه في الجواب رغم حاجته الماسة إليه، وانتظارُه الوحيَ من السماء، وحزنُه على تأخر الوحي، وتأثره بكلام المشركين عنه، كل هذا يدل على أن القرآن كلام الله.

○ الكلمات الغريبة في الآيات:

١ ـ **الكهف**: الغار في الجبل.

٢ ـ **الرقيم**: حجر أملس رُقمت فيه أسماء أصحاب الكهف وكتبت عليه، ووُضع على باب الكهف.

٣ ـ **ضربْنا على آذانهم**: جعلناهم ينامون.

٤ ـ **شَطَطاً**: باطلاً.

٥ ـ **يَنْشُر لكم ربكم**: يبسط لكم.

٦ ـ **مِرْفقاً**: ما ترتفقون به وتنتفعون به في عيشكم.

٧ ـ **تَزاوَرُ**: تعدل عن الكهف وتميل عنه.

٨ ـ **تَقْرِضُهُم**: تعدل عنهم وتبتعد.

٩ ـ **هم في فجوة منه**: في سَعة وسط الكهف.

١٠ ـ **الوَصيد**: عتبة الباب.

١١ ـ **بوَرِقِكُم**: الوَرِق الفضة.

١٢ ـ **أزكى طعاماً**: أحل وأطيب طعاماً.

١٣ ـ **يظهروا عليكم**: يكتشفوا أمركم.

١٤ ـ **أعثَرْنا عليهم**: كشفناهم للناس.

١٥ ـ **رجماً بالغيب**: كلاماً بالظن، بدون يقين ولا علم.

١٦ ـ **لا تُمارِ فيهم**: لا تجادل في أمرهم.

○ من المبهمات في القصة:

مبهمات القرآن لا تُبيَّن من مصادرَ غير صحيحة ولا موثوقة ولا يقينية، إن القرآن لم يبينْها، ولذلك كانت من المبهمات. فيُنْظَر بعد ذلك في الأحاديث. فإن وُجد حديثٌ صحيح يبينُها وجب الأخذ به. وإن لم يوجَد في ذلك حديث صحيح، وجب علينا السكوتُ عنها، وإبقاؤُها على إبهامها، ولا تجوزُ لنا محاولةُ بيانها من المصادر الإسرائيلية أو غيرها.

وفي قصة أصحاب الكهف مبهمات لم تبيَّنْ في القرآن ولا في الحديث، من هذه المبهمات:

١ ـ الفترة الزمنية التي وُجِد فيها أهل الكهف، هل كانوا قبل اليهود أو بعدَهم؟ وهل كانوا قبل عيسى ﷺ أو بعده؟.

٢ ـ الديانة التي كانوا عليها، هل هم على الديانة اليهودية أو الديانة النصرانية أو ديانة سماوية توحيدية أخرى؟.

٣ ـ اسم الملك الذي عاشوا فترة حكمه، هل هو روماني أو يوناني أو فارسي أو يهودي أو عربي؟.

٤ ـ اسم المدينة التي كانوا فيها هل هي «أَفْسوسْ» التركية أو «طرطوس» السورية أو «عمان» الأردنية أو غير ذلك.

٥ ـ مكانُ الكهف الذي أَوَوْا إليه. وهل هو في الأردن أو سوريا أو تركيا أو غير ذلك.

٦ ـ عملُ الفتية قبل أن يأووا إلى الكهف، وهل كانوا أبناءَ أمراء، أو من كبار الموظفين عند الملك، أو كانوا من الرعاة.

٧ ـ كيفيةُ اهتدائهم إلى الله، وإيمانهم به، ومعرفتهم بكفر قومهم وكونهم على ضلال.

٨ ـ كيفية التقائهم مع بعضهم، وخروجهم من المدينة، وذهابهم إلى الكهف، وهل عرف قومهم بهم أم لم يعرفوا؟ وهل لحق الملك بهم أم لم يلحق؟.

٩ ـ كلبُهم من أين لحق بهم وكيف، ووظيفته معهم؟.

١٠ ـ أسماؤهم، واسم كلبهم ولونه وحجمه؟.

١١ ـ وقتُ دخولهم الكهف، ووقتُ استيقاظهم فيه.

١٢ ـ اسمُ الذي ذهب إلى المدينة ليحضر لهم الطعام، ومقدارُ ما معه من المال، وما جرى له في المدينة من أحداث ومفاجآت.

١٣ ـ تفصيلاتُ عثورِ أهلِ المدينة عليهم، وكيفيةُ وصولهم إليهم، ونزاعهم في أمرهم، وبناء المسجد عليهم، ودور الملك في ذلك.

١٤ ـ ما جرى لهم بعد العثور عليهم، وهل اطّلع عليهم أناس لاحقون أم لا؟ وهل رآهم أناس من الصحابة أم لا؟ وهل يمكن أن يراهم أحد أم لا؟.

١٥ ـ ماذا سيجري لأصحاب الكهف في المستقبل؟ وهل سيَحْيَون عند نزول عيسى ﷺ، ويكونون معه أم لا؟.

كل هذه الأسئلة وغيرُها، لا يوجد جواب صحيح يقيني عليها، ولقد خاض فيها كثير من المفسرين والمؤرِّخين السابقين ـ مع الأسف ـ وجاؤوا من ذلك برُكام كبير من الأساطير والإسرائيليات. وأشغلوا الناس بما فيها من خلافات، وحجبوهم عن النص القرآني وتدبره واستخراج لطائفه ودروسه ودلالاته.

إن البحث في تلك المبهمات، ومحاولة الإجابة على تلك الأسئلة، لا يقدم للناس علماً ولا فائدة ولا نفعاً، علاوةً على كونه لا يتفق مع المنهج الصحيح في التعامل مع مبهمات القرآن!.

○ من آيات الله في القصة:

قصةُ أصحاب الكهف مظهر من مظاهر قدرة الله القادرة، وإرادتِه النافذة، وقوتِه الغالبةِ القاهرة، وحكمتِه ورحمتِه وتدبيره سبحانه.

وقد قدَّم لنا القرآنُ أثناء عرضه لها، طائفة من آيات الله الباهرة، ومعجزاتِه الظاهرة، وجنودِه الأخفياء الذين لا يعلمهم إلا هو، والذين وظفهم الحق سبحانه لحماية أصحاب الكهف المؤمنين، والرِّفق بهم.

من هؤلاء الجنود الربانيين الذين يُعْتَبَرون من آيات الله:

١ ـ الكهف في موقعه الملائم المناسب حيث كانت حياتهم فيه كلها رفق ويسر وسهولة. وحيث كان يقيهم من أشعة الشمس عند الصباح والمساء.

٢ ـ الكلب الذي رافقهم وصَحِبهم، ولما دخلوا الكهف وقف على عتبة الباب يحرسهم، وبسط ذراعيه بالوصيد، ونام نومتهم!.

٣ ـ الشمس التي حرصتْ على أن لا تؤذيهم بحرارتها، ولهذا كانت تتصرفُ كأنها حيٌّ عاقلٌ واعٍ حكيم. فكانت إذا طلعتْ تُبْعِدُ أشعتها عنهم، فتميل ذات اليمين، وإذا غربت كانت تبتعد عنهم ذات الشمال. وهم في فجوة وسَعَة من أشعتها وسط الكهف.

٤ ـ وحتى لا تبلى أجسادُهم بنومتهم الطويلة، وحتى لا تأكلها الأرض، كان الله يُقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال، فإذا قُلِّبوا ذات اليمين تعرضتْ جنوبهم اليسرى للهواء، وإذا قُلِّبوا ذات الشمال قُلبت جنوبهم اليمنى للهواء، فبقيت جنوبهم وأجسادهم سليمة صحيحة.

٥ ـ وحتى لا يَطْمَعَ أحد فيهم، جعل الله منظرهم للآخرين مخيفاً مرعباً، بحيث يتولَّون منهم فراراً، ويُمْلَؤون منهم رعباً. ولعل مبعث الرعب منهم هو أن عيونهم كانت مفتوحة، بحيث يحسبهم الناظر إليهم أيقاظاً ينظرون إليه، مع أنهم رقود نائمون.

٦ ـ بَعْثُهم من نومتهم الطويلة التي بلغت ثلاثمائة وتسع سنين.

○ عددهم ومدة لبثهم:

اختلف السابقون من الأمم في عددهم، كما اختلف علماء المسلمين في إمكانيةِ معرفة عددهم.

وقد ذكر القرآن ثلاثة أقوال للسابقين في ذلك:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فذهب فريق من المفسرين إلى أنه لا يمكن معرفةُ عددهم، لأن القرآن لم يصرِّح بذلك، بل أسند العلم بعدتهم إلى الله ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾.

بينما ذهب فريق آخر من محققي المفسرين إلى أن عددهم سبعة، وقالوا: ليس هذا رجماً بالغيب، بل هذا ما يشير إليه القرآن.

واستدلوا على ذلك بما يلي:

١ ـ أبطل القرآن القولَيْن الأولَيْن في عدتهم، عندما وصفهما بأنهما ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ والرجم بالغيب هو القول بلا علم ولا دليل. وهذا الوصفُ رفضٌ للقولين.

٢ ـ سكوت القرآن عن القول الثالث: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فلم يصفه بأية صفة، فلو كان القول باطلاً لوصفه بصفة تضعيف وإبطال، وهذا السكوت القرآني دليل على إقراره لذلك القول، واعتماده له.

٣ ـ إدخال الواو على القول الثالث دليل على صحته وصوابه ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهي التي تسميها العرب «واو الثمانية» ولنا معها وقفة بعد قليل ـ إن شاء الله ـ.

٤ ـ أثبت القرآن العلمَ بعدتهم لقليل من الناس فقال: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فلو لم يمكن لأحد معرفةُ عددهم، لصرَّح القرآن بذلك وقال: ما يعلمهم إلا الله.

٥ ـ تصريحُ بعض الصحابة بأنهم من القليل الذين يعلمون عدَّتهم.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «أنا من القليل الذين يعلمونهم. كانوا سبعة».

وقال ابن عباس ﷺ: «أنا من القليل الذي استثنى الله. كانوا سبعة».

وكذا روي عن قتادة وعطاء ﷺ[1].

أما مدة لبثهم في الكهف فهي مختلف فيها كذلك.

فمن المفسرين من قال: هي ثلاثمائة وتسع سنين، أخذاً بنص الآية.

ومنهم من قال: لا دليل على تلك المدة. لأن الله يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾.

وسبب اختلافهم في تقدير المدة، هو اختلافهم في المقصود بقوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ والقائل له.

١ ـ قال ابن كثير: «هذا خبرٌ من الله لرسوله ﷺ بمقدار ما لبثَ أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أن أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثرَ عليهم أهلَ ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة، تزيد تسع سنين بالهلالية»[2].

٢ ـ بينما رجح مفسرون آخرون أن هذا من قول أهل الكتاب، وأنه غير صحيح، كما لم يصح كلامُهم حول عددهم.

قال ابن عباس ﷺ: «إنَّ الرجل ليفسر الآية، يرى أنها كذلك، فيهوي أبعد ما بين السماء والأرض. ثم تلا: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين» ثم قال: كم لبث القوم؟ قالوا: ثلاثمائة وتسع سنين. قال: لو كانوا كذلك، لم يقل الله ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾. ولكنه حكى مقالة القوم فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ . . .﴾ إلى قوله: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ وأخبر أنهم لا يعلمون. قال: سيقولون: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾.

---

(١) الدر المنثور ٥: ٣٧٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣: ٧٩.

ونقل هذا الكلام عن قتادة ومطرف وابن إسحاق وغيرهم.

وقد جمع ابن كثير بين قول الله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ...﴾ وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾. قال: «وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي إذا سُئلت عن لبثهم، وليس عندك علمٌ في ذلك، وتوقيفٌ من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومَنْ أطلعه عليه من خلقه»[1].

ونحن نميلُ إلى ترجيح قول ابن كثير في مدة لبثهم، وأنها ثلاثمائة وتسع سنين، لا سيما أنه قول جمهور المفسرين ـ والله أعلم ـ.

○ قصتهم مُجملة ثم مفصَّلة:

عَرَض القرآنُ قصة أصحاب الكهف بطريقة لطيفة مؤثِّرة، محبَّبة للنفوس، وفق أرقى أساليب العرض الفني.

لقد أورد قصتهم أولاً على سبيل الاختصار والإجمال، ثم أوردها على سبيل التفصيل والبيان.

أما الإجمال والاختصار ففي الآيات الأربعة الأولى. وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

وأما التفصيل والإجمال ففي ما تلاها من آيات، بُدِئت بقوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ...﴾.

عناصر الإجمال جمعت أطراف القصة مجملة:

هم أصحاب الكهف والرقيم. وهم من آيات الله. وهم فتية. وقد أووا إلى الكهف. واستنجدوا بالله. وطلبوا رحمتَه ورُشده وتوفيقه. وضربَ اللَّهُ على

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٩.

آذانهم في الكهف فناموا. واستمر نومهم سنين عدداً. ثم بعثهم الله من نومهم. وقد انقسم الناس في عددهم وأمْرِهم ولبثهم إلى حزبين مختلفين. وقد بيَّن القرآن القول الصحيح في ذلك وأبطل القول الآخر.

ولعل في الآية الأولى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ ردّاً على استغراب الناس من قصتهم. ورداً على اليهود والمشركين الذين وجَّهوا السؤال عنهم إلى رسول الله ﷺ.

○ ربنا آتنا من لدنك رحمة:

لقد استنجد الفتية المؤمنون عندما أووا إلى الكهف بالله، ودعَوْه قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

وهم بهذا قدوةٌ للمؤمنين في اللجوء إلى الله، والاستنجاد به، وطلبِ الرحمةِ منه، والاستعانةِ به في الاهتداء إلى الرشد في الأمور والحياة.

إنهم يعلمون أن الرحمة حقيقةً لا تكون إلا من عند الله، ولهذا طلبوها من ذلك المصدر الكريم ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

ومعنى: لَدُن: عند.

ومن الملاحظ أنه كثر استعمال هذه الكلمة «لدن» في سورة الكهف: حيث وردت أربع مرات:

١ ـ قال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

٤ ـ قال تعالى: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

كما أنه من الملاحظ كثرةُ استعمال كلمة «الرحمة» في السورة أيضاً. حيث وردت ست مرات:

١ ـ قول أصحاب الكهف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

٢ ـ قولهم لبعضهم بعضاً عندما دخلوا الكهف ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦].

٣ ـ قول الله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

٤ ـ قال تعالى عن الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

٥ ـ قال الخضر عن الغلامَيْن اليتيمَيْن في المدينة: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

٦ ـ قال ذو القرنين لما بنى السد: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الكهف: ٩٨].

ورحمةُ الله ظاهرة في سورة الكهف، وفي قصصها الذي عرضتُه:

فأصحاب الكهف رحمهم الله بأن أرشدهم للكهف، فَأَوَوْا إليه واعتزلوا قومَهم المشركين. ورحمهم الله عندما يسَّر لهم الإقامة في الكهف تلك السنوات الطويلة. ورحمهم الله عندما جعلهم ينامون مئات السنين بحيث انقرض الجيل الكافر الذي هربوا منه، وخلَفه جيل مؤمن. ورحمهم الله عندما سخَّر لهم من الآيات والمعجزات والكرامات داخل الكهف.

علموا أن الرحمة لا تكون إلا من الله فطلبوها منه. وعلموا أن الرشد هو الذي يمنحه الله لأصحابه، فسألوه إياه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

ولما سألوه هذا بإخلاصٍ وإنابة، وطلبوه بصدقٍ ورجاء، استجاب الله لهم ففتح لهم من رحمته، ما جعلهم يعيشون فيها، ويتقلَّبون في أفيائها.

جاءتهم رحمة الله في داخل الكهف، فحولتْه عليهم إلى سعادة ونعيم. وصدق الله القائل: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

○ نحن نقص عليك نبأهم بالحق:

يوحي قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بعدة إيحاءات. منها:

١ ـ إن تلاوة الله سبحانه لنبأ أصحاب الكهف، مظهرٌ من مظاهر رحمته بنا وتعليمه لنا، وإخبارِنا عن ما ينفعنا من قصص السابقين. وهو تفضُّلٌ وتكرُّم منه سبحانه.

٢ ـ لا ننسى الجوَّ الذي نزلت فيه الآيات، وهو امتحان المشركين واليهود لرسول الله ﷺ بخصوص أصحاب الكهف. فأنْ يتولى الله سبحانه بنفسه إخبارَ رسوله عليه الصلاة والسلام بذلك، نصرٌ له وتأييد.

٣ ـ كما يمكن أن نعتبر ذلك دليلاً من دلائل النبوة، وشهادةً من الله سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام. فلو لم يكن رسولاً لما صدَّقه الله وشهد له وتلا عليه.

٤ ـ وصْفُ التلاوة الربانية بالحق ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ دعوةٌ لنا إلى تصديق كل ما ورد فيها، واعتقاد صحتِه وصدقِه ووجودِه. وإنْ كانت بعض الجزئيات غيرَ خاضعةٍ للمقاييس المادية، لأن العقل المؤمن يُثْبت لله القدرة القادرة والإرادة النافذة والمشيئة المطلقة، التي تغيِّر ما شاءت من نواميس الكون وسننه.

٥ ـ كما أن وصْفَ التلاوة بالحق، دعوةٌ لنا إلى تحقيق صفة «الحق» ـ التي تعني: الصدق والصواب والوجود الحقيقي ـ في بحثنا عن قصص السابقين في القرآن، وفي الميدان الذي نخوض فيه، والمصادر التي نأخذ منها، والحصيلة التي نخرج بها. فلا بد أن يكون هذا كله متَّصفاً بصفة الحق. ولا يكون ذلك إلا للمصادر الصحيحة اليقينيّة المأمونة، المتمثِّلة في القرآن الكريم والحديث الصحيح.

إن وصف التلاوة بالحق في قصة أصحاب الكهف، دعوةٌ للباحثين والدارسين إلى الاكتفاء بالتلاوة الربانية الصادقة الحق، وإلى عدم الذهاب إلى المصادر الأخرى التي حَوت الكثير من الإسرائيليات والأساطير

والخرافات، بل تجاوزِها وإغفالها، وطرْح كل الروايات المأخوذة منها.

٦ ـ كلمة النبأ في الآية تعني أن قصة أصحاب الكهف هامة، لأن النبأ يُطلَق على الأخبار الهامة والصادقة في نفس الوقت.

○ إنهم فتية....:

وصَفَ اللَّهُ أصحاب الكهف بأنهم فتية: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

والفتى هو الشاب في مقتبل العمر، وهو أكبر من الغلام وأصغر من الشاب.

ومرحلةُ الفتوَّة هي مرحلة الحماس والاندفاع والحيوية، مرحلةُ العطاء والهمة والالتزام.

والفتوَّة صفةٌ ممدوحة في القرآن، محمودٌ صاحبها، عندما يقوم بصالح الأعمال وعظيمها وجليلها.

فإبراهيم الخليل عليه السلام، عندما حطم أصنام قومه، وصَفوه بأنه فتى. وقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

وهم بهذا الوصف يقصدون إلى تنقيصه وذمِّه واتهامه. وكأنهم يقولون: إنه فتى مندفعٌ طائش، لا يعرف عاقبة أفعاله، ونتيجة تصرفاته. فلو كان كبيراً ناضجاً لما أقْدم على ذلك.

ولكننا نفهم من وصْفه بالفتوّة مدحه، والثناءَ على تصرفه، فالفتوةُ دفعتْه إلى إنكار المنكر وتحطيم الأصنام، فما كانت فتوته تحتمل أن ترى المنكر، ولهذا توجهت له بالتحطيم.

وفتوَّةُ الشباب المسلم الملتزم بدينه، مصدرُ اتهام وذمٍّ وتنقيص من قِبَل أعداء الإسلام في هذا الزمان. حيث يعتبرونهم فتياناً طائشين، وشباباً متهوّرين مندفعين، ويقولون: لو أنهم رجال كبار لاتَّصفوا بالوعي والحكمة والحنكة والنضوج.

علماً بأن فتوة هؤلاء الشباب الملتزم هي مصدر همَّته وطاقته، وسعيه وبذله، وجهده ونشاطه، وهي الثمارُ اليانعة للفتوة الصادقة الملتزمة دائماً.

مرحلةُ الفتوَّة هي مرحلة الحماس والبذل والعطاء، والفتوة تعني الإِقدام والالتزام.

والشباب هم عامل التغيير والإِصلاح، وما قامت الدعوات إلا على سواعد الشباب، ولا تحقق التغيير إلا بجهودهم.

ولقد كان الشباب هم غالب أتْباع الأنبياء والدعاة والمصلحين.

ونظراً لما للشباب من أثر ملحوظ، وحرصاً من أعداء المسلمين في هذا الزمان على عدم استفادة المسلمين من طاقات وهمم شبابهم، فقد حرصوا على غزو الشباب في أفكارهم وعقائدهم، وإيقاعهم في الضياع والعبث، وقتلِ نخوتهم وهمتهم واندفاعهم، وتوجيههِم إلى توافه الاهتمامات والأعمال والحياة.

وما حورب شباب المسلمين كما حوربوا في هذا الزمان، ولا غُزُوا كما غُزُوا في هذا الزمان، وما فُجع المسلمون في شبابهم كما فُجِعوا في شبابهم في هذا الزمان، وما ضلَّ وضاعَ شباب المسلمين كما ضلوا وضاعوا في هذا الزمان، وكم تخسر الأمة عندما تُصاب في شبابها، وتُفجَع في فتيانها، وهم عمادها ومعقد رجائها.

لكن الأمة لم تخسر كلَّ شبابها، ففيها فتيان صالحون وشباب عاملون، ينطبق عليهم قول الله عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾. حيث أقبلَ هؤلاء الشباب على إسلامهم، فعرفوه حق المعرفة، والتزموا به صادق الالتزام، ودعوا إليه بهمة ونشاط وإخلاص.

إنهم فتية آمنوا بربهم، فلما آمنوا به واختاروا طريقه، وعَلِم الله منهم الصدقَ والإِخلاص، أمدَّهم بمدد من عنده، فزادهم هدى.

إن هذه الآية تريد أن تقرر الحقيقة القرآنية الصادقة في موضوع الإِيمان والهدى، وهي: إن الإِنسان المؤمن هو الذي يختار، فإذا ما اختار الإِيمانَ،

وأقبلَ عليه بإخلاص والتزام وصدق وجديّة، فإن الله يَمُنّ عليه بالزيادة من ذلك. أما إذا لم يَقُمْ هو بالخطوة الأولى، ولم يحقق الاختيار، فإن الله لن يمنحه الهدى، فضلاً عن أن يزيده منه.

ما عليك إلا أن تختار، واللَّهُ يزيدك مما تختار، ويمدك منه، سواء كان إيماناً أو كفراً، هدى أو ضلالاً، هذه هي سنة الله التي قررتْها آيات من القرآن، مثل هذه الآيات: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

○ وربطنا على قلوبهم:

الفتيةُ المؤمنون المهتدون ـ أصحابُ الكهف ـ وُجِدوا وسط أقوام كافرين، فخالفوهم واختاروا جانب الحق وطريق الإيمان، حيث فتحوا قلوبهم للإيمان، ولما دخل الإيمانُ قلوبَهم زادهم الله منه، زادهم إيماناً وهدى، حتى ملأ قلوبهم.

وبعدما امتلأتْ قلوبُهم إيماناً وهدى، ربط الله عليها. قال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

مَعْنَى ربطنا على قلوبهم: ثبَّتْناهم على الإيمان، فثبتوا عليه في شدة وعزم وصبر وتصميم.

لكنني معجب بالصورة اللطيفة التي تلقيها هذه الجملة، بحيث أتصور قلوبَهم ممتلئةً بالإيمان والهدى، فهي أشبه ما تكون بقرْبَة مملوءةٍ ماء، وحتى لا يسيل الماء منها، يربط صاحبها فمها، ويُبقي الماءَ داخلها.

وهذه القلوب التي اختارت الإيمان والهدى، يُخشى عليها أن يتسرب منها ذلك وسط فتنة القوم الكافرين، فربط الله على تلك القلوب، ليحفظ الإيمان والهدى داخلها.

والقلوب التي تختار الإيمان تحتاج إلى أن تَربط عليه حتى لا يتسرب أو يضيع، كما قال الله لمؤمني بدر: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

○ إذ قاموا فقالوا:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

لقد سار الفتية المؤمنون أصحاب الكهف مراحلَ متدرِّجة متتابعة في طريق الإيمان.

١ ـ فهم ـ أولاً ـ آمنوا بربهم. وطلبوا منه الرحمة والرشد، فاستجاب الله لهم، وزادهم إيماناً وهدى.

٢ ـ وهم نالوا كرامة وفضلاً ونعمة من الله، حيث ربط الله على قلوبهم الممتَلِئةِ إيماناً، لتحتفظ بإيمانها حياً داخلها.

٣ ـ وهم بعد ذلك قاموا بهمة وجدّ، وبحثوا بنشاط وسعي، وأعلنوا أن ربهم وحده رب السموات والأرض، وأنهم من ثم لن يتخذوا من دونه إلهاً، وأن قومهم الذين عبدوا غيره مخطئون.

وهذه المرحلة الثالثة عبَّر عنها القرآن بقوله: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

وقد اختلف المفسرون في بيان معنى القيام:

١ ـ منهم من قال: إنه كان قياماً منهم بين يدي الملك الكافر، فهو وصْفٌ لمقامهم أمامه، حيث علم الملك بهم، وبأنهم خالفوا دينه، فرُفِع أمرهم إليه، ومثلوا بين يديه، وقيل له: إنهم قد فارقوا دينك وكفروا بك.

فأَمَرَهم بالعودة إلى دينه، وتوعَّدهم بالقتل إن لم يفعلوا ذلك. فثبتوا على الحق وقالوا له: ربُّنا رب السموات والأرض...

وهذا الكلام يكون مقبولاً لو صحت الرواية في ذلك عن رسول الله ﷺ وطالما أنها لم تصح، فلا نقول بها.

٢ ـ ومن المفسرين من قال: إن الفتية كانوا أولادَ عظماء في المدينة، فخرجوا منها واجتمعوا على مشارفها على غير ميعاد بينهم. فقال أحدهم: إني أجد في نفسي أن ربي هو رب السموات والأرض. وقالوا هم: ونحن نجد في أنفسنا مثلَ ذلك. فقاموا وقالوا: ربنا رب السموات والأرض.

وهذا التفصيل لقيامهم غير وارد في الروايات الصحيحة كذلك.

٣ ـ وقال بعض المفسرين: عبَّر القرآن بالقيام هنا عن خروجهم من قومهم ومفارقتِهم لهم، وعزمِهم على الهرب إلى الله تعالى. كما تقول: قام فلان إلى أمرٍ كذا. إذا عزم عليه بغاية الجد(١).

لكننا نفهم من القيام في هذا المقام أمراً آخر.

إنه قد يكون قياماً حقيقياً حسياً، بمعنى الوقوف، حيث اختاروا طريق الله، وربَطَ الله على قلوبهم المؤمنة، فقاموا ووقفوا، وأعلنوها واضحة صريحة: إن ربهم هو رب السموات والأرض.

كما أن القيام يمكن أن يرادَ به السعي والبحث والاهتمام والجد والجهد، فكانوا جادين صادقين في اختيار طريق الله، وكانوا متمتعين في ذلك بهمة وعزيمة وإرادة.

ونفهم من القيام لطيفةً أخرى، وهي أنه حركة وسعي وجهد، بمعنى أنهم لم يُبْقوا الإيمانَ في دائرة المعرفة النظرية الذهنية العقلية، ولم يجعلوه مجرد ثقافة ومعرفة واطلاع، وإنما قاموا بخطوة أخرى، تُعتبَر الثمرةَ الطبيعية، والنتيجة المنطقية، للمعرفة الذهنية والثقافية العقلية. وذلك عندما قاموا وتحركوا وسعوا.

لقد كان قيامُهم وسعيهم عاملاً في تقوية إيمانهم، وكانت حركتهم وخطوتهم العملية ضروريةً لإيمانهم.

---

(١) انظر: القرطبي ١٠: ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

إنه لا بد أن يكون إيمانُنا حياً فاعلاً قوياً كإيمان هؤلاء الفتية، لا بد أن يقودَنا هذا الإيمان إلى الخطوات العملية والحركات الخارجية، بحيث نجعل حياتنا كلها وفْقَهُ، ثم نتوجه به نحو الآخرين، فندعوهم إليه.

إن القيام بالإيمان وبالإسلام، والثباتَ عليه والدعوةَ إليه، يحتاج إلى قلوب تختاره ثم تمتلئ منه، ثم تطلب من الله أن يربط عليها. لمّا ربط الله على قلوب أصحاب الكهف منحهم القوة والعزيمة والهمة، فقاموا قياماً بإيمانهم، وهكذا القلوب المؤمنة المجاهدة دائماً.

إن القرآن يطالبنا بالقيام، الذي هو الاهتمام والهمة والعزيمة في البحث والتفكر، فإذا تمَّ هذا فإن الإنسان سيختار الإيمان والالتزام. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦].

والعجيبُ أن الصوفية تعلَّقوا بقيام أهل الكهف وقولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وجعلوا هذا دليلاً لهم على جواز وقوفهم وحركاتهم ورقصهم وتمايلهم في حلقات الذكر والدروشة والإنشاد.

وقد ردَّ الإمام القرطبي هذا الاستدلال وأبطل هذا التعلق، وقال: «وهذا تعلُّقٌ غير صحيح. هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروه لِما أولاهم من نِعَمه ونعمته... أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام، والرقص بالأكمام، وخاصة في هذه الأزمان، عند سماع الأصوات الحسان من المُرْدِ والنسوان. هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء.

وقد سئل الإمام أبو بكر الطَّرْسوسي عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقصُ والتواجد فأول من أَحْدثه أصحاب السامريّ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حوله ويتواجدون...»[1].

(١) القرطبي ١٠: ٣٧٤.

○ لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن!

قام أصحاب الكهف فقالوا: ربُّنا رب السموات والأرض. لن ندعو من دونه إلهاً، لقد قلنا إذاً شططاً.

وقام أصحاب الكهف فقالوا: هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة، لولا يأتون عليهم بسلطان بين، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً؟.

لقد رفضوا ما عليه قومهم من الكفر بالله، والشركِ به وعبادةِ غيره، واتخاذهم من دونه آلهة.

وطلبوا من قومهم دليلاً وحجة وبرهاناً، وسلطاناً بيناً واضحاً، على جواز ما هم عليه من الباطل.

ثم قرروا النتيجة الطبيعية لذلك، وهي أنه لا أحد أظلم ولا أطغى من الذي يفتري الكذب على الله سبحانه، فيجعل له شريكاً، ويعبد معه غيره.

إن قولهم: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ يقدم حقيقةً قرآنية قاطعة، ويقرر قاعدةً قرآنية ضرورية، في موضوع العقائد والأفكار والآراء.

لولا يأتون عليهم بسلطان بين: هلَّا يقدِّمون حجة وبرهاناً ودليلاً على ما هم عليه.

لولا هنا: ليست حرف شرط، وإنما هي حرف حثّ وحضّ.

لأنه إذا وقع بعدها فعل، كانت حرف حث وتحضيض بمعنى: هلا.

وإذا وقع بعدها اسم كانت حرف شرط، حرف امتناع لوجود.

إن القرآن يريد من الناس جميعاً أن يكونوا علميين منهجيين موضوعيين، في عقائدهم وأفكارهم وآرائهم ونظراتهم، فلا يقبلوا فكراً أو رأياً أو مبدأً لا يتفق مع الصواب، ولا تتوفر فيه العلمية والمنهجية والموضوعية.

وحتى يحققوا هذه الصفة الضرورية لما هم عليه، فلا بد أن يقدموا الدليل والسلطان والحجة والبرهان على ما هم عليه، وأن يكون هذا الدليل والسلطان بيناً واضحاً، يقبله كل عقل سليم، ويتفق مع كل منطق صحيح.

ولو طلب كل إنسان دليلاً وحجة وسلطاناً على ما يؤمن به أو يقوله، ولو ألقى جانباً كل رأي أو فكر أو مبدأ لايَسْتند إلى سلطان بيّن، لتخلى الناس عن كثير مما يقولونه أو يعتقدونه، ويعتبرونه من البديهات المسلَّمة، ولزال الكثير من العقائد والأفكار والمبادئ والنظريات والشعارات، التي تنتشر في العالم في غفلة من البحث العلمي المنهجي الموضوعي القائم على السلطان والدليل والبرهان!.

إن القرآن الكريم يطالبُ الناس بالسلطان والبرهان، ويقدّم طلبه هذا خاصة للكافرين وهو يناقشهم في أفكارهم وعقائدهم ومبادئهم.

قال تعالى في بيان المحرّمات: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وأورد القرآن قولَ المشركين في نسبة الولد إلى الله سبحانه، ثم رده لعدم وجود سلطان لهم به. . . ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].

وقرر القرآن أن المشركين الذين لا يملكون سلطاناً على شركهم، ومع ذلك يُصرُّون على شركهم ويجادلون في آيات الله، إنما يفعلون ذلك بسبب الكبر في نفوسهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾ [غافر: ٥٦].

وأَمَرَ اللّهُ رسولَه محمداً ﷺ أن يرُد عبادة المشركين للأصنام والأوثان، لأنهم لا يملكون السلطان عليها. . . ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ . . .﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣].

إن الكافرين لن يجدوا سلطاناً ولا حجة ولا برهاناً على ما هم عليه من

الكفر والباطل، ولو أَفْنوا أعمارهم، واستغرقوا حياتهم، وأجهدوا عقولهم، وأتعبوا نفوسهم في البحث والطلب والسعي.

إنه لا سلطانَ ولا برهانَ إلا لحقيقةٍ واحدة، وهي حقيقةُ الألوهية والربوبية لرب العالمين سبحانه، والتزام كل ما صدر عن الله من أوامر وأحكام وحقائق وأسس.

إننا نقول للناس في زماننا، الذين يخرجون عن منهج الله، ويتَّبعون غيرَ سبيله، ما قاله أهل الكهف لقومهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾.

○ وإذِ اعْتَزلتموهم...

بعد أن وصل الفتية أصحابُ الكهف إلى هذه المرحلة من البحث والاهتداء، وبعدما علموا قوَّتَهم وقدرتَهم بالنسبة لقوة قومهم وقدراتهم، وأنهم عاجزون عن المواجهة والتغيير، قرروا اعتزال القوم، وآثروا الذهاب إلى الكهف، ونادى بعضهم بعضاً قائلين: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾.

أي: بما أنكم قررتم اعتزالَ قومكم الكافرين، واعتزالَ عبادتهم الباطلة للآلهة من دون الله، فاذهبوا إلى الكهف، وأووا إليه، فهو أفضل مكان للعزلة، وهناك يبسطُ الله عليكم فيه من رحمته، وينشرُها عليكم نشراً، ويهيئ لكم ما يصلح لإقامتكم فيه.

○ متى اعتزلوا قومهم؟

والسؤال الذي يطرح نفسه: متى قرر الفتية المؤمنون اعتزال قومهم؟.

والجواب: إنهم قرروا الاعتزال بعد دراسة للواقع الذي يعيشونه، لقد نظروا في قوة قومهم الكافرين، فوجدوهم يملكون كل وسائل القوة والسلطان، ونظروا في أنفسهم فإذا بهم لا يملكون من تلك القوة المادية شيئاً.

وهذا يعني أنهم إذا واجهوا قومهم وحاربوهم، فإن المعركة ستكون غير

متكافئة، وستكون نتيجتُها معروفة مسبقاً. إنهم لن ينتصروا فيها، فلماذا يخوضونها؟.

ثم نظروا في موقف قومهم، فإذا بهم مُصرّون على الكفر، لا يسمعون كلمة في الدعوة إلى الإيمان بالله، ولا يستجيبون لصاحب تلك الدعوة. بل سيلجؤون إلى الفتك به، وإيذائه وتعذيبه، وقتلِه وسفك دمه. إذن لا فائدة من الجدال معهم أو دعوتهم.

ونظراً لذلك، فقد علم الفتية المؤمنون أنه لا فائدة من وجودهم مع قومهم، ولا إمكانية للبقاء معهم، بل يُخشى أنه يفتنهم قومهم، وأن يردوهم عن إيمانهم.

فلم يبقَ إلا الاعتزال، والذهاب إلى الكهف، ليعيشوا إيمانهم، ويعبدوا فيه ربهم.

لقدكان قرارُهم بالاعتزال والذهاب إلى الكهف صائباً وصواباً، ويتفق مع حالتهم وواقعهم. ولذلك استجاب الله دعاءهم، وبسط لهم من رحمته، وهيأ لهم في كهفهم مِرْفقاً.

○ هل نقتدي بهم في العزلة؟

وقد يثير بعض المسلمين تساؤلاً حول اعتزال أهل الكهف لقومهم، فيقول: بما أن أهل الكهف مؤمنون، وأن قرارهم بالعزلة كان صواباً، وقد أثنى عليهم القرآن لموقفهم، أفلا يجوز أن نقتدي بهم في هذا؟ وماذا علينا لو اعتزلنا قومنا، إلى الكهوف والجبال؟ أو اعتزلناهم وأوينا إلى بيوتنا؟.

وللإجابة على هذا، نقرر أنه لا يجوز للمسلم أن يعتزل الناس عزلة مادية حسية، لا يتصل بهم ولا يخالطهم ولا يدعوهم ولا ينصحهم. ولا يجوز له أن يقتدي بأهل الكهف في هذا.

○ من الفروق بيننا وبينهم:

هناك فروق جوهرية بين واقع المسلمين وبين أهل الكهف، وهذه الفروق

تمنع أن يُقاس واقع المسلمين على واقع أهل الكهف. ومن هذه الفروق:

١ ـ لأهل الكهف شرعٌ غيرُ شرعنا، وإن شرعهم أجاز لهم اعتزال قومهم، وأعذرهم في عدم تبليغهم، ونحن لا نقتدي بهم في هذا الحكم، والراجح عند الأصوليين **أنّ شرع مَنْ قبلنا ليس شرعاً لنا**.

٢ ـ شرْعُنا صريح في منع العزلة، وفي وجوب التبليغ والدعوة، وفي القرآن آيات صريحة في ذلك منها:

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ [الجن: ٢٢ ـ ٢٣].

إن الإِسلام لا ينتشر إلا بمخالطةِ الناس ودعوتهم، وإن المسلم لن يقوم بواجبه، ولن ينجوَ من المساءلة والعذاب، إلا عن طريق الدعوة والتبليغ والبيان.

٣ ـ الرسول ﷺ يحثُّنا على مخالطةِ الناس، والصبرِ على أذاهم، وينهانا عن اعتزالهم.

ونكتفي من توجيهاته حول هذا الأمر بهذا الحديث. فقد روى ابن ماجة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المُؤْمِنُ الذي يُخالِطُ النَّاس، ويَصْبِرُ عَلى أذاهُمْ أَعْظَمُ أَجْراً مِنَ المُؤْمِنِ الذي لا يُخالِطُ النَّاس، وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذاهُمْ»[1]

إن مخالطة الناس تكون من أجل نُصحهم وتذكيرهم، ولا يجوز أن تكون على حساب الدين والتقوى والطاعة، فلا يجوز للمسلم أن يتفلّت من دينه، أو يتخلى عن مبادئه، أو يمارس المنكرات والمحرمات، بحجة مخالطة الناس.

---

(١) ابن ماجه كتاب ٣٦، الفتن. باب ٢٣ الصبر على البلاء، حديث ٤٠٣١.

وكم كان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه دقيقاً وذكياً وموضوعياً ومتوازناً عندما قال: «خالِطِ النَّاسَ، وَدينَكَ لا تَكْلِمَنَّهْ...»[1].

والكَلْم هو الجرح.

أي خالط الناس بتوازن وتناسق، وإِيّاك أن تَكْلِم دينك وتجرحه، من خلال ارتكاب المحظور، وفعل المنكر، وترك الواجب.

٤ ـ ثم هناك فرق رابع بيننا وبين أهل الكهف، وهو الواقع الذي نعيشه، لقد كانوا يعيشون بين قوم كافرين، مصرِّين على كفرهم، رافضين الدعوة والنصح، فكان لا بد من الاعتزال.

أما نحن فإننا نعيش وسط أناس مسلمين ـ غالباً ـ توجَد بيننا وبينهم مادةٌ مشتركة ـ وهي الإِسلام ـ يمكن أن ننطلقَ معهم منها، وأن نبنيَ عليها، وأن نعيدهم من خلال المخالطة، إلى دائرة الالتزام والطاعة.

○ بين العزلة المادية والعزلة الشعورية:

على أنه من الواجب أن نشير هنا إلى العزلة الشعورية، والفرق بينها وبين العزلة الحسية المادية.

العزلة الحسية المادية هي أن تغادر الناس، وتعتزلهم بجسمك وبدنك وحياتك، وتختار أن تعيش في عقر بيتك أو في الكهوف والجبال. وعرفْنا أن هذا لا يجوز.

أما العزلة الشعورية، فهي المخالطة للناس، مع التميز عنهم بالفكر والتصور، والأخلاق والسلوك، هي أن تعتزل ما هم عليه من الباطل بشعورك وتصوُّرك، وأن لا تأخذ إلا من إسلامك، وبهذا تخالطهم لتؤثر فيهم، وأنت في مناعة عن التأثر بهم!.

---

(١) رواه البخاري ـ تعليقاً ـ في كتاب ٧٨ الأدب، باب ٨١ الانبساط إلى الناس، في ترجمة الباب.

○ بين ضيق الدنيا وسعة الكهف:

قرر الفتية المؤمنون اعتزالَ قومهم، وأووا إلى الكهف، آملين أن ينشر عليهم ربهم من رحمته، واستجاب الله لهم، وحقق لهم أملهم ورجاءهم، فنشر عليهم في الكهف من رحمته.

وإن الإنسان ليعجَب من هذه اللقطة:

لقد ضاقت على أولئك الفتية المؤمنين، الدنيا الواسعةُ العريضةُ التي كانوا يعيشونها مع قومهم الكافرين. ضاقت عليهم على سَعتها، لأنها خالية من الإيمان، ضاقت بهم لأنها امتلأت كفراً بالله.

وتضيق الدنيا والحياة، عندما تخلو من الإيمان، وعندما يعمها الكفر والفسوق والضلال. فيراها المؤمن ضيقة، تكاد تكتم أنفاسه.

أما الكهف ـ الضيق ـ فقد اتَّسَع من حولهم، فأحسّوا أنه واسع عريض، فمن أين جاء هذا الإحساس؟.

إنه إحساس حقيقي، وليس وهماً أو تسلية أو ظناً، إن المؤمن يشعر بأُنس وراحة وانشراح، عندما يمارس إسلامه ويعيش حقائق إيمانه.

وهذا ما وجدوه في الكهف. لقد عاشوا داخلَه مؤمنين، وتذوقوا فيه لذة العبادة، وأنس المناجاة، وحلاوة الإيمان، فشعروا بسَعته.

إن التي جعلت كهفهم واسعاً هانئاً ميسَّراً للحياة، هي رحمة الله التي طلبوها، فاستجاب لهم، ونشرها عليهم ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

لقد نشر عليهم ربهم من رحمته، فملأتْ عليهم كهفهم، فعاشوا بها سعداء هانئين. وصدق الله القائل: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢].

ما أقسى الحياة بدون رحمة، وما أضيق الدنيا بدون رحمة. إن الرحمة الربانية الحانية ما نُشِرتْ على شيء إلا سهَّلتْه وهيأتْه وجعلته هانئاً صالحاً للحياة، وإن الرحمة الربانية الحانية، ما شملت مؤمناً إلا جعلتْه هانئاً سعيداً مسروراً، يعيش حياته بعزة وكرامة وسعادة وهناء.

○ **سيد قطب يتحدث عن أثر رحمة الله:**

لقد تحدث سيد قطب عن أثر رحمة الله على الحياة عندما تتخللها، وعلى الدنيا عندما تُنشر عليها، وعلى المؤمن عندما تغمره. كما تحدث عن أثر الحياة بدون تلك الرحمة.

وكان من ما قاله: «وما من نعمة يُمسك الله معها رحمته، حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة تَحفُّها رحمة الله، حتى تكون هي بذاتها نعمة. ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله، فإذا هو مِهاد، وينام على الحرير وقد أمسكت عنه، فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسرَ الأمور، وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعْبُر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار.

ولا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهِب السجن، أو في جحيم العذاب، أو في شعاب الهلاك، ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء.

فمن داخل النفس برحمة الله تتفجر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة»[١].

ثم يعرض نماذجَ لأنبياء وصالحين فتح الله عليهم ما فتح من رحمته، فغيرت ما حولهم إلى سَعَةٍ ويُسر:

«ورحمة الله لا تُعَزّ على طالب في أي مكان، ولا في أي حال. وجدها إبراهيم عليه السلام في النار، ووجدها يوسف عليه السلام في الجُبّ ثم في السجن. ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى عليه السلام

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٢٢.

في اليم، وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون، وهو عدوٌّ له متربص به يبحث عنه.

ووجدها أصحاب الكهف في الكهف، حين افتقدوها في القصور والدور، فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، والقوم يتعقبونَهما ويقصّون الآثار. ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ما سواها، منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنَّة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب»[١].

○ ويذكر تجربة له في التعامل معها:

لقد تعامل سيد قطب مع رحمة الله تعاملاً حياً، وعاشها حقيقة حياتية واقعية، ورأى كيف تكون الحياة مع الرحمة. وذكَرَ لنا تجربتَه العملية الحية معها. فقال: «ويبقى أن أتوجَّه أنا بحمد الله على رحمةٍ منه خاصة، عرفتُها منه في هذه الآية.

لقد واجهتْني هذه الآية في هذه اللحظة، وأنا في عُسر وجهد وضيق ومشقة. واجهتْني في لحظة جفافٍ روحي، وشقاءِ نفسي، وضيقٍ بضائقة، وعسر من مشقة. واجهتْني في ذات اللحظة. ويسَّر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها. وأن تسكب حقيقتها في روحي، كأنما هي رحيقٌ أرشفه، وأحس سريانَه ودبيبَه في نفسي. حقيقة أذوقها لا معنى أدركُه. فكانت رحمةً بذاتها، تقدِّم نفسَها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحتْ لي تفتحها هذا.

وقد قرأتُها من قبل كثيراً، ومررتُ بها من قبل كثيراً. ولكنها اللحظة تسكب رحيقَها وتحقق معناها، وتتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: هاأنذا نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون!.

إنه لم يتغير شيء مما حولي، ولكن لقد تغير كل شيء في حسي. إنها نعمة ضخمة، أَنْ يتفتح القلبُ لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة

---

(١) المرجع السابق ٥: ٢٩٢٣.

الكبرى التي تتضمنها الآية...»[1].

○ موقع الكهف:

كان من تيسير الله للفتية المؤمنين، الكهفُ الذي ألهمهم باللجوء إليه، وقد أشار القرآن إلى موقع الكهف، وإلى الآيات التي كانت فيه، وإلى الجنود الربانيين الذين سُخِّروا لخدمتهم وتيسير إقامتهم فيه: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾.

وقد استدل الإمام ابن كثير بالآية على أن باب الكهف كان نحو الشمال، فقال: «فهذا فيه دليلٌ على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال. لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلتْه عند طلوعها، تَزاور عنه ذات اليمين، أي يتقلص الفيء يمنة من خلال ميلان الشمس، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقَلَّص شُعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في ذلك المكان. ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية الشرق، فدل على صحة ما قلناه»[2].

وإذا كُنا نُوافق الإمامَ ابن كثير على استدلاله بالآية على موقع الكهف، فإننا لا نوافقه على أن الشمس تدخل الكهف من شمال بابه عند الغروب. لأن الآية أخبرتْ أن الشمس تَقْرِضُهم عند غروبها ذات الشمال. ومعنى تقرضهم: تبتعد عنهم وتعدل عنهم. فإن القرْض معناه: القطع.

قال مجاهد: تقرضهم: تتركهم.

وقال قتادة: تقرضهم: تَدَعُهم.

وقال النحاس: القَرْض القطع والترك، وهذا معروف في اللغة.

وقال القرطبي: والمعنى أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البتة كرامةً لهم.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣: ٧٥.

وهو قول ابن عباس»[1].

○ ذلك من آيات الله:

ذهب جمهور المفسرين إلى أن الشمس كانت لا تصيبهم عند الشروق وعند الغروب، نظراً لموقع الكهف وبابه الذي كان جهة الشمال، وحول هذا المعنى، يقول الإمام ابن كثير: «وهذا بيِّن لمن تأمله، وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب.

وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق، لما دخل إليه منها شيء عند الغروب. ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تَزَاوَرَ الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من ناحية الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب»[2].

ونذكِّر بأننا لسنا مع ابن كثير في فهمه لحركة الشمس، وأنها تدخل كهفهم عند الشروق وعند الغروب. لأن الراجح من كلمات الآية، أن الشمس كانت لا تدخل الكهف البتة، لا عند الصباح ولا بعد الزوال ـ والله أعلم ـ.

وقد اعتبر القرآن موقعَ الكهف وحركةَ الشمس حوله، من آيات الله، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

ومعنى كون هذا من آيات الله: أن الله هو الذي قدَّر لهم أن يأْووا إلى ذلك الكهف، وألهَمهم أن يلجأوا إليه، وشاء الله سبحانه أن يكون الكهف في ذلك الموضع، وأن تكونَ حركة الشمس حوله بتلك الكيفية.

لكن للزجاج فهمٌ آخر للآية. حيث يرى «أن فعل الشمس كان آيةً من الله، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠: ٣٦٩. انظر المحرر الوجيز ١٠/٣٧٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣: ٧٥.

(٣) تفسير القرطبي ١٠: ٣٦٩، وقد قال برأي الزجاج ونصره ورد الآخر الإمام الشنقيطي في أضواء البيان ٤: ٣٣، ٣٤.

أي أن الشمس كان من الممكن أن تدخل الكهف، لو تُرِك الأمر على طبيعته، ولكن الله أمرها بأن تتقاصر عنهم، وتزاور عنهم في الصباح، وتبتعد عنهم بعد الظهر، فلو لم يأمرها الله بذلك لدخلت الكهف!.

لكن الأرجح ما ذهب إليه جمهور المفسرين ـ والله أعلم ـ.

○ تصوير وضْعهم داخل الكهف:

صوَّر القرآن الكريم وضْعَهم داخل الكهف تصويراً دقيقاً حياً مؤثِّراً بحيث نكاد نراهم ونحس بهم. وهذا من حيوية التصوير القرآني المعجز الفريد.

قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

في الآية السابقة إشارةٌ إلى تقدير الله لهم في الكهف، بحيث كان مناسباً لهم، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى تقدير الله لهم وهم نائمون مقيمون داخل الكهف، بحيث يبقى حافظاً لهم بإذن الله.

وهذا التقدير الرباني تمثل في أمور. منها:

١ ـ جعَلهم ينامون في الكهف سنين طويلة، على أن لا تأكلَ الأرضُ أجسادهم، ولا تبلى حواسُّهم، ولا يقترب أحد منهم.

٢ ـ وحتى يتحقق ذلك كانت عيونهم مفتوحة الأحداق رغم أنهم نائمون. وذلك لئلا تفسد وتبلى، وكونُها مفتوحة ليدخل إليها الهواء، فيكون هذا أبقى لها.

٣ ـ وهناك هدفٌ آخر من بقاء عيونهم مفتوحة، هو المتمثل في قوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ إنها لإخافة الناظر إليهم، فلا يمدُّ يده إليهم بسوء، إنه عندما ينظر إليهم يرى عيونهم مفتوحة، وكأنها تحدق به وتنظر إليه، فيولِّي منهم فراراً.

٤ ـ وحتى لا تأكل الأرض أجسادَهم، كان التقليب لهم: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

واختيار الفعل المضارع «نُقَلِّبُهُمْ» الذي يدل على التجدد والاستمرار، يدل على أن التقليبَ كان دائماً مستمراً، وليس مجردَ مرتيْن في العام كما قال بعض السابقين.

وإسناد التقليب إلى الله، يدل على أنه فعلُ الله وقدَرهُ وأمره، ولا ينفي هذا أن يكلِّف الله ملَكاً من ملائكته ليقوم بالتقليب.

٥ ـ ومن كمال الاعتناء بهم وحفظهم، قدَر الله أن يكون كلبهم على عتبة الباب، حيث جَلَس على عتبة الباب وبَسَط ذراعيه ونام. وحركتُه ثابتة مستقرة، فلم يشمله التقليب، لأن «باسط» اسم فاعل، وهو يفيد الثبات والاستقرار على حالة واحدة، ومَنْ هو الذي يجروء على الاقتراب منهم وإيذائهم، وكلبهم حارس لهم بالوصيد؟.

٦ ـ إلقاءُ الرعبِ والخوفِ في قلب كل من يفكر بإيذائهم والاعتداء عليهم، بحيث يولِّي منهم فراراً.

○ التصوير الدقيق للكهف ووضْعهم فيه دليل على مصدر القرآن:

نلاحظ أن القرآن عَرَض لنا تفصيلات دقيقة ـ على طريقته التصويرية المعجزة ـ عن الكهف وموقعه وحركة الشمس معه، وعن الفتية داخله.

وقد اعتبر العلماء هذه التفصيلات القرآنية، دليلاً على مصدر القرآن، وحجةً على أنه من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ.

ووجهُ الاستدلال بذلك. أن الرسول عليه الصلاة والسلام سُئل عن أهل الكهف، فجاء الجواب بهذه التفصيلات. وهذه التفصيلات لم تُذكر في التوراة ولا في الإنجيل حث يُنفى احتمال أخذها عن تلك الكتب.

ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يَرَ الكهف في حياته، ولم يقف عليهم داخلَه، وبهذا يُنفىٰ احتمال أن يكون قد استوعب تلك التفصيلات، ثم صاغها من عنده.

فكيف عَرَفَ الرسول ﷺ بتلك التفصيلات التي لم يعرْفها أحد من البشر، ولم يأخذها عن أحد من البشر؟.

لا يَبقى إلا أن الله سبحانه ـ العليم الخبير ـ هو الذي أوحى لرسوله ﷺ بها، وبهذا يَثبت مصدر القرآن، وأنه من عند الله.

قال الإمام السهيلي في الرَّوْضِ الأُنُف: «والفائدةُ العظمى من هذه الصفات، أن هذا البيان لا يكاد يعرفه من رآهم، فإن المطَّلع عليهم يُملأ منهم رعباً، فلا يمكنه تأمل هذه الدقائق من أحوالهم. والنبي ﷺ لم يَرَهم قط، ولا سمع بهم، ولا قرأ كتاباً فيه صفتُهم لأنه أمّيّ في أمّة أمّية، وقد جاءكم ببيان لا يأتي به مَنْ وصل إليهم. لولا الوحي الذي جاءه من الله سبحانه بالبيان الواضح الشافي، والبرهان الكافي»[(١)].

○ كلبهم تناله بركتهم:

لم يُغفل القرآن ذكرَ الكلب الذي رافقهم، وتصويرَ وضعه وهو باسط ذراعيه بالوصيد.

وقد يتساءل بعضهم عن الحكمة من ذكر كلبهم معهم.

ولعل الحكمة في ذلك، هي الإشارة إلى مصدر القرآن ـ كما قلنا قبل قليل ـ فكيف سيعرف رسولُ الله ﷺ، أن الكلب باسطٌ ذراعيه بالوصيد لولا الوحي؟.

وقد ذكر العلماء أن كلبَهم نالتْه بركتُهم بصحبته لهم:

قال الإمام ابن كثير: «وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحالة. وهذه فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكرٌ وخبر وشأن»[(٢)].

وقال الإمام القرطبي: «إذا كان بعضُ الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا، بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه، فما ظنُّك بالموحِّدين المؤمنين المخالِطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا

---

(١) الروض الأنف للسهيلي ٣: ١٦٥، ١٦٦ باختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٣: ٧٦.

تسليةٌ وأُنس للمؤمنين المقصِّرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ. . .»[1].

وعند إمعان النظر في الآيات، فإننا نجد فرْقاً بين الإِخبار عن الفتية، والإِخبار عن كلبهم.

أما هم فقد كانوا يقلَّبون ذات اليمين وذات الشمال، بينما لم يشمل التقليبُ كلبهم، حيث بسط ذراعيه بالوصيد، ونام على هذه الكيفية.

وقد حاول الإِمام السهيلي استخراجَ حكمة من عدم تقليب الكلب، فقال: «إن التقليب كان من فعل الملائكة بهم، والملائكة أولياء المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والكلبُ خارجٌ من هذه الآية. ألا تراه قال: بالوصيد. أي: بفناء الغار، لا داخلاً معهم، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب!»[2].

وتبدو حكمةٌ غيرُ هذه، وهي إشارة إلى قدرة الله على حفظ النائمين، وهذه القدرة الربانية غيرُ محكومة بالأسباب. فالفتية حفظهم الله عن طريق التقليب، فلم تأكل الأرض أجسادهم. بينما حفظ الله كلبهم بدون تقليب، فلم تأكل الأرض جسده، رغم استقراره فوقها بدون حراك ثلاثمائة وتسع سنوات!!.

○ تصرُّف الفتية بعد بعثهم من نومهم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

بعث الله أهل الكهف من رقدتهم التي استمرت ثلاثمائة وتسع سنوات، وهناك لفتةٌ لطيفة من تعبير القرآن عن استيقاظهم بالبعث ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ لأن الأمر كان شبيهاً ببعث الأموات من قبورهم! وإلا فهل من الممكن أن ينام إنسان أكثر من ثلاثمائة سنة ويبقى محتفظاً بجسمه، ويستيقظ بعد ذلك من نومه؟ إنها معجزة ربانية ظاهرة، تدل على قدرة الله سبحانه الطليقة وإرادته النافذة.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠: ٣٧١، ٣٧٢.

(٢) الروض الأنف ٣: ١٦٦، ١٦٧.

كما يفيد التعبير بالبعث، أنهم احتفظوا بأجسامهم وحواسهم وشعورهم وملابسهم، لم يُنقَص منها شيءٌ.

﴿بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ هذه اللام هي لام العاقبة. بمعنى أنه نتج عن بعثهم تساؤلهم فيما بينهم.

تساءلوا عن مدة لبثهم في الكهف. فقال قائل منهم: كم لبثتم نياماً في الكهف؟ فأجابه أحدهم قائلاً: لبثْنا يوماً أو بعض يوم! فلعلَّنا نمنا يوماً كاملاً، أو جزءاً من اليوم.

هذا ما كانوا يتوقعونه، فكل ما حولهم في الكهف يوحي بهذا، ولا يدل أنّ نومهم كان طويلاً، فلم يَفْسد ولم يَبل ولم يتغير شيء مما حولهم.

ويبدو أن بعضهم اعتبر تلك الإجابة غيرَ دقيقة، وعلموا أنهم عاجزون عن تقدير مدة لبثهم، فأوكلوها إلى الله وقالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

ونأخذ من موقفهم هذا درساً وعبرة، بحيث لا نُتعب أنفسنا في الخوض فيما لا نملك الوسائل اليقينية السليمة الهادية، للخوض فيه، لأن هذا يُعتبر مضيعةً للوقت والجهدِ والفكر، فعلينا أن نَكِل ذلك إلى الله وعلمهِ سبحانه، ونقول فيما لا نملك الخوض فيه: الله أعلم به.

○ دلالات مما أوصَوا به مبعوثهم إلى المدينة:

﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

ويتضمن هذا التوجيه الذي وجَّهوا به مبعوثهم إلى المدينة عدة دلالات وإيحاءات وإشارات. نشير إلى بعضها فيما يلي:

○ أولاً: جواز الوكالة:

أخذ بعض العلماء من قول أصحاب الكهف: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ دليلاً على جواز الوكالة في الإسلام. ووجه الاستدلال، أنهم

وكَّلوا أحدهم لشراء ما يحتاجون إليه من المدينة، وأعطوه أموالهم من أجل ذلك.

قال الإِمام الشنقيطي في أضواء البيان: «جوازُ الوكالة وصحتُها. لأن قولهم: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾ يدل على توكيلهم لهذا المبعوثِ لشراء الطعام.

وقال بعض العلماء: لا تدل الآية على جواز التوكيل مطلقاً، بل مع التقية والخوف، لأنهم لو خرجوا كلهم لشراء حاجتهم لعلم بهم أعداؤهم في ظنهم. فهم معذورون. فالآية تدل على توكيل المعذور دون غيره.

وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وهو قول سحنون من أصحاب مالك في التوكيل عن الخصام»[1].

وقد اعتبر الشنقيطي هذه اللفتة حول الوكالة، مناسبة ليقول في الوكالة والشركة، ويتحدث عن مسائلهما وأدلتهما ومباحثهما، حيث خصص لها ثلاثين صفحة من أضواء البيان[2].

ونرى أن الاستدلال بهذا على صحة الوكالة في ديننا فيه نظر، لأن الراجح أن شرع مَنْ قَبْلنا ليس شرعاً لنا.

كما نرى أن استطراد الإِمام الشنقيطي للوكالة والشركة، خروجٌ عن البقاء مع إيحاءات النص في التفسير.

○ ثانياً: جواز الشركة:

أورد الشنقيطي استدلال بعض المالكية من قول أهل الكهف ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾ على صحة وجواز الشركة. فقال: «أورد بعض المالكية من هذه الآية الكريمة جوازَ الشركة، لأنهم كانوا مشتركين في الوَرِق ـ أي الفضة ـ التي أرسلوها ليشتريَ لهم الطعام بها.

---

(١) أضواء البيان ٤: ٤٥.

(٢) انظر: أضواء البيان ٤: ٤٥ ـ ٧٥.

وقال ابن العربي المالكي: لا دليل في هذه الآية على الشركة لاحتمال أن يكون كلُ واحد منهم أرسل معه نصيبه منفرداً، ليشتري له به طعامه منفرداً.

وعلق الشنقيطي على كلام ابن العربي: وهذا الذي ذكره ابن العربي مُتَّجِه كما ترى»[1].

ونعلِّق نحن على هذا الاستدلال والخلاف بأنه لا داعي له، لأن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا. وعندنا من النصوص والأدلة على جواز الشركة ما يكفينا.

○ ثالثاً: البحث عن الطعام الحلال الزاكي:

كلَّفوا مبعوثهم إلى المدينة بالنظر والبحث، وإحضار الطعام، الحلال ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾.

إن فعل «فلينظر» يدل على وجوب النظر والبحث والتحري، وإحسان الاختيار، وهذا ألزم ما يكون عند انتشار الحرام، وسيادة الجاهلية، وقلة الحلال، فإن المسلم مطالب في هذه الحالة بالنظر والبحث عن الحلال، وأن لا يختار الحرام.

أما كلمة ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ فإنها تقدم لنا لفتة قرآنية بديعة حول الطعام الزاكي.

معنى أَيُّها أَزْكى طَعاماً، أيها أحلُّ طعاماً، كما قال ابن عباس.

وهناك من قال: أزكى طعاماً: أطيب طعاماً. ومنهم من قال: أرخص طعاماً، ومنهم من قال: أكثر طعاماً.

وقد رجح الإمام ابن كثير الأول «والصحيح الأول. لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً»[2].

○ رابعاً: القرآن والذوق العام في الطعام:

ونأخذ من قولهم: ﴿أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ إشارة أخرى. حيث أرادوا بالأزكى طعاماً: الأحل الأطيب طعاماً.

---

(١) المرجع السابق ١٠: ٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٣: ٧٧.

الزكاة هنا توحي بالطهارة والنماء، والفضل والبركة.

إن القرآن يريد منا، أن تكون أذواقنا وأمزجتُنا في اختيار أصناف الطعام واللباس، ملتزمةً بتوجيهات الإِسلام، ومبادئ الحلال والحرام.

وهذه القضية تُشَوِّهها الجاهلية، ويلوِّثها أصحابها الجاهليون، لأن أذواقهم وأمزجتهم مريضةٌ ومشوَّهَة ومزوَّرة.

إن الطعام المفضَّل عندهم الذي يعتبرونه الأزكى طعاماً، هو المتفق مع أحدث أساليب الطهي والإِعداد والأكل، وهم يُقْصون العامل الديني، ولا يبقونه في دائرة الحلال والحرام.

وإن مما يؤسف له أن تصل هذه النظرة الجاهلية للأزكى طعاماً، إلى بعض المسلمين، حيث يرفضون إقحام الحلال والحرام في الطعام، ويعتبرونه متناقضاً مع الذوق السليم والمزاج الصائب، في اختيار الأزكى طعاماً.

إن الأزكى طعاماً في الحياة، هو الأطيب والأحلّ، وإن الأزكى لباساً في الحياة هو المتفق مع توجيهات الإِسلام. وإن الطعام الحرام واللباس الحرام، هو الأخبث والأسوأ.

وإن ذوق المسلم الذي يرفعه ويُهذِّبه القرآن، وإن مزاجه الذي يقوده ويسيِّره الإِسلام، يرفض الطعام الحرام واللباس الحرام، لأنه يعتبره في دائرة الخبيث السيئ المرفوض.

كل طعام حلال فهو الزاكي، وكل طعام حرام فهو خبيث، وكل لباس حلال فهو الزاكي، وكل لباس حرام فهو خبيث.

وإن هذه الإِشارة القرآنية لتدعونا إلى الالتفات إلى إشارات القرآن وإيحاءاته ولطائفه، وإلى استخراج بعض الأدلة الصائبة منها. وإن القرآن ليحوي إشاراتٍ منوعة، ولفتات شاملة، في مختلف مجالات الحياة، المهم أن نعرف كيف نلتفت إليها ونستخرجها ونتعامل معها.

○ خامساً: «وليتلطَّفْ»:

أوصى الفتية مبعوثهم بأنِ يتلطف. يتلطف مع أهل المدينة عندما يقابلهم، وعندما يشتري منهم.

وتلطفُه بأن يكون سمحاً هيناً ليناً، سهلاً ميسَّراً.

وتوصيتهم له بالتلطف، التفات ذكي منهم إلى أهمية اللُّطف واليسر والسماحة في الحياة، وفي الاتصال بالناس والتعامل معهم، وفي البيع والشراء.

وهي لفتة ضرورية لكل مسلم، ووصيةٌ هامة له، إن حياته لن تستقيم إلا بالتلطف، وإن علاقته مع الآخرين لن تتوثق إلا بالتلطف، وإن تعامله معهم في مختلف مجالات العمل ومرافق الحياة، لن ينجح إلا بالتلطف.

وشتان بين رجل لطيفٍ مع الناس، وبين رجل آخر سيئ نكدٍ، حادٌ عصبيٍ المزاج.

واللطفُ واليسر والسماحة واللين، ملازمةٌ للخلق الحسن، والنفس الراضية، والطبيعة الهادئة، وهذه أمور يمكن أن تحصل بالتجربة والمجاهَدة، والمران والدربة، فالحلم بالتَّحلُّم واللطف بالتلطُّف.

وقد أشار القرآن إلى فضيلةِ اللطف، وأهميةِ السماحة واليسر، ونعمةِ اللين مع الناس، عندما امتنَّ الله على رسوله ﷺ بذلك الخُلُق النبوي الكريم، فقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وحثَّنا رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة على التلطف والرفق واللين مع المسلمين.

منها ما رواه مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّه»[١].

---

(١) رواه مسلم في ٤٥، كتاب البر والصلة، باب ٢٣ فضل الرفق، حديث ٢٥٩٢.

ومنها ما رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائِشَة: إنَّ اللَّهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْق، ويُعْطي عَلى الرِّفْق ما لا يُعْطي على العُنْف»[1].

إنها دعوة إلينا، من أصحاب الكهف ومن القرآن ومن رسول الله ﷺ، كي نتلطف في حياتنا، نتلطفَ في أقوالنا وأعمالنا، وحياتنا وارتباطاتنا، وصلاتنا وتعاملنا. عندها نجد الحياةَ راحةً وسعادة، وبركة وهناء، ونجد الصِلات مع الآخرين يسراً وليناً وخيراً.

وصدق الله حيث يقول: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وحيث يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

○ سادساً: إخفاء أمرهم على قومهم:

ومما أوصى به أهلُ الكهف مبعوثَهم، أن يُخفي أمره وأمرهم على قومهم: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

طلبوا منه من قبل، أن يتلطف، ومن ذلك: التلطفُ في حركته وفي قدومه للمدينة، وفي شرائه، وفي تصرُّفه، وفي عودته، بحيث يُخفي أمره عليهم، فلا يشكُّون فيه، ولا يرتابون في أمره، ولا يلاحقونه ويتعقبونه.

وعلَّلوا هذا التخفي والتلطف والإسرار، بأن قومهم إنْ عرفوا بهم، واكتشفوا أمرهم، ووصلوا إلى كهفهم، وظهروا عليهم، فإنهم سيرجمونهم أو يقتلونهم، أو سيعيدونهم في دينهم الباطل وملتهم المنحرفة، ويجعلونهم يكفرون بالله، ويشركون معه غيره، وبهذا لن يفلحوا أبداً.

ونفهم من هذا أن أهل الكهف كانوا حريصين على إخفاء أمرهم، وأن لا يشعر بهم قومهم، ولذلك يريدون التخفي عن عيونهم.

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب الرفق، حديث رقم ٢٥٩٣.

وهذا يشير إلى مشروعية إخفاءِ الدعاة تنظيمهم عن قومهم، وجوازِ إسرارهم بحركاتهم عن الآخرين، وعدم كشفهم لانتماءاتهم وارتباطاتهم.

يجوز للعمل الإِسلامي التنظيمي أن يكون سرياً متخفِّياً، إذا دعت الضرورة إليه.

إن أعداء هذا الدين يريدون القضاءَ عليه، ومحاربةَ جنوده ورجاله، وإزالةَ كل صور وألوان العمل الإِسلامي، فإذا ما وُجِد الدعاة في بيئة كهذه، وكانوا في مرحلة ضعفٍ واستضعاف، جاز لهم الإِسرارُ بتنظيمهم، وإخفاءُ أمرهم على خصومهم.

لكن عليهم أن يتقدموا بدعوتهم للآخرين، ويعلنوا إسلامَهم، وينصحوا قومهم، وينتصروا لدينهم، فلا يقعدُ بهم الإِسرار والتخفي، عن أداءِ هذا الواجب.

وإن التنسيق والتوفيق بين الإِسرار بالحركة والتنظيم، والجهرِ بالدعوة والبيان، يحتاج إلى توازن وفقهٍ وفطنة، وتوفيق من الله سبحانه.

وقد عرض لنا القرآن نماذج وأمثلةً للإِسرار والتخفي، وعدم إشعار الآخرين بما عليه الشخص. كما فعلتْ أختُ موسى بتوجيهٍ من أمها عندما ذهبتْ تقصُّ خبر أخيها، حيث بصرت به عن جُنُب وهم لا يشعرون.

أما في السيرة: فعندنا كثير من النماذج والأمثلة على إسرار رسول الله ﷺ بتنظيمه الإِسلامي في أول الدعوة وأثنائها، في الفترة المكية والفترة المدنية، ومن أبرز الأمثلة ما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه في قصة إسلامه، وموقفُ فاطمة بنت الخطاب من أم أبي بكر الصديق، عندما جاءتها تسألها عن رسول الله ﷺ. وتكليفُ الرسول عليه الصلاة والسلام لعمِّه العباس رضي الله عنه، بالبقاء في مكة لتقديم أخبار أهلها للمسلمين.

○ الحكمة من بعثهم وكشف أمرهم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾.

هناك فجوةٌ فنية في قصة أصحاب الكهف، فجوةٌ بين تكليف الفتية لأحدهم بالذهاب إلى المدينة، ليُحضِر لهم الطعام، وبين عودته إليهم في الكهف، وقد كُشف أمرُهم، فجوةٌ عن سير ذلك الرجل حتى وصل المدينة، ومفاجآت ما رآه فيها، وما جرى بينه وبين أهلها، وعودتِه بتعجب ودهشة إلى أصحابه.

فجوةٌ لا نجد عنها شيئاً في الروايات الصحيحة، ولا نأخذ فيها عن الروايات غير الصحيحة.

فجوة لم يقل القرآن عنها شيئاً، وكأنه يدعو القارئَ إلى أن يملأها بما يتخيله بخياله عنها، وما يتوقعُه بخياله من أحداثٍ ومفاجآت.

المهم أن المبعوثَ إلى المدينة كُشف أمرُه ـ ولا ندري كيف ـ فعاد إلى أصحابه في الكهف، ولحق به أهلُ المدينة، فلما وقفوا على باب الكهف وجدوا المؤمنين بداخله أمواتاً، موتاً حقيقياً هذه المرة.

لقد أعثر الله على أهل الكهف، وجعلَ أهلَ المدينة يكتشفونهم، ويقفون على أمرهم.

وأشار القرآن إلى الحكمة من ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾.

لقد كان ذلك ليعلم أهلُ المدينة أن وعد الله حق، وأن الساعةَ لا ريب فيها.

وعْدُ الله لعباده المؤمنين حق لا محالة، إنه معهم بالرعاية والحفظ والنصر والتثبيت. فكل من حقَّق الشروط المطلوبة فلْيوقِن بتحقيق وعد الله.

فهاهم أصحاب الكهف لجأوا إلى الله، فكان الله معهم، وحَماهم وحفظهم، وأبقى أجسادَهم سليمة وهم نائمون مئات السنين.

ولقد أعثر الله عليهم، ليعلم أهل المدينة ـ والناسُ من بعدهم ـ أن الساعة لا ريب فيها. ووجْهُ دلالة قصة أصحاب الكهف على البعث يوم القيامة، أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين، وفارقتْ أرواحهم أجسادَهم طوال

تلك المدة المديدة، ثم ردَّ الله أرواحهم إلى أجسادهم، فاستيقظوا من نومهم.

وطالما أن الله قادر على أن يعمل بهم هذا، وعلى بعثهم من نومهم الطويل، فإنه سبحانه يكون قادراً على بعث الناس يوم القيامة. بعثهم بعد إعادة أرواحهم إلى أجسادهم البالية.

إن قصة أصحاب الكهف من أقوى الأدلة القرآنية العملية على البعث يوم القيامة، ويَبقى هذا الدليل القرآني يقدم دلالته حتى يوم القيامة.

○ قومهم فريقان تجاههم:

تنازع قومهم في أمرهم، ويبدو أنهم كانوا مؤمنين بالله، موحِّدين له: ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

لقد انقسموا بشأنهم إلى فريقين:

الفريق الأول: هم المؤمنون الصالحون. حيث قالوا: ابنوا عليهم بنياناً، ربهم أعلم بهم.

لقد طالبوا ببناء بنيان عليهم، وهو ليس مسجداً، أو من أجل تقديسهم، وإنما هو من أجل إكرامهم بدفنهم وحفظهم داخل البنيان، ومعروف أن إكرام الميت دفنُه.

وهؤلاء المؤمنون لم يخوضوا في أمرهم، لأنهم يعلمون أنهم لا يملكون من الوسائل والأدوات ما يعينهم على البحث والخوض والدراسة والتحليل، وطالما أنهم لا يملكون ذلك، فلا يجوز أن يذهبوا إلى الافتراضات والأساطير، ولا أن يُضيِّعوا أوقاتهم وعقولهم وأفكارهم فيما لا فائدة منه.

عليهم إذن أن يكِلوا الأمر إلى علم الله، وأن يفوِّضوا في معرفة الأمر إلى الله سبحانه العليم الخبير. ولهذا قالوا: ربهم أعلم بهم.

إن إيمانَهم بالله هو الذي قادهم إلى هذا الرأي، وأوحى إليهم بهذا القول، ولهذا اعتبرناهم مؤمنين.

الفريق الثاني: وهم الحاكمون المتنفِّذون، الذين وصفهم القرآن بأنهم الذين غَلبوا على أمرهم. وكان رأيهم أن يُبنىٰ على أصحاب الكهف مسجد. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

ونلحظ روح التعالي والتكبر والتسلط والدكتاتورية في قولهم: لنتخذن عليهم مسجداً.

لقد غلبوا قومهم على أمرهم، وتحكَّموا فيهم، وعاملوهم بتكبُّر واستعلاء، وخاطبوهم بحزم وجزم لا يقبلُ الحوار أو المناقشة أو التراجع: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

ولما وصل المفسرون إلى هذا الموضع في تفاسيرهم. تحدثوا عن حكم بناء المساجد على القبور، وذكروا في ذلك أحاديث عن رسول الله ﷺ، نَهى فيها عن اتخاذ القبور مساجد، ولَعَن فيها اليهودَ والنصارى الذين اتخذوا من تلك القبور مساجد.

من هذه الأحاديث:

الأول: روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنَّ أُمَّ حبيبة وأُمَّ سلمة ذكرتا كنيسة رَأَيْنَها بالحبشة ـ فيها تصاوير ـ لرسول الله ﷺ. فقال: «إنَّ أُولئك، إذا كانَ فيهمُ الرَّجُلُ الصَّالِح، فَمَات، بَنَوْا عَلى قبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّروا فيهِ تِلْكَ الصّوَر، أُولئِكَ شِرارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامة»[1].

الثاني: روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مَرَضه الذي لم يقم منه: «لَعَنَ اللَّهُ اليَهودَ والنَّصارى. اِتَّخَذوا قُبورَ أَنبِيائِهِمْ مَساجِد»[2].

الثالث: روى مسلم عن جندب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ. قبل

---

(١) مسلم كتاب ٥، المساجد ومواضع الصلاة، باب ٣ النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث ٥٢٨.

(٢) مسلم، حديث ٥٢٩.

أن يموت بخمس، وهو يقول: «إِنِّي أَبْرَأُ إلى الله، أَنْ يَكونَ لي مِنْكُمْ خَليل، فَإِنَّ اللَّهَ تعالى قَد اتَّخذَني خَليلاً، كَما اتَّخذ إِبْراهيمَ خليلاً. وَلَوْ كنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أمَّتي خَليلاً لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خليلاً. أَلا وَإِنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ كانُوا يَتَّخِذونَ قُبورَ أَنْبِيائِهِمْ وَصالِحيهِم مَساجِد، أَلا فَلا تَتَّخِذُوا القُبورَ مَساجِد. إِنِّي أَنْهاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[1].

ويُفْهم من هذه الأحاديث ذمُّ السابقين الذين بنوا المساجد على قبور أنبيائهم وصالحيهم، بل ولعنُهم لتلك الجريمة.

وهذا يدل على أن الذين صَمَّموا على بناء المسجد على أصحاب الكهف، ليسوا من المؤمنين الصالحين، وأن رأيَهم ليس صائباً ولا مقبولاً.

ونفهم من التوكيد في جملة ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أن أولئك الحاكمين المتنفذين، نفَّذوا ما صمَّموا عليه، وبَنَوْا المسجد على ذلك الكهف.

وقد سكتَ القرآن عن بناء المسجد، فلم يذكره، ولم يصرح أنه قد تمّ، ويبدو أن هذا لأمْرين:

الأول: أن القرآن يترك فجوةً فنية في العرض القصصي، وذلك ليترك المجالَ لخيال القارئ، ليُكمل تلك الفجوة. وهنا يذهب خيالُنا إلى القوم وهم يبنون المسجد، ويرسم في مخيِّلته صورةَ المسجد، وقد أقيم على الكهف.

الثاني: لكراهية بناء المساجد على القبور، وكراهيةِ ذلك العمل الذي قام به أولئك المتنفذون ـ والله أعلم ـ.

○ ثلاثة أقوال في عدتهم:

أخبر القرآن الكريم عن اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف، وأورَدَ في ذلك ثلاثةَ أقوال. فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

(١) مسلم، حديث ٥٣٢.

القول الأول: هم ثلاثة. رابعهم كلبهم.

القول الثاني: هم خمسة. سادسهم كلبهم.

القول الثالث: هم سبعة. وثامنهم كلبهم.

ونلاحظ على العبارات السابقة ما يلي:

١ ـ ردَّ القرآن القوليْن الأوليْن وأبطلهما. وذلك لأنه وصفهما بصفةٍ تدعو إلى ردهما وإغفالهما، ولذلك قال عنهما «رجماً بالغيب». والرجمُ بالغيب هو القولُ بلا علم، والادعاءُ بلا دليل.

٢ ـ وصْفُ القرآن للقوليْن الباطليْن بأنهما من باب الرجم بالغيب، دعوةٌ لنا إلى أن نتثبت في أقوالنا، ونتأكد من أفكارنا وآرائنا، فلا نرى إلا ما عندنا به علم، ولا نقول إلا ما قام على صحته وصوابه دليل، أما القولُ بلا علم، والادعاءُ بلا دليل، فإنه لا يتفق مع المنهجية العلمية الموضوعية التي يدعونا إليها القرآن.

٣ ـ سكوتُ القرآن عن القول الثالث، وعدمُ ذمِّه كما ذمّ اللَذَيْن قبله، هو إقرار من القرآن له، وقبولٌ به، كما فهم ذلك القليلون المحققون من العلماء. وسنعود إلى هذه المسألة بعد قليل بإذن الله.

٤ ـ أصحابُ الكهف ذوو عدد فردي وليس زوجياً، فهم ثلاثة أو خمسة، والراجح أنهم سبعة.

٥ ـ كلُّ الأقوال قرنتْ كلبهم بهم، مع ملاحظة أن القوليْن الأوليْن لم يفْصِلا بينه وبينهم: ثلاثة رابعهم كلبهم، وخمسة سادسهم كلبهم. بينما القول الثالث الراجح، فصَل بينهم وبينه بالواو.

ولعل ذكر كلبهم معهم في اللفظ في الأقوال الثلاثة، لأنه اختار أن يحرسهم، وأن يكون معهم، ولهذا نالته بركتهم، وشملَته نعمتهم. بحيث عندما يُذْكَرون يُذْكَر معهم، ويُضاف إليهم، إضافةَ تملّك وتخصيص وتكريم.

○ واو الثمانية:

هي الواو المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

وهذه الواو هي التي تأتي بعد عددٍ سبعة، وتُذكر قبل العدد الثامن، ولهذا سُميت واوَ الثمانية.

أما معناها، فإنها تُذكرَ إذا كان المعطوف بعدها ليس داخلاً في جملة المعطوف عليه قبلها. فهي تدل على التغاير في المعنى بين المعطوف والمعطوف عليه.

وسرُّ ذكرها هنا أنها توحي لنا بأن القول الثالث في عدة أصحاب الكهف غير القولَيْن اللّذيْن قبله، بل هو مغاير لهما. فإذا كانا قولَيْن مرفوضيْن باطليْن. فإن واو الثمانية تشير إلى صحة وصواب القول الثالث، واعتماد القرآن له.

قال الإمام السهيلي في الروض الأنف عن هذه الواو كلمةً طيبة، واستنبط منها دلالةً لطيفة: «إنّ هذه الواو تدل على تصديق القائلين، لأنها عاطفةٌ على كلام مضمَر. تقديره: نعم. وثامنهم كلبهم. وذلك أن قائلاً لو قال: إن زيداً شاعر. فقلت له: وفقيه. كنتَ قد صدّقتَه كأنك قلت: نعم هو كذلك، وفقيه أيضاً.

وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ: أَنَتَوَضَّأ بِما أَفْضَلَتِ الحُمُر؟ فقال: وَبِما أَفْضَلَتِ السّباع. أخرجه الدارقطني[1].

وفي التنزيل ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] هو من هذا الباب، كأنه قال: نعم. ومن كفر فأمتعُه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير.

فكذلك ما أخبره عنهم من قولهم: وَيقولون سبعة. فقال سبحانه: وثامنهم كلبهم. وليس كذلك سادسهم كلبهم، وسابعهم كلبهم، لأنه في موضع النعت لما قبله»[2].

---

(١) وأخرجه الشافعي والبيهقي في معرفة السنن والآثار، وقال البيهقي: له أسانيد إذا ضُم بعضها إلى بعض كانت قوية. انظر: نيل الأوطار للشوكاني ١: ٤٥.

(٢) الروض الأنف ٣: ١٧٠.

وقد ذُكِرت واو الثمانية في عدة مواضع في القرآن الكريم. منها:

١ ـ قوله تعالى عن المؤمنين المبايعين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢].

واو الثمانية في الآية هي الداخلة على الناهين عن المنكر، وهي داخلة على الصفة الثامنة من صفات المؤمنين. ونلاحظ التغاير ما بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي بين ما قبل واو الثمانية وما بعدها.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: ٥].

فواو الثمانية دخلت على الصفة الثامنة من صفات المؤمنات، كما أن ما بعد الواو يختلف عن ما قبلها، ولا تجتمعان عند امرأة معاً، إذ يستحيل أن تكون المرأة ثيباً وبكراً في نفس الوقت، لأنها إما ثيب وإما بكر.

○ ما يعلمهم إلا قليل:

ذهب قوم من المفسرين إلى أن البشر عاجزون عن معرفة عدد أصحاب الكهف، واستندوا إلى قول الله عن عدتهم ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ حيث اختص الله بعلم ذلك، ونحن منهيّون عن المراء والجدال فيهم، وعن استفتاء السابقين في شأنهم.

بينما ذهب المحققون من المفسرين إلى أننا نستطيع معرفةَ ذلك العدد، وأنَّ القرآن يوحي به ويشير إليه، وأن آياته تحتاج إلى إمعان النظر فيها، وفهم إشاراتها وإيحاءاتها.

ولذلك قالوا: هم سبعة وثامنهم كلبهم.

والأدلة على هذا من الآية هي:

١ ـ إن الله لم يذكر استحالة علم البشر بهم، ولم ينفِ العلم عنهم، بل على العكس ذَكَر أن البشر، يمكنهم معرفةُ ذلك فقال: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولو أراد نفي علم البشر لقال: لا يعلمهم إلا الله.

ألا تراه في سورة إبراهيم عندما قرر أن البشر عاجزون عن معرفة الأقوام الذين عاشوا بعد ثمود، قصر العلم بهم على الله وحده. قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ . . .﴾ [إبراهيم: ٩].

وفرق بعيدٌ بين قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٢ ـ دخول واو الثمانية عى القول الثالث: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهذه الواو تدخل على ما كان مغايراً لما قبلها، فإذا كان القولان الأولان مرفوضيْن، فإن القول الثالث هو الصحيح ـ والله أعلم ـ.

٣ ـ نقضَ القرآن القولين الأولين عندما وصفهما بأنهما رجم بالغيب، بينما لم ينقض القول الثالث، بل سكت عنه سكوت إقرار.

٤ ـ فهمَ الصحابة والمحققون من المفسرين من الآية إمكان علم البشر بعدتهم، فقالوا بالقول الثالث، واعتبروا القرآن داعياً لهم إلى ذلك القول، وإعمالِ عقولهم فيه.

فقد روى ابن كثير عن ابن عباس ﵄ قوله: «أنا من القليل الذي استثنى الله ﷿: كانوا سبعة» وقوله: «أنا ممن استثنى الله، كانوا سبعة»[1].

ونحن مع الإمام ابن عباس في نظرته في الآية واستنباطه منها، ولهذا نقرر أنهم سبعة وثامنهم كلبهم ـ والله أعلم ـ.

○ حكمة أخرى لواو الثمانية:

وبإمعان النظر في جملة: «ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم» نأخذ إشارةً أخرى، ونهتدي إلى حكمة جديدة، لدخول واو الثمانية عليها:

إن هذه الواو فصلت ما بين السبعة أصحاب الكهف وكلبهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٨.

وهذا الفصل ضروري، فهم مؤمنون صالحون، وكلبهم حيوان نجس، فلا يليق أن يقترن معهم بالنطق والذكر.

وعندما ننظر في القولين الأولين، نجد أنهما قرنا بين المؤمنين وبين كلبهم: ثلاثة رابعهم كلبهم وخمسة سادسهم كلبهم. ولعل هذا القِران بينهم، عامل آخر على نقض القولين وردِّهما.

ولعل فصل القول الثالث بينهم بواو الثمانية، عامل آخر على قبوله واعتماده والقول به.

فالقائلون به يلحظون هذا المعنى الأدبي الذوقي اللطيف، فلم يقرنوا ما بين المؤمنين البشر وما بين الكلب الحيوان، ولم يقرنوا ما بين الرجال الأطهار والكلب النجس، الذي لم تُغيْر صحبتُهُ لهم، من نجاسته شيئاً، ولهذا أبقاه القرآن بعيداً عنهم على عتبة الباب «في الوصيد» ـ والله أعلم ـ.

○ ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً:

المعنى القريب لهذه العبارة هو نهيُ رسول الله ﷺ، عن استفتاءِ أو سؤالِ أحدٍ بخصوص أهل الكهف، وبخاصة أهل الكتاب اليهود والنصارى.

لا يسألُهم ولا يستفتيهم، لأنهم لا علم لهم بذلك، لا يملكون علماً حقيقياً، صحيحاً صادقاً موثوقاً به.

لكن هذه العبارة ليست بخصوص أهل الكهف ـ وإنْ نزلتْ فيهم لأن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب ـ وإنما هي عامة، تشمل كلَّ قصص القرآن، وأخبارَ السابقين.

كما أن التوجيه فيها ليس مقصوراً على رسول الله ﷺ وإنْ كان الخطاب له ـ لأن خطاب الرسول ﷺ خطاب لأمته، ما لم يقم دليل على التخصيص ـ.

إن التوجيه فيها لكل مسلم حتى قيام الساعة، ينهاه عن سؤال أهل الكتاب أو غيرهم بخصوص أهل الكهف، وغيرهم من أصحاب قصص السابقين في القرآن.

إن هذه العبارة تقدم لنا قاعدة قرآنية محكمة، في التعامل مع قصص القرآن، إنها تنهانا عن استفتاء أهل الكتاب وغيرِهم من البشر بخصوص تلك القصص، تنهانا عن الأخذ عنهم، والرجوع إليهم، وإيراد أقوالهم وأخبارهم ورواياتهم.

وهي قاعدة علمية منهجية موضوعية.

لا نسأل أهل الكتاب ولا نأخذ عنهم، لأنهم محرِّفون لكتاب الله، غيرُ أُمَناء على التاريخ والأخبار والحقائق.

لا نسأل أهل الكتاب ولا نأخذ عنهم، لأن قصصَ السابقين وأحداثَها وتفصيلاتِها إنما هي من عالم الغيب ـ غيب الماضي ـ وأحداثُ الغيب وتفصيلاتُه لا يعلمها إلا الله. فلا تؤخذ إلا عن الله ـ سبحانه ـ.

لا نسأل أهلَ الكتاب ولا نأخذ عنهم، لأن العلمية والمنهجية والموضوعية تُلزمنا أن نتثبت ونتأكد مما نورده من الأقوال والأخبار، وتنهانا أن نقفوَ ونروي ونورِد ما ليس لنا به علم.

إننا مُلْزَمون ـ بخصوص أهل الكهف وغيرهم من قصص القرآن ـ أن نبقى في إطار الحق والصدق والصواب، وهذا لا يكون يقيناً إلا لما ورد في كتاب الله، وفي الحديث الصحيح لرسول الله ﷺ.

وسامح الله الذين ذهبوا إلى أهل الكتاب، وأوردوا أقوالهم ورواياتهم عن قصص السابقين، فخالفوا بذلك هذا التوجيه الرباني الكريم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه العبارة: «ولا تستفت فيهم منهم أحداً. فإنهم لا علم لهم بذلك، إلا ما يقولونه من تلقاءِ أنفسهم، رجماً بالغيب، أي من غير استنادٍ إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق، الذي لا شك فيه، ولا مرية فيه، فهو المقدَّم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٨.

○ نسيان الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾.

في هذه الآية توجيهٌ من الله لرسوله ﷺ ـ ولكل مسلم من بعده ـ بأن يُعلِّق ما سيقوم به في المستقبل بمشيئة الله، فيقول: سأفعل ذلك الشيء غداً: إن شاء الله. وترشده إلى الذكر عند نسيان التعليق بالمشيئة ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾.

وهذه الآية تشير إلى مناسبة نزول قصة أصحاب الكهف ـ التي أوردناها في بداية كلامنا عن القصة ـ حيث وعد رسولُ الله ﷺ كفارَ قريش أن يقدم لهم الجواب على الأسئلة التي وجهوها له في الغد، حيث قال لهم: أجيبكم غداً.

ونسي أن يستثنِ ـ أي نسي أن يقول: أجيبكم غداً إن شاء الله ـ.

فتأخر عنه جبريل بالجواب خمسة عشر يوماً، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، وصار الكفار يتندَّرون ويضحكون، ويقولون: إنّ صاحبَك قد جفاك. وكان هذا التأخر مقصوداً، ليعلِّمنا الله هذا الدرس، ويقدِّم لنا هذه القاعدة الإيمانية التي تقدمها الآية.

○ وهل ينسىٰ الرسول؟

وهذا النسيان من رسول الله ﷺ، لا يطعن في نبوّته، ولا يقدح في عصمته.

صحيح أن الله تكفل له بأن لا ينسى، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى: ٦] ولكنَّ هذا النسيان المنفي إنما هو ما كان باختياره، ولكن الله إذا شاء أن ينسى، فسوف ينسى، ولهذا أَتبع ذلك الوعد بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى: ٧].

ثم إن النسيانَ المنفي هو النسيانُ في حفظ القرآن، فإن الله تكفَّل بحفظ القرآن، وتكفَّل لرسوله بأن يحفظ القرآن فلا ينسى منه حرفاً.

أما النسيانُ في غير القرآن فهذا ممكن، بل قد وقع من رسول الله ﷺ حيث نسي وهو في الصلاة، ثم سجد للسهو قبل أن يسلِّم!.

فقد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن بُحَيْنَة ﷺ قال: صلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين من بعض الصلوات، ثم قام فلم يجلس، فقام الناس معه، فلما قضى صلاتَه، ونَظَرْنا تسليمَه، كبَّر، فسجد سجدتين وهو جالس قبل التسليم. ثم سلَّم»[1].

فالرسول ﷺ سها في صلاته، في التشهد الأول، وقام للثالثة فوراً، ولكنه سجد للسهو سجدتين قبل التسليم.

وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: صلى رسولُ الله ﷺ، فلما سلَّم قيل له: يا رسول الله: أَحَدَثَ في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: صَلَّيْتَ كذا كذا. فَثَنَى رِجْلَيْه، واستقبل القبلة، وسجد سجدتين، ثم سلَّم، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: إنه لو حَدَثَ في الصلاة شيء أنبأْتُكُمْ به، ولكن إنما أنا بشر، أَنْسَىٰ كما تَنْسون، فإذا نَسيتُ فذكِّروني. وإذا شَكَّ أَحَدُكُمْ في صلاته فَلْيَتَحَرَّ الصواب، فَلْيُتِمَّ عليه، ثم لْيَسْجُد سجدتين»[2].

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: «صلّى بنا رسولُ الله ﷺ إحدى صلاتَي العَشِيّ. إما الظهر وإما العصر، فسلَّم في ركعتين، ثم أتى جِذْعاً في قِبْلة المسجد، فاستند إليها مُغْضباً، وفي القوم أبو بكر وعمر، فهابا أن يتكلما، وخرج سَرَعانُ الناس يقولون: قُصِرَت الصلاة. فقام ذو اليَدَيْن فقال: يا رسول الله: أَقُصِرَت الصلاة أم نسيتَ؟ فنظر النبي ﷺ يميناً وشمالاً، فقال: ما يقول ذو اليدين. قالوا: صدق، لم تُصلِّ إلا ركعتين. فصلى ركعتين وسلَّم»[3].

ففي تلك الصلاة نسي رسول الله ﷺ وسهى فيها، وسلَّم من الركعة الثانية، فلما ذكّره الصحابة أتى بالركعتين الباقيتين، ثم سجد للسهو.

---

(١) رواه مسلم كتاب ٥، المساجد ومواضع الصلاة. باب ١٩ السهو في الصلاة والسجود له، حديث ٥٧٠.

(٢) مسلم، نفس الكتاب والباب، حديث ٥٧٢.

(٣) مسلم، نفس الكتاب والباب، حديث ٥٧٣.

وصرَّح في الحديث بأنه بشر، ولذلك فهو ينسى كما ينسى البشر، وطالبهم أن يذكِّروه عندما ينسى.

إن نسيانَ الرسول دليلٌ على بشريته، لأن النسيان ملازم للإنسان، ودليل على نبوته، لأن الله يذكِّره ويخبره بأنه قد نسي.

وقد يتساءل أناس: كيف ينسى رسول الله ﷺ في صلاته؟ وبماذا كان يفكر؟ حول هذا المعنى يقول الشاعر:

يا سائِلي عَنْ رَسول اللَّهِ كَيْفَ سَها ... وَالسَّهْوُ في كُلِّ قَلْبِ غافلٍ لاهِ
قَدْ غابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَلْبُهُ، فَسَها ... عَمّا سِوى اللَّهِ، في التَّعْظِيمِ للَّهِ

○ أنبياء ينسون:

والنسيان لم يحدث لرسولنا فقط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإنما حصل لأنبياء آخرين.

فقد أخبرنا الرسول ﷺ بأن سليمان عليه السلام نسي أن يقول إن شاء الله.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: قالَ سُلَيْمانُ بْنُ داودَ عليهما السلام: لأطوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلى مِائَةِ امْرَأَةٍ ـ أَوْ تِسْعٍ وتِسْعين ـ كُلُّهُنَّ يَأْتي بِفارِسٍ يُجاهِدُ في سَبِيلِ الله. فقالَ لَهُ صاحِبُه: قُلْ إِنْ شَاءَ الله. فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ الله. فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلّا امْرَأَةٌ واحِدَة، جاءَتْ بِشِقِّ رَجُل. والذّي نَفْسُ مُحَمَّد ﷺ بِيَدِهِ لو قال: إِنْ شاءَ الله، لَجاهَدوا في سَبيلِ اللَّهِ. فُرْساناً، أَجْمَعون»[1].

وقد علمنا من سورة الكهف، أن موسى عليه السلام قد وعد صاحبَه العبدَ الصالح ـ الخضر عليه السلام ـ أن لا يسأله عن شيء وأن لا يعترض على شيء، ولكنه لما رآه يخرق السفينة اعترض عليه فقال: أَخَرَقْتَها لتغرق أهلَها؟ لقد جئت شيئاً إمراً.

فلما ذكَّره صاحبُه بالوعد، اعترف بنسيانه له فقال: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً.

---

(١) البخاري كتاب ٥٦ الجهاد، باب ٢٣ من طلب الولد للجهاد، حديث رقم ٢٨١٩.

كما أخبرنا القرآن أن أبا البشر وأولَ الأنبياء آدم عليه السلام، نسي فأكل من الشجرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

ومعنى الآية: أن الله عَهِد إلى آدم أن لا يأكل من الشجرة فنسي عهد الله، وأكل منها ناسياً، ولم يكن عنده عزْم وقصد وتعمُّد للأكل منها. والنبي لا يتعمد مخالفةَ العهد!.

○ كل شيء بالمشيئة الإلهية:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

تنهى هذه الآية كلَّ مسلم ـ من خلال نهي رسول الله ﷺ ـ أن يجزم بفعل شيء في المستقبل إلا أن يعلِّقه بالمشيئة الإلهية، تنهاه عن أن يعِدَ وعداً إلا أن يسْتثني: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وقد يتساءل الإنسان: لماذا هذا الاستثناء؟ ولماذا يعلِّق غده ومستقبله بالمشيئة الإلهية؟ وهل هو عاجز عن الجزم بما سيفعل في المستقبل؟ ولماذا هو عاجز؟.

إن المستقبلَ غيب بالنسبة للإنسان، لأن هذا المستقبل إنما هو بيد الله وحده، وإن الإنسان لم يزودْه الله بالوسائل التي تعينه على الجزم، والتحديد بما سيحدث له، أو ما سيفعله في المستقبل.

وبما أن المستقبل غيب لذلك لا يعلمه إلا الله، لأن الله عنده مفاتح الغيب، و﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٦٥].

الإنسان لا يعلم ماذا سيحدث له في مستقبله، وماذا سيفعل في غده. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

إن الغد بالنسبة للإنسان مليءٌ بالمفاجآت والاحتمالات، فعلى حسب

تفكير الإنسان، إما أن يحصلَ له في الغد الأمرُ الفلاني أو الفلاني، وقد يحدث له أمرٌ لم يكن بالحسبان.

وقد يجزم الإنسان بشيء يحدث في المستقبل، وقد يخططُ لشيء يفعله في الغد، ويتخذ لذلك كافة الاحتياطات، ويأخذ بكل الأسباب، ولا يقصر ببذل شيء، فيبدو الأمرُ على أساس الحسابات البشرية، مضموناً مائة بالمائة. ثم تحدث مفاجأةٌ تقلِب كل الأمور، فتلغي له خططه وبرامجه، وهذه المفاجأة ليست في حسابه، ولا قدرة له على دفعها.

هذا بالنسبة لتقديرِ الإنسان وعلمه وقدرته.

أما بالنسبة إلى الله ﷻ، فإن قدرتَه فاعلة، وإرادتَه نافذة، ومشيئَته طليقة، إنه يفعل ما شاء ويختار، وإنه فعّال لما يريد، وإنه لا رادّ لأمره، وإن مشيئَته وإرادَته وقدرتَه هي التي تقرر الأحداث والأخبار والأفعال والتصرفات، وإنه لا يشذ واحد منها عن هذه المشيئة الإلهية، وإن كل المخلوقين في هذا الكون ـ سواء كانوا من الإِنس أو الجن أو الملائكة ـ خاضعون لإِرادة الله ومشيئته، ولا يقدر أحد هؤلاء أن يقف في وجهها أو يعاندها، أو يعاكسها ويحاربها ويبطلها، لأنها أمر الله الخالق القوي القدير.

لهذا نرى أنه لا يحدث في الكون إلا ما يشاء الله، ولا يكون إلا ما يريد الله، وأنَّ مشيئة الناس خاضعةٌ لمشيئة الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يشاء الناس إلا ما يشاء الله، كما قال الله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٩ ـ ٣٠].

وكما قال الله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

ونظراً لجهل الإنسان بما سيحدث له في غده، ونظراً لعجزه عن دفع ما شاء الله أن يقع له، وعن جلب ما لم يشأ الله أن يصل إليه، لذلك نجده عاجزاً عن الجزم بما سيحدث له من خير أو شر، أو عن ضمان خططه وبرامجه، وحصولها كما خطط وبرمج.

لهذا ترشده الآية إلى التصرف المناسب في هذا الأمر، فتطالبه بتعليق وعودِه وخططِه المستقبلَية بالمشيئة الإِلهية النافذة، عندها لا يكون هذا الإِنسان عرضةً للوم عندما يعجز عن تنفيذ ما وعد.

ولا نفهم من هذا أن يتوقف المسلم عن الأخذ بالأسباب، وأن يلغيَ الخطط والبرامج والآمال، لأن الأخذَ بالأسباب من أساسيات الإِيمان ومجالاتِ العبادة، كلُّ ما في الأمر، أن لا يركن إلى الأسباب، ولا يرى إلا الخطط والبرامج، بل يجعل للمشيئة الإِلهية الاعتبار الأول!.

○ واذكر ربك إذا نسيت:

كان نسيانُ الرسول ﷺ أن يعلق وعده للمشركين بمشيئة الله، ونسيانُه أن يقول لهم: أجيبكم غداً، إن شاء الله، كان هذا مناسباً ليُلقيَ القرآن لرسول الله ﷺ ولكل مسلم من بعده، بقاعدة قرآنية ضرورية للحياة على هذه الأرض.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾.

وهذا القول الكريم حقيقةٌ أساسيةٌ من حقائق الإسلام، وعلاج نافع للانحراف أوالتقصير، أو الغفلة والنسيان.

إن المسلم يخوض في هذه الحياة معركة حتميةً مفروضةً عليه، معركة مع الشيطان ومع أعوانه ومع الباطل وجنوده.

وقد ضمن الله له الانتصار في المعركة، إذا لجأ إلى ربه واعتصم به.

وقد حذَّره الله من عدوه الشيطان وبيّن له أن للشيطان سلطاناً ونفوذاً وتأثيراً على أعوانه وجنوده، وأنه يدخل للإنسان من باب الغفلة والنسيان والتقصير والإِهمال. لذلك حذّره الله من الغفلة والنسيان والتقصير والإِهمال: فقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٨ ـ ١٩].

فإذا ما غفل هذا الإنسان ونسي ـ وهو سيغفل وسينسى ـ فعليه أن يتذكرَ وأنْ يصحو، فيلجأ إلى ربه ويستغفره، ويستنصر به. قال له: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١ ـ ٢٠٢]. وقال له: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

فذِكْرُ الله سبحانه أضمنُ سلاح للانتصار على الشيطان وجنوده، وذِكْر الله علاج قرآني ناجع للتقصيرِ والإهمال والتفلُّتِ من الأحكام، وارتكابِ المحظورات.

وذكرْ الله حياةٌ للقلب، وسعادةٌ للروح، وراحةٌ للمؤمن، ونورٌ للحياة، وطريقٌ لمحبة الله ورضوانه، وسببٌ لدخول جنته، والنجاة من عذابه.

وترشدنا الآية إلى موضع آخر لذكر الله، وهو النسيان، أي يذكر الله عندما ينسى.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ والنسيان هنا غير محدَّد ولا مقيَّد، بل هو عام مطلق، وقد جعله القرآن على عمومه ليشمل كل صور وألوان النسيان، التي لا علاج لها إلا بذكر الله.

والأَوْلى إبقاءُ اللفظ على عمومه، وعدمُ تقييده وتحديده ـ لأن هذا من مفاتيح التعامل مع القرآن وقواعدِ فهمه.

ومن الصور والألوان والحالات التي يشملها لفظ النسيان:

١ ـ نسيانُ الله: اذكر ربك إذا نسيته، لأنه لا يجوز لمسلم أن ينسى الله لحظة، فنسيان الله ذنب وتقصير، لابد له من ذكرِ الله واستغفاره، ونسيانُ الله سبب للوقوع في المعاصي وعلاجُه بذكر الله.

٢ ـ نسيانُ الاستثناء، وتعليقُ الوعد بالمشيئة الإلهية: أي اذكر ربك إذا نسيت أن تقول: سأفعل غداً إن شاء الله. فاذكر الاستثناء عند التذكر، وعلِّق الأمر بالمشيئة. وهذه الصورة للذكر. ذكرَها معظم المفسرين عند تفسيرهم للآية.

٣ ـ نسيانُ عداوة العدوِّ الأكبر الشيطان وأعوانِه: لأن نسيان عداوتهم سبيل الاستجابة لوساوسهم، فذكْر الله يعيد صاحبه مبصراً حذراً من هؤلاء الأعداء.

٤ ـ نسيانُ الواجبات: فذكْر الله عام لتذكُّرها وأدائها، وعامل مباشر في حسن التعامل معها والنظر إليها.

٥ ـ نسيانُ الهدف من الحياة: والوظيفة فيها، والخطة الناجحة لأدائها على منهج الله.

٦ ـ نسيانُ الموت، والانتقالِ من هذه الدنيا، وعدمِ الخلود فيها.

٧ ـ نسيانُ الآخرة، نسيان النار وعذابها، ونسيان الجنة ونعيمها وخيراتها.

إن هذه الصورَ وغيرَها خطيرة، ذاتُ أضرار بالغة في حياة المسلم، ولا علاج لها إلا بالمداومة على ذكر الله سبحانه ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

○ من هو القائل: «لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين...»:

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

إخبار عن المدة التي لبثوها في الكهف، أو الفترة التي ناموها في الكهف بتعبير أدق، وهي الفترة ما بين دخولهم وعثور قومهم عليهم.

ويقرر الخبر أن هذه المدة كانت ثلاثمائة وتسع سنين.

لكن من هو قائل هذا الخبر؟ هل هو قول الله فيكون تقريراً لهذه المدة!.

أم هو قول السابقين المختلفين في أمرهم، فيكون إيراد القرآن له من باب الحكاية والرواية لا من باب الإقرار والاعتماد؟.

اختلف العلماء في ذلك. فمنهم من قال: هو قول الله عن مدة لبثهم. ومنهم من قال: هو قول السابقين الذين تنازعوا في أمرهم.

القول الأول: هو قول السابقين المتنازعين في أمرهم، ولم يقرّه القرآن أو يعتمده، بل ردَّه ونقضه.

والواو عند هؤلاء، في قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ عاطفة، عطفت هذا القول على قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

ويكون المعنى: سيقولون إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم. . . وسيقولون: لبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين.

وقد أبطل القرآن قولهم في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فأحال في مدة لُبثهم إلى علم الله، ولو كان قولُهم صحيحاً ومعتمداً لما كان هناك معنى جديد في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾. ولو كان هذا القول من الله سبحانه لما كان لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ معنى.

أخرج السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الرجل لَيفسر الآية، يرى أنها كذلك، فيَهوي أبعد ما بين السماء والأرض. ثم تلا: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ ثم قال: كم لبث القوم؟ قالوا: ثلاثمائة وتسع سنين. قال: لو كانوا لبثوا كذلك، لم يقل الله ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ ولكنه حكى مقالة القوم، فقال: سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم. وأخبر أنهم لا يعلمون قال: وسيقولون ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

وأخرج السيوطي أيضاً عن قتادة رضي الله عنه قال: إنما قاله الناس. ألا ترى أنه قال: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين. ثم قال: قل الله أعلم بما لبثوا.

وفي رواية أخرى، عن قتادة: «هذا قول أهل الكتاب، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾»[1].

القول الثاني: إن هذا قول الله نفسه، وإنه إخبار من الله عن المدة التي لبثوا فيها في الكهف.

أخرج السيوطي عن مجاهد قوله في الآية: هذا عدد ما لبثوا في الكهف[1].

وقد تبنّى الإمام ابن كثير هذا القول ونصره، وردَّ على القول الأول،

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٥: ٣٧٩.

فقال: «هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله، إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ أي إذا سُئِلتَ عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيفٌ من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومَنْ أطلعه عليه من خلقه.

وهذا الذي قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

أما قول قتادة الذي زعمه فإن فيه نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنين، من غير تسع يعنون بالشمسية، ولو كان الله حكى قولهم لما قال: وازدادوا تسعاً.

والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله تعالى، لا حكاية عنهم، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[1].

ونتوقفُ في ترجيح أيٍّ من القولين حتى نعرف الفرق بين السنين الشمسية والهلالية.

○ هل التسع هي الفرق بين الحسابين؟

ذهب مفسرون سابقون ومعاصرون، إلى أن أهل الكهف لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي، وهذه السنين تصبح ثلاثمائة وتسع سنوات، بالحساب القمري.

فالسنواتُ التسع، إنما هي الفرق بين الحسابيْن الشمسي والقمري.

ويعتبرون ذكر القرآن لهذه السنوات التسع دليلاً على مصدره، وأنه كلام الله، وليس كلام الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٩.

قال الإمام ابن كثير عن كون السنوات التسع هي الفرق بين الحسابين: «إن لبثهم كان مقداره ثلاثمائة سنة، تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإنَّ تفاوُتَ ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنوات، فلهذا قال بعد الثلاثمائة «ازدادوا تسعاً»[(١)].

لكن هناك من المعاصرين من لا يوافق على هذا، ويعتبره غير متفق حتى مع الحساب.

ويمثل هؤلاء المرحومُ عبد الرحمن الوكيل، حيث يقول في تعليقه على «الرّوْضِ الأُنُف» عن ذلك القول: «وهذا تأويل لا يليق بكتاب الله، ولا بكلام الله، إنما يضطرون إليه، لأنهم يرون أن قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ هو من قول الله نفسه، وليس قولاً يقصُّه الله عن غيره.

وليس في الآية ما يشير مطلقاً إلى هذا التأويل»[(٢)].

وقبل أن نقول بما قاله الجمهور، الذين مثَّلهم ابن كثير، ننظر: هل التسع سنوات هي الفرق بين الحسابين؟ وللإجابة على هذا السؤال نسأل سؤالاً آخر: كم هو الفرق بين السنة الشمسية والسنة الهلالية؟.

قال المؤرِّخ الإسلامي المعاصر أحمد عادل كمال في كتابه «جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري».

«واليوم الشمسي يزيد عن اليوم القمري بمقدار ٤٤,٩ ثانية ٣ دقائق. واليوم عند العرب يبدأ من غروب الشمس، ويمتد إلى غروبها التالي.

والشهر القمري: ٢٩,٥٣٠٥٨٨ يوماً.

والسنة القمرية: ٣٦ ثانية ٤٨ دقيقة ٨ ساعة ٣٥٤ يوماً.

وتنقص عن السنة الشمسية بنحو: ١١ يوماً.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٩.

(٢) الروض الأنف بتحقيق الوكيل ٣: ١٧٣.

حيث تبلغ السنة الشمسية ٩,٥ ثانية ٩ دقيقة ٦ ساعة ٣٦٥ يوماً»[١].

بعد هذا الحساب الدقيق نجد أن الفرق بين الحسابيْن الشمسي والقمري ليس تسع سنوات فقط، بل هو أزيد من هذا!.

وقد ناقش الإِمام الآلوسي هذه المسألة ولاحظ الفرْق بين الحسابيْن.

قال: «التفاوت بين الحسابيْن في السنة الواحدة: عشرة أيام، وإحدى وعشرون ساعة ودقيقة واحدة.

وإذا كان هذا تفاوت سنة، كان تفاوت مائة سنة هو: ألف يوم وسبعة وثمانين، وثلاث عشرة ساعة، وأربع دقائق، وهي ثلاث سنين، وأربعة وعشرون يوماً، وإحدى عشرة ساعة، وست عشرة دقيقة.

فيكون تفاوت ثلاثمائة سنة هو: تسع سنين، وثلاثاً وسبعين يوماً، وتسع ساعات، وثمانياً وأربعين دقيقة»[٢].

الفرق بين الحسابيْن ليس تسع سنين بالضبط كما حدد القرآن، بل هو يزيد عليها أكثر من ثلاثة وسبعين يوماً.

ونظراً لهذه الزيادة على الزيادة ـ التي هي تسع سنوات ـ قال علماء: إن هذا ليس إخباراً من الله، ولا إقراراً منه له، وإنما هو ذكر لكلام السابقين المتنازعين في أمر أهل الكهف، فكما اختلفوا في عددهم، اختلفوا في مدة لبثهم. فذكر قوم أنهم لبثوا ثلاثمائة وتسع سنوات، وقولهم ليس صحيحاً.

ولو كان هذا إخباراً من الله، لكان منضبطاً دقيقاً، وهو ما عوَّدَنا القرآن عليه فيما يعتمده ويقرره من الأخبار والأقوال.

وقد رد الجمهور بأن هذا التفاوتَ لا بأس به، لأنه أقلُّ من ربع سنة، ومن عادة العرب أن يُسقطوا الكسور من الذكر إذا قلَّتْ وكانت دون النصف. ولذلك لم يقل القرآن: وازدادوا تسعاً وربعاً، أو تسعاً وثلاثة وسبعين يوماً.

---

(١) جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري لأحمد عادل كمال: ٣ ـ ٤.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١٥: ٢٥٢.

يقول الآلوسي حول هذا: «ودعوى أن التفاوت تسعُ سنين، مبنية على التقريب لأن الزائد لم يبلغ نصف سنة، ولا فصلاً من فصولها، فلم يُعبأ به»[1].

○ الراجح أنه إخبار من الله:

نقف الآن ـ بعد إيراد حجج الفريقين ـ لنحاول الترجيح.

أدلة الفريق الأول، القائل بأن تحديد لبثهم في الكهف بثلاثمائة وتسع سنين هو قول السابقين الذين اختلفوا في عدة أصحاب الكهف، وأن القرآن الكريم أورد هذا القول من باب الإِخبار عن أقوالهم، أدلةُ هذا الفريق قوية، من حيث الدقة الحسابية.

لكننا عندما نزيل شبهة التفاوت الحسابي، بأن العرب تُسقط الكسورَ إذا نقصت عن الربع، فلهذا لا بأس من زيادة حوالي ثمانين يوماً على السنوات التسع.

ولذلك فنحن مع الجمهور، بأن قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ هو إخبار من الله سبحانه عن لبثهم في الكهف، وليس حكايةً لقول من أقوال السابقين.

وأن هذا القول راعى الحسابيْن الشمسي والقمري.

فهي ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي الرومي الميلادي، الذي كانت عليه الدولة الرومانية، والذي ورثْه عنها الدول الغربية المعاصرة.

وهي ثلاثمائة وتسع سنين بالحساب القمري العربي، الذي كان عليه العرب في العصر الجاهلي، وهو الحساب الهجري الذي اعتمده المسلمون فيما بعد.

فتكون السنوات التسع ـ والكسور التي أُسقطت ـ هي التفاوت بين الحسابين.

---

(١) روح المعاني ١٥: ٢٥٢.

○ فائدة «قل الله أعلم بما لبثوا»:

علمنا أن من أقوى أدلة القائلين بأن القولَ في تحديدِ لبثهم في الكهف، هو لأهل الكتاب السابقين، ما عقَّب به القرآن على القول بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ فكأن القرآن يرد ذلك القول ويبطله، ويعتبره غيرَ قائم على علم صحيح، ويرشدنا إلى أن نُحيل الأمر إلى علم الله.

قال الوكيل في تحقيق الروض الأُنُف «وتأويلُ ابن هشام لقوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ تأويلٌ رائع ـ على أنه قول السابقين ـ إذ يجعل هذا القول من قول أهل الكتاب، وبهذا يستقيم فهمُنا للآية. ويتفق هذا مع ما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ إذ لو كان «لبثوا» من كلام الله نفسه، ما كان لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ معنى»[1].

لكن الجمهور لا يقبلون هذا التأويل، ويُزيلون هذا الاعتراض، ويعتبرون أن القولين لله سبحانه ﴿وَلَبِثُواْ﴾ و﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾.

ونورد فيما يلي خلاصةً نافعة لفائدةِ قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ وبيانِ تناسقها مع ما سبقها من الكلام، أوردها الإمام الآلوسي.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ...﴾ جملةٌ مستأنَفَة مبيِّنة، لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾﴾.

فعلى هذا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ تقرير لكون المدة المضروب فيها على آذانهم هي هذه المدة، كأنه قيل: قل الله أعلم بما لبثوا، وقد أَعْلَمَنا بما لبثوا، فهو الحق الصحيح الذي لا يحوم حوله شك قط.

وفائدة تأخير هذا البيان عن مدة لبثهم، التنبيهُ على أنهم تنازعوا في مدة لبثهم كما تنازعوا في عددهم، ولهذا ذَكَره عُقيب اختلافهم في عدة أشخاصهم.

---

(١) الروض الأنف ٣: ١٧٢ ـ ١٧٣ حاشية.

وليكون التذييل بـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، محاكياً للتذييل[1] بقوله سبحانه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾.

وللدلالة على أنه من الغيب، الذي أُخبر به عليه الصلاة والسلام، ليكون معجزاً له»[2].

وقد وقف الآلوسي وقفةً لطيفة ذكية، حول ما نُسب لابن عباس ﵄ حيث رُوي عنه: إن القول بتحديد لبثهم في الكهف هو قول السابقين، وأن القرآن نقضه بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾.

ذكَّرَنا الآلوسي برأي ابن عباس في عدة أصحاب الكهف، حيث ذهب إلى أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، مع أن الله قال بعدها: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾.

فلم يمنع هذا التعقيب الذي يحيل عدتهم إلى علم الله، من القول بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم. فلماذا مَنَع التعقيب هنا ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ من اعتماد ما قبله من الخبر؟.

قال الآلوسي: «ولعل هذا لا يصح عن الحَبر رضي الله تعالى عنه. فقد صح عنه القول بأن عدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم، مع أنه تعالى عقَّبَ القول بذلك بقوله سبحانه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ ولا فرق بينه وبين قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ فلِمَ دل هذا على رد القول وإبطاله، ولم يدل ذاك؟»[3].

○ دلالة قوله: «وازدادوا تسعاً» على مصدر القرآن:

وقف العلماء وقفةً متأنية أمام قوله: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ وحاولوا أن يستخرجوا الحكمة من ذكرها.

---

(١) لا نُقرّ إطلاقَ كلمة التذييل على أسلوب القرآن، والأَوْلى استخدام كلمة «ختم الآية بكذا».

(٢) روح المعاني ١٥: ٢٥٢. (٣) المرجع السابق ١٥: ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

وخلاصةُ نظرتهم: إن هذه الجملة تدل دلالة صريحة على مصدر القرآن، حيث تشير إلى أنه من عند الله سبحانه وليس من تأليف الرسول ﷺ.

ووجْه دلالتها على ذلك:

إن الآية تتضمن الحسابيْن الشمسي والقمري في مدة لبثهم في الكهف: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

كانت المدة ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي، ويضاف لها تسع سنوات وكسور بالحساب القمري.

وهذا إخبار من الله لرسوله ﷺ.

ولو كان القرآن من تأليف الرسول ﷺ، فما يدريه بأنَّ المدة كانت ثلاثمائة سنة؟ وأهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يعلمونها! وما كان يدريه ـ وهو الأمي ﷺ ـ أن الثلاثمائة سنة تزيد تسع سنوات بالحساب القمري؟.

وكلمة «وازدادوا» توحي بهذا المعنى، وتُلقي هذا الظل. فهذه السنوات التسع إنما هي زيادة على الحساب، لأنها هي الفرق بين الحسابيْن.

وإن اليهود يعلمون صعوبة هذا السؤال، ولهذا وجهوه للرسول ﷺ، كما أنهم يعلمون دلالته على النبوة والرسالة في حالة الإجابة عليه، وجاء الجواب من الله تقريراً لهذه الحقيقة، وإضافةَ دليل قاطع إلى أدلة كثيرة، على أن هذا القرآنَ كلامُ الله سبحانه، أوحى به لرسوله عليه الصلاة والسلام.

○ أدلة أخرى من السياق على مصدرالقرآن:

ليس هذا هو الدليلَ الوحيد من السياق على مصدر القرآن، فكل القصة إنما سيقت للدلالة على ذلك، ولذلك كانت معجزة من معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام.

من الأدلة على ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ وتحديد أعمارهم بأنهم فتية.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ بهذا التصوير الدقيق لحركة الشمس.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ بهذا التحديد الدقيق لوضعهم داخل الكهف.

٤ ـ ما يفهم من التصوير السابق لتحديد مكان الكهف، واتجاه بابه.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وإشارتها إلى فتح عيونهم مع أنهم رقود.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وتصويرها لحركة تقلبهم داخل الكهف.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ وتحديده لمكان الكلب وهيئته التي نام عليها.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ ودلالته على أن الرسول ﷺ لم يطلع عليهم، لأن لو حرف امتناع لامتناع، فهو لم يهرب منهم خوفاً لأنه لم يطلع عليهم، فكيف عَرَف كل هذه التفصيلات الدقيقة، والتصويرات النافذة، التي لم يعرفها أحد من البشر؟.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وإشارتُه إلى أن بناء المسجد كان رأي الحاكمين المتنفِّذين الذين غلبوا على أمرهم.

١٠ ـ حصرُه الأقوال في عدتهم بأنها ثلاثة لا رابع لها.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وأنه هو القول الراجح في عدتهم.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وإشارتُه إلى سبب النزول، ونسيانُ الرسول ﷺ أن يعلق الوعد بمشيئة الله، وما أعقبها من تأخر نزول الوحي عليه بالجواب.

١٣ ـ ما ورد في الروايات في أسباب النزول عن تأخُّر نزول جبريل على رسول الله ﷺ، رغم حاجته الماسة له، لا سيما وأنه وعَدَ المشركين الجواب في الغد، وصار كلما يراجعونه يقول: لم يأتني الوحي، مما جعلهم يثيرون الشبهاتِ والدعايات ضده. وما في ذلك من ضيق وألم للرسول ﷺ.

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ والجزم بتحديدها بهذه المدة.

١٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ وذكْر هذه السنوات بلفظ الزيادة الذي يوحي بالفرق بين الحسابيْن.

○ الحكمة من تعقيب القرآن على قصصه:

من الملاحظ أن القرآن الكريم كان يتولى التعقيب على القصص الذي يورده، ببضع آيات، ويقرر في هذا التعقيب أهمَّ المعاني التي توحي بها القصة التي يعرضها، والدلالاتِ التي تؤخَذ منها، وحاجة المسلمين إلى دروسها وعبرها.

وهذا التعقيب القرآني يوحي لنا بعدة أمور. منها:

١ ـ إن القصص في القرآن لا يُراد لذاته، وإنما هو وسيلة ناجحة، إلى غايات سامية، وأهداف مقصودة.

٢ ـ يدعونا القرآن إلى أن نلحظ الهدف والغاية من القصة، وأن نفقه ذلك ونقفَ عليه، ونتدبره ونُحسنَ التعامل معه.

٣ ـ يدعونا القرآن إلى أن لا نُتعب أنفسنا بالبحث في تفصيلات ذلك القصص، الذي لم يَرد في القرآن ولا في الحديث الصحيح، وأن لا ننشغل بمحاولة تبيين مبهمات ذلك القصص، وتحديد أشخاصه وزمانه ومكانه، وعلينا بدل ذلك أن نلتفت إلى العبرة والدلالة والهدف والغاية.

٤ ـ يدعونا القرآن إلى أن نقتدي به في ما نعرضه من قصص، بحيث يكون لنا هدفٌ نسعى لتحقيقه من خلاله.

○ تعقيب القرآن على قصة أصحاب الكهف:

كان تعقيب القرآن على قصة أصحاب الكهف في الآيات التالية:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٢٦ ـ ٣١].

○ بعض دلالات ولطائف هذا التعقيب:

١ ـ تعليمُنا الأدب مع الله، وأن نَكِل إلى علم الله الشامل المحيط كلّ الأمور والأخبار والأحداث. كما يبدو من قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾.

٢ ـ تعليمُنا مدحَ الله والثناءَ عليه، والمبالغةَ في ذلك، كما يبدو من قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ ومعناه ما أبصرَ اللَّهَ وأسمعَه، فبصرُه شامل لكل موجود، وسمعُه لكل مسموع.

٣ ـ الله وحده هو الولي، وغيره لا يصلح أن يكون ولياً، وإذا اتخذه أناس ولياً فلن ينفعهم، فلا ولي إلا الله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾.

٤ ـ إن الله غنيٌّ عن الشركاء، وغنيٌّ عن العالمين، ولذلك ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

٥ ـ دعوةٌ لنا إلى تلاوة القرآن وتدبُّرِه، وفهمِ معانيه، والحياة بهِ، والدعوةِ

إليه، فهذه التلاوة للقرآن هي حياة القلوب والأرواح والأبدان: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

٦ ـ يخبرنا القرآن أن كلمات الله لا تبديل لها ولا تغيير، وكلمات الله شاملة لإرادته ومشيئته سبحانه، ولسننه العامة التي تربط حياة البشر، وللآيات القرآنية الحكيمة: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٧ ـ يأمرُنا القرآن بأن نكون مع الصالحين، وأن لا نعدُوَ أعيننا عنهم، وأن نصبر أنفسنا صبراً على أن نكون معهم ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٨ ـ يخبرُنا القرآن أن كل مَنْ عَدَل عن الصالحين وتَركهم، فإنما يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٩ ـ إن الناس أحد فريقين لا ثالث لهما، فريق الصالحين الذين يدْعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وفريق الكافرين الظالمين الذين غفلت قلوبهم عن ذكر الله، واتبعوا أهواءهم، وفسدت حياتهم.

وكل من تخلى عن الصالحين فإنما يكون بالضرورة مع الفريق الآخر.

١٠ ـ يدل القرآن، على أن الإيمان بالله هو النظامُ الدقيق الذي يجمع حياة الإنسان، والسلكُ المتين الذي يربط جزئيات هذه الحياة، ويوحِّد بينها، فإذا فُقد هذا النظام، وقُطع هذا السلك، تناثرت جزئياتُ حياته وضاعت، وصارت فُرُطاً مهملاً ضائعاً لا خير فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

١١ ـ نحن مطالبون بالدعوة والحجة والبيان والتعريف، وأن نوضح للناس الحق واضحاً بيناً، وأن ندلّهم عليه، وندعوهم ليكونوا معه. وبهذا تنتهي مهمتنا ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

١٢ ـ على الناس أن يختاروا أيَّ طريق يسلكون، وأيَّ فريق يتبعون، نحن نوقفهم على مفرق الطريق، وهم يختارون بإرادتهم طريق الإيمان أو طريق الكفر: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

١٣ ـ وحتى نساعدهم على اختيار طريق الحق والنّفور من طريق الباطل، نريهم نهاية كل طريق وخاتمتَه. فنعرض عليهم مشاهد من الجنة ونعيمها، ومشاهد أخرى من النار وعذابها.

١٤ ـ الدنيا دارُ العمل، والآخرة دارُ الجزاء، ومَنْ أحسن في الدنيا وآمن وعمل صالحاً، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

١٥ ـ رغم اتفاق المؤمنين والكافرين في العيش في الدنيا، إلا أنهم يختلفون في النهاية والمصير يوم القيامة، فجنة المؤمنين ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ ونار الكفار ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ وشتّان بين الحُسْن والسوء، والنعيمِ والعذاب، والثوابِ والعقاب!!.

○ تلخيص لأهم دروس القصة:

نقف في نهاية كلامنا عن قصة أصحاب الكهف، لنسجل أهمَّ الدروسِ والدلالات والعِبر، التي تُؤخذ منها:

١ ـ تعاونُ الكفار فيما بينهم، وتنسيقُهم مواقفَهم لمحاربة دعوة الحق، والوقوفِ في وجهها، كما حصل من قريش واليهود في توجيه الأسئلة لرسول الله ﷺ.

٢ ـ اليهودُ هم أشدُ الناس عداوة للمسلمين ـ كما صرح القرآن ـ وأكثرُ الناس حقداً على المسلمين، كما ظهر من توجيههم الأسئلة العويصة للرسول عليه السلام.

٣ ـ اليهودُ هم أساتذة الشر والفساد، ولذلك يلجأ إليهم الآخَرون ليتتلمذوا عليهم في الشر والفساد. كما فعلتْ قريش.

٤ ـ وجوبُ الاكتفاء بالعرض القرآني لأحداث وتفصيلات القصص السابقة، وعدم تجاوزها إلى الإسرائيليات والأساطير.

٥ ـ عدمُ تحديد مبهمات القرآن عن أشخاصٍ وأزمانٍ وأمكنةِ أحداثِ القصص السابقة.

٦ - تُعتَبر قصةُ أصحاب الكهف من أبرز الأدلة القرآنية على إمكانية الكرامات للصالحين، ووقوعِها في عالم الواقع، حيث أشارت القصة إلى عدة كرامات وقعت لأولئك الفتية المؤمنين.

٧ - في القصة آيات كثيرة لله سبحانه، تدل على الله، وتُعرِّفنا إليه، وتعرض بعض صفاته وأفعاله.

٨ - القصة أوضح دليل على حفظ الله لأوليائه، ونصره لهم، فيعيشون حياتهم في طمأنينة، ويواجهون أعداءهم بثبات.

٩ - تعلِّمنا القصة لجوءَ المؤمن إلى ربه، واعتصامَه به، وتوكلَه عليه، وطلَبه لرحمته، وهي أقوى وسائل الصبر والثبات والجهاد والنصر.

١٠ - قصَّ القرآن قصة أصحاب الكهف بالحق، وهذا يعني أن كل ما ورد في القرآن من أخبار فهو الحق الذي لا شك فيه. وأن كل ما لم يتفق مع القرآن فلا حق فيه.

١١ - وصْفُ أصحاب الكهف بأنهم فتية، وصفُ ثناء واستحسان، وهذا يوحي بأهمية مرحلة الشباب والفتوَّة، باعتبارها مرحلة العطاء والحيوية، والبناء والاندفاع.

١٢ - جعل الله للإنسان قدرةً على الكسب والاختيار، فهو يختار طريقه، وهو في اختياره موافق لإرادة الله سبحانه، والله يزيده مما اختار من خير أو شر.

١٣ - ملأ أصحاب الكهف قلوبهم إيماناً، وتوجهوا إلى الله بالتثبيت، فَرَبط على قلوبهم، وعلى المسلم أن يملأ قلبه إيماناً ثم يطلب من الله أن يربط عليه حتى لا يتسرب منه، أو يختلط معه غيره.

١٤ - بعد مرحلة الاختيار للإيمان والتزودِ منه والربط عليه، تأتي مرحلةٌ تالية، وهي السعي والدعوة والحركة، والعملُ بجد وجهد في سبيل الإيمان الذي اختاره.

١٥ - أمورُ العقيدة وقضايا الإيمان لا تترسخ في القلب والشعور إلا

بالحركة، والعمل، والدعوةِ للدين، والقيام بالحق، ومواجهةِ الباطل.

١٦ ـ لا تُقبَل أيةُ فكرة أو دعوة إلا بعد توفُّر الدليل القاطع والبرهان الساطع، وما أكثرَ المبادئ والدعوات التي تفتقد لهذه القاعدة الأساسية!.

١٧ ـ أظلمُ الناس هو ذلك الذي يفتري الكذب على الله، لأن الكذبَ على الناس جريمة، والكذبَ على الله جريمة أكبر، تدل على نضوب الخير في نفس وقلب صاحبه.

١٨ ـ لقد اعتزل أهلُ الكهف قومَهم، لأنه لم يكن أمامهم إلا الاعتزال، ونحن لا يجوز لنا أن نقتدي بهم في ذلك الاعتزال، لوجود فروق كثيرة بيننا وبينهم.

١٩ ـ إن مخالطة الآخرين، والاتصالَ بهم، ونصحَهم، ودعوتَهم، وتذكيرَهم، واجبٌ على الداعية، ولا يعتزل الآخرين إلا إذا لم تبق أمامه إلا تلك الوسيلة.

٢٠ ـ ومع المخالطة والاتصال يجب أن يعيش الداعية نوعاً آخر من العزلة، إنها العزلة الشعورية، بمعنى أن لا يأخذ عنهم باطلهم، ويُبقي قلبَه وشعورَه وكيانَه مع ربه.

٢١ ـ عندما دخل أصحاب الكهف كهفَهم، يسّره الله لهم، وكان صالحاً لإقامتهم، وذلك بسبب رحمة الله التي نشرها عليهم فيه، فما أسعدَ الحياة برحمة الله، وما أقساها بدونها!.

٢٢ ـ لقد سخَّر الله للفتية في الكهف جنوده الكثيرين، وقدَّر الأسباب المادية، التي تحقق بها حفظُهم.

٢٣ ـ صحبةُ الصالحين تُفيض على صاحبها معاني الخير والبركة بفضلهم، وصحبةُ الأشرار تجعل على صاحبها نصيبَه من الشر والخسارة.

٢٤ ـ تجاوُزُ الهامشيات والمسائل الفارغة التي لا نفع فيها ولا خير، وعدمُ إضاعة الوقت فيها، كما فعل أصحاب الكهف في ترك الجدال في مقدار لبثهم نائمين في الكهف.

٢٥ ـ توحي لنا القصةُ بجواز ومشروعية الشركة والوكالة، حيث فوَّضوا أحدهم بالذهاب للمدينة لشراء الطعام، وأعطوه نقودهم من أجل ذلك.

٢٦ ـ كما توحي القصة بكراهية الدَّيْن، وتشير إلى أن الأوْلى أن يكون الشراء بالنقد، كما يوحي قولهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾.

٢٧ ـ يعلمُنا أصحابُ الكهف وجوبَ التمهل والتريُّثِ عند شراء الطعام وغيره، وتحرّي الحلال الطيب، والتخلي عن الحرام الخبيث.

٢٨ ـ قولُهم للذي ذهب للمدينة ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ يقرر قاعدة قرآنية أساسية حول الطعام، وهي إن الطعام الزاكي هو الحلال فقط، وغيره خبيث منبوذ.

٢٩ ـ وهذه القاعدةُ القرآنيةُ تدل على اهتمام القرآن بالذوق والمزاج الشخصي، فهو يريد من المسلم أن يكون ذوقُه ومزاجهُ محكوماً بالشرع وما يقرره من حِلّ وحرمة.

٣٠ ـ وتقف كلمة ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ مَعْلَماً قرآنياً بارزاً، ومنارةً هادية، حول وجوب التلطف والرفق في الحياة، والصِّلات والمعاملات مع الآخرين.

٣١ ـ وقولهم: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ يوحي بأمر آخر، وهو جوازُ ومشروعيةُ التخفي عن الكفار والأعداء، والإِسرار بالدعوة والتنظيم، والحرصِ على عدم كشفها للأعداء.

٣٢ ـ ومع حرص أهل الكهف على التخفي، إلا أن الله أعثر عليهم قومهم، وكشَف أمرهم لهم، لحكمة يريدها سبحانه ليريهم دليلاً عملياً على البعث واليوم الآخر.

٣٣ ـ يُعتبر بعثُ أصحاب الكهف من نومهم الذي طال مئات السنين، من أقوى الأدلة العملية الواقعية على البعث واليوم الآخر.

٣٤ ـ تبدو من قول الحاكمين الذين غلبوا على أمرهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ نبرةُ التكبر والتسلط والاستعلاء، وهي ملازمة لكل الحاكمين، غير الملتزمين بمنهج الله.

٣٥ ـ القرآن قد يعرض بعض الأقوال، ويلمِّح إلى ما يردُّها وينقضها ويبطلها، ويكون هذا في إشارة ولمحة، قد لا يلتفت لها كثيرون، ولكنها لا تخفى على حذاق المتدبرين.

٣٦ ـ رغم اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، وإيراد أقوال ثلاثة لهم حولها، إلا أن القرآن يقرر إمكانيةَ علم البشر بتلك العدة.

٣٧ ـ الراجح أن أصحاب الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، ويمكن أن نستخرج من القرآن نَفسه أربعة أدلة على ترجيح هذا القول.

٣٨ ـ في القصة واوٌ، هي واو الثمانية وهي في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهذه الواو توحي بعدة إيحاءات.

٣٩ ـ يقرر قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ قاعدةً قرآنية حول التعامل مع قصص السابقين، وهي النهي الشديد عن استفتاء أو سؤال السابقين عنها، أو أخذ كلامهم حولها.

٤٠ ـ نسيانُ الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول: «إن شاء الله» وإيراد نماذج لنسيان أنبياء آخرين في القرآن، دليلٌ على بشرية الرسل، وتعرضهم لعوارض البشرية.

٤١ ـ من حقائق القرآن أن كل شيء في الكونِ والحياةِ وحركةِ الإِنسان، إنما يحدث بقدَر الله، ووفْق مشيئته، فلا يقع إلا ما شاء الله.

٤٢ ـ الإِنسان يقف أمام الغيب عاجزاً جاهلاً، لأنه لا يعلم الغيبَ إلا الله، ولا يحيط بالغيب إلا الله.

٤٣ ـ تقديرات الإِنسان وخططُه وبرامجُه قد تتخلف، ويعجز عن تنفيذها، لأن الله لم يُرد حصولها، وهذا لا يلغي وجوب الأخذ بتلك الأسباب، ثم التوكل على الله.

٤٤ ـ يعلّمنا القرآن أن نعلّق وعودَنا بالمشيئة الإِلهية، وأن نستثني عند إبرامنا لتلك الوعود. فنقول: سنفعل هذا الأمر، إن شاء الله.

٤٥ ـ النسيان ملازم للإِنسان، ولا يوجَد إنسان لا ينسى، وأحياناً يكون

النسيان نعمةً من الله كنسيان المصائب، وأحياناً يكون في الواجبات والفرائض والأوامر، فيكون من الشيطان.

٤٦ ـ يرشدُنا القرآن إلى وجوب ذكر الله عند النسيان، حتى نقضي على وساوس الشيطان ونزغاته، ونُبقي قلوبنا وكياننا مع الله.

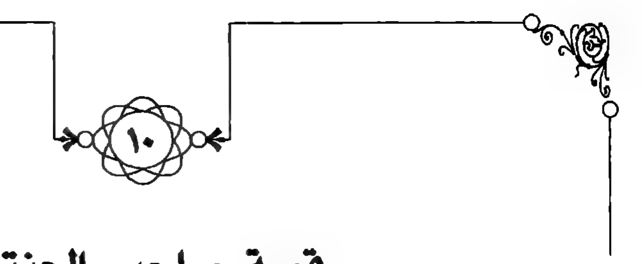
٤٧ ـ يقررُ القرآن أن نومة أصحاب الكهف قد طالت، حيث وصلت إلى ثلاثمائة وتسع سنوات.

٤٨ ـ السنوات التسع هي الفرق بين الحسابيْن الشمسي والقمري في مدة لبثهم، وهذا يدل على مصدر القرآن، وأنه من عند الله سبحانه.

٤٩ ـ تحملُ القصةُ أكثرَ من خمسة عشر دليلاً على أن القرآن من عند الله، وليس من تأليف الرسول ﷺ، وإلا فمن كان يدريه بتلك التفصيلات التي لا يعلمها بشر؟.

٥٠ ـ يُعقِّب القرآن دائماً على قصصه، تعقيباً يعالج مسائل وقضايا في حياة وواقع المسلمين، ويقرر الدروس والدلالات التي توحي بها تلك القصص.





قصة صاحب الجنتين

○ القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٦].

○ الكلمات الغريبة في الآيات:

١ ـ **حفَفْناهما بنخل** : أحطناهما بنخل.

٢ ـ **لم تَظلم منه شيئاً** : لم تُنقص من ثمرها شيئاً.

٣ ـ أعزُّ نفراً	: أقوى أعواناً وعشيرة.
٤ ـ أن تبيد	: أن تهلك وتفنى.
٥ ـ منقلباً	: مرجعاً.
٦ ـ حُسْباناً	: عذاباً كالصواعق.
٧ ـ تصبح صعيداً زلقاً	: تصبح تراباً أملس لا نبات فيه.
٨ ـ غَوْراً	: يغور في الأرض ويذهب داخلها.
٩ ـ أُحيط بثمره	: أُهلكت أمواله.
١٠ ـ خيرٌ عُقْبا	: خيرٌ عاقبةً لأوليائه.
١١ ـ هَشيماً	: عشباً يابساً مقطَّعاً.
١٢ ـ تذْروه الرياح	: تنسِفه وتفرقه في الفضاء.

○ موجَز القصة من خلال القرآن:

تُقدِّم لنا هذه القصة نظرتين مختلفتين للحياة وما فيها من مظاهرَ وممتلكات.

نظرةُ رجل مؤمن لم يملك من مظاهر الدنيا شيئاً، ومع ذلك لم يفقد منظاره الإِيماني وميزانَه الإِسلامي، فنظر بدقة لما في الدنيا، ووزَن ذلك وزْناً صحيحاً صائباً.

ونظرةُ رجل كافر، منحَه الله جنتين جميلتين، وبستانين واسعيْن. كانتا جنتين من أعناب، والأعناب مُحاطة بأسراب النخل، وكان الزرعُ يُزرع بين الأشجار. وقد أمر الله الجنتين أن تنتجا لِمالكهما الكافر كل ما فيهما من ثمار وأُكُل. فاستجابتا لأمر الله، وقدمتا ثمارهما، ولم تبقيا من أُكُلِهما شيئاً.

وفُتن الرجل الكافر بما يملك من الدنيا ومتاعِها، وظنَّ أن هذا هو كل شيء، ونسي الله واليوم الآخر، فتاهَ على صاحبه المؤمن، وتكبَّر عليه، واعتبر نفسه أفضلَ منه عند الناس وعند الله. فقال لصاحبه، وهو يحاوره ويناقشه ويجادله ويتيه عليه: أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً. وذلك لأنه قاس مظاهر

الفضل والتفضيل بالمال والمتاع، ورأى أنه مقدَّم عند الناس لماله ومتاعه، فهو أكثر أنصاراً، وأعز جاهاً عندهم.

وذهب إلى جنَّته، ودخلها وهو ظالم لنفسه، مطموسٌ على قلبه لكفره، فظنها دائمة خالدة وأنها هي كل شيء، وأنه ليس هناك بعث ولا قيامة، وقال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة.

واستدرك قائلاً: لئن رُددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً. فإذا كان هناك بعث ونشور، ورُددت إلى ربي، فإنني سأكون عنده هناك في تكريم وفضل، وسيعطيني هناك خيراً من هذه الجنة. لأنه أكرمني في الدنيا ومنحني هذه الجنة، وبما أنني محَلٌّ لهذا الإِكرام والإِنعام، فإنه سيعطيني الخير الكثير هناك. هذا إذا رُددت إليه!!.

لكنّ صاحبه المؤمن بقي متمسكاً بميزانه ومنظاره الإِيمانييْن، ولم تخدعه المظاهر التي يملكها هذا الرجل الغني الكافر، كما أنه لم يضعُف أمامه، ولم يجبن ولم يسكت، بل حاوره بمنطق المسلم الواثق الثابت البصير.

فقال له وهو يحاوره: أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً؟ لكن هو الله ربي، ولا أشرك بربي أحداً.

وأرشد صاحبَه إلى معرفة فضل الله، وعدمِ الاغترار بالمظاهر الزائلة، وقال له: لولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله، لا قوّة إلا بالله.

وحذَّره من عاقبة كفره وبطره وبغيه، واغتراره بجنتيه وما فيهما، فإن الله قادر على أن يهلكهما ويدمرهما، ويوقع به نتيجة كفره وبطره، وطالبَه أن يتوقع صاعقة مدمِّرة تدمِّر جنتيه، وتزيل ما فيهما من أعناب ونخيل وزروع، فتصبحَ كل واحدة منهما تراباً أملس أجرد. وأن يتوقع ذهاب النهر الذي بين الجنتين، وأن يغور في باطن الأرض بأمر الله، فهل يستطيع إعادته؟.

وأوقع الله بالكافر الفاجر عاقبةَ كفره وفجوره، وأزالَ عنه نعمته، وأرسل صاعقة مدمرة دمّرت ما في جنتيه، كما توَقَّع صاحبه المؤمن.

وندم الكافر، وقت لم ينفعه الندم، وأصبح يقلب كفيه، وهو حزين

لضياع ما أنفق فيها، بعدما ذهب كل ذلك، وأصبحت خاوية على عروشها.

وصار هذا الكافر يتمنى لو كان مؤمناً بالله شاكراً له، ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾.

وبقيتْ قصةُ الرجلين: المؤمن البصير، والكافر الفاجر، بارزةً مَعْلَماً إيمانياً، ومنارةَ ذكرى وعبرة.

وعقَّب عليها القرآن بأن الكافر خسر وهلك، ولمَّا وقع به وبجنتيه عذابُ الله وأمرُه، لم يجد فئة ولا قوة ولا جيشاً ولا حزباً ينصرونه ويحمونه، ويوقِفون عنه عذابَ الله، ولهذا هلك وخسر وما كان منتصراً.

هنالك الولاية لله الحق، فالفائز والسعيد هو من كان الله معه، موفِّقاً ومؤيِّداً وحافظاً وناصراً، وهو الذي يحبه الله، ولو لم يمنحه من مظاهر المتاع الدنيوي الزائل شيئاً، يكفي أن الله وهبه إيماناً ويقيناً وثقة واستعلاء، وسعادةً وأنساً وراحة. مثل الرجل المؤمن الذي حاور وجادل الرجل الفاجر الكافر.

الدنيا كلها زائلة، وما فيها من متاع ومال وبنين زينةٌ لها، زينةٌ سرعان ما تزول، كما زالت جنتا الرجل الكافر.

والباقيات الصالحات خير عند الله ثواباً وخيرٌ أملاً، كما حصل للرجل المؤمن البصير.

وما على الناس إلا أن يختاروا أيَّ النموذجين: نموذج الرجل المؤمن البصير، أو نموذج الكافر الفاجر البَطِر المغرور.

لكن عليهم أن يتحملوا نتيجة الاختيار، بعدما عرفوا عاقبة الإيمان، وعاقبة الكفر والبغي والغرور.

○ هي قصة حقيقية لا تمثيلية:

ظن بعض الناظرين في قصة صاحب الجنتيْن أنها قصة رمزية وليست واقعية، وتمثيلية وليست حقيقية، وأن القرآن عرضها مثالاً تمثيلياً للخير والشر،

والإِيمان والكفر، والإِقبالِ على الدنيا والزهد فيها، حيث قدم هذه المفاهيم في نموذجيْن تقريبيين وصورتيْن تمثيليتيْن.

وكلام هؤلاء غير دقيق ولا مقبول. لأن قبوله يُفضي إلى التشكيك في واقعية القصص القرآني، والظنِّ بأنه رمزي تمثيلي، بمعنى أنه لم يكن صدقاً، بل كان أساطير، وهذا هو قول الكافرين الذين اتهموا القرآن بأنه أساطير الأولين.

المحقِّقون المنصفون من العلماء على أن قصص القرآن واقعيٌ وليس رمزياً، وحقيقي وليس تمثيلياً، بمعنى أن هذا القصص كان له وجودٌ واقعي حقيقي في سالف الزمان، وأن أبطاله كانوا أشخاصاً أحياء حقيقيين، وأن أحداثه جرت عملياً على وجه الأرض.

وقصة صاحب الجنتين لا تخرج عن هذا المضمون. فهي تعرض قصة رجلين حقيقيين جرت بينهما الأحداث التي أشارت لها آيات القصة، وكانت أحداثاً حقيقية واقعية.

○ تفصيلات القصة من المبهمات:

وقد ينتقل بعض الناس من واقعية القصة إلى خطوة أخرى، فيطالب بتفصيلات القصة، ويقول: قدِّموا لنا هذه التفصيلات، طالما هي حقيقية واقعية.

ونقول: لا يلزم من واقعية القصة الوقوفُ على تفصيلات أحداثها، فهما قضيتان منفصلتان غيرُ متلازمتيْن.

واقعيةُ القصة شيء، وإلمامُنا بتفصيلاتها شيء آخر.

لقد جرتْ أحداثُها فيما سبق من الزمان وشهدت الأرضُ تلك الأحداث.

لكننا مطالبون بتلقِّي تفصيلات قصص السابقين ـ الواقعية الحقيقية ـ من المصادر اليقينية الصحيحة المأمونة ـ وهي مقصورة على القرآن الكريم، والحديث النبوي الصحيح ـ حتى لا نفتري على السابقين، ولا نضيف إلى تلك الأحداث إضافات لم تحصل.

فإذا ما توجّهنا إلى المصادر الصحيحة لنبحث فيها عن تفصيلات قصة صاحب الجنتين، فإننا لن نجد عندها إلا ما ورد في القرآن الكريم فقط. ولا توجد إضافات على ذلك في الأحاديث النبوية الصحيحة.

ولهذا نقرر أن تفصيلات القصة من المبهمات التي لا نبحث عن بيانها. ومن ثم تكون أسئلة مثل هذه لا جواب عليها:

من هما الرجلان اللذان كانا يتحاوران؟ ما اسماهما؟ في أي بلد كانا يعيشان؟ وفي أي زمان وُجِدا؟ وما درجة قرابتهما لبعضهما؟ وما الذي جمع بينهما؟ وأين كانت جنتا الرجل الكافر؟ وما هي تفصيلات زرعهما وأشجارهما؟ وكيف ومتى أرسل الله عليها حُسباناً من السماء؟ وماذا جرى لهما بعد تدمير الجنتين؟.

هذه الأسئلة من المبهمات، ولذلك لا جواب عليها من المصادر الصحيحة، ولهذا لا ننفق طاقتنا المحدودة في بحثها، ولا نضيِّع وقتنا ووقت الآخرين بها. ويكفينا ما عرضه القرآن من القصة ففي ذلك تتحقق العبرة والعظة.

○ واضرب لهم مثلاً رجلين:

لماذا ضرب القرآن لنا مثل الرجلين؟ ولماذا عرض علينا قصة الرجلين؟ ولماذا طلب القرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يضرب للناس مثلهما؟ وما هي الحقائق التي تقررها هذه القصة؟.

قصة صاحب الجنتين وصاحبِه لا تخرج عن الهدف من قصص سورة الكهف، والذي يهدف إلى «تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر. وتصحيح القيم بميزان العقيدة..».

إن القصةَ تُصحح العقيدة، عندما طالب الرجل المؤمن صاحبه بالإيمان بالله وشكره، وحذَّره من عاقبة كفره وبَغْيه.

كما أنها تصحح القيم بميزان العقيدة، حيث تبين عاقبة من اغتر بما يملك من متاع الدنيا، فركَنَ إليه واعتزَّ به، فتبدَّد من أمامه. كما تبيِّن عاقبةَ من اعتَّز بربه ولجأ إليه، وآثر ما عنده، فوجده خيراً ثواباً وخيراً أملاً.

هذان الرجلان، اللذان ضربتْهما سورةُ الكهف مثلاً لنا، عبارة عن نموذجين بشريَّيْن، قد يكونان في أيَّة بقعة من الأرض، وفي أيّ زمان من التاريخ، ولا تكاد تخلو فترة من هذيْن النموذجيْن. ولذلك يدعونا القرآن إلى ملاحظة ذلك فيما نراه ونلحظه!.

واضْرب لهم مثلاً رجلين: ليس الأمر موجَّهاً لرسول الله ﷺ فقط، بل هو يشمل كلَّ ناظرٍ في القرآن، يحمل واجبَ الدعوةِ إلى الله، ونُصْحِ وتذكيرِ الآخرين. فيطالبه القرآن بضرب الأمثال للسامعين، ليكون هذا أَدْعى إلى استجابَتِهم، ويطالبه باللجوء إلى القصص، وسيلةً من أساليب الدعوة.

○ الله يمنح النعيم الدنيوي للكافر:

نرى في القصة، النعيمَ الماديَّ الدنيوي قد منحه الله للكافر، ومنَّ به عليه. فهو له جنتان من أعناب، محفوفتان بنخل، وبينهما زرع، ويجري خلالهما نهر، وكلتا الجنتين آتت أُكُلَها، فكان لصاحبهما ثمر، وشعر بالغِنى والمال والعزة والجاه، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، وقال: ما أظن أن تبيدَ هذه أبداً.

أما صاحبُه المؤمن فلم يكن يملك من المتاع الدنيوي شيئاً. ولذلك تاهَ عليه الكافر وقال له: أنا أكثَر منك مالاً وأعزُّ نفراً، فردَّ عليه: إن ترن أنا أقلَّ منك مالاً وولداً، فعسى ربي أن يُؤتين خيراً من جنتك.

والذي نلحظه من الآيات أن هذا المنحَ للكافر والمنعَ للمؤمن، إنما هو ابتلاء من الله لكلا الرجلين.

ابتُلِيَ الكافرُ بالنعم الغامرة، فسقط في الامتحان وازداد كفراً.

وابتُلِيَ المؤمنُ بالمنع من تلك المظاهر المادية، فنجح في الامتحان وازداد إيماناً.

كما نلحظ من ذلك حقيقةً قرآنية إيمانية جازمة: وهي أن المتاعَ الدنيوي الزائل ليس مظهراً للتكريم الرباني، والحرمانَ من هذا المتاع ليس مظهراً للهوان على الله.

إن هذا المتاعَ أهونُ على الله من أن يكون مجالاً للتكريم والهوان، أو المحبة والبغضاء، ولذلك يَهَبُ الله هذا المتاع الزائل للكافرين أكثر مما يمنحه للمسلمين.

وقد ذمّ القرآن قصيري النظر الذين يظنون هذا الظن فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧].

إن الله يُعطي الدنيا مَن يُحب ومَن لا يُحب، ولكنه لا يعطي الإيمان والدين إلا لمن يُحب فقط.

○ إسناد الأفعال إلى الله:

نلاحظ في الآية الأولى ملاحظةً نحوية بيانية، ذاتَ دلالةٍ إيمانية عقيدية. قال الله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

لقد أُسندت الأفعالُ الثلاثة الماضية إلى الله:

جعلْنا لأحدهما جنتين من أعناب.

حففْناهما بنخل.

جعلْنا بينهما زرعاً.

وهذه اللفتة النحوية البيانية، تدلُّنا على أن الله سبحانه هو الفاعل الحقيقي، والمقدِّر للجنتين وما فيهما من زروع وأشجار وثمار.

إن الآية تجرد صاحب الجنتين الكافر من أي جهد فيهما، مع أنه قد يكون هو الذي حَرَث وزرع، وغرس ونمّى، وحفظ وتعاهد. صحيح أنه فعل هذه الأشياء المادية، فيكون هو سبباً مادياً ظاهرياً.

لكن جهدَه لن يتم إذا لم يُرد الله ذلك، وعملَه سيضيع إذا لم يُقدِّر الله ذلك، وما في الجنتين لن ينمو ويثمر، إذا لم يشأ اللهُ ذلك.

صاحب الجنتين سبَب والله هو المسبِّب، وهو الذي يحرث ويزرع والله هو الذي يُقدِّر ويشاء. وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ولذلك أُسندت الأفعال إلى الله، وجُرِّد الكافرُ من أيِّ جهد له في الجنتين.

وهذا ما يقرره القرآن في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧].

ونفهم من إسناد الأفعال إلى الله أمراً آخر، وهو تقبيحُ صنيعِ صاحب الجنتَين، في كفره وبغيه وبطره، وبيانُ أنه لا حَقَّ له في هذه التصرفات. فالجنتان اللتان يختال بسببهما ليس له يَدٌ فيهما. فالله جعلهما له. والله حفَّهما بنخل. والله جعل بينهما زرعاً. والله فجَّر خلالهما نهراً. وهذا الرجل بدل أن يشكر الله على هذه النعم، كفرَ به واختال تيهاً وعربد.

○ لفتة زراعية في تنسيق الجنتين:

هناك نظرة أخرى في الآيات التي عرَضت الجنتين، وهي نظرةٌ فنيةٌ زراعية هندسية تنسيقية هذه المرة.

إن الآيات تقدم لنا صورةً نموذجية فنية، في تنسيق الجنة، وهندسة البستان، وغَرْس الأشجار فيه بطريقة فنية ساحرة رائعة.

إنهما جنتان من أعناب.

حفَّهما الله بنخل.

وجعل بينهما زرعاً.

وفجر خلالهما نهراً.

ونتج عن هذا أن كلتي الجنتين آتَتْ أُكُلها، ولم تظلم منه شيئاً.

ونفهم أن المقصود من هذا التفصيل في هندسة وإنشاء الجنتين ـ على غير المعهود من القرآن في المرورِ السريع على أمثالِ هذه المسائل التفصيلية الثانوية ـ دعوةُ الناظرين في القرآن والمتدبِّرين له، إلى ملاحظة هذه اللَّفتة الهندسية التنسيقية.

إننا عندما نلاحظ هذه اللفتة نحقّق بعضَ الأمور. منها:

١ ـ التذوقُ الجمالي الفني لآيات القرآن، من حيث إشارتُه إلى هذا البعد الهندسي الزراعي في تنسيق الحدائق والبساتين.

٢ ـ الاقتداءُ بهذا العرض القرآني، وتنسيقُ الحدائق والبساتين على هذا الأساس.

٣ ـ الاستفادةُ من القرآن في ترتيب الأشياء ترتيباً هندسياً فنياً، سواء في عالم الزراعة أو غيرها. فليس المهم هو أداءُ الشيء والقيام بالعمل فقط، بل المهم أداء العمل بعينٍ فنية، وذوقٍ جمالي، ويدٍ مرتّبة منسّقة.

انظر ما أجمل تنسيق وهندسة الجنتين:

أشجار الأعناب المعروشة وغيرُ المعروشة. أسرابُ النخل تحف هذه الأشجار، وتحيط بها وكأنها سورٌ لها. الزروع والحبوب التي تنمو بجانب الأعناب. النهر الجاري خلال الجنتين كلتيهما.

ولا ننسى أن هذا التنسيقَ والترتيبَ الهندسي الجمالي الفني، لم يحقق المتعةَ الجمالية فقط، ولكنَّهُ حقَّقَ نجاحاً زراعياً واقتصادياً. حيث آتت كلتا الجنتين أُكُلها، ولم تظلم منه شيئاً.

إن الترتيبَ والتنسيقَ يقود إلى تحسين الأداء، واستغلال طاقة الأرض في العطاء، والشجر في الإِثمار.

فالأرضُ لا تعطيك إلا بمقدار ما تعطيها، والشجرةُ تحتاج منك إلى عناية ورعاية، وجهد وتنسيق، حتى تمنحك ما عندها من ثمر.

○ هما لم تظلما وصاحبهما ظالم:

وردت إشارتان للظلم في الآيات التي تحدثت عن قصة صاحب الجنتين. مرة منفية، ومرة مثبَتة.

في المرة الأولى نفى القرآن الظلم عن الجنتين، قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ لقد قدمت الجنتان ما عندهما من ثمار وأُكُل، ولم

تُبقِيا منه شيئاً، وعبَّر القرآن عن ذلك بالظلم فقال: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾.

وفي المرة الثانية أثْبت القرآن الظلم لصاحبهما فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾. فهو ظالم، بينما جنتاه غير ظالمتين.

وقد يعجب المتدبر للقرآن من هذا الموقف:

جنة مكوَّنة من زروع وأعناب ونخيل، كانت عادلة، بحيث لم تظلم، ولم تُخْفِ من ثمارها شيئاً. نباتٌ وتراب وجماد ينفي القرآن عنه الظلم!.

وإنسانٌ مكوَّن من عقل وروح، وله مشاعر وعواطف وأفكار، ومع ذلك كان ظالماً في حياته، ودخل هذا الإنسان الظالم جنته غير الظالمة، فأخذ ثمارها التي قدَمَتها له بكرم وسخاء، أخذها بظلم وبغي وبطر!.

عجيب هذا الأمر: نبات كريم مِعْطاء لا يظلم، وإنسان بخيل مغرور ظالم.

ولا ننسى أن القرآن أضاف ظلم الإنسان الكافر لنفسه، فهو ظالم لنفسه: لأنه كفر بالله، فأوردها موارد الهلكة. وهو ظالم لنفسه: لأنه أضاع أمواله. وظالم لنفسه: لأنه خسر جنتيه. وظالم لنفسه: لأنه بدَّل نعمةَ الله كفراً. ولا يظلم الظالم في الحقيقة إلا نفسَه، ولا يحيق المكرُ السيئ إلا بأهله.

○ تصوُّرُ مغرورٍ مخدوع:

صوَّر لنا القرآن الكريم صاحبَ الجنتين الكافر، بصورة عجيبة، وأطلعَنا على تصرفاته الغريبة، وسجَّل لنا أقواله المنتفشَة، وكشف لنا عن تصوره الباطل المريض.

والذي يجمع تلك التصرفات والأقوال، هو أنها صدرت عن إنسانٍ مغرورٍ ومخدوع، أَغْماه المال والمتاعِ والمظاهرُ المادية، وأوقَعه ثراؤُه العريض في بطر وتكبر وخيلاء، وغبَّشتْ كلٌّ هذه الآفات على تصوره، فلم يدْرِ ماذا يقول، ولا كيف يتصرف، ولا كيف يزن نفسه ويعرف قيمتها.

لقد أثبت له القرآن التصرفاتِ والأقوالَ التالية:

١ ـ دخل جنته وهو ظالم لنفسه.

٢ ـ ظن أن تلك الجنة باقية، وأن نعيمَها دائم، ولذلك ركنَ إليها، وقال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً.

٣ ـ ونتج عن ركونه إلى جنته واكتفائِه بما فيها، نسيانُه الدار الآخرة، وإنكارُه قيامَ الساعة، فقال: وما أظن الساعة قائمة.

٤ ـ وإذا كانت هناك ساعة وقيامة كما يقول المؤمنون، وإذا ما بعث الله هذا الغنيَّ من قبره، وردَّه إليه، فإن الله هناك سيُنعم عليه بما هو خيرٌ من هذه الجنة، فبما أن الله منحه جنَّتين في الدنيا، فإنه سيمنحهُ ما هو خير في الآخرة، ـ هذا إذا كانت هناك آخرة ـ ولذلك قال: ولئن رُدِدْتُ إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً.

٥ ـ وقادَه هذا كله إلى أن يتيه على صاحبه المؤمن وهو يحاوره، فقال له: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً.

ظن أن مجالَ التفضيلِ هو كثرة المال، فهو لكثرةِ ماله أفضلُ من صاحبه. وظن أن ميدانَ الاحترام ومجالَ التقديم، هو النَّفَرُ والسلطان والجاه، وطالما هو يملك فهو أثقل في ميزانه من صاحبه.

إن الغرورَ يُعمي صاحبَه عن الحقائق، وإن التوجه نحو المتاع الدنيوي الزائل يُغْشي أبصارَ صاحبه عن الطريق الصحيح المستقيم.

○ المنطق الإِيماني في محاورة المؤمن له:

إذا كنا قد اطَّلَعْنا على منطق التكبر والغرور والبطر والخيلاء عند الرجل الكافر، فإن القرآن قدَّم لنا منطقاً آخر، وهو منطق طيب لطيف محبَّب، إنه منطق الإِيمان الذي تجلَّى في محاورة الرجل المؤمن لصاحبه الكافر.

كان هذا الرجلُ المؤمن مجرَّداً من المظاهر المادية الخادعة، والمتاع الدنيوي الزائل الزائف، وبقي محتفظاً بإيمانه ويقينه وصفائه.

لقد رأى صاحبه وهو مغرورٌ بما تملَّك، وسمع كلامه وهو يتيه ويتجبر،

ويطغى ويبطر، فلم يَخْدع ذلك الموقف هذا الرجل البصير، ولم يَشعر بالضعف أو الذل أو الجبن أمام صاحبه الفاجر، ولم يَقِس نفسه به، ولم يتمنَّ أن يملك مثلَ ما ملك، كما أنه لم يُؤْثِر أن ينسحب من الميدان، وأن ينعزل في زاوية لحمد ربه وشكره.

إنه وقف أمام صاحبه البطِر المغرور، محاوراً مجادلاً، وتكلم معه بجرأةٍ وعزَّةٍ ويقين، وثباتٍ واستعلاء، وخاطبه ناصحاً موضِّحاً مبيِّناً، ودلَّه على الطريق الصحيح، وأرشده إلى سبيل الفضل والتفضيل، وعلَّمه كيف ينظر إلى ما منحه الله من متاع، وكيف يتصرف فيه. ودعاه إلى التواضعِ وحسنِ التصرف، وإلى التعرف على ربه الذي منحه وحفظه ورزقه، وعرَّفهَ بأصله وبدايته قبل أن يصير إلى ما صار إليه.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

ونستفيدُ من هذا الرجل المؤمن منطقَه وأسلوبَه في الحوار والجدال، حيث يُعلِّمُنا أن نُحاور الآخرين، وأن نُبطِل شبهاتِهم، وأن نُزيل الغشاوة عن عيونهم، وأن نُصحح لهم تصوَّرهم ونظرتهم، وأن لا يمنعنا ما هم عليه من الجاهِ والمنزلةِ والسلطانِ والنعيم، من محاورتهم.

كما يُعلِّمُنا أن لا نخدع أنفسنا، فنقيس أنفسنا بهم، ونتمنى ما هم عليه، فنحن أقوى وأثبت، وأعزُّ وأفضل، وأغنى وأقرب منهم، طالما أننا نملك الإِيمانَ بالله سبحانه.

○ ما شاء الله لا قوة إلا بالله:

أرشد الرجلُ المؤمن صاحبَه الكافر وهو يحاوره إلى التصرف اللائقِ الصحيح، الذي يشكر فيه ربَّه، ويعمل على دوام نعمة الله عليه. وطالبَه بأن

يلجأ إلى الله، وأن يعلّق الأمر على مشيئته، ويجعله مرهوناً بقدرته، وأن يستمد قوته من قوة الله سبحانه.

قال له: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

وهناك حكمةٌ عظيمة من نطق المؤمن بهذه العبارة الإيمانية، عندما يعجبهُ شيء من ماله أو أهله أو ولده.

إنه يعترف أنه نال ما نال بإرادةِ الله ومشيئتهِ، وليس بجهده هو ولا كسْبِه وسعيه. ولهذا يقول: ما شاء الله.

ثم هو يعتقد بأن القوة لا تكون إلا عندما تُستمد من قوة الله، فالله وحده هو القوي القادر القاهر، وهو الذي يَهب الناس القوة، وإذا سلب اللهُ إنساناً القوةَ، فلن تنفعه قُوى الأرض كلها، ولن تقْدر على منحه القوة. ولهذا ينطق لسانُه قائلاً: لا قوة إلا بالله.

إن هذه العبارةَ القرآنية الإيمانية، دليلٌ على قوة إيمان قائلها، وعلى لجوئه إلى الله، وشعورهِ بفقره إليه وضعْفه بين يديه.

كما أن هذه العبارة تدعو قائلَها إلى التواضع والاعتدال، وتقضي على الفخر والبطر والعلوّ والتكبر.

وهي تدعو صاحبَها إلى استخدام النعمة التي بين يديه في نفع عباد الله، وفي ما يُقرِّبه من ربه، ويعينُه على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وقد وعى الصالحون عن هذه العبارة الإيمانية ما توحي به، ولذلك كانت حركاتُهم وأعمالُهم محكومةً بها، كما كانوا ينطقون بها عندما تعجبهم أموالهم أو أولادهم أو عقاراتهم.

ورد عن عروة بن الزبير ﷺ، أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يُعجبُه، أو دخل حائطاً من حيطانه قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله. وهو بذلك يتأوَّل قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

وورد عن ابن شهاب الزهري، أنه كان إذا دخل أمواله قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله.

وورد عن الإمام مالك، أنه كان إذا دخل بيته قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله. فقال له تلميذُه مُطَرِّف في ذلك: لِمَ تقول هذا؟ فقال لِمُطَرِّف: ألا تسمعُ الله يقول: وَلولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله.

وروى ميسرة قائلاً: رأيتُ على باب وهب بن مُنَبِّه مكتوباً: ما شاء الله وذلك قول الله: ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله. لا قوة إلا بالله[1].

علينا أن نجعل هذه العبارة الإيمانية شعاراً دائماً لنا، تعيها قلوبُنا، وتنطق بها ألسنتُنا، ونعيشها في كيانِنا وواقِعنا وحياتنا، حتى تدومَ علينا نِعَمُ الله، وحتى نشكرَ الله عليها.

○ وأحيط بثمره:

حذّر الرجل المؤمن صاحبَه الكافر من زوال نعمة الله عليه بسبب كفره وبطره، وبيّن له أن الله قد يدّمر له جنتَه التي كان يتباهى بها. وقال له: فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك، ويرسلَ عليها حسباناً من السماء، فتصبح صعيداً زلقاً. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً.

ولكنَّ صاحبه لم يرتدع ولم يرعَوِ، وبقي على كفره وتكبره وبطره وفجوره.

وأخيراً عامله الله بما يستحقه، وأخذه بأعماله، وأوقعَ به عاقبةَ فجورهِ وبطرهِ وكفرهِ، وأزال عنه نعمته، وأهلك له جنتيْه، وأذهب ما فيهما من أعناب ونخيل وزرع، وتبدّد ما فيهما من ثمر، وغار ما فيهما من ماء.

كل هذا عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ والإحاطة هنا تعني الإهلاك والدمار والزوال.

ذهب المتاعُ والمال والنعيم، الذي أمضى عُمره ووقته وجهده فيه، وأنفق ماله وجهدَه في رعايته وتنميته. ذهب هذا كله في لحظة، وصار أثراً وحديثاً.

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي ٥:٣٩١.

حتى الفعلُ بني للمجهول، وحُذف فاعله «وأُحيط بثمره».

وهناك بعضُ الحِكَم مِن بناء الفعل للمجهول منها:

١ ـ إن صاحبَ الجنتين لم يعرف الفاعل، بمعنى أنه لم يَعرف السبب في زوال جنتيه، وذهبت به الظنون كل مذهب في تقدير الفاعل.

٢ ـ اختلافُ المراقبين والمشاهدين والمحللين في تقدير الفاعل، حيث سيجعل بعضُهم السبب في العوامل الجوية، وبعضهم يجعله في العوامل الزراعية، وبعضهم في الإنفاق والمال، وبعضهم يُحيل على إهمال صاحِبهما وتقصيره، وغيرِ ذلك. وقليلٌ سيفطن إلى السببِ الإيماني والعاملِ الرباني، ويجعل ذلك في كفره وفسوقه وعصيانه، ولذلك وقع به سوءُ عمله.

٣ ـ نسب القرآن الإنعام إلى الله، وأسند الأفعال في أول القصة إليه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ ـ وقد بيّنا فيما سبق دلالة هذا الإسناد ـ وذلك ليظهر فضل الله على الإنسان في الفضلِ والتكريمِ والإنعام، فيشكرَ الله ويطيعَه في هذه النعم.

أما هنا فليس من المناسب أن يُسند إذهاب النعمة، وإزالتها عن صاحبها إلى الله، مع أن الله حكيم عادل في هذا الإذهاب ـ والله أعلم ـ.

○ نَدَمُه وخسارَتُه:

فوجِئ الرجل الكافر بهلاك ماله، وضياع أعماله، في لحظة عابرة. فشعر بخسارتِه وضلاله، وضياعِ مستقبلِه ومصيره. فندم، ندم ندامةً بالغة، عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

أصبح يقلبِ كفّيه حسرةً وندامة وحيرة.

ندم على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها.

راجع حساباتِه، ونظر إلى رصيدِه، وجمع نفقاتِه، التي أَنْفَقَها عليها.

وكلمة «ما أنفق فيها» كلمةٌ عامةٌ، شاملةٌ لكل صور الإِنفاق المادية والمعنوية.

أنفق عليها الكثيرَ من المال، ومع ذلك ضاع وتبدد.

أنفق عليها من وقته، الذي كان يقضيه فيها ومن أجلها، وأخيراً ذهب وقتُه هباءً وخسارة.

أنفق عليها الكثيرَ من جهده البدني، في مسيره إليها، وتفقُّدِه لها، وجولاتِه خلالها، وها هو جهده يضيع.

أنفق عليها الكثير من مشاريعِه ومخططاتِه وبرامجِه وخبراتِه، وها هي كلُّها أمامه دماراً وهلاكاً وفناء.

أنفق عليها الكثير من أحلامه وخيالاته، وآماله وأمنياته، التي حلم بها، وعاش لها، واعتمد عليها. وها هي تتبدد تحت الحقيقة المُرة الواقعية.

أنفق عليها حياته التي عاشها من أجلها، وعمرَه الذي قضاه فيها ولها، ومالَه الذي رصده لها.

وها هو كل ما أنفقه أمامه، يراه ويتعامل معه. دماراً وخسارة وفناء.

ولذلك ندم ندامة بالغة، وأصبح يقلب كفّيه، وهو يسترجع هذه النفقات، ويستحضر تلك الخسائر.

فانطلق لسانُه قائلاً: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً.

ما أبلغَها ندامة وما أفدحَها خسارة، وما أتعسَها حياة، وما أضيعه من عمر، وما أضله من إنسان.

هذا الإِنسانُ الذي كان يختال تيهاً وانتفاشاً وبطراً واستعلاءً، هذا الإِنسان الذي افتخر على صاحبه المؤمن بماله وجنته، وقال له: أنا أكثرُ منك مالاً، وأعزُّ نفراً. هذا الإِنسانُ الذي نظر إلى جنته فقال عنها: ما أظن أن تبيد هذه أبداً.

هذا الإِنسان الآن يرى جنتَه قد بادتْ وانتهتْ، فندم ندامةً عملية، تمثلت

في تقليبه لكفيه. وندامة قولية، تمثلت في قوله: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً.

○ هنالك الوَلاية لله الحق:

عقّب القرآن على خسارة الرجل الكافر، وإهلاك جنتيْه، قائلاً: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

وهذا التعقيب يقدِّم لنا حقيقةً قرآنيةً صادقة، وقاعدةً إيمانية دائمة، إن الله وحده هو الولي، وإن الولاية لا تكون إلا لله، وإنّ من تولاه الله فهو الفائز، وإن من تخلى عنه الله فهو الخاسر المخذول. وإن عاقبةَ الولاية لله، الفلاحُ والنجاحُ والخير، وإن صاحبَها ينال من الله الثواب الجزيل.

وهذا الأمر أبرزُ ما يكون في قصة الرجلين، الرجلِ المؤمن بالله، وصاحبِه الذي كفر بالله واعتز بجنتيْه.

المؤمنُ بالله اتخذ الله ولياً، ورغِب بما عنده، واستعلى على متاع الدنيا وزينتها، وقال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

وكانت العاقبةُ الخيِّرة والثوابُ العميم، لهذا الرجل المؤمن، حيث وجد أن الله هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عقباً.

لقد كان مؤمناً بربه، موالياً له، ولذلك كان مفلحاً ناجحاً، وما ذاك إلا لأن الولاية الحَقّة، لا تكون إلا لله الولي الحق.

أما الرجل الكافر فقد والى غيرَ الله، وركن إلى غير الله، واعتزَّ بغير الله، وآثر ما عند غير الله، لقد اعتمد على جنتيه، وركن إليهما، وآثر نعيمهما، واعتز بأهله وماله وجاهه، فماذا نال؟.

ذهب كلُّ ما والاه واعتمد عليه. واعتَّز به وركن إليه، ذهب في لحظات، فأصبح هذا الرجل ضعيفاً عاجزاً مهموماً مخذولاً، نادماً متحسراً، خاسراً ضائعاً ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

ولقد وعى التاريخ كثيراً من النماذج التي تتجلى فيها هذه الحقيقةُ القرآنية والقاعدةُ الإيمانية بارزة، حيث سجّل لنا خسارةَ وذلَّ وضعفَ الذين اتخذوا غير الله ولياً، من أمثال قارون وفرعون.

كما سجّل لنا التاريخ أمثلة إيمانية لمن اتخذوا الله ولياً، فنالوا التوفيقَ والفلاح والعزة والسعادة والخير، في الدنيا قبل الآخرة. ولقد عرض القرآن علينا هذين النموذجين من أجل أن نختار ونعرف كيف نختار، ونتحمل عاقبة ذلك الاختيار.

هل نختار الولاية لله؟ ونتوجّه إليه؟ ونرجو ما عنده؟ إنْ فعلْنا ذلك، فلنا قدوةٌ بالرجل المؤمن في القصة، وسوف نحصل على ما نريد، ونناس خير ما نريد.

وكل من اختار ولاية غير الله، واقتدى بالرجل الكافر صاحب الجنتيْن، فلا يلومَنَّ إلا نفسه، لأنه سيجد نفسه مجرَّداً من القوة والمنعة والجاه والسلطان، وعندها سيندم يوم لا ينفعه الندم، ويومها ستكون خسارته لا نهاية لها.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

○ مثل الحياة الدنيا:

وبينما النفوس متابِعةٌ للسياق القرآني، وبينما هي منفعلةٌ بما جرى للكافر صاحب الجنتين، وبعد أن عرفت هذه النفوس حقيقةً أساسيةً للحياة البشرية، وهي أن الولاية الحق لا تكون إلا لله. في هذه الأجواء والظلال. يضرب القرآنُ لها مَثَل الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

وقد ضَرَبَ القرآن هذا المثل، تعقيباً على قصة صاحب الجنتين، حيث دمَّر الله الجنتين في لحظات، وطُوِيَت صفحةُ وجودهما، بعد أن أمَّل صاحبهما استمرارهما وبقاءَهما، وعدمَ هلاكهما.

الحياة الدنيا كلها ـ في هذا المثَل ـ قصيرةٌ سريعةٌ زائلة. إنها مثْلُ ماء أنزله الله من السماء في لحظات، فاختلط به نبات الأرض في لحظات، فأصبح هذا النبات هشيماً تذروه الرياح، في لحظات.

إن هذا المَثَل المضروب، يعرض الحياة الدنيا في شريطٍ خيالي، قصيرِ العرض، سريعِ النَّبض، متسارعِ الحلقات. وهو نموذج للمشاهد القصيرة السريعة في القرآن.

ها هو الماء نازل من السماء، وها هو النبات قد اختلط به ـ ولم يختلط هو بالنبات، من أجل الإسراع في العَرْض ـ وها هو النبات يَيْبَس، ويصبحُ هشيماً يابساً مَحْصوداً مطحوناً، مجموعاً في كومة تَذْروه الرياح، وتحمله معها إلى بعيد.

وقد شاركت «الفاء» التي تفيد الترتيب مع التعقيب الفوري، في سرعة العرض، وتتابع الحلقات.

وحتى نقوم بتأمُّل أعمق، لسرعةِ العرض وتقصيرِ المشهد المعروض للحياة الدنيا، نتذكر مثلاً آخر ضَرَبه القرآن للحياة الدنيا، مَشْهدٌ مطوَّلٌ، بطيءُ العَرض، واني الخطوات: إنه في قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣].

لقد كان المشهدُ المعروضُ للحياة الدنيا في سورة الكهف سريعاً قصيراً، متناسقاً مع جَوِّ المشهد، ومناسباً للسياق الذي عُرِض فيه. حيث جاء في التعقيب على قصة الجنتين اللتيْن اعتمد عليهما صاحبهما، فزالتا في لحظات، وهما جزء من الحياة الدنيا.

فكما أن الجنتين زالتا ودُمِّرتا في لحظات، فكذلك الحياةُ الدنيا تزول في لحظات. وكما خسر صاحب الجنتين فيهما كل شيء، كذلك كلُّ مَنْ رَكَن إلى الدنيا ونسي ربه، يخسر فيها كل شيء، لأنه يركن إلى ظل زائلٍ، ومتاع ذاهب، وخيال خادع.

وهل هذا التمثيل لسرعة وقِصَر الحياةِ الدنيا خيالي أو واقعي؟ حقيقي أو مجازي؟.

إنَّه واقعي حقيقي، وله صدقٌ ووجود في الحياة، فماذا تُساوي الدنيا بمجموعها بالقياس إلى الآخرة؟ وماذا يُساوي عمر الإنسان الذي يعيشه فيها؟ ماذا يُساوي بالقياس إلى الدنيا نفسها؟ وماذا يساوي بالقياس إلى حياته في الآخرة؟ إنه لا يكاد يُذكر، إنه قصير قصير، وسريع سريع، فما أقصرها وما أهونها من حياة!.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ١ ـ ٢].

○ زينة الحياة الدنيا:

وبعد أن بيَّن القرآنُ قِصَر الحياة الدنيا، وسرعةَ انقضائها وزوالها، بيَّن لنا أنَّ ما فيها إنَّما هو ظل زائل. فقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وهذه كذلك حقيقةٌ قرآنيةٌ قاطعة، فالمالُ والبنونَ ليسا هما كل الحياة الدنيا، ولا هما أهم شيء في الحياة الدنيا، ولكنهما زينةُ الحياة الدنيا. وهذا يعني أن ننظر لهما بهذا المنظار، ونتعامل معهما على هذا الأساس.

كلمة ﴿زِينَةُ﴾ تقدِّم هذا المعنى، وتُلقي هذا الظل، لأن معنى الزينة هو الشيء الخارجي، الذي يقدَّم للتزيين والمتعة الفنية الجمالية، ولكنه ليس جزءاً من حقائق الأمر وأساسياته.

قال الإمامُ الراغب في مفرداته عن الزينة: «الزينةُ الحقيقية، ما لا يَشينُ الإنسانَ في شيء من أحواله، لا في الدنيا ولا في الآخرة. فأما ما يزينُه في حالة دون حالة، فهو من وجه شين.

والزينةُ بالقول المجمَل ثلاثٌ:

١ ـ زينةٌ نفسية: كالعِلم والاعتقادات الحسنة.

٢ ـ زينةٌ بدنية: كالقوة وطول القامة.

٣ ـ زينةٌ خارجية: كالمال والجاه»[1].

واعتبار المال والبنين زينةَ الحياة الدنيا، لا يعني إهمالَهما وتركَهما باعتبارهما زينةً للحياة، وقد يَصرفان عن الإيمان بالله، ويُشغلان صاحبَهما عن التوجُّه إلى الله!.

إن المسلم مطالبٌ بالتعامل مع زينة المال والبنين، وأن تكون نظرتُه لها محكومةً بتوجيهات القرآن وحقائقه.

يتعامل معها على أنها زينةٌ للدنيا، زينةٌ لتجميل الحياة وتحسينها ولحُسن الاستمتاع بها، ولا يعطيها أكبرَ من هذا الحجم، ولا يجعل لها أكبرَ من هذا الدور، لا يجوز أن يعتبر المال والبنين هما كلُّ شيء في الحياة، أو أن يَنْشغل بهما عن الله، أو أن يعتمد عليهما من دون الله.

هما زينة، يتعامل معهما كزينة، وينظر لهما كزينة، ويتصرف معهما كزينة، وصدق الله حيث يقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

ووصْف المال والبنين بالزينة، يُلقي ظلاً آخر مناسباً للجو والسياق الذي وردتْ فيه الآية، ظلَّ فناء الجنتيْن ودمارهما. فالزينةُ تعني زوال الشيء وفناءه وليس بقاءه وثباتَه واستمرارَه.

وقد عبَّر القرآن عنهما في موضع آخر، بأنهما زهرة الحياة الدنيا. فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

---

(١) المفردات: ٢١٨.

فالزهرةُ عمرها قصير، إذ سرعان ما تَذوي وتذبل وتموت، والزينة بقاؤها قليل، إذ سرعان ما تتلاشى وتزول.

وهكذا المال ظلٌ زائل، والبنون عاريةٌ مستَرَدَّة.

وكم يخسر الذين يركنون إلى هذا الظل الزائل والعارية المستردَّة.

○ الباقيات الصالحات خير:

وإذا كان المال والبنون زينةَ الحياة الدنيا، فإن القرآن يرشدنا إلى الشيء الثابت في الحياة، الذي يستحق أن تُوجَّه له الاهتمامات، وتصرفَ فيه الأعمار، وتُنفق فيه الأوقات، قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

وذِكْر الباقيات الصالحات مقصودٌ، بعد ذكر زينة الحياة الدنيا الزائلة، وفي التعقيب على قصة الجنتيْن المدمَّرتين، وخسارة صاحبهما.

المال والبنون زينة زائلة، فما هو الباقي؟.

الجنتان الأرضيتان زالتا ودُمِّرتا، فما هو الباقي؟.

إنه الباقيات الصالحات، التي هي خير عند الله ثواباً، حيث يُجزى صاحبُها ثواباً خيِّراً جزيلاً جميلاً. وهي خيرٌ أملاً، أي خيرُ ما يأمل فيها صاحبها، فإذا عقد أملَه عليها فلن يفقد ذلك الأمل، وإذا رجا فيها أمنيته، فلن يخيب فيها رجاؤه.

ما هي الباقيات الصالحات؟.

أورد علماء السلف أقوالاً متقاربةً في بيانها:

فقال ابن عباس وابن جُبَير وغيرُ واحد من السلف: إنها الصلوات الخمس.

ورُوي عن ابن عباس قوله: هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ورُوي عن عثمان بن عفان قوله: هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ورُوي عن ابن عباس قوله: هي الكلام الطيب.

ورُوي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله: هي الأعمال الصالحة كلُّها[1].

فإذا نظرنا في هذه الأقوال فإننا نجدها متقاربة، وليست متعارضة، وأنه يمكن الجمعُ بينها، باعتبارها كلِّها من الباقيات الصالحات. فكل عالِم من العلماء أشار إلى نموذج منها، وهذه النماذج ـ وغيرها ـ تكوِّن بمجموعها: الباقيات الصالحات.

الباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة، هي الإسلام بعمومه، من شعائر وشرائع وسلوك.

واعتبرها القرآن باقيةً لأنها فعلاً باقية. باقيةٌ في أثرها في حياة صاحبها، وباقيةٌ في تعمُّقها في نفسيته وتصوُّره وكيانه وشخصيته، ثم هي باقيةٌ في المجتمع وأعرافه وعاداته، وهي باقيةٌ لصاحبها في ميزانه يوم القيامة، وباقيةٌ له عندما تؤهِّله ـ بإذن الله ـ للدخول في الجنة، والتنعم الدائم فيها، والخلود الأبدي في جناتها. هذه الباقيات الصالحات التي يجب أن يهتم بها المسلمون، وأن يُقبلوا عليها، ويُكْثروا منها.

○ خلاصة لأهم دلالات القصة:

١ ـ قصةُ صاحب الجنتين قصة حقيقية، حدثتْ في ماضي الزمان، وليست تمثيلية رمزية خيالية.

٢ ـ تفصيلاتُ القصة من المبهمات التي لا يجوز أن نحاول بيانها. ولا نَقْبل إلا ما ورد في القرآن عنها، لأنه لم يصح فيها شيء عن رسول الله ﷺ.

٣ ـ ضَرْب الأمثال في القرآن يقرِّب المعاني النظرية إلى النفس الإنسانية، ويرسِّخ المعاني التي ضُربت من أجلها الأمثال.

---

(١) انظر ابن كثير ٣: ٨٥ ـ ٨٧ باختصار.

٤ ـ الرجلان المؤمن والكافر في القصة نموذجان بشريان مكروران، قد يوجَدان في أي زمان ومكان.

٥ ـ وجوبُ استفادة الدعاة من أسلوب القرآن في الدعوة والبيان، وذلك بإيراد القصص وضرْب الأمثال.

٦ ـ الله قد يُملي للكافر، فيمنحه الكثيرَ من النِّعم ويكون هذا للابتلاء والامتحان، وليس دليل محبة الله له ورضاه عنه.

٧ ـ الله قد يبتلي المؤمنَ فيضيِّق عليه في رزقه، ويحجب عنه المتاع الزائل، وهذا لا يدل على بغضه له.

فالمتاع الدنيوي أهونُ على الله من أن يكون مجالاً للتكريم أو الإهانة، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

٨ ـ اللهُ وحده هو الذي يمنح الرزق والنعيم والعطاء، وما الإنسانُ وجهدُه وفكرُه ومشاريعُه وأمواله إلا أسبابٌ مادية ظاهرية.

٩ ـ في القرآن لفتة فنية زراعية إلى طريقة تنسيق الجنات والحدائق والبساتين، وذلك في عرضه لترتيب الزروع والثمار في الجنتين.

١٠ ـ العنايةُ بالأرض، وترتيبُ زراعتها، وتنسيقُ مزروعاتها وأشجارها، يقدِّم متعة فنية، ويؤدي إلى زيادة العطاء والإنتاج فيها.

١١ ـ الأرض لا تظلم ولا تمنع إنتاجها، فتمنح الناس بدون تفريق ولا تمييز، ومع ذلك فالناس الكفار يظلِمون فيكفرون ويمنعون، أفلا يقتدون بالأرض في العطاء؟.

١٢ ـ صاحبُ الجنتين الكافر أعماه البطر والغرور عن رؤية الحقائق، فتصرَّف بغرور خادع. وهكذا كل من اغتر بالمظاهر الدنيوية الزائلة.

١٣ ـ من التصورات الضالة عند المغرورين، أن يظنوا أنهم سيكرمهم الله يوم القيامة لأنه أكرمهم في الدنيا، وأن المؤمنين لن يُكرمهم يوم القيامة، لأنه حرمهم من المال والمتاع في الدنيا.

١٤ ـ الإِيمان هو صَمام الأمان لصاحبه، فيبقى مُسْتَعلياً بإيمانه، معتّزاً بربه، لا يضعف ولا يذل ولا يجبن أمام أصحاب المتاع المادي، ولا يتمنى أن يكون مثلهم.

١٥ ـ وجوبُ نُصح المغرورين، المخدوعين بما هم عليه من النعيم، وتحذيرِهم من عاقبة ما هم فيه، ومطالبتِهم بشكر الله على فضله، واستعمالِ نعمته في طاعته.

١٦ ـ من أسس التصور الإِسلامي أنه لا يكون إلا ما يريده الله، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا قوَّة إلا بالله، ومن لم يمنحه الله القوة فلا قوة له.

١٧ ـ «ما شاء الله، لا قوَّة إلا بالله» عبارةٌ إيمانية قرآنية، يقولها صاحبها عندما يُعجبُه شيء من أهله أو ولده أو ماله، وبهذا يشكر الله، ويسعى إلى دوام النعمة، واستعمالِها فيما يرضي ربه.

١٨ ـ عذاب الله واقع بالمغرورين الكافرين، حيث يمحق ما هم فيه من نعيم، وهو جزاء ما قاموا به من ممارسات باطلة.

١٩ ـ قد تختلف تقديرات وتعليلاتُ وتحليلاتُ الناس بشأن ما يصيب الكافرين والمغرورين من كوارث ومصائب، لكنها يجب أن تتفق على كون ذلك من أمر الله عقاباً لأعداء الله، جزاء ما عملوه.

٢٠ ـ عندما تزول النعمة ويُمحق الرزق، يقع الإِنسان الكافر المغرور بالحسرة والندم، لكنه يكون وقت لا ينفع الندم.

٢١ ـ عند العذاب والمحنة، يبدو للمغرور صدقُ ما حذَّره منه الصالحون والناصحون. فيتمنى أن لو صدَّقَهم، ولكن لا تتحقق تلك الأُمنية.

٢٢ ـ الولاية الحقة لا تكون إلا لله، فكل من اعتزَّ بالله وجد عنده ما يريد، وكلٌّ مَن اعتز بغير الله ذلَّ وخسر، وكل الأولياء عاجزون عن النصر والنفع، وكل الأشياء والقوى والمظاهر والأسباب، عاجزةٌ أمام قدر الله وإرادته وجنوده.

٢٣ ـ إنَّ مَنْ كان مع الله لم يَخْسر شيئاً في الحقيقة، ولو فاتته الدنيا ونعيمُها، وإن من لم يكن مع الله لم يكسب شيئاً، ولو مَلَك كلَّ ما في الدنيا.

٢٤ ـ الحياةُ الدنيا سريعةٌ قصيرة زائلة، فما أخسر الذي يركن إليها ويعتمد عليها، وهذه حقيقة قائمة، فكم سيعيش عليها، وكم سيجمع مما فيها؟ وماذا بعد ذلك؟.

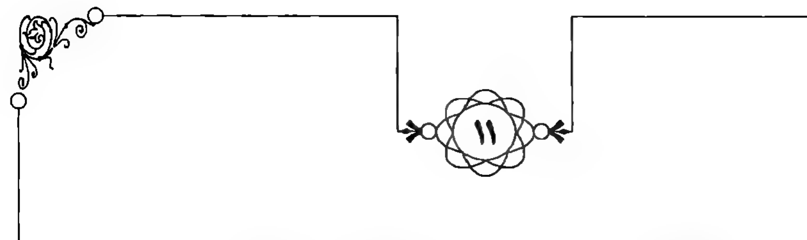
٢٥ ـ متاعُ الدنيا ونعيمها وما فيها هو زينةٌ لها، وهو ضروري لتزيين الحياة وتجميلها، وهو ضروريٌ لنا لنعيش في الحياة. لكن لا يجوز أن نجعله أكبرَ همِّنا، ومبلغ علمنا، وكلَّ شيء لنا.

٢٦ ـ اعتبارُ ما في الدنيا زينة وزهرة يوحي بِقِصرَها وزوالها، كالزينة في زوالها. والزهرة في قصر عمرها. فما أخسر الذين يجعلونها كل شيء.

٢٧ ـ يجبُ على المؤمن العاقل أن يهتم بالأساسيات، فيقدِّم الباقي على الزائل، والثابت على الذاهب، والآجل على العاجل، ويُكثر مما ينفعه في مستقبل حياته، ويجده عندما يحتاج إليه.

٢٨ ـ العبادةُ والطاعة والأعمال الحسنة هي الباقيات الصالحات، فهي خير في الثواب عند الله، وهي خير في الآمال لصاحبها، خير لأن صاحبها يجدها أمامه، ويجد آماله محقَّقة فيها، ويجد الثواب الجزيل الجميل عليها.

* * *



قِصَّة مُوسَى مَعَ الخَضِر عليهما السلام

○ القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا

صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٨٢].

○ القصة في الحديث النبوي:

سوف نتبع المنهجية العلمية التي قررها العلماء، وطالبوا الناظرين في قصص السابقين في القرآن بالتزامها ومراعاتها، وهي وجوبُ اللجوء إلى ما صحَّ من الحديث النبوي عن قصص السابقين، وعدم تجاوزه إلى الأساطير والإسرائيليات والأخبار غير الثابتة.

في قصة موسى مع الخضر عليه السلام نجد أن رسول الله ﷺ قد وَضَّحَ بعض التفصيلات، وأضاف على العرض القرآني إضافات، وقد أورد معظمُ المحدِّثين في كتبهم طرفاً من أحاديث رسول الله ﷺ بهذا الخصوص.

وقد وردت أحاديثُ تلك القصة عند البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد والحاكم وغيرهم.

كما وردت تفصيلات عن القصة في كتب التاريخ كتاريخ الطبري وابن كثير وابن الأثير وغيرها.

هذا وقد تناول هذه القصة المفسرون أثناء تناولهم آياتها.

ويعنينا هنا تفصيلات القصة، فيما صح من الأحاديث النبوية.

وسنكتفي بإيراد ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم عنها.

أورد الإمام البخاري القصة في عدة مواطن من صحيحه: حيث أوردها في عدة أبواب من كتاب العلم، وفي الإجارة، وفي الشروط، وفي بدء الخلق، وفي الأنبياء، وفي التفسير، وفي الأيْمان والنذور، وفي التوحيد.

أما مسلم فقد أخرجها في كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر عليه السلام.

وسوف نورد خلاصة الروايات المذكورة في الصحيحين:

روى البخاري ومسلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس ﷺ: أنه تمارى هو والحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْن الفَزاري في صاحب موسى ﷺ، فقال ابن عباس: هو الخَضِر.

فمرّ بهما أُبَيُّ بْنُ كعب الأنصاري ﷺ، فدعاه ابن عباس فقال: يا أبا الطُّفَيْل، هلمَّ إلينا. فإني قد تمارَيْت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيلَ إلى لُقِيِّه فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟.

فقال أُبَيّ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: بينما موسى في مَلأ من بني إسرائيل، إِذْ جاءه رجل، فقال له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟.

قال: لا.

فأوحى الله إلى موسى: بل عَبْدُنا الخَضِر.

فسأل موسى السبيل إلى لُقِيِّهِ، فجعل الله له الحوت آية. وقيل له: إذا افتقدتَ الحوت فارجع، فإنك ستلقاه.

فسار موسى ما شاء الله أن يسير، ثم قال لفتاه: آتنا غداءنا.

فقال فتى موسى حين سأله الغداء: أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكره.

فقال موسى لفتاه: ذلك ما كنا نبغي:

فارتدا على آثارهما قصصاً، فوجدا خضراً «فكان من شأنهما ما قصه الله في كتابه»[1].

ويعتبر ذلك الحديث موجَزاً للقصة، وفيما يلي حديثٌ مطوَّل عند البخاري ومسلم أيضاً.

عن سعيد بن جُبير ﷺ قال: إنّا لَعِنْدَ ابن عباس في بيته، إذ قال: سلوني.

---

(١) البخاري (٦٠) كتاب الأنبياء (٢٧) باب الخضر مع موسى ﷺ، حديث رقم ٣٤٠٠. ومسلم (٤٣) كتاب الفضائل (٤٦) باب فضائل الخضر ﷺ، حديث رقم ٢٣٨٠.

قلت: أَيْ أبا عباس، جعلني الله فداءك. في الكوفة رجل قاص يقال له: «نَوْف البِكالِيّ» يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بني إسرائيل، ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام!.

فقال: كذب عدوُّ الله!.

سمعت أُبَيّ بْنَ كعب يقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في قومه يُذكِّرهم بأيام الله - وأيامه نعماؤه وبلاؤه - فسُئِل: أي الناس أعلم؟.

فقال: أنا أعلم!.

فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه.

فأوحى الله إليه: إنّ عبداً من عِبادي بمجْمع البحرين، هو أعلم منك.

قال موسى: أيْ رب. كيف لي به؟ دُلَّني عليه.

فقيل له: احمل حوتاً مالحاً في مِكْتَل، فحيث تفقد الحوت فهو ثَمَّ.

فانطَلَقَ، وانطلَقَ معه فتاهُ، وهو «يوشع بن نون» فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مِكْتل، وانطلق هو وفتاهُ يمشيان، حتى أتيا الصخرة. فرقد موسى عليه السلام، وفتاهُ.

فاضطرب الحوت في المكتل، حتى خرج من المكتل، فسقط في البحر. وأمسك الله عنه جَرْيَةَ الماء، حتى كان مثل الطّاق، فكان للحوت سَرَبا، وكان لموسى وفتاه عَجَبا.

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما. ونسي صاحب موسى أن يخبره.

فلما أصبح موسى عليه السلام، قال لفتاه: آتنا غداءَنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يجد موسى مَسّاً من النصب، حتى جاوز المكان الذي أُمِر به.

فتذكَّرَ، وقال: أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً.

قال موسى: ذلك ما كنا نبغي. فارتدا على آثارهما قصصاً، يقصان آثارهما. حتى أَتَيا الصخرة، فكان الحوت.

قال: ههنا وُصِف لي. فذهب يلتمس، فإذا هو بالخضر، مُسَجّى ثوباً، مستلقياً على القفا.

فسلم عليه موسى. فكشف الخضر الثوب عن وجهه، وقال: عليك السلام. أنّى بأرضك السلام؟.

قال: أنا موسى.

قال: موسى بني إسرائيل؟.

قال: نعم.

قال: إنك على علم من علم الله عَلَّمَكَهُ الله، لا أعلمه. وأنا على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه.

قال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلِّمت رشداً؟.

قال: إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً، شيءٌ أُمِرْتُ به أن أفعله، إذا رأيتَه لم تصبر.

قال: ستجدني إن شاء الله صابراً، ولا أعصي لك أمراً.

قال له الخضر: فإن اتبعْتَني فلا تسألني عن شيء، حتى أُحدث لك منه ذكراً.

قال: نعم.

فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرَّت بهما سفينة، فكَلَّماهم أن يحملوهما. فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نَوْل.

فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر.

فقال الخضر لموسى ﷺ: يا موسى: ما نقص علمي وعلمك من علم الله، إلا كنقرة هذا العصفور في البحر!.

فعَمَد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة، فنزعه!.

فقال له موسى: قوم حملونا بغير نَوْل، عمدت إلى سفينتهم، فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً.

قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟.

قال: لا تؤاخِذْني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عُسْراً.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده، فقتله.

فذُعِر موسى ذَعْرة منكرة، وقال: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً؟.

قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ وهذه أشد من الأولى.

فقال رسول الله ﷺ: رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجَّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذِمامَة.

قال موسى: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً.

فانطلقا. حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً، فَطافا في المجالس، فاستَطْعَما أهلها فأبَوْا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه.

قال له موسى: قوم أتيناهم، فلم يُضيِّفونا، ولم يُطعمونا، لو شئتَ لاتخذت عليه أجراً.

قال: هذا فراق بيني وبينك، وأخَذ بثوبه. وقال: سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً.

أمَّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت أن أعيبها، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، فإذا جاء الذي يُسَخِّرها وجدها منخرقة، فتجاوزها، فأصلحُوها بخشبة.

وأما الغلام، فطُبِعَ يوم طبع كافراً. وكان أبواه قد عطفا عليه، فلو أنه أدرك أرهقهما طغياناً وكفراً، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحْماً.

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما،

وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربك أن يبلُغا أشدَّهما، ويستخرجا كنزهما»[1].

○ بعض دلالات الأحاديث:

فيما يلي أهمُّ الدلالات التي تُؤْخَذ من الأحاديث، وهي الدلالات التي أوردها الإِمامُ النووي في شرحه على صحيح مسلم، والإِمامُ ابن حجر في فتح الباري.

١ ـ استحباب الرحلة في طلب العلم، ولو بَعُدَت المسافة.

٢ ـ استحبابُ الاستكثار من العلم، فإنه مهما حصَّل منه، يبقى جاهلاً الكثير من مسائله.

٣ ـ استحباب تعلُّمِ العالم ممن هو أعلم منه، وسعيهِ إليه.

٤ ـ فضيلة طلب العلم.

٥ ـ جواز التزوُّد بوسائل الزاد وألوان الطعام عند السفر.

٦ ـ الأدب مع العالم وحرمةُ المشايخ وترْكُ الاعتراض عليهم.

٧ ـ تأويل ما لا يُفْهم ظاهره من الأقوال والحركات والأفعال.

٨ ـ الوفاءُ بالعهود والاعتذار عند مخالفة العهد.

٩ ـ جواز إجارة السفينة.

١٠ ـ جواز ركوب السفينة والدابة وسكنى الدار ولبس الثوب بغير أجرة، برضى صاحبه.

---

(١) انظر: الحديث بطرق وروايات مختلفة عند مسلم والبخاري:
انظر: مسلم (٤٣) كتاب الفضائل (٤٦) باب من فضائل الخضر، حديث: ٢٣٨٠.
وانظر: البخاري (٣) كتاب العلم (١٩) باب الخروج في طلب العلم، حديث رقم ٧٨ وكتاب العلم (٤٤) باب ما يستحب للعالم، حديث رقم ١٢٢.
و(٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء (٢٧) باب حديث الخضر مع موسى، حديث ٣٤٠٠ و٣٤٠١.
و(٦٥) كتاب التفسير (٢) باب وإذ قال موسى لفتاهُ، حديث ٤٧٢٥، ورقم ٤٧٢٦، ٤٧٢٧.

١١ ـ الحكم بالظاهر، حتى يتبين خلاف الظاهر.

١٢ ـ استحباب أن يبدأ الإِنسان بنفسه في الدعاء وغيره من أمور الآخرة. أما حظوظ الدنيا وأمورها فالأَوْلَى الإِيثار، وتقديم الغير على النفس.

١٣ ـ جواز خدمة العالم والفاضل، وقضاءِ حاجاته بدون عوض.

١٤ ـ الحث على التواضع في العلم وغيره.

١٥ ـ توجيه العالم إذا سئل: أي الناس أعلم أن يقول: الله أعلم.

١٦ ـ وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع. وإن لم تظهر بعض حكمته للعقول[1].

١٧ ـ جواز التجادل في العلم إذا كان بغير تعنّت.

١٨ ـ وجوب الرجوع إلى أهل العلم عند التنازع.

١٩ ـ العمل بخبر الواحد الصادق[2].

٢٠ ـ الراجح أن الخضر عليه السلام نبي، لأدلة كثيرة نذكرها فيما بعد إن شاء الله.

٢١ ـ إن الله يفعل في ملكه ما شاء، ويحكم في خلقه بما يشاء.

٢٢ ـ الراجح أن الخضر مات قبل بعثة محمد ﷺ وسنعود إلى هذه المسألة فيما بعد إن شاء الله.

٢٣ ـ جواز قول العالم للناس: سلوني. إذا أَمِن العُجب، أو دعت الضرورة إلى ذلك.

٢٤ ـ كان الحوت ميْتاً مملَّحاً فأحياه الله، وهذا دليل على البعث.

٢٥ ـ إن فتى موسى عليه السلام وخليفتَه في قومه، هو «يوشع بن نون» رضي الله عنه.

٢٦ ـ جواز إطلاق الفتى على التابع.

٢٧ ـ جواز استخدام الحرّ في عمل من الأعمال.

---

(١) انظر: هذه الأدلة في شرح النووي على مسلم ١٥:١٣٧ و١٥:١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) انظر: هذه الأدلة في فتح الباري ١:١٦٩.

٢٨ ـ وجوب طاعة الخادم لمخدومه.

٢٩ ـ عذر الناسي لأنه لا حيلة له في النسيان.

٣٠ ـ قبول الهبة من غير المسلم.

٣١ ـ جواز إخبار المسلم عما فيه من تعب أو مرض أو فقر.

٣٢ ـ المتوجِّه إلى ربه يعينه الله على رحلته فلا يسرع إليه التعب والجوع، بخلاف المتوجّه إلى غيره.

٣٣ ـ جواز طلب الضيافة، وطلبِ القوت والطعام.

٣٤ ـ قيامُ العذر بالمرة الأولى، وقيام الحجة بالمرة الثانية.

٣٥ ـ حسن الأدب مع الله، وأن لا يُضاف إليه ما يستهجن لفظه[1].

○ الكلمات الغريبة في الآيات:

١ ـ **مَجْمَع البحرين**: مكان التقاء البحرين.

٢ ـ **أمضِيِ حُقُبا**: أسير سنين طويلة.

٣ ـ **سَرَبا**: طريقاً نافذاً وممراً.

٤ ـ **نَصَبا**: تعباً وعناء.

٥ ـ **ارتدا على آثارهما قصصا**: رجعا في الطريق يقصان آثار أقدامهما.

٦ ـ **خُبْراً**: علماً ومعرفة.

٨ ـ **لا تُرهقني من أمري عُسْرا**: لا تحمّلني مشقة وعسراً.

٩ ـ **شيئاً نكراً**: شيئاً منكراً.

١٠ ـ **وراءهم ملك**: أمامهم ملك.

١١ ـ **يريد أن ينقض**: على وشك السقوط.

١٢ ـ **يرهقهما طغياناً**: يتعقّبهما بطغيانه.

---

(١) انظر: هذه الأدلة في فتح الباري ٨: ٤٠٩ ـ ٤٢٢.

١٣ ـ **زكاة**: ديناً وصلاحاً.

١٤ ـ **أقرب رُحْماً**: رحمة بهما وبراً لهما.

١٥ ـ **يبلغا أشُدَّهما**: يكبرا ويصلا لكمال العقل.

○ فتى موسى: يوشع بن نون:

قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾.

الفتى هو الشَّاب في مقتبل العمر. ويطلق الفتى على العبد كما يطلق على التابع.

وفتى موسى هو «يوشع بن نون» ﷺ.

ولا نقول بهذا من عندنا، وإنما نعتمد في تعيينه على حديث رسول الله ﷺ، إذ لو لم يحدِّدْه الحديث لما حددناه، ولأبقيْناه ضمن مبهمات القصة.

لقد سبق أن أوردنا الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ. ومما جاء فيه بشأن فتى موسى قوله: «فانطَلَق، وانطلق معه فتاه، وهو «يوشع بن نون» فحمل موسى ﷺ حوتاً في مكتل، وانطلق هو وفتاه يمشيان».

كان «يوشع بن نون» فتى لموسى ﷺ، وتكلم بعض المفسرين عن درجة قرابته لموسى ﷺ، واختلفوا في ذلك اختلافاً بيِّناً.

كما ذهب بعض المفسرين إلى أنه كان خادماً لموسى، وعبداً له، ورقيقاً عنده، واعتمدوا في ذلك على تعبير القرآن «وإذ قال موسى لفتاه» على أساس إطلاق «الفتى» على الخادمِ العبد.

ونرى أن الأمرَ أيسرُ من ذلك، وأن الآية لا تدل على ما قالوه، ومَنْ قال بأن «الفتى» لا تُطلَق إلا على العبد الخادم؟.

قال الإمام الراغب في المفردات «الفتى: الطَّرِيُّ من الشباب. والأنثى فتاة، والمصدر فَتاء، ويُكَنّى بهما عن العبد والأمة»[1].

---

(١) المفردات: ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

إن أَصل استعمال الفتى، هو للشاب الطري في مقتبل العمر، واستعمالُه في العبيد كناية ومجاز.

وها هو القرآن يطلق على إبراهيم الخليل عليه السلام فتى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٠].

ولقد كان «يوشع بن نون» في مقتبل الشباب، عندما صحب موسى عليه السلام في هذه الرحلة، كما يبدو من الآية.

وهناك لفتة أخرى من إطلاق كلمة «فتى» على يوشع بن نون. وهي الإشارة إلى طاعةِ يوشع لنبي الله موسى عليه السلام واتباعه له، وهو شبيه بطاعة العبد لسيده واتباعه له.

أما إضافة الفتى لموسى «لفتاه» فهي إضافة تكريم وتشريف ليوشع، فلا أفضل من أن يكون فتى وتابعاً ومصاحباً لنبي كريم من أولي العزم من الرسل!.

○ هل يوشع بن نون نبي؟.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن «يوشع بن نون» نبيٌ من الأنبياء، ولعلهم أخذوا هذا عن بني إسرائيل، الذين يقولون بنبوَّته.

ويقولون إن «يوشع بن نون» قاد بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام، وأنه دخل بهم فلسطين، وفتح بهم بيت المقدس.

وهذا لا دليل فيه على نبوَّته رضي الله عنه.

وقد استشهد آخرون على نبوة «يوشع بن نون» بالحديث الذي أورده مسلم في صحيحه.

حيث روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «غزا نبيٌ من الأنبياء. فقال لقومه: لا يتبَعني رجلٌ قد ملك بُضع امرأة، وهو يريد أن يبنيَ بها، ولَمّا يَبْنِ، ولا آخر قد بنى بنياناً، ولمّا يرفع سقفها. ولا آخر قد اشْترى غنماً أو خلِفات، وهو منْتظر وِلادَها.

فغزا فأدنى للقرية حين صلاة العصر، أو قريباً من ذلك. فقال للشمس: أنت مأمورة، وأنا مأمور. اللهم احْبِسْها عليّ شيئاً.

فحُبست عليه، حتى فتح الله عليه..»[1].

وهذا الحديث لا يحدِّد اسم النبي الذي حبَس الله له الشمس. ولذلك لا نقدر على تحديده.

وبالنسبة لنبوّة يوشع، نرى أن الأوْلى والأسلم أن نتوقف فيها. فلا نقول بها ولا ننفيها!.

إذا قلنا بنبوته، فقد لا يكون نبياً، وعندها نكون قد أدخَلنا في عِداد الأنبياء ما ليس منهم، وهذا غير جائز.

وإذا نفيْنا عنه نبوّته، فقد يكون نبياً، وبهذا نخرج من الأنبياء أحدَهم وهذا غير جائز كذلك.

ولذلك نرى أن الأَسْلم لنا، والأَوْفق مع العلمية والمنهجية أن نتوقف فيه.

○ دور «يوشع» في حياة بني إسرائيل:

كل ما يقال عن «يوشع بن نون»، إنه هو الذي استلم قيادة بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، وكان رجلاً صالحاً مؤمناً تقياً، راعى أحكامَ الله وشريعتَه في الجهاد والقتال. وأنه كان عند بني إسرائيل كما كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند المسلمين.

هذا وتَرْسُم أخبار بني إسرائيل أساطير مصطنعة عن «يوشع بن نون»، وبخاصة حول قتاله أعداءَه، وفتحِه مدن فلسطين، مثل «أريحا» و«بيت المقدس» وهذه الأساطير أكاذيب وموضوعات وأباطيل.

وصدَّق أناس من العرب هذه الأكاذيب والأساطير الإسرائيلية، فاتهموا

---

(١) مسلم (٣٢) كتاب الجهاد والسير (١١) باب تحليل الغنائم لهذه الأمة، حديث ١٧٤٧.

يوشع بالظلم والقسوةِ والتدميرِ والعنفِ والإرهاب والإفساد، وكرهوه وذمّوه، ونرى أن يوشعَ مُبّرأٌ مما يقولون، ومنزّه عما يزعمون، وأنه عبد صالح، ومجاهد عادل، وداعية إلى الله سبحانه.

○ وقفة مع «نوف البِكاليّ»:

مرّ معنا فيما سبق كلامُ سعيد بن جبير لابن عباس عن نوف البكالي، حيث قال له: «أيْ أبا عباس: جعلني الله فداءك. في الكوفة رجلٌ قاص، يقال له «نوف البكالي» يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بني إسرائيل، ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام.

فقال ابن عباس: كذب عدو الله.

ثم ساق الحديث.

ولعل الذي دفع «نوف البكالي» لهذا القول أمران:

الأول: هو استحالة أن يتعلم موسى النبي الرسول من الخضر، وهو دون موسى في المنزلة ـ سواء قلنا بنبوة الخضر أو ولايته.

وسوف نجيب على هذه الشبهة فيما بعد ـ إن شاء الله ـ.

الثاني: أنه أخذ هذا من الإِسرائيليات، وفسر بتلك الإِسرائيليات كلامَ الله سبحانه.

ولقد كان «نوف» على صلة وثيقة بكعب الأحبار.

فهو «نوف بن فُضالة البكالي». وهو منسوب إلى بني بِكال من حِمْيَر في اليمن.

وكان ابن زوجة «كعب الأحبار»[1].

ولا ننسى أن كعب الأحبار كان يهودياً من يهود اليمن، ثم أسلم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وللعلماء كثيرُ كلامٍ حول كعب الأحبار وعلمه

---

(١) انظر: فتح الباري ٨: ٤١٣.

وأخباره، وأخْذه لها من الإسرائيليات، وتفسيره بها كلامَ الله.

ولعل نوف البكالي أخذ هذه الآراء من زوج أمه كعب الأحبار.

ولذلك نفى اجتماعَ موسى النبي عليه السلام بالخضر، واعتبر ذلك الاجتماع مع شخص آخر من بني إسرائيل، يقال له «موسى».

إن موقف «نوف البكالي» هذا، ناتجٌ عن دخوله القرآن بمقررات سابقة غريبة عن القرآن، وتفسيره القرآن بكلام وأخبار السابقين، وهذا خطأ في المنهج، يقود إلى الخطأ في النتيجة، والخطأ في التفسير.

ولقد كان الصحابة حريصين على الالتزام بالمنهج العلمي الوثيق في فهم القرآن وتفسيره واستخراج دلالاته، وتعليم هذا لتلاميذهم.

وكانوا شديدي الإنكار على كل من خالف ذلك المنهج.

وبدا هذا الإنكار الشديد البالغ في قول ابن عباس عن نوف البكالي: «كذب عدوُّ الله».

وقال ابن حجر في شرحه لعبارة ابن عباس: «وقوله: كذب. وقوله: عدو الله، محمولان على إرادةِ المبالغة في الزجْر، والتنفيرِ عن تصديق تلك المقالة»[1].

لم يكن «نَوف» كاذباً في الحقيقة، ولا كان عدواً لله، لأنه كان مسلماً صادقاً تقياً.

لكن كلامه يمثل خطأ في منهج تعامله مع القرآن، ولذلك زجره ابن عباس وعنّفه.

○ صاحب موسى هو الخضر:

العبد الصالح الذي سار موسى عليه السلام إليه هو الخضر.

وهو غير مذكور في القرآن. فهو من مبهمات القرآن.

---

(١) فتح الباري ٨: ٤١٣.

ولكنه مبيّن في الحديث الصحيح، حيث حدد ذلك رسول الله ﷺ. كما رواه عنه البخاري ومسلم وغيرهما.

ولو لم يذكر الحديث الصحيح اسمه، لما حاولنا تبيينه، ولأبقيناه ضمن مبهمات القرآن.

أما عن سبب تسميته بالخضر، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنّما سُمّيَ الخَضِر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تَهتزُّ من تحته خضراء»[1].

والفروة البيضاء، قال عنها عبد الرزاق في مصنفه: «الحشيش الأبيض».

وقال عنها إبراهيم الحربي: هي القطعة من الأرض عليها حشيش يابس.

وقال عنها ابن الأعرابي: «هي أرض بيضاء ليس فيها نبات»[2].

والذي يبدو من الحديث أن هذه معجزة من معجزات الخضر عليه السلام على القول الراجح بنبوته ـ.

ويبدو أيضاً أنه جلس على قطعة من الأرض يابسة، وعليها حشيش وعشب يابس، فلما جلس عليها دبَّت فيها الحياة، فاهتّزت تحته لتصبح خضراء، أي نَبَتَ العشب الأخضر على تلك القطعة، ولهذا سُمّي «الخضر» من الخضرة والإخضرار. وهناك تعليلات أخرى لسبب تسميته بالخضر، لا نلتفت لها، لأنها لم تثبت ولم تُنقَل لنا بحديث صحيح، فنكتفي بهذا الحديث، وفي الصحيح غنية عن الضعيف والموضوع.

○ مبهمات في حياة الخضر:

أما مَنْ هو الخضر؟ **فلا نقول** عن ذلك شيئاً.

إن القرآن لم يتحدث لنا عنه إلا من خلال رحلته مع موسى عليه السلام في

---

(١) البخاري (٦٠) كتاب الأنبياء باب (٢٧) حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث رقم ٣٤٠٢.

(٢) فتح الباري ٦: ٤٣٣.

سورة الكهف، والحديثُ الصحيح ما زاد على بيان القرآن إلا يسيراً، في الرحلة مع موسى فقط.

أما تفصيلاتُ حياته، ونَسَبه، وأعمالُه قبل الرحلة وبعدها، فهذا لم يُذكر عنه في المصادر الصحيحة شيء.

لا نعرف عن أصله ونسبه شيئاً. ولا نعرف عن بداية أمره وطفولته وشبابه شيئاً. لا نعرف عن القوم الذين عاش معهم، ولا ندري هل كان من بني إسرائيل أم من غيرهم. كما أننا لا نعرف المكان الذي كان يقيم فيه.

وماذا جرى له بعد رحلة موسى إليه؟ لا نعرف عن هذا شيئاً، فالله وحده يعلم أين ذهب بعدما فارق موسى، وأين أقام، وكم عاش بعدها، وأين مات، وكيف مات، وأين دُفن.

كل هذه المسائل، لا جواب عليها عندنا، لأنها لم تُذكر في المصادر الصحيحة اليقينية. صحيح أن الإخباريين والقُصّاص تحدثوا عن هذه المسائل، وحاولوا بيانها، واختلفوا في الإجابة عليها.

لكننا نتوقف أمام كلامهم كله، ونشك فيه، ولا نقول بما قالوا به، لأنهم أخذوا في ذلك عن المصادر غير الصحيحة، وبخاصة عن الإسرائيليات والأخبار والأساطير والروايات المأخوذة عن بني إسرائيل.

يَسَعُنا في تفصيل حياة الخضر ﷺ ما وسع الصحابة، ويكفينا ما ورد عنه في القرآن والحديث الصحيح. فلا نحاول تبيين تلك المبهمات.

○ الراجح أن الخضر نبي:

اختلف العلماء في حقيقة الخضر، هل هو نبي أم ولي؟.

فذهب فريق منهم إلى القول بولايته دون نبوته.

كما قال بولايته بعض الصوفية، وذلك ليستشهدوا على زعمهم أن الوليَّ أفضل من النبي. كما قال أحدهم:

مقام النبوّة في برزخ ... فُوَيْق الرسول ودون الولي

وعلى هذا القول، الوليُّ في أعلى المقامات، ويليه النبي، وأما الرسول فهو في أسفل المنازل تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!.

أما جمهورُ العلماء من المفسرين والأصوليين والمحدِّثين والمؤرِّخين، فيقولون بنبوة الخضر.

ويقولون: لا يوجد حديث صحيح ينص على نبوته ويصرح بها.

ولكن سياق قصته مع موسى عليه السلام في القرآن يوحي بنبوته.

○ الأدلة على نبوته:

والأدلة التي تؤخذ من القصة على نبوته، هي:

١ - قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهذه الرحمة هي رحمة النبوة، وأن الله آتاه إياها.

وقد أكد الخضر على رحمة النبوة التي مُنحت له، حيث قال لموسى في تأويل الأحداث التي رآها «رَحْمَةً من ربك» أي فعلتُ الأفعال الثلاثة «رحمة من ربك».

٢ - قوله تعالى عنه أيضاً: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ فقد أطلعه الله على علم بعض الأمور، وأخبره بخفايا بعض الأشياء.

والعلم اللَّدُنّي في هذه الآية هو النبوة، وليس كما يفهمه منه بعض غُلاة الصوفية، من أنه علم الباطن عن طريق **الإلهام**.

٣ - **قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾** فلو لم يكن نبياً، **لما طلب موسى أن يتعلم منه**، **ولما** خاطبه بهذا الأسلوب، ولمَا رجاه **هذا الرجاء**، **ولمَا استسلم** له هذا الاستسلام، حيث جرى بينهما هذا الحوار: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا﴾.

٤ ـ لو لم يكن نبياً لكان غيرَ معصوم، وهذا معناه احتمال الخطأ في بعض أفعاله، فكيف يتبعه ويتعلم منه نبيٌّ معصوم، وإذا أخطأ في فعل ما، فكيف يَقْتدي به النبي المعصوم. فاتّباعُ موسى له وتعلمُه منه وطاعتُه له، دَلَّ على عصمة الخضر في أفعاله، ولا عصمة إلا للأنبياء.

٥ ـ إقدام الخضر على قتل الغلام دلَّ على نبوته، لأن قتْل النفس لا يجوز إلا بالحق، ولو لم يكن نبياً لما علم كفر الغلام، وبخاصة أن موسى النبي الذي معه لم يعلم كفر الغلام. ثم تعليلُ الخضر لموسى ﷺ بأنه قتله لكفره. يدل على أن الله أخبره بكفره، وأمره بقتله.

٦ ـ قول الخضر لموسى ﷺ بعدما فسر له الأفعال التي قام بها: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ أي لم أقم بهذه الأفعال عن أمري الشخصي، وإنما أمرني بها الله سبحانه، وهذا الأمر الرباني عن طريق الوحي.

٧ ـ عتَبُ الله على موسى ﷺ، عندما قال: أنا أعلم الناس. فقال له: «إن عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك». فالخضر أعلم من موسى في تلك المسائل، **ولا يمكن أن يكون الولي أعلم من النبي**.

٨ ـ قول الخضر لموسى: إني على علم من الله، علَّمَنيه اللهُ، لا تعلمه أنت. وأنت على علم من علم الله، علَّمكه الله، لا أعلمه أنا[١].

○ منكرُ نبوَّته لا يَكْفر:

عندما ننظر في-أدلة الجمهور على نبوّة الخضر، نجد أنها اجتهادية وليست نصية، بمعنى أن القرآن لم يصرح بنبوته، ولم ينص عليها.

ولا يعني هذا أن الأدلة غير صحيحة، بل أن القرآن يشير إليها ويوحي بها. وبما أن الأدلة على نبوته اجتهادية ظنية، فنبوَّتُه غيرُ مجمع عليها بين العلماء، وإنما هي موضع اجتهاد.

وطالما أن الأمر مختلفٌ فيه، وهو ظني اجتهادي، لذلك فإن مُنكرَ نبوة

---

(١) انظر: هذه الأدلة في البداية والنهاية لابن كثير ١:٣٢٨.

الخضر لا يكون كافراً، وإنما يكون مخالفاً لجمهور العلماء، وقد يكون قوله هو الصحيح.

وهذا بخلاف من أنكرَ نبوة نبي نصَّ القرآنُ أو الحديث على نبوته فإنه يكون كافراً. كمن أنكر نبوة إلياس أو يونس أو سليمان ﷺ.

○ مناقشة الذين قالوا بحياة الخضر بيننا:

ذهب فريقٌ من المسلمين إلى أن الخضر حي، وأنه شرب من «عين الحياة» التي مَنْ شرب منها لا يموت، إلا قُرب قيام الساعة، وأن الخضر أدرك محمداً ﷺ، وأنه ما زال حياً حتى الآن، وسيبقى حياً حتى قيام الساعة.

ويبنون على حياته كثيراً من الروايات والحكايات والأقاويل والخرافات والأساطير، ويزعمون مقابلَته لرسول الله ﷺ، ومقابلته لأبي بكر وعمر وعلي وعمر بن عبد العزيز، ولقاءَه مع كثير من الزُّهّاد والعُبّاد والمتصوفين، وأنه يجوب الفيافيَ والقِفارَ والأماكنَ المهجورة، ويظهر على عابدين يُعلِّمهم ويطعمهم ويكلمهم..

وأكثرُ الناس رواية للأساطير والأقاويل والحكايات حول حياته هم الصوفيون.

وممن قال بحياة الخضر ﷺ، بعد رسول الله ﷺ، من العلماء الإمامُ النووي، والإمامُ ابن الصّلاح، والسُّهيلي وغيرهم.

قال النووي: «قال الأكثرون من العلماء: هو حي، موجود بيننا، وذلك متَّفق عليه عند الصوفية، وأهل الصلاح والمعرفة. وحكاياتهم في رؤيتِهِ والاجتماعِ به والأخذِ عنه، وسؤالِهِ وجوابِه، ووجودِهِ في المواضع الشريفة، ومواطنِ الخير، أكثرُ من أن تُحصر، وأشهر من أن تُذْكَر.

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاويه: هو حيٌّ عند جماهير العلماء والصالحين، والعامةُ معهم في ذلك، وإنما شذّ بإنكاره بعض المحدِّثين»[١].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١:١٧٦ ـ ١٧٧.

ورغم أن هذا الفريق من العلماء اعتمدوا على أحاديث وأقاويل وروايات، إلا أنه لم يصح منها شيء، فكل هذه الروايات ما بين الضعيف والموضوع، ولم تَصِلْ واحدة لمرتبة الصحيح.

ولذلك نقل ابن حجر عن أبي الخطاب بن دحية في رده على السُّهيلي ـ والسهيلي ممن يقول بحياة الخضر بعد البعثة ـ: «الطرقُ التي أَشار إليها، لم يصح منها شيء، ولا ثبت اجتماعُ الخضر مع أحد من الأنبياء، إلا مع موسى عليه السلام كما قص الله خبرهما.

وجميعُ ما ورد في حياته لا يصح منها شيء باتفاق أهل النقل. وإنما يَذكر ذلك من يروي الخبر ولا يذكر علته، إمّا لكونه لا يعرفها، وإمّا لوضوحها عند أهل الحديث.

وأمّا ما جاء عن المشايخ فهو مما يُتعجب منه، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصاً لا يعرفه فيقول له: أنا فلان. فيصدقه»[١].

وقال الإمام ابن كثير في تاريخه بعد أن أورد روايات وأقوالاً عن حياته الآن: «وهذه الروايات والحكايات هي عمدةُ من ذهب إلى حياته إلى اليوم.

وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً، لا يقوم بمثلها حجة في الدين. والحكايات لا يخلو أكثرها من ضعف في الإسناد.

وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم، من صحابيٍّ وغيرِه، لأنه يجوز عليه الخطأ».

ثم قال ابن كثير: «وقد تصدّى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات، فبيَّنَ أنها موضوعات. ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فَمَن بعدهم، فبيَّن ضعفَ أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في

---

(١) الزَّهْرُ النَّضر في نبأ الخضر للإمام ابن حجر العسقلاني ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٢: ٢٠٣.

ذلك، وأحسن الانتقاد»[1].

○ الراجح موت الخضر قبل البعثة:

المحقِّقون من العلماء على أن الخضر عليه السلام عاش حياته، ومات قبل بعثة رسول الله ﷺ.

ويرون أن مقدار حياته التي عاشها لا يعلمها إلا الله، كما أنَّ وقْتَ موته وكيفيته ومكانه لا يعلمه إلا الله، لعدم وجود أحاديث صحيحة تبيّن ذلك.

وهم يرفضون أقوال غير المحققين في طولِ حياته، واستمرارِها حتى قبيل قيام الساعة، لعدم وجودِ أدلة صحيحة مقبولة على ذلك.

وممن ذهب إلى موت الخضر قبل البعثة، البخاريُّ وإبراهيم الحربي وابن الجوزي وابن كثير، ومال إلى هذا الرأي ابن حجر العسقلاني في كتابه «الزهر النضر في نبأ الخضر».

وأورد هؤلاء العلماء أدلة على هذا الرأي، ذكر الإمام ابن كثير من البداية والنهاية خلاصتها.

○ ومن الأدلة على موته قبل البعثة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤] حيث تقرر الآية أنه لا يُخَلَّدُ أيُّ بشر على وجه الأرض، والخضرُ من جملة البشر، ولهذا هو داخِل ضمن مفهوم الآية، ولا يوجد حديث صحيح يخصص الخضر، ويستثنيه من عدم الخلود في الدنيا.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

---

(١) البداية والنهاية ١: ٣٣٤.

وقال ابن عباس في معنى الآية: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق، لَئِن بُعث محمد وهو حي، ليؤمِنَن به ولينصرَنّه، وأَمَره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بُعث محمد وهم أحياء، ليؤمنُن به ولينصرنُه.

فالخضر إما أن يكون نبياً أو ولياً، وعلى كلا الأمرين هو مطالبٌ أن يؤمن بمحمد ﷺ، فهل حصل أن جاء إليه وأسلم على يديه وبايعه واتبعه؟.

٣ ـ طالما أن الراجح أن الخضر نبي، فلو كان حياً زمن رسول الله ﷺ، لكان أشرفُ أحواله أن يأتي إلى الرسول ﷺ، وأن يكون معه. ولم يفعل الخضر ذلك. لأنه كان ميْتاً تحت التراب.

٤ ـ لم يُنقل بحديث صحيح اجتماعُ الخضر برسول الله ﷺ، ولا صلاتُه خلفه، ولا جهادُه معه في الغزوات، ولو كان حياً لفعل.

٥ ـ إن الرسول ﷺ دعا الله في غزوة بدر أن ينصر المسلمين، فقال: «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعْبَد في الأرض» وكان مع تلك العصابة أبو بكر وعمر وخيار الصحابة، كما كان معهم جبريل ومعه خيار الملائكة، فلو كان الخضر حياً لكان مَقَامه مع تلك العصابة من أشرف مقاماته.

٦ ـ قد يدّعي بعضهم بأن الخضر كان موجوداً مع رسول الله عليه السلام في تلك المواطن، ولكن أحداً من الناس لم يشاهدهُ، ولكن هذا الادعاءَ باطلٌ ومرفوض، لأن هذا من التوهم والتخيل والادعاء، وإثباته يحتاج إلى دليل صحيح.

٧ ـ ما هي الحكمة من اختفاء الخضر، وذهابه إلى الجبال والمغاور والكهوف والبراري؟ ولماذا لا يعيش مع الناس، ويصلّي معهم الجمَع والجماعات؟ وهل يليق بنبي كريم هذه التصرفات.

٨ ـ لو كان حياً لكان مطالَباً بنشر العلم وتعليم الناس، وتبليغهم أحاديثَ رسول الله ﷺ، وتمييز صحيحها من ضعيفها، وطيبها من خبيثها، وكان مطالَباً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا لم يحصل.

٩ ـ ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر ﵄ قال: صلى بنا رسول الله ذاتَ ليلة صلاة العشاء، في آخر حياته، فلما سلَّم قام فقال: «أَرَأَيْتُكُمْ ليلتَكُم هذه، فإن على رأس مائةِ سنة منها، لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد».

قال ابن عمر: فَوَهَلَ الناس [أي أخطؤوا وغلطوا] في مقالة رسول الله ﷺ تلك، فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد. يريد بذلك أن ينخرم ذلك القَرْن»[1].

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله ﵄ قال: «سمعتُ النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهرٍ: «تسألوني عن الساعة» وإنما علمُها عند الله. وأقسمُ بالله، ما على الأرض من نفس منفوسةٍ، تأتي عليها مائةُ سنة»[2].

فلو قلنا بحياة الخضر حتى بعثة رسول الله ﷺ ـ وهذا غير صحيح ـ لزم أن يموت خلال مائة سنة من تاريخ النطق بذلك الحديث.

بعد هذه الأدلة نقرر أن الخضر ﵇ ليس حياً الآن، وأنه مات قبل بعثة رسول الله ﷺ بمدة لا يعلمها إلا الله وحده سبحانه.

ولهذا ندعو إلى طرْح كل الروايات والأخبار والأقوال، التي تَرْسم حول الخضر أباطيل وأساطير لا حقيقة لها.

○ حكاية العلم اللدنيّ:

أشار القرآن الكريم إلى أن الخضر ﵇ قد علَّمه الله علماً من لدنْه، فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا العلم الذي عند الخضر لم يعلمه موسى ﵇. ولهذا جاءه ليتعلم منه.

لكن بعض المسلمين، وقفوا أمام هذه العبارة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

---

(١) مسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة (٥٣) باب قوله ﷺ لا تأتي مائة سنة، حديث رقم ٢٥٣٧.
(٢) مسلم نفس الكتاب والباب، حديث رقم ٢٥٣٨.

واستخرجوا منها «حكاية العلم اللدنيّ» واستدلوا بها على أشياء، وجعلوها عنواناً لمزاعم وأباطيل.

لقد استدل الصوفيةُ بهذه العبارة، في تفريقهم بين «العلم الشرعي والعلم اللدنيّ» وبين «الظاهر والباطن» وبين «الشريعة والحقيقة» قال الإمام الآلوسي: «والآية عندهم أصل في إثبات العلم اللدني، وشاع إطلاقُ علمِ الحقيقة والعلم الباطن عليه»(١).

والمفسرون الصوفيون يتكلمون كلاماً عجيباً في العلم اللدني والتفريق بين الحقيقة والشريعة والظاهر والباطن، ويخلطون ويخبطون في تفسير هذه الآيات وغيرها.

○ قطعة من تفسير المُهايِمي:

قال علي بن إبراهيم المُهايِمي في تفسيره «تبصيرُ الرّحمن وتيسيرُ المنّان» عندما فسَّر هذه الآية:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا﴾: لا يُكْتَنَه غايةُ كمالِه لكونه ﴿مِّنْ عِبَادِنَا﴾ مظاهر عَظَمَتنا إذْ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهو التجلّي الشهودي من غير فناء «و» لذلك «علمناه» بلا واسطة بشرٍ ومَلَك ﴿مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ جليلاً، لا يُعطَى كثيراً من الأنبياء، قال له موسى الذي هو متبوعُ يوشع وسائر بني إسرائيل ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ في علومك، مرتقِياً عن علومي ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وإن كنتُ لا أتعلم من بشر، بل من الله أو ملائكته ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ من ربك ﴿رُشْدًا﴾ فوق هداية أهل الظاهر، كمعرفة أسرار الحق في بعض الأفعال التي يظهر قُبحها ﴿قَالَ﴾ إن هذا العلم ليس مما يظهر حسنه بأدنى النظر، بل منه ما يظهر في الصور القبيحة، التي يبادر أهلُ الظاهر إلى الإنكار عليها، وهو مانع عن الاطلاع على محاسنها، وتَرْكُ الإنكار عليها يحتاج إلى صبر عظيم. قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ﴾ وإن كنت ﴿مَعِىَ﴾ متأثراً عني ﴿صَبْرًا﴾ بوجه من الوجوه ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا﴾ ظهر قبحه، مع أنك ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ

---

(١) روح المعاني ١٦: ٣٣٠.

خُبۡرٗا﴾ تعرف به حسنَه الماحيَ قبحَه ﴿قَالَ﴾ موسى: إني وإن كنت من أهل الظاهر الذين لا صبر لهم إلى تتبع البواطن ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ بالتغلُّب على طبعي من اقتدائي بك وتأثري عنك، كيف وفي تركه عصيانك «و» إذا اتبعتُك ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ وإن رأيتُ فيه طاعةَ الله في الظاهر لكنه معصية في الحقيقة، لأن اعتقاد القبح فيمن زكاه طعن على الله. ولما كان هذا الكلامُ كالرد عليه في قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، لم يجد الصبر وإن راعى الاستثناء.

قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ في علومي ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ فضلاً عن الإنكار عليه، فهذا العلم ليس بطريق السؤال والجواب، بل بطريق الفَيْض، فلا بد من انتظاره، ولا بد من الصبر ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ﴾ في قلبك ولو بطريق الفيض ولو مع اللسان ﴿مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ يذكر به ما كمن فيه»[1].

وقد أطلنا في ذكر هذه القطعة، من كلام المُهايمي، باعتباره يمثل مدرسة التفسير الصوفي للقرآن، ومن المؤمنين بحكاية العلم اللدني، والتفرقة بين الظاهر والباطن، والشريعة والحقيقة.

وعند إمعان النظر في كلامه، نرى كيف يذهب بالمعنى القرآني بعيداً، بل كيف يُحرِّف المعنى القرآني تحريفاً، ويحوِّل الجملة القرآنية لتشهد على فهمه الصوفي الباطني للعلم اللدني والفيض الإلهامي.

○ قطعة من تفسير إسماعيل حقي:

وننتقل من كلام المُهايِمي، إلى كلام مفسِّر آخر من أقطاب الصوفية، ألا هو إسماعيل حقي البُروسَوي، الذي ألّف تفسيراً، أسماه «روح البيان».

فعندما فسّر آيات قصة موسى مع الخضر، وعندما وصل إلى هذه الآية: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ تحدث عن العلم اللدنيّ. فقال: «إنما قال: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ مع أن العلوم كلها من لدنه، لأن بعضها بواسطة تعليم الخلق، فلا يسمى ذلك علماً لدنياً.

---

(١) تبصير الرحمن وتيسير المنان للمهايمي ١:٤٥١ ـ ٤٥٢.

بل العلم اللدنيّ هو الذي ينزِّله في القلب من غير واسطة أحد، ولا سبب مألوف من الخارج».

وقال: «واعلم أن كل علم يعلِّمُه الله تعالى عباده، ويمكن للعباد أن يتعلموا ذلك العلم من غير الله تعالى، فإنه ليس من جملة العلم اللدني، لأنه يمكن أن يُتعلَّم من لدن غيره»[1].

وقال: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ أي من مقام أحدية ذاتِنا ومرتبتها. ولذا خَصَّ كبارُ الصوفية في اصطلاحاتهم لفظَ العلم اللدني بهذا العلم الباطني الحاصل بمحض تعليم الله تعالى، من لدنه بغير واسطة عبارة.

ولذلك قال بعضهم:

تعلّمناهُ بلا حرف وصوت ... قرأناهُ بلا سهو وفَوْت

يعني بطريق الفيض الإِلهي والإِلهام الرباني، لا بطريق التعليم اللفظي والتدريس القولي، ولكوْن مقام العلم الظاهري من مقام العلم الباطني بمنزلة الظاهر من الباطن، حيث يتعلق العلم الظاهري بظواهر الشريعة وصورها، والعلم الباطني بمنزلة الباب من البيت»[2].

○ نقضُ دعاوى الصوفية في العلم اللدنيّ:

وقف القرطبي يردُّ على دعاوى الصوفية في العلم اللدني. فقال:

«قال شيخُنا الإِمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق، تلزم منه هذه الأحكام الشرعية. فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يُحْكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون لهذه النصوص، بل إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم.

وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوّها عن الأغيار، فتتجلى

---

(١) تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ٥: ٢٧٠.

(٢) روح البيان لحقي ٥: ٢٧٢.

لهم العلوم الإِلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلّى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبَك وإن أفتاك المفتون.

قال شيخنا ﷺ: وهذا القول زندقةٌ وكفر، يُقتل قائله ولا يستتاب، لأنه إنكارُ ما عُلم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسله، السُّفراء بينه وبين خلقه.

وعلى الجملة فقد حصل العلمُ القطعي، واليقينُ الضروري، وإجماعُ السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى إلا من جهة الرسل.

فَمَن قال: إن هناك طريقاً آخر يُعرف بها أمرُه ونهيُه غير الرسل، بحيث يُستغنى عن الرسل فهو كافر، يُقتل ولا يُستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب.

ثم هو قول بإثباتِ أنبياءٍ بعد نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وبيانُ ذلك: أن من قال يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه فهو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج معه إلى كتاب وسنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحوٌ مما قاله رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي»[1].

كما نقض مزاعمَهم حول العلمِ اللدنيّ والفيضِ والإِلهام، الإِمام الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان» فَقال:

«إن الرحمة والعلم اللدنيّ اللذيْن امتن الله بهما على الخضر هما النبوة والوحي، لأن الخضر قال لموسى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وأمرُ الله لا يُعرف إلا عن طريق الوحي، ولا طريق له إلَّا بالوحي، والله حصره بالوحي في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال: «إن المقرر في الأصول أن الإِلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء لعدم العصمة.

(١) تفسير القرطبي: ١١: ٤٠ ـ ٤١ باختصار..

وما يزعمه بعض الصوفية من جواز العمل بالإلهام في حق الملهَم دون غيره، باطل لا يعوَّل عليه، لعدم اعتضاده بدليل. وغيرُ المعصوم لا ثقة بخواطره، لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان، وقد ضُمنت الهداية في اتّباع الشرائع، ولم تُضمن في اتباع الخواطر والإلهامات»[1].

وقال: «وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثيرٌ من الجهلة المدّعين التصوف، من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله، ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع، كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى، زندقةٌ وذريعةٌ إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهرة»[2].

أما الآلوسي فقد نقل في تفسيره ـ في معرض رده على العلم اللدنيّ ونقْضِ دعوى مخالفة الشريعة للحقيقة ـ أقوالاً لعلماء صالحين، يعتبرهم الصوفيون مشايخَهم وعلماءَهم:

نَقَل عن عبد القادر الجيلاني قوله: «جميع الأولياء لا يَستمدون إلا من كلامِ الله تعالى، وكلامِ رسول ﷺ، ولا يعملون إلا بظاهرهما.

ونقل عن سيد الطائفة الجنيد: الطرقُ كلها مسدودة، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

ونقل قولَ الجنيد أيضاً: من لم يَحفظ القرآن، ولم يَكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا العلم، لأن عِلمنا مقيّد بالكتاب والسنة.

وقال السقطي: من ادّعى باطنَ علم ينقضُه ظاهرُ حكْم فهو غالط.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيته يدّعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تَقْرَبْه، ومن رأيته يدَّعي حالةً لا يشهد لها حفظُ ظاهر فاتهمْه على دينه.

وقال أبو سعيد الخراز: كل فيضٍ باطن يخالفُه ظاهر فهو باطل.

---

(١) أضواء البيان ٤:١٥٩ باختصار. (٢) المرجع السابق ٤:١٦٠.

وقال أبو العباس الدينوري: لسان الظاهر لا يغير حكم الباطن.

وقال أبو حامد الغزالي: من قال إن الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان»[1].

بعد هذه الأقوال لبعض علمائنا نخرج بنتيجة قاطعة هي:

العلم اللدني الذي أشارت له الآية، الذي علَّمه الله للخضر عليه السلام، هو علم النبوة والوحي. وأما مزاعم الصوفية ودعاويهم على العلم اللدنّي ـ بمفهومهم ـ فهو أباطيل، وأضاليل، مخالفة لشريعة الإسلام وهدي القرآن.

○ مبهمات في قصة موسى مع الخضر:

في قصة موسى مع الخضر مبهماتٌ كثيرة، لم يَرد عليها بيان في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي الصحيح.

وقد حاول كثير من السابقين تبيينَ هذه المبهمات، وتحديد أماكنها وأزمانها وأشخاصها، ونقلوا في ذلك عن الإسرائيليات وأخبارِ الماضين غير الموثوقة، وغير اليقينية، وغير الصادقة، وأوردوا أقوالاً كثيرة في تحديد تلك المبهمات، واختلفوا فيها اختلافاً بيّناً عريضاً.

وهذه المبهمات يجب أن نبقيها على إبهامها، لأننا لا نملك دليلاً صحيحاً مقبولاً على بيانها.

○ من هذه المبهمات:

١ ـ الوقتُ الذي جرتْ به أحداث القصة، هل كان موسى عليه السلام مع قومه في مصر، أم بعد خروجهم منها؟ وهل كانوا في سيناء، أم قبيل دخولهم فلسطين؟.

٢ ـ موقع مجمع البحرين، حيث يَحتمل عدة احتمالات، فقد يكونان البحر المتوسط والبحر الأحمر، وقد يكونان البحر الأحمر والمحيط الهندي،

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٦: ١٩.

وقد يكونان البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وقد يكونان غير ذلك.

٣ ـ مكان الصخرة الذي أوى فيه موسى مع فتاهُ، واسمُ تلك الصخرة، واسمُ عين الماء عندها.

٤ ـ المكان الذي وجدا فيه الخضر.

٥ ـ المكان الذي ركب فيه موسى مع الخضر السفينة، والبحر الذي أبحرت السفينة فيه.

٦ ـ أسماء المساكين أصحاب السفينة.

٧ ـ اسم الغلام الذي قتله الخضر، واسم والديه ومكان إقامتهما.

٨ ـ اسم القرية التي وصلا إليها، واستطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما.

٩ ـ كيفية إقامة الخضر للجدار.

١٠ ـ اسم الملك الظالم الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً.

١١ ـ اسما الغلامين اليتيمين صاحبي الكنز، واسم أبيهما.

١٢ ـ قصة الكنز الذي لهما، ومكونات الكنز الذي كان تحت الجدار.

١٣ ـ مصير «يوشع بن نون» بعدما سار موسى مع الخضر. هل سار معهما؟ أم عاد لقومه؟ أم انتظرهما عند مجمع البحرين؟.

١٤ ـ أين فارق الخضر موسى ﷺ؟ والوجهة التي توجه إليها؟.

١٥ ـ كيفية عودة موسى إلى قومه.

كل هذه المسائل من المبهمات، لا نُتعب أنفسنا في بحثها وتبيينها، وكلٌّ كلام في تبيينها غيرُ علمي ولا منهجي ولا دقيق، وهو إلى الخطأ أقرب منه إلى الصواب، بل غالبه خطأ وليس صواباً، ويستحيل فصل الخطأ عن الصواب، فكل قول في تبيينها احتمال الخطأ فيه أكثر نسبةً من احتمال الصواب.

ولذلك ندعو إلى إبقائِها على إبهامها، وإلغاءِ كل الأقوال في تبيينها، ولو وردت في كتب التفسير والقصص والتاريخ.

○ مفاجآت في قصة موسى مع الخضر:

في قصة موسى مع الخضر الكثيرُ من الغموض، الغموض الذي كان يواجهه موسى عليه السلام. كما أن في القصة مفاجآت، فاجأت موسى عليه السلام فأدهشته. ومن هذه المفاجآت ما بينتْه القصة، ومن هذا الغموض ما كشفته القصة، ومنها ما بقي مفاجئاً غامضاً.

○ من هذه المفاجآت:

١ ـ خروج الحوت من المكتل إلى البحر، وذلك أن الله أمر موسى عليه السلام أن يَحمل معه حوتاً مشوياً مملَّحاً في المكتل، وحيثما يفقد الحوت فسيجد الخضر. فنام موسى وفتاهُ، والحوت في المكتل مملّح ميْت مشويّ. ولكن جاءته نقطة ماء من عين الحياة، فدبَّتْ فيه الحياة، وأعاد الله له الروح، فخرج من المكتل، وذهب إلى البحر. فكيف يحصل هذا؟ حوت مملح مشوي ميت يعود للحياة من جديد، إنها مفاجأة مذهلة لموسى وفتاه، كما أنها مفاجأة مذهلة لكل قارئ لآيات القصة.

وهذه المعجزة الربانية أقوى دليل على قدرة الله المطلقة، حيث هو على كل شيء قدير، وهو فعّال لما يريد، وهو الذي يحيي ويميت. كما أن هذه المعجزة تُساق دليلاً على البعث، فالله الذي بعث الحوت المشويَّ المملَّح حياً، قادر على بعث الناس يوم القيامة.

٢ ـ إن الحوت عندما دبَّت فيه الحياة، وسار في البحر «اتخذ سبيله في البحر سرباً» ومعنى هذه الآية أن الله أمسك جرية الماء عن الحوت، فكان شبيهاً بالسَّرَب وهو الطريق، يعني كان هناك ممر واضح لا يمر فيه الماء خلف الحوت. بحيث لو سار أحد في ذلك السرب الواضح والطريق البيِّن لوصل إلى مكان الحوت. وهذا ما فعله موسى عليه السلام مع فتاه.

٣ ـ لما عاد موسى وفتاه إلى مكانهما الأول الذي فَقَدا فيه الحوت، فوجئا بمفاجأة، حيث وجدا الخضر عليه السلام، مستلقياً على قفاه، مغطّىً بثوب، فلمّا سلَّم موسى عليه، كشف الخضر الثوب عن نفسه، ورد عليه السلام. لقد

جاء الخضر من المجهول الغامض، فلم يدْرِ موسى ولا فتاه ـ ولم ندر نحن الذين نتابع القصة ـ من أين جاء الخضر، ولا أين كان يعيش، كلُّ ما عندنا أننا فوجئنا به في ذلك المكان كما فوجئ به موسى عليه السلام.

٤ ـ فاجأ الخضرُ موسى عليه السلام، عندما طلب منه موسى مرافقته ليتعلم منه، فاجأه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. وهذا ما حصل من سياق القصة، حيث لم يستطع موسى معه صبراً.

٥ ـ مفاجأة الخضر لموسى عندما ركبا في السفينة بغير أجرة، إذ عمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة، فاقتلعه وخرق السفينة، مما حمل موسى على الاعتراض والإنكار.

٦ ـ مفاجأة أخرى من الخضر لموسى عليه السلام عندما أقبل على غلام يلعب مع الغلمان فقتله، بغير ذنب عمله، فأنكر عليه موسى.

٧ ـ مفاجأة أهل القرية لموسى ـ ولنا ـ حيث عاملوهما ببخْل عجيب، إذ أبوا أن يضيفوهما رغم طلبهما منهم الطعام.

٨ ـ مفاجأة الخضر لموسى عليه السلام، عندما وجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، مما جعل موسى يطلب منه أخذ الأجرة على فعله، لأن أصحاب القرية البخلاء لا يستحقون المعروف.

٩ ـ المفاجأة البالغة المدهشة لموسى عليه السلام ولنا نحن الذين نتابع القصة ـ هي كشف الخضر الغموض عن أعماله الثلاثة التي عملها، وإزالته الإبهام عنها، وتعليله لها، وبيانه أن ما قام به إنما هو حق وخير وصواب. ولكن كشْفَه وتعليلَه جاء مفاجأة.

١٠ ـ المفاجأة في الإخبار عن الملك الظالم الغاصب، الذي كان ينتظر المساكين ليأخذ سفينتهم لو لم يخرقها الخضر.

١١ ـ المفاجأة في الإخبار عن مستقبل الغلام الذي قتله الخضر، بأنه لو بقي حتى يكبر لكان كافراً، وأن الله يريد أن يبدلهما غلاماً، خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

١٢ ـ المفاجأة بإخبارنا عن وجود كنز لليتيمين تحت الجدار، حيث بَنى الخضر الجدار إلى حين يكبر الغلامان، فيستخرجان الكنز.

١٣ ـ المفاجأة بذهاب الخضر إلى حيث لا ندري، ولعل موسى عليه السلام ما كان يدري، لقد ترك الخضر موسى عليه السلام تحت تأثير الدهش والمفاجأة والاستغراب عندما كشف له حقيقة أعماله الثلاثة، ثم فارقه وذهب إلى المجهول.

لقد جاء الخضر في القصة من المجهول، وبعد القصة ذهب الخضر إلى المجهول، فلا نعرف من أين جاء، ولا ندري أين ذهب، ولا كلام عن الخضر ـ في القرآن والحديث ـ غير ما ورد هنا.

إن قصة الخضر مع موسى هي قصة المجهول، وقصة الغموض، وقصة المفاجآت، وقصة الدهش والاستغراب.

وإننا كلما نقرأ القصة، نُصاب بالدهشة والاستغراب، ونتأثر بما فيها من مفاجآت مثيرة ـ رغم معرفتنا المسبقة بحقيقة الأحداث وسر المفاجآت ـ.

○ الرحلة في طلب العلم:

ماذا قال موسى لفتاه «يوشع بن نون»؟.

قال له: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾.

يعني لا أبرح سائراً، ولن أتوقف عن السير حتى أصل إلى مجمع البحرين ـ أي مكان التقائهما واجتماعهما ـ وهو المكان الذي أخبر الله موسى أنه سيجد الخضر عنده.

فإن لم يصل مجمع البحرين، سيستمرُ في سيره، ويمضي في طريقه، ولو استمرت رحلته سنين طويلة، وحُقُباً مديدة.

ونأخذ من كلام موسى عليه السلام: الرحلة في طلب العلم، والحرص عليها، والتصميم على تجاوز كل العقبات التي تحول دونها.

ولقد ضرب العلماء المسلمون نماذج رفيعة رائعة في الرحلة في طلب

العلم، وتحمّلوا في ذلك ما تحمّلوا، وصبروا على ما واجهوه في الطريق من شدائد ومصاعب ومشقات.

لقد ألف الإمام الخطيب البغدادي في القرن الخامس كتاباً سجل فيه أشهر الذين ارتحلوا إلى بلاد أخرى من أجل طلب حديث واحد فقط من أحاديث رسول الله ﷺ، وسماه «الرحلة في طلب الحديث» وطبعه أخيراً محقَّقاً الدكتور نور الدين عتر.

وفي أيامنا جمع الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتاب لطيف له نماذج من ارتحال العلماء المسلمين وصبرهم على ما يلاقونه في سبيله. وسماه «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل».

قال موسى لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾.

والحقب جمع حِقبة.

واختلف العلماء في تقدير الحقبة، ما بين ستين وثمانين ومائة عام.

لكن الراجح في معنى الحقبة ما ذكره الراغب «والصحيح: أن الحقبة مدةٌ من الزمان مبهَمَة»[1].

وهذا المعنى وارد في كلام موسى عليه السلام لفتاه ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ فهو لم يحدد مدة معينة لسيره، بل جعلها مبهمة، سوف يبقى مسافراً حتى يلتقي بالخضر.

وهذا المعنى وارد في الكلمة الثانية وهي «أحقاب» حيث قال الله عن الكفار في جهنم: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۝٢٣﴾ [النبأ: ٢٣] وهي مدة مبهمة لا نهاية لها، إذ هم مخلَّدون في جهنم، والعياذ بالله.

○ نسيا حوتهما:

نسبَ القرآن النسيانَ إليهما في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا

---

(١) المفردات: ١٢٦.

﴿حُوتَهُمَا﴾ مع أن الذي نسي في الحقيقة هو فتاه «يوشع بن نون» وحده. وذلك أن موسى طلب من فتاهُ حمل الحوت في مكتل، وقال له: عندما تفقد الحوت فأخبرني، فلما سارا ووصلا الصخرة، وضعا المكتل قريباً من العين، وناما. فوصل إلى الحوت قطرات من الماء فدبت فيه الحياة، فخرج من المكتل واتخذ سبيله في البحر سرباً.

ولما استيقظا تابعا سيرهما، ولما أحسا بالتعب، وطلب موسى من فتاه الطعام تذكر الحوت.

فالذي نسي هو الفتى، وليس موسى. فلماذا نسب القرآنُ النسيانَ إليهما؟.

○ يبدو أن في هذا حكمتين:

الأولى: أنه ذكرهما من باب «التغليب» كما تقول: الأبوان للأب والأم، والعمران لأبي بكر وعمر. فطالما أنهما رفيقان في السفر، فهما مشترِكان في الرحلة وما يحدث فيها، ومنه النسيان.

الثانية: أن عاقبةَ النسيان ونتيجتَه واقعةٌ بهما، وليس بالفتى وحده، حيث نتج عن النسيان للاثنين طولُ الرحلة والنصب والتعب والجوع.

○ آتنا غداءنا:

لما سارا وجاوزا مجمع بينهما، أحسَّا بالنصب والجوع، فقال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

○ وعند إمعان النظر في الآية نستخرج منها ما يلي:

١ ـ جواز بل وجوب حمل الزاد والطعام للرحلة والسفر، وأنّ هذا لا ينافي التوكلَ على الله، بل هو من باب التوكل، لأنه أخذٌ بالأسباب التي أمرَنا الله بها، وهناك قوم من المغفَّلين المخدوعين، لا يتزودون بالزاد بزعم تعارضه مع التوكل، وهم متواكلون معطِّلون للأسباب التي أوجب الله مراعاتها والالتزام بها.

٢ ـ جواز استخدام الآخرين، وطلبِ إحضار الطعام منهم: إذ طلب موسى من فتاه أن يقدم له الغداء ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ مع أن الأَوْلى أن لا يطلب المسلم من أحد شيئاً ـ رغم جوازه ـ.

٣ ـ جواز أن يخبر الإِنسان بما يجده في نفسه من جوع ونصب وتعب، وأن هذا لا ينافي الإِيمان بالله والاستسلام لأمره والتوكل عليه. فموسى يقول لفتاه: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

٤ ـ إن موسى لم يشعر بالجوع ولم يجد التعب إلا بعد ما جاوز مجمع البحرين المكانَ المتفق عليه. كما جاء في الحديث المذكور سابقاً: «ولم يجد موسى مسّاً من النصب، حتى جاوز المكان الذي أُمر به».

وكأن الإِحساس بالنصب والتعب شبه عقوبة على النسيان.

○ وما أنسانيهُ إلا الشيطان:

لما طلب موسى عليه السلام من فتاه الطعام، تذكر الفتى الحوتَ المشوي المملَّح الذي ذهب في البحر حياً، حيث كان موسى قد طلب منه أن يخبره عندما يفقد الحوت، فلما استيقظا من النوم ولم يجد الفتى الحوتَ نسي إخبار موسى بفقده، فسارا وقطعا مسافة طويلة حتى شعرا بالتعب.

فلما قال له موسى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

أجابه «يوشع» قائلاً: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

عرض عليه أن يرجعا إلى الصخرة التي ناما عندها، والتي فقد عندها الحوت، ونسي تذكير موسى به. واعترف بأنه نسي الحوت هناك. ونسب النسيان إلى الشيطان، وقال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

وأولُ ما يواجهنا ضم الهاء ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾ فما هي الحكمة من ضمها؟.

قال ابن زنجلة في حجة القراءات: «قرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ بضم الهاء على أصل الكلمة، وأصلُها الضم.

وإنما عدل عن كسر الهاء إلى الضم، لمّا رأى الكسرات من «أنسانيهِ» وكانت الهاء أصلها الضم، رأى العدول إلى الضم ليكون أخف على اللسان من الاستمرار على الكسرات.

ومَنْ كسر الهاء فلمجاورة الياء قبلها، كما تقول: «فيه، وعليه»[1].

نلاحظ أن «يوشع بن نون»، نسب النسيان إلى نفسه أولاً حيث قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾.

ثم نسب الإنساء إلى الشيطان حيث قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ولا تعارض بين النسبتيْن.

إن «يوشع» لم يتنصَّل من النسيان، ولم يتبرأ منه، بل اعترف به، ونسبه له: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾.

التاء هي الفاعل، والتاء تعود على «يوشع»، يعني أنا الذي قمت بفعل النسيان، أنا الذي نسيت.

وبعدما اعترف بالنسيان ونسبه إليه، بيّن من هو الذي جعله ينسى، ومن هو الذي قام بإنسائه، إنه الشيطان، فقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

إن الشيطان هنا هو الفاعل، وإن «يوشع» هو المفعول به ـ الهاء هي المفعول به وهي تعود على «يوشع» ـ.

ونلاحظ أنهما فعلان لا فعلاً واحداً.

الأول: نسي الثلاثي، وقد نسبه «يوشع» إلى نفسه.

الثاني: أنسى الرباعي، وقد نسبه إلى الشيطان، وأنسى يُنسب لمن يقوم بعملية النسيان، أي لمن يجعل غيره ينسى.

وهذه حقيقة، فإن الشيطان هو الذي يوقعُ الإنسان في النسيان، وهو الذي يحمله على النسيان ويجعله ينسى، يجعله ينسى ربه، ويجعله ينسى دينه،

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة: ٤٢٢.

ويجعله ينسى واجبه، وذلك حتى يسهل عليه السيطرة عليه، والاستحواذ على قلبه.

إن الشيطان لا يتمكن إلا من الإنسان عندما ينسى، أما المسلم اليقظ المبصر فإن الشيطان لا سبيل له إليه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١ ـ ٢٠٢].

إن الشيطان هو وراء كل نسيان، هو الذي جعل الناس ينسون، أنت تنسى والشيطان هو الذي ينسيك، وأنا أنسى والشيطان هو الذي ينسيني.

«فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره».

○ سرباً وعجباً:

عبَّر القرآن عن ذهاب الحوت في البحر بتعبيرين.

قال أوّلاً: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

وقال بعدها: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

ومعنى سَربا: أن الحوت لما سار في البحر، منع الله الماء أن يلتئم ويلتقي خلفه، فكان وراءه ممرٌّ فارغ من الماء على وجه الماء، وكان مثل الطاق، كما ذكر رسول الله ﷺ: «وأمسك الله عنه جرية الماء، حتى كان مثل الطاق».

ومعنى عجباً: أنَّ بعْث الحياة فيه ـ وهو الحوت المشوي المملح الموضوع في مكتل ـ وخروجَه من مكتله، وذهابَه في البحر، وحبسَ الماء خلفه، كل هذه المعجزات تدعو للعَجَب والتعجب من البشر. ولذلك عجب منها موسى عليه السلام وفتاه.

بقي أن نبيِّن الحكمة من اختلاف التعبير عن نفس الحادثة. فلماذا قال مرة: ﴿سَرَبًا﴾ وقال مرة أخرى: ﴿عَجَبًا﴾؟.

الجواب في حديث رسول الله ﷺ، حيث قال: «فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً».

فَسِرُّ اختلاف التعبير، هو الناحيةُ التي لحظها التعبير القرآني، والزاويةُ التي نظر للقصة من خلالها.

فهو في المرة الأولى كان ينظر للحادثة من زاوية الحوت، ويلحظ حركة الحوت في البحر، فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

أما في المرة الثانية فكان ينظر للحادثة من زاوية موسى عليه السلام وفتاه، ويلحظ أثر حركة الحوت على نفسية وشعور موسى وفتاه، ولا شك أنهما سيَعْجَبان من حركة الحوت، ولذلك قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

ونشير هنا إلى أن العجب الذي أثارته حركة الحوت وبعثه، ليس مبعثه الإِنكار والاستغراب، لأن موسى عليه السلام وفتاه، يؤمنان بقدرة الله على البعث وصنع المعجزات، وإنما مبعثه هو دهشةُ المفاجأة، والانفعالُ بها.

○ وأنّى بأرضك السلام؟:

لما أخبر «يوشعُ» موسى عليه السلام بنسيانه للحوت، وعرض عليه العودة إلى الصخرة، قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

فرجعا في طريقهما، وصارا يقصّان آثار سيرهما، يتبعان مواضع خطْوِهِما، ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

ويمكن أن نأخذ من ذلك إشارة إلى أهمية قص الأثر وكيفيته، وجوازه.

ولما وصلا مجمع البحرين، وأوَيا إلى الصخرة هناك، وجدا ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وكما قال رسول الله ﷺ: «فإذا هو بالخضر، مُسجًّى ثوباً، مستلقياً على القفا».

فسلم عليه موسى فكشف الخضر عن وجهه الثوب، وقال: وعليك السلام.

واستغرب الخضر رجلاً يسلم عليه في تلك البلاد، فسأله «وأنّى بأرضك السلام؟».

وتساؤل الخضر عليه السلام يحتاج إلى وقفه:

كأن الخضر عليه السلام يستغرب أن يسمع أحداً في تلك البلاد يطرح السلام، ربما لعدم وجود مؤمنين في ذلك المكان، وما كان يعلم بسير موسى إليه.

لكننا نفهم من تساؤل الخضر أمراً أبعد وأنفذ وأعمق.

كأنه يقصد الأرض كلها، فيشير إلى أن السلام لا يمكن أن يتحقق على وجه الأرض، بل لا بد أن يبقى الخلاف والنزاع والصراع والدفع يعم وجه الأرض، وإن التاريخ يخبرنا أنه ما تكاد تخلو فترة من فترات التاريخ من حروب تنشب هنا وهناك على سطح الأرض.

وإن هذه الحروب تزداد كثرةً وحِدَّة وتوسُّعاً، وانتشاراً في هذا العصر، وأيُّ قارئ للصحف والمجلات، لا تكاد تقع عينه إلا على أنباء الصراع والقتال، وأي مستمع لوسائل الإعلام المسموعة والمرئية لا يكاد يطرق أذنه إلا أخبار الصراع والقتال.

وهذا ما يوحي به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وهذا المعنى يوحي به تساؤلُ الخضر «وأنّى بأرضك السلام» وأنَّى: كلمة للاستبعاد، أي أنه يستبعد تحقق السلام على وجه هذه الأرض.

○ عبداً من عبادنا:

وصف القرآن الخضر بقوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾.

ووصْفه بالعبودية لله لا يعني نفي النبوة عنه، ولا منافاة بين الوصفين. فقد رجحنا فيما سبق أنه نبي.

إن العبودية أبرزُ مظاهر النبوة، فالأنبياء أكثر الناس عبودية لله، لأنهم أعرف الناس بمقام الله وما يجب له سبحانه، وأكثرُ الناس شكراً لله على نِعَمه.

وقد وصف الله أنبياء كراماً بالعبودية. كما في قوله عن نوح عليه السلام:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣].

وكما في قوله تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

ونشير إلى أن القرآن يستعمل ـ غالباً ـ كلمة «عباد» للمؤمنين بالله. و«عبيد» للكافرين بالله.

○ بين الرحمة والعلم:

بيَّن القرآن ما أنعم الله به على الخضر بقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

ومن لطائف هذه العبارة أن الرحمة تُؤتى إيتاء من الله للعبد، وذلك لأنها فيض من الله، يغمر الشخص، فيجعله يعيش في سعادة وهناء.

أما العلم فإنه يعلَّم من الله تعليماً، لأنه يحتاج إلى جهدٍ وتعلُّمٍ وكسبٍ وسعي. وإذا لم يتفاعل الإنسان مع العلم، ولم يسعَ إلى تحصيله، لم يَكتسب منه شيئاً.

كذلك من لطائف هذه العبارة، جَعْلُها الرحمة من عند الله «رحمة من عندنا» أما العلم هنا فإنه من لدن الله ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

لقد فرقت العبارة بين «عند» «ولدن».

قال الإمام الراغب الأصفهاني: «لَدُن: أخصُّ من عِنْد، لأنه يدل على ابتداء نهاية، نحو: أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها. فيوضع لدن موضع نهاية الفعل.

وقد يوضعُ موضِع عند فيما حكي، يقال: أَصَبْتُ عنده مالاً، ولدنه مالاً.

قال بعضهم: لدن أبلغ من عند وأخص»[1].

---

(١) المفردات للراغب: ٤٤٩.

فعلى كلام الراغب لدن أخص من عند وأبلغ. فلماذا عبّر عن العلم بها؟.

إذا ما نظرنا في الرحمة والعلم، نجد أن الرحمة أعم من العلم. فالرحمة من الله شاملة لكل المخلوقات، فلا حياة لها إلّا برحمة الله، كما أن الرحمة شاملة لبني البشر، مسلمين وكافرين، ولولا رحمة الله لما عاشوا.

أما العلم فإن الله لا يمنحه لكل المخلوقات، كما أنه لا يمنحه لكل الناس، وبخاصة إذا كان العلم علماً لدُنّياً خاصاً، مثل العلم الذي علمه الله للخضر عليه السلام.

فنظراً لعموم الرحمة، عبَّر عنها بكلمة «عند» العامة، ونظراً لخصوصية العلم، عبّر عنها بكلمة «لدن» الخاصة - والله أعلم -.

ونفهم من التعبير عن علم الخضر بأنه من لدن الله، إيحاءً لموسى عليه السلام، بأن أفعال الخضر صحيحة وصائبة، لأنها ناتجة عن علم لدنّي من الله سبحانه.

لكننا نحب أن نقف عند الحكمة من تقديم الرحمة على العلم ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

فما هي الصلة بين الرحمة والعلم؟ ولماذا قُدِّمت الرحمة على العلم؟.

إن الرحمة هي الأساس الذي يسبق العلم، وهي الجو والبيئة المناسبة، لنفع العلم وخيره وبركته، فإذا نُزِعت الرحمة من العلم، وإذا لم تسبق العلمَ، ولم تكن تمهيداً وأساساً له، كان العلم شراً وخراباً وتدميراً.

○ ولهذا المعنى قُدمت على العلم.

كان علم الخضر ممزوجاً بالرحمة، وكانت الرحمة أرضية مناسبة له، تفاعل معها، ونما من خلالها، فكان علمه نافعاً خيِّراً مبارَكاً، بعلمه هذا حفظ السفينة من المصادَرة، وبعلمه أراح الوالديْن من ابنهما الكافر، رجاء أن يعوضهما الله عنه بآخر مؤمن، وبعلمه بنى الجدار للغلامين اليتيمين وحفظ لهما كنزهما.

وهو فعل هذا لأنه مرحوم بعلمه، فكان علمه مرحوماً كذلك، وكان الآخرون مرحومين بعلمه أيضاً.

وقل مثل هذا في علوم المسلمين، حيث كانت علومهم المختلفة ممزوجةً بالرحمة، متفاعلةً معها، فنفعت المسلمين، ونفعت معهم الآخرين.

أما العلم إذا نُزعت منه الرحمة، وإذا لم تسبقه الرحمة، وإذا لم يتفاعل معها، فإنه يكون علماً ضاراً شريراً سيّئاً مدمّراً مخرّباً قذراً، وهذا أبرز ما يكون انطباقاً على علوم الغربيين المعاصرة.

عندهم علم، وعندهم تقدم علمي، وقد بلغوا فيه مستويات لم يصلها خيال من سبقهم، وتشعّبتْ علومهم وتنوعتْ، وما تركت مجالاً من مجالات الحياة.

لكن هذه العلوم والمخترعات والصناعات والاكتشافات، كانت وبالاً على أصحابها وعلى الآخرين، واستُخدمت في التخريب والتدمير والبغي والفساد والعدوان. وازدادت البشرية بتلك العلوم شقاء وحسرة، وعُقَداً وأمراضاً وخسارة. ومَن كان في شك من هذا فليخبرنا: هل الأسلحة الذرية والنووية والالكترونية، لنفع العالم أم لضُره؟ وهل أنقذتْ القنابل الذرية مدينتي «هيروشيما» و«نجازاكي» أم دمّرتهما؟ وماذا فعلت الأسلحة المتقدمة الجرثومية في الحرب العالمية؟ وماذا تفعل قنابل «النابالم» والقنابل «العنقودية» و«الفوسفورية» في الضحايا؟ وماذا تفعل الأسلحة الكيميائية في الحروب؟ وكم في المخازن السرية عند الدول المجرمة، من أسلحة فتاكة تتضمن جراثيم وميكروبات أوبئة فتاكة، مثل السرطان والكوليرا، وأخيراً «الأيدز» الذي جهَّزوه في المعامل، لينشروه على الخصوم عندما يحاربونهم!.

إن الأسلحة الحديثة الكيميائية والجرثومية، تمثل أقذر وأَخَسَّ وأَحَطَّ ما وصل إليه العلم الإنساني المدمّر، نتيجة لذكائه الشيطاني الأسود الحاقد.

في ضوء هذا البيان ندرك طرفاً من حكمة تقديم الرحمة على العلم في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وفي ضوء هذا البيان ندرك أهمية مزج العلم بالرحمة، وإضفاءِ العنصر الأخلاقي عليه، ليكون نافعاً خيّراً مباركاً مرحوماً.

○ الأدب في طلب العلم:

لما قابل موسى الخضرَ ﷺ قال له الخضر: إنك على علم من علم الله علَّمكه الله، لا أعلمه. وأنا على علم من علم الله، علمنيه، لا تعلمه.

فقال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً؟.

ونأخذ من كلام الخضر لموسى أنه لا أحد يحيط بالعلم، ولا يلمُّ به كلِّه، فها هو موسى النبيُّ الكريم ﷺ لا يعلم بعض الأمور، كما أن الخضر ﷺ وهو النبي الكريم أيضاً ـ لا يعلم بعض الأمور، وكلٌّ منها علَّمه الله علماً، لم يعلِّمه للآخر.

وأراد الخضر أن يُقرِّب هذا المعنى لموسى، فلما ركبا في السفينة، جاء عصفورٌ فوقع على حرْف السفينة، فنقر بمنقاره نقرة أو نقرتين من ماء البحر، فقال الخضر لموسى ﷺ: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله، إلا كنقرة هذا العصفور من ماء البحر!.

كل علوم البشر قليلةٌ بالقياس إلى علم الله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقال القائل:

قل للذي يدَّعي في العلم معرفةً   حفظت شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ

أما قولُ موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟.

فنأخذ منه أمرين اثنين:

الأمر الأول: الأدب في طلب العلم، واللطف في التعبير ومخاطبةِ العالم، حيث قال له: «هل أتبعك؟» بهذا العرض الرقيق، وهذا الاستفهام الاسترحامي اللطيف.

ثم أنا أتبعك، فأنا تابع لك، ولستُ نِدّاً لك، ولا متعالِماً عليك.

واتباعي لك بهدف، ورحلتي إليك ومعك بهدف، هو أن أتعلم منك «على أن تعلمن مما علمت».

عندما يُطْلَب العلم مع الأدب يكون خيِّراً ونافعاً، وعندما يُطْلَب العلم بدون أدب يكون ضرراً على صاحبه وعلى الآخرين.

بعضُ طلبة العلم يفقدون أدب الطلب، فإذا قرأ المرء منهم مسألة أو مسألتين، وحفظ حديثاً أو حديثين، ظن نفسه عالماً مجتهداً، يجب أن يُشار إليه بالبنان. «فيتعالمُ» على العلماء، ويظهر على حسابهم، فيعمل على ذمِّهم وانتقاصهم.

ومن يُحْرم أدب الطلب يُحْرم العلم، ويحرم الخير كله.

ومن أجود الكتب في أدب الطلب «تَذْكِرَة السَّامِعِ والمتكلم في آداب العالم والمتعلم» لابن جماعة.

الأمر الثاني: هو الهدف من طلب العلم والتعلم، وهو تحصيل الرُّشْد، «على أن تعلمن مما علمت رشداً».

«رُشْداً» في الجملة: إعرابها تمييز.

والتمييز هو ما يُميِّز الشيء.

ويجب أن نوظِّف النحو أداةً ووسيلة لاستخراج بعض لفتات ودلالات التركيب البياني القرآني.

إن موسى عليه السلام يكشف بكلمة «رُشْداً» عن هدفه من طلب العلم، إنه يريد أن يتعلم الرشد، يتعلم ليكون راشداً رشيداً، يتعلم العلم النافع الصحيح الذي يوجِد عنده الرشد، ويجعله يتعامل مع الناس برشد، ويعيش بينهم برشد.

بعض طلبة العلم يجعلون التعلم بحد ذاته غاية وأملاً، يريدون أن يتعلموا ليتعلموا، فيرفعوا شعار «التعلُّم للتعلُّم والعلم للعلم».

ويعلمهم موسى أن يكون طلبُ العلم والتعلم وسيلةً إلى غاية شريفة، وهي: الحصول على الرشد وتحقيقه.

ثم إننا نرى بعض طلبة العلم يتعلمون العلم الذي يوصِل للشر والضرر، أو يدفع للأخلاق القبيحة، والصفاتِ السيئة، أو يتعلمون العلوم التافهة الهزيلة المرذولة، ويضيِّعون فيها الكثير من الأموال والأوقات والمواهب والقدرات والطاقات.

وإلا فقل لي بالله عليك، أَيُّ رُشْد في تعلم الموسيقى والغناء؟ وفي تعلم الرقص والرسم والنحت والتمثيل؟.

العلم النافع هو الذي يُنتج الرشد، فيكون شجرة طيبة، مباركة، يثمر الثمار الطيبة النافعة، ويقود إلى العمل وحسن التصرف.

○ لن تستطيع معي صبراً:

رد الخضر عليه السلام على طلب موسى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

لقد أخبر موسى بأنه لن يصبر على مصاحبتِه والسير معه. وعبَّر عن ذلك بعدم الاستطاعة.

هناك فرق بين قوله: «إنك لن تصبر معي»، وبين قوله: ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، في العبارة الأولى نفي للصبر فقط.

وفي العبارة الثانية بيانُ أنه سيبذل جهده في الصبر، وسيُصَبِّر نفسه على الصبر، ومع هذا لن يستطيع.

لقد أكَّد الخضر هذا الأمر لموسى بعدة توكيدات:

إن: التي هي حرف توكيد ونصب.

لن: التي تفيد النفي المطلقَ المؤكَّد المؤبَّد.

تستطيع: الاستطاعة هي المنفية، وليس الصبر، إنه يحاول ويجاهد نفسه، ويبذل كل جهده في أن يصبر، ومع هذا كله فلن يستطيع.

معي: وذكر هذه الكملة يوحي بأنه سيعجز عن الصبر معه، وفي هذا تطمين ـ مع ما فيه من التحدّي ـ فهو لا يريد أن يطعن في قدرة موسى وطاقته على الصبر والاحتمال.

إنه قد يصبر مع غير الخضر، أما عجزه عن الصبر فسيكون فقط مع الخضر.

○ من التفسير النفسي: وكيف تصبر؟:

ويبدو أن موسى عليه السلام أُصيبَ بالدهشة والاستغراب، إذ كيف يجزم الخضر هذا الجزم، ويؤكده بتلك المؤكَّدات؟ ومَنْ أدراه أن موسى سيبذل جهده في الصبر وسيعجز عنه؟.

فقدَّم له الخضر تعليلاً لذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؟.

وفي الحديث أن الخضر قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؟ شيءٌ أمرتُ به أن أفعله، إذا رأيتَه لم تصبر.

إن موسى لن يصبر لأنه سيرى أفعالاً وتصرفاتٍ للخضر، في ظاهرها غريبة، وهو لا يعرف حقيقتها، ولذلك سينكِر عليه تلك الأفعال، ولن يصبر على السير معه.

ويشير قول الخضر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ إلى صفة من صفات النفس الإنسانية. ولذلك يجب أن ننظر فيه على ضوء علم النفس التحليلي الصائب، لنستخرج بعض أبعادِه من باب التفسير النفسي للآيات ذات الأبعاد النفسية.

إن الله قد فطرَ النفسَ الإنسانية على حب الاستطلاع، فالإنسان يحب أن يعرفَ ما يدور حوله، وأن يتعرف على ما يراه ويسمعه، ولذلك يُكْثر من الأسئلة والاستفسارات، ليكتسب علوماً ومعارف جديدة.

فإذا ما رأى أشياءَ لم يفهمها، فإنه يسارع إلى الإنكار والاعتراض، أو على الأقل يطلب التوضيح والبيان.

إن طبيعة الإنسان أن لا يسير هكذا، مُلْغياً عقله وفكره، ولذلك لا يَصْبِر على ما لم يفهمه، ولا يسكت على ما لم يستوعبه.

وهذا ما عرفه الخضر من طبيعة النفس الإنسانية، ولذلك قال لموسى عليه السلام: شيءُ أُمِرْتُ به، إذا رأيته أنت لم تصبر.

لم تصبر عليه لأن نفسك لم تقف على حقيقته، وعقلك لم يستوعبْه، لأنك لم تحط به خُبراً، فتظنه أمراً يدعو إلى الإنكار.

○ من آداب الصحبة والسفر:

تعهَّد موسى عليه السلام للخضر، بأنه سيكون صابراً ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾.

فطلب منه الخضر الالتزامَ بوسيلة لتحقيق هذا. ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

طلب منه أن لا يسأله عن شيء، وأن لا يعترض على شيء، وأن ينتظر الخبر والبيان والتفصيل من الخضر.

وكأنَّ الخضر بهذا يمهد للرحلة، ويوحي لموسى بأنه سيرى مفاجآت وأحداثاً وأموراً، قد يراها باطلة أو منكرة ـ حسب الظاهر ـ فلا يعترضْ ولا يتكلم فيها، بل ينتظر البيان من الخضر، بدون أن يسأله عنها.

وعندما نُمعن النظر فيما جرى بين النبيَّيْن الكريميْن، فإننا نجده يشير إلى آداب الصحبة في السفر، ويوحي بالطريقة الصحيحة الكفيلة بقضاء الرحلة وإتمام السفر بتعاون وانسجام، وإبعاد الخلاف والنزاع بين المسافرين.

فموسى عليه السلام يعدُ بالصبر ويستعينُ بالله لتحقيقه.

والصبر مرتبط بالسفر ارتباطاً وثيقاً، لأنه لا بد منه للسفر، فسفر بدون صبر، خلاف ونزاع وشقاء.

إن السفر قطعة من العذاب، وإن المسافر يكون قلِقاً تعباً منهَكاً، متوتِّر الأعصاب، سريعَ الغضب والانفعال.

ولذلك يستعين المسافر الصالح على ما يجده من ذلك بالصبر.

قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾.

ومن آداب الصحبة في السفر الطاعة لأمير الرحلة ﴿وَلَآ أَعۡصِى لَكَ أَمۡرٗا﴾.

في السفر لا بد من أمير ليطاع، ولا بد من ترتيب الأمور وتنظيمها، وتوزيع الأدوار والأعمال والواجبات، لا بد من تنفيذ الأوامر وإيجاد المطلوبات. ومن آداب السفر أن لا يكثر الإخوان المسافرون من الاعتراض والإنكار وإثارة المشكلات ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾.

○ الخضر والسفينة:

اتفق موسى مع الخضر ﷺ على أن يصحبه في الرحلة، ليتعلم منه، على شرط أن لا يسأله عن شيء، حتى يخبره عنه الخضر.

وانطلقا.

سارا على شاطئ البحر، وأرادا أن يركبا سفينة، فمرَّت بهما سفينة، فاستوقفاها، وركبا فيها، وعرف أهل السفينة الخضر، فأركبوهما بغير أجرة ـ بغير نَوْل كما في الحديث ـ.

ومعرفةُ أهل السفينة للخضر، دليل على أن الخضر كان معروفاً لأهل تلك المنطقة، وكانت له صِلاتٌ اجتماعية، ومعرفةٌ بالآخرين، ولم يكن منعزلاً عنهم، معتزلاً في الكهوف والجبال.

وبينما هما في السفينة، جاء عصفور وأخذ من ماء البحر قطرة بمنقاره.

وأراد الخضر أن يقدِّم مسألة علميّة إلى موسى ويوضِّح له الأمر عن طريق المنطق البرهاني، واستخدام وسائل الإيضاح.

قال له: أتدري كم أخذ العصفور من ماء البحر.

فأجاب موسى: وماذا أخذ؟ إنه لم يأخذ إلا نقطة ماء.

فقال الخضر: ما علمي وعلمُك بالقياس إلى علم الله إلا كما أخذ العصفور من ماء البحر!.

وبينما هما في السفينة، عمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فاقتلعه، وعجب موسى من الأمر، وتساءل عن الموضوع، ووازنه في نفسه، فلم يجد له

معنى. إنه يقود إلى إغراق السفينة وأهلها، وإنه إفساد للسفينة وخرْق لها، وهذا الفعل لا يليق مع الناس الآخرين، فكيف مع هؤلاء أصحاب السفينة الذين أكرموهما؟ أهكذا يقابَل الإكرام والإحسان؟.

لذلك نسي موسى عهدَه مع الخضر، واعترض عليه قائلاً: أخرقْتَها لتغرق أهلها؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾؟.

فذكَّره بما قال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟.

واعتذر موسى عن اعتراضه واعترف بنسيانه، وقال له: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

وعندما ننظر في هذه المسألة فسنستخرج منها بعض اللطائف:

١ ـ إن الأنبياء قد ينسون، ونسيانهم لا ينافي العصمة، قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

وقال الله عن آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

ونسيان الأنبياء من عوارض البشرية، فهم بشر، والنسيان ملازمٌ لبني الإنسان.

وهذا النسيان ليس من الشيطان، لأنه لا سلطان للشيطان على الأنبياء.

وأنت تجد الفرق شاسعاً بين قول «يوشع بن نون»: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.

وبين قول موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

فهناك أسند النسيان إلى الشيطان، بينما موسى أسند النسيان إلى نفسه.

٢ ـ إنكارُ ما يراه الإنسان المسلم مخالفاً للشرع، وعدم السكوت عنه، كما فعل موسى في إنكاره على الخضر فعله.

٣ ـ رؤية المنكر ـ حسب الظاهر ـ أنسَتْ موسى عهده الذي قطعه على نفسه، وهذا من حساسيته تجاهه، ورفضه النفسي له.

٤ ـ خرْق السفينة هو خلع ألواحها. وقد فرَّق العلماء بين الخرق وبين الخلق.

فَالخلْق إيجاد الشيء على سبيل الإصلاح والتقويم، كما في خلق الله للسموات والأرض والإنسان. فخلقُ اللهِ لهذه الأشياء على سبيل الإصلاح والتربية والتقويم.

وقد جمعتْ آية بين الكلمتين: الخلْق والخرْق.

وهـــــــي: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وحروف الكلمتين واجتماعها يوحي بالظلّ الطيب لكل منهما.

فكلمة «خَلَق» مكونة من ثلاثة أحرف، أوسطها «اللام» وعندما ننظر في وظيفة اللام في الكلمة، نرى أنها قامت بدور الإصلاح، حيث كانت توصيلاً، وصّلت بين الخاء والقاف.

أما كلمة «خَرَق» فأوسطها الراء، وهذه الراء توحي بمعنى الخرق وهو الإفساد والتفريق. لأنها فصلت بين الحرفين الخاء والقاف!.

٥ ـ **لتغرق**: هذه اللام لام العاقبة، وليست لام التعليل. لأن عاقبة ونتيجة خرق السفينة هي إغراق أهلها.

وفي قوله: لتغرق أهلها إشارة إلى تكريم الإنسان وتقديمه على المادة والآلة، فالإنسان هو الأكرم والأفضل، وهذا ردٌ على الشيوعية التي تفضّل المادة على الإنسان. كما أن في قوله لتغرق أهلها إشارةٌ إلى عظم الأمر، لأنه سيؤول إلى إغراق أهل السفينة، ولذلك اعترض عليه.

ولما فسر الخضر لموسى سرّ الأمر قال له: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

وفي تعليل الخضر للأمر نستخرج ما يلي:

١ ـ إن المساكين يملكون سفينة، وهذا دليل على أن المسكين قد يملك بعض المال أو المتاع، ولكنه لا يكفيه لقضاء حاجاته. أما الفقير فهو الذي لا يملك شيئاً.

٢ ـ كلمة «وراء» معناها أمام. يعني أن أمامهم ملك ظالم، كلما مرَّت به سفينة صالحة، يأخذها غصباً ونهباً، ويصادرها ويستولي عليها. وما كان موسى ولا غيره يعلمون بذلك، بينما أعلمَ اللهُ الخضر بذلك، وأوحى إليه أن يخرق السفينة ليحافظ عليها.

٣ ـ ونفهم من تصرف الخضر، أن الملك ما كان يأخذ إلا السفينة الصالحة.

٤ ـ وفعْلُ الملك يدل على شيء عجيب، لأن الأصل في وظيفته أن يحافظ على الرعية بأشخاصهم وممتلكاتهم وأموالهم، وأن يكون حامياً لها، وأن يمنع كل من يعتدي عليها، أما أن يتحول هذا المَلِك إلى قاطع طريق، وأنْ يستغلّ منصبه وجيشه ورجاله لتحقيق ذلك الأمر، فهي المصيبة العظمى، والطامَّةُ الكبرى.

٥ ـ عند فساد الحكام، لا ينقذ الناس إلا الدعاة والمصلحون، حيث يكونون هم الأمل والمنقذين، الذين يقفون في وجه الظلم والفساد والطغيان، كما فعل الخضر.

٦ ـ وهناك لفتة لطيفة، وهي: إن الخضر حافَظَ على السفينة عن طريق خرقها، فقد يستدعي الإصلاحُ الشاملُ القيامَ ببعض الفساد الجزئي، وقد يختلط الإصلاح ببعض الإفساد، فإذا كان الأمر كذلك، فإن المصلح يجد نفسه مضطراً لذلك.

إن الإسلام يوجبُ إقامة الحدود للحفاظ على الأمة والدين والأخلاق، فقَتلُ القاتل ورجْمُ الزاني وقطْعُ السارق، في ظاهره إفساد وإزهاق للأرواح، لكنه ضروري للحصول على الإصلاح.

○ الخضر وقتل الغلام:

اعتذر موسى للخضر ﷺ عن نسيانه.

وانطلقا.

وخرجا من السفينة. وسارا على شاطئ البحر، فوجدا مجموعة من

الغلمان يلعبون معاً، فنظر الخضر إلى غلام منهم، حدث صغير، فأقبل عليه فقتل رأسه فقتله. ومات الغلام بين يديه.

ودهش موسى مما رأى وتعجب، واستغرب كيف يُقبِل الخضر النبي على غلام صغير لم يرتكب خطأ ولا جريمة، فيقتله.

لذلك توجّه إلى الخضر منكراً فعله: قال: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً.

هنا ذكَّر الخضر موسى عليه السلام بما قال له من قبل، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً.

وكأن الخضر يذكّر موسى بأنه يتوقع منه الاعتراض والإنكار، لأنه سيرى منه أشياء لا تُقبَل، عندما ينظر إليها نظرة ظاهرية خارجية.

وشعر موسى بتعجُّله في الإنكار، وعدم صبره على ما قطعه على نفسه وخجل من كثرة تعجله وإنكاره ولوم وعتب الخضر عليه. فقال له: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

وعندما علّل الخضر لموسى فعله مع الغلام وقتله له. قال له: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

ونقف وقفة سريعة نستخرج بعض اللفتات من هذه الآيات:

١ ـ قتل الخضر للغلام الصغير في ظاهره أمر يدعو للإنكار، ولذلك أنكره موسى عليه السلام. وإنكارُ موسى لذلك الفعل دعوةٌ لنا إلى إنكار المنكر، والجهر بالإنكار.

٢ ـ قول موسى للخضر: «أقتلت نفساً زكية بغير نفس» فيه دلالة على القتل المشروع شرعاً، وهو قتل النفس بالنفس، وذلك أن موسى أنكر قتل الغلام لأنه لا يستحق القتل إذ أنه لم يَقْتل شخصاً آخر ليُقْتَل به.

ومعروف أن الكتاب والسنة صريحان على القصاص وقتل النفس بالنفس. لكن معرفة موسى عليه السلام بذلك، دليلٌ على أن حكم الله في التوراة هو القتل قصاصاً.

وهذا ما أشار إليه القرآن بصراحة. وذلك في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

كتبنا عليهم: يعني على بني إسرائيل.

فيها: يعني في التوراة.

ماذا كتب عليهم فيها: القصاص: النفس بالنفس... الخ.

وفي هذا دلالةٌ أخرى على اتفاق الكتب السماوية في كثير من الأحكام والتشريعات.

٣ ـ فرَّق موسى في اعتراضه على فعل الخضر. فعندما خرق السفينة قال له: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ بينما قال هنا: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

إمراً: فظيعاً.

نكراً: يدعو للإنكار لنكارته.

«نكراً» أبلغ في الإنكار من «إمراً». وكأنها مرحلة ثانية في الإنكار، أشدُّ من المرحلة الأولى. وما ذلك إلا للفعلين الصادرين. فأيهما ـ في ظاهره ـ أفظع؟ خرْق السفينة أم قتل الغلام؟ لا شك أن قتل الغلام أفظع. لذلك عبّر بكلمة أبلغ في الإنكار.

٤ ـ كلمة «نكراً» تعني أن الفعل يدعو للإنكار من قِبَل الناس، لأنه خطأ وباطل من حيث الظاهر.

لكن هل قتْل الغلام في الحقيقة خطأ؟ كلا. بل هو صواب. وخاصة بعدما بيّن الخضر سرّ الغيب الذي أخبره الله به، وهو أنه لو كبر لكان كافراً.

ولهذا المعنى وردت كلمة «نكراً» وليس «منكراً».

والفرق بين «النُكر» و«المُنْكر» في السياق القرآني:

أنّ النكر: هو ما يظنه الناس باطلاً يستحق الإنكار. بينما هو حق وصواب في ميزان الله وحكمه.

أما المنكر: فهو المرفوض والباطل والخطأ في ميزان الله، وإنْ رضيه بعض الناس وقبلوه.

وأساس اعتبار الأمر معروفاً أو منكراً، هو تقريرُ الإسلام، وبيانُ الكتاب أو السنة، وليس رضى الناس أو عدم رضاهم[1].

٥ ـ قال الخضر لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ بينما قال له لما اعترض على خرقه السفينة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾. فنلاحظ هنا أنه زاد كلمة «لك» وهذه الزيادة للتأكيد.

أكّد له ما قاله له عندما التقيا. ذلك لأن موسى أنكر الإنكار الثاني، فكأنَّ الخضر يقوله له: ألم أقل لك، لك أنت.

إنني أعرف أنك لن تصبر معي، وأنك ستعترض، لقد قلتُ ذلك لك، لك أنت.

٦ ـ شعور موسى بالحياء من اعتراضه على الخضر، ولذلك قال له: إنْ سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني. وفي هذا تعجُّلٌ من موسى عليه السلام.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «رَحْمَةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجَّل لرأى العجب، ولكن أخذته من صاحبه ذِمامَة».

وفي هذا تصريح بأنه لو استمر معه لرأى أشياء عجيبة، وقدم لنا تلك العجائب، وأمتعنا بها.

ولكنه استحيى من اعتراضاته، والذمامة هي الحياء.

٧ ـ بيَّن الخضر أن الذي دفعه إلى قتل الغلام، هو إيمانُ أبويْه، وكُفْره فيما لو بقي حتى يكبر، فهما مؤمنان، ومع ذلك أنجبا ولداً غيرَ مؤمن. وهذا يدل على أن الصالح قد يكون له أبناءٌ غيرُ صالحين، وقد يكونون كافرين. ولا يعني هذا أن يُقصر الأب الصالح في نصح أبنائه، وتربيتهم وتوجيههم وتقويمهم، فهذا واجب عليه، وهو مقصِّر آثم إن لم يقم به.

---

(١) انظر: كتابنا «لطائف قرآنية».

لكنه قد يقوم بهذا، وقد يبذل جهده في هذا، ومع ذلك قد لا يستجيب أحد أبنائه له. وقد يختار طريقاً غير طريق أبيه، فيكون كافراً أو عاصياً. فإذا فعل الابن ذلك فإن الأب قد يعجز عن صَرْفه عنه. ولا يُلام في ذلك.

إن الأب مطالبٌ بدعوةِ ابنه ونصحه، ولكنه غيرُ مطالب بقذف الإيمان في قلبه، وجعْله فيه، لأنه لا يملك ذلك، فهو بيد الله وحده.

٨ ـ إن الأب الصالح لا يرضى ولا يقبل أن يكون أحد أبنائه كافراً أو فاجراً عاصياً. بل سيتألم ويحزن ويتعذب. وهذا ما يشير إليه قول الخضر: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

يرهقهما بطغيانه وكفره، أي يزعجهما ويتعبهما ويقلقهم ويحزنهما.

وكم يحزن الأب ويتألم ويتعذب ويقلق، عندما يشذ ابنه عن الحق، ويرفض دعوة الخير، ويتمنى لو لم ينجب ذلك الابن، لكن ماذا يفعل، وقد ابتلاه الله بذلك، ولو جاز له قتلُهُ لقتَلَه!!.

إن الأب الصالح يحب أن يكون ابنه خيْراً منه، وأكثرَ منه صلاحاً وعبادة، ويسعى إلى ذلك، ويوجِّه ابنه إليه. وكم تُسرُّ عينه وتنشرح نفسه عندما يرى ذلك. وبالمقابل كم يشعر بالخسارة والألم، والإرهاق والتعب المستمر إنْ رفض ابنه ذلك.

٩ ـ أحياناً يكون موتُ الابن الضال راحةً لوالديْه، وفرجاً لهما. كما قال الخضر: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ فإذا مات ذلك الضال فيَطلبُ الوالدان من الله العوض، ويسألان الله أن يبدلهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

إن العبرة ليست بعدد الأبناء، بل العبرةُ بما عليه هؤلاء الأبناء من طاعة وعبادة، وحسنِ معاملة، ورفعةِ خلق، وبرٍّ بالوالدين. فواحد أو اثنان من الأبناء يتصفون بهذه الفضائل، خيرٌ من ستة أو عشرة لا يتصفون بها.

١٠ ـ نشير إلى أنه لا يجوز لأحدنا أن يقتدي بالخضر في هذا الفعل. لا يجوز لشخص أن يقتل غلاماً، بحجة أنه يعرف أنه سيكفر إن كبر. إن الله هو

الذي أخبر الخضر بذلك، وكشف له عن مستقبل الغلام، لأن مستقبله من الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، والله يكشف منه ما شاء لمن شاء من رسله.

أما الناس الآخرون من غير الرسل، فإنهم لا يعلمون الغيب. فَمَنْ أدرى هذا الشخص بأن الغلام الذي أمامه سيكون كافراً؟ ولا وحي بعد رسول الله ﷺ؟.

○ الخضر والجدار والكنز:

قَبِل الخضر اعتذار موسى عليه السلام.

وانطلقا.

وبقيتْ واحدة لموسى عليه السلام. فإذا ما اعترض على أمر ما فما عليه إلا أن يفارق الخضر. أليس هذا ما قاله له: «إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني».

وهكذا كان!.

حيث مرّا على قرية بخيلة ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾.

فتعجب موسى من ذلك، واعتبر أن أهل القرية لا يستحقون هذا المعروف الجميل فاعترض على ذلك، وقال للخضر: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. فأعلن له الخضر فراقَه له: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾.

ولما بيَّن له الحكمة من بناء الجدار قال له: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

ونستخرج من هذه الآيات هذه اللفتات:

١ ـ أهل القرية بخلاء، وصَلُوا الغاية في البخل. إذ مرّ بهم رجلان غريبان لا يملكان الطعام. فالأصل أن يكرمهما أهل القرية بتقديم الطعام لهما، بدون أن يطلبا منهم ذلك.

ولكنهم لم يفعلوا. مما اضطر الخضر وموسى أن يَسْتَطْعِما أولئك الناس، وأن يطلبا منهم الطعام ليأكلاه. ولكنهم لشدة بُخْلهم رفضوا تقديم الطعام، وأبوا أن يضيفوهما.

٢ ـ وجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ. أي أن الجدار على وشك السقوط. واللطيف في التعبير القرآني أنه نسب الإِرادة للجدار.

وقد قال بعض العلماء: إن هذا من باب المجاز في القرآن. وإلّا فإِنّ الجدار ـ وهو الجامد الأصم ـ لا إرادة له، لأن الإِرادة من صفات الأحياء. والراجح أن الأمر ليس من باب المجاز، بل من باب الحقيقة! فكل مخلوق له إرادة، ولو كان نباتاً أو جماداً. ولكن هذه الإِرادة قطعاً ليست كإرادة البشر أو باقي الأحياء!.

ثم من قال بأن الجدار ميت؟ إن فيه حياة، تليق به وتكون بمستواه، وهي قطعاً ليست كحياة الأحياء.

فيه حياة لست كحياة الأحياء. ومن ثَمَّ له إرادة، ليست كإرادة الأحياء. ونلاحظ أن هذه العبارة «جداراً يريد أن ينقض» فيه تصوير فني رائع، وفيه تشخيصٌ للجدار، حيث جعل له صفة من صفات الأحياء ـ وهي الإِرادة ـ وعندما نمعن النظر في الصورة، نكاد نرى الجدار يهم بالسقوط، ويوشك على الوقوع، لولا إصلاح الخضر له.

٣ ـ إقامةُ الخضر للجدار دون أن يطلب أحد منه ذلك، ودون أن يتفق مع أحد على أُجرة، يوحي بأن المسلم راغبٌ في فعل الخير، حريص على تقديم المساعدة للآخرين، ولو لم يطلبوا منه ذلك، إن المسلم خَيِّرٌ فاعِلٌ معطاءٌ نشيط اجتماعي.

كما يوحي أيضاً بأن فعل الخير لا يحتاج إلى إذن، فطالما أن أمام المسلم فرصة للخير والمساعدة، فلْينتهزْها ولْيقم بها.

ويوحي أيضاً بجواز العمل الخيري التطوعي، بدون اتفاق، وبدون أجر أو انتظار مكافأة.

ولا بد للمسلم أن يُعوّد نفسه على هذا، وأن يكون باراً بالآخرين نافعاً لهم.

٤ ـ كان الخضر على حق في إصلاح الجدار وبنائه، لأن الله أعلمه بوجود كنز تحت الجدار، فلو سقط الجدار، ورأى أهلُ القرية البخلاءُ الكنزَ لاستولوا عليه.

٥ ـ كان الكنز لغلامين يتيمين في المدينة، وكانا صغيرين، فلو كُشف الكنز لعجزا عن أخذه واسترداده من بين أهل القرية، ولذلك بنى الخضر الجدار إلى أن يكبرا.

٦ ـ يدل قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ على أن صلاح الآباء له أثر على حفظ الأبناء وصلاحهم. فبصلاح الأب ساق الله الخضر ليبني الجدار للغلامين.

والقرآن يوحي بهذا. كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩].

٧ ـ إخفاء الرجل الصالح للمال تحت الجدار، يدل على جواز كنز المال، وتوفيره، وادّخاره لوقت الحاجة، بل الأَوْلى للمسلم أن يدّخر جزءاً من ماله للمفاجآت والطوارئ، وهذا لا يتناقض مع التوكل على الله.

○ رحمة من ربك:

بعد أن كشف الخضر لموسى سرَّ أفعاله الثلاثة، وبيَّن له حقيقتها، عرَف موسى أن الخضر على حق في ما فعل، وأيقن أن المصلحة هي في ما قام به.

وأخبره الخضر بأن هذه الأفعال الثلاثة ليست في الحقيقة منه، وإنما هي من أمر الله.

وعقَّب الخضر على أفعاله بأنها رحمة من الله، ولذلك قال له: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

وذكْرُ الرحمة الربانية هنا له دلالته وإيحاؤه، كما أنه مرتبط في أول

القصة، عندما أخبر الله عن الخضر ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾.

فأفعال الخضر الثلاثة مسبوقة برحمة الله ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾.

ومختومة بالرحمة الربانية ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾.

وهذا يعني أنها من مظاهر رحمة الله.

فخرْق السفينة رحمة من الله لأصحابها المساكين، لأنها بهذا الخرق سلمت من مصادرة الملك الظالم. ولو لم تُخرق لصودرت.

وقتْل الغلام رحمة من الله لوالديه، حيث سيعوضهما خيراً منه ولو لم يُقتل لأرهقهما طغياناً وكفراً.

وبناء الجدار رحمة من الله، لأنه به يُحفظ كنز الغلاميْن اليتيميْن في المدينة، ولو لم يُبن الجدار، لانكشف الكنز وسلبه البخلاء في القرية.

والمهم أن هذه الرحمة الربانية في التصرفات الثلاثة، قد لا تكون مفهومة عند المراقبين، الذين ينظرون للفعل من الظاهر، بل قد يبدو التصرف الذي يحققها مستنكَراً لأول وهلة، كما أنكر موسى على الخضر تصرفاته. وهذا يعني أن الرحمة قد تكون في صورة عكس ما يراها الناس، وعكس ما يتوقعونها. وبهذه المناسبة نقرر أن كل أفعال الله بالمؤمن هي رحمة منه له. إن الله يرحم المؤمن عندما يمنحه النعمة، كما أنه يرحمه عندما يبتليه بالنقمة، فالمؤمن مرحوم في السراء، ومرحوم في الضراء، مرحوم في كل ما يصيبه من قدر الله، على شرط أن يعرف هذه الحقيقة، وأن يلحظ الرحمة الربانية الغامرة في كل ما يصيبه.

وفي موضوع الخضر عليه السلام كانت الرحمة الأولى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ من باب التعريف به. بينما كانت الرحمة الثانية: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ من باب التعليل لأعماله، أوْ قل: الرحمةُ الثانية عبارة عن تفسير عملي وتطبيق واقعي ومظهر خارجي للرحمة الأولى.

○ وما فعلتُه عن أمري:

اعترف الخضر لموسى بأن هذه الأفعال الثلاثة التي قام بها ليست من عنده، ولا باختياره واجتهاده، إنما هي بأمر الله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾.

وقد أخذنا من هذه العبارة دلالةً على نبوة الخضر ﷺ، فذلك ليس عن أمره واجتهاده، بل بأمر الله ووحيه إليه.

ويمكننا أن نقرن بينه وبين قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ فكانت هذه التصرفات الثلاثة مظهراً خارجياً لعلم الله اللدنّي الذي علّمه له.

فمِنْ صُوَر علم الله له، أنه عرّفه بحقيقة ما يراه أمامه من أحداث، وتلك الحقيقة تخالف الصورة الظاهرية لها. وفيها تكمن المصلحة.

وكأن تصرفات الخضر تدعونا إلى أن نُعدِّل نظرتنا إلى ما نراه أمامنا من مظاهر وأشكال، وأحداث وتصرفات. فبعضُنا تكون نظرته قصيرة قاصرة، لا ترى إلا ما برز من تلك الأحداث، وتعتبرها هي كل شيء فيها.

إننا مطالَبون أن تكون نظرتنا لتلك الأحداث أعمقَ وأنفذَ وأدق، وأن لا تخدعنا الصورة الظاهرية عن محاولة الوصول لكُنْهِ الشيء وحقيقته.

فكثيرة هي المظاهر الخادعة، وكثيراً ما يغشاها تزوير وزخرف وتمويه، وكثيرون يُخدَعون بها. لكن المؤمن عميقُ النظرة، صادقُ التحليل صائبُ التقويم.

○ التأويل في القصة:

نقف وقفة أمام التأويل في قصة موسى مع الخضر.

فعندما أعلن الخضر عن مفارقته لموسى قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي سأخبرك عن حقيقة ما رأيتَه من التصرفات والأفعال.

ولما أخبره بذلك، وكشف له عن الحقيقة، قال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وهذا يقودنا إلى معرفة معنى «التأويل» في الاصطلاح القرآني.

قال عنه الإمام الراغب الأصفهاني: «التأويلُ من الأَوْل. أي الرجوعُ إلى الأصل. ومنه المُوْئِل للموضع الذي يُرجَع إليه.

وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادَة منه علماً كان أو فعلاً»[1].

وكلمة «تأويل» في كل استعمالاتها في السياق القرآني لا تخرج عن هذا المعنى. فقد وردت سبع عشرة مرة في القرآن. منها ثماني مرات في سورة يوسف.

ولعل الحكمة من ورودها في سورة يوسف بهذا العدد، هي أنَّ صُلبَ السورة وموضوعَها هو التأويل. حيث بدأت بذكر رؤيا يوسف عليه السلام وهو صغير. وأخبره والده يعقوب عليه السلام بأن الله سوف يعلّمه تأويل الأحاديث ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦] ولما تحققت رؤيا يوسف عملياً، ولما تم تأويلها واقعياً، ولما دخل عليه أبوَاهُ وإخوته، قال يوسف لأبيه عليه السلام: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠].

التأويلُ هو بيان مرجع الشيء وحقيقته، وتحويل الخبر إلى واقع، والنظرية إلى تطبيق، والصورة إلى شيء مادي، فرؤيا يوسف بقيتْ رؤيا منامية، لكنها لما تحققت في عالم الواقع صارت تأويلاً، فتأويلُها هو تحقيقُها ووقوعُها.

وكذلك ما عندنا في قصة موسى مع الخضر.

قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ أي سأنبئك بحقيقة ما رأيتَ من أحداث، أنبئكَ بحقيقة ذلك الذي أنكرتَ عليَّ فيه، حتى تعرف أن الحقَّ والصوابَ فيما فعلت.

ولما فسَّر له الأشياء، وأوّل له ما رأى، وبيّن له الحقيقة التي كانت مخفيّة عنه قال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾. أي هذه حقيقة ما رأيتَ من الأحداث.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣١.

فالتأويل إذن هو بيان الحقيقة والمرجع والمصير والنهاية، أو قل: هو وقوع الأمر كما أُخبر عنه، وحصول صورته الظاهرية الخارجية العملية، وتحويل الخبر إلى واقع، والنظريةِ إلى تطبيق.

○ «تستطع.. وتسطع»:

من اللطائف في هذه القصة، إثباتُ التاء في «تستطع» أولاً، ثم حذفُها من نفس الكلمة ثانياً «تسطع».

قال الخضر لموسى عليه السلام قبل أن يفسر له الأحداث التي رآها: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

ولما أخبره عن ذلك، حذف التاء من الكلمة، فقال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

فلماذا حَذَف التاءَ من الكلمة عند ورودها مرة أخرى؟.

هذه التاء المحذوفة يمكن أن نسميها «تاء الخفة»، والالتفات إلى الحكمة من حذفها يكون من باب التفسير النفسي للآيات، أو تفسيرها وفق حقائق علم النفس التحليلي.

إثباتُها أولاً: يوافق الحالة النفسية التي كان يعيشها موسى عليه السلام، حيث كانت الأفعالُ الثلاثة ثقيلةً على نفسه، لا يعرف حكمتها، ولهذا ذُكرت التاء لتثقِّل الكلمة حتى تكون موافقة لثقل نفسية موسى.

فلما عرف حقيقة الحوادث زال الثقلُ النفسي عنه، وخف حمله النفسي لها، فحُذفت التاء تخفيفاً، ولتوافق خفةُ الكلمة الخفةَ النفسية التي فيها موسى بعد التفسير ـ والله أعلم ـ.

○ أردت. أردنا. أراد ربك:

ومن لطائف التعبير القرآني عن القصة، ما قاله الخضر لموسى عليه السلام وهو يعلِّل له الأفعال التي قام بها. حيث عبّر عن الإرادة بثلاث حالات.

عن خرْقه السفينة قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾.

وعن قتله الغلام ورغبته في مجيء غلام صالح بدله، قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

وعن بنائه الجدار لحفظ الكنز إلى أن يكبر الغلامان اليتيمان قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

فجاءت الإرادة في هذه الصور: أردت. أردنا. أراد ربك.

حيث أسند الفعل الماضي أول مرة إلى الخضر «أردت». وأسند نفس الفعل في المرة الثانية إلى الله وإلى الخضر «فأردنا».

أما في المرة الثالثة، فقد أسند الفعل نفسه إلى الله وحده ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

وإذا حاولنا تسجيلَ ما يبدو لنا من حكمة حول ذلك. نقول:

١ ـ هناك تدرُّجٌ في المرات الثلاث، حيث يترقى في كل مرة إلى صورة أخرى. فنسب الإِرادة إلى نفسه أولاً. ثم نسبها إليه وإلى الله ثانياً، وأخيراً نسبها إلى الله وحده.

٢ ـ الاختلاف في النسبة حسب الحالة التي يتحدث عنها. ويتفق مع الأدب مع الله، ومع إيحاءات الإِيمان وتقريراته.

أسند الإرادة إلى نفسه أولاً، لأن خرق السفينة أمرٌ غير مقبول، وهو تخريب ـ حسب الظاهر ـ ولعله لهذا المعنى، لا يليق أن تسند هذه الإِرادة إلى الله.

كذلك لاحِظْ ما هو المراد؟ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، إِن الإِرادة هي عيب السفينة. وعيبُها تخريبُها بخرقها وقلعِ لوح منها، ولذلك لا يليق أن تُسند هذه الإِرادة إلى الله. لا يليق أن يقال: «أراد ربك أن يعيبها».

ومن هذا القبيل أدب إبراهيم عليه السلام في إخباره عن الله، عندما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨١] حيث أسند كلَّ الأفعال إلى الله، إلا المرض فإنه أسنده إلى نفسه، ونسبه إليه.

أما في المرة الثانية، فإن الأنسب هو إسنادُ الإرادة إلى الله وإلى الخضر.

أُسندت الإرادة إلى الخضر، باعتباره هو السبب في قتل الغلام، والذي قام بذلك القتل. لماذا قتله؟ لأنه يريد أن يُعوضهما الله من هو خير منه، إذن للخضر إرادة في ذلك العوض.

لكن هل الخضر يقدر على تحقيق هذه الإرادة؟ الجواب بالنفي، لأن تحقيقَها إنما هو بيد الله، وحده ـ سبحانه ـ.

حتى الأب والأم، يريدان إنجابَ الولد، ولكنهما غيرُ قادرَيْن على تحقيق هذه الإرادة في عالم الواقع. فما عليهما إلا الأخذ بالأسباب والالتقاء والمعاشرة، أما تقدير الولد وحياته فهذا عند الله وحده سبحانه.

ونظراً لهذا المعنى، أسند الإرادة ـ في بُعْدها الثاني هنا ـ إلى الله، على اعتبار أن الله وحده هو القادر على تحقيق ذلك، وجعْل المولود يخرج إلى عالم الوجود والحياة.

ولذلك أسند الإرادة إلى الخضر بذلك الاعتبار، كما أسندها إلى الله بهذا الاعتبار.

أما في المرة الثالثة فإن الإرادة أُسندت إلى الله وحده، والسياق يحدد أنها لا تُنسب إلا إلى الله وحده، لأنه لا يقدر على تحقيق الإرادة فيها إلا الله وحده.

هما غلامان صغيران يتيمان. لكن مَنْ يضمن لهما أن يعيشا حتى يكبرا ويبلغا أشدَّهما، ليستخرجا كنزهما؟ لا أحد يقدر على ذلك ولا أن يضمنه، لأن المستقبل بيد الله وحده، والعمر بيد الله وحده.

ولذلك قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ وطالما أن الله يريد ذلك، فإنه سيقع لا محالة، لأن ما أراده الله فلا بد أن يكون. والله أعلم.

* * *



قِصَّة ذِي القَرْنَيْن

○ القصة في العرض القرآني:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

[الكهف: ٨٣ ـ ٩٨].

○ تفسير كلمات الآيات:

سأتلو عليكم منه ذِكْراً	: سأخبركم عنه بآيات من القرآن.
مكَّنّا له	: أعطيناهُ سلطاناً عظيماً.
آتيناه من كل شيء سبباً	: يسَّرْنا له أسباب الحكم والفتح.

فأَتبَعَ سبباً	: استفاد من تلك الأسباب، وسلك طريقاً يوصله للمغرب.
تغرب في عين حمئة	: وذلك حسب ما يراها الناظر لها من بعيد.
عين حمئة	: عينُ ماءٍ مختلطة بالطين الأسود.
قلنا يا ذا القرنين	: إما إلهاماً من الله، أو عن طريق نبي معه في الجيش، والأول أرجح.
من ظلم	: الظلم هنا معناه الكفر.
عذاباً نُكْراً	: عذاباً فظيعاً منكراً حسب ما يبدو للناس.
ثم أَتبَعَ سبباً	: سار الرحلة الثانية باتجاه الشرق.
لم نجعل لهم من دونها ستراً	: لا يسترها عنهم تل ولا جبل ولا شيء.
أحطنا بما لديه خُبراً	: أحطنا به علماً.
ثم أَتبَعَ سبباً	: سار الرحلة الثالثة باتجاه الشمال.
بين السَّدَّين	: بين الجبلين العاليين.
لا يكادون يفقهون قولاً	: لتخلفهم يصعب التفاهم معهم.
يأجوج ومأجوج	: اسمان لقبيلتين تسكنان أواسط آسيا.
نجعل لك خرجاً	: نعطيك مالاً معيناً.
بيننا وبينهم سداً	: حاجزاً منيعاً فلا يَصِلون إلينا.
أعينوني بقوة	: ساعدوني بالأيدي العاملة.
بينكم وبينهم ردماً	: حاجزاً حصيناً منيعاً.
آتوني زُبَرَ الحديد	: قطع الحديد الكبيرة.
ساوى بين الصدفين	: وصل الحديد بين قمتي الجبلين العاليين.
قال انفخوا	: أشعلوا النار تحت الحديد.
أفرغ عليه قطرا	: أضع فوق الحديد المصهور نحاساً مُذاباً ليختلط به.

ما اسطاعوا أن يظهروه	: عجزوا عن الصعود على ظهر السد.
ما استطاعوا له نقباً	: عجزوا عن نقضه وخرقه.
هذا رحمةٌ من ربي	: يحجز عنكم يأجوج ومأجوج بإذن ربي.
إذا جاء وعد ربي	: عندما يريد الله تدمير السد.
جعله دكّاء	: نقضه ودكّه وسوّاه بالأرض.

○ إشكالاتٌ في قصة ذي القرنين:

هناك إشكالاتٌ تُثار حول قصة ذي القرنين ورحلاته والسّد الذي بناه، ويأجوج ومأجوج.

وهذه الإِشكالات تدخل في تفصيلات أحداث القصة، وتبحث في مبهماتها، ومنها:

١ - مَنْ هو ذو القرنين، وما هي شخصيته، وما هي حياته.

٢ - الزمن الذي عاش فيه، والدولة التي حكمها، والحروب التي خاضها، والبلاد التي فتحها.

٣ - رحلتُه الأولى باتجاه الغرب، وتحديد المنطقة التي وصل إليها، وتحديد المكان ذي العين الحمئة، وكيف وجد الشمس تغرب فيها.

٤ - رحلته الثانية نحو الشرق، والبلاد التي قطعها، والمكان الذي وصل إليه، وكيف وجد الشمس تطلع عليهم. وكيف لم يجعل لهم من دونها ستراً.

٥ - المنطقة التي وصلها في رحلته الثالثة نحو الشمال. وتحديد منطقة بين السدين بالضبط، وتحديد جنس أهلها المتخلفين.

٦ - أصل يأجوج ومأجوج، وتاريخهم، ومناطق سكنهم وإقامتهم بالضبط.

٧ - تفصيلات وكيفية بناء السد، وطوله وعرضه وارتفاعه.

٨ - هل دُمِّر السد وخرج منه يأجوج ومأجوج، أم بقي موجوداً، وأنه لن يُنقض، ولن يخرجوا منه إلا قبيل قيام الساعة.

٩ - معنى قول ذي القرنين: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾.

١٠ ـ هل خروج جنكيز خان وهولاكو هو حلقة من حلقات خروج يأجوج ومأجوج؟.

إلى غير ذلك من التساؤلات، التي تثيرها هذه الإشكالات.

○ تفصيلات قصة ذي القرنين لُغْزٌ محيِّر:

وقف المؤرِّخون والمفسرون جميعاً أمام قصة ذي القرنين، وكثيرٌ منهم حاولوا بيان ما فيها من مبهمَات، وتحديد تفصيلاتها التاريخية والواقعية. وأوردوا في ذلك أقوالاً كثيرة، غالبُها مأخوذ من الإسرائيليات وأخبارِ أهل الكتاب، وفيه خرافات وأساطير وأقاويل وأباطيل.

وقد نتج عن ذلك تشعُّبُ البحث في تفصيلات القصة، والاختلافُ الشديد بين المؤرِّخين والمفسرين فيها، وجدالُهم ونقاشهم حولها.

وبعض الكُتَّاب أفردوا كتباً، خصصوها للبحث في التفصيلات، وتحديد مكان وزمان وأحداث أبطال القصة ووقائعها.

من هذه الكتب:

١ ـ ذو القرنين وسَدُّ الصين لمحمد راغب الطبّاخ. أستاذ التاريخ والحديث في الكلية الشرعية بحلب، وقد طبع الكتاب ١٩٤٩م.

٢ ـ يسألونك عن ذي القرنين. لأبي الكلام آزاد. أولُ وزير معارف للهند بعد استقلالها. وكتب له مقدمة طويلة مملَّة. الشيخ أحمد حسن الباقوري. وصدر عن دار الشعب بالقاهرة عام ١٩٧٢م.

٣ ـ مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: قصة ذي القرنين. للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر. طباعة دار الشروق عام ١٩٨١م.

٤ ـ ذو القرنين: القائد الفاتح والحاكم الصالح. لمحمد خير رمضان يوسف. طباعة دار القلم، عام ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦. وهو أحدث تلك الكتب، وأكثرها جمعاً وتحقيقاً، ولدى مطالعة كتاب محمد خير يوسف، نزداد يقيناً بأن قصة ذي القرنين فعلاً لغزٌ محيّر.

وقد ذَكَر في مقدمة الكتاب بأنه لما فكَّر في بحث قصة ذي القرنين، استشار عالماً ثقة، فقال له:

«ما رأيك يا أستاذ أن أكتب عن ذي القرنين؟.

قال: لا تفعل!.

فاستغرب وقال: لماذا؟.

فأجابه العالم: لأنك لن تصل إلى نتيجة»[1].

لكنه سار في بحثه، وجمع وحَلَّل وناقش، وألّف كتاباً كبيراً.

ولكنه لم يستطع تحديدَ شخصية ذي القرنين، الذي هو صُلْب البحث، وكأنه لم يصل في شأنه إلى نتيجة مقبولة، متفقة مع البحث العلمي المنهجي الموضوعي.

فعلاً: إن قصةَ ذي القرنين لغزٌ محيّر.

○ ذو القرنين في الأحاديث الصحيحة:

وبما أن قصته لغزٌ محيّر، فعلينا أن نبحث عنها في المصادر اليقينية، الصحيحة، التي لا يتطرق إليها شك أو تحريف، ولن يكون هذا إلا للمصدريْن الأساسييْن: الكتاب والسنة.

أمّا في الكتاب الكريم فلا يوجد ذِكْر لذي القرنين إلا في سورة الكهف، وهي الآيات التي نتحدث عنها، وليس فيها تفصيلات عنه، ولا إجابات على الأسئلة التي توجَّه إلى قصته.

وأما في الأحاديث، فلا توجَد أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ تتحدث عن ذي القرنين، ولا عن رحلاته الثلاث، ولا عن تعيين اسمه، أو تحديد زمنه.

وبما أن هذيْن المصدريْن لم يتحدثا بالتفصيل عنه، فكيف نعرف نحن

---

(١) ذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٩.

تفصيلات حياته، ومن هو ذلك الشخص الذي يستطيع أن يقول شيئاً عن أحداث ماضية وأشخاص ماضين، أصبحوا من غيب الماضي وأصبح الحديث عنهم من باب القول في الغيب؟ أيُّ شخص يستطيع أن يقول عن تلك الغيوب التي سكت عنها القرآن الكريم والحديث الصحيح والصحابة الكرام؟ لذلك فنحن مطالَبون، في نظرنا في قصة ذي القرنين، أن نَبقى مع إيحاء الآيات القرآنية، وأن نقف عند دلالة الأحاديث النبوية الصحيحة وأن نسكت عما سكتا عنه.

قلنا: إن الأحاديث الصحيحة لم تتحدث عنه.

لكن الإمام البخاري تحدث عن الآيات التي أشارت إليه في كتاب الأنبياء وقبل حديثه عن إبراهيم عليه السلام.

ورتَّبَ أبواب كتابه «أحاديث الأنبياء» من جامعه الصحيح كما يلي:

١ ـ باب خلق آدم وذريته.

٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة.

٣ ـ باب قول الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

٤ ـ باب ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٥ ـ باب ذكر إدريس عليه السلام.

٦ ـ باب قول الله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾.

٧ ـ باب قصة يأجوج ومأجوج.

٨ ـ باب قول الله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[1].

إلى آخر أبواب الكتاب.

○ مناقشة البخاري وابن حجر:

وقد فهم الإمامُ ابن حجر من ترتيب البخاري المذكور أن البخاري يرى أن ذا القرنين كان قبل إبراهيم عليه السلام، أو معاصراً له.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، طبعة محمد علي صبيح ٢: ١٥٩ ـ ١٦٩.

قال ابن حجر في الفتح: «وفي إيراد المصنف ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم إشارةٌ إلى توهين قَوْل من زَعَمَ أنه الإسكندر اليوناني، لأن الإسكندر كان قريباً من عيسى عليه السلام، وبيْن زمن إبراهيم وعيسى أكثر من ألفي سنة»[1].

صحيح أن الإسكندر ليس هو ذا القرنين، لكن لا يوجد دليل صحيح على أن ذا القرنين كان قبل إبراهيم عليه السلام أو معاصراً له.

وترتيبُ الإمام البخاري المذكور، وذِكْرُ ذي القرنين قبل إبراهيم، ليس توقيفياً، بل هو اجتهادي حسب ما قاده له اجتهاده، وليس عليه حديث صحيح ولذلك نحن مضطرون إلى عدم القول به، لأنه من باب القول في غيب الماضين بدون دليل، نرفض اجتهادَ البخاري في ترتيبه مع إجلالِنا له واعترافِنا بفضله وعلمه رضي الله عنه.

وقد تابع الإمامُ ابن حجر الإمامَ البخاري في اجتهاده، وذهب إلى أن ذا القرنين كان مع إبراهيم. وذلك حيث يقول: «والحق أن الذي قص الله نبأه في القرآن هو المتقدم».

ثم ذَكَرَ أدلة على ترجيحه هذا. منها:

قولُ عُبَيْد بن عُمَيْر التابعي: «إن ذا القرنين حج ماشياً، فسمع به إبراهيم فتلقاه».

قولُ ابن عباس: «إن ذا القرنين دخل المسجد الحرام، فسلَّم على إبراهيم، وصافحه».

قولُ عثمان بن ساج: «إن ذا القرنين سأل إبراهيم عليه السلام أن يدعو له. فقال: كيف وقد أفسدتم بئري؟ قال: لم يكن ذلك عن أمري».

قولُ ابن هشام: «إن إبراهيم تحاكم إلى ذي القرنين في شيء، فحكم له»[2].

وعندما ننظر في أدلة الإمام ابن حجر، لا نرى فيها واحداً يلزمنا أن

---

(١) فتح الباري: ٦: ٣٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٦: ٣٨٢.

نأخذ به، بل إننا مضطرون إلى رفضها كلها، وعدم القول بها، لأنه لا يوجد واحد منها، مرفوع إلى رسول الله ﷺ، ونحن في قصص السابقين لا نأخذ إلا حديثاً مرفوعاً صحيحاً فقط!.

○ سدُّ ذي القرنين في الأحاديث الصحيحة:

بنى ذو القرنين السَّدّ في فتوحاته في جهة الشمال، كما صرحتْ بذلك الآيات، وعُرِف هذا السد، بسد ذي القرنين، لأنه هو الذي بناه، كما عُرِف بسد يأجوج ومأجوج، لأنه مَنَع هجماتهم على سكان تلك المنطقة، كما عُرف بردم يأجوج ومأجوج.

ووردتْ أخبار كثيرة عن سد ذي القرنين، معظمها مأخوذ عن الإسرائيليات والأساطير.

وسنورد هنا أحاديثَ صحيحة عن ذلك السد:

من أهمِّ هذه الأحاديث وأشهرها، ذلك الحديث المتفق عليه الذي رواه البخاري ومسلم عن الزهري عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة، عن أم حبيبة، عن زينب بنت جحش رضي الله عنهن أن النبي ﷺ دخل عليها فزِعاً يقول: لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه، وحلَّق بأُصبعه الإِبهام والتي تليها. فقالت زينب بنت جحش: يا رسول الله أنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»[١].

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه، وعَقَدَ بيده تسعين»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٠) كتاب الأنبياء (٧) باب يأجوج ومأجوج حديث رقم ٣٣٤٦، ومسلم (٥٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة (١) باب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، حديث ٢٨٨٠.

(٢) البخاري: حديث ٣٣٤٧، ومسلم: حديث ٢٨٨١.

وروى البخاري في مقدمة باب «قصة يأجوج ومأجوج» من كتاب الأنبياء تعليقاً: قال رجل للنبي ﷺ: «رَأَيْتُ السَّدَّ مثلَ البُرْدِ المُحَبَّر، فقال له النبي ﷺ: قَدْ رَأَيْتَه»[1].

○ من دلالات هذه الأحاديث:

١ ـ في الحديث الأول الذي روته زينب بنت جحش، دلالةٌ لطيفة من لطائف الإسناد، قال عنها النووي في شرحه على مسلم: «هذا الإسنادُ اجتمع فيه أربع صحابيات، زوجتان لرسول الله ﷺ، وربيبتان له، بعضهن عن بعض، ولا يُعْلَم حديث اجتمع فيه أربعُ صحابيات بعضهن عن بعض، غيرَه»[2].

زوجتا رسول الله ﷺ هما: زينب بنت جحش، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وربيبتاه ـ أي ابنتا زوجتَيْه ـ هما: حبيبة بنت أم حبيبة، وزينب بنت أم سلمة.

ورواه عنهن تابعيان. هما: عروة بن الزبير، ومحمد بن شهاب الزهري.

٢ ـ خوفُ رسول الله ﷺ من الشر القادم، حيث دخل على زينب فزعاً، وفي رواية عند الشيخين أنه استيقظ من نومه فزعاً، وفي رواية ثالثة عندهما كذلك أنه خرج يوماً وهو فزع محمرٌّ وجهه.

ويمكن الجمع بين الروايات الثلاث، أنه نام ﷺ عند زوجه زينب بنت جحش ﵂، فرأى في المنام رؤيا أفزعَتْه ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ فاستيقظ من نومه فزعاً، وخرج من الحجرة وهو محمرٌّ وجهُه، ودخل على زينب وهو فزع، وقال لها ما قال.

٣ ـ وسبب فَزَعِه أنه رأى في المنام ـ أو أراه الله في المنام ـ فتْحَ سدِّ يأجوج ومأجوج، فرؤيتُه للسد رؤيا منامية لا رؤيا في اليقظة.

٤ ـ رؤياه فتح السد دليل على أن يأجوج ومأجوج قد بدؤوا نقض السد، وقد نجحوا في البدء بنقضه، وهذا يوحي بأن النقض والفتح للسد واختراقه

---

(١) البخاري: مقدمة باب (٧) قصة يأجوج ومأجوج.

(٢) مسلم بشرح النووي ١٧: ٢.

سيكون قبل قيام الساعة، ولا يُشترط أن يبقى السد قائماً حتى خروج يأجوج ومأجوج قبيل قيام الساعة.

٥ ـ إن الظاهر من فتح ردْمِ يأجوج ومأجوج هو فتح السد الذي بني هناك، والمراد بالشر الذي قد اقترب هو خروجُ قوم يأجوج ومأجوج، واجتياحهم بلاد المسلمين.

وقد ذهب بعضهم إلى أن المراد هو وقوعُ الفتن، وفتحُ السد في الحديث كنايةٌ عن فتح باب الفتن على المسلمين، وفي هذا يقول ابن حجر في الفتح: «خَصَّ العربَ بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من مقتل عثمان، ثم توالت الفتن، حتى صارت العرب بين الأمم، كالقَصْعَة بين الأَكَلَة»[1].

٦ ـ يوحي الحديث بأن العقاب في الدنيا جماعي، وأن من سنة الله أن يهلك الأمة عند انتشار الخبث والمعاصي والمنكرات فيها، ولو وُجِد فيها صالحون: «أنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم. إذا كثر الخبث».

○ خروج يأجوج ومأجوج في الأحاديث الصحيحة:

الأحاديثُ الصحيحة لا تشير بشيء إلى أصل يأجوج ومأجوج، أو تاريخهم، أو أماكنهم وبلدانهم، أو أشكالهم، أو تفاصيلِ حياتهم. كما أنها لا تقرر خروجهم ـ قبل الخروج الأخير ـ ولا تنفيه. فهي تسكت عن كل ذلك.

لكنَّ الأحاديث الصحيحة تشير إلى خروجهم الأخير قبيل قيام الساعة، وتجعل هذا الخروج من علامات الساعة الكبرى.

ويكون خروجُهم بعد نزولِ عيسى بن مريم ﷺ، وقتلِه للدجال في باب اللّدّ.

ونسوق فيما يلي الحديثَ الرائعَ الممتعَ المطولَ، الذي تحدث عن الدجال وعن عيسى بن مريم ﷺ، وعن يأجوج ومأجوج:

---

(١) فتح الباري ١٣: ١٠٧.

روى مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال:

«ذكر رسولُ الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفَّض فيه ورفَّع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عَرَف ذلك فينا. فقال: ما شأنكم؟.

قلنا: يا رسول الله: ذكرتَ الدّجّال غداة، فخفَّضتَ فيه ورفَّعتَ. حتى ظنناه في طائفة النخل.

فقال: غيرُ الدجال أخوفني عليكم. إنْ يخرجْ وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإنْ يخرجْ ولست فيكم، فامرؤٌ حجيجُ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم.

إنه شابٌ قَطَط. عينُه طافئةٌ، كأني أُشَبِّهُه بعَبْدِ العُزى بن قَطَن. فَمَنْ أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف.

إنه خارج خُلَّةً بين الشام والعراق. فعاث يميناً وعاث شمالاً. يا عِبادَ الله فاثبتوا.

قلنا: يا رسول الله. وما لُبْثُه في الأرض؟.

قال: أربعون يوماً. يومٌ كَسَنَةٍ، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجُمعة، وسائر أيامه كأيّامكم.

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاةُ يوم؟.

قال: لا. أُقْدُروا له قَدْره.

قلنا: يا رسول الله. وما إسراعُه في الأرض؟.

قال: كالغيث استدبرتْه الريح. فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له. فيأمر السماء فتمطر، والأرضَ فتنبت. فتروحُ عليهم سارحتُهم، أطولَ ما كانت ذُرَىً، وأسبغَه ضروعاً، وأمدَّه خواصر. ثم يأتي القوم، فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمْحِلين، ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم. ويمرّ بالخِرْبة فيقول لها: أَخْرجي كنوزك، فتتبعه كنوزُها كيعاسيب النَّحْل.

ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً. فيضربُه بالسيف، فيقطعه جَزْلتيْن، رميةَ الغرض، ثم يدعوه، فيُقبِل، ويتهلَّل وجهه يضحك.

فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق، بين مَهْرودَتَيْن، واضعاً كفّيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسه قطرَ، وإذا رفعه تحدّر منها جُمانٌ كاللؤلؤ فلا يحِلُّ لكافر يجد رِيحَ نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفه. فيطلبه، حتى يدركه بباب لَدّ، فيقتله.

ثم يأتي عيسى ابنَ مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة.

فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي، لا يَدانِ لأحد بقتالهم. فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور.

ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَبَ ينسلون. فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها. ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرَّة ماء.

ويُحْصر نبيُّ الله عيسى وأصحابه، حتى يكونَ رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم. فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم، فيصبحون فَرْسى كموت نفْس واحدة.

ثم يهبط نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى الأرض. فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهُم ونَتَنُهم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يُكِنُّ منه بَيْتُ مدر ولا وبر، فيغسل الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَفَة.

ثم يُقال للأرض: أنبِتي ثمرتك، ورُدّي بركتك.

فيومئذ تأكل العصابة من الرُّمانة، ويستظلون بقَحْفِها، ويبارَكُ في الرِّسْل، حتى إن اللَّقْحَة من الإبل لتكفي الفِئام من الناس، واللَّقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفَخِذَ من الناس.

فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم. ويبقى شرار الناس، يتهارَجون فيها تهارُجَ الحُمُر، فعليهم تقوم الساعة»[1].

وزاد مسلم في رواية أخرى لهذا الحديث «ثم يسيرون [يعني يأجوج ومأجوج] حتى ينتهوا إلى جبل «الخَمَر» وهو جبل بيت المقدس. فيقولون: لقد قتلْنا مَنْ في الأرض، هَلُمَّ فلْنقْتل مَنْ في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نُشَّابهم مخضوبةً دماً».

إن قوم يأجوج ومأجوج هم أكثر الأمم، وهم الذين يُكثِّرون الكفار في جهنم يوم القيامة.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبَّيْك وسعديْك والخير في يديْك. فيقول: أَخرِجْ بعثَ النار. قال: وما بعْثُ النار؟ قال: من كل ألفٍ، تسعمائةٌ وتسعةٌ وتسعون، فعندئذٍ يشيب الصغير، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾. قالوا: يا رسول الله: وأيُّنا ذلك الواحد؟.

قال: أبشروا، فإن منكم رجلاً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً.

ثم قال: والذّي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا رُبعَ أهل الجنة، فكبَّرْنا. فقال: أرجو أن تكونوا ثُلُث أهل الجنة. فكبَّرْنا. فقال: أرجو أن تكونوا نصْف أهل الجنة. فكبَّرْنا.

فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثوْر أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[2].

○ مَنْ هو ذو القرنين؟:

وقف المفسرون والمؤرِّخون طويلاً أمام شخصية ذي القرنين، وحاولوا

(١) مسلم (٥٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٠) باب ذكر الدجال. حديث ٥٢٢٨.
(٢) البخاري (٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء (٧) باب يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٨.

تحديدَها وبيانَ الزمانِ والمكان الذي وُجدت فيه، والأعمال التي قامت بها، واختلفوا في ذلك اختلافاً بيِّناً، وتضاربت أقوالهم وآراؤهم، وتعارضت أدلتهم واعتمدوا في ذلك ـ غالباً ـ على الإسرائيليات والخرافات والأساطير، والروايات غير الموثوقة، والأخبار غير الثابتة.

وتَرَك الإخباريون لخيالهم أن يجول في أجواء التخيُّل، ورسموا لذي القرنين أسطورة خيالية عجيبة، افترضوا له فيها أعمالاً ومعارك وفتوحات متخيَّلة.

○ هل يمكن الجزم بتحديد شخصيته؟

إذا طرحنا هذا التساؤل: هل يمكن الجزم بتحديد شخصية ذي القرنين؟ فإن الجواب النفي.

إنه لا يمكن لأحد يحترم علمَه ورأيَه أن يجزم بتحديد شخصية ذي القرنين، ولا تحديدِ رحلاته الثلاث التي أشار لها القرآن، ولا تحديدِ مكان السد الذي بناه على الكرة الأرضية.

لا يمكن ذلك لسكوت المصادر اليقينية الصحيحة ـ وهي الكتاب والسنة ـ عن تلك التفصيلات.

وبما أنها سكتت عنها، فلا دلالة يقينية عليها.

ولذلك يكون كلام العلماء عنها من باب الترجيح وليس من باب الجزم والتأكيد. فالواحد منهم يقرأ ما قيل عن ذي القرنين، ويتأمل الأدلة التي قدمها المتكلم لرأيه، وينظر فيها ويتفحصها، ويقارنها مع الأدلة التي قدمها الآخرون، وقد يخرج من هذا بنتيجة يرجِّح فيها قولاً من الأقوال، ويقبل أدلة من تلك الأدلة.

لكن يبقى ترجيحُه من باب الظن والاحتمال والترجيح، وليس من باب الجزم والتأكيد واليقين.

○ رأي سيد قطب في ذلك:

من أنضج الآراء وأجودِها في تحديد شخصية ذي القرنين وأعماله، رأيُ الأستاذ الإمام سيد قطب.

قال: «إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين. وهذه هي السمة المطَّردة في قصص القرآن. فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود. إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرةُ تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان.

والتاريخ المدوَّن يعرف ملكاً اسمه «الإِسكندر ذو القرنين». ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكورَ في القرآن. فالإِسكندر الإِغريقي كان وثنياً. وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحّد، معتقدٌ بيوم البعث والآخرة.

ويقول أبو الريحان البيروني المنجِّم في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» إن ذا القرنين المذكور في القرآن، كان من حِمْيَر، مستدِلاً باسمه. فملوك حِمْيَر كانوا يلقبون بذي. كذي نواس وذي يزن. وكان اسمه أبا بكر بن أفريقش، وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمر بتونس ومراكش وغيرهما، وبنى مدينة أفريقية، فسُميت القارة كلُّها باسمه. وسمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس.

وقد يكون هذا القول صحيحاً. ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه.

ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدوَّن عن ذي القرنين، الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته، شأنُه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن، كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم.

فالتاريخُ مولود حديث العهد جداً، بالقياس إلى عمر البشرية. وقد جرتْ قبل هذا التاريخ المدون أحداثٌ كثيرة لا يعرف عنها شيئاً فليس هو الذي يُسْتفتى فيها.

ولو قد سَلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يُعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث. ولكنَّ التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير. وشُحِنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مَزيدَة على الأصل الموحى به من الله. فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي.

وإذن فلم يَبْق إلا القرآن. الذي حُفظ من التحريف والتبديل. هو المصدرُ الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي.

ومن البديهي أنه لا يجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ، لسببين واضحين:

الأوّل: أن التاريخ مولود حديث العهد، فاتَته أحداث لا تُحصى في تاريخ البشرية، لم يَعلم عنها شيئاً. والقرآن يروي بعض هذه الأحداث، التي ليس لدى التاريخ علم عنها.

الثاني: أن التاريخ ـ وإن وعى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة، يصيبُه ما يصيب جميع أعمال البشر، من القصور والخطأ والتحريف.

ونحن نشهد في زماننا هذا ـ الذي تيسرتْ فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص ـ أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد، يُرى على أوجه شتى، ويُنظر إليه من زوايا مختلفة، ويُفسَّر تفسيرات متناقضة. ومن هذا الركام يُصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق.

فمجردُ الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن من القصص، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة، التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكرَه العقيدة، التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل. وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء. إنما هو هراء»[1].

○ أشهر الأقوال في تحديد ذي القرنين:

أشهر الأقوال في تحديد شخصية ذي القرنين أربعة:

○ مناقشة كونه معاصراً لإبراهيم:

الأول: لا يحدد اسمه، ولكن يحدد الزمن الذي عاش به، وهو أنه كان

---

(١) في ظلال القرآن ٤:٢٢٨٩ ـ ٢٢٩٠.

معاصِراً لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأنه التقى معه في فلسطين، والتقى معه عند البيت الحرام في مكة.

وقد مال إلى ترجيح هذا القول الأستاذ محمد خير رمضان يوسف، في كتابه «ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح»، وذلك حيث يقول: «إنه رجل آخر. عاش في عصور غابرة. قبل تُبَّع. وقبل الإِسكندر، وقبل كورش. فقد كان في زمن نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما ذكره وصحَّحه ثِقات المؤرِّخين»[1].

وإذا ما ناقشْنا محمد خير يوسف في ترجيحه هذا، فإننا لا نجد حديثاً صحيحاً يحدّد أنه كان في زمن إبراهيم عليه السلام.

أما «ثِقات المؤرِّخين» الذين اعتمد رأيَهم وتصحيحَهم بأنه عاش زمن إبراهيم عليه السلام، فلا نجدهم من ثِقات المؤرِّخين حقيقة، وحتى لو كانوا هكذا ـ في مقياسه ـ فإنهم لم يقدموا دليلاً يقينياً مستمداً من حديث صحيح على ما قالوا به.

ثقات المؤرِّخين الذين اعتمد على كلامهم هم: أبو حيان المفسر صاحب البحر المحيط، والقرطبي المفسر صاحب الجامع لأحكام القرآن، والشيخ الإِيجي صاحب تفسير جامع البيان، والزمخشري صاحب تفسير الكشاف، والنسفي صاحب تفسير مدارك التنزيل، وسليمان الجمل وأحمد الصاوي في حاشيتيهما على تفسير الجلالين، والآلوسي صاحب روح المعاني.

ومعلوم أن هؤلاء مفسرون لا مؤرِّخون، وكلامُهم عن التاريخ يحتاج إلى تحقيق وتخريج وترجيح وتصويب.

أما المؤرِّخون الثقات الذين اعتمد عليهم فهم الأزرقي، وابن إياس صاحب تاريخ «بدائع الزهور في وقائع الدهور» وعلي دُكَ، صاحب «محاضرة الأوائل».

---

(١) ذو القرنين: ٢٤٨.

فهل هؤلاء الثلاثة هم ثقات المؤرِّخين؟.

كم كنت أتمنى على الأستاذ محمد خير رمضان يوسف، أن يأتي على رأيه بأدلة علميّة يقينيّة، وهذه لا تكون إلا فيما أُخذ من القرآن والحديث الصحيح، أما اعتماده على كلام مؤرِّخين ومفسرين، لا دليل عليه من المصادر المعتمدة، فهذا لا يُقبل في البحث العلمي المنهجي اليقيني.

ولذلك نحن مضطرون أن نخالف الأستاذ محمد خير يوسف في ترجيحه عن ذي القرنين، من أنه كان يعيش في زمن إبراهيم ﷺ، كما أننا مضطرون إلى ترك كل الأقوال المذكورة في كتب التاريخ والتفسير، عن التقاء ذي القرنين بإبراهيم ﷺ في فلسطين أو الحجاز، لكونها غير مذكورة في حديث واحد صحيح، يمكن للإنسان أن يعتمده ويطمئن به ـ والله أعلم ـ.

○ مناقشة كونه الإسكندر المقدوني:

الثاني: إنه الإسكندر المقدوني. وهو الذي ولد في مقدونيا عام ٣٥٦ق.م، وكان والده «فيليب» مِلِكاً لمقدونية، وقد أسْلَم ابنه الإسكندر إلى الفيلسوف اليوناني الشهير «أرسطو» فرباه على المنطق الفلسفي اليوناني، ومات أبوه وعمره عشرون سنة، فأخذ الملك من بعده عام ٣٣٦ق. م. وبعد سنتين توجّه لحرب الفرس، وانتصر على مَلِك الفرس «دارا» سنة ٣٣٣ق.م. وأتم فتح بلاد الشام والعراق. ثم توجه لفتح بلاد الهند.

ففي حوالي عشر سنوات فتح معظم البلاد المعروفة في ذلك الزمان، ثم عاد إلى اليونان. وفي الطريق مرَّ على مدينة «بابل» في العراق، ليأخذ قسطاً من الراحة فمرض بها مرضاً شديداً، إذ أصابته الحمى لمدة أحد عشر يوماً، لقي حتفه فيها، فتوفي عام ٣٢٣ق.م. وعمره أقلُّ من ثلاث وثلاثين سنة[١].

ولُقِّب بذي القرنين لأنه فتح دولة الفرس، فكأنه جمع بين القرن اليوناني والقرن الفارسي. وهما أقوى دولتين في ذلك الزمان.

---

(١) ذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٩١ ـ ٩٥ باختصار.

وممن يرى أنه هو ذو القرنين المذكور في القرآن، جمهورٌ من المفسرين والمؤرِّخين، منهم:

المسعوديُّ والمقريزي والثعلبي والإدريسي والرازي وأبو حيان والنسفي وأبو السعود والآلوسي والقاسمي ومحمد فريد وجدي[1].

وهذا رأي باطل رغم جلالة وعلم قائليه، لأنه من المتفق عليه أن الإسكندر المقدوني كان كافراً مشركاً بالله، من عبدةِ آلهة اليونان، كما أنه كان مسرفاً على نفسه في الفواحش واللذات والخمور، بل إنه توفي بعد ليلة خمر وعربدة. أما ذو القرنين كما يُعَرِّفُنا عليه القرآن فهو مؤمن عادل صالح[2].

○ مناقشة كونه من حمير:

الثالث: إن ذا القرنين مِلك عربيّ من ملوك حمير، اسمه الصَّعْب ذي مَراثِد بن الحارث بن الرائش، وقيل هو الملك الحميري أبو بكر - أو أبو كرب - عمير بن أفريقش الحميري. وأنه ملك في الفترة ما بين ٣٠٠ - ٣٢٠م.

وممن قال بهذا القول وهْب بن منبه من التابعين وكعب الأحبار، ومن المعاصرين محمد راغب الطباخ الذي ألف كتاباً بهذا الخصوص[3].

وهذا القول كذلك لا دليل عليه إلا مجرد العاطفة، والتعصب للعرب.

○ الراجح أنه كورش الفارسي:

الرابع: أنه الملك الفارسي «كورُشْ» الذي وحَّد مملكَتيْ «لِيدْيا» و«مِيدْيا» وجمع بينهما، ولذلك لُقِّب بذي القرنين، ولقد حكم ثلاثين سنة، ما بين ٥٢٩ - ٥٥٩ق.م.

وممن رأى هذا الرأي أبو الكلام آزاد في كتابه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

---

(١) المرجع السابق: ٨٤ - ٩٠.
(٢) المرجع السابق: ١٤٨ - ١٦٢.
(٣) المرجع السابق: ١٦٥ - ٢٠٧.

والدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر في كتابه «قصة ذي القرنين».

وقدّم هذان العالمان أدلة كثيرة ترجح أنه هو ذو القرنين.

○ مع أبي الكلام آزاد في أدلته على أنه كورش الفارسي:

مولانا أبو الكلام آزاد من زعماء المسلمين في شبه القارة الهندية، كان يدعو المسلمين في الهند إلى الثورة على بريطانيا المستعمِرة، ويُلقي خطباً حماسية، وقد حاكمتْه بريطانيا عام ١٩٢٢ على نشاطه في الثورة، ودعْوته إلى العصيان والإِضراب المدني، وعندما قُدم للمحكمة ألقى بياناً أمامَ الحضور والمحامين والشهود والقضاة، كان القمة في الفصاحة والحجة والمنطق[١].

ولما قامتْ في الهند دولةٌ مستقلة، كان أول وزير للمعارف فيها، وقد توفي عام ١٩٥٥م.

وكان أبو الكلام آزاد مفكّراً إسلامياً، ومفسِّراً للقرآن، وفي طليعة الكتّاب الإِسلاميين في الهند.

وقد نقّب باحثاً عن ذي القرنين، وذهب إلى إيران، وعايَن منطقة سد يأجوج ومأجوج، وكتب خلاصة رحلته وبحثه، في مجلة «ترجمان القرآن» التي كان يصدرها أبو الأعلى المودودي في الهند، ثم في الباكستان.

وفي عام ١٣٩٢هـ وفق ١٩٧٢م أخذ الشيخ أحمد حسن الباقوري مقال آزاد في المجلة المذكورة، وكتب له مقدمة طويلة. معظمها حديث عن نفسه وعن رحلاته وصلته بجمال عبد الناصر، وعن زيارته للباكستان والهند وأندونيسيا والصين.

وقد صَدَر الكتابُ عن دار الشعب في مصر بعنوان ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

وكلام أبي الكلام آزاد في الكتاب المذكور قيّم وجيّد ونفيس، والجيّد فيه

---

(١) انظر: عبارات من هذا الخطاب في تقديم الباقوري لكتابه: ٦٣ ـ ٦٨.

أنه يعرض أدلته على رأيه، ويجمع بين الأدلة المختلفة، ويستشهد بالتاريخ والجغرافيا والاكتشافات الأثرية.

وسوف نورد خلاصة أدلته من الكتاب القيّم المذكور.

○ تلخيصُه ما قاله السابقون في تحديد ذي القرنين:

بدأ أبو الكلام آزاد بذكْر صفات ذي القرنين التي أوردها القرآن، وقد كانت الصفات ثمانية.

ثم أورد بعض أقوال المفسرين، في تحديد شخصية ذي القرنين.

قال بعضهم: إن القرن لم يُقْصَد به الظاهر، بل هو كناية عن الزمن، وأنه سمي بذي القرنين لأن حكمه شمل عهدَيْن كبيرين.

وقال بعضهم: إنه كان معاصِراً لإبراهيم عليه السلام.

وقال بعضهم: إنه مَلِك من ملوك حمير.

وقال بعضهم: إنه الإِسكندر المقدوني.

ثم رفض تلك الأقوال وفنَّدها، على اعتبار أن المواصفات التي ذكرها القرآن، والأعمال التي نسبها لذي القرنين، لا تنطبق على واحد من هؤلاء[١].

○ ذو القرنين هو كورش الفارسي:

ذهب أبو الكلام آزاد إلى أن ذا القرنين هو كورش الفارسي.

قال: إن اسمه باللغة الفارسية «كورش» واليهود سموه «خورش» والعرب سموه «قورش» أو «كيخسرو» واليونان سموه «سائِرسْ»[٢].

وكان «كورش» يحكم فارس في الدوْر الأول من أدوار التاريخ الإِيراني الفارسي، وهو الدور الذي كان قبل هجوم الإِسكندر المقدوني على فارس، وقتْله لملكها «دارا».

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ٨٠ ـ ٨٥.

(٢) المرجع السابق: ٨٨.

وكانت إيران قبيل حكم كورش مقسَّمة، إلى مملكتين، مملكة «فارس» في الجنوب، ومملكة «ميديا» في الشمال.

وفي عام ٥٥٩ ق.م ولِيَ الحكم «كورش»، ثم وحَّد مملكتي فارس وميديا في دولة واحدة، ورضي الأمراء بحكمه، واستقام الشعب له.

وجهز كورش من الفرس جيشاً، قام بالقتال به ومحاربة الممالك والدول الأخرى وفُتِحها وإخضاعِها له. وكانت فتوحاتُه للعدل والإنصاف ومساعدة المظلومين.

وكانت حروبه الشهيرة ثلاثة:

○ حرب كورش الأولى للروم:

كانت لليونان مملكةٌ مجاورة للفرس، وهي مملكة «ليديا» وكانت تقع في القسم الشمالي من آسيا الصغرى، وهي هضبة الأناضول حتى البحر الأسود وبحر إيجه.

وكانت الحروب مستمرة بين «ليديا» اليونانية و«ميديا» الفارسية.

وكان يحكم «ليديا» زمن كورش، ملك يوناني اسمه «كروسس».

فلما ولي «كورش» الحكم «أعلن «كروسس» عليه الحرب، وبادره بالعدوان. وما كان أمام «كورش» إلا أن يحاربه. فقاد جيشاً من فارس، وتوجَّه نحو «ليديا» في الغرب، وسار نحو عاصمة «ليديا»، ووقعت معركتان صاعقتان سريعتان، هما «بتريا» و«سارديز»، وأسقط حكم «كروسس» واحتلّ عاصمته «سارديز» وأخذ كروسس أسيراً إلى بلاد فارس، وأخضع الدولة الليدية إلى سلطانه.

وقد عامل «كورش» اليونانيين المغلوبين بعدلٍ ورأفة وإنصاف. بل إنه بالغ في ذلك، حيث أحضر ملكهم الأسير «كروسس» وأمر بأن يُجهزوا له كومة كبيرة من الحطب، وأن يُقعِدوه عليها، ثم يُشعلوا فيها النار، ففعلوا. ولما رأى أن «كروسس»، غير هيّاب ولا وَجِل، نَسَخَ أمره وعفا عنه، وعاش عنده باقي أيامه معزَّزاً مكرَّماً.

وهذه هي الرحلة الأولى التي أشار لها القرآن، حيث سار «كورش» حتى بلغ مغرب الشمس. وذلك عندما فتح عاصمة «ليديا» وهي مدينة «سارديز» وكانت تقع على بحر «إيجه» بالقرب من موقع مدينة «إزمير» التركية الحالية.

وتلك المنطقة من بحر «إيجه» كثيرة الخلجان.

وقد بيّن الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر تضاريس وجغرافية هذه المنطقة في كتابه «مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: قصة ذي القرنين» وبيَّن كيف أن الشمس تبدو من هناك وكأنها تغرب في عين حمئة. قال:

«حين توقَّف كورش عند شواطئ بحر إيجه ـ وهي جزء من سواحل تركية على البحر المتوسط ـ وجد الشاطئ كثير التعاريج، حيث تتداخل ألسنةُ البحر داخل اليابس. ومن أمثلة هذه الألسنة البحرية خليج هرمس، ومندريس الأكبر، ومندريس الأصغر. ويتعمّق خليج إزمير إلى الداخل بمقدار مائة وعشرين كيلومتر، تحيط به هذه الجبال من الغرب إلى الشرق، ويصب فيه نهر «غديس» ذو المياه العَكِرة المحمَّلة بالطين البركاني والتراب الأحمر، من فوق هضبة الأناضول، التي تنحدر ببطء نحو الغرب، قبل أن تصل إلى الحافة الغربية، ولذلك تزيد سرعة جريان نهر «غديس» في اتجاه السهل الساحلي المتقطع في شكل خلجان وأخْوار وأَجْوان لا حصر لها. حتى يصل مستوى قاعدة بحر إيجه، حيث يصب في خليج «إزمير» الغارق بين قمم الجبال المحيطة به بارتفاع يتراوح بين ألف وألفي متر.

وحين توقّف كورش «ذو القرنين» عند سارد (سارديز) قرب إزمير، تأمل قرص الشمس، وهو يسقط عند الغروب في هذا الخليج الذي يشبه العين تماماً، واختلطت حمرةُ الغَسَقِ الأحمر مع الطين الأسود الذي يلفظه نهر «غديس» في عين خليج إزمير.

ويرجَّح أن تكون تلك هي العين الحمئة التي ذكرها القرآن[1].

---

(١) ذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٢١٨ ـ ٢١٩ نقلاً عن كتاب الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر.

○ مهمة كورش الشرقية:

كانت قبائل همجية صحراوية رحّالة، تسكن شرق فارس، وكانت تُغير على حدود فارس، وتُعيث فيها فساداً.

فبعد أن انتصر كورش على اليونان في الغرب، توجه نحو الشرق لتأديب تلك القبائل، فسار في البلاد الشرقية، وافتتحها بلداً بلداً حتى وصل نهر السند، حيث اخترق أقاليم: أصفهان وجوزجان وخراسان، وقطع أنهر «زندة» و«جرجان» و«قارون» و«الكوخة» و«قم».

ووصل في فتوحاته إلى «بلخ» ومنطقة «مكران» و«بلوخستان».

وكانت هذه القبائل رحالة لا تسكن البيوت ولا المدن، ولذلك لم يكن لديها بيت أو منزل يسترها عن الشمس عندما تشرق أو تشتد حرارتها[1].

○ مهمة كورش الشمالية وسدُّ يأجوج ومأجوج:

بعد تأمين كورش لكل من الجبهة الغربية والجبهة الشرقية، والجبهة الجنوبية، عندما فتح مملكة بابل، توجَّه للشمال لتأمين الجبهة الشمالية للمملكة.

وكانت المناطق الشمالية لمملكته، أذربيجان وجورجيا وأرمينيا، وهي الواقعة جنوبي جبال القوقاز.

وكانت حدود الجبهة الشمالية تُعتبر حاجزاً طبيعياً أمام القبائل الهمجية المتوحشة التي تقيم خلف ذلك الحاجز.

وهذا الحاجز الطبيعي يبدأ من بحر «قزوين» ـ أو بحر الخزر ـ في الشرق، حيث تقع عليه مدينة «دربند» ثم جبال القوقاز في الوسط، ثم البحر الأسود في الغرب، حيث تقع عليه مدينة «سوخوم».

ولا يوجد في هذا الحاجز الطبيعي ـ المائي والجبلي ممر من الشمال إلى

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٣١ ـ ١٣٢ وذو القرنين ل: محمد خير يوسف: ٢٢٠.

الجنوب إلا ممرّ ضيق من وسط جبال القوقاز، وهو مضيق «داريال».

وكان يسكن جنوبَ جبال القوقاز قبائلُ «كوشيا» بينما كان يسكن شمالَ الجبال قبائلُ مغولية متوحِّشة، هي قبائل «الماساجيت» أو يأجوج ومأجوج كما ذكر القرآن.

وكانت قبائل يأجوج ومأجوج تعبر مضيق «داريال» وسط جبال القوقاز، لتعيث في الأرض فساداً.

ولما وصل «كورش» إلى قبائل «كوشيا» وهم القوم الذين سمّاهم القرآن ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ شكَوا إليه هجمات يأجوج ومأجوج.

أراد «كورش» أن يمنع وصول يأجوج ومأجوج إلى تلك المناطق، فأقام في المنطقة تسع سنوات، وأغلق مضيق «داريال» الذي يستخدمه يأجوج ومأجوج، فبنى عليه السد، الذي أشار له القرآن[١].

○ سدّ ذي القرنين هو المُقام على مضيق «داريال»:

السد الذي بناه ذو القرنين «كورش» هو المقام على مضيق «داريال»، وسط جبال القوقاز.

وحول ذلك السد يقول القاسمي في تفسيره «الراجح أن السد كان موجوداً بأقليم داغستان التابع الآن لروسيا، بين مدينتي «دربند» و«خوزار» فإنه يوجَد بينهما مضيق شهير منذ القدم، يسمّى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بالسد، وبه موضع يسمى «باب الحديد». وهو أثرُ سدٍّ قديم بين جبلين من جبال القوقاز، الشهيرة عند العرب بجبل «قاف» وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم، ويظنون أنه في نهاية الأرض، وذلك بحسب ما عرفوه منها، ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج»[٢].

وقد بيَّن لنا الدكتور عبد العليم خضر طبيعةَ جبال القوقاز التي بُنِي السد

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٣٢ ـ ١٣٤ وذو القرنين لمحمد خير: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) ذو القرنين ليوسف: ٣٣٣ نقلاً عن تفسير القاسمي ١١: ٤١١٣ ـ ٤١١٤.

عليها: «جبال القوقاز تشكل سلاسل عظيمة الامتداد، كثيرة الارتفاع، صعبة الاجتياز، معدومة الممرات إلا في ممر واحد، هو «مضيق داريال» في الوسط، وهو الذي يجري فيه أحد روافد نهر «ترك» العليا. والجبال تمتد حتى تكاد ترتطم بأمواج بحر قزوين من الشرق، وتمس مياهَ البحر الأسود من الغرب، طول امتدادها يبلغ ١٢٠٠كم. وهي أعلى جبال أوروبا قاطبة. ولا يمكن عبورها على الإطلاق، إلا من ممر «داريال»[١].

○ توفُّر المعادن في تلك المنطقة:

يشير القرآن إلى أن السد الذي بناه ذو القرنين كان من قطع الحديد المصهور الذي وُضِع عليه النحاسُ المصهور، وقد ارتفع الحديد مع النحاس حتى ساوى بين قمتي الجبلَيْن.

فمن أين لذي القرنين «كورش» هذه الكميات الضخمة من الحديد والنحاس؟.

يقول الدكتور عبد العليم خضر عن تلك المنطقة:

«خامات الحديد: تحتوي أراضي «أذربيجان» على معادن الحديد بكميات كبيرة. والشاهدُ على ذلك قيام صناعة الحديد والصلب الآن في مدينة «باكو» ـ عاصمة أذربيجان ـ فإذا كان الإقليم غنياً بها الآن، فلا شك أنه كان أغنى في السابق.

أما أرمينية فغنية بمعادنها، ويكثر بها على وجه الخصوص: خام الحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ وحجر الشب والكبريت والذهب. ويذكر «ليونتيوس» المؤرِّخُ الأرمني أن ملامح الأرض تدل على مناطق محفورة في الجبال، تشير إلى استفادة السكان الأقدمين، لاحتياطيّ الحديد القديم، الذي كان يُسْتخرج في العراء، دون عناء كبير.

وتدل التكوينات الجيولوجية على أن مناطق «بابرت أرغنى» غنية بخام الحديد، وبكميات وفيره. كما يوجد الحديد بوفرة في «جورجيا».

---

(١) ذو القرنين ليوسف: ٣٣٤ نقلاً عن مفاهيم جغرافية لخضر: ٢٩٦.

وفي إقليم الحدود الأرمينية في تركيا إقليم الحديد المشهور، الذي يُقدَّر احتياطيُّه بحوالي ٢٥ مليون طن.

أما عن الفحم والأخشاب اللازمَيْن لصهر الحديد. فتكوينات منطقة «كلاكنت» بأرمينية، فيها احتياطيٌّ كبير. وفي سواحل البحر الأسود تُعتبر مناجم «زونفلداك» من المناطق الغنية جداً بخامات الفحم.

وأما عن الأخشاب، فيذكُر ابن حوقل أن إقليم أردبيل، كثير البساتين والأنهار والمياه والأشجار والفواكه.

وخاماتُ النّحاس ثبت علمياً وتاريخياً توفُّرُها بالأقليم، فالدراسات الجيولوجية الحديثة تثبت وجوده بوفرة في تكوينات «زنجان» و«أناراك» وشمال «أصفهان»، وفي جنوب «أذربيجان» كميات هائلة منه. وفي أرمينية أصبحت مناجم النحاس الكبيرة المعروفة منذ القدم، شاهدٌ على استخراج السكان القدامى لخاماته.

ومن ناحية توفُّر العدد اللازم من حيوانات الجر والحمل، فالإقليم غنيٌّ بالثروة الرعوية والحيوانية، لأنه ينحصر بين إقليم البحر المتوسط غرباً، وإقليم الصين شرقاً. والجَمَل معروف هناك، وهو من النوع ذي السنامين، وحيوان «الياك» وقد استخدمه السكان في النقل، تماماً كالحمير، وهو يمتاز عن الحمير، بوجود أظافر في رجليه، تساعده على ارتقاء المرتفعات، والتنقل بأحماله بينها. كما يوجَد هناك منذ القدم عشرات الآلاف من الخيول «السيسي» الشهيرة بقدرتها على حمل الأثقال وجرِّ العربات.

ومن حيث توفر المُؤَن لمواجهة استهلاك العمال والمهندسين من طعام وشراب. فقد عَرف الإقليم جميعَ الحبوب من آلاف السنين، حسبما تقول الجغرافية التاريخية، وعُثِر عليها في الآثار القديمة، ووُجِدت قوارير مملوءة بالحبوب وغيرها. وكانت أرمينية تُعتبر من أخصب أملاك الخلافة العباسية.

وقد ورد أن شهرة الإقليم بالأسماك كمورد غذائي للسكان والتصدير لا تُضارَع.

وأوديةُ هذا الإقليم الكبير مزدحمة بغابات الأشجار المثمرة. و«داغستان» بلادٌ زراعية بالدرجة الأولى من العصور القديمة حتى الآن، ومناخ «جورجيا» من آلاف السنين ملائم لزراعة الحبوب»[1].

بهذا يظهر لنا أن منطقة السد مهيأةٌ لإقامة السد عليها، وقادرةٌ على أن تُوفِّر للذين يقيمون السد كلَّ ما يحتاجون إليه، من طعام وشراب وغذاء ووسائل نقل، وتوفِر المواد الخام اللازمة لإقامة السد من أخشاب وفحم ونحاس وحديد وغير ذلك.

كما يظهر لنا أن مضيق «داريال» مناسبٌ لإقامة السد عليه، لضيقه وانحصاره بين الجبلين، وارتفاع الجبلين على جانبيه.

ولذلك رجَّح كثير من العلماء السابقين أن السد قد أقامه ذو القرنين على مضيق «داريال»، في جبال القوقاز.

○ تمثالٌ أثري لكورش:

يرجِّح مولانا أبو الكلام آزاد، ومعه الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، أن «كورش» الفارسي هو ذو القرنين المذكور في القرآن، وأن السد الذي أقامه على مضيق «داريال» هو السد المذكور في القرآن.

ويرى هذان العالمان المحقّقان أن صفات «كورش» متفقةٌ مع الصفات التي أوردها القرآن لذي القرنين، بل إن وصف القرآن لذي القرنين، قد تحقق في «كورش».

ويقدم أبو الكلام آزاد دليلَه على ذلك:

كورش لُقِّب بذي القرنين، لأنه وحَّد مملكتي «ميديا» و«فارس» في مملكة واحدة، حيث شُبِّهت كل واحدة بقرن، فلما جَمَع بين المملكتين لُقِّب بذي القرنين، أي ذي المملكتين.

---

(١) ذو القرنين ليوسف: ٣٣٦ ـ ٣٣٨ نقلاً عن مفاهيم جغرافية لخضر.

وأهم دليل يقدمه أبو الكلام على ذلك، هو التمثال الذي عثر عليه علماء الآثار لكورش الفارسي. يقول في ذلك:

«إن هذا الكشف الأثري الهام، هو تمثال حجري لغورش بعينه، وجدوه منصوباً في مكان يبعد عن عاصمة إيران القديمة «إِصْطَخْر» نحو خمسين ميلاً على شاطئ النهر «مرغاب »، وقد سبق جيمس موريير فأخبَرَ بوجوده، ثم جاء بعد سنوات السير رابرت كير بورتر، فقاس المكان وفَحَصَه فحصاً دقيقاً، وَنَشَر رسماً للتمثال بقلم الرصاص، وذلك في كتاب رحلته إلى إيران وجورجيا، وقد تكلم القس «فورستر» سنة ١٨٥١م على التمثال، واستدل به على نصوص التوراة، كذلك نشر صورة للتمثال أوضح من الأولى.

لم يكن اللثام عن الخط المسماري أزيح كلية إلى ذلك الحين، إلا أنه كان تقرر أن التمثال لسائرس، أي لغورش لا غير.

وقد دَعَمت البحوثُ المتأخرة هذا القرار تدعيماً لا يَدَع المجال للريب فيه.

ثم لما أَلَّف الكاتب الفرنسي الشهير «دي لافواي» كتابه عن الآثار القديمة في إيران. نشر فيه صورة عكسية للتمثال، فعرَفه الناس معرفة تامة.

وقد سجَّل أبو الكلام آزاد وصفاً للتمثال فقال: «إنه تمثال على القامة الإِنسانية. ظهر فيه غورش، وعلى جانبيه جناحان كجناحي العُقاب، وعلى رأسه قرنان كقَرْنَي الكبش، يدُه اليمنى ممتدة، يشير بها إلى الأمام، ولباسُه نفس اللباس المعهود الذي نراه في صور ملوك بابل وإيران، فهذا التمثال يثبت بلا شك أن تصور «ذي القرنين» كان قد تولَّد لغورش، ولذلك نجد المَلِك في التمثال وعلى رأسه قرنان.

متى صُنع التمثال؟ ومن صَنَع التمثال؟.

يقول آزاد: «أمّا متى صُنِع التمثال؟ صُنِع بأمر غورش في حياته أو بأمر خليفة من خلفائه؟ يصعب البت فيه.

إن عاصمة العيلاميين والفرس كانت مدينة «سوسان» التي تُسمى الآن

«بالأهواز» وهي واقعةٌ في إيران الجنوبية. وكانت عاصمة «مادا» أي «ميديا» مدينة «هيغ متانا» التي حرَّفها العرب، فقالوا «همذان».

ويقول: «يظهر أن تمثال غورش أُقيمَ في عهد الملك أردشير، لأنه موجود بضاحية من «اصطخر» التي لم يبق من خرائبها إلا منصَّةٌ حجرية قام فوقها التمثال»[1].

○ نهاية كورش وامبراطوريته:

استلم كورش الحكم عام ٥٥٩ق. م. وقام بفتوحاته في الجبهات الثلاث: الغربية والشرقية والشمالية.

وحكم بلادَ فارس والشام ومصر والعراق وآسيا الصغرى وشرق فارس حوالي ثلاثين سنة. حكمَ ما لم يحكم حاكمٌ مثله في ذلك الزمان. وكانت البلاد التي حكمها في التقسيم المعاصر: فلسطين والأردن ولبنان وسوريا وتركيا والعراق وإيران وأرمينيا وجورجيا وأذربيجان وشمال باكستان وأفغانستان وتركستان.

ولعله لذلك سُمِّي بذي القرنين.

وتوفي كورش عام ٥٢٩ق. م.

وبعد وفاة كورش استلم الحكم ابنه «كمبوشيا» أو «قمبيز» كما يسميه العرب، وتوجه «قمبيز» إلى مصر عام ٥٢٥ق. م. وافتتحها. لكن قامت ثورة ضده، وتمرد عليه سكان مملكة «ميديا» بقيادة «غوماتا»، فرجع قمبيز من مصر إلى هناك لإخماد الثورة، ولكنه مات وهو في الشام.

ولما لم يكن لكورش أولادٌ آخرون، ولَّى أهلُ فارس ابنَ عمه «دارايوش» أو «داريوس» ملكاً عليهم. وبعد وفاة داريوس تولى الحكم «أردشير» وهو الذي هاجمه الإسكندر المقدوني وقتله، وقضى على الامبراطورية التي أسسها كورش[2].

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٠١ ـ ١٠٣ وانظر صورة التمثال في صفحة: ١٠٤.

(٢) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٢١ ـ ١٢٤.

○ **أخلاق كورش وأخلاق ذي القرنين:**

أشار القرآن إلى أخلاق ذي القرنين، وقد بيَّن أبو الكلام آزاد انطباق تلك الأوصاف على كورش وحكمه:

ذو القرنين عادِل بيْن الناس، ولذلك حكَّمه الله فيهم بأن يفعل فيهم ما يشاء: إما أن تُعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسناً.

وقد سلك كورش مع البلاد المفتوحة عدلاً وبِراً ورحمة، في فتحه لمملكة «ليديا» اليونانية، ومعاملته لملكهم «كروسس» الذي عفى عنه، وعامله برحمة وسماحة.

وأشاد المؤرِّخون الأصدقاء لكورش والأعداء، بعدله وسماحته في تعامله مع أعدائه اليونانيين.

قال المؤرِّخ اليوناني هيرودوتس: «كان غورش كريماً جواداً، سَمحاً للغاية، لم يكن حريصاً على جمع المال كغيره من الملوك، بل كان حرصُه على الكرم والعطاء، يبذل العدل للمظلومين، ويحب كل ما فيه الخير للبشر».

وقال المؤرِّخ اليوناني زينوفن: «كان ملكاً عاقلاً رحيماً، اجتمعت فيه مع نُبْلِ الملوك فضائلُ الحكماء. هِمَّته تفوق عظمته، وَجودُه يغلب جلالته، خدمةُ الإِنسانية شعارُه، وبذْل العدل للمظلومين ديدنُه، حلَّ فيه ـ مكان الكبر والعجب ـ التواضعُ والسماحة»[1].

إن عدلَ وسماحةَ كورش أنطقا عَدُوَّيْه وخصْمَيْه هيرودوتس، وزينوفن، وشهدا له به. وصدق القائل:

ومليحةٌ شهدَتْ بها ضُرَّاتُها — والفضل ما شهدت به الأعداءُ

○ **كورش كان مؤمناً بالله:**

يصرِّح القرآنُ بأن ذا القرنين كان مؤمناً بالله، ذاكِراً له، شاكِراً لنِعَمِه، معترِفاً بفضله.

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٣٩.

ووقف أبو الكلام آزاد أمام عقيدة كورش، فبيّن أنه موحِّدٌ بالله، عابدٌ له، مخلص لدينه.

كان كورش على دين «زرادشت» وكان زرادشت على دين التوحيد، وأن كورش ترك دين مملكة «مادا» القديم، وهو الدين المجوسي. ولما مات كورش، قام المجوس بثورة ضد دين زرادشت. وقضى عليها «دارايوش».

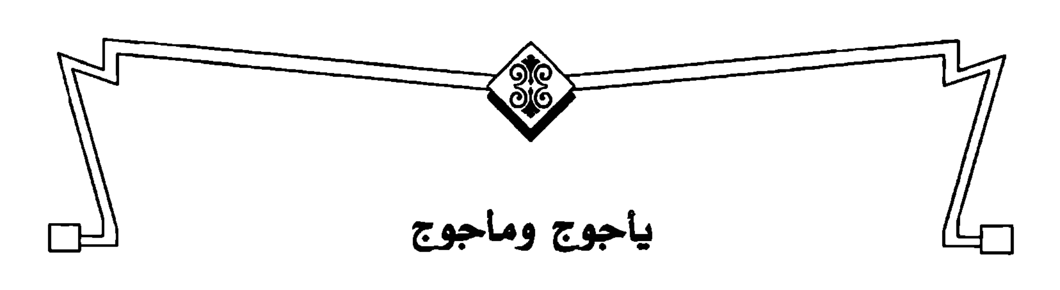
وكان الزرادشتيون زمن كورش مؤمنين بالله موحِّدين له. لكن بعد ذلك زحفت المجوسية عليهم، ودخلتْ دينَهم، ومزجوا التوحيد بالشرك والكفر، وسُموا باسم «المجوس» ولم ينْسَ المسلمون الأصْلَ السماويَّ الكتابي الزرادشتيِّين ـ أو المجوس الجدد ـ فقال رسول الله ﷺ: «سُنّوا بهم سُنَّةَ أَهْلِ الكتاب». أي عامِلوهم كما تعاملون أهل الكتاب اليهود والنصارى. ولذلك أخذ المسلمون منهم الجزية.

ومعنى هذا أن الإِسلام يعترف بأن الدين الزرادشتي له أصل سماوي ـ كما هو لليهودية والنصرانية ـ ولكنه لا يُقرُّه، لما أصابه من تزوير وتحريف، وما تَدَسَّسَ له من كفر وشرك.

إن أبا الكلام آزاد يرى أن زرادشت كان نبياً من الأنبياء للفرس. وأن كورش كان على دينه، قبل أن يحرفه الفرس فيما بعد[1].

* * *

(١) انظر: «ويسألونك عن ذي القرنين»: ١٤٢ ـ ١٦١.



يأجوج وماجوج

بعدما رجَّحْنا أنَّ ذا القرنين هو «كورش» الفارسي، وأن سد يأجوج ومأجوج المذكور في القرآن، هو ما أقامه كورش على مضيق «داريال» في جبال القوقاز، بيْن بحر قزوين، والبحر الأسود.

ننتقل بعد هذا للحديث عن يأجوج ومأجوج، ومكانِهم، وخروجِهم، وما جرى للسد الذي أقامه كورش أمامهم.

○ يأجوج ومأجوج في القرآن:

ذُكِرت «يأجوج ومأجوج» مرتيْن في القرآن:

الأولى: في سورة الكهف، في الآيات التي نحن بصددها: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: ٩٤].

الثانية: في سورة الأنبياء في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧].

آياتُ سورة الكهف تتحدث عن يأجوج ومأجوج فيما مضى، وتخبر عن إفسادهم في الأرض، وإقامةِ «ذي القرنين» السَّدَّ أمامهم، وعجزِهم عن الظهور على السد أو نقبه، زمن ذي القرنين، وبعده.

وآياتُ سورة الأنبياء تتحدث عن يأجوج ومأجوج في المستقبل، وعن خروجِهم الكبير قبيل قيام الساعة.

إنها تخبِر عن ذلك بكلمة «إذا» وهي ظرف لما يُسْتَقْبَل من الزمان، خافِضٌ لشَرطه، منصوبٌ بجوابه ـ كما يقرُر علماء النحو والبلاغة ـ.

وتخبر عن فتح الطريق ليأجوج ومأجوج، وقد حمل بعضُهم هذا الفتح على

الفتح المادي الحسي، وهو نقضُهم لسد ذي القرنين، وخروجُهم منه، ويقررون أنهم لن يفعلوا هذا إلا قبيل قيام الساعة، وأن السد ما زال موجوداً حتى الآن!.

لكننا نرى أنَّ الفتح هنا معنوي، ويَعْني إِذْنَ الله لهم بالخروج من موطنهم، واجتياحهم الأرض والبلدان. وهذا هو خروجهم الكبير الأخير قبيل قيام الساعة ـ والله أعلم ـ.

وتشير الآية إلى قوة خروجهم وضخامتِه وإلى كثرة عددهم، وعنف اجتياحهم ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

والحَدَب: هو كل ما ارتفع وعلا من الأرض، من تل أو كثيب أو جبل أو غيره.

وينسلون: يعني يسرعون في المشي، ويتتابعون ويتوافدون. وكأنهم يُغطّون وجه الأرض التي يجتاحونها.

وقد أشارت الأحاديث الصحيحة إلى كثرتهم وعنفهم وقوة اجتياحهم وهول خروجهم، وقد ذكرناها في بداية حديثنا عن القصة، فلا داعي لإِعادتها.

وتشير الآية إلى أن هذا الخروج الكبير العنيف المدمِّر هو الأخير، وأنه قبيل قيام الساعة: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾. وهذا الوعد هو قيام الساعة، يعني أن الساعة قد اقتربت بخروجهم، وأنها تكون بعد خروجهم بفترة وجيزة ـ كما تخبر الأحاديث الصحيحة ـ.

○ هل هما مشتقان أو أعجميان:

اختلف علماء اللغة في «يأجوج ومأجوج» هل هما مشتقان أو أعجميان؟.

فذهب فريق إلى الاشتقاق. ونَقَل ابنُ منظور في «لسان العرب» رأيَهم: «واشِتقاقُ مثلِهما من كلام العرب، من أَجَّتِ النار، ومن الماء الأُجاج، ؛ وهو الشديد الملوحة، المُحْرِق من ملوحتِه، ويكون يأجوج على وزن «يفعول» ومأجوج «مفعول» وكأنه من أجيج النار، ويجوز أن يكون يأجوجَ فاعولاً، وكذلك مأجوج.

وهذا لو كان الاسمان عربيَين، لكان هذا اشتقاقهما، فأما الأَعجمية فلا تُشْتَق من العربية»[1].

وقال الراغب الأصفهاني في مادة «أَجَّ»: «ملح أُجاج: شديد الملوحة والحرارة، من قولهم: أجيجُ النار، وأَجَّتُها، وقد أَجَّتْ، وائْتَجَّ النهار. ويأجوج ومأجوج منه، شُبِّهوا بالنار المضطرمة، والمياه المتموِّجة لكثرة اضطرابهم»[2].

وذهب فريق آخر إلى كونهما غيرَ مشتقيْن، وأنهما أعجميان، وأنهما ممنوعان من الصرف، للعلمية والعجمة.

وهذا هو الرأيُ الراجح، لأن القبيلتيْن موجودتان قبل العرب، وقبل وضع مفردات وتصريفات واشتقاقات اللغة العربية، ولا يليق بنا «الهَوَس» اللغوي، بحيث نجعل الأسماء القديمة قبل العربية، مشتقة من لغتنا التي جاءت بعدها. مثل أسماء «إبليس» و«آدم» و«حواء» و«موسى» و«هارون» و«التوراة» و«الإِنجيل» ومنها «يأجوج ومأجوج» ـ والله أعلم.

وقد أشار أبو الكلام آزاد، إلى أن الكلمتين أعجميتان، فقال: «إن كلمتيْ يأجوج ومأجوج تبدوان كأنهما عِبْرِيَّتان، ولكنهما في أصلهما قد لا تكونان عبريتيْن. إنهما كلمتان أجنبيتان، اتخذتا صورة العبرية، فهما تُنطقان باليونانية «غاغ: Gag» و«ماغاغ: Magag» وقد ذُكِرَتا بهذا الشكل في الترجمة السبعينية للتوراة، وراجتا بالشكل نفسه في سائر اللغات الأوروبية»[3].

○ «منغوليا» موطن يأجوج ومأجوج:

اختلف العلماء في الموطن الأساسي ليأجوج ومأجوج، وفي الإقليم الذي كان المهدَ الأوَّل لهم.

ورجَّح العلماء المحققون أن ذلك الموطن هو «البُقْعة الشمالية الشرقية من

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٢:٢٠٧. (٢) المفردات: ١٠.

(٣) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٦٣.

الأرض «منغوليا» وقبائلُها الرحّالة «منغول» وتقول لنا المصادر الصينيّة أن أصل كلمة «منغول» هو «منكوك» بالكاف الفارسية بعد النون، أو «منجوك» بالجيم الفارسية، وفي الحالتين تقرب الكلمة من النطق العبري «ماكوك» بالكافين الفارسيتيْن، والنطق اليوناني «ميكاك» بالكافين الفارسيتين، ويخبرنا تاريخ الصين عن قبيلة أخرى من هذه البقعة، كانت تعرف باسم «يواشي» والظاهر أن هذه الكلمة ما زالت تحرف عند الأمم، حتى أصبحت «يأجوج» في العبرية»[1].

الراجح إذن أن «منغوليا» هي موطن يأجوج ومأجوج، بل إن اسم «منغوليا» و«مغول» مرتبط بكلمة «مأجوج» وله صلة مباشرة بها.

وقد عُرِف يأجوج ومأجوج باسم المغول تارة، وباسم التتار تارة أخرى.

○ الأدوار السبعة لخروج يأجوج ومأجوج:

رجّحْنا أن يأجوج ومأجوج يقيمون في منطقة «منغوليا» و«تركستان الصينية والروسية».

ولكن هل خرجوا من قبل؟ أم أنهم لن يخرجوا إلا عند قيام الساعة؟.

ذهب فريق من العلماء إلى أنهم لن يخرجوا إلّا مرة واحدة، وهي قبيل قيام الساعة.

لكن رجَّحَ المحققون من العلماء أنهم سيخرجون عدةَ مرات، خاتمتُها خروجهم الكبير المدمِّر قبيل قيام الساعة، كما تقرِّر ذلك الأحاديث الصحيحة.

وأشار هؤلاء العلماء إلى سبعة أدوار لخروجهم. أوردها أبو الكلام آزاد:

الدور الأول: قبل العصر التاريخي، أي قبل حوالي خمسة آلاف سنة، حيث كانوا يُغيرون على سهول الصين، ويهدِّدون حضارتها القديمة، بمهاجمتهم لها عبر صحراء «جوبي».

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٦٤ ـ ١٦٥.

الدور الثاني: في فجر التاريخ، أي ما بين ١٥٠٠ق. م - ١٠٠٠ق. م، وكانت الموجات المغولية منهم تتدفق من الشمال الشرقي، لتستقر في سهول الصين، وهضاب وسط آسيا ومنغوليا وتركستان. وكانوا يميلون إلى السكينة والهدوء. ويقومون بالأعمال الزراعية.

الدور الثالث: ويبدأ هذا الدور في حدود سنة ألف قبل الميلاد، حيث أغارت تلك القبائل على منطقة بحرِ قزوين، والبحرِ الأسود، وشمالِ القوقاز، وحوض نهري الدانوب والفولجا.

وكانت قبائلُ من هؤلاء، سماها اليونان قبائل «سي تهين» قد عَبَرت مضيق «داريال» في جبال القوقاز، لتهاجم حضارة «نينوى» في حدود سنة ٧٠٠ق. م وكان لهذه الهجمات المغولية على نينوى أثرٌ مباشر في سقوط حضارة الآشوريين. كما أشار إلى ذلك «هيرودوتس» أبو التاريخ اليوناني.

الدور الرابع: كان في حدود سنة ٥٠٠ق. م، حيث كانت قبائل «سي تهين» تُغير على مناطق آسيا الغربية، عَبْر مضيق «داريال» فقام ذو القرنين - كورش الفارسي - ببناء السد على ذلك المضيق، **وبذلك مَنَع غارات وهجمات يأجوج ومأجوج، وأمِنَت البلاد لفترة من الوقت**.

الدور الخامس: **وكان في حدود سنة ٣٠٠ق. م، حيث توجهت قبائل يأجوج ومأجوج نحو الشرق، وهاجموا امبراطوريةَ الصين، وقد سمّى مؤرِّخو الصين هذه القبائل «هيونغ هو». وفي هذه الفترة شيَّد امبراطور الصين «شين هوانغ تي» سورَ الصين العظيم، لصدِّ هجماتهم، وبدأ ببناء السد سنة ٢٦٤ق.م. وتم بناؤه في عشر سنوات، وقد نجح في صدِّ هجماتهم على الصين**.

وقد شاع بين الناس أن سورَ الصين هو سدُّ ذي القرنين. وهذا خطأ. فسدُّ ذي القرنين بُني على مضيق داريال لصد الهجمة الرابعة ليأجوج ومأجوج، وسورُ الصين الطويل بُني لصد الهجمة الخامسة لهم. ويبدو أن امبراطور الصين استفاد من «كورش» في وسيلته لإيقاف هجمات يأجوج ومأجوج، فبنى سور الصين!.

الدور السادس: وكان في القرن الرابع الميلادي، حيث توجهوا إلى أوروبا، بقيادة زعيمهم «أتيلا: Attila» وقد نجحوا في مهاجمة الدولة الرومانية، ودخول عاصمتها «روما» وتدميرها، وبذلك قضوا على المدنية الرومانية التي استمرت عدة قرون.

الدور السابع: وكان في القرن الثاني عشر الميلادي، السابع الهجري، حيث سارتْ جحافلهم بقيادة «جنكيز خان» نحو الممالك الإسلامية في الغرب، فقضَوْا عليها، ودمّروها، ثم نجح حفيده «هولاكو» في دخول عاصمة الخلافة «بغداد» وتدميرها عام ٦٥٦هـ.

هذه خلاصة موجزة للأدوار السبعة لخروج يأجوج ومأجوج، كما أوردها أبو الكلام آزاد، وأخذها عنه الدكتور عبد العليم خضر[١].

○ جنكيز خان وهولاكو من يأجوج ومأجوج:

ذهب فريق من المؤرِّخين والمفسرين إلى أن «المغول» أو «التتار» هم من يأجوج ومأجوج، وأنهم يمثّلون دوراً من أدوار خروجهم.

وأن خروج جنكيز خان ثم هولاكو هو الدورُ السابع من أدوار خروجهم.

وهذا القول ممكن وليس مرفوضاً ولا غريباً.

فقد كان خروج المغول أو التتار ـ أو يأجوج ومأجوج ـ كبيراً وعنيفاً، وكان اجتياحهم لبلاد المسلمين عظيماً ومدمِّراً، وكان أثرهم فيها بالغاً واضحاً.

○ المؤرِّخ ابن الأثير وتلك الفترة:

ولقد عاش المؤرِّخ ابن الأثير بدايةَ خروجِهم وحربِهم للمسلمين، وتدميرهم للممالك الإسلامية الشرقية، وسجل في كتابه «الكامل في التاريخ» الكثير من أعمالهم وفظائعهم، ومَزَجَها بعبارات كلها أسى وحزن ويأس، وصاغها بمشاعره وعواطفه وانفعالاته، وإشفاقه على مستقبل الإسلام والمسلمين.

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٦٦ ـ ١٦٨. وذو القرنين ليوسف: ٣١٠ ـ ٣١١.

ولكن ابن الأثير توفي قبل أن يصل هولاكو بغداد، حيث كانت وفاته سنة ستمائة وثلاثين هجرية.

ولا ندري لو أدرك ابن الأثير سقوطَ بغداد وتدميرها، كيف سيكون تأريخُه لتلك القاصمة، وكلامُه عنها، وهو المؤرِّخ الأديب الحساس الشاعر.

ويُعتبَر تاريخه «الكامل» مرجعاً أساسياً لبداية خروج جنكيز خان، وبخاصة في السنوات العشر الأولى من ذلك الخروج.

والجيِّد في كلام ابن الأثير، أنه لم يكن مجرد روايةِ مؤرِّخ، وإنما كان متأثراً بما يجري منفعلاً به، ولقد مزج التاريخ بالمشاعر والعواطف والانفعالات، وكأنّ قارئ التاريخ يرى أمامه شخصاً يذوب أسى وحسرة وكمداً وحزناً. كما أن ابن الأثير كان يقف ليستخلص العبرَ والدروس والدلالات مما يكتب ويؤرِّخ، ويقدم للقارئ السنن الربانية الاجتماعية التي تسيِّر أحداثَ التاريخ، فتأتي أحداثه انعكاساً لها أو ترجمة عملية لها، كما أن ابن الأثير في تأريخه لهذه الفترة، كان يأخذ مصادره وأخباره من أشخاص أحياء، عاشوا تلك الأحداث، وتأثروا بها، وتفاعلوا وانفعلوا بها، فمصادرُه حية، مأخوذة من الميدان العسكري، وكأنّ رواتَه أشبه ما يكونون بمراسلين حربيين، وصحفيين من الميدان.

ما علينا، لا نريد أن نخرج عن موضوعنا للحديث عن ابن الأثير ومزاياه.

○ بداية أمر جنكيز خان وحربه للمسلمين:

كان بداية خروج يأجوج ومأجوج في الدور السابع عام ٦١٦هـ. وذلك أنهم كانوا يقيمون في منطقة «منغوليا» وفي جبال «طمغاج» بالذات[١]، وكان لهم ملك اسمه «أُزْبِكْ خان».

وكان من كبار قُواده شاب اسمه «تموجيني» فوشى الحاسدون به عند

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٢ : ٣٦١.

الملك، فنفاه إلى منطقة نائية، فتمرد «تموجيني» على الملك «أوزبك خان» وجهّز جيشاً لحربه، ونجح في الانتصار عليه وقتْله، ونصَّب نفسه ملكاً مكانه، وغيّر اسمه من «تموجيني» إلى «جنكيز خان».

مَلَك جنكيز خان سنة ٥٩٩هـ، وأخضع المنطقة كلها له. وسار نحو الغرب الإِسلامي.

واصطدم بمَلِك المسلمين في بلاد الشرق «خوارزم شاه» سنة ٦١٦هـ، وهزم جنكيز خان الملك خوارزم شاه، ومات الأخير عام ٦١٧هـ، ثم اكتسح جنكيز خان بلاد المسلمين، واحدةً تِلوَ الأخرى.

وبقي جنكيز خان يفتح الممالك الإِسلامية، ويقتل ويدمر، حتى مات سنة ٦٢٤هـ[١].

وبقيت الحروب مستمرةً بين التتار والمسلمين بعد وفاة جنكيز خان، إلى أن مَلَكَهم حفيده «هولاكو»، وزاد هولاكو من حربه للمسلمين.

وجهَّز هولاكو جيشاً من التتار ـ يأجوج ومأجوج ـ قِوامُه مائتي ألف مقاتل، وكان جيش المسلمين في بغداد أقل من عشرة آلاف.

○ سقوط بغداد وقتل الخليفة:

وصل هولاكو وجيشُه بغداد، وحاصروها في الثاني عشر من محرم عام ٦٥٦هـ، وكان للوزير الرافضيِّ ابن العَلْقمي ـ رئيس وزراء الخليفة ـ ومستشاره الإسماعيلي الخبيث نصير الدين الطوسي. دور هام في إضعافِ جيش المسلمين، وإغراءِ هولاكو بدخول بغداد، ومراسلته سراً، وتزيينِ الأمر لديه.

وحاصر يأجوج ومأجوج بغداد، ثم دخلوها في أواخر المحرم ٦٥٦هـ، وأصدر هولاكو أمره لجيشه بقتل أهل بغداد. وأعملوا فيهم السيف مدة أربعين يوماً، واختلَفَتْ تقديرات عدد المسلمين المقتولين ببغداد وحدها، فقيل: ثمانمائة ألف، وقيل: مليون وثمانمائة ألف، وقيل: مليونان.

(١) البداية والنهاية ١٣: ١١٨.

وقام هولاكو بقتل خليفة المسلمين المستعصم بالله في صفر عام ٦٥٦هـ[١].

○ عين جالوت والقضاء على يأجوج ومأجوج:

توجَّه هولاكو بجيش المغول من بغداد نحو بلاد الشام، فاحتلّ حلب ودمَّرها وقتل أهلها.

ووقعت خلافات في مقر حكم المغول في المشرق بين القادة والمسؤولين، فتوجّه هولاكو إلى هناك، وعين القائد المغولي «كتبغا» قائداً للجيش في الشام.

وتجهز المسلمون لمواجهة «كتبغا» وجيشه، وكانوا بقيادة المظفر «قطز» والظاهر «بيبرس».

والتقى الجيشان في «عين جالوت» حيث بدأت معركة عين جالوت الضارية يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨هـ، بعد سنتين من سقوط بغداد وتدميرها.

واشتد القتال بين جيش يأجوج ومأجوج بقيادة «كتبغا» وجيش المسلمين بقيادة «قطز» وكان من أعنف المعارك وأشدها وأشرسها وأقواها، وأطلق «قطز» صيحة النصر: «وا إسلاماه». وفتح الله على المسلمين، وهزم الله المغول.

ووصل الأمير جمال الدين آقوش إلى قلب القيادة المغولية، وتمكن من قتل قائدهم «كتبغا»[٢].

وانهزم جيش المغول، وكانت هذه أول هزيمة كبيرة تحدق بهم.

وكانت «عين جالوت» بدايةَ النهاية لذلك الدور السابع من أدوار خروج يأجوج ومأجوج، وقد تلاشى تأثيرهم بعد ذلك، وزال سلطانهم، حيث لم تقم لهم قائمة.

---

(١) انظر: حديث ابن كثير عن هذه المأساة: ١٣: ٢٠٠ ـ ٢٠٦.

(٢) انظر: «البداية والنهاية» ١٣: ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

واستقرتْ قبائلٌ منهم في المناطق الجديدة، وأنشؤوا دولاً وممالك في الهند وخراسان وتركستان وغيرها.

وقد أثَّر الإسلام في بعضهم. حيث تفاعلوا معه ودخلوا فيه. وكانوا مسلمين. وكان أول من أسْلم منهم الملك «بركة خان» حفيد جنكيز خان، وابن عم السفاح هولاكو، وقد جرت معارك عنيفة بين هولاكو وبركة، انتصر بركة المسلم على ابن عمه الكافر(١).

○ ابن الأثير ينعى الإسلام والمسلمين أمام خطرهم:

أجمع المؤرِّخون المسلمون على أن الخطر المغولي كان من أخطر ما واجهه المسلمون، وأنَّ الخسائر والضحايا نتيجة لذلك الغزو المغولي فاقتْ كل خسائر الأمة وضحاياها في تاريخها كله.

وقد أشفق هؤلاء المؤرِّخون على الإسلام والمسلمين، وتوقعوا أن لا تقوم للمسلمين قائمة، وسجلوا إشفاقهم هذا في كتاباتهم.

ونعود للمؤرِّخ الشاعر الحساس ابن الأثير، لنسجل له مقطوعة تاريخية حزينة، ينعى فيها الإسلام والمسلمين.

قال في بداية تأْريخه لخروج التتر إلى بلاد الإسلام عام ٦١٧هـ.

«لقد بقيتُ عدةَ سنين مُعْرِضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدّم إليه رِجْلاً، وأؤخر أخرى، فَمَن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومَن الذي يهون عليه ذِكْر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل حدوثها. وكنتُ نسياً منسياً.

إلا أني حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقّف، ثم رأيت أن تَرْك ذلك لا يجدي نفعاً.

فنقول: هذا الفعل يتضّمن ذكْرَ الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، التي

---

(١) المرجع السابق ١٣: ٢٣٨ ـ ٢٤٠.

عقَّت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق، وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله ﷺ آدم، وإلى الآن، لم يُبْتَلوا بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث، ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدَّس بالنسبة إلى ما خرَّب هؤلاء الملاعين من البلاد؟ التي كلٌّ مدينة منها أضعافُ البيت المقدَّس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قُتلوا؟ فإن أهلَ مدينة واحدة ممن قُتلوا أكثر من بني إسرائيل.

ولعل الخَلْق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج.

وأمّا الدّجال فإنه يُبقي على من اتبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النِّساء والرجال والأطفال، وشقّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنَّة، فإنّا لله وإنا لله راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لهذه الحادثة التي استطار شررُها، وعمّ ضررُها، وسارت في البلاد كالسحاب استدْبرتْه الريح، فإنّ قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل «كاشغر وبلاساغون» ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل «سمرقند وبخارى» وغيرهما. فيملكونها، ويفعلون بأهلها ما نذكره. ثم تعْبُر طائفة منهم إلى خراسان، فَيَفْرَغون منها مُلكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان، وبلد الجبل، وما فيه من البلاد، إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية، ويخربونها ويقتلون أهلها، ولم ينجُ إلا الشَّريد، في أقل من سنة، هذا ما لم يُسمع بمثله»[١].

(١) الكامل لابن الأثير ١٢: ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

ويتابع ابن الأثير نعْيَه للمسلمين فيقول: «فإنّا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإنّ الناصرَ والمعينَ والذابَّ عن الإسلام معدوم ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع»[1].

ويقرر ابنُ الأثير عِظَم الخطر بالمغول، وأنه جرى منهم ما لم يحدث من غيرهم، واتَّفق لهم ما لم يتفق لغيرهم. ويشير إلى استغراب الذين يأتون بعده مما يقرؤون عن أخبار المغول:

«ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يُسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفةٌ تَخرج من حدود الصين، لا تنقضي عليهم سنة، حتى يَصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزوا العراق من ناحية همذان، وتالله لا شك أنَّ مَنْ يجيءُ بعدها، إذا بَعُدَ العهدُ، ؛ ويرى هذه الحادثة مسطورة، ينكرها ويستبعدها، والحقُّ بيده، فمتى استبعد ذلك، فلينظر أننا سطَّرْنا نحن ـ وكل من كتبوا التاريخ في زماننا هذا ـ في وقتٍ كلُّ مَنْ فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها.

يسَّرَ الله للمسلمين والإسلام مَنْ يحفظهم ويحوطهم. فلقد دُفِعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى مَنْ لا تتعدى هِمَّتُهُ بطنَه وفرجَه، ولم ينل المسلمين أذى وشدة، مذ جاء النبي ﷺ إلى هذا الوقت، مثل ما دفعوا إليه الآن.

والعدوُّ الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم في أقصى الروم، بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى مصر، فَمَلكوا «دمياط» وأقاموا فيها. ولم يَقْدِر المسلمون على إزعاجهم عنها، ولا إخراجهم منها. وباقي ديار مصر على خطر.

فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[2].

---

(١) المرجع السابق ١٢: ٣٦١.

(٢) الكامل ١٢: ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

○ رأي سيد قطب في جنكيز خان وهولاكو:

لسيد قطب رأيٌ في خروج المغول زمن جنكيز خان وهولاكو، حيث يميل إلى اعتبار ذلك من أدوار خروج يأجوج ومأجوج.

قال: «وبَعْد: فَمَنْ يأجوج ومأجوج؟ وأَيْن هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم؟ وماذا سيكون؟.

كلُّ هذه الأسئلة تصْعب الإِجابة عليها على وجْه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن، وفي بعض الأثر الصحيح.

والقرآن يذْكُر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

وهذا النص لا يحدِّد زماناً. ووعْد الله بمعنى وعْده بدكِّ السد، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار، وانساحوا في الأرض، ودمروا الممالك تدميراً.

وفي موضع آخر في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وهذا النص كذلك لا يحدِّد زماناً معَيناً، لخروج يأجوج ومأجوج. فاقترابُ الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة، قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء في القرآن: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ والزمان في الحساب الإِلهي غيرُه في حساب البشر، فلقد تمرُّ بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله ومضةٌ قصيرة.

وإذن فمِنَ الجائز أن يكون السد قد فُتِح في الفترة ما بين «اقتربت الساعة» ويومنا هذا. وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج.

وبعد أن أورد الحديث عن رؤيا رسول الله ﷺ في ردم يأجوج ومأجوج قال: «وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف. وقد وقعتْ غارات التتار بعدها، ودمَّرت ممالك العرب، بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم، آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبير رؤيا

رسول الله ﷺ وعِلْمُ ذلك عند الله. وكل ما نقوله ترجيحٌ لا يقين»[1].

○ يأجوج ومأجوج هم الجنس الأصفر:

ما نرجِّحه أن يأجوج ومأجوج قد تمكنوا من نقض سد ذي القرنين، والخروج منه، والانسياح في الأرض، وإفساد البلاد وتدمير المدن.

وما نرجِّحُه أن خروج المغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو هو من أدوار خروج يأجوج ومأجوج السبعة ـ التي أوردناها ـ.

وما نرجحه أن يأجوج ومأجوج هم المغول أو التتر، الذين يقيمون الآن في منطقة منغوليا وتركستان وسينكيانج في الصين.

وما نرجحه أن يأجوج ومأجوج هم «الجنس الأصفر» المقيمون في آسيا.

يأجوج ومأجوج هم أهل الصين وكوريا ومنغوليا والتبت وتركستان وغيرها. إن الصين وحدها تُعتبرُ خطراً مباشراً على أوروبا وأمريكا والعرب وغيرهم، خطرٌ في المستقبل، من حيث كثرة عددهم.

فسكان الصين وحدها هم ربع العالم. فعدد سكان العالم يزيد على أربعة مليارات قليلاً، وسكان الصين يزيدون على مليار نسمة. ونسبة تكاثر الصينيّين كثيرة وسريعة.

ماذا سيكون من هؤلاء في المستقبل؟ وكم سيكون عددهم؟ وماذا سيفعلون في العالم عندما ينساحون في البلاد؟ وعندما ينفجرون انفجاراً سُكّانياً هائلاً عنيفاً، ويخرجون في موجات متتابعة، ويجتاحون العالم اجتياحاً عاماً؟.

إن العالم يعلم هذه الحقيقة، ويُحذِّر من الخطر الصيني القادم، وقد قال امبراطور ألمانيا «هليوم» عبارةً عجيبة: «ويلٌ لأوروبا من الصين» وسماه الخطر الأصفر[2].

ويذهب بعض العلماء إلى أن «يأجوج ومأجوج» لا تعني قوماً

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٩٣ ـ ٢٢٩٤. (٢) ذو القرنين: ٣٢٧.

مخصوصين، وإنما وصفٌ عامٌ ينطبق على كل قوم مفسدين مدمِّرين. يقول محمد خير رمضان: وأرى أن «يأجوج ومأجوج» لا تعني قومية معينة وجنساً خاصاً من البشر، بل إنها كلمة تُطْلَق على أقوام همجيين، شأنهم الفساد في الأرض. وقد كان لهم وجود زمن ذي القرنين، حيث مُنِعوا من إفساد الحياة على غيرهم، حينما وَضَعَ حداً لغاراتهم ببناء السَّد»[1].

ولا نوافق محمد خير رمضان على رأيه هذا، بل نرى أنها تعني قوماً مخصوصين، رجَّحنا أنهم الجنس الأصفر ـ والله أعلم.

○ وسيخرجون قبيل قيام الساعة:

ترجيحُنا أن يأجوج ومأجوج قد خرجوا ـ عدة مرات ـ في التاريخ الماضي، لا يعني أن القوم لن يخرجوا في المستقبل.

فلقوم يأجوج ومأجوج عدةُ مرات يخرجون فيها، فقد خرجوا حتى الآن أكثر من سبع مرات، نجحوا فيها في نقض سد ذي القرنين وتدميره.

والله وحده يعلم هل سيخرجون ـ قبل خروجهم الكبير الخطير قبيل قيام الساعة، ـ وكيف سيكون خروجهم!.

لكننا نؤمن بأنهم سيخرجون خروجهم الأخيرَ الكبير قبيل قيام الساعة، نؤمن بهذا ونقرره ونعتقده، لأنه ورد في صريح القرآن وصحيح الحديث.

قررتْ سورةُ الأنبياء خروجهم الأخير، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧].

كما قررتْ خروجهم الأخير، الأحاديثُ الصحيحة التي أوردناها، والتي بينتْ أنهم يخرجون من جهة المشرق، في أعداد كثيفة كثيرة لا يعلم عدَدها إلا الله، بحيث يمرُّ أوَّلهم على بحيرة طبرية، ويشربون ما فيها من ماء، ويمرُّ آخرهم عليها فلا يجدون فيها ماء، فيقولون: لقد كان في هذه مرة ماء.

---

(١) المرجع السابق: ٣٢٩.

ويحاصرون عيسى عليه السلام والمؤمنين الذين معه في جبل الطور في سيناء، ويطول الحصار ويشتدُّ على المؤمنين، ثم يأتيهم الفرج من الله، فيرسل الدودَ على رقاب يأجوج ومأجوج، فيموتون جميعاً في لحظات، ويرسِلُ الله المطر فتسيل وديان سيناء بالماء، وتجرف معها جثث يأجوج ومأجوج، وتأخذهم معها إلى البحر!.

وبذلك ينتهي يأجوج ومأجوج، انتهاءاً حقيقياً، ويُقْضى على فسادهم القضاءَ الأخير.

لكن هذا لن يكون إلا عند قيام الساعة.

إذن خروجُ يأجوج ومأجوج لا ينفي خروجَهم في المستقبل، فهم قد ظهروا وسيظهرون. وهم قد خرجوا، وسيخرجون، وسورةُ الكهف أشارت إلى خروجهم الماضي، وسورةُ الأنبياء أشارت إلى خروجهم القادم، الخروج الكبير الخطير، الذي هو من علامات الساعة الكبرى.

○ إشاعات وأساطير يأجوج ومأجوج:

أورد بعضُ المؤرِّخين والمفسرين أخباراً عجيبة عن يأجوج ومأجوج، تحدَّثوا فيها عن أصلهم ونسبهم، وعن مناطق إقامتهم، وتحدثوا عن أوصافهم وأشكالهم وصفاتهم وأعمالهم وغير ذلك.

وهذه الأخبار والروايات أخذوها عن الإسرائيليات، ولذلك لا تعدو أن تكون خرافات وخيالات وأساطير وإشاعات.

المهم أنها لم تُؤخَذ عن مصدر يقيني مقبول، لأنها لم تُنْقَل عن رسول الله ﷺ، ونحن لا نقبل أيّ خبر أو قول لم يردْنا عن رسول الله ﷺ.

ومن هذه الإشاعات والخرافات والأساطير: ما زعَمَهَ بعضُهم من أنّ يأجوج ومأجوج هم من نسل آدم، لكن من غير حوّاء، فيكونون إخواناً لبني آدم لأب. وما نُقل أن آدم كان له امرأة غير حواء!.

ومنها ما زعَمَه بعضُهم من أنّهم من نطفة آدم، حيث نام آدم على التراب، فاحتلم، فاختلط مَنِيُّهُ بالتراب، فخُلقوا من ذلك المَنِيِّ المخلوط بالتراب.

وزعم بعضُهم أنهم أولاد يافث بن نوح، الذي توجّه بعد الطوفان نحو المشرق.

وزعم بعضهم أن يأجوج ومأجوج كانوا اثنتين وعشرين قبيلة، وأن ذا القرنين لما بنى السد جعل وراءه إحدى وعشرين قبيلة، وأدخل قبيلة منه تركها وحدها، ولهذا سُمّوا «التُّرْك» لأنهم تُرِكوا خارجه.

وزعم بعضهم أن كل قبيلة من تلك القبائل عددها أربعمائة ألف أمة.

وأن الرجل منهم لا يموت حتى يرى ألف رجل من أولاده، كلُّهم قد حمل السلاح.

وزعم بعضهم أنهم متباينون في الطول والقصر، فمنهم مَنْ هو كالنَّخْلة طولاً، ومنهم مَنْ هو كالأرزة من أرز لبنان، ومنهم مَنْ طوله أربعةُ أذرع، ومنهم مَنْ طولة ثلاثةُ أشبار، ومنهم مَنْ طوله شبرٌ واحد، ومنهم مَنْ طوله فِترٌ واحد فقط، ومنهم مَنْ له أذنان طويلتان كأذني الفيل، فيفترش الأولى تحته، ويلتحف بالثانية فوقه!.

وزعم بعضُهم أن مِنْ فسادهم وإفسادهم، أنهم لا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه، وأنهم يأكلون مَنْ مات منهم.

وزعم بعضهم أنهم لهم مخالبُ في أظفارهم، وأن أضراسهم كأضراس السباع، وأن لهم شعراً طويلاً يغطّي أجسادَهم، يقيهم الحر والبرد.

وأنهم يعيشون إباحية مُشاعة، ويتسافدون تسافُدَ البهائم، ولا تمتنع المرأة منهم من أي رجل، ولا يوجد للرجل منهم امرأة معينة.

وزعم بعضهم أن منهم مَنْ مشيهُ مشي ذئب، ومنهم مَنْ مشيه وثباً، ومنهم من لا يتكلم إلا همهمة، ومنهم مَنْ له أربعة أعين، ومنهم مَنْ له رجل واحدة، ومنهم من لا يشرب غير الدم.

إلى غير ذلك من الإشاعات والأباطيل والخرافات والأساطير(١).

---

(١) انظر: هذه الإشاعات والخرافات في الدر المنثور للسيوطي ٥:٤٥٤ ـ ٤٦٤ والبداية والنهاية لابن كثير ٢:١٠٩ ـ ١١٣ وذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٢٩٤ ـ ٣٠٨.

ولا نقبل أي خبر منها ولا قول، ولا نجيز لأحد أن يأخذها عنا ولا عن غيرنا، فنحن ذكرناها لنُحذِّر منها، حتى لا يقرأها أحد في الكتب القديمة فيصدق ما فيها.

إن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم، وهم بَشَر عاديون طبيعيون أسْوِياء، مثلُنا، وإنَّ أجسامَهم وأشكالَهم وأوصافَهم، قريبةٌ من أجسامنا وأشكالنا وأوصافنا.

وإنهم لا يتميزون علينا إلا بالكثرة الكثيرة، والانتشار العريض والاجتياح الشامل، والإفساد والتخريب والتدمير.

○ يأجوج ومأجوج من منظور البهائيين:

البهائيون فرقةٌ كافرة ضالّة مرتدّة منحرفة، يزعمون أنهم مسلمون، ولكنهم خارجون عن الإسلام، يتّبعون الضال الكافر «عبد البهاء» الذي ادعى أنه المهدي، ثم زعم أنه رسول يأتيه الوحي من الله.

وللبهائيين تفسير خاص ليأجوج ومأجوج، يخالف تفسيرَ وفهمَ الناس جميعاً، مسلمين أو كتابيّين أو ملحدين.

وفَهمهُم ليأجوج ومأجوج من أغرب تصورات الأمم، وأكثرِها ضلالاً وكذباً وافتراء، وإغراقاً في الأساطير والأباطيل.

وقد استمعتُ إلى شريط كاسيت، لأحد دعاة البهائيِّين، خصصه للكلام عن يأجوج ومأجوج، حيث تحدث فيه عنهم بلغةٍ عربية فصيحة، وأداءٍ واضح، وإلقاء بيِّن مفهوم.

وأقرر أنني تملكتني الدهشة، وسيطر عليَّ التعجب والاستغراب، مما سمعتُه من كلامهم، وهو ضلال وإفك وزور وبهتان.

○ نص شريط البهائيين:

ومن باب «إمتاع أسماع» القراء، وإطْلاعهم على كلام خياليّ مثير ـ وهو باطل وكذب وزور وبهتان ـ فإنني أدوِّنُ فيما يلي، ما ورد في ذلك الشريط.

قال فيه صاحبه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين. لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين.

قراءة من سَفْر النور الباهر.

حقيقةُ خبر يأجوج ومأجوج.

لقد جعل الله تبارك وتعالى كتابه القرآن الكريم، مناط مراده لخلقه، حسب حكمته البالغة، وعلمه العليّ. فجمع فيه ﷻ، كل متطلبات خلقه، مما يحتاجونه في حياتهم الدنيا والآخرة، أو ما يربطهم بالأرض، أو بالسماء. وأخبر تعالى عباده فيه بكافة أحوال وأنماط وأساليب حياة الأمم السابقة لأمة القرآن، وأبان فيه جميع ما آلوا إليه. قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾. ولما كان القرآن الكريم هو كلام وقانون الله ﷻ، كان أصحَّ وأوضحَ الوثائق والأسانيد التي يُعتمد عليها، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

ونذكرها هنا من منطلق الصدق والحق، حقيقةً من حقائقه، وخبراً من أخباره، التي أوردها الحكيم الخبير. ومَنْ أصدق من الله قيلاً؟.

وهذه الحقيقة وذلك الخبر، هو قصة يأجوج ومأجوج.

وقد ذكر الله خبرهم في موضعين من كتابه العزيز:

الموضع الأول منهما: في سورة الكهف، في قوله ﷻ: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

والموضع الثاني: في سورة الأنبياء في قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ولقد تخبط الكثير من العلماء في متاهات شتّى، حول هذا الخبر، الذي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وخاصة مَنْ هداهم الله تعالى، ونوّر بصيرتهم.

حتى إن بعضاً من هؤلاء العلماء، قد نسج حول هذه الحقيقة أقاصيص متنوعة، من ضرْب الخيال، لا تمت إلى الصدق بشيء. بل إن منهم من حمل ما ذكره الله تعالى عنهم في محكم كتابه على المجاز. ومنهم من ذكر أن المقصود بيأجوج ومأجوج هم الصينيون، خاصة وقد تكاثروا في زماننا هذا تكاثراً بالغاً، حتى بلغ قرابة الألف مليون نسمة.

وأمام هذا التقدم العلمي في كافة المجالات في زماننا هذا، قد تم مسح كافة بقاع الأرض جغرافياً، سواء بالأقمار الصناعية، أو بطائرات التجسس والاستكشاف، بالإضافة إلى فِرَق العلماء المستكشِفين لبقاع الأرض، لمختلف الأسباب العلمية وغيرها.

خاصة وأنه لا توجد الآن جهة ما، إلا وأقيمت فيها القواعد العسكرية والعلمية.

ولم يظهر ما يدل على وجود هؤلاء الأقوام على وجه البسيطة، مما زاد من التشكُّك في وجودهم أصلاً.

ولكن ما أخبر به الله تعالى، ورسوله ﷺ، لا يمكن إلا أن يكون موجوداً بالفعل، مما لا ريب فيه البتة.

وحتى يذهب اللبس عن العقول، وتتضح الحقيقة لدى المفاهيم، **نَرُدُّ هذا الأمر إلى من أُنزل إليه الذكر ﷺ، وهو ذاتُ الولاية والنبوة المتعيِّن في آخر دوراته «عبد الله المهدي» عليه الصلاة والسلام، كما سبق الكلام عليه في علم الدورة. فهو مناط علوم الله ﷻ كلها، إجمالاً وتفصيلاً، لأنه ذاتُ كمالِ جمالِ إجمالِ تفصيلِ كثرةِ كثيرِ غزيرِ العلم القديم، وهو السراج المنير الذي جعله الله تعالى رحمة للعالمين.**

فأبان لنا بالعلم الحقِّي الذي تنقشع أمامه سُتُر الوهم وتتلاشى إزاءه الحيرة والخيال، أن يأجوج ومأجوج حقيقة قائمة، وأنهم موجودون، خلف سدهم، كما أخبر الله تعالى، حتى يقترب الوعد الحق، بالقيامة الكبرى.

ولا ينبغي لأحد أن يضرب بفكره في مهامِهِ الوهم، أو يَحْمل أمرهم على المجاز بعد ذلك.

فقد أخبرنا حضرته عليه الصلاة والسلام، بصفته الخاتمة لدوراته العلية:

أنهم صنف من بني آدم، ولهم قصة عجيبة، بدأت قبل انتقال نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، إلى الرفيق الأعلى.

فقد مد الله حياته عليه الصلاة والسلام، بعد الطوفان، حتى تم له توزيع الجيل الثالث من ذريته، على بقاع الأرض، بأمر ربه عزَّ وجل، كما رسم له تعالى.

ويرجع منشأ يأجوج ومأجوج، إلى أنه وُلد لباناث بن يافث بن نوح، عليهم الصلاة والسلام، توأم ذكر، كان عبارة عن طفلين، غاية في قبح الصورة، تغلب على هيأتيهما صورة الفيلة، فأقدامهم وراحات أيديهم تأخذ شكل خف الفيل، ووجه كل منهما له شكل هذا الحيوان أيضاً، كما أن فم كل منهما يتدلى على هيئة خرطوم الفيل بعض الشيء، وآذانهم تشبه آذان الفيلة.

وكان أحدهما كبير الحجم، والآخر ضئيلاً، لدرجة أنه ولد ملتصقاً ببطن أخيه كأنه حشرة.

وقد أمر نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، أن يسمي الأول منهما، وهو صاحب الجسم الضخم، يأجوج، ويسمي الآخر الضئيل الحجم، مأجوج.

ولكل من هذين الاسمين معناه الخاص به، في سريانية نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام. فهما اسمان مركبان، فكلمة «يأ» بمعنى: آكل، وكلمة «مأ» بمعنى: شارب، وكلمة «جوج» المضافة إلى كل منهما، بمعنى: الإفك.

وعلى هذا، فمعنى كلمة «يأجوج» بتركيبها: آكل الإفك. ومعنى كلمة «مأجوج» بتركيبها: شارب الإفك.

وقد قال نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، ما معناه، حين سُئل عن هؤلاء القوم: إن لهذا الخلق شأناً، يريده الخالق عزَّ وجل فيه.

ثم ولد أيضاً لآراث بن يافث بن نوح عليهم الصلاة والسلام، توأم أنثى، كان عبارة عن طفلتين، بنفس هيأة الخلقة السالفة، فأمر نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، أن تسمى كبيرة الحجم منهما باسم «عوج»، ومعناه: العملاقة،

في سريانيته عليه الصلاة والسلام، وأن تسمى الأخرى باسم «عنج» ومعناه: القزمة.

وقد اقتضت حكمة الخالق، أن يكبر كل منهما في زمن وجيز.

فلما بلغا الحلم، زوج نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام «عوج» هذه ليأجوج، وزوج «عنج» الأخرى لمأجوج.

ثم قد سبق أن وضحنا، أن نوحاً عليه الصلاة والسلام، قام بتوزيع جميع ذريته على جميع بقاع الأرض، بأمر ربه، عزَّ وجل، كما أبان له تعالى.

وحقيقة ذلك: أن الله تبارك وتعالى، كان يأمر ملكين يأتيان نوحاً عليه الصلاة والسلام، في صورة طائرين، فيأمر من حان توزيعه من ذريته على بقعة ما من بقاع الأرض، باتباع هذين الطائرين الكريمين، حتى ينزل حيث شاء الخالق عزَّ وجل، في الموضع المراد ليعمره.

فلما جاء وقت إرسال هذين الزوجين من التوأمين العجيبين، أُمرا باتباع هذين الطائرين، كالمعتاد في هذا الشأن، حيث كانت الأرض تطوى بأمر الله لهم، وييسر لهم الوصول إلى المكان الذي شاءه عزَّ وجل، ليعمروه.

وقد قاد هذان الطائران الكريمان، هذين الزوجين بنوعيهما، **حتى نزلا في المكان الذي هم فيه الآن، وذرياتهم. ولا يزالون حتى يأذن الله، تبارك وتعالى.**

ويوجد مدخل هذا المكان، في موضع ما، من سهول «سيبيريا» حالياً. فلم يكن قد تكوَّن فيها هذا الجليد المتراكم عليها الآن، حيث إنها كانت مروجاً سهلية خضراء، تمتد عليها الأشجار والغابات المترامية، وذلك من أثر الطوفان الذي أكسبها الحياة، وما ترسب عنه، مما حمله من عناصر مخصبة.

وقد دخل الطائران الكريمان بيأجوج ومأجوج، فتحة كبيرة في الأرض، تنحدر إلى أدنى، في تلك البقعة، كأنها مغارة ضخمة، يبلغ ما بين صدفيها الأيمن والأيسر. قرابة الأحد عشر فرسخاً، ويرتفع سطحها الأعلى عن المنحدر حوالي نصف فرسخ.

وكان هذا المنحدر الذي نزلوا من خلاله، يؤدي إلى بطن سطح الأرض

الجوهرية المشرقة، التي كانت على ما هي عليه، قبل أن تُطحى الأرض بالتراكم، وتُدحى بالتكوير. فقد كانت قبل سريان قانون «العناصر» الذي تسبب في طحْيها ودحْيِها بإيجاد التراكمات، التي قضت بتكويرها، فقد كانت قبل ذلك، ممتدة كصحيفة من الجوهر الشفاف، أبدع البارئ المصور سبحانه صنعها، على أبهى وأجمل صورة حقية. فقد صور عليها البحار والأنهار والجبال والأشجار والزروع متجسدة حية، بحكم قانون «الإشراق» الذي أكسبها الحياة الملكوتية الكاملة، على مقتضيات ما هي عليه من تصوير وإبداع.

وكان من يريد النزول إلى بطن السطح، فإنه ينزل من أي منحدر، لأي من جوانبها، إلى أدنى، حيث تنحدر جوانبها باتساق محكم، إلى بطن سطحها، وهذا هو الوضع الطبيعي الذي أريد لها وعليها. **وقد جعل الله ﷻ، الذي أحسن كل شيء صنعاً، بطن سطحها، كهيئة وجهها، من إبداع صور البحار والأنهار والجبال والأشجار والزروع، فهي جنة وارفة فيحاء، تكسوها أنداء الجمال الرقراقة، التي تنبثق من حياة الإشراق الموجبة.**

وبطنها الأدنى يعتبر سماء لمن يسير على بطن سطحها. ويربط بينهما تكوين مربع في وسطها، يبلغ مئات الأميال، في كل جهة من جهاته الأربع، وتقوم الكعبة المشرفة الآن على مركز الوسط فيه.

وباطن هذا السطح، وما هو أدنى منه، ممتلئ بالحياة الموجبة الإشراقية، بأقوى مما كان عليه وجه الأرض المشرقة الجوهرية، قبل التراكم والتكوير.

ولما نزل يأجوج ومأجوج إلى بطن سطح الأرض الجوهرية المشرقة، من تلك الفتحة التي بين الصدفين، والتي تقع في أحد أطراف الأرض، من الجهة المذكورة آنفاً كما وضحنا، والتي كان قد أبقاها الحق عزَّ وجل، لهذا الأمر العجيب، الذي اقتضته حكمته تعالى البالغة، والذي سيتبين لنا بعد قليل، بمشيئته تعالى.

ويا لصنع الله العلي، فما أعجب ما نراه، بعد أن دلف كل من هذين الزوجين لهذه الأرض.

فقد تبدلت صورهم، من هذا القبح السابق وصفه، إلى أبهى ما يكون من الجمال الساحر الخلاب، حتى إن أجمل نساء الدنيا، لو قورنت بأية أنثى من هذين النوعين، لكانت بالنسبة لها أقبح ما تكون، وكذلك لو قارنا أي ذكر بأي ذكر منهما. وذلك بحكم قوى الإشراق الرحموتي، في موضعهم هذا، من بطن سطح الأرض الحقيقية المشرقة بنور ربها عزَّ وجل، والذي صار بالإشراق جنة الله تعالى في أرضه.

وقد تكاثرت ذرية جمة لكل منهما، بصورة لا يحصيها إلا الخالق عز وجل، وهم يعيشون في أرضهم هذه رغم تكاثرهم، في غاية الحب والتراحم وعلى درجة عالية من الإخلاص في العبادة والعلم وصلة الأرحام، التي تجعل العماليق منهم، يحملون بني عمومتهم الأقزام إذا ساروا، رغم طي الأرض بحكم إشراقها الموجب الرحموتي لمن يسير عليها. ولكنه التواد والتعاطف المنبث فيهم، بحكم حياتهم الإشراقية الموجبة.

ولقد جعل الله تبارك وتعالى أرزاقهم، تتكون من خزائن رحمته تعالى، التي بثها في قانون الإشراق الرحموتي، دون عناء أو حيلة، بل هي على حسب إرادتهم الحية كذلك. وهذا حالُ كل حياة ملكوتية، خاصة في الجنات.

ولو أننا نظرنا إليهم الآن، وكشف للناس عن حياتهم لحسدوهم، فإنهم وقد بلغوا أضعاف بني الإنسان، الذين يعيشون الآن على وجه هذه الأرض، أضعافاً خرافية لا تحصى، ولا يتخيلها عقل.

فهم يعيشون في غاية السعة والسعادة، والتقوى، فضلاً عن أنه لا توجد عندهم أمراض ولا آفات البتة، لعدم وجود أثر للعناصر التي تكون هذه العلل والآفات باختلافها واختلاطها. كما أنه لا وجود لحكم الموت كذلك في أرضهم هذه، لإشعاعها بروح الحياة الموجبة، حتى لو أمكن إدخال ميت إليها، لقام صحيحاً معافى من العلل والأسقام كافة.

ولعلك تقول في نفسك: ما هذا الشطح الشاسع الخيال؟ وقد ذكرهم القرآن الكريم بأنهم مفسدون في الأرض؟.

فأقول لك، ومن نفس المصدر الكريم، من فيض ذات الولاية العميم، عليه الصلاة والسلام، عائداً بك إلى البدء.

فإنه بعد نزول الآباء الأول السالف ذكرهم، إلى بطن سطح الأرض الجوهرية المشرقة، وبعد تكاثر ذريتهم على ما أوضحناه سلفاً، كانت البقاع التي على وجه الأرض، والقريبة من هذه الفتحة، التي هي ملتقى القشرة الأرضية، المضروبة على السطح والبطن السفلي للأرض الحقيقية الجوهرية، التي وصفناها سابقاً، وعلى ما سبق الكلام عليه في الكلام على سورة الفجر. وكانت تلك البقاع، قد ملئت بذرية أبناء عمومتهم من القبائل العديدة المتنوعة، كالتترية والمغولية، وغيرها من مختلف القبائل الأولى، المؤسسة لمختلف الأجناس، التي تعمر هذه البقاع الآن، وما يتصل بها من أمم من كل الجهات المحيطة، والتي تكاثرت ذريتهم تكاثراً لا حد له.

وقد كان يستحيل الاقتراب لأي من هذه القبائل، من مدخل الأرض التي يقيم بها يأجوج ومأجوج، وذلك لما ينبعث منها من هيبة تفتت أقوى القلوب.

ولكن بدأ خروج بعض فرق يأجوج ومأجوج، إلى خارج أرضهم.

فكانوا بمجرد خروجهم، وتعرضهم لسطوة قانون «العناصر الأثيري» الذي يحكم سطح الأرض، يعودون لأصل صورهم، بانتكاس الجمال الإشراقي فيهم، فيظهرون بصور آبائهم الأُوَل، والتي هي على هيئة الفيلة، سواء كان العماليق منهم أو الأقزام، وبالتالي ينقلبون من الكمال الأخلاقي الذي هم عليه داخل أرضهم، إلى أسوأ ما يكونون من الغلظة والشر والشيطنة، إلى درجة رهيبة لا يتصورها عقل.

وهكذا هم، على النقيضين من تناقض قانوني «الإشراق» الذي عدَّل صورهم إلى الهيئات الملكوتية، وقانون «العناصر» الذي تعرضوا له على وجه الأرض فانتكسوا به، وقَلَبهم إلى وحوش ضارية، وأشباح شيطانية خرافية.

وفي هذه الحالة يمكن تعرضهم للموت، إذا أمكن منهم. ولكن من الذي كان يستطيع الوقوف أو الثبات أمامهم؟ وهم على هذه القوة الخرافية والمهولة والخارقة للعادة، وتلك الطباع الشريرة التي لا تطاق ولا تحتمل؟.

فقد كانت غاراتهم التي يشنونها أعاصير جارفة، تمتد إلى نطاقات غائلة بعيدة المدى، لما أكسبتهم إياه حياتهم المشرقة، من قوى غير طبيعية، وطاقات خارقة في قطع المسافات أسرع من الطير، حتى إن فسادهم قد وصل إلى أعماق وأطراف ما يسمى بالهند والصين الآن، وكثير من البلدان البعيدة، والتي لم تكن قد تحددت أسماؤها آنذاك:

وكان لا يبقى أي شيء مهما كان، أمام زحفهم الرهيب المروع، فهم لا يتركون إنساناً ولا حيواناً، إلا أكلوه حياً، ولا زرعاً ولا شجراً إلا أكلوه أيضاً أو حطموه أو أهلكوه، حتى لو أن قوماً على جبل أو فيه، لجرفوه بهم، فأي صاعقة مدمرة هؤلاء؟ وأي هول ما يفعلونه وأي بلاء؟.

ومع ذلك كانوا إذا عادوا إلى أرضهم، لا يذكرون ما حدث منهم، ويرجعون فوراً إلى حالهم الملكوتي الكريم، وصورهم الكمالية الإشراقية.

وبحكم علمهم واطلاعهم الإلهامي الإشراقي كانوا يقصدون بخروجهم إيصال المنافع إلى أبناء عمومتهم، وصلة أرحامهم فيهم. ولكنهم لا يعلمون أنهم يفسدون حياة هؤلاء ويدمرونها.

فقد تسببوا في القضاء على قبائل لا تحصى من أبناء عمومتهم، حتى كادت هذه البقاع وما حولها إلى مدى بعيد، تخلو من بني الإنسان.

لولا أن الله تعالى بعث ذا القرنين ﷺ، لينقذ هؤلاء من هذا الشر البالغ الخطورة.

واعلم أن ما اكتشفه بعض العلماء في هذه البقاع وما حولها، من آثار قريبة من أجسام شبه إنسانية، تقرب من صورة الحيوان هي أصلاً لبعض هؤلاء ممن تمكنت بعض القبائل من قتلهم. وقد ظن العلماء أن هذه الأجسام لجنس من الخلق الذي عمر الأرض قبل الإنسان. وهذا خطأ بين، فإن ثلاجة «سيبيريا» تغطي المدخل المؤدي إلى بطن سطح الأرض المشرقة الجوهرية.

وهذا المدخل هو المقام عليه سد ذي القرنين، الذي أقامه بتمكين الله عز وجل.

ولعلك تتساءل عن الكيفية التي تمكن بها ذو القرنين ﷺ، من سد ما بين الصدفين يميناً ويساراً، وما بين السدة العليا والسدة السفلى لقشرة الأرض، وهي مساحات الاتساع الذي يبلغ حوالي أحد عشر فرسخاً في نصف فرسخ. وأي كميات من زبر الحديد ومن النحاس استنفدها؟ وكم من القبائل اشتركت معه، وساعدته، في بناء هذا السد الهائل الخرافي، ثم لماذا الحديد والنحاس بشكل خاص؟.

○ **فأقول لك بكشف من الله العليم الخبير:**

إن الذين اشتركوا مع ذي القرنين ﷺ في بناء هذا السد، من رجال هذه القبائل، سبعة رجال فقط! ولم يشترك معه سواهم من أتباعه أو جنده، بل إنه أمر جميع القبائل والجند بالابتعاد إلى مسافة لا تصل منها أبصارهم إلى رؤية ما يفعل أو يحدث، وقد اختار سبعة رجال من أتقى رجال هذه القبائل، رغم عدم احتياجه إليهم، لتمكين الله القوي العزيز له، على حد ما أخبر الحق عز وجل به في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾. وعلى حد ما ذكره تعالى أيضاً، عن رد ذي القرنين على هؤلاء القبائل حين طلبوا جمع المال له: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ ولكن أشرك هؤلاء السبعة معه، لينالوا وأقوامهم مثوبة الأجر بقيامهم في الأسباب، ولإظهار أمر الولاية المختزن فيهم. ومن هنا كان اختياره لهم.

وهم، أي هؤلاء السبعة المعنيون بقوله تعالى؛ حكاية عن ذي القرنين، ﷺ: ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

وقد كانت كمية زبر الحديد التي استخدمها، تبلغ زنة سبعة أرطالٍ فقط، وضعت في قصعة، ثم أمرهم أن يكبروا الله تعالى سبع تكبيرات، ويشعلوا النار، ثم يكبروا وينفخوا سبع مرات بسبع تكبيرات، فتم له بذلك إعداد الحديد المنصهر.

وأمر هذه الفتحة أن تلتئم بإذن الله تعالى، فالتأمت، حتى صارت كالنافذة الصغيرة. فأخذ يسويها بيديه، حسب طاقة تمكينه الرباني، حتى صارت مساحتها

متراً في نصف متر، بمقاييسنا الحالية الآن. وهو في تمام الاستواء والاعتدال، ثم وضع عليها لوحاً من الحجر كان قد أعده لذلك، ثم أمر الرجال السبعة، أن يحملوا معه قصعة الحديد المنصهر، وهم يكبرون، فصبه على الحجر وعلى الشقوق التي حفرها بأطراف الفتحة، ليتلبس معها تماماً. ثم أسال كمية مماثلة من النحاس. وصبها على الحديد بنفس الطريقة. وذلك أمر الحكمة ومقتضاها التي أعطاه الله القوي الحكيم إياها. ثم أمر الأرض بإذن ربه القدير، أن تعود إلى ما كانت عليه من الامتداد، فعادت بإذنه عز وجَلَّ.

فإذا بهذا السد قد امتد معها، وعرض بقدر الاتساع الذي كانت عليه تلك الفتحة، ولكن على صورة بديعة من الاستواء والاعتدال، والشموخ.

ثم جاء الجليد بعد ذلك بزمان، حتى صارت على ما هي عليه الآن.

فاعلم أن الحديد وظيفته البأس الشديد، وهي خاصية فطرها البارئ عزَّ وجل فيه، قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فإذا انعكست عليه أشعة الإشراق من داخل الأرض المشرقة، بعثت فيه حياة موجبة، تجعل له أشعة من البأس، تتخلل الحجر الذي هو أدنى منه إلى مسافة فرسخ. وتلك هي الحكمة من وضع الحجر قبل الحديد، فإن المجال الإشراقي الموجب، والذي لا يقبل الأشياء الطبيعية أياً كانت، لأنها ليست من الجوهر الحقيّ الحي، إلا إذا وضعت فيه بإذن الله تعالى فإن ذلك المجال الإشراقي قد أكسب الحجر جوهرية الأرض الحية، فشحن بالحياة الموجبة، فبث بالتالي روح تلك الحياة، في الحديد الذي يعلوه ليجعل البأس منه إلى الداخل، بالقدر المراد على مقتضى الحكمة. وذلك لأن طبيعة الجواهر المشرقة بروح الحياة الموجبة، تجعلها تتقبل الإرادة المخاطبة لها.

ومن هنا بث في الحجر، مراد ذي القرنين، من انعكاس بأس الحديد إلى الداخل، بمقتضى ما علمه الحكيم العليم عزَّ وجل إياه.

وعلى هذا فإن رطلاً واحداً من الحديد، إذا تعرض لمجال إشراقي، انبعث منه مجال البأس الشديد، إلى مسافة فرسخ مكعب، فالأرطال السبعة من

الحديد ينبعث منها مجال من البأس الشديد، يبلغ سبعة فراسخ مكعبة، إلى داخل الأرض المشرقة.

فإذا نظرت إلى الأحد عشر فرسخاً في نصف فرسخ، وهي اتساع الفتحة الأصلية، عرفت أية طاقة مجسدة من بأس الحديد، موزعة بإحكام على أبعاد هذه الفتحة فرسخ واحد، تدفع من يحاول ارتقاء المرتفع المؤدي من الداخل إلى الخارج، حتى لا يستطيع أحد أن يظهره أو يقترب منه. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

فهم ما يكادون يقتربون من مجال بأس الحديد، حتى يجدوا مطراً من السهام الدقيقة الثقيلة، يحول بينهم وبين ارتقاء المرتفع المؤدي إلى المخرج.

ثم ينعكس فيهم سر البأس، فيقعون في بعضهم بعضاً ضرباً وتنكيلاً. دون أن يصاب أحد منهم، لامتناع الإصابة والعلل والموت، كما ذكرنا.

ولكن بحكم ما بينهم من مودة وتعاطف، **يؤذي** نفوسهم أن يفعلوا ببعضهم ما يفعلونه، عند **اقترابهم من هذا المجال.**

ولذلك نراهم يقيمون **الحراسات على** مدى منه، حتى لا تخطئ جماعة منهم في الاقتراب منه، فتصيبهم **هذه اللعنة العجيبة** الصورة.

أما النحاس الذي أفرغه ذو القرنين ﷺ، فوق الحديد من الخارج، فالغاية منه استشفاف روح الإشراق الممزوجة بالبأس، حتى يتفاعل النحاس فيكون طاقة مشعة صاعقة، لمن يحاول العبث بجسم السد من الخارج لو وصل إليه.

وكان هناك جزء باق من هذا السد ظاهر على وجه الأرض، إلى ما يقرب من ثلاثمائة عام، ثم تم اختفاؤه تحت جبال الجليد في سيبيريا، حتى لا يتم اكتشافه، بوسائل الطيران، وغير ذلك، مما قدر أن يصل إليه الإنسان، وذلك رحمة من الله تعالى بخلقه.

ثم إن هذا السد، مع بساطة ما هو مبني به من حديد ونحاس، إلا أنه يبلغ من الصلابة قوة هائلة، لا تقدَّر ولا تُفل، حتى لو فجرت فيه ألف قنبلة نووية ما

كسرت منه بوصة واحدة! وكيف، وقد بني بتمكين القوي المتين، عزَّ وجل.

ثم إذا نظرنا إلى الحكمة التي أكسبت عناصره هذه القوة، نجد أنها من حياة قانون «الإشراق» الموجبة، التي تستمدها تلك العناصر من باطن الأرض الجوهرية المشرقة.

ثم إن ذا القرنين ﷺ، لم يبنه إلا بالتمكين الذي أعطاه الله إياه، عن علمه تعالى وقدرته، فكيف لا تخرق العادات أمامه.

وسيظل هذا السد هكذا على حاله، حتى يقضي الله العليم بدكه عند اقتراب وعده الحق، قال ﷻ في سورة الكهف: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

ولكي يثلج صدرك ويستكين، ويستنير عقلك ويستبين، أزيدك إيضاحاً، من فيض خزانة العلم اللدني، كما أخبر الصادق الأمين ﷺ المتعين في آخر دوراته العليا «عبد الله المهدي» عليه الصلاة والسلام كما تقدم في الشرح المبين.

فأقول لك: **إن يأجوج ومأجوج لا يخرجون من خلف سدهم هذا إلا بإذن الله تعالى، عند اقتراب وعده الحق، بالقيامة الكبرى،** كما أخبر سبحانه في سورة الكهف، في قوله الكريم: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾. وفي سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

سيجيء وعد الله الحق حتماً، إن الله لا يخلف الميعاد.

ولكن بعد انتهاء مدة حكم الإمام الأعظم «عبد الله المهدي» عليه الصلاة والسلام، والتي تبدأ بعدها فتنة «المسيح الدجال» على ما جاء في الكلام على سورة الفجر.

فعندما يبدأ انسلاخ هذا اللعين من آيات ربه، وتنكشف عنه هيئة جنة «إرم ذات العماد» النورانية، ويخلد إلى الأرض لغلبة شقوته كما قال الله عزَّ وجل، في سورة الأعراف: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ

ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

والأرض آنئذ في حال إشراق تام بنور ربها، دون كثافات عليها البتة، إلا ما هو مضروب على بطنها من حاجز يمنع خروج يأجوج ومأجوج.

وبإخلاد المسيح الدجال اللعين إليها، يحجب كل ما يقع عليه بصره فوقها، فيغطي سطحها بحجاب من رماد مائل إلى السواد، فيحتجب بذلك ما عليها من صور مجسمة من بحار وأنهار وزروع وأشجار، ويتلاشى تجسيمها المشرق الإيجابي الحي.

ثم تتداعى كل قصوره ومنازله وأنهاره بجنات «إرم» السبع، إلى الأرض، منطوية في النار المقدسة، التي قال عنها الحق عزَّ وجل، في سورة النمل: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهي نار مباركة لا تحرق أبداً، وإن كانت عظيمة الهيأة، مهولة الصفة، لأنها تتسع بقدر ما تحويه من منشآت.

وعلى إثر ذلك يقوم هذا اللعين الآفك، بإنشاء مصنوعاته الموهومة فوق ذلك الحجاب المضروب على وجه الأرض، بمعونة الشيطان وجنوده، وفيها من الأنهار والمنازل والملاعب، ما يعجز عن وصفه البيان. وذلك بواقع تمكينه الظلماني.

وتنتهي فتنته لعنة الله عليه، على يد نبي الله «عيسى» عليه الصلاة والسلام، الذي يصرعه بالحربة الروحانية، لتأخذه ملائكة العذاب إلى النار، لأن حكم الموت متوقف منذ قيام الساعة، حتى يوم القيامة الكبرى.

ثم يأمر نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، النار المقدسة أن ترتفع إلى السماء بما تحويه من قصور ومنازل «إرم» فترتفع بها وبمن فيها ممن أُعطوا الشجاعة على اقتحامها، حين خوفوا بها، وهؤلاء هم الذين يعودون إلى السماء فقط.

أما نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، وخلفاء الإمام الأعظم عليه الصلاة والسلام، ومَن خلفهم من أمم وأقوام، فيوحى إليهم أن ينحازوا إلى بيت المقدس وإلى المسجد الحرام، وهما في هيئتيهما الجوهرية المشرقة، وإلى المدينة المنورة بحدودها الأصلية، التي كانت عليها، زمن رسول الله ﷺ، وهي في صورتها التي حولها الحق إليها من الجوهر والإشراق، وذلك بإشراق الأرض بنور ربها عزَّ وجل، بعد قيام الساعة. وهذه البقاع قد حفظها الله تعالى من دخول الدجال، وهي محفوظة أيضاً من دخول يأجوج ومأجوج.

ومن هنا كان سر وحي الله لنبيه عيسى عليه السلام، أن ينحاز ومن معه من أمم، إلى تلك المواضع المكرمة المقدسة، وذلك لاقتراب وعد الله الحق، بخروج يأجوج ومأجوج، ووقتئذ يسقط كل ما هو محيط ببطن الأرض من كثافات كانت تمنعهم، فينسلون من جهات الأرض الأربع، تحقيقاً لما وعد به الحق عزَّ وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

فيخرجون سيولاً هائلة: تملأ سواد الأرض، وتعود لهم صور آبائهم الأُول، فتبرز قبح خلقتهم، وتظهر صورهم الوحشية البشعة، ينتشرون بسوء طباعهم، وغلظة وفظاظة جبلتهم المنتكسة، بخروجهم من المجال المشرق إلى المجال المضاد، من أثر ما صنعه الدجال من فتن على وجه الأرض.

فما يتركون شيئاً مما صنعه الدجال من إفك، على وجه الأرض، إلا أكلوه، وشربوا ما صنعه من أنهار، وبذلك تتحقق فيهم تسمية نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام بهذين الاسمين، حيث إن كلمة يأجوج في سريانيته بمعنى «آكل الإفك» وكلمة «مأجوج» بمعنى «شارب الإفك» كما تقدم إيضاحه، وها قد تم لهم ذلك.

ثم تفر الشياطين من هذه المنشآت الإفكية التي التهمها وشربها قوم يأجوج ومأجوج إلى خارج الأرض، تهوي في الآفاق المحيطة بها. وعلى رأسهم «إبليس الأكبر» ويظلون يهوون هكذا في هذا الفراغ السحيق. إلى يوم

القيامة الكبرى، فليس لهم مكان على الأرض بعد ذلك، تحقيقاً لقول الله عزَّ وجل: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

وأما ما سيكون من ضلال بعد مدة حكم نبي الله عيسى عليه السلام، إلى يوم القيامة الكبرى، إنما هو من الناس، بحكم ما اكتسبوه من قوى ملكوتية، انتكست فيهم بهوى أنفسهم.

ثم بعد أن تطهر الأرض من كل ما صنعه الدجال من إفك، وقد التهمه وشربه قوم يأجوج ومأجوج، تتنزل طيور من سجيل، تقذفهم بحجارة مسومة، فيصرعون جميعاً، ثم تمطر السماء عليهم مطراً يكتسح أجسادهم إلى خارج الأرض، حيث تتلقفهم طيور سوداء ضخمة الأحجام والأجنحة وبذلك يتحقق قول الله عزَّ وجل: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

فالشياطين هي التي تهوي بها الريح في مكان سحيق، لأنها لا مكان لها على الأرض آنئذ، كما تقدم تبيانه. وأما الذين تتخطفهم **الطير فهم هؤلاء أي قوم يأجوج ومأجوج، لما علق بهم من إفك الدجال اللعين، الذي أكلوه وشربوه، حيث قد صاروا أوعية له، فتذهب بهم إلى النار الكبرى، فيلبثون فيها أحقاباً لا تحصى. وهم آخر من يخرج من النار، وهم فيها غير معذبين، ولكنهم وسيلة من وسائل تعذيب أهل النار. وفي نفس الوقت يتعدل تركيبهم الذري، دون انعكاس الآلام في ذواتهم النفسية، لأنهم معذورون في أصل خلقتهم.**

وبانقشاع أجسامهم من على سطح الأرض بالمطر الذي جرفهم كما أسلفنا بيانه، يجرف هذا المطر أيضاً، الحجاب الرمادي الذي ضرب عليها، **ثم يعود للأرض حال إشراقها وحياتها الملكوتية، ويظلها السلام والعدل والوئام، تحت حكم نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام وأتباعه. وتتحقق آية الإنجيل الحقيقي الكريم: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة».**

وتظل في أمنها هذا، حتى يرتفع نبي الله عيسى عليه السلام إلى الرفيق الأعلى، ويتبعه الخلفاء عليهم الصلاة والسلام، وينتكس الناس بعد ذلك انتكاساً مفزعاً مروعاً، على حد ما أخبر به الحق عزَّ وجل، في ذكره الحكيم: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

ثم ما يلبث الحال، حتى تقوم القيامة الكبرى، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

وبهذا البيان الحقي الواضح، نكون قد أمطنا اللثام، عن خبر يأجوج ومأجوج، بما حققه لنا وأجلاه، خير وسيد عباد الله، خليله وحبيبه ومصطفاه، الإمام الأعظم الختام «عبد الله المهدي» عليه الصلاة والسلام.

وهذا ما ستثبته الأيام عن قريب، بإذن الله تعالى ومشيئته.

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من المصدقين المسلّمين، لننال أجر الفوز والبر، ونحظى بالمثوبة والخير، ونكون من الغانمين، آمين.

○ تعقيب موجز على هذه الأباطيل:

أوردْنا هذا الكلام الضال الباطل ـ على طوله ـ كاملاً، وحرصْنا على ذكْره حرفياً، لنقدم للقراء الكرام صورة من تصورات الفرق الضالة، وتفسيرات المذاهب المنحرفة، وتلاعبهم بكتاب الله سبحانه، وتحريفهم لمعانيه ودلالاته.

ونلاحظ على هذا الهراء والزيف عدة أمور. منها:

١ ـ إنه لا يقوم على مصدر صحيح، من أحاديث رسول الله ﷺ، وإنما هو افتراض وادعاء، يفتقد الدليل والحجة والبرهان.

٢ ـ إنه خوضٌ في عالم الغيب بدون وسيلة صائبة، ولا دليل مقبول، ولا منطق عقلي سليم. وعالمُ الغيب وأحداثُه وحقائقه لا تؤخَذ إلا من كتاب الله، أو ما صح من حديث رسول الله ﷺ.

٣ ـ إن هذا الكاذِب الملفّق المفتري المدَّعي، قد أطلق لخياله العنان، فسار، وساح، وتخيّل عوالم عجيبة تحت الأرض، ولها حياة خاصة، هي

أقوام يأجوج ومأجوج، والصورة التي عرضها عليها، لا توجد في عالم الواقع المادي، ولا وجود لها إلا في خيال صاحبها، وفي خيال من يصدقُه.

٤ ـ ولعل هذا التحريف والإِفك والافتراء، يدفعنا إلى زيادة اليقظة والحذر، تجاه حقائق القرآن ومعانيه ومفاهيمه. واستمرار الدعوة إلى عدم تفسيره إلا بالحق والعلم.

ولا نُجيز لأحد أن يورد من كلامنا مصدِّقاً له، مؤمِناً به، بل يورده من باب التحذير والتنبيه!.

* * *



مع آيات القصة

○ الرسول ﷺ يتلو من قصة ذي القرنين:

تبدأ آيات قصة ذي القرنين بالسؤال الذي وجهه المشركون إلى رسول الله ﷺ. وهو السؤال الذي لقَّنه اليهودُ للمشركين ليسألوه عنه، حيث قالوا لهم: اسألوه عن رجل طواف، طاف المشرق والمغرب، ما قصته؟ كما سبق أن أوردناه.

تقول الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

الجواب: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

وعندما ننظر في هذا الجواب، فإننا نستخلص منه بعض الدروس واللفتات، والتوجيهات والإيحاءات منها:

١ ـ بداية الجواب بكلمة ﴿قُلْ﴾ وهي التي يسميها علماء التفسير: «قل التلقينية» بمعنى أن الذكر والقصة ليست من عند رسول الله ﷺ، وإنما هي تلقين من الله ﷻ، لرسوله عليه الصلاة والسلام.

والتعبير بـ: قل التلقينية يرشدنا إلى أن الوحي من عند الله، وأنه تلقين للرسول ﷺ.

ويصرحُ الرسول ـ الممتحَن ـ عليه الصلاة والسلام، بهذا التصريح لسائليه وممتحِنيه، ويُبين لهم أن الجواب ليس من عنده، وإنما هو من عند الله، وذلك لينفي عن نفسه أيَّ جهد في الجواب، وليعترف بأنه مبلِّغ لكلام الله سبحانه.

ونلحظ رعايةَ الله سبحانه لرسوله ﷺ، ونصْرَه له، وتلقينَه الحجة، وتقديمَ الجواب له، فهو يُسأل عن ذي القرنين، ويخبره الله سبحانه بالجواب.

٢ ـ ما معنى أن يتلوَ الرسول ﷺ ذكْرَ ذي القرنين؟.

إنه يعني ـ بالإضافة إلى ما ذكرناه ـ أن كلامَ الرسول ﷺ عنه هو الحق والصدق، وأن الأمر كما أخبر رسول الله عليه الصلاة والسلام، لأن الله أخبره بذلك.

وإنه يعني أن نتقبل هذا البيانَ الصادق عن ذي القرنين، وأن نأخذه، وأن نؤمن بأنه حدث فعلاً، وأن لا نحاكم هذا البيان النبوي إلى مصادر أخرى، وأن لا نطلب منها تصحيحَ هذا البيان أو تصويبه أو التعقيب عليه.

كما يعني أن نكتفيَ بهذا البيان النبوي الصادق الثابت، وأن يَسَعنا ما قدمه لنا من ذكر أحداث القصة، بمعنى أن لا نطلب زيادة على ذلك من مصادر أخرى غيرِ يقينية، وأن لا نذهب إلى الإسرائيليات، وروايات السابقين وأخبارِهم وأقوالِهم، لنأخذ منها تفصيلات لأحداث القصة.

١ ـ ونقف لحظة أمام كلمة «منه».

إنها «من» التبعيضية.

أي أنّ الرسول ﷺ، لن يقدِّم لهم كل تفصيلات وأحداث قصة ذي القرنين، وإنما سيقدم أهمَّ تلك التفصيلات، والأحداث، سيقدِّم بعضها.

وكلمة «منه» تشير إلى منهج القرآن في عرْض أحداث قصصه، وهو أنه لا يعرضها مفصَّلة تفصيلاً دقيقاً، ولا يقدِّمها مرتبة ترتيباً على أساس وقوعها، وما فيه من تفصيل واستيعاب.

إن التي تعني القرآنَ، هي مواقفُ العبرة والعظة، المواقفُ التي يأخذ منها المستمعون الدروس والدلالات. ولذلك يَعرض من القصة هذه المواقف فقط، يعرض من القصة ما يحقِّق له أهدافه التي يبغيها منها، ويعرض من القصة المشاهد واللقطات والمقاطع التي فيها فائدة أو علم أو عبرة، ويُغفل ـ عامداً ـ التفصيلاتِ والأحداث والأخبار التي لا تحقق فائدة أو علماً أو عبرة.

ولذلك نؤمِن بأن ما عرضه القرآن، إنما هو أهم مشاهد ولقطات القصة، وهذا هو بعض مشاهدها لا كلُّها.

ونقرر بأن ما أغفله القرآن من تلك التفصيلات، لا فائدة منه أوّلاً، ولا سبيل للوقوف عليه كما حدث فعلاً ثانياً، ولذلك لا يجوز أن نطلب هذا من المصادر والمراجع الأخرى، وعلينا أن نكتفيَ بما عرضه القرآن من أهم أحداث السابقين، وأن نتعامل مع ما عرضه كما تعامل الصحابة الكرام، عندما اكتفوا به.

○ تمكين الله لذي القرنين:

أخبر القرآن أن الله مكّن لذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والتمكين مأخوذ من المكان والمكانة. أي تملّك المكان، وأصبح ذا مكانة.

ولقد مكّن الله لذي القرنين في الأرض، بأن هيأ له أسباب النصر والنجاح.

واعترف ذو القرنين بتمكين الله له، وأنّ ما يملكه من القوة والنصر، إنما هو بتمكين الله. فقال للقوم الذين وجدهم في رحلته الشمالية بين السدين: «ما مكني فيه ربي خير».

ونلاحظ أن الفعل الماضي «مكّن» في قصة ذي القرنين، قد ذُكر مرتين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾.

وعندما نمعن النظر في هذا الفعل في الجملتين، فسنجد فيه بعض اللفتات:

١ ـ إن الفاعل في الفعلين هو الله. حيث أسند الفعل «مكن» إلى الله. وهذا هو ما يقرره الإيمان، وتوحي به العقيدة، من أن الله وحده ـ سبحانه ـ هو الفاعل الحقيقي لكل ما يقع في هذا الكون. إن الله هو الذي يُقدِّر الحدث ويشاؤه ويريده، وما الناس في كسبهم وسعيهم وعملهم إلا أسباب ظاهرية خارجية، أما المسبِّب والمقدِّر فهو الله وحده ـ سبحانه ـ.

٢ ـ إن ذا القرنين في الجملتين جاء مفعولاً به. حيث تعدى الفعل إليه

في الجملة الأولى بحرف الجر «مكنبا له» بينما تعدّى إليه مباشرةً في الجملة الثانية «مكني».

٣ ـ ونتساءل عن الحكمة من تعدي الفعل إلى المفعول في الجملة الأولى بحرف الجر «مكنا له» بينما تعدى إليه مباشرة في الجملة الثانية «مكني».

إن الفعل في الجملة الأولى أضعفُ منه في الجملة الثانية! والذي جعله أضعف هو السياق الذي ورد فيه. وكم من مرة نرى فيها السياق القرآني ذا أثر في قوة الفعل أو ضعفه وفي حركته وصياغته!.

فعل «مكَّن» في الجملة الأولى ضعيف، ولذلك لم يتمكن من التعدية إلى المفعول به بنفسه، ولا الوصول إليه بنفسه، لذلك استعان بحرف الجر «اللام» ليوصله إليه، فتعدّى إليه بواسطتها.

وسببُ ضعْف الفعل في الجملة الأولى، أنه ورد في بداية إيراد قصة ذي القرنين، وتحدَّث عن بداية أمره. ومعروف أن الأمر عند بدايته يكون أضعف منه عند نهايته. ولهذا الضعف احتاج إلى اللام لتعديه إلى المفعول به.

أما في الجملة الثانية «ما مكني فيه ربي خير» فإن فعل «مكن» قوي، ولذلك تعدى إلى المفعول به بنفسه، وَنَصَبَه مباشرة. والسياق هو الذي منحه القوة، فهو ـ أولاً ـ يتحدث عن ذي القرنين بعدما ظهر وتمكن وسيطر وانتصر، وهو ـ ثانياً ـ ورد في سياق قوة ذي القرنين في بناء السد عند أولئك القوم.

وهذا الفرق بين التمكين في الجملتين، قريب من الفرق بينه في جملتين مشابهتين، في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

○ التمكين في القرآن:

تقودنا وقفتُنا مع «التمكين» في قصة ذي القرنين إلى النظر في «التمكين» في آيات القرآن.

ورد فعل «مكَّن. يمكِّن» ثلاث عشرة مرة في القرآن.

مكنّا. مكنّاكم. مكنّاهم. مكّنّي. نمكّن. ولَيمكّنَنّ.

وعندما ننظر في هذا الفعل في المرات الثلاث عشرة كلِّها، نرى أنه مسنَدٌ إلى الله وحده. وأن الفاعل له هو الله. أما المفعول به، فهو الذي يمكن الله له، أو الذين يمكن الله لهم.

ونخرج من وقفتنا تلك بهذه القاعدة البيانية:

فاعل «مكن. يمكن» في القرآن هو الله. والتمكين في القرآن لا يُنسب إلا إلى الله، ولا يُسند إلا إليه.

وهذه القاعدة البيانية تقودنا إلى قاعدةٍ إيمانية اعتقادية، ذاتِ بُعدٍ تاريخي حضاري.

إن الله هو الذي يمكّن للقادة والزعماء والحكام، وهو الذي يقدِّر لهم الملك والظهور والسيادة، وإنهم لا يملكون ويسودون لقوة ظاهرية فيهم، أو قدرة ذاتية لهم، وإنما هم سِتار لقدر الله سبحانه.

وإن الله هو الذي يمكن للأقوام والأمم والشعوب والدول، وهو الذي يقدِّر لهذه الأمة أن تتغلب وتنتصر، وهذه الدولة أن تسود وتظهر، وهذا الشعب أن يسيطر ويتمكن.

وإن الله سبحانه هو الذي يُقدر الأحداث، ويشاء الوقائع، ويدير الأمور، وإنه لا يحدث شيء في أي مكان، إلا بإذن الله سبحانه وتقديره وإرادته.

هذه قاعدة إيمانية، وحقيقة قرآنية، قررتها آيات كثيرة في القرآن.

وهذه الحقيقة قد يغفل عنها بعض الناس، وهم يبحثون أسبابَ قيام الدول وعواملَ اندحارها، وينسونها وهم يدرسون تملُّك الزعماء، وحكم القادة، وهم يتابعون الصراع على السلطة والحكم، ويغفلون عنها وينسونها وهم يعْرضون ـ أو يسمعون ـ أحداث العالم السياسية والعسكرية والقتالية والحربية.

إنه لا يقع حدث إلا بإذن الله. ولا يحصل شيء إلا بإذن الله، ولا يزول حاكم إلا بإذن الله، ولا يملك آخر إلا بإذن الله، لا ينتصر جيش إلا بإذن الله.

ولا تسود أمة إلا بإذن الله، ولا تنهض دولة إلا بإذن الله، ولا تنشأ حضارة إلا بإذن الله.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾﴾.

○ مظاهر تمكين الله لذي القرنين:

أشار القرآن إلى تمكين الله لذي القرنين، وعَرَض مظاهر هذا التمكين بعبارة عامة موجزة، فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾.

والسبب هو الوسيلة التي يحقَّق بها التمكين، والطريق الذي يصل به للتمكين، السبب هو المظاهر المادية التي تحقق التمكين، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو عسكرية أو حربية أو صناعية أو حضارية.

أعطى الله ذا القرنين أسبابَ الحكم والفتح، وأسبابَ البناء والعمران. وأسبابَ السلطان والمتاع... وغير ذلك.

وقد فسَّر ابن عباس وتلاميذه هذا السبب بأنه العلم. أي آتيناه علماً تمكن به من الفتح والنصر والسيادة.

وقال قتادة: السبب هو منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد: السبب هو تعليم الألسنة، فكان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم.

ولكن بعض الإِخباريين ورواة الإِسرائيليات، يأبون إلا أن يوردوا أساطير وخرافات وإسرائيليات، عن مظاهر هذا التمكين، وبيان أسبابه.

وقد أورد الإمام ابن كثير حادثةً لطيفة، تتضمن حواراً بين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وبين كعب الأحبار، وعلَّق عليها ابن كثير تعليقاً رائعاً.

«عن سعيد بن أبي هلال أن معاوية بن أبي سفيان، قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريّا؟.

فقال له كعب: إن كنتُ قلتُ ذلك، فإن الله يقول: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾.

وعلَّق ابن كثير على هذا الحوار بقوله:

«وهذا الذي أنكره معاوية ﷺ على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار. فإن معاوية كان يقول عن كعب الأحبار: «إن كنا لَنَبْلو عليه الكذب» يعني فيما ينقله، لا أنه كان يتعمَّد نقلَ ما ليس في صحفه، ولكن الشأن في صحفه أنها من الإسرائيليات، التي غالبها مبدَّل محرَّف مصحَّف مختَلَق، ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسوله ﷺ، إلى شيء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض.

وتأويل كعب الأحبار قول الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحفه، من أنه كان يربط خيله بالثريا، غير صحيح ولا مطابق، فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقِّي في أسباب السموات، وقد قال الله تعالى في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مما يُؤْتىٰ مثلُها من الملوك.

وهكذا ذو القرنين. يسَّر الله له الأسباب. أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرّساتيق والبلاد والأراضي، وكسْر الأعادي، وكبْت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. وقد أُوتيَ من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً. والله أعلم»[1].

○ أخْذ ذي القرنين بالأسباب:

مكَّن الله لذي القرنين في الأرض، وهيَّأ له الأسباب والوسائل لتحقيق التمكين والانتصار.

ويخبر القرآن أن ذا القرنين قد استفاد مما منحه الله من مظاهر ووسائل وطرق وأسباب، وأنه قد أحسن استغلالها وتوظيفهَا والتعاملَ معها.

قال عنه: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ أي أخذ بتلك الأسباب والوسائل.

وهذا يدل على فطنة ذي القرنين وذكائه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٠١.

كثيرون الذين يمنحهم الله ما يمنحهم من مظاهر وأسباب ووسائل، نحو النجاح والتمكين والفوز، وهذه الأسباب منها ما هو مادي حسي، ومنها ما هو معنوي مثل الفطنة والذكاء، والصحة والقوة، والشخصية وحسن المعاشرة، والوقت والعمر، وغير ذلك.

كثيرون الذين تُتاح لهم أسباب النجاح والتمكين، لكنهم لا يستفيدون كلُّهم مما منح الله لهم، بل معظمهم يبدِّدون ما منح الله لهم ويضيعونه، ولا ينتهزون الفرصة، ولا يغتنمون المناسبة، ولا يستغِلّون الظرف والوقت. وبذلك تضيع المناسبة الممكنة.

قليل هم الذين يستفيدون مما منح الله لهم، ويُحسنون التعامل معه واستغلاله، هؤلاء هم الأذكياء العقلاء.

ولقد كان ذو القرنين من هذا القليل، حيث أَتْبَع سبباً.

وقد وردتْ هذه العبارة ثلاث مرات «أتبع سبباً» وذلك لأنه قام بثلاث رحلات حربية جهادية: واحدة للمغرب، والثانية للمشرق، والثالثة للشمال.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾.

○ غروب الشمس في عين حمئة:

أخبر القرآن عن رحلة ذي القرنين الأولى بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

وكانت هذه الرحلة الجهادية نحو الغرب. كما رجحنا في كلامنا السابق عن ذي القرنين أنه «كورش الفارسي». وأن هذه الحملة كانت ضد مملكة «ليديا» اليونانية؛ وأنه احتلّ عاصمتها «سارديز» وأسَرَ ملكها «كروسس». وأن «سارديز» كانت تقع على بحر إيجه، بالقرب من مدينة «أزمير» التركية حالياً.

ولقد أخبرت الآية أن ذا القرنين قد بلغ مغرب الشمس، ومعلوم أن الأرض تجري، وأن الشمس أيضاً تجري.

إن مغرب الشمس، ليس مكانَ غروبها حقيقة، لأن الشمس ليس لها مشرق واحد، ولا مغرب واحد، بل لها عدةُ مشارق وعدةُ مغارب، وفي هذا يقول القرآن: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

لها مشارق ومغارب باعتبار الناظرين إليها من أية بقعة من البقاع.

ولها مشارق ومغارب باعتبار المطالع التي تطلع منها حسب البلدان، والتي تغرب منها كذلك.

ولها مشارق ومغارب باعتبار فصول السنة وشهورها وأيامها.

فمغرب الشمس ليس مغربها حقيقة، ولكنه حسب ما يبدو للناظر إليها.

قال سيد قطب: «ومغربُ الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق. وهو يختلف بالنسبة للمواضع. فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال، إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر»[1].

هذا عن مغرب الشمس.

أما غروبها في عين حمئة، فقد سبق أن قلنا إن منطقة «أزمير» التي وصلها ذو القرنين كثيرةُ الخلجان، ومن أشهر هذه الخلجان: خليج هرمس. وخليج مندريس. وخليج أزمير. ويتعمق خليج أزمير إلى الداخل بمقدار مائة وعشرين كيلو متراً. ويصب فيه نهر غديس، ذو المياه العكرة، المحمَّلة بالطين البركاني والتراب الأحمر، من فوق هضبة الأناضول، وكلما اتجه النهر نحو خليج أزمير، زادت سرعة جريانه.

---

(١) الظلال ٤: ٢٢٩١.

وحين توقف ذو القرنين عند مصبّ نهر غديس في خليج أزمير ـ بعدما فتحَ مدينة «سارديز» عاصمة مملكة «ليديا» ـ تأمَّل قرص الشمس، وهو يسقط في مصب النهر في الخليج، ورأى ذو القرنين اختلاط حمرة الطين الأحمر والأسود الذي يقذفه النهر في الخليج، ورأى من بعيد كأن الشمس تسقط في هذا الحمأ الطيني.

ويبدو أن هذه هي العين الحمئة التي ذكرها القرآن ـ والله أعلم.

○ هل ذو القرنين نبي؟:

أخبر القرآن أن ذا القرنين لما بلغ مغرب الشمس، وجد عندها قوماً: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

وظاهر الآية أن الله قال له هذا القول، وخيَّره في التصرف في القوم المغلوبين الذين انتصر عليهم، وفوضه التصرف فيهم. إن شاء عذَّب، وإن شاء عفى وعاملهم بالحسنى.

وقد اختلف العلماء في حقيقة قول الله لذي القرنين، ومن ثم اختلفوا في القول بنبوته.

فذهب بعضهم إلى أنه نبي، واعتمدوا في ذلك على قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾. ووجْه استدلالهم بالآية أن القول من الله مباشرة لا يكون إلا لنبي. فطالما أن الله قال له ذلك، فهو نبي من أنبياء الله.

ونفى آخرون أن يكون نبياً، وقالوا هو ولي صالح وملك عادل.

ووجْه نفيهم لنبوته، أن النبوة لا تثبت لأحد إلا بدليل مقبول، وهو إما أن يكون آيةً أو حديثاً صحيحاً. وطالما أننا لا نملك هذا الدليل فلا يجوز أن نقول بنبوته، لأننا نجعل في الأنبياء ما ليس منهم.

وذهب فريق من العلماء إلى التوقف في شأن نبوته.

قالوا: لا نقول إنه نبي، لأن القول بنبوته يحتاج إلى آية أو حديث صحيح، وهذا غير موجود.

كما أننا لا ننفي نبوته، لاحتمال أن يكون نبياً، إذْ معلوم أن القرآن لم يذكُر كلَّ الأنبياء، ولم يقصَّ علينا كل قصصهم: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

فلو قلنا بنبوته، وهو غير نبي لأدخلنا في الأنبياء ما ليس منهم، وهذا خطأ.

ولو نفينا عنه النبوة وهو نبي، لأخرجنا من الأنبياء أحدهم، وهذا خطأ.

وبما أننا لا نملك دليلاً على الإثبات، ولا نملك دليلاً على النفي. يبقى الأسلمُ والأفضلُ هو التوقف.

إننا مع العلماء المتوقفين في نبوة ذي القرنين، فلا ندري هل هو نبي أم لا؟ مع أن الأمرين محتمَلان.

والتوقف في النبوة هنا، هو المتفق مع البحث العلميّ المنهجيّ، لأننا لا يجوز أن نقول إلا بعلم، ولا نعتمد إلا على الدليل. وهذا غير موجود هنا.

فإذا كان ذو القرنين نبياً، لا إشكال في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ لأن الله يخاطب الأنبياء مباشرة.

وإذا كان غيرَ نبي، يكون قول الله له: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ محتمِلاً ثلاثة احتمالات:

١ ـ إن الله بلَّغ هذا القول لنبي كان معه في جيشه، وهذا النبي بلَّغه لذي القرنين.

٢ ـ إن الله ألهمه بذلك إلهاماً، كما أوحى إلى أم موسى ـ وهي غير نبية قطعاً ـ بالوسيلة المضمونة لحفظ موسى عليه السلام.

٣ ـ إن هذه العبارة حكايةٌ لحال ذي القرنين مع القوم المهزومين وبلادهم المفتوحة، حيث سلَّطه الله عليهم، وترك له التصرف في أمرهم.

ولا نملك ترجيح أحد الاحتمالات على غيره، لعدم وجود مرجّح.

○ دستور ذي القرنين العادل:

عندما فوض الله ذي القرنين التصرف في البلاد المفتوحة، والتعامل مع القوم المغلوبين، لم يَظلم ولم يَطغَ ولم يَتجبر، ولم يعتبرها مناسبة للبطش والبغي والفساد.

لقد بين ذو القرنين دستوره في التعامل مع أولئك القوم. فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وهذا الدستور العادلُ دليلٌ على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عَدْله وبره ورحمته.

إن الناس الذين قهرهم وفتح بلادهم، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يُعامَلوا جميعاً معاملة واحدة.

إنهم نوعان: مؤمنون وكافرون، صالحون وظالمون.

فهل يتساوَوْن في المعاملة؟.

قال ذو القرنين: أمّا الظالم الكافر فسوف نعذبه، نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبةٌ له، فنحن عادلون في تعذيبه. وهذا هو عذابه الدنيوي.

وسوف يذوق عذاباً آخر، هو العذاب الأُخروي، فعندما يُرَد إلى ربه، سوف يعذِّبه عذاباً نكراً.

والعذاب النُّكر، هو العذاب الذي قد يستنكره الناس، ويعتبرونه قسوة وعنفاً وغلظة، ولكنه عذاب وفْقَ عدل الله العادل، لأنهم يستحقون ذلك العذاب.

لقد فَرّق القرآن بين كلمتي «مُنْكَر» و«نُكْر».

فالمنكر هو الشيء الباطل الحرام في شرع الله ودينه، والذي تنكره القلوب المؤمنة، وترفضه وتحاربه وتنكره.

أما النُّكْر فهو الشيء الذي قد ينكره بعض الناس، ويستبعدونه، ويعتبرونه

مرفوضاً وخطأ، ولكنه في حقيقته صحيح وصواب ومقبول في حكم الله وتقديره وفعلِه وإرادتِه.

فالظالم الباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذَّب مرتين: مرة في الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذاباً نكراً.

أما المؤمن الصالح فإنه مقرَّب من ذي القرنين، يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة، ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبرٍّ ومودَّة ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

○ التربية بالثواب والعقاب:

تعاملُ ذي القرنين مع القوم يصلح أن يكون دستوراً لكل حاكم أو مسؤول يتعامل مع الآخرين، وذو القرنين يصلح أن يكون أسوة وقدوة لكل حاكم أو مسؤول.

ويجب أن يُطيل الوقفة أمام هذا الدستور، كلُّ الذين يبحثون واقع الأداء الوظيفي والالتزام العملي، ويريدون إصلاح الوظيفة، وتحسينَ الأداء.

والوظيفة أصابها ما أصابها في زماننا، من فساد وإفساد، وأداءُ الموظفين الوظيفي، أصابه ما إصابه من ترهُّل وبغْي وانحراف.

وأصبح أساس الاعتبارِ والمنْحِ والعطاءِ، هو مدى ولاءِ هذا الموظف للنظام، ومسارعتِه في خدمة المسؤول، والتزلف إليه، والنفاق له. وأصبح هَمُّ الموظفين هو القرب من المسؤول، ونيلُ الحظوة عنده، والحصولُ على خيراته وفضله وعطائه. وعلى العمل الوظيفي، وحُسنِ أدائه، وخدمة الناس، وتقديم الخير لهم، على كل هذا السلام.

لقد اضطرب ميزان الحكم، وأساسُ الوظيفة في عالمنا المعاصر، فأصبح الظالِمون المفسدون المعتدون هم المقرَّبين من الحاكم، الذين ينالون خيره وبره وكرمه. وأصبح العاملون المخلصون محارَبين مطرودِين معذَّبين محرومين من العطاء والتكريم.

وبذلك فسدَ العمل واختل الأداء، وانتشر الفساد، وعمّت الفوضى.

إن ذا القرنين يقدم لكل مسؤول أو حاكم منهجاً أساسياً، وطريقةً عملية لتحسين الأداء وتطوير العمل الوظيفي والإداري.

هذا المنهج يمكن أن نسميه: التربية بالثواب والعقاب. أو نسميه: الحوافز والزواجر.

المهم بالنسبة للموظف أو العامل هو حسنُ أدائه لعمله، وليس قُربه من الحاكم أو تزلفه للمسؤول.

إنَّ الموظف إذا قصّر أو أساء يجب أن يُعاقبَ ويُزجر ويُرد عليه. لقد اختار الباطل، ويجب أن تقع به نتيجة اختياره.

هذا الموظف يجوز أن يُخصم عليه، وأن يُنقل من وظيفته إلى وظيفة غيرها.

أما الموظف المؤمن الصالح النشيط والمحبوب عند الناس، فهو الذي يجب أن يُكرَّم ويُثاب، وتُقدم له الحوافز والجوائز التشجيعية، ليكون قدوة لغيره، وليجد غيره حافزاً لفعل الخير والبر والإصلاح.

من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى. لقد أحسن في إيمانه وعبادته، وأحسن في عمله وأدائه، ولذلك نحن نعامله بإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل، و ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

وسَنقولُ له من أمرنا يُسراً. نكلّمه باليسر واللين واللطف والرقة، وفي ذلك نكافئُهُ ونشجعه ونقدمه ونحترمه ونجلُّه.

والآخرون المراقبون، يعتبرون من ذلك، ويتّعظون به، لأنه لا يريد أحد أن ينال العقوبة والعذاب عامداً ـ إلا أن يكون مجنوناً.

إنهم يُقلعون عن البغي والظلم والفساد، وينشرون النفع والخير والبر، ويحرصون على حسن الأداء، وتحسين العمل، وتقديم الخير للناس.

نكافئ المحسن بتقديم جائزة له، فهي تَرُدُّ له اعتباره، وتحفزه على مضاعفة جهوده، وتدعو الآخرين ليكونوا مثله.

○ لم نجعل لهم من دونها ستراً:

توجَّه ذو القرنين نحو الشرق، نحو مطلع الشمس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾.

وما قلناه عن مغرب الشمس عند العين الحمئة، نقوله هنا عن مطلعها، فللشمس عدة مطالع، ولكل قوم مطلعُهُم، ولكل أمة مشرِقها.

المهم أن هؤلاء القوم لم يجعل الله لهم من دونها ستراً. بمعنى أنه لا يوجد ما يسترهم عن الشمس عند شروقها.

وقد اختلف العلماء في تفسير ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾.

١ ـ قال بعضهم: إن أولئك القوم كانوا يسكنون سهولاً شاسعة، ولا يوجدُ عندهم جبال تحجب عنهم الشمس، فإذا طلعت تكون عندهم وفي بيوتهم.

٢ ـ وقال بعضهم: كانوا لا يملكون بيوتاً أو أبنية تمنع عنهم أشعةَ الشمس وحرَّها، ولذلك أول ما تشرق تكون بينهم بأشعتها.

٣ ـ وقال بعضهم: ما كانوا يملكون شيئاً يُغَطّون به أجسادهم، ولهذا كانوا عراة من الملابس، فإذا أشرقت أصابتهم بأشعتها.

وقد سبق أن رجَّحْنا أن القوم هؤلاء قد يكونون من الترك أو غيرهم، وأنهم كانوا يسكنون في مناطق تركستان وأفغانستان وباكستان.

ويلاحظ هنا أن القرآن لم يفصل ما قاله الله لذي القرنين، وما رد به. يعني لم يبين دستوره في حكم البلاد والتعامل مع أصحابها، لأنه أورده في التعامل مع البلاد الغربية في مهمته نحو الغرب، فلا داعي لإعادة ذكره، منعاً للتكرار.

○ وقد أحطنا بما لديه خُبرا:

وقبل أن يكمل القرآن الحديث عن حروب ذي القرنين، وفتوحاته، وقبل أن يتحدث عن مهمته في المنطقة الشمالية. توقف سياق القرآن ليقرر حقيقة

أساسية. وهي في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

أي أن الله سبحانه كان عالماً بأحوال ذي القرنين، مطّلعاً على حركاته، محيطاً بأخباره وأخبار جيشه. فما يسيرون خطوة إلا بإذن الله، ولا يتحركون حركة إلا بمشيئة الله، ولا يكسبون معركة أو يحتلون بلداً إلا والله عالمٌ بهم، مطلع عليهم، خبيرٌ بهم.

وهناك لفتةٌ فنية بيانية، نأخذها من ذكْر هذه الحقيقة بعد الحديث عن القوم الذين لا يجدون ما يسترهم عن الشمس عند شروقها:

قال سيد قطب: «ونقف هنا وقفة قصيرة، أمام ظاهرة التناسق الفني في العرض. فإن المشهدَ الذي يعرضه السياق هنا، هو مكشوف في الطبيعة، الشمس ساطعة، لا يسترها عن القوم ساتر. وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه، كلُّها مكشوفة لعلم الله. وبذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين، على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة»[1].

ونقف لنتساءل عن الحكمة من ذكْر حقيقةِ إحاطةِ الله بأخبار ذي القرنين وجيشه، وعلمِه بها، أثناء حديثه عن فتوحاته!.

إن الحكمة التي قد تبدو لنا، هي: حرصُ القرآن على ربْط كل ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشيئته وعلمه سبحانه، حتى لا ينسى الناس هذه الحقيقة وهم يتابعون الأحداث، وحتى لا يظنوا أن الناس يتحركون بها بقدراتهم الذاتية، بمعزل عن علم الله وإذنه سبحانه.

فها هو ذو القرنين قام بفتوحات عظيمة، في الجبهة الغربية ثم في الجبهة الشرقية، وقام بإنجازات عظيمة في الجبهة الشمالية. لكن الله مطلعٌ على أعماله، محيط بأخباره، عالم بإنجازاته، وهو مقدِّر لها ومريد لها سبحانه.

○ الخَبَر والخُبْر:

ونقف وقفة لنتعرف على لطيفة من لطائف القرآن.

---

(١) الظلال ٤: ٢٢٩٢.

ما الفرق بين الخَبَر والخُبْر؟ وما هو السياق الذي ورد فيه كل منهما؟.

الخَبَر مذكور مرتين في قصة موسى عليه السلام، مرتين في سياق واحد:

قال الله عن موسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل: ٧].

وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩].

إن موسى عليه السلام عندما سار بأهله في الصحراء عائداً إلى مصر، ضلَّ الطريق، ثم رأى ناراً من بعيد، فتوجَّه إليها لعله يجد عندها شخصاً، يخبره بالطريق، ويدلُّه عليها. إنه يطمع أن يجد عنده خَبَراً.

أمّا الخُبْر فلم يُذكر إلا في سورة الكهف.

قال الخضر لموسى عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

وقال هنا عن ذي القرنين: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

والفرق بين الخَبَر ـ بالفتح ـ والخُبْر ـ بالضم:

أن الخَبَر: «هو العلمُ بالأشياء المعلومة من جهة الخَبَر».

أما الخُبْر: «فهو المعرفةُ ببواطن الأمر»(١).

يعني أنه إذا كان يتعلق العلم بالأخبار الظاهرة، والأشياء الظاهرة، والأمور الظاهرة، فهو الخَبَر.

أما إذا كان يتعلق العلم بالأمور الباطنة، وخفايا الأشياء وأسرارها ولطائفها وألغازها، فهو الخُبر.

ولم يُذكر «الخُبر» إلا في سورة الكهف؛ لأنها سورةُ العلم بالمغيَّبات ـ بإذن الله ـ وسورةُ كشف خفايا الأمور وأسرارها ودقائقها.

فموسى عليه السلام سيرى من الخضر عليه السلام أشياء وأفعالاً، لن يعرف حقيقتها،

---

(١) المفردات: ١٤١.

ولن يعلم خفاياها. ولهذا سينكرها ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾.

وذو القرنين سيقوم بأعمال قد يجهلها كثيرون، وما في ضميره وقلبه ونيته مجهول من قِبَل الناس، لكن الله محيط به، عالم به، مطلع عليه.

○ القوم المتخلفون العاجزون:

أخبر القرآن عن مهمة ذي القرنين في الجهة الشمالية بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾.

وهذه المنطقة هي الواقعة جنوبي جبال القوقاز، وهي المسماة الآن بأرمينيا وجورجيا وأذربيجان.

والقوم الذين كانوا يسكنونها زمن ذي القرنين هم قبائل «كوشيا» ولمّا شكَوْا إليه هجمات يأجوج ومأجوج عليهم عَبْرَ مضيق «داريال»، سدَّ ذلك المضيق، وبنى عليه السد، وأقام في المنطقة تسع سنوات، حتى أتم ذلك العمل العظيم.

وعندما ننظر في حديث القرآن عن القوم، فسوفَ نستخرج هذه الصفات لهم:

١ ـ هو قوم متخلفون: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.

وهذا إمّا معناه أنهم لا يفقهون لغةَ غيرِهم من الأقوام الأخرى، لأنهم لم يطَّلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلقون على لغتهم فقط.

وإمّا معناه أن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون ولا يتفاعلون معه، ولا يتفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاء وغلظة عندهم، أو لغفلة وسذاجة في طبيعتهم.

٢ ـ هم قوم ضِعاف: ولذلك عجزوا عن صدّ هجمات يأجوج ومأجوج، والوقوف في وجههم، ومنع إفسادهم.

٣ ـ هم قوم عاجزون عن الدفاعِ عن أرضهم، ومقاومةِ المعتدين: ولذلك لجؤوا إلى قوة أخرى خارجية، قوةِ ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

٤ ـ هم قوم اتكاليّون كسالى: لا يريدون أن يبذلوا جهداً ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليه حلَّها، أما هم فمستعدون لدفع المال له: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾.

إن أولئك القوم يملكون سمات وصفات الأقوام العجزة المتخلفين الاتكاليين، الذين يعجزون عن حل مشكلاتهم، ويوكِّلونها للآخرين الأجانب.

وإن مما يتعجب منه المرء في هذا الزمان، أن كثيراً من العرب في هذا العصر قد اتصفوا بصفات أولئك القوم. حيث يعيشون مشكلاتٍ خطيرةً مزمنة، على رأسها مشكلةُ فلسطين، وحيث يواجهون أعداءً شرسين ماكرين، في مقدمتهم اليهود في فلسطين، وحيث يعيشون تحدياً خطيراً، يكونون بعده أو لا يكونون.

وإن هذه الأجواءَ والظروف تتطلب منهم أن يعقلوا، وأن يُدركوا الخطر، وأن يُحسنوا مواجهته، وأن يقفوا رجالاً في التحدي الحضاري، وأن ينهضوا لحل مشكلاتهم بأنفسهم.

ولكنهم تعاملوا مع مشكلاتهم كما تعامل أولئك القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً.

لقد حوَّلوها إلى غيرهم. ورفعوها إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن والسادة الكبار والمؤتمر الدولي، وضعوا الكُرَةَ في ملعبهم، وطلبوا منهم اللعب بها.

طلبوا من الأجانب حلَّ قضيتهم بدلهم، ورجَوْهم أن يقنعوا اليهود بالاستجابة لأصوات السلام. ووقفوا هم متفرجين، ينظرون ماذا سيفعله الأجانب لهم، وما سيقدمونه لقضيتهم.

ولا يقف متفرجاً على النار وهي تحرق بيته إلا متخلف. ولا يقف مراقباً للص وهو يسرق ماله إلا متخلف، ولا يطلب المساعدة من العدو والرحمة من

خصم إلا عاجزٌ كسول. وهذه صفات للعرب كصفات أولئك القوم الظالمين المتخلفين.

وما هكذا تُحل المشكلات! ولا هكذا تُحفظ الأوطان! وتُبْطَل المكائد والمؤامرات.

○ زهد ذي القرنين في المال:

ردَّ ذو القرنين على عرْضهم المادي بعفَّة وزهد في الأجرة والمال. وقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ لا حاجة لي في مالكم، فقد آتاني الله خيراً مما عندكم، ومنحني من مظاهر التمكين والقوة، ما جعلني زاهداً في مالكم مستعلياً عليه.

إن زهد ذي القرنين في المال واستعلاءه عليه، يقدِّم لنا صفةً من صفات الحاكم الصالح العادل الزاهد، وهو يدعو حكامَ المسلمين ليقتدوا به في هذه الصفة.

ولقد ذكر الإِمام ابن كثير أثناء حديثه عن ذي القرنين، موقفَ سليمان عليه السلام من هدية ـ أو رشوة ـ ملكة سبأ، عندما أرسلت وفْدَها بالمال له ليكف عنها: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا . . .﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٣٧].

فالنبي سليمان عليه السلام اعتبر فضل الله عليه خيراً مما يُقدَّم له من مال، فزَهد فيه ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

وذو القرنين اعتبر ما آتاه الله خيراً مما يُقَدم له كذلك من مال ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

ونأخذ من موقف ذي القرنين مع أولئك القوم، وجوبَ زُهْد الإِمام في أموال رعيته، وتعفُّفِه عنها، وعدم أخذ شيء منها.

إنه مطالب بحفظ البلدان وحماية الناس، ولا يأخذ على ذلك أجراً ولا مالاً، لأن هذا من لوازم كونه إماماً لهم.

وقد وقف الإمامُ أبو بكر بن العربيّ أمام ردِّ ذي القرنين، واستخرج منه قاعدةً عامة في تعاملِ الحاكم مع رعيته، وزهده في أموالهم، فقال:

«وعلى المَلِك فَرْضٌ أن يقوم بحماية الخَلْق في حفظ بَيْضَتِهِمْ، وسدِّ فُرجتهم، وإصلاح ثَغْرهم من أموالِهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي يجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتْها الحقوق، وأنفذتْها المؤن، واستوفتها العوارض، لكان عليهم جَبْر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر في ذلك لهم. وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألّا يستأثر بشيء عليهم.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة منهم فيعينهم.

الثالث: أن يُسوِّي في العطاء بينهم على مقدار منازلهم.

فإذا فَنِيَتْ بعد هذا ذخائر الخزانة، وبقيتْ صفراً، فأطْلَعت الحوادث أمراً، بذلوا أنفسهم قَبْل أموالهم، فإن لم يُغْن ذلك، فأموالُهُم تؤخذ منهم على تقدير، وتُصرف بأحسن تدبير.

فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال، قال: لا أحتاج إليه، وإنما أحتاج إليكم فأعينوني بقوة، أي اخدموا أنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم؟.

وضبْطُ الأمر فيه أنه لا يحل أخذُ مال أحد لضرورة تُعْرَض، فيؤْخَذ ذلك المال جهراً لا سراً، ويُنْفَق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالرأي»[1].

○ فأعينوني بقوة:

لما عفَّ ذو القرنين عن أموالهم وزهد فيها، أراد أنْ يتركوا العجز والكسل والاتكالية، وأن يعلِّمهم النشاط والعمل والكسب والسعي، فقال لهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣:١٢٤٨. وانظر: ذو القرنين ليوسف: ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

أعينوني من المعاونة، وهي المظاهرة والمساعَدة. فهو يطلب أن يساعدوه ويمدوه بالقوة العضلية والمادية، لعمل السد.

وكأنه يقول: عليَّ القوة المالية، وعليَّ القوة الفكرية، وعليكم أنتم القوةُ المادية العملية، فيجتمع ما عندي مع ما عندكم، وبذلك يتم إنجاز العمل.

وتُعتبَر هذه العبارة القرآنية الموجزة «أعينوني بقوة» مَعْلَماً قرآنياً بارزاً في تضافر الجهود وتوحيد الطاقات والقدرات والقوى. كما تُقدِّم لنا قاعدة قرآنية مطردة في إنجاز الأعمال والقيام بالمطلوب.

إن المجتمع المتكامل الناجح، هو الذي تجتمع كافة القوى والطاقات فيه، لتحقيق الخير فيه. وإن القيادة الناجحة الواعية هي التي تستقطب كافة الإمكانيات والقدرات لتحقيق الغايات المنشودة.

هناك فئات في المجتمع تملك القوة الفكرية، فتستطيع أن تُفكر وأن تُبرمج وأن تُنظِّر، ولو تُركت هذه الفئات وحدها، فإنها قد لا تحقق ما خططتْه وفكرتْ فيه.

وهناك فئات في المجتمع تملك المال والاقتصاد الكافي للعمل، لكنها قد لا تملك الفكر والتخطيط، كما أنها قد لا تملك الجهد المناسب للعمل.

وهناك فئاتٌ لا تملك مالاً ولا تقدر على تخطيط ولكنها تملك الوقت والجهد، وتقدر على العمل بالسعي والكسب والبدن.

فلا بد من التنسيق والتعاون بين هذه الفئات، وجمْعِ ما تملكه من قوى وطاقات وقدرات، والتوجهِ به نحو خير الأمة ورفعتها. لا بد من اجتماع صاحب الفكر، ومالك المال، والقادر على العمل والكسب، وتوجُّه الجميع نحو الخير.

والقيادة الواعية في الأمة، هي تلك التي تقدر على الربط بين كل الخيوط والخطوط، والتنسيق بين المواهب والطاقات.

فهل أمتُنا في واقعها المعاصر تجمع بين القوى والطاقات أم تفرِّق بينها؟ وهل تلتقي كلُّ المواهب والقدرات على خير الأمة، أم هي ممزقة متفرقة؟.

كم من مواهب ضائعة في الأمة! وكم من طاقات معطَّلة! وكم من أموال مهدورة! وكم من أوقات مبدَّدة! وكم من شباب حيارى!.

لا بد أن تأخذ الأمة قاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون، ولا بد أن يكون شعارها بكافة فئاتها وطاقاتها وقواها: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

○ مِمَّ بُني السَّد؟.

أشار القرآن إلى المادة التي بُني منها السد، وكيفيةِ بنائه فقال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.

طلبَ ذو القرنين من أولئك القوم أن يُقدِّموا زبر الحديد، وأن يَضعوها في ذلك المضيق بين الجبلين.

وزُبَرُ الحديد. هي قِطَع الحديد الضخمة الكبيرة التي كانوا يقطعونها من المنطقة. وسبق أن قلنا إن منطقة أرمينيا وجورجيا كانت منطقة غنية بمعادنها من الحديد والنحاس، كما أنها غنية بأشجارِها وغاباتها، ودوابِها المختلفة التي تنقل ذلك من الأماكن البعيدة.

جاؤوه بقطع الحديد الضخمة، ووضعوها في المضيق، وركموها فوق بعضها البعض، وما زالوا يرفعونها ويركمونها حتى ساووها بالصَّدَفين، والصَّدَفان هما قمتا الجبلين.

ثم أمرهم بإيقاد النار تحت هذا الحديد الضخم المركوم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾.

وتصوَّرْ ضخامةَ النار، وعظمةَ الأخشاب التي أوقدتْ عليها، لأنها يُراد بها صهر الأطنان التي لا تُحصى من الحديد الصلب في هذا الممر الشاهق المرتفع.

وفي نفس الوقت كان ذو القرنين قد أمر مجموعةً أخرى بصهر النحاس في أوعيته الضخمة.

فلما تمَّ صهر الحديد في الممر، وتم صهر النحاس في القدور، جاءت المرحلة الأخيرة، من مراحل بناء السد: ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ والقِطْر: هو النحاس المُذاب.

أمرهم بصب النحاس المصهور المُذاب على الحديد المصهور المذاب، فتخلل النحاس وسْط الحديد، واختلطا. وصارا معدناً واحداً قوياً متيناً. الحديد أساساً قوي متين، والنحاس كذلك قوي متين، فكيف إذا صُهِرا وجُمِع بينهما، وخُلِطا معاً؟ إنها تَجْمع قوة ومتانة كل واحد مع الآخر، فتكون القمة في المتانة والقوة والجودة.

وتَرَكَ الحديد مع النحاس حتى جمدا، فصارا سدّاً منيعاً عجيباً مدهِشاً.

○ ذو القرنين مهندس:

حقاً إن ذا القرنين يملك قُوَّةً وفِطْنةً وإدراكاً وتمكيناً، وهذا من تمكينِ الله له، وتعليمه إياه.

لقد هداه الله إلى طريقة فذَّة عجيبة في تمتين البناء وتقويته، وبذلك جمع بين الحديد والنحاس.

لقد كان ذو القرنين مهندساً مدنياً ـ إن جاز التعبير ـ فبنى السد من هذه المادة المتينة. وسَبَق المعاصرين بقرون عديدة في الجمع بين الحديد والنحاس.

وحول هذا يقول سيد قطب: «وقد استُخدمتْ هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد، فوُجِد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تُضاعِف مقاومَته وصلابته، وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجَّله في كتابه الخالد، سبقاً للعلم البشري الحديث، بقرون لا يعلم عددها إلا الله»[1].

وهذا ينقضُ ما زعمه بعضهم من أن السد هو سورُ الصين العظيم، لأن ذلك السور كان طويلاً بلغ مئات الكيلومترات، ولم يُبْن بين جبلين. ثم إن ذلك السور الصيني بُنِي من الحجارة والطين. والسّد بُني من الحديد والنحاس.

---

(١) الظلال ٤: ٢٢٩٣.

ونُذكِّر بما سبق أن قلناه إن العملين العظيمين: السد والسور، بُنيا لغرض واحد. فذو القرنين بنى السد لصدِّ هجمات يأجوج ومأجوج، وامبراطور الصين بنى سور الصين لصد هجمات يأجوج ومأجوج ضد الصين.

إن القرآن يقدم لنا الطريقةَ المأمونة لتقوية البناء وتمتينه، وهي مزْج الحديد بالنحاس.

كذلك تشير لنا الآيةُ إلى لفتة علمية في القرآن، وهي مزج الحديد والنحاس لتقوية البناء.

كما توحي لنا بلفتة هندسية، وهي كيفيةُ بناء السد المنيع، فيمكن أن نجد في القرآن إشاراتٍ هندسيةً موحية.

إن آيات القرآن ذاتُ إشارات شتّى، وإيحاءات منوّعة، إننا نستطيع أن نأخذ منها إشارات وإيحاءات علمية وطبية وفلكية وهندسية وحسابية وإحصائية وقيادية واجتماعية وسكانية وحضاريّة، بالإِضافة إلى ما تقدمه لنا من حقائق موضوعية إيمانية عقيدية فقهية تفسيرية جهادية دعوية.

ولا ننسى الهدفَ الأساسيَّ للقرآن، وهو أنه كتاب هداية ودعوة، ودستورُ حكم، ومنهجُ حياة، وأساس جهاد ودعوة ومواجهة.

لكن هذا لا يمنع من الوقوف على إشارات ثانوية في المجالات العلمية والحياتية الأخرى.

○ عجْز يأجوج ومأجوج أمام السد:

لما أتمَّ ذو القرنين بناء السد، جاء يأجوج ومأجوج على عادتهم ليعبروا المضيق ويمارسوا الإِفساد، ولكنهم فوجئوا بالسد المنيع المرتفع أمامهم. حاولوا أن يظْهروا ويتسلقوا عليه، فلم يستطيعوا، لأنه مبنيٌّ من الحديد، والحديد أملس، وإذا لم يكن به مقابض ليمسِك بها الشخص، فلا يستطيع أحد أن يتسلقه، وحاولوا أن يهدموه وينقضوه فلم يستطيعوا، لأنه مبنيّ من مادة قوية منيعة، الحديد والنحاس.

وقد سجلت الآية فشلَ محاولتيْهم، في تسلُّقه وفي نقضه: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

وكان هذا السد هو الوسيلة لمنع غارات يأجوج ومأجوج، وإفسادهم وتدميرهم.

○ اسطاعوا واستطاعوا:

نقف وقفة أمام لطيفة من لطائف القرآن، وهي تفرقةُ الآية بين فعلين من حيث الصياغة.

فما اسطاعوا أن يظهروه.

وما استطاعوا له نقْباً.

فما هي الحكمة من حذف التاء من الفعل في الجملة الأولى؟ مع أنها أُثبتت في الفعل نفسه في الجملة الثانية؟.

إن حذف التاء في الجملة الأولى للتخفيف، ولذلك يمكن أن نسميها «تاء الخفَّة».

ووجْهُ الخفّة أن الجملة أخبرت عن عجزهم عن تسلق السد، وهذا التسلق يحتاج إلى سرعةِ المتسلق ومهارتِه ورشاقته أوّلاً، ولذلك غالباً ما يعجز البَدينُ عن التسلق. لأنه يحتاج إلى خفة، ليتسلق بسرعة.

هذه هي الحالة التي تُخبر عنها جملة «فما اسطاعوا أن يظهروه» وهذا هو السياق الذي وردتْ فيه.

ولذلك حُذفت التاء من الفعل تسهيلاً وتخفيفاً.

وكأن الفعل أراد أن يساعد المتسلق على الخفة، فَحَذف التاءَ منه، ليشارك المَهَرة مهارَتَهم، والمتسلقين خفَّتَهم.

أما الفعل الثاني «وما استطاعوا له نقباً» فإن التاء بقيت فيه، لأن هذا هو الأنسب للسياق، والمتفق مع الجو العام.

وذلك أن نقب السد وهدمَه يحتاج إلى جهد ومشقة وثِقَل ووقت، يحتاج

إلى أدوات للحفر والنقض، ويحتاج إلى رجال ينقضون، ويبذلون جهداً ومشقة وأناة وصبراً، وتنقضي أوقاتٌ طويلة قبل أن يتمكنوا من إنجاز عملهم.

في هذا الجو الذي يعبِّر عنه «وما استطاعوا له نقباً» بقيت التاء في الفعل.

بقيت التاء للثقل، لتساعد في رسم جوِّ الثقل والجهد في نقض السد، ولتشارك في العملية الثقيلة الشاقة.

إذن حذفت التاء من الفعل أولاً للخفة.

وبقيت التاء في الفعل نفسه ثانياً للتثقيل.

وهنا نُذكِّر بأن الألفاظ في التعبير القرآني منتقاة، ومتناسقةٌ مع السياق العام، وهي مختارةٌ اختياراً، ومتفقةٌ اتفاقاً تاماً مع الجو الذي وردت فيه، ومع الموضوع الذي تخبر عنه.

لقد مرت بنا «تاء الخفة» في قصة موسى عليه السلام مع الخضر، في قول الخضر لموسى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ثم قوله له بعدما فسر الأحداث ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وها هي «تاء الخفة» تعود لنا مرة ثانية في قصة ذي القرنين.

وفي قصة ذي القرنين نفسها، مرَّ معنا فعْلٌ على صورتين. وهو قوله عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقول ذي القرنين عند بناء السد: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾.

المهم هو أن يقف القارئ المتدبر للقرآن على أمثلة أخرى من هذه الألفاظ. وسيجد منها الكثير.

○ بناء السد رحمةٌ من الله:

نظر ذو القرنين إلى سدِّه العظيم الذي حفظ الناسَ من غارات يأجوج ومأجوج، وقال: «هذا رحمةٌ من ربي».

وعندما نقف أمام هذه العبارة الجميلة المباركة «هذا رحمة من ربي» فإننا نأخذ عنها هذه الإيحاءات:

١ ـ ما قاله سيد قطب عنها: «ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به. فلم يأخذْه البطر والغرور، ولم تُسكره نشوةُ القوة والعلم، ولكنه ذَكَر الله فشكره، وردَّ إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه...»[1].

٢ ـ ذِكْر ذي القرنين لربه عند إنجاز عمله، يعلِّمنا كيف يكون ذكْر الله سبحانه، إن من أعظم صور الذكر، هي أن يذكُر المؤمن ربه عند نجاحه في عمله، فيعلم أن هذا بأمر ربه، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

٣ ـ كان بناءُ السد رحمةً من الله، وقد استخدم ذو القرنين علْمَه الذي علَّمه الله إياه، وتمكينَه الذي مكنه الله له، استخدمه في مساعدة الناس وتقديم الخير لهم، ومنْع العدوان عنهم، فكان علمه رحمةً من ربه، وكان استخدامه له رحمة من ربه.

وتوظيفُ ذي القرنين تعليم الله له لرحمة الآخرين، يتفق مع موضوع سورة الكهف، سورة العلم والرحمة. كما قال الله عن الخضر عليه السلام: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. وكما قال الخضر لموسى عليه السلام: «رحمة من ربك».

٤ ـ كان القوم مُهدَّدين بيأجوج ومأجوج، مُعرَّضين لإفسادهم، ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد، ولم يخلصهم من خطرهم إلا الله ببناء السد. فكان السد رحمة من الله لهم، وكان خلاصاً لهم وإنقاذاً ـ بإذن الله ـ.

فلو لم يتم بناء السد، ولو بقي أولئك القوم يَشْكُون ويندبُون، بدون عمل ولا جهد ولا حركة، لما أنقذوا أنفسهم من الخطر. لا يتم الإنقاذ والخلاص إلا بالعمل.

○ درس لنا من بناء السد:

وهذا درْس هام وضروري للأمة، وبخاصة في زمانها هذا، لأنها تواجِه خطراً ماحقاً مدمِّراً، أعنف وأخطر من خطر يأجوج ومأجوج على أولئك

(١) الظلال ٤: ٢٢٩٣.

القوم. إنه الخطر اليهودي المدمِّر، إنه «الغول اليهودي» المفترس البشع، وإن كل مجالات الأمة وطاقاتها مهددةٌ بذلك الخطر، لا يكاد يَسْلم منه شيء.

ولا يجوز للأمة أن تقف عاجزةً مكتوفة الأيدي أمام هذا الخطر.

ولا يجوز للأمة أن تكتفي بالتألم والحسرة والندب، وأن تستخدم سلاح الشجْب والاستنكار والشكوى، وأنْ تبقى حريصةً على مخاطبة الضمير العام العالمي، ومناشدةِ محبي الخير في العالم، والطلبِ من العالم التدخل لوقف زحف اليهود، وإيقافِ خطرهم.

ولا يجوز للأمة أن تبقى حريصة على سبلٍ ووسائل وطرق لا توصل إلى نتيجة، ولا تقدِّم حلاً، وإنما هي سراب وأوهام. مثل اللجوء إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة، والدعوة إلى مؤتمر دولي، وتطبيق قرارات مجلس الأمن، وغير ذلك.

إن هذه المواقف لا خيرَ فيها، وهذه الوسائل لا تقدم حلاً.

وستبقى الأمة مهددةً أمام الخطر اليهودي الماحق.

إنه لا ينقِذ الأمة إلا العملُ الجاد الصائب الصحيح، لا ينقذها إلا مواجهةُ اليهود ومقاومتُهم، لا ينقذها إلا الجهاد والقتال والقوة.

بالقوة والعمل تم إنقاذ القوم من يأجوج ومأجوج، وحلَّت بهم رحمةُ الله لما تمَّ بناء السد.

وبالقوة والعمل يتم إنقاذ الأمة اليوم من خطر اليهود، وجهادُ اليهود وقتالهم أشبهُ شيء بسد ذي القرنين، وعندما تُتقن الأمة الجهاد والقتال، وتحرص على الاستشهاد، تحل بها رحمةُ الله، كما حلتْ بالقوم السابقين.

إن القوم العاجزين الكسالى لا يستحقون رحمة الله، لا يرحمهم الله، ولا يرحمهم الناس، ولا يسمع أحدٌ صوتَهم، ولا يَرثي أحد لحالهم.

إن الذين يستحقون رحمة الله هم الرجال الأقوياء الأشداء، المجاهدون الصابرون الثابتون.

فعلى الأمة أن تودِّع الأماني والأحلام الخادعة، وعليها أن تدخل باب الجهاد والشهادة. هذا. أو الدمار والطوفان!.

○ وعْد الله ودكُّ السد:

بعدما قرر ذو القرنين أن بناء السد رحمةٌ من ربه، وشَكَرَهُ على ذلك قدم للسامعين حقيقة إيمانية هامة. وهي في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

إنه يقرر أن هذا السد له عمر محدود، وأنه ليس باقياً، فلا يركنوا إليه، إن الله هو الذي أَذِن بإيجاده وبنائه، وهو الذي أذن أن يكون قوياً متيناً، وهو الذي أذن أن يمنع هجمات يأجوج ومأجوج.

إن الله سيأذن ليأجوج ومأجوج بالنجاح في نقض السد، وسيكتب لهم تدميرَ السد، وسيخرجون من السد، ليُعيدوا إفسادهم مرة ثانية وثالثة ورابعة.

إذا جاء وعْدُ ربي، وانتهى عمر السد، وأذن الله بنقضه وتدميره، فلن يقف أحدٌ أمام أمر الله، ولن يحول دون تحقيق إذنه سبحانه، لأن البشرَ ضعافٌ مهازيل، ولأن الله هو القوي القادر الفعال لما يريد.

إذا جاء وعد ربي دكَّ السد، وسوّاه بالأرض، وجعل السد دكاء.

دكّاء: يعني مساوياً للأرض.

ونجد عند كلمة «دكّاء» لفتة بيانية قرآنية.

إن «دكاء» مؤنث. وإن السد مذكر، فلماذا وُصِفَ المذكَّر بالمؤنث، والأصل أن يتساوى الموصوف والصفة في التذكير والتأنيث.

في هذه الكلمة قراءتان:

الأولى: دكاءَ: بالمد والهمز. وهي قراءة حمزة وعاصم والكسائي.

وتوجيهُها: أي جَعَلَ السدَّ مِثْلَ أرض دكّاء. فدكاءُ صفة لكلمة محذوفة مؤنثة «أرض دكاء» ثم حَذَفَ المضاف. وهو أرض، وأقام المضاف إليه مقامه: جعله دكاء.

والعرب يقولون: ناقة دكاء. أي لا سَنام لها.

الثانية: دكاً. بالتنوين. أي صفةً للسد. وهذه لا إشكال فيها[1].

وبعدما وجَّهْنا وصفَ المذكر بالمؤنث، وأن المؤنث في الحقيقة صفةٌ لمؤنث محذوف. نبيِّن الحكمة من وصفه بهذه الصفة المؤنثة «دكاء».

إن هذا السد القوي المنيع، سيأتي عليه زمان يكون أرضاً دكاء، سيزول ما فيه من حديد ونحاس، ويتحوَّل إلى أرض مستوية، مجرد أرض. أرض دكاء.

وقد رجَّحنا أنه قد جاء وعد الله بالنسبة للسد فيما مضى، وأن يأجوج ومأجوج نجحوا ـ بإذن الله ـ في نقْض السد وتدميره، وأنه فعلاً قد أصبح دكاء.

وإن الناظر عندما ينظر الآن في مضيق «داريال» في جبال القفقاس، يرى فعلاً أن السد تحوَّل إلى أرض دكاء، وأنه لا يوجد من الحديد إلا بقايا قليلة على جانبي المضيق.

وقد صدق ذو القرنين فيما توقعه بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

○ مع الإِمام القاسمي في عِبَرِهِ من القصة:

أورد السيد محمد خير رمضان يوسف خلاصة العبر والعظات والأحكام التي استخرجها الإِمام القاسمي في كتابه «محاسن التأويل» من قصة ذي القرنين، وسوف نورد تلخيصاً لخلاصة السيد محمد خير:

١ ـ الاعتبارُ برفْعِ الله بعضَ الناس درجاتٍ على بعض. ورِزْقه من يشاء مُلْكاً ومالاً بغير حساب.

٢ ـ الأخذ بالأسباب والجرْيُ وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل، وعلى قدر بذل الجهد يكون الظفر والفوز.

---

(١) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة: ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

٣ ـ تنشيط الهمم لرفع العوائق.

٤ ـ وجوب المبادرة لمعالي الأمور.

٥ ـ من انتصر على أعدائه فلا يجوز أن يُذلهم ويستعبدهم، بل يعاملهم بالعدل، فيجزي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته.

٦ ـ على المَلِك أن يبذل جهده في حماية الوطن، وتوفير الراحة والأمن للمواطنين.

٧ ـ على المَلِك التعفُّف عن أموال رعيته، والزهدُ في أخذ أجرة في مقابلة عمل يأتيه.

٨ ـ التحدث بنعمة الله إذا اقتضاهُ المقام.

٩ ـ تدعيم الأسوار والحصون، وتقويتُها.

١٠ ـ مشاطرة الملك العمالَ، تنشيطاً لهم، وترويحاً لقلوبهم.

١١ ـ تعريف الآخرين ثمرةَ العمل المهم، ليعرفوا قدره، ويقوموا بشكره.

١٢ ـ إعلام الآخرين بالآخرة، وانقضاء هذه الحياة، لتبقى القلوب معلَّقة بالآخرة.

١٣ ـ الاعتبار بتخليد جميل الثناء وجليل الآثار، عن طريق حُسْن السجايا، وجميل المزايا، والشجاعة والهمة والعفو والعدل، والإِحسان إلى الآخرين.

١٤ ـ الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة[١].

○ سيد قطب يختم الكلام على قصة ذي القرنين:

نترك للأستاذ الإمام سيد قطب أن يختم لنا الكلام على قصة ذي القرنين، حيث سنأخذ من الظلال، خاتمة كلامه عن القصة:

«وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين. النموذجِ الطيب للحاكم

(١) ذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٢٨١ ـ ٢٨٣ بتصرف واختصار.

الصالح، يمكِّنُه الله في الأرض، ويَيسِّر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبرّ ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغُنْم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامِل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخِّر أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدْرَأُ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسَّرها الله له في التعمير والإِصلاح، ودفْع العدوان، وإحقاق الحق. ثم يُرجِعُ كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله...»[1].

* * *

---

(1) الظلال ٤:٢٢٩٣.



قِصَّة أُمِّ مُوسَى عليها السلام

○ القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

[القصص: ١ ـ ١٣].

○ تلاوة القصة بالحق:

وردت قصة «أم موسى» عليها السلام، في سورتين فقط. وهما سورة طه وسورة القصص.

نستنبط من قوله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ منهجَ النظر في القصة، وقاعدة التعامل معها، ومصدر أخذها.

إن تلاوتها بالحق، تعني أن نورد اللقطات والمشاهد والأحداث التي نجزم بأنها وقعت في قصتها. وأن لا نورد ما لم نجزم بصحته ولا بوقوعه، لأنه يتنافى مع التلاوة بالحق الذي تشترطه الآية.

إن تلاوتها بالحق تعني أن نبقى مع الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة ـ إن وُجِدَت ـ وأن نكتفي بما ورد فيها، لأن ما أخبرتْ به فهو الحق الذي لا شك فيه.

إن تلاوتها بالحق تعني أن لا نذهب إلى الإسرائيليات والأساطير بشأنها، لأننا لا نجزم بأن ما قالته هو الحق ـ كما لا نجزم بأنه الباطل أيضاً ـ!.

ولهذا لن نخرج ـ إن شاء الله ـ عن النصوص الواردة بالحق، والتي تُلِيت على رسول الله ﷺ بالحق.

○ الأجواء التي ولد فيها موسى عليه السلام:

كان فرعون متكبراً ظالماً مفسداً. وكان يسوم بني إسرائيل سوء العذاب. وكان يُذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم. وكان يراقب ولادة نسائهم: فإذا ولدت المرأة غلاماً أخذه زبانيته فذبحوه. وإذا ولدت أنثى أبقوها حية. كما قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

فرعون: كانَ من المفسدين. كما قررت الآية. وتصرُّف فرعون وفعله فساد. وفرعون هو مثال الحاكم الظالم الطاغي، فبدل أن يحافظ على أرواح ودماء رعيته ـ مهما كان اتجاههم، ومهما كانت قناعتهم ـ تحول إلى معتد على أموالهم، سافك لدمائهم، مزهق لأرواحهم.

وعندما يتحول الحاكم ـ الذي بيده السلطة والقانون ـ إلى هذه الوسيلة ضد رعيته، يتخلى عن واجباته ومهمته، بل وإنسانيته.

○ بين إرادة الله وإرادة فرعون:

أراد فرعون الظالم المفسد أن يقتل موسى عليه السلام.

وأراد الله سبحانه أن يعيش موسى، وفي بيت فرعون، وأن يتكفل فرعون برعايته!.

ولا يكون إلا ما يريده الله! ومَنْ هو ذلك المخلوق الذي يقدر على أن يقف أمام إرادة الله وأن يبطلها؟ إن الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن أم موسى على وشك أن تضع حملها، وهي تخشى فرعون وجنودَه، فإذا وضعت غلاماً فلن يعيش، إن جنود فرعون سيأخذونه ليقتلوه! ومَنْ هو ذلك الإِنسان الذي يمكن أن يحمي الغلام؟ ويقف أمام فرعون وجنوده؟.

وإذا أرادت أن تخفيه في البيت فهل يمكن أن تضمن له حياته؟ إنه ليس متاعاً من متاع البيت لا يتحرك ولا يبكي، إنه غلام، ولا بد أن يبكي ويصرخ، ولعل صراخه وبكاءه يدل الجنود عليه. فإذا ما خوفتْه أمُه بالخطر الفرعوني، فهل يفهم الغلام عليها ويكف عن البكاء؟ وهل يعرف معنى الخوف والحذر مولودٌ في الساعات الأولى من عمره؟.

وهل؟ وهل؟ إلى غير ذلك من الأسئلة، التي تراود ذهن من يقف أمام هذه القصة!.

إن موسى الوليد الضعيف في خطر داهم، وإن بيت أبيه وحضن أمه لا يوفران له الأمن، ولا يرفعان عنه الخطر ـ في هذه المرحلة ـ وأي مكان في مصر لن يزيل عنه الخطر ولن يوفر له الأمن، إلا مكان واحد، هو قصر فرعون! ولكن مَن يوصله إليه؟.

إن الله الذي أراد هذا، هو الذي سيوفر له الوسيلة المناسبة، وما على البشر إلا أن ينفذوا ما يوحيه الله لهم.

○ معنى وحي الله إلى أم موسى:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وأخبر الله موسى بذلك في قوله له: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝٣٨﴾.

أوحى الله إلى أم موسى بالطريقة الربانية المضمونة، التي يتم بها حفظ موسى عليه السلام، ويزول الخطر الفرعوني عنه.

لكن ما معنى وحي الله إلى أم موسى؟ إنه ليس وحياً رسالياً، بمعنى أنه لم يكن عن طريق جبريل الأمين عليه السلام.

إن أم موسى لم تكن رسولة ولا نبية، ولم تكن النبوة في النساء، بل هي خاصة بالرجال. وهذا هو صريح القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل: ٤٣].

جبريل عليه السلام لم ينزل بالوحي إلا على الأنبياء والمرسلين، وبما أن أم موسى ليست نبية، فلم يكن وحي الله لها عن طريق جبريل عليه السلام.

كان وحي الله إلى أم موسى عن طريق الإلهام الفطري ـ والله أعلم ـ حيث ألهمها أن تقوم بهذا التصرف.

والإلهام الفطري للإنسان، صورة من صور الوحي اللغوية، كما قال العلماء في «علوم القرآن».

○ ماذا أوحى الله إلى أم موسى؟

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.

لقد جمعت هذه الآية بين: خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين، بتناسق وتأثير وبلاغة وإعجاز.

الخبران في الآية: أوحينا. إذا خفت عليه.

الأمران في الآية: أرضعيه. ألقيه في اليم.

النهيان في الآية: لا تخافي. لا تحزني.

البشارتان في الآية: إنا رادوه إليك. جاعلوه من المرسلين.

إن الله لم يضمن لأم موسى حياة ابنها فقط، بل ضمن لها أن يعود إليها، وأن يعيش، حتى يكبر، وأن يكون نبياً.

○ طريقة رواها الأصمعي:

الأصمعي - عبد الملك بن قريب صاحب «الأصمعيات» - هو راوية العرب. وقد حفظ لنا كثيراً من الأشعار والأخبار والروايات والنوادر والطرائف. حيث تنقَّل في مختلف أحياء الجزيرة العربية وقبائلها، وسمع كلام رجالها ونسائها.

روى لنا في رواياته هذه الطريفة: بينما كان في إحدى رحلاته، وقف أمام إحدى خيام العرب، وسمع جارية صغيرة تنشد هذين البيتين:

أَسْتَغْفِرُ الله لِذَنْبي كُلِّهِ ... قَبَّلْتُ إِنْساناً بِغَيْرِ حِلِّهِ

مِثْلَ الغَزالِ ناعِماً في دَلِّهِ ... فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ

فقال لَها: قاتلكِ الله ما أفصحكِ؟.

فقالت له: وهل يُعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

حيث جمع في آية واحدة بين خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين[1].

○ نظرة في آيات سورة طه:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

في هذه الآية يلهم الله أم موسى التصرف في شأن وليدها، ويدلها على الطريقة التي يتم بها حفظه.

---

(١) تفسير القرطبي ١٣: ٢٥٢.

إنها طريقة عجيبة، فيها شدة وعنف: اقذفيه في التابوت، فاقذفيه في اليم، فليلقه اليم بالساحل.

اقذفيه. والقذف حركة شديدة عنيفة. تقذف مَن؟ تقذف ابنها الغلام العاجز الضعيف ابن الساعات الأولى. تقذفه في التابوت قذفاً.

وكأنها يقال لها: حفظ ابنك ليس عليك، بل على الله. ولذلك اقذفيه قذفاً في التابوت، ولا تضعيه وضعاً هيناً ليناً سهلاً.

والتابوت: اقذفيه كذلك في اليم قذفاً.

إن فِعْلَي «اقذفيه» يلقيان في الحس والخيال ظلالاً طيبة، وإيحاءات لطيفة، وإشارات خفية، يتذوقها الحس البصير ويأنس بها، وقد يعجز عن ترجمتها بلغة الكلام.

وندعو القارئ إلى أن يقف أمام هذه الآية، وأن يلحظ فيها تلك الظلال والإيحاءات والإشارات.

○ موسى في بيت فرعون:

قال تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾.

وإن الإنسان ليعجب من هذا المشهد في القصة: الله يمكر بفرعون، ويُرينا ضعفه وعجزه.

وكأنه يقول له: أنت تبحث عن المواليد الذكور لبني إسرائيل لتقتلهم. لا تُتعب نفسك بالبحث، فنحن سنقدم لك واحداً منهم، نقدمه لك بدون بحث ولا سعي منك، ها هو قد جاءك، وهو صغير ضعيف، عاجز عن الدفاع عن نفسه، فاقتله إن استطعت. إنه في بيتك، وبين يديك، وإنك ستعجز عن مسه بسوء وأذى، بل إنك سوف تُسَخَّر لخدمته وتربيته ليقتلك عندما يكبر!.

من هو الذي أخذ موسى؟ ﴿عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ إنه فرعون. العدو اللدود لموسى، وعدو الله، حيث ادعى الألوهية والربوبية، ومع ذلك هو عاجز عن قتل الوليد الصغير.

○ قلق أم موسى ثم هدوؤها:

صحيح أن الله بشَّرَ أم موسى بأن ابنها سيكون في حفظ الله ورعايته، وأنه لن يصيبه أحد بأذى، لأن الله سيحميه. ولكنها لم تتوقع أن يحمل اليم موسى إلى بيت فرعون.

لقد سيطرت الأوهام والظنون والهواجس على أم موسى، وحاول الشيطان أن يلقي إليها بوساوسه ونزغاته. كما قال الله عنها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾.

فؤادها فارغ من كل شيء، إلا من موسى، لم يعد في قلبها إلا أمر موسى والتفكير فيه، والخوف عليه.

وفراغ قلبها إلا من موسى، ليس دقة تصويرية فقط، وليس مبالغة بيانية، وإنما هو حقيقة نفسية ملحوظة. فالإنسان عندما يسيطر عليه أمر من الأمور، يكون مفكراً فيه، وليس في قلبه سواه.

وكأن أم موسى عادت على نفسها بالاتهام، وأنْحت عليها باللائمة: ماذا فعلْتُ؟ لماذا فعلتُ بابني هذا؟ من يضمن لي أن هذا إلهام من الله؟ كيف سلَّمت ابني بيدي إلى عدوه فرعون الذي سيقتله؟ هل أنا مجنونة حتى أفعل ذلك؟.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي كادت أن تكشف سرها بنفسها، وأن تفضح نفسها. كادت أن تخرج إلى الناس لتقول لهم: أنا الجانية، أنا التي جنيت على ابني، إن هذا الوليد الذي عند فرعون هو ابني، فأرجوكم أنقذوه وأعيدوه إليّ.

ولو أن أم موسى فعلتْ ذلك، ونطقت بذلك، فمن هو ذلك الإنسان الذي يقدر على أن يدافع عن موسى، وأن ينقذه من بين يدي فرعون؟.

كادت أن تبدي بالخبر وتكشف السر، لولا أن الله طمأنها، وأزال هواجسها ووساوسها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بأن ملأنا قلبها إيماناً بالله، وثقة بوعده، ويقيناً

بتحقيقه. فأيقنتْ بأن الله هو الذي أوحى لها بذلك التصرف، وأن الله هو الذي قدَّر وصول ابنها إلى فرعون، وأن الله هو الذي سيحفظه عند فرعون.

ربط الله على قلبها، فاطمأنت، وهدأت نفسها، وسكنت خواطرها. وكانت من المؤمنين، وصارت ترقب مصير موسى بيقين وهدوء واطمئنان.

وندعو إلى ملاحظة دقة وحيوية وتأثير التصوير الفني في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾.

صورة الفؤاد فارغاً من كل شيء، إلا من شيء واحد، فهو في الحقيقة ممتلىءٌ بذلك الشيء، الذي تمكن منه. فتعبر عنه الآية بأنه فارغ، لتقرر بأنه ممتلىء!.

امتلأ قلبها من الاهتمام بابنها، وامتلأ قلبها من ذلك السر الخطير، وهو أن هذا الغلام الذي عند فرعون هو ابنها، وحتى لا تُبدي بذلك السر، ربط الله على قلبها والسر داخله!.

○ دور امرأة فرعون:

أخبر الله سبحانه موسى عليه السلام بما جرى له في قصر فرعون، وأعلمه بصورة من محبة الله، وتقديره الأمور التي تحفظ له حياته.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾. فالمحبة من الله تُلقى عليه إلقاءً. وهي صورة فنية رائعة، وكأن الله يريد أن يعوضه عما فقده من حنان أمه، ودفء حضنها، وحسن رعايتها، حيث فقد عنايتها، وما تقدمه له من الفراش الدافىء الذي تبسطه له، والغطاء الآمن الذي تلقيه عليه.

إنه لم يخسر شيئاً في حقيقة الأمر، فها هي محبة الله سبحانه، تُلقىٰ عليه في بيت فرعون إلقاء، تلقى عليه فتغطيه، لتكون أشبه ما تكون بغطاء يلقى عليه.

لكن شتان ما بين غطاء أمه المصنوع من متاع الدنيا، والذي لا يمنع عنه أذى فرعون، وبين هذا الغطاء الرباني المصنوع من المحبة الخالصة، والذي يدفع عنه الأذى.

لقد تكفل الله موسى عليه السلام، وتعهد أن يحميه من أذى فرعون في بيت فرعون. ولكن كيف؟.

اختار الله لذلك وسيلة لم تخطر على بال بشر. إنها المحبة، وسخر لتحقيقها قلباً لم يتوقعه أحد. قلب امرأة فرعون!.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

شملت امرأة فرعون موسى الصغير بمحبتها، ألقى الله محبته في قلبها، أمر قلبها أن يحبه، ووظف قلبها في الدفاع عنه. طلبت من زوجها فرعون أن لا يقتله، وأخبرته بأن هذا الوليد قُرة عين لهما.

وما كان من فرعون إلا الموافقة والاستجابة، ولا يملك إلا الموافقة والاستجابة.

بالله عليك: لو طُلب منك أن تحمي موسى من بطش فرعون، وهو بين يديه، صغير عاجز عن الدفاع عن نفسه، وفرعون يشحذ سكينه لذبحه. هل تقدر على أن تدافع عنه؟ ولو قدرت على ذلك، فهل يمكن أن تخطر هذه الوسيلة لك؟ هل يمكن أن توظف قلب امرأة فرعون لذلك؟ هل يمكن أن تجعل قلبها يحبه ويتبناه؟.

إن أي واحد من البشر عاجز عن ذلك. أما الله سبحانه ـ الفعَّال لما يريد ـ فقد فعل هذا. إن قلب امرأة فرعون لا سلطان لأحد من البشر عليه، وإن فرعون لم يسيطر على قلبها، ولم يتحكم فيه، بل إن امرأة فرعون نفسها لا سلطان لها على قلبها. أما الله سبحانه فهو وحده له السلطان على قلبها ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

○ أخت موسى تقتفي أثره:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

أمرت أم موسى أخته أن تقتفي أثره، وأن تراقب تابوته مراقبة دقيقة حذرة أمينة، لتعرف أين يستقر، وماذا سيكون من أمره.

قالت لها: قصيه. أي تتبعي حركته، وراقبي سيره.

ونفذت الأخت الحكيمة طلب أمها بحكمة وحذر. وراقبت خط سير التابوت، ولعلها راعتْها المحطة الأخيرة للتابوت أمام قصر فرعون، ولعلها راعها أخذُ أهل القصر للتابوت.

ويهمنا هنا الإشارة إلى حذر وذكاء أخت موسى، كما عبرت عنها الآية ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. لقد كانت حذرة ماهرة ذكية، تتصرف بفطنة، وتتقن فَنَّ التخفي والمراقبة الأمينة.

كانت تراقب التابوت من بعيد، من غير أن تلفت حولها الأنظار، إنها تُري الآخرين وكأن الأمر لا يعنيها. وكأنها إحدى المارة في الطريق. فلا يخطر على بال أحد أن هذه الفتاة قريبةٌ لذلك الغلام!.

○ شفتا موسى ترفضان الأثداء:

وعد الله أم موسى أن يعيد ابنها لها، ووعْد الله حق نافذ. حيث أعاده إليها بطريقة فريدة معجزة لا تخطر على بال بشر!.

قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾. ومعنى التحريم هنا هو المنع الذي يحقق الامتناع. أي أمرناه ـ وهو الطفل الرضيع ـ أن يمتنع عن قبول ثدي أية امرأة مرضع، فنفذ أمرنا وامتنع.

وهذه الوسيلة الربانية من أعاجيب تدبير الله وتقديره. فموسى طفل رضيع لا يتجاوز عمره أياماً ـ ولعلها ساعات ـ والرضيع في هذه السن لا يفرق بين امرأة وامرأة، ولا بين ثدي وثدي. فما يكون له اختيار أو تمييز!.

إن الله أوجد عند موسى الرضيع تمييزاً، بصورة معجزة ـ مثل باقي المعجزات التي أحاطت بمولده وحفظه ورعايته ـ.

لقد كان موسى الرضيع جائعاً ـ والرضيع عندما يجوع يقبل أيَّ ثدي، ويمتص أيَّ حليب ـ فقدمت له المراضع عند فرعون أنفسهن، ليرضع حليبهن، وعرضت كل واحدة ثديها عليه. ولكنه كان يرفض المراضع جميعهن، ويمتنع

عن قبول الأثداء كلها. ولعله كان يمتنع بعد أن يشم الثدي وينظر في وجه صاحبته، فلا يجد فيه ثدي الأم، ولا يجد عند صاحبته رائحة الأم!.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ وكأن الله أمر الشفتين أن لا تقبلا أي ثدي، ولا أن ترضعا أي حليب. فامتثلتا أمر الله، وما كان لهما إلا الامتثال!.

ووقع القوم في حيرة ودهشة وقلق، وتعجبوا مما يشاهدونه لأول مرة. طفل رضيع يبكي جوعاً، ومع ذلك يرفض الثدي والحليب، وكأنه يبحث عن ثدي خاص لامرأة مخصوصة ليرضع منها حليباً خاصاً.

ثم هم قلقون عليه، ويخشون عليه الهلاك إن استمر على هذا الرفض، والامتناع، إنهم يريدون له أن يعيش، وعلى أتم الاستعداد لأن يبذلوا له كل شيء للإبقاء على حياته.

ومن هم الحريصون على حياته الآن، المتلهفون لإنقاذه؟ إنهم أولئك الذين كان يُخشى على حياته منهم! إنهم أولئك الذين كنا نتوقع منهم قتله، أصبحوا بتدبير الله وتقديره راغبين في حياته، متشوقين لإنقاذه!.

يا لتدابير الله، ويا لعظمته سبحانه، آمنا بالله وحده!.

○ الحكمة من امتناعه عن المراضع:

إذا ما وقفنا أمام هذا التدبير الإِلَهي الحكيم، وحاولْنا إدراك بعض الحكم من امتناع موسى عن المراضع، فإننا قد نخرج من ذلك بالحكم التالية:

١ ـ إن هذا الامتناع تدبير إلهي، ليُعاد موسى إلى أمه.

٢ ـ لو قبل موسى أية مرضع في قصر فرعون لحُرم من حنان الأم، ودفء حضنها، وحسن رعايتها. ومن المعلوم أن أم الطفل أكثر حرصاً عليه واهتماماً به، مهما كانت المرضع مخلصة له!.

٣ ـ لو قدمت أمه نفسها مرضعة له قبل امتناعه، لكانت متَّهمة، وقد تُثار حولها الشبهات، وقد تنكشف علاقته بها، لأن لهفة الأم على ابنها لا تخفى على مراقب بصير، إنها تبدو في شغفها به، وطريقة حضنه وحمله، وتقديم ثديها له.

٤ ـ إن هذا الامتناع من باب مكر الله سبحانه بفرعون وقومه، حيث جعلهم هم الذين يبحثون ـ بحرص واهتمام ـ عن أية مرضعة. عندها لن تكون هناك شبهة في قبوله ثدي أمه، ولا يفكرون في صلتها به.

وكأن الله يقول لفرعون: أنت تريد أن تأخذ الرضيع من حضن أمه، ونحن نريدك أنت وقومك أن تعيدوه إلى حضن أمه، وأن توظفوا أمه مرضعة له على حسابكم، وأن تقدموا لها أجرتها مقابل رضاعه. ولا يكون إلا ما نريد، وأنتم أنفسكم تنفذون ما نريد!.

○ الله يرد موسى إلى أمه:

تدخلت أخت موسى في الوقت المناسب، وعرضتْ خدماتها على آل فرعون، حيث كانوا حريصين على إنقاذ حياة الرضيع بأية وسيلة، وقبول أي قول ـ مهما كان قائله ـ.

تدخلت أخته بصورة لا تثير حولها الشبهات، وهذا يدل على حيطتها وحذرها، وعلى موهبتها وحسن تخطيطها، وذكائها وسلامة تفكيرها.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؟.

وانظر الدقة في كلامها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ بهذا الاستفهام الذي يدل على الحث والتحضيض، والصادر بلهجة الإشفاق. وهم لا يملكون إزاء هذا الاستفهام إلا الرد بإيجاب!.

تدلهم على ماذا؟.

على أهل بيت يكفلون الرضيع، يكفلونه لآل فرعون ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾.

ثم هم يتوفر عندهم حسن الرعاية والعناية والحرص. والإخلاص في النصح للرضيع: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

ووافق آل فرعون على هذا العرض، وما شك أحدهم في إخلاصها في رأيها، ولا في رغبتها في المساعدة، وما ورد بخاطر أحدهم ظن بأنها أخت موسى، ولا توقع أحدهم بأن هذا الرضيع ذاهب إلى حضن أمه.

ورد الله موسى إلى أمه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ نفهم منها أن الله رده إليها رداً، لأنها هي الأَوْلى به، والأحق بحضانته. رده إليها رداً تصديقاً لوعده السابق لها ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾. رده الله إليها كي تقر عينها، بأن تحضن وليدها، وتقدم له حليبها. رده الله إليها كي لا تحزن على فقده، ولا تهلك نفسها شوقاً له.

وقد ذكَّر الله موسى عليه السلام بهذه النعم، وامتنَّ عليه بهذا التدبير، عندما بلغه بالنبوة، وكلفه بالذهاب إلى فرعون. وقال له: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

○ أم موسى ترضع ابنها على حساب فرعون:

فرح آل فرعون بقبول الرضيع ثديَ تلك المرأة، وبذلك تم إنقاذ حياته، وما فكر أحد منهم بأن هذه هي أمه!.

وتم توظيف أم موسى من قبل فرعون، على أن تكون مرضعة وحاضنة وكافلة له، وقائمة بأمره، ومعنية بشؤونه. ودفَع لها فرعون أجرتها على القيام بهذا!.

وهذا من أعاجيب تدبير الله! فلو بقي موسى عند أمه لما استطاعت حمايته، ولكان معرضاً للهلاك والخطر، ولو بقي موسى عند فرعون، يرضع من أية مرضعة، لما وجد عندها حنان الأم وعطفها، ولما استقرت مشاعر أمه، ولا اطمأنت على ابنها!.

إن الله أراد لموسى أن ينجوَ من مكر فرعون. وأراد لموسى أن يحمله التابوت إلى قصر فرعون. وأراد لموسى أن يحبه قلب امرأة فرعون. وأراد لموسى أن لا يقبل ثدي أية مرضعة عند فرعون. وأراد لموسى أن يُعاد إلى بيت أمه منتقلاً له من قصر فرعون. وأراد لموسى أن لا يشك في أمه أحد من جنود فرعون. وأراد لموسى أن تقوم أمه بإرضاعه وحضانته على حساب فرعون. وأن تأخذ أجرتها على ذلك من مال فرعون. وفي كل ما أراده الله من هذه الأمور

إلغاء وتعطيل لإرادة فرعون. ومكر بإرادة فرعون. وأين نتيجة ما أراده الله؟ ونتيجة ما أراده فرعون؟ ومن هو هذا الفرعون؟ من هو حتى يعطل إرادة الله؟ إنه لن يكون إلا ما أراده الله!. ويا ويح فرعون ـ ويا ويح كل من «تَفَرْعَنَ» على طريقة فرعون ـ ما أضعفه أمام إرادة الله سبحانه!.

أصبحت أم موسى في إرضاعها لابنها وأخذها الأجرة على ذلك من فرعون، مثلاً يُضرب لكل من عمل الخير وقام بالواجب، ثم أخذ الأجرة على ذلك الواجب.

روى أبو داود عن جُبير بن نُفير عن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ الذين يغزون من أمتي، ويأخذون الجُعْل، ويتقوَّوْن به على عدوهم، مثلُ أم موسى: تُرضع ولدها، وتأخذ أجرتها»[1].

○ الحكمة من الرحلة المثيرة لموسى:

قد يقف بعض الناس متسائلاً عن الحكمة من هذه الرحلة المثيرة لموسى عليه السلام، فبما أنه سيكون عند أمه، وأنه سينجيه الله من مكر فرعون وأذاه، فلماذا يسوقه اليم إلى بيت فرعون، ثم يعيده فرعون إلى أمه؟.

هناك حِكَم عديدة من هذا التقدير الإلهي الحكيم، والتدبير الرباني المعجز. منها:

١ ـ إن الله يريد أن يمكر بفرعون، ويظهر للناس تعطيل إرادته أمام إرادة الله سبحانه.

٢ ـ إن الله يريد أن يقدم للمؤمنين دروساً وعبراً ودلالات إيمانية، من

---

(١) رمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالصحة. واعتبره مرسلاً، لأن جبير بن نفير لم يدرك رسول الله ﷺ. وبذلك يكون قد أسقط اسم الصحابي.
لكن ذكر المناوي في «فيض القدير» أن جبير بن نفير أخذه عن خالد بن الوليد وعبادة بن الصامت. وكأن المناوي بذلك يصله ويزيل إرساله. فالحديث صحيح.
ثم قال المناوي: ورواه ابن عربي من حديث معاذ. وقال الحافظ العراقي عن هذه الرواية: مستقيم الإسناد، منكر المتن. فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥:٥١١.

خلال هذه الرحلة، حول قدرة الله وتدبيره، ونفاذ إرادته وتحقيق مشيئته، وضعْف وعجز من يحاد الله ويحارب المؤمنين ويؤذي الصالحين، وحول حفظ الله للصالحين، وتدبيره الأمور لتحقيق ذلك.

٣ ـ إن الله يريد أن يضمن لموسى الوسيلة الناجحة لحمايته من بطش فرعون ومكره، ويريد له أن يعيش في حضن أمه، ويرضع من ثديها، بأمان واطمئنان، بل وعلى حساب فرعون ونفقته!.

٤ ـ إن الله يريد أن يكشف لنا عن نماذج خيِّرة طيبة في بيت فرعون نفسه، وهي زوجته التي أحبت موسى ودافعت عنه، فالبيت الطالح الكافر قد لا يخلو من أناس صالحين طيبين.

٥ ـ إن الله يريد أن يمتنَّ على موسى، وأن يريه بعض نعمه عليه، ورعايته له، وتحقيقه معجزات في حياته.

٦ ـ إن الله يريد أن يقدم لنا بعضاً من جنوده الأخفياء. التي ظهرت في هذه الرحلة.

هذه بعض الحِكَم التي تبدو لنا من هذا التدبير الإِلهي، وهذه الرحلة المثيرة، والله أعلم.

○ بعض جنود الله في هذه الرحلة:

أطلعَنا القرآن الكريم على بعض جنود الله الأخفياء، الذين كان لهم دور في حماية موسى وإعادته إلى أمه منهم:

١ ـ التابوت الذي وُضع فيه موسى.

٢ ـ اليم الذي حمل التابوت.

٣ ـ قلب امرأة فرعون الذي رق لموسى، وامتلأ محبة له.

٤ ـ شفتا موسى اللتان رفضتا قبول أي ثدي، حتى عاد موسى إلى أمه.

وتجنيد الله لهؤلاء الجنود الأخفياء، دليل على أن لله جنود السموات والأرض، وأنه ـ سبحانه ـ يوظف منها ما شاء لما شاء. وما يعلم جنود ربك إلا هو!.

وتجنيد هؤلاء الجنود الأربعة، وهم لا عقل لهم ولا وعي ولا إدراك ولا اختيار - كما يبدو في ظاهر الأمر - رد بالغ على الماديين، الذين ينكرون ما وراء المادة، ولا يثبتون لغير الإنسان عقلاً أو روحاً، أو وعياً وإدراكاً.

إنهم لا يتصورون أن يكون لشفتي رضيع - في أيامه الأولى - تمييز واختيار، وأن ترفضا الأثداء والحليب، وأن تُصِرّا على ثدي خاص، هو ثدي الأم.

إن الأمر في ظاهره غريب، لكنه لا يتصادم مع العقل المؤمن الواعي البصير، إنه يَدْخل دائرة الأمور المعقولة: إن الله هو الذي أراد هذا. والله أمر الشفتين بالامتناع، وحرَّم عليه المراضع. والعقل المؤمن يسلِّم بأن إرادة الله نافذة، وأنه فعَّال لما يريد، وأن كل مخلوق في الكون منفِّذ لأوامر الله ومحقِّق لإرادته.

○ ماذا جرى لأم موسى بعد ذلك؟

وقف بنا القرآن عند هذه اللقطة من حياة أم موسى. ولم ندرِ ماذا جرى لها بعد ذلك. فكل ما عرفناه عن أم موسى - من خلال العرض القرآني - أنها امرأة من بني إسرائيل. وأنها زوجة لرجل من بني إسرائيل اسمه «عمران»، وأنها كانت مؤمنة صالحة، وأن الله ألهمها طريقة ناجحة لحفظ موسى ونجاته من الخطر الفرعوني، وأن الله رد ابنها إليها فأرضعته وجعلته يشب وينمو في بيتها.

إن القرآن لم يَعرض من قصتها إلا الجانب المتعلق بموسى عليه السلام في طفولته.

وكانت آخر لقطة في قصتها في العرض القرآني، هي عودة ابنها إليها - لكن بأمر فرعون وكفالته ونفقته - وإرضاعها له وعنايتها به.

وماذا بقي بعد ذلك؟ هل بقي من حياتها شيء له ارتباط بطفولة موسى عليه السلام، يستحق أن يُبرَز بالذكر؟ لا شيء!.

لذلك وقف القرآن في قصتها أمام هذا المشهد، وختمها بهذه اللقطة، وهو ختام فني وموضوعي.

يجب أن نقف عندما وقف عنده القرآن، وأن نسكت على ما سكت عنه القرآن، وأن يكفينا ما قدمه لنا القرآن. ومن لم يكفه القرآن فلا كفاه الله! ومن لم يستغن بالقرآن فلا أغناه الله!.

لقد سارع القرآن في عرضه. فقدم لنا موسى عليه السلام، وهو شاب بالغٌ أشدَّه، وبذلك طوى لنا مراحل من حياته طياً، طوى لنا حياته، وهو طفل صغير بعد الفطام، وطوى لنا حياته، وهو غلام يافع، لأن هذه المشاهد ليست ضرورية لقصته.

إن المهم بعد طفولة موسى عليه السلام، هو شبابه المتدفق حياة وحيوية، وحماسة وحمية، وإيماناً وإخلاصاً ومحبة، ودفاعاً عن المظلومين. ونصرة للمستضعفين:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾ [القصص: ١٤ ـ ١٥].

لكننا لن ندخل في قصة موسى بعد ذلك، حتى لا نخرج عن موضوع هذا الكتاب، لأن حديثنا إنما هو عن أم موسى وليس عن موسى نفسه ـ عليه السلام ـ وقد عرضنا من قصته ماله ارتباط بقصة أمه، فقط.

○ حديث الفتون وحكاية الجمرة والتمرة:

نرى من الضروري قبل أن نغادر هذه القصة إلى قصة غيرها، أن نشير إلى حديث «الفُتُون» وحكاية «الجَمْرَة والتَّمْرَة». نقف أمامه باعتباره يتحدث عن أشياء حدثت لموسى وهو طفل رضيع في بيت فرعون قبل أن يُعاد إلى أمه.

قال الله لموسى، ممتناً عليه ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾ [طه: ٤٠].

أورد معظم المفسرين السابقين حديث الفُتُون، ونسبوه إلى ابن عباس رضي الله عنهما وزعموا أنه رفعه إلى رسول الله ﷺ.

وذكروا في حديث الفُتُون حكاية «الجَمْرَة والتَّمْرَة».

حيث زعموا أن موسى الرضيع عندما كان في بيت فرعون، دعت امرأة فرعون زوجها إلى أن يحمل موسى في حضنه، فلما حمله، نظر موسى إلى لحية فرعون، فجذبها إلى أسفل، فغضب فرعون من فعلته، وتشاءم منه، واعتبرها إشارة إلى عداوته له، فأمر بذبحه.

فتدخلت امرأته، ورجته أن لا يفعل، وبينت له أنها حركة من طفل لا يعرف ماذا يفعل.

ولهذا فهي غير مقصودة. إنه لا يعرف ماذا يأخذ وماذا يترك وماذا يختار. وقالت له: قدِّم له جمرة وتمرة، وانظر ماذا يأخذ منهما، فإن أخذ الجمرة فهو بريء ولم يقصد حركته ضدك، وإن أخذ التمرة فهو يقصد ما فعل ويتهددك ويتوعدك!.

قالوا: وقدم له فرعون جمرة وتمرة، فأخذ الجمرة، ووضعها على لسانه، فأحرقته، وأحدثت له عاهة دائمة، تمثلت في لُثْغَة مستمرة.

قالوا: والدليل على وجود هذه اللثغة، أنه لما كلمه الله سبحانه بالذهاب إلى فرعون، طلب من الله أن يزيل تلك اللثغة عنه، وأن يحل تلك العقدة من لسانه. فدعا الله قائلاً: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٦ ـ ٢٨].

ونحن ـ على منهجنا في النظر في قصص القرآن ـ لا نقبل هذا الكلام عن حديث الفتون، وحكاية الجمرة والتمرة، ولا نقول به، ولا نفسر به كلام الله.

لا نقبله لأنه لم يصح عن رسول الله ﷺ، وإنما هو من الإسرائيليات التي ندعو باستمرار إلى طرحها جانباً.

قال الإمام ابن كثير في تفسير سورة طه بعد إيراده حديث الفتون المطوَّل: «وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تَلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار،

والله أعلم»[1].

وإن كان الأمر كذلك، وإذا كنا لا نقبل الروايات غير الصحيحة عن الجمرة والتمرة، فما هي عقدة لسان موسى عليه السلام التي طلب من الله أن يحلها له؟.

إنها عقدة معنوية وليست حسية ـ والله أعلم ـ إنها «حَبْسَة» ناتجة عن الانفعال النفسي، وهذه حالة نفسية معروفة. فالإنسان عندما ينفعل أحياناً من موقف أو كلام أو حادث، ويتكلم وهو في أقصى درجات الانفعال، فإنه يتكلم كلاماً سريعاً متوالياً، غير واضح ولا بيِّن، وقد يصل إلى مرحلة من الانفعال يضيع فيها صوته ويجد نفسه عاجزاً عن الكلام.

يبدو أن موسى عليه السلام، كان يخشى أن يمر بهذه الحالة أمام فرعون، كان يخشى أن لا يتمالك نفسه وأعصابه عندما يكذِّب فرعون ويمارس أمامه طغيانه وظلمه وإفساده، كان يخشى عند ذلك أن تخرج الكلمات سريعة على لسانه، فلا يفهمها السامعون، أو تنحبس الكلمات داخل صدره، ويعجز عن إخراجها من فمه لشدة ضيقه وانفعاله، وبهذا لا يبلِّغ الدعوة ولا يقيم على الموجودين الحجة. ولذلك دعا الله أن يزيل عنه تلك الحبسة المعنوية، وأن يحل عن لسانه تلك العقدة النفسية، وأن يبقى ضابطاً لأعصابه، ملازماً له هدوءه. فاستجاب الله له.

هذا ما نفهمه من عقدة لسانه المعنوية النفسية، والله تعالى أعلم.

قال الأستاذ سيد قطب في الظلال: «والظاهر من قول موسى عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٢ ـ ١٣] أن خوفَه ليس من مجرد التكذيب، لكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره، ولا ينطلق لسانه، فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده، إذ كانت بلسانه حبسة، هي التي قال عنها في سورة طه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾﴾ ومن شأن هذه الحبسة أن تُنشئ حالة من ضيق الصدر. تَنشأ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:١٥٣. وانظر: حديث الفتون بطوله فيه ٣:١٤٨ ـ ١٥٣.

من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام. وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقاً.. وهكذا.. وهي حالة معروفة»[1].

○ أهم دروس قصة أم موسى:

نقف أخيراً لنلخص أهم الدروس والدلالات والعِبَر، التي نستخلصها من قصة أم موسى عليها السلام في القرآن. وقد وردت هذه الدروس أثناء حديثنا التحليلي لها:

١ ـ أم موسى عليها السلام ليست نبية، ووحي الله لها عن طريق الإلهام فقط.

٢ ـ وجوب الاكتفاء بالقرآن والحديث الصحيح في معرفة تفصيلات القصة.

٣ ـ كان فرعون ظالماً مفسداً متكبراً في قتله للمواليد الذكور من بني إسرائيل.

٤ ـ تعطيل وعجز إرادة فرعون أمام إرادة الله سبحانه. لأنه لا يكون إلا ما أراده الله.

٥ ـ كل من وقف أمام إرادة الله فهو عاجز ضعيف، وهو فاشل مهزوم خاسر. وإن أعداء الله أينما كانوا هم إلى هزيمة وخسارة، لأنهم يحاربون الله بغفلة وسذاجة، ومن هو الذي سينتصر إذا حارب الله القوي القادر سبحانه؟.

٦ ـ يختار الله سبحانه ما شاء من الوسائل والأساليب لتحقيق وعده، وإنفاذ إرادته، وحفظ أوليائه، وقهر أعدائه.

وما على المؤمنين إلا الاطمئنان إلى أمر الله. وتفويض أمورهم إليه، وحسن توكلهم عليه، وأخذهم بالأسباب المادية التي تحقق لهم الانتصار على الكفار.

٧ ـ البشر مهما خططوا ونظموا ودرسوا ورسموا، فإن كل ذلك يضيع ويتلاشى، ولا يكاد يذكر أمام تقدير الله سبحانه وتدبيره.

---

(١) في ظلال القرآن ٥:٢٥٨٩.

٨ ـ البشر قد يعجزون عن فعل أمر، والدفاع عن شخص ونصرته. ولكن الله إذا دافع عنه ونصره فسيكون عزيزاً منتصراً. لأن الله لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

٩ ـ لله جنود أخفياء في السموات والأرض، ولا يعلم جنوده سبحانه إلا هو، وقد لا يخطر على بال بشر أن يكون أحدهم جندياً يقوم بأمر، ولكن الله سبحانه يسخِّر من هؤلاء الجنود من شاء لما شاء.

١٠ ـ إن الله مع أوليائه منذ اللحظات الأولى لحياتهم ـ بل منذ كونهم في بطون أمهاتهم ـ فهو يذلل لهم العقبات، وييسر لهم الطريق، وينقذهم من الأخطار. ولهذا أثره العظيم على حياة هؤلاء الأولياء وجهادهم ومواقفهم.

١١ ـ كان بيت فرعون الطاغية الذي ادعى الألوهية والربوبية مخْتَرقاً من الداخل. حيث كانت أقرب الناس إليه ـ حسب الظاهر ـ وهي امرأته كافرة به، مؤمنة بالله وحده لا شريك له. وقد أمر الله قلبها أن يحب الرضيع وأن يكفله ويدافع عنه، وعجز فرعون أمام هذا الأمر، ووافق على طلبات امرأته.

١٢ ـ يمكر الله بفرعون، ويجعله يتصرف أمام الناس تصرفات لا تخلو من غفلة. فها هو يوافق على أن يعيش الرضيع عنده، وأن ينمو في قصره، وأن يتولى هو بذاته كفالته ورعايته والإنفاق عليه، ليكون هلاكه بعد ذلك على يديه!.

١٣ ـ إن الله يعوض عباده الصالحين ما فقدوه من الناس، بما يمنحه لهم، وينعم به عليهم، فها هو موسى الرضيع يفقد حضن أمه وحنانها لفترة من الوقت، فيعوضه الله عن ذلك بما ألقاه عليه من محبته.

١٤ ـ **إن التربية الرجولية لا تتم عن طريق الرخاوة والدلال والميوعة، وإنما تتم من خلال المحنة والشدة والحزم.** فها هو موسى يُقذَف في التابوت. وها هو التابوت يقذف في اليم، وها هو اليم يلقيه أمام قصر فرعون، ويقدمه هدية لعدوه اللدود، ولكن الله يحفظه.

١٥ ـ قد يبتلي الله أولياءه وأحبابه، وقد يصيبهم بالضر والمحنة، فإنْ حصل هذا لهم فلا يكون دليلاً على عدم محبة الله لهم، ولا عدم رضاه عنهم. فالابتلاء لصقل النفوس وتعميق الإِيمان، ورفع الدرجات والمقامات عند الله.

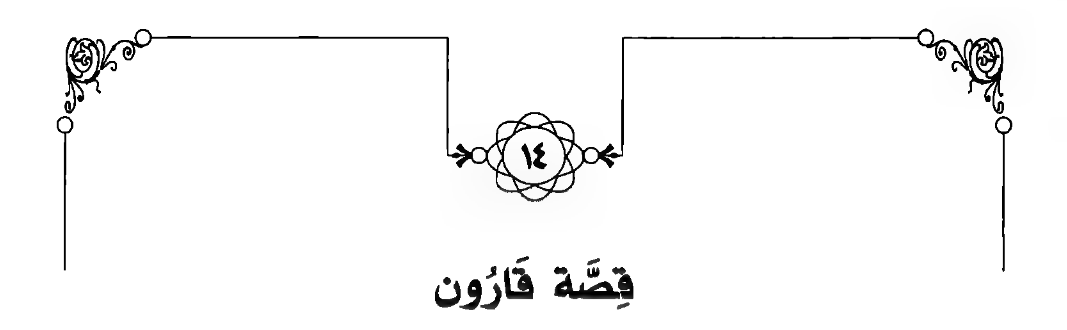
١٦ ـ يُعتبر امتناع شفتي موسى الرضيع عن قبول أي ثدي، إلا ثدي أمه، رداً قوياً على الملحدين والماديين، الذين ينكرون عالم الغيب ومجال الروح، ولا يجعلون العقل والاختيار والوعي والحياة إلا للإِنسان فقط.

١٧ ـ الله لا يخلف الميعاد، فقد وعد أم موسى أن يعيده إليها سالماً، فأعاده بطريقة لا تخطر لأحد على بال.

١٨ ـ يعتبر أخذ أم موسى الأجرة من فرعون مقابل إرضاعها لموسى، دليلاً على إكرام الله لها وإنعامه عليها، كما تعتبر هي مثالاً لمن يقوم بالواجب وأخذ الأجرة عليه.

١٩ ـ وجوب الأخذ بأنجح وأفضل الأساليب البشرية للتخطيط والتنظيم، وأخْذ الحيطة والحذر، وكتمان الأسرار عن الأعداء، والفطنة والذكاء وحسن التصرف معهم، كما رأيناه من موقف أخت موسى عليه السلام.





قِصَّة قارُون

○ قصة قارون في السياق القرآني:

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٣].

○ ذكر قارون في القرآن:

ورد اسم قارون في القرآن أربع مرات.

مرتان منهما في سورة القصص، في الآيات التي أوردناها.

والمرة الثالثة في سورة العنكبوت أثناء الحديث الموجز عن تكذيب الطواغيت الثلاثة: فرعون وهامان وقارون، وإهلاك الله لهم:

قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩ ـ ٤٠].

والمرة الرابعة في سورة غافر. حيث وردت أسماء الطواغيت الثلاثة في سياق إرسال موسى عليه السلام لهم، وتكذيبهم له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

○ موجز قصة قارون:

كان قارون من قوم موسى، فهو إسرائيلي وليس قبطياً، وأرسل الله موسى إليه مثل ما أرسله إلى فرعون وهامان.

وقد أعطى الله قارون أموالاً عظيمة، وكنوزاً وافرة، تملأ خزائن عديدة. ويثقل حمل هذه الكنوز والخزائن، بحيث تنوء بحملها العُصبة من الرجال الأقوياء الأشداء.

وقد استخدم قارون هذه الأموال في البغي والظلم والعدوان، وفي التكبر والبطر والخيلاء. وكان فتنة للفقراء الضعفاء من بني إسرائيل.

انقسم بنو إسرائيل في نظرتهم إلى قارون وكنوزه إلى قسمين:

قسم آمنوا بالله، وآثروا ما عند الله.

ولذلك لم يغتروا بما ملك قارون، ولم يتمنوا أن يكونوا مثله. بل أنكروا على قارون تكبره وبغيه وإفساده، وطالبوه أن يجعل ماله لله، وفي سبيل الله، ولنفع عباد الله.

أما القسم الثاني فقد خُدعوا بما ملك قارون، لأنهم فقدوا الميزان والقاعدة، والأساس الذي يقوِّمون به قارون وما يملك. فاعتبروا غنى قارون

من مظاهر رِضَى اللهِ عنهُ ومحبته له. فَتمنَّوْا أن يكونوا مثله، لأنه ذو حظ عظيم.

وسكر قارون بنشوة المال والغنى، فأعماه ذلك عن الحق، وأصمَّه عن قبول نصائح المؤمنين. ولما طالبوه بشكر الله على نعمة المال، وتوظيفه في النفع والخير والحلال، وأخبروه بأنه مال الله. رد عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾!.

وخرج يوماً على قومه في زينته، واستخدم زينته في الكبر والخيلاء، فكسر بها قلوب الفقراء، وغبَّش بها عيونهم، حيث قالوا لما رأوه: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

لكن المؤمنين الذين أوتوا العلم، نصحوا المخدوعين بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

وحقت على قارون سنة الله، وحل به غضبه، فكان مالُه سبباً في هلاكه وعذابه، إذ خسف الله به وبماله وبكنوزه وبداره الأرض، حيث شُقت الأرض، وابتلعت قارون وما يملك. على مرأى من بني إسرائيل ـ بقسميهم ـ ولم يجد قارون من ينصره ويدافع عنه، ولم تنفعه أمواله وكنوزه.

ولما رأى بنو إسرائيل ما حل بقارون ومالِه. ازداد المؤمنون الثابتون الصابرون إيماناً. أما الآخرون المخدوعون الذين تمنوا بالأمس أن يكونوا مثل قارون، فقد عرفوا الحقيقة، وزالت عن عيونهم الغشاوة، وحمدوا الله لأنهم لم يكونوا مثل قارون. وقالوا: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

○ إسرائيليات في قصة قارون:

نورد أهم الروايات الإسرائيلية في قصة قارون، لنحذِّر منها، ونضعُها بين أيدي القراء، حتى لا يغتروا بها إذا سمعوها أو إذا قرؤوها، وليردوا على كل من قال بها أو كتبها.

قال الثعلبي في كتابه «عرائس المجالس في قصص الأنبياء» ـ والذي ملأه

بالإسرائيليات والأساطير ـ في مقدمة قصة قارون: «قالت العلماء بأخبار القدماء»[1].

وقوله: هذا غريب ومرفوض.

لأن أخبار القدماء ـ بالنسبة لمن جاء بعدهم ـ هي من غيب الماضي. وهو لا يؤخَذُ إلا من مصادر يقينية جازمة قاطعة، وهذا لا يكون إلا لما أورده الله في كتابه الكريم، أو ذكره رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح.

فكل من ادّعى العلم بأخبار القدماء، وكل من أورد قولاً أو خبراً من أخبار القدماء، لا بد أن يبين مصدر قوله وخبره، من قرآن كريم أو حديث صحيح.

فإذا لم يفعل ذلك، فإن كلامه يكون مردوداً، وخبره يكون مرفوضاً. وهذا الرجل لا يكون من «العلماء بأخبار القدماء» وإنما يكون جامعاً للإسرائيليات، راوياً للخرافات والأساطير!.

ذكر رواة الإسرائيليات: أن قارون كان ابن عم موسى عليه السلام. وأنه كان من أعلم بني إسرائيل وأفضلهم وأجملهم، وأنه كان يسمى «المنوَّر» لحسن صورته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة. ولكنه نافق.

وذكروا عن مفاتيح كنوزه: أنها كانت حمل ستين بغلاً، ولا يزيد حجم المفتاح منها عن إصبع، وكل مفتاح منها لكنز.

وذكروا بداية جمعه للأموال، فقالوا: إن قارون في بداية أمره كان معتكفاً عابداً لله في صومعة على أساس جبل أربعين سنة. وقد سبق بني إسرائيل في العبادة.

فبعث إليه إبليسُ شياطينه ليغووه، فلم يقدروا عليه، فجاءه إبليس، وصار يعبد الله مثله، فغلب إبليسُ قارونَ في العبادة، فخضع له قارون باعتباره أكثر منه عبادة، وهو لا يعرف حقيقة أمره، فصار إبليس يخرجه من الصومعة

---

(١) عرائس المجالس للثعلبي: ١٨٨.

تدريجياً، وصار قارون يقبل على الدنيا تدريجياً، فكثر ماله وزادت كنوزه. فتركه إبليس. وأقبل قارون على الدنيا وترك العبادة.

وذكروا أنه لما كثر مال قارون، وأوجب الله الزكاة على بني إسرائيل، جاء قارون إلى موسى عليه السلام واتفق معه أن يدفع له الزكاة: عن كل ألف دينار ديناراً، وعن كل ألف درهم درهماً، وعن كل ألف شاةٍ، وهكذا. ولما رجع قارون إلى بيته، وحسب الزكاة الواجبة عليه، وجدها قد بلغت مبلغاً عظيماً. فلم تسمح له نفسه بإخراج هذه الزكاة. فمكر بموسى عليه السلام.

فاتفق مع ملأ متآمرين من بني إسرائيل، وقال لهم: آمركم أن تأتوا بفلانة البغِيّ، فنجعل لها مالاً على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلتْ ذلك، خرج بنو إسرائيل عليه فرفضوه، واسترحنا منه.

فأتوا بها، فجعل لها قارون ألف درهم، وقيل: ألف دينار، وقيل: طستاً من ذهب. وقال لها: اقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل.

فلما كان الغد، جمع قارون بني إسرائيل. ثم أتى موسى وقال له: إن بني إسرائيل قد اجتمعوا لك، ينتظرون خروجك. فاخرج إليهم لتعظهم وتذكرهم.

فخرج إليهم موسى عليه السلام، فخطبهم قائلاً: يا بني إسرائيل. من سرق قطعنا يده. ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة. ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة. وإن كانت له زوجة رجمناه حتى يموت.

فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا!.

فقال قارون: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة!.

قال موسى: أنا؟ قال: نعم!.

قال موسى: ادعوها، فإن قالت بهذا، فهو كما قالت.

فلما جاءت قال لها موسى: يا فلانة: أنا فعلت بك ما يقوله هؤلاء؟ وعظَّم عليها، وسألها بالذي أنزل التوراة وفلق البحر، إلا صدقت.

فلما ناشدها الله، تداركها الله بالتوفيق، وقالت في نفسها: لئن أُحْدِث اليوم توبة، أفضل من أن أوذي موسى رسول الله!.

فقالت له: لا. بل كذبوا. ولكن جعل لي قارون مالاً، على أن أقذفك بنفسي!.

فلما تكلمت بهذا الكلام، سُقِط في يد قارون، وَنَكَس رأسه. وسكت الملأ.

فخر موسى ساجداً لله يبكي. ويقول: يا رب إن عدوك هذا قد آذاني، وسبَّني وأراد فضيحتي. اللهم إن كنتُ رسولك فاغضب لي وسلِّطْني عليه.

فأوحى الله إليه: ارفع رأسك. وأْمُر الأرض بما شئتَ، تطعْك.

فقال موسى: يا بني إسرائيل. إن الله قد بعثني إلى قارون، كما بعثني إلى فرعون. فمن كان معه فليلبث مكانه، ومن كان معي فليعتزل عنه.

فاعتزلوا عن قارون، ولم يبق معه إلا رجلان.

ثم قال موسى: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى كعابهم. ثم أخذتهم إلى جنوبهم.

ثم أخذتهم إلى أعناقهم. وقارون وصاحباه يتضرعون إلى موسى عليه السلام، ويناشدونه بالله وبالرحم.

ثم قال موسى: يا أرض خذيهم. فانطبقت الأرض عليهم.

وأوحى الله إلى موسى: يا موسى ما أفظَّك! استغاثوا بك سبعين مرة، أما وعزتي وجلالي، لو إياي دعوا لوجدوني قريباً مجيباً!.

وإن الله يخسف بقارون وصاحبيه كل يوم قامة، وإنه يجلجل بهم فيها، لا يبلغون قعرها إلى يوم القيامة»[1].

إننا لا نقبل هذه التفصيلات الإسرائيلية، إذ لا يجوز لأحد أن يرويها إلا

---

(١) انظر: «عرائس المجالس للثعلبي» ١٨٨ ـ ١٩٢.

من باب التحذير منها، والإشارة إلى كونها إسرائيليات غير مقبولة.

○ قارون الإسرائيلي وسر قَرْنه مع فرعون:

أخبر القرآن أن قارون كان من قوم موسى، فهو من بني إسرائيل، وليس من آل فرعون.

وبما أنه من بني إسرائيل، فلماذا قرنه القرآن مع فرعون وهامان، واعتبر موسى عليه السلام مرسلاً للثلاثة؟ كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾.

فرعون مصري. وهامان مصري. وقارون إسرائيلي.

ويبدو أن الجامع بينهم هو الطغيان والبغي والفساد والكفر والتكذيب.

وبعدما جمعهم هذا الجامع، اختلف السبب الذي حمل كلاً منهم على جريمته:

فطغيان فرعون بسبب ملكه وسلطانه، ولهذا دعا قومه إلى عبادته، وقال لهم: ما علمت لكم من إله غيري.

وطغيان هامان بسبب وزارته ووظيفته عند فرعون، وتنفيذه لأوامره.

وطغيان قارون عن طريق الثراء والغنى والمال والكنوز.

فهم طواغيت ثلاثة. وإن اختلفت أسباب طغيانهم.

إنها أسباب ثلاثة للطغيان: السلطان. والوظيفة. والمال.

وهذه الأسباب مستمرة على مختلف فترات التاريخ البشري. وكم من الطغاة من يكونون أسرى هذه الأسباب!.

كم من الناس من يكون طغيانه بسبب ملكه وسلطانه! وكم من الناس من يكون طغيانه بسبب وظيفته ومركزه واتباعه للكبراء! وكم من الناس من يكون طغيانه بسبب ماله وثرائه!.

تعددت الأسباب والحكم واحد، والطغيان طغيان!.

والعجيب أن الطغاة الثلاثة ـ فرعون وهامان وقارون ـ استقبلوا موسى

بنفس الاستقبال، وأجابوه بنفس الجواب: ﴿فَقَالُوا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

كان قارون من قوم موسى، فبغى عليهم. والبغي هو الطغيان والظلم والعدوان. بغى عليهم بسبب ماله وكنوزه، والمال يقود للبغي والطغيان، إذا ملكه فاقد الإِيمان!.

ويبدو من آيات قصة قارون، أنه كان مع بني إسرائيل بعدما خرجوا من مصر، بدليل أن الآيات تشير إلى وجود فريقين من بني إسرائيل: فريق المؤمنين العلماء الذين لم يغتروا بقارون، وفريق السّذج الضعفاء من بني إسرائيل الذين خُدعوا به.

وبدليل أن قارون خرج على قومه في زينته ففتنهم، وقومه بنو إسرائيل.

أما أين خرج عليهم، وما هي تفصيلات قصته مع موسى عليه السلام، وكيف كانت نهايته بالتفصيل، وأين ومتى؟ فهذه أسئلة لا جواب عليها إلا عند رواة الإِسرائيليات.

○ كنوز قارون:

أشار القرآن إلى كثرة كنوز قارون بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

وتوحي هذه الآية بأن أموال قارون وكنوزه كانت كثيرة، بحيث تعجز المجموعة من الرجال الأقوياء عن حمل مفاتيح خزائنها، أو عن حمل الخزائن نفسها.

الكنوز جمع كنز. ويطلق على الأموال المذخورة المدفونة تحت الأرض.

لكنه ورد في القرآن بمعنى «جعْل المال بعضِه على بعض، وحفظه. وأصله من كنزتُ التمر في الوعاء. وناقة كِناز مكتنزة اللحم»[1].

ويبدو أن الحكمة من التعبير بكلمة «كنوز» عن مال قارون، قد تبدو فيما يلي:

---

(١) المفردات للراغب: ٤٤٢.

١ ـ إن هذه الأموال كانت سهلة المأخذ، قريبة التناول، وأنه حصَّلها بأدنى جهد مبذول، وكأنها كنوز مدفونة اغترف منها اغترافاً.

٢ ـ إن قارون كان يحفظ تلك الأموال، ويجعلها فوق بعضها البعض، ويزيدها وينمِّيها، ويحرص على اكتنازها.

٣ ـ لم يكن قارون يُخرج حق الفقراء والمساكين في أمواله، ولا يؤدي زكاتَها. فالكنز هو المال المكنوز الذي لم تُؤَدَّ زكاته، ولم ينفَق منه في سبيل الله على الفقراء والمحتاجين.

ويوحي القرآن بهذا المعنى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

○ مفاتح ومفاتيح:

اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾.

فمنهم من قال: المفاتح في الآية هي مفاتيح خزائن أمواله. وكانت هذه المفاتيح صغيرة، الواحد منها بحجم الإصبع، وكانت هذه المفاتيح كثيرة، فإذا ركب جعلوها معه على سبعين بغلاً.

وعنصر المبالغة في هذا واضح ـ علاوة على كون تلك الأخبار من الإسرائيليات ـ ولهذا قال الإمام الرازي في تفسيره: «إن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ. ولو أنا قدَّرْنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح، فأي حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح»[1].

ومن العلماء من قال: المفاتح هي الخزائن التي كانت تُحفظ بها أموال قارون، وهذه الخزائن كانت كبيرة وكثيرة، بحيث يعجز الرجال الأقوياء عن حملها.

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٥: ١٥.

وهذا القول معقول وممكن. ويتفق مع كلمات الآية.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن هذا هو رأي ابن عباس والحسن البصري.

قال: «اختيار ابن عباس والحسن أن تُحمل المفاتح على نفس المال، وهذا أبين، وعن الشبهة أبعد»[1].

ونحن نميل إلى هذا الرأي، ونرى أنه هو المتفق مع سياق القرآن.

فقد وردت كلمة «مفاتح» في القرآن ثلاث مرات:

١ - قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومفاتح الغيب هي خزائن عالم الغيب، التي اختص الله بها وبعلمها. وهذه الخزائن في سورة الأنعام، مفاتيحها خمسة مذكورة في سورة لقمان. في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

أي خزائن أمواله يعجز عن حملها الرجال الأقوياء الأشداء.

٣ - قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

أي ما ملكتم خزائنه.

إذن هناك فرق بين مفاتح ومفاتيح:

قال العُكْبَري: «مفاتح جمع مَفْتَح. والمَفْتح الخزانة. فأما ما يُفتح به فهو مِفتاح، وجمعه مفاتيح»[2].

---

(١) المرجع السابق ٢٥: ١٥.

(٢) إملاء ما منّ به الرحمن للعكبري: ٢٤٥.

وقال الكَفَويُّ: «المفتاح آلةُ الفتح كالمِفتح، وكمَسكن ـ يعني بفتح الميم ـ: الخزانة والكنز والمخزن.

والمفاتح: جمع مِفْتَح، وهو الآلة التي يُفتح بها. أو جمع «مَفْتَح» وهو المكان. لا جمع مِفتاح»[1].

○ تنوء بالعصبة أولي القوة:

خزائن قارون ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ أي تثقل بالعصبة أولي القوة، ويثقل حملها عليهم.

والعصبة «جماعة متعصبة متعاضدة مجتمعة» وتطلق على عدد من الرجال المجتمعين المتعاونين الأقوياء يزيدون على عشرة.

أما المراد بقوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ فقد ذكر الإمام الرازي فيه ثلاثة احتمالات:

١ ـ إن هؤلاء العصبة يعجزون عن حمل المفاتيح التي للكنوز. وهذا مرجوح.

٢ ـ إن العصبة يعجزون عن حمل الخزائن. وهذا ممكن ومعقول.

فالحمل على هذين الاحتمالين، حمل حسي مادي محسوس.

٣ ـ إن المراد بالحمل هو الحفظ والعد والرعاية.

قال الرازي: «المراد من المفاتح العلم والإحاطة. والمراد: آتيناه من الكنوز ما إنَّ حفظها والاطلاع عليها، ليثقل على العصبة أولي القوة والرعاية. أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها، تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها»[2].

ولا مانع من القول بأن المراد بحمل المفاتح، هو حفظ الأموال وعدها

---

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٤: ٢٩٤.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٥: ١٥.

ورعايتها والقيام عليها. ويكون المراد بأنها تنوء بهم، أي يثقل ويصعب عليهم حفظها.

مع أن الأولى هو القول الثاني.

○ بنو إسرائيل فريقان تجاه قارون:

كان قارون فتنة لبني إسرائيل، بسبب كنوزه وأمواله.

والمال فتنة طاغية، يُفتَن به كثيرون، فيسقطون في الفتنة والامتحان.

لقد فُتن قارون نفسه بأمواله، فاستخدمها في البغي والظلم والفساد، فخسر وكفر، وكان ماله سبباً في هلاكه.

أما موقف قومه منه، فقد أخبر القرآن أنهم انقسموا إلى فريقين:

الفريق الأول: وهم المؤمنون الثابتون، المستعْلون بإيمانهم، الراجون ما عند الله. وهؤلاء عرفوا حقيقة ما عليه قارون، فآثروا ما عند الله.

وقد نصح هذا الفريق المؤمن قارون بقولهم له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

الفريق الثاني: هم ضعاف الإيمان الماديون، الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، حيث خُدعوا بقارون، وفُتِنوا بكنوزه، وأُعجبوا بزينته، فلما رأوْه خارجاً عليهم فيها قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وما حصل في بني إسرائيل بالنسبة لمال قارون، قد يحصل لأية أمة في أي زمان ومكان.

بعض الناس يمتحنهم الله ويبتليهم عن طريق المال والغِنى والثراء، فيفتح عليه أبواب الرزق، ويُكثّر بين يديه المال، فيغتر بالمال، ويفتّن به، ويستخدمه في البغي والظلم والفساد، ويسير على طريق قارون.

فإذا رأى الناس هذا «القارون» اختلفت نظرتهم إليه:

أما المؤمنون الثابتون الصابرون الذين أوتوا العلم، فإنهم لا يُخدَعون به، بل ينصحونه، ويذكِّرونه، فإن لم يستجب لهم فإنهم يوقنون بخسارته وهلاكه.

وأما السُّذج الذين يريدون الحياة الدنيا، فإنهم يفتنون به، ويتمنون مكانه.

كم من «القوارين» يظهرون في الأمم! وكم من السذج البسطاء يُخدعون بهؤلاء «القوارين»! وكم من الناس الصالحين يعصمهم الله، فيثبتون ويصبرون وينصحون!.

إن الشخصيات التي يقدمها القرآن في قصصه، ليست شخصيات موقوتة بزمان محدد، وإنما هي «نماذج إنسانية» عامة. تظهر في فترات مختلفة من التاريخ، ويلحظها أولو العلم والبصيرة، ويلحظون انطباقها على بشر آدميين يعيشون معهم، تختلف الأسماء والأماكن في النماذج الإنسانية، في الحالات المكررة، وتبقى السمات والقواعد والخصائص والحقائق.

فقارون. والذين لم يُخدعوا به، والذين خُدعوا فتمنوا مكانه. لا يخلو من هؤلاء زمان ولا مكان!.

○ لا تفرح. إن الله لا يحب الفرحين:

نصح المؤمنون الثابتون الصابرون قارون، ونهوه عن البطر والفرح والتكبر. فقالوا له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾.

لقد نهوه عن الفرح، وأخبروه أن الله لا يحب الفرحين.

وقد يستغرب بعض الناس: هل الفرح حرام حتى ينهوه عنه؟ وهل الله لا يحب كل الفرحين؟ وهل نُمنع من الفرح ونعيش في حزن دائم حتى يحبنا الله؟ إن الإنسان ـ أي إنسان ـ يفرح، ويحب أن يبقى فرحاً. فما معنى نهيهم له عن الفرح.

وللإجابة على هذه التساؤلات، ننظر ـ نظرة سريعة ـ في كلام القرآن عن الفرح.

قال الإمام الراغب في مفرداته: «الفرح: هو انشراح الصدر بلذة عاجلة،

وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية»[1].

وإذا ما نظرنا في آيات القرآن، فإننا نجدها تقسم الفرح إلى قسمين: فرح مباح. وفرح منهي عنه.

أما الفرح المباح الجائز: فهو الانشراح والرضى، بحيث يفرح المؤمن بما أنعم الله عليه من النعم، وما منحه من الخيرات واللذات، ثم يستخدم هذه النعم فيما يُرضي الله سبحانه. فلا تقوده هذه النعم إلى البطر والتكبر، ولا يجعلها غاية الحياة.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

تأمر الآية بالفرح وتحث عليه، وتُعرِّف الفَرح المأمور به، بأنه فرح بفضل الله وبرحمته، وأنه خير مما يجمع الجامعون من متاع الدنيا.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

فهؤلاء الشهداء في الجنة، وهناك يفرحون بفضل الله لهم.

الفرح الثاني: هو الفرح المحظور المنهي عنه. وهو الذي يقود إلى البطر والتكبر.

قال تعالى في ذم الكفار: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥].

ففرح الكفار بغير حق، وهو يقود للمرح والبطر والتكبر والخيلاء.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ٩ ـ ١٠].

لا يفرح بنعم الله ـ فَرحاً يقود إلى البطر والكبر والخيلاء والإفساد ـ إلا

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٧٤.

ساذج مغرور، قصير النظر.. فما بين يديه من النِّعم ـ من مال وجاه وقوة وصحة وجمال ـ إنما هي هبة من الله ومنحة منه ونعمة، والله يهبها لمن يشاء من الناس، وقتما يشاء وبالمقدار الذي يشاء، وهو قادر على نزع هذه النعمة من صاحبها وقتما يشاء، ولا يمنعه من ذلك أحد ـ سبحانه ـ.

فكيف يفرح بَطِراً متكبراً بنعمة ليس هو مالكها ولا منشئوها؟ وكيف يفرح بطراً متكبراً بنعمة لا يضمنها ولا تدوم له؟.

ألم نقل إنه ـ إن فعل ذلك ـ ساذج مغرور؟.

هذا النوع من الفرح يفسد صاحبه، ويهلكه، ويجعله سبباً لغضب الله وسخطه وعذابه، ويحرمه من محبته ورضوانه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

○ قواعد قرآنية لاستخدام نعم الله:

عندما نمعن النظر في النصيحة الثانية من المؤمنين الناصحين لقارون، فإننا نستخرج منها قواعد قرآنية شاملة مطردة، لاستخدام نعم الله، والتصرف في المال ـ إحدى هذه النعم ـ.

قالوا له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

بإمكاننا أن نقسم الآية إلى الجمل التالية:

١ ـ وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة.

٢ ـ ولا تنسَ نصيبك من الدنيا.

٣ ـ وأحسن كما أحسن الله إليك.

٤ ـ ولا تبغِ الفساد في الأرض.

٥ ـ إن الله لا يحب المفسدين.

وكل جملة من هذه الجمل تقرر قاعدة من القواعد القرآنية الثابتة، حول استخدام نعم الله بصورة عامة، وحول استخدام نعمة الله بالمال على وجه الخصوص.

إن هذه الآية تشير إلى الطريق الصحيح في تَصرُّفنا بالمال، وتَعامُلنا به. وإنها تدلنا على النظرة الصائبة لهذا المال، وكيفية توظيفه في نفع صاحبه وإسعاد الآخرين، وجعْله وسيلة إلى تحقيق العبودية والإِحسان لله، ونيل جنته ورضوانه.

*** القاعدة الأولى: ابتغاء الدار الآخرة في المال والنعم:**

يوجهنا قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ إلى أن نبتغي ونقصد ونتوجه في المال الذي يمنحنا الله إياهُ، والنعم التي ينعم بها علينا، نحو الدار الآخرة، وأن نجعل كل هذه النعم موجهة نحو الدار الآخرة، وأن تكون كل هذه النعم وسيلة لحصولنا على الفوز والسعادة في الدار الآخرة.

هذه النعم ـ ومنها المال ـ ليست غاية بحد ذاتها، وليست وسيلة للحياة الدنيا فقط، ولكن هذه النعم كلها وسيلة للنجاة والسعادة في الدار الآخرة، وعلى صاحبها أن يُحْسن توظيفها لتحقيق تلك الغاية، وعلى صاحبها أن يحقق في كل واحدة منها، وفي كل جزئية من جزئياتها هذا المعنى القرآني، وهذه القاعدة الصائبة.

بعض الناس قد يخطئ فهم هذه الجملة من الآية: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ وبخاصة عندما يقرنها بما بعدها ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فيستخرج من الجملتين تقسيم النعم ـ ومنها المال ـ قسمين:

القسم الأول: معظم النعم يوجهها للدار الآخرة.

القسم الثاني: بعض النعم يوجهها لنصيبه من الدنيا.

وهذا التقسيم لا يتفق مع توجيه الجملة الأولى.

إنها تدعونا إلى أن نجعل كل ما آتانا الله من النعم للدار الآخرة، لا تُستثنى منها واحدة، وهذا ما نلاحظه في كلمات الآية: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ﴾ أي في الذي آتاك، على العموم والشمول.

أليست النعم وسيلة للسعادة والرفاهية؟ أليس المال وسيلة للكسب

والمتاع والرغَد؟ ومتى يحقق الإنسان الرغد والسعادة والرفاهية؟ هل يحقق هذه المعاني في الدنيا فتكون دائمة باقية؟ إنها في الدنيا موقوتة محدودة فانية! وإنها مشوبة بالكدر والهم! إن هذه المعاني المأمولة المطلوبة المبتغاة، لا توجد على أفضل وأتم وأسمى صورها وحالاتها إلا في دار النعيم، في الجنة. ولذلك يبتغيها المؤمن الفطن الذكي، الذي وفقه الله إلى إدراك هذه الحقيقة، يبتغيها من خلال توظيف نعم الله كلها لتحقيق تلك المطالب العالية السامية، فيبتغي في كل نعم الله عليه، تلك الآمال في الدار الآخرة. ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾.

* **القاعدة الثانية: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:**

حيث تدعو هذه القاعدة كل من أنعم الله عليه بنعمة، ووظفها للدار الآخرة، أن لا ينسى نصيبه من الحياة الدنيا.

لقد وضحتْ هذه القاعدة كيفية تطبيق القاعدة الأولى، وأزالت ما قد يثور في بعض الأذهان من إشكالات أو أخطاء في تطبيقها:

فقد لا يعرف بعض المسلمين كيفية ابتغاء الدار الآخرة في نعم الله، فيحرمها على نفسه في الحياة الدنيا، فلا يستمتع بها الاستمتاع الطيب المباح، ولا يستخدمها الاستخدام الصحيح الحلال فيعيش في دنياه محروماً من ذلك الاستمتاع، ويظن أنه بهذا الحرمان يبتغي فيها الدار الآخرة، ليذوقها هناك!.

ألم يفهم الرهبان هذا الفهم؟ ألم يحرموا على أنفسهم الاستمتاع المباح الحلال ببعض النعم ـ مثل الزواج والمال والتملك ـ؟ ألم يحرم بعض المسلمين على نفسه ـ خطأ ـ بعض المباحات والطيبات، باسم الزهد في الدنيا، وتوظيفها للدار الآخرة؟.

إن الآية ترد على هؤلاء وأولئك خطأ الفهم وسوء النظر، وتنكر عليهم الامتناع عن الاستخدام الحلال، والاستمتاع الطيب بنعم الله في الدنيا. وتدعوهم إلى أن يُحسنوا الاستمتاع بها في الدنيا.

إنهم يبتغون فيها كلها الدار الآخرة، نعم! لكنهم مطالَبون بأن لا ينسوا

نصيبهم فيها كلها من الحياة الدنيا، بمعنى أنهم مطالبون بأن يعيشوا فيها في حياتهم الدنيا، بأن يجعلوها وسيلة للحياة الطيبة الهانئة الرغيدة في الدنيا، وهذا من الابتغاء فيها نحو الدار الآخرة!.

إن الجملتين القاعدتين ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ تربطان ما بين الدنيا والآخرة برباط قرآني دقيق، وتنسّقان ما بين استخدام النعم في الدنيا، وتوفيرها للاستمتاع بها يوم القيامة.

إنهما تقرران: أن من معاني ابتغاء الدار الآخرة في نعم الله، الاستمتاع الطيب بها في الحياة الدنيا. فيجمع المؤمن بذلك بين الحُسنيْين ـ بتناسق واتزان ـ:

الأولى: الاستخدام الحلال لهذه النعم في الدنيا، والاستمتاع الطيب بها، وبذلك يعيش حياته الدنيا مرفَّهاً منعَّماً، سعيداً هانئاً مطمئناً.

الثانية: ابتغاء الدار الآخرة في نفس النعم التي استمتع بها في الدنيا، وجعْلها وسيلة لفوزه ونجاته وسعادته هناك في جنات النعيم.

الماديون أصحاب الدنيا، يريدون النعم لدنياهم فقط، وينسون نصيبهم من الآخرة فيها. أما المؤمن فإنه يتمتع بها في دنياه مثل ما يستمتعون ـ بل أفضل مما يستمتعون ـ من خلال توظيفها لسعادته في الآخرة.

والرهبان ومَنْ شاكلهم يريدون النعم لآخرتهم ـ كما يزعمون ـ ولذلك ينسون نصيبهم من الدنيا فيها. أما المؤمن فإنه يوظفها لسعادته في الآخرة، ويبتغي فيها الدار الآخرة، ومع ذلك يستمتع بها في حياته الدنيا.

وبمعنى هاتين القاعدتين القرآنيتين، ورد قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

من حرم زينة الله التي أخرج لعباده؟ من حرم هذه الزينة والطيبات على نفسه في الدنيا بزعم توفيرها للآخرة، والابتغاء فيها الدار الآخرة؟ إنها للمؤمنين في الدنيا، يعيشون بها، ويستمتعون فيها، ويشاركهم الكفار الاستمتاع فيها في الدنيا، لكنها لهم وحدهم خالصة يوم القيامة!.

* **القاعدة الثالثة: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾:**

تقرر القاعدة أن الله قد أحسن إلى الإنسان إحساناً عظيماً، عندما أنعم عليه بتلك النعم. وهذا الإحسان من الله تفضُّل منه وتكرُّم وإنعام، سبحانه.

وتدعو هذه القاعدة الإنسان إلى مقابلة إحسان الله له بإحسان، من باب الشكر: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ [الرحمن: ٦٠ ـ ٦١].

والإحسان من خلال حمد الله وشكره على إنعامه بتلك النعم، وإحسانه في ذلك لهذا الإنسان. وقد قال الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

والإحسان بأن يبتغي في تلك النعم الدار الآخرة، وأن لا ينسى أثناء ذلك نصيبه منها في الحياة الدنيا.

والإحسان بأن يوظف هذه النعم الربانية في تقديم النفع لعباد الله، ونشر الخير بينهم، وترسيخ قيم الحق في حياتهم.

إن قيام الإنسان بالإحسان في نعم الله عليه دليل على تمكُّن معاني الحق في نفسه، وعلامة على صفائه وصدقه وإخلاصه وكرمه.

إنه لا يحسن إلا الكريم الصادق الطيب الخيِّر الفاضل. إنه يقابل إحسان الله بإحسان، ويعبد الله بإحسان، ويستخدم نعم الله بإحسان، ويستمتع بها في دنياه بإحسان وينفق منها على عباد الله بإحسان ويتعامل معهم بإحسان، ويعيش حياته الدنيا كلها بإحسان. وعندها يديم الله عليه نعمه. ويقابل إحسانه بإحسان. و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝﴾؟.

* **القاعدة الرابعة: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:**

لا تقصد الفساد في الأرض، ولا تستخدم نعم الله في الفساد في الأرض. ولا تجعل نعمة المال التي أنعم الله بها عليك وسيلة للفساد في الأرض.

تجتمع القاعدتان ـ الثالثة والرابعة ـ على توجيه الإنسان إلى حسن استخدام نعم الله:

فالقاعدة الثالثة توجهه إلى الإحسان مع الله والإحسان إلى الناس من خلال استخدامه لنعم الله.

والقاعدة الرابعة تحذره من الاستخدام السيئ لتلك النعم، من خلال الإفساد به في الأرض.

إن نعم الله عند من لا يحسنون النظر إليها، ولا يجيدون استخدامها والتصرف فيها، هي وسيلة للفساد والإفساد. كم من هؤلاء من يستخدم نعمة المال في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الجاه والسلطان في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة القوة في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الصحة والعافية في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة الشهوة في الفساد والطغيان! وكم من هؤلاء من يستخدم نعمة العقل والموهبة والذكاء في الفساد والطغيان! وكم وكم وكم مما نرى من المتكبرين الظالمين الذين يستخدمون نعم الله المختلفة في الفساد والطغيان!.

إنه لا يفسد في الأرض إلا ظالم متكبر مغرور، ولا يستخدم نعم الله في الفساد في الأرض إلا ساذج غِرٌّ مخدوع.

وما الذي ينتج عن استخدام هؤلاء المتكبرين المغرورين لنعم الله في الإفساد والفساد؟.

إنهم يعطلون الوظيفة الأساسية لهذه النعم، ويحولونها عن الوجه الصحيح لها إلى وجه باطل مرفوض.

وإنهم يُفسدون بها وجه الحياة، ويؤذون بها عباد الله، بدل أن يصلحوا الحياة وينفعوا عباد الله.

وإنهم بذلك يطلبون غضب الله، ويستقدمون عذاب الله، ويستحقون نار الله.

وهم نتيجة لكل ذلك: خاسرون هالكون، ساقطون فاشلون!.

شتان بين محسن صالح كريم يستخدم النعم في الإِحسان ونشر الخير بين الناس، فيربح ويفوز.

وبين ظالم مغرور مخدوع يستخدم النعم في الفساد والإِفساد، فيخسر ويهلك!.

* **القاعدة الخامسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:**

إنها تقرر حقيقة دائمة مطردة، لا تختلف في أي زمان ولا مكان: إن الله لا يحب المفسدين.

لا يحب المفسدين، لأنهم يفسدون في الأرض، ويكونون دعاة للشر والظلم والرذيلة، والله يحب المصلحين دعاة الخير والعدل والفضيلة.

لا يحب المفسدين لأنهم يؤذون الناس، والله يحب الذين ينفعون الناس.

وإذا لم يوفَّق إنسان إلى محبة الله فماذا بقي له؟ وإذا فات الإِنسانَ محبةُ الله فهل ينفعه أحد؟ إذا غضب الله على إنسان وأوقع به عذابه فهل ينصره أحد؟.

إن الذي فاتته محبة الله قد خسر كل شيء، وإن الذي نال محبة الله فاز بكل شيء.

فلنتَخَلَّقْ بالصفات التي يحبها الله، ولنتَخَلَّ عن الصفات التي لا يحبها الله. لننال محبة الله!.

○ أوتيته على علمٍ عندي:

كيف استقبل قارون نصيحة الناصحين؟ وكيف نظر إلى القواعد الثابتة حول استخدام نعم الله؟.

لقد رفض النصيحة، وأعمى عينيه عن الحقيقة. ورد على كلام الناصحين بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾!.

أوتيت هذا المال على علم عندي. إن الله آتاني هذا المال لأنني أستحقه، والله يعلم أنني أستحقه، ولو لم أكن أستحقه لما أُوتيتُه.

واختلف المفسرون في بيان المقصود بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.
ذكر الإمام ابن كثير من أقوالهم ثلاثة:

الأول: «إن الله إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي». فتقديره: إنما أُعطيتُه لعلم الله في أنّي أهل له. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ﴾ [الزمر: ٤٩]. أي على علم من الله بي. وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]. أي هذا أستحقه.

الثاني: «إنه كان يعاني علم الكيمياء».

وعلم الكيمياء عند السابقين له معنى غير معناه العلمي المعاصر. بل هو معنى أسطوري خيالي يقوم على خرافة، فهو عندهم علم يستطيع به صاحبه أن يحوِّل المعادن المختلفة من حديد ونحاس إلى ذهبٍ خالصٍ صافٍ. فقارون عند هؤلاء كان يقدر على تحويل ما أمامه من معادن إلى ذهب، ولهذا كثر ماله، وزادت كنوزه.

وقد رد ابن كثير هذا القول: «وهذا القول ضعيف. لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل، لأن قلب الأعيان لا يقدر عليه أحد إلا الله ﷻ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٧٣].

الثالث: إنه ـ قارون ـ كان يعرف اسم الله الأعظم، فدعا الله به، فتموَّل بسببه»[١].

المهم أن قارون ظن أن الله أنعم عليه بالمال لأنه يستحقه ولأن الله يحبه، ولأنه أهل لتملك ذلك المال، ولأنه يملك صفات خاصة يستحق بها أن يتملك هذا المال، وغيره ليس أهلاً لذلك قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

لم يعرف قارون حقيقة ابتلاء الله له بالمال، وأن إنعام الله على أحد

---

(١) تفسير ابن كثير ٣:٣٩٩.

بالمال ليس دليل محبته له، وأن تقليل المال في يد آخر ليس دليل غضب الله عليه، وأن المال ليس هو مظهر التكريم أو الإهانة. لم يعرف قارون كل هذا. ولهذا سقط في امتحان المال.

كم من الناس الذين أنعم الله عليهم بالمال، ينظرون لتلك النعمة بمنظار قارون، ويقيسونها بمقياس قارون، ويفهمونها كما فهمها قارون. ويقولون ـ بلسان الحال أو لسان المقال ـ كما قال قارون! ويتصرف أحدهم على أساس هذه الجملة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾!.

صاحب الجنتين الظالم لنفسه، ذكرت سورة الكهف قوله لما دخل جنته: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ۝٣٦﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٣٦].

إن المال فتنة وابتلاء وامتحان، وليست كثرته علامة المحبة والتفضيل، ولا قلته علامة الإهانة والكراهية. إن أساس القبول عند الله هو الإيمان والتقوى، وإن الكريم عند الله هو التقي، وليس مجرد الغنى وإن الأكرم عند الله هو الأتقى وليس مجرد الأغنى. وهذا هو صريح القرآن: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

هذا ما يفهمه المؤمنون الأتقياء، وأصحاب التصور الإيماني القرآني السليم. ولذلك لا يطغون ولا يبغون إذا كثر المال بين أيديهم، بل يستخدمونه في طاعة الله، ويشكرون فيه الرب المنعِم سبحانه. كما أنهم لا يحزنون ولا ييأسون إذا قل المال بين أيديهم.

أما من فقد المقياس الإيماني والمنظار القرآني، فإنه يظن أن المال هو مجال التكريم أو الإهانة. ويتصرف إنْ كثر المال بين يديه تصرف قارون، ويقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾. وإذا قل المال بين يديه يحزن ويكتئب.

وقد ذكر القرآن تصور هؤلاء بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦].

○ **فخرج على قومه في زينته:**

وهذه جريمة أخرى من جرائم قارون، تضاف إلى جرائمه السابقة، التي دفعته إليها كثرة أمواله.

لم يكتف بغروره بكثرة أمواله، ولم يكتف بتكبره وبطره وبغيه وظلمه من خلال أمواله، ولم يكتف برفض نصيحة المؤمنين الناصحين، ولم يكتف بخطأ نظرته إلى أمواله، وتوظيفها لملذاته وشهواته ودنياه، ونسيانه الدار الآخرة، واعتباره كثرة ماله دليل محبة الله له.

لم يكتف بكل تلك الجرائم والممارسات الخاطئة، بل أضاف إليها جريمة أفظع: لقد أصبح فتنة لقومه من بني إسرائيل. طغى عليهم طغياناً كبيراً، وبغى عليهم بغياً بارزاً، وفتنهم فتنة طاغية، وامتحنهم امتحاناً قاسياً صعباً: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ تصور لنا بظلالها وإيحاءاتها وكلماتها، الزينة القارونية المنتفشة المنتشية المتعاظمة، التي يذهب خيال القارئ في تخيلها كل مذهب، ويرسم الخيال لها صورة متخيَّلة مكبَّرة ضخمة.

مهما افترضنا زينة قارون التي خرج على قومه فيها، ومهما قلنا عنها فسيبقى كلامنا عنها قاصراً، وافتراضنا قليلاً، فلا داعي لأن نقول عنها شيئاً، لا سيما أنه لم يرد عنها شيء في الأحاديث الصحيحة، وما روي حولها من روايات، منقولةٌ عن الإِسرائيليات، التي لا نجيز الذهاب إليها أو إيراد شيء منها.

ثم إن إيراد تلك الروايات غير الثابتة يحرم خيال القارئ من لذة تخيل زينة قارون التي خرج فيها، ورسْم صورة منتفشة متعاظمة لها. فلندعْ الخيال يتخيل ما شاء حول تلك الزينة، ولا نقيده بشيء من الأقوال والروايات التي لم تصح.

فخرج على قومه في زينته. ليفتنهم ويطغى عليهم، ليريهم أنه أغنى وأقوى منهم، وأنه هو الذي يعيش حياته مرفَّهاً منعَّماً، وأنه هو الذي يعرف معنى الحياة، أما هم فهم محرومون من لذة العيش وطعم الحياة.

وهذا التصرف الفاجر من قارون، هو نفس تصرف كل من سار على طريقه، واستخدم ماله في الفتنة والإيذاء، والتكبر والبطر، والانتفاش والخيلاء.

كثيرون هم الذين يخرجون على الآخرين بزينتهم ليكسروا قلوبهم، ويفتنوهم.

وكثيرون هم الذين ينشرون على الآخرين، ويذيعون عليهم أخبار ترفهم وفجورهم ومجونهم ومظاهر زينتهم. يتحدثون عن ألوان طعامهم وشرابهم، ومظاهر لهوهم وعبثهم، وصور زينتهم وملابسهم وأثاثهم ورياشهم وبيوتهم وقصورهم.

بعض هؤلاء الذين يخرجون على قومهم بزينتهم، يفوقون قارون بدرجات ودرجات، ومن ثم يكونون أشد طغياناً وبغياً وابتلاء وفتنة من قارون.

○ الذين خُدعوا بقارون:

كان قارون ومالُه فتنة لقومه، فلما خرج عليهم في زينته خُدع به فريق منهم، وقد أخبر عنهم القرآن بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وصفهم القرآن بأنهم الذين يريدون الحياة الدنيا.

وهذه الصفة هي أساس انحرافهم، وسبب خطأ نظرتهم واختلال مقاييسهم: إنهم يريدون الحياة الدنيا. ولذلك اعتبروا قارون مالكاً من مظاهر زينة الحياة الدنيا أكثر منهم، واعتبروا أنفسهم أمامه فقراء محرومين، فتمنوا أن يملكوا من زينة الحياة الدنيا مثلما يملك، وأن يحوزوا من المال والكنوز مثلما يحوز، وأن يعيشوا كما يعيش. فقالوا بحسرة: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

اعتبروا قارون ذا حظ عظيم بسبب زينته وأمواله، لأن مقياس الحظ عندهم هو كثرة الأموال!.

لو لم يكونوا يريدون الحياة الدنيا لما خُدعوا بقارون، ولما فتنوا بزينته، ولما اعتبروا الحظ العظيم بكثرة الأموال والزينة والمتاع.

سر الانخداع هو أنهم ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾. والقرآن عندما ذكر لنا صفة أولئك المخدوعين، فكأنما يدعونا إلى أن لا نتصف بها حتى لا نُخدع بالمظاهر الدنيوية الزائفة كما خُدعوا، وأن لا نتحسر كما تحسروا. يدعونا إلى أن لا نريد الحياة الدنيا، بل نستعلي عليها، ونريد الدار الآخرة، ونسعى لها سعيها.

وصدق الله، فكل من أراد الحياة الدنيا ونسي الحياة الآخرة، سعى إلى الإكثار من مظاهرها وزينتها، واعتبر مظاهر الحظ العظيم في الإكثار من ذلك، وقاس نفسه بمن يملكون منها ما يملكون، فحزن واكتأب وتحسر، وتمنى ما عندهم بلهفة وحسرة واشتياق.

أما من أراد الآخرة، وطلب ما فيها من نعيم دائم، واشتاق إلى لذاتها وخيراتها، وعرف قيمة الحياة الدنيا وما فيها. فإنه لا يُخدع بما يملكه المالكون من الدنيا، ولا يتمنى ما عندهم، ولا يذوب حسرة ولهفة إليه، بل يستعلي على تلك المظاهر والسفاسف.

وصدق الله حيث يقول: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢٠ ـ ٢١].

○ من هو ذو الحظ العظيم!:

الذين يريدون الحياة الدنيا، خُدعوا بقارون، وفُتنوا بما يملك. ولما رأوه في زينته اعتبروه ذا حظ عظيم.

فالحظ العظيم عندهم هو الزينة الدنيوية، ومظاهر الترف والإسراف، وصاحب الحظ العظيم هو من ملك تلك المظاهر والزينة.

لكن هل حقيقة الأمر هكذا؟ هل هذا هو مقياس الحظ العظيم؟ هل من ملك ذلك يكون ذا حظ عظيم؟.

إن مظاهر الحياة الدنيا وألوان زينتها، ليست دائمة ولا باقية، وإنما هي موقوتة محددة، مصيرها الزوال والفناء. فكيف يكون تملك هذه المظاهر والألوان هو مقياس الحظ العظيم؟ كيف تقاس الأشياء بما يصير إلى الزوال والفناء؟.

وإن التمتع بهذه المظاهر والألوان بترف وإسراف ليس دائماً ولا باقياً، بل مصيره الزوال والفناء، وسيحل محله الفقر والحرمان، فكيف يكون صاحبه ذا حظ عظيم، وهذا مصيره وهذه نهايته؟.

ما كان قارون في الحقيقة ذا حظ عظيم، طالما هذه حقيقة زينته، وهذا مصير استمتاعه بها. وما كان ذا حظ عظيم من كان مثل قارون في تملكه وزينته واستمتاعه، وإنْ ظن المخدوعون غير ذلك.

ذو الحظ العظيم في الحقيقة من ملك حقيقة الأمور الباقية لا مظاهرها الزائفة الخادعة، ذو الحظ العظيم من عاش حقيقة الحياة، وذاق طعمها وحلاوتها. ذو الحظ العظيم من وجد الإيمان والرضى والطمأنينة والسعادة. ذو الحظ العظيم من فاز باللذات الباقية والنعيم الدائم. ولا يكون هذا إلا للمؤمن الصادق الصابر المجاهد.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران: ١٧٦].

الحظ العظيم هو الحظ في الآخرة لا في الدنيا، هو في الاستمتاع بنعيم ولذات الجنة، فمن حُرم من ذلك النعيم فلا حظ له. فالكفار لا حظ لهم في الحقيقة لحرمانهم من ذلك النعيم.

والحظ العظيم في الدنيا يكمن في السمو الأخلاقي والتحلي بالآداب والفضائل، ومعاملة الآخرين بسماحة ويسر وعفو ورحمة، وتذوق طعم الرضى والطمأنينة والسعادة، وذو الحظ العظيم من رزقه الله هذا الفضل، وأنعم عليه بهذه النعمة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

○ قال الذين أوتوا العلم:

بعد أن بيَّن لنا القرآن صفة الذين خُدعوا بقارون، ودلنا على سر انخداعهم به، بيَّن لنا صفة الذين لم يخدعوا به، ونجحوا في الفتنة والامتحان. وهم الذين سمعوا أمنية الذين خُدعوا بقارون في أن يكون لهم مثل ماله، فآلمهم ذلك التمني من أولئك المخدوعين المفتونين، وردوا عليهم، وصحَّحوا لهم الأمر، وصوَّبوا لهم النظر.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

وكأن القرآن يدلنا على سر انتصارهم واستعلائهم ونجاحهم، وأساس صدق أحكامهم، وحسن تقويمهم، ونفاذ نظرتهم. يدلنا على ذلك لنضع أيدينا عليه، فنأخذه ونلتزمه.

إنه العلم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

لقد نظر هؤلاء الذين أوتوا العلم إلى قارون وزينته وأمواله بمنظار العلم، وعرضوه على ما عندهم من العلم، وتعاملوا معه على أساس العلم، ووزنوه بميزان العلم. فوجدوه لا يملك شيئاً، وجدوه فقيراً بائساً تعيساً، وجدوه هالكاً خاسراً محروماً، وجدوه معذَّباً شقياً مطروداً.

فدعَوُا الآخرين المخدوعين به، إلى معرفة هذه الحقيقة، لتزول عن عيونهم الغشاوة.

إن العلم هو السر والأساس، وبه العصمة والنجاة.

العلم بحقائق الأشياء، العلم بأسباب ومظاهر وألوان الحظ والسعادة والخير، العلم بالأمور الباقية الدائمة وطلبها والسعي إليها، العلم بالأمور والمظاهر والألوان الزائلة الزائفة، وعدم الاغترار بها.

إنه العلم الرباني الصائب، فما يخدع ذو علم، وما يغتر ذو علم، وما يريد الدنيا ومظاهر زينتها وينسى الآخرة وثواب الله فيها ذو علم.

ولعله لأجل هذا المعنى قال الله لنا: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

اعلموا. اعلموا هذه الحقائق حتى لا تخطئوا النظر، اعلموا حقيقة الدنيا وزينتها حتى لا تخدعوا بها. اعلموا، فلا ينفعكم إلا العلم، ولا ينجيكم إلا إذا كنتم من الذين أوتوا العلم.

أين الذين أوتوا نصيباً من الحياة وزينتها من الذين أوتوا العلم؟ هل يستوي الفريقان؟.

○ ثواب الله خير لمن؟.

ماذا قال الذين أوتوا العلم للمخدوعين؟

قالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

لقد دعوا هؤلاء المخدوعين إلى معرفة حقائق الأمور، ووجهوهم إلى طلب ما يستحق أن يُطلب، حيث أرشدوهم إلى ابتغاء ثواب الله.

ثواب الله خير. خير من مال قارون وكنوزه وزينته، خير من مظاهر الدنيا وزخارفها، خير من كل ما ملكه المالكون منها. خير لأنه هو الباقي الدائم الخالد، خير لأنه هو الذي تأنس به النفس، وتسعد به الروح، وتلذ به الحياة. خير لأنه دليل محبة الله ورضاه وفضله.

ثواب الله خير. ويستحق أن تطلبه النفوس، وتتوجه إليه الأنظار، ويسير إليه الناس بهمة وعزيمة، يستحق أن تنفق فيه الأموال والأوقات والأعمار، وأن توظَّف له الطاقات والقدرات والإمكانات.

ثواب الله خير. لمن آمن وعمل صالحاً.

إنه ليس كل أحد يرجو ثواب الله، ولا كل من رجا ثواب الله يفوز به.

لا يرجو ثواب الله إلا الذي أوتي العلم.

ولا ينال ثواب الله إلا من آمن وعمل صالحاً. فطريق نيل ثواب الله، والفوز بالنعيم الدائم، هو الإيمان والعمل الصالح. لا يُنال ثواب الله بمجرد الآمال والأمنيات والأحلام. ولا بالظن والزعم والادعاء. لا يُنال ثواب الله إلا بالسير في الطريق الوحيد الذي يوصل إليه: طريق الإيمان والعمل الصالح: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

ومما يصدِّق قولَ الذين أوتوا العلم، قول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

هناك أُناس لا يريدون إلا الحياة الدنيا وزينتها، لا يريدون إلا ثواب الدنيا، وينسون ثواب الله، وهناك مؤمنون صالحون يريدون ثواب الله، فيعطيهم الله ثواب الدنيا والآخرة: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [النساء: ١٣٤].

وقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وأرادوا ثواب الله، بمنحهم ذلك الثواب الحسن يوم القيامة، وقال لهم: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

○ ولا يلقاها إلا الصابرون:

ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً. نعم. هذه حقيقة صادقة قاطعة، لا شك فيها ولا لبس ولا تخلف.

لكن هل كل الناس يدركون هذه الحقيقة ويعرفونها؟ هل كل الناس يُلَقَّوْنَها ويتعاملون معها؟.

لا. فهناك أُناس على عيونهم غشاوة فلا يرونها، وعلى قلوبهم أكنة فلا

يدركونها، وفي عقولهم خلط ولبس وتمويه واضطراب فلا تعيها.

لقد أخبر القرآن أنه ﴿لَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

الصبر هو الشرط لإدراك هذه الحقيقة وتلقيها. والصابر هو المؤهل لتلقيها من الله سبحانه. وغير الصابر محروم منها.

لكن ما هو الصبر؟.

إنه الصبر على الابتلاء والامتحان. الصبر على الفتنة الطاغية، والمحنة القاسية.

عندما يرى المؤمن أصحاب الأموال والكنوز، يستعلي عليهم بالصبر. وعندما يرى المظاهر والشهوات يستعلي عليها بالصبر. وعندما يرى المفتونين المخدوعين بزينة الدنيا وملذاتها لا يجد أمامه إلا الصبر، ولا ينجيه من السقوط مثلهم إلا الصبر.

الصبر زاد عظيم، ومدد لا ينقطع، وعطاء لا ينفد.

ولا يُلقاها إلا الصابرون. الذين يعلمون أن ثواب الله خير. وإن ما عند الله خير. وأن نعيم الله خير، وأن جنة الله خير. فيطلب هذا الخير بصبر، ويسعى إليه بصبر، ويبقى على موقفه بصبر، ويثبت على هذه الحقيقة بصبر..

○ نهاية قارون:

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

كان قارون فتنة لقومه، وقد وقعت الفتنة وتم الامتحان، وآن لقارون أن ينتهي دوره.

ولقد كان المال لقارون فتنة، فافتتن به وسقط في الامتحان، وحقت عليه النتيجة، حلّت عليه العقوبة، وحاق به العذاب.

لقد طغى قارون على قومه وبغى، وتاه وتكبر وتجبر وفَخَر، وخرج على قومه في زينته، وانتشى وانتفش، ففسد وأفسد، وبلغ غاية السوء في كل هذه

الجرائم، وحان الوقت ليقطف الثمرة المرة لتلك الجرائم الفظيعة.

لقد أمهل الله قارون لعله يتذكر فلم يتذكر، ونصحه الناصحون فلم ينتصح، وزجروه فلم ينزجر، ووعظوه فلم يتعظ.

نسي قارون ربه، فأوكله الله إلى نفسه، واعتز بماله وكنوزه وهي لن تنفعه، ولن تنصره، ولن تدفع عنه عذاب الله.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

نلاحظ الربط بين هاتين الجملتين: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦٓ﴾ و﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

الربط بينهما بحرف الفاء، وعطف الجملة الثانية على الجملة الأولى بالفاء، وحرف الفاء يدل على الترتيب والتعقيب ـ كما يقول علماء اللغة ـ.

وهذا معناه أن الجملة الثانية ترتبت على الجملة الأولى، بمعنى أن الجملة الأولى كانت سبباً في وقوع الثانية. كما أن الجملة الثانية وقعت عقب الجملة الأولى مباشرة.

بعد هذه الملاحظة لمعنى الفاء، والربط بها بين الجملتين، نقرر أن خروج قارون على قومه في زينته مختالاً متبختراً، كان السبب المباشر في إيقاع العذاب عليه، وخسف الأرض به وبداره.

ويبدو أن الحكمة من ذلك هي: أنه بلغ نهاية المطاف في السوء والبغي والظلم والإِفساد، عندما خرج على قومه في زينته، ولم يبق أمامه مجال للتراجع، واستخدم كل صور وألوان الإِيذاء لقومه. فماذا بقي له؟.

وهو بذلك الزهو والخروج والانتفاش قد استجلب غضب الله، واستقدم عذابه، وساعَدَ على مسارعة وصوله إليه، وإيقاعه به.

وهكذا كل الأغنياء المتكبرين البطرين، كلما ازدادوا تكبراً وبطراً، ازدادوا إثماً وعذاباً، وكلما بالغوا في الترف والفجور والزهو والانتفاش والغرور، استجلبوا عذاب الله ومقته، وساعدوا على الإِسراع في وقوعه.

وصدق الله القائل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقد ترتب على خروج قارون على قومه في زينته. خسْفُ الله به وبداره ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.

وبذلك الخسف انتهى قارون، وزالت فتنته، واختفت أمواله.

انشقت الأرض وابتلعته، وابتلعت داره وما حوته من أمواله، وما ضمته من كنوزه.

ولم يفصِّل القرآن كيفية الخسف الذي تم ، ولذلك لا يجوز لنا أن نأخذ في ذلك عن الإسرائيليات. فنترك الآية على إجمالها، ونترك القصة على إبهامها، ولا نقول أكثر مما قال القرآن.

وقد ذكر علماء التفسير بالمأثور عند تفسيرهم لذلك الخسف حديثاً صحيحاً عن رسول الله ﷺ يشير إليه عن طريق الإشارة والتلميح لا عن طريق النص والتصريح.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «بَيْنَا رجل يجر إزاره، إذ خُسِفَ به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[1].

قالوا: المقصود في الحديث هو قارون.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري أثناء شرحه للحديث: «وجزم الكلاباذي في معاني الأخبار بأنه قارون. وكذا ذكر الجوهري في الصحاح. وروى الطبري في التاريخ عن قتادة قال: «ذُكر لنا أنه يخسف بقارون كل يوم قامة، وأنه يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة»[2].

وقول قتادة الذي أورده الطبري لا دليل عليه من الأحاديث الصحيحة، ولذلك نسكت عنه.

---

(١) البخاري: كتاب اللباس (٧٧) باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥)، حديث رقم (٥٧٩٠).
(٢) فتح الباري ـ الطبعة السلفية ١٠: ٢٦٠.

المهم أن الحديث لا يصرح بقارون. وإن كان يفهم منه ذلك. وهذا الفهم ليس بعيداً.

خسف الله بقارون فلم ينفعه ماله، ولم تدافع عنه كنوزه، ولم ينصره أحد من البشر: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

ذهب قارون وغاص في طبقات الأرض، وغارت كنوزه فيها، وكأنه لم يعش حياته، ولم يملك أمواله. ذهب وبقيت قصته عبرة لمن يعتبر. وكأنها تدعو الناس الذين أنعم الله عليهم كما أنعم على قارون أن لا يفعلوا كما فعل قارون، حتى لا يقع بهم عذاب الله كما وقع بقارون، عندها لن ينفعهم شيء ولن يرد عنهم عذاب الله، كما حصل لقارون.

○ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون:

خسف الله بقارون وأمواله، على مرأى من بني إسرائيل بفريقيهم: فريق المؤمنين الصابرين، وفريق السذج المخدوعين.

أما المؤمنون الصابرون الذين لم يُخدعوا بقارون، فلعلهم حمدوا الله أنْ أذهب قارون وأمواله، وأزال فتنته. ولعلهم ذكَّروا الفريق الآخر بما سبق أن قالوه لهم. لقد ازداد هؤلاء المؤمنون اقتناعاً وتصديقاً بما عندهم من قواعد ومبادئ وأسس، وازدادوا إيماناً وثقة واطمئناناً ويقيناً بما أخبرهم الله به من تلك القواعد والمبادئ والأسس.

أما السذج المخدوعون بقارون فقد سجل القرآن موقفهم الجديد، وتأثرهم بما شاهدوه بشيء من السخرية والإثارة والطرافة والتعجب.

لقد وقف هؤلاء السذج موقفين متعارضين متناقضين:

هم بالأمس لما رأوا قارون خارجاً عليهم في زينته، خُدعوا به، وتمنوا مكانه، تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي، واعتبروه ذا حظ عظيم بما عنده من كنوز وزينة: ولذلك، قالوا بالأمس: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

أما اليوم ـ وبعدما خسف الله بقارون ـ فقد تحول موقفهم، وقالوا: الحمد لله أننا لم نكن مثل قارون، ولم نملك مثل ما ملك قارون. فلو كنا مثله لخسف الله بنا، لقد منَّ الله علينا إذ كنا فقراء.

انظر في تعبير القرآن الساخر عنهم: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

الكلمة التي قالوها: «وَيْكَأَنَّ» اختلف العلماء في معناها، حيث أورد الإمام ابن كثير في التفسير أهم هذه الأقوال:

١ ـ قال بعضهم: الكلمة اختصار لجملة «ويلك اعلم أن» وقد حُذفت اللام من كلمة ويلك. كما حذفت كلمة اعلم. للتخفيف، فصارت ويك أن. ثم وصلت الكلمتان معاً، فصارت: ويكأن.

٢ ـ وقال قتادة: معناها: ألم تر أن.

٣ ـ وقال آخرون: هي مكونة من كلمتين: وي: حرف للتعجب أو للتنبيه. وكأن: بمعنى أظن وأحسب[1].

فإذا نظرنا في هذه الأقوال الثلاثة، فإننا نرى أن القولين الأخيرين مقبولان، ويتفقان مع معنى الآية، ومع السياق الذي وردت فيه، والقصة التي تتحدث عنها.

لقد تعجب هؤلاء الفريق مما وقع لقارون، وتملكتهم الدهشة والانفعال.

الآن، وبعدما رأوا وشاهدوا وتأثروا. الآن صدقوا المؤمنين الناصحين في قولهم. الآن عرفوا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. الآن عرفوا أن قارون لم يكن ذا حظ عظيم. الآن عرفوا أن ماله هو السبب في هلاكه، وأنه كان نقمة له. الآن عرفوا أنهم هم أصحاب الحظ العظيم. الآن عرفوا أن الله

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣:٤٠١.

أراد بهم الخير إذ لم يبسط عليهم الرزق. الآن عرفوا أن قلة المال منَّة من الله ونعمة. الآن عرفوا أنه لا يفلح الكافرون.

الآن. عرفوا هذه المعاني والحقائق. لكن متأخرين.

بينما المؤمنون الصابرون عرفوها من وقت طويل، عرفوها وأدركوها وأيقنوا بها وصبروا عليها، في عنفوان الفتنة القارونية الطاغية.

إنهما لا يستويان في الموقف ولا في المعرفة ولا في اليقين. لا يستوي الموقف الواثق الموقِن في عنفوان الفتنة وشدة المحنة، مع الموقف الذي ينشأ متأخراً بعد الرؤية العملية.

لا تستوي المعرفتان: المعرفة السابقة الواثقة الهادية، التي لا يرِدُ عليها شك أو ظن أو بلبلة، ولا يزعزعها الواقع مهما كان طاغياً قوياً منتفشاً.

والمعرفة الحادثة الطارئة التي لم توجَد ولم تنشأ، إلا بعد وقوع الحدث، واطلاع الجميع عليه، وتصديقهم به.

إن المعرفة الثانية ـ التي وجدت عند المخدوعين بقارون ـ والتي قد توجَد متأخرة عند كل من كانوا مثلهم في الانخداع والاغترار ـ لا جهد فيها، ولا فضل لها، ولا لذة ولا سمو فيها. لقد أسفر الصبح لذي عينين، وظهرت الحقيقة لكل من يرى، وتساوى الجميع في إدراكها، ولا فضل في ذلك لأحد على أحد.

ثم ما هو دور العقل في هذه المعرفة المتأخرة؟ ما هو دور الفطنة والوعي والذكاء؟ لقد عطَّل السذج المخدوعون وظيفة هذه المواهب والطاقات، وما عرفوا الأمر إلا بعد وقوعه، ولا صدقوا بالحقيقة إلا بعد تحقيقها في صورة خارجية!.

إن العظمة والسمو والسبق والفضل والتفوق هو لفريق المؤمنين الصابرين، الذين أدركوا الحقائق والقواعد مبكِّرين. وإن معرفتهم الواثقة السابقة ناتجة عن فطنتهم وذكائهم ووعيهم وإعمالهم عقولَهم، وعظمة إيمانهم، ونفاذ نظراتهم، وقوة أبصارهم.

إن المعرفتين لا تستويان. فشتان بين مَنْ يسبق ويتفرد، وبين من يلحق به متأخراً!.

كذلك نقف عند الفريق الساذج المخدوع على شيء آخر، مرتبط بمعرفته المتأخرة، وسذاجته الواضحة، وتعطيله لفطنته وذكائه ووعيه وعقله وبصيرته.

إنه الاضطراب والتناقض في المواقف والأمنيات والأحكام، والخطأ في النظر والتقويم.

بالأمس قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون!.

واليوم قالوا: الحمد لله أننا لم نُؤتَ مثل ما أوتي قارون!.

بالأمس كان قارون ذا حظ عظيم. واليوم أصبحوا هم أصحاب الحظ العظيم.

بالأمس كانوا محرومين من المنن والنعمة. واليوم هم الذين منَّ الله عليهم وأنعم!.

ما هو السر في هذا الاضطراب والتناقض عند هؤلاء؟ إنه في إرادة الحياة الدنيا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

وما هو السر في عظمة وفطنة الفريق الأول؟ إنه العلم الهادي الواثق البصير: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

أين الذين يريدون أن يتعلموا، ويتعظوا، ويعتبروا؟.

○ تعقيب القرآن على قصة قارون:

بعدما انتهى قارون، وبعدما سُردت قصته ـ وفق المنهج القرآني في عرض قصصه ـ وفي أنسب حالات التعقيب والتقرير، حيث النفوس منفعلة بما سمعت. والقلوب جاهزة لتلقي التعقيب المناسب.

عقب القرآن على قصة قارون بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ونلحظ في هذا التعقيب بعض المعاني والدلالات. منها:

١ ـ توجيه أنظار وقلوب وحياة المستمعين نحو الدار الآخرة، ودعوتهم إلى التجافي عن الدنيا، وأن لا يجعلوها أكبر همهم ومبلغ علمهم وأقصى آمالهم.

٢ ـ بيان صفات الذين يطلبون الدار الآخرة، ومواصفات الذين جعل الله لهم الدار الآخرة. إنهم هم الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

ومن خلال هذه الصفات ندرك السر في هلاك قارون: إنه أراد الدنيا ولم يرد الآخرة، وإنه ابتغى العلو في الأرض والفساد.

٣ ـ كل من أراد العلو والفساد في الأرض، وكانت حياته نشراً للعلو والفساد فإنه يخسر الحياتين: حياته في الدنيا إذ يحل به عذاب الله، وحياته في الآخرة إذ يكون مصيره النار. إنه يخسر الدارين: الدار الدنيا بهلاكه ودماره، والدار الآخرة بجعله وقوداً لنار جهنم.

وها هو قارون أبرز مثال لذلك، وهو عبرة لمن يعتبر.

٤ ـ العاقبة للمتقين. فالتقوى هي سر التمكين في الدنيا، والقبول عند الله، ونيل جنته.

العاقبة للمتقين في هذه الأرض، لأنهم هم الذين يستحقون هذه العاقبة، هم الذين يصلحون الأرض بتقواهم، وينشرون فيها القيم والحقائق والمبادئ الفاضلة الحقة، ويقمعون فيها قيم البغي والظلم والعدوان. أما المتكبرون المفسدون فلا عاقبة لهم في الأرض، لأنهم ينشرون مبادئ الظلم والباطل، ويغرسون معاني الفساد والعدوان، ويدمرون الأرض ويخربون الحياة. وهم أول ما يدمرون أنفسهم، وأول ما يهلكون أشخاصهم.

إنها سنة ربانية قاطعة لا تتخلف في أية فترة من فترات التاريخ البشري: العاقبة للمتقين.

وجاءت آيات قرآنية لتقرير هذه السنة الربانية وتأكيدها.

قال موسى لقومه عندما كانوا مستضعفين في مصر: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ

وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

هذا في الدنيا. حيث العاقبة في الحقيقة للمتقين.

أما في الآخرة فلا يشك أحد أن العاقبة هناك لا تكون إلا للمتقين، وأن الجنة لا تكون إلا للمتقين: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٣ ـ ٧٤].

٥ ـ من جاء بالحسنة فله خير منها. ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون.

تقرير للقواعد الربانية في الثواب والعقاب، في المكافأة والمجازاة، وهي التي تقوم على العدل الإلهي المطلق. من جاء بالحسنة فقد عامل الله بإحسان: وإن الله يثيبه عليها خيراً منها، ويضاعفها له أضعافاً مضاعفة. لأن الله يرد على الإحسان بإحسان.

ومن جاء بالسيئة فعلى نفسه جنى، حيث يجازيه الله بعدله، ويوقع به نتيجة سيئته وعمله.

○ تلخيص لأهم دروس القصة:

نورد فيما يلي أهم الدروس والدلالات التي يمكن أن نستخرجها من قصة قارون. بإيجاز:

١ ـ الطغاة يلتقون على صفة الطغيان وإن تفرقت أوطانهم، واختلفت أجناسهم، ولذلك قرن القرآن قارون الإسرائيلي مع فرعون.

٢ ـ تختلف أسباب الطغيان عند الطغاة. فمنهم من طغيانه بسبب السلطان، ومنهم من طغيانه بسبب المال، ومنهم من طغيانه بسبب الوظيفة، والجامع بينها أن الناتج عنها لا يسمى إلا طغياناً.

٣ ـ ابتلى الله قارون بكثرة أمواله وعظمة كنوزه، وكانت هي السبب في هلاكه وخسارته.

٤ ـ الراجح أن المراد بمفاتح كنوز قارون، هي الخزائن التي تحفظ فيها، وليست المفاتيح لتلك الخزائن.

٥ ـ انقسام بني إسرائيل فريقين في نظرتهم لقارون، وموقفهم من فتنته. وهكذا كل أمة، تنقسم إزاء تلك الفتنة إلى فريقين.

٦ ـ كثيرون هم الذين يسيرون على طريق قارون، ويغترون بما منحهم الله من مال، وكثيرون هم الذين يُخدعون بهؤلاء «القوارين».

٧ ـ لا بد من وجود مؤمنين صالحين صابرين، ينصحون الطغاة البغاة، كما فعل المؤمنون مع قارون.

٨ ـ **قاعدة قرآنية عامة**: إن الله لا يحب الفرحين، الذين يقودهم فرحهم بنعم الله إلى الكبر والخيلاء، والبطر والغرور، والظلم والفساد.

٩ ـ الفرح في الإسلام فَرَحان:

فرح مباح بل مطلوب مرغوب. وهو سرور المؤمن بنعم الله عليه، ورضاه بها، وشكره لله عليها.

وفرح محرم وهو الذي يقود إلى الغرور والفخر والبغي والجحود.

١٠ ـ الفرح الحقيقي لا يكون إلا بشيء، باق دائم، وهو فضل الله ورحمته ونعيمه وجنته، أما الفرح بشيء عرضي زائل مثل الدنيا وزينتها وزخارفها، فهذا دليل السذاجة والغفلة.

١١ ـ الإِسلام يقرر قواعد شاملة لاستخدام نعم الله، منها:

أ ـ ابتغاء الدار الآخرة فيها.

ب ـ توجيه قليل منها للتمتع المباح في الحياة الدنيا.

ج ـ الإِحسان مع الله، والإِحسان إلى الناس من خلال استخدام تلك النعم.

د ـ حرمة استخدامها في البغي والفساد والإِفساد.

هـ ـ المفسدون ينالون غضب الله ويفقدون محبته، ولذلك فهم هالكون خاسرون.

١٢ ـ المؤمن يوجه كل نعم الله نحو الدار الآخرة، ويبتغي بها الجنة، كلها بدون استثناء.

١٣ ـ الإِسلام يحث على الاستمتاع المباح بنعم الله في الحياة الدنيا، وينكر على من يحرم ذلك، ويجعل هذا الاستمتاع المباح عبادة يُثاب صاحبها عليها.

١٤ ـ المسلم لا يعادي المال، ولا يمتنع منه، بل يأخذه وفق ضوابط شرعية، ويستمتع به وفق ضوابط شرعية، وينظر إليه وفق قواعد شرعية.

١٥ ـ وجوب مقابلة إحسان الله إلى الإِنسان بالنعم والطيبات، بالإِحسان مع الله من حيث شكره عليها، والإِحسان إلى الناس من خلال نفعهم بها. وهل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان؟.

١٦ ـ كم هو مخطئ وساذج ذلك الذي يستخدم نعم الله عليه في الفساد والإِفساد، إنه بذلك يقضي على نفسه، ويزيل تلك النعم لأن الله لا يحب المفسدين.

١٧ ـ المغرور المخدوع هو الذي ينسى كون النعم التي عنده من الله، ويظن أنه حصَّلها بجهده، أو منحت له لجدارته وأهليته، فيقول كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

١٨ ـ أساس التكريم الإلهي للإنسان، ما كان يوماً المال ولا الجاه ولا الجمال ولا النسب ولا الجنس ولا المنصب، بل هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح ونفع الناس وتقديم الخير لهم.

١٩ ـ يحرص الطغاة المفسدون على كسر قلوب الآخرين، وعلى غرس الشعور بالمرارة والحرمان في نفوسهم. فيختالون عليهم وينتفشون ويتيهون، ويخرجون عليهم بكامل زينتهم، وينشرون عليهم مباذلهم ومفاسدهم ومجونهم.

٢٠ ـ إرادة الحياة الدنيا والرغبة في الإكثار من زخارفها توقع صاحبها في أخطاء فظيعة في النظرة والرغبة والحكم والقياس والتقدير. كما أنها سر هزيمة هؤلاء أمام المترفين الفاجرين. واتباعهم لهم كالعبيد، ولهاثهم وراء فتات موائدهم.

٢١ ـ كثيرون هم الذين يظنون صاحب الحظ العظيم والنصيب الوافر، هو ذلك الذي ملك ما ملك من الأثاث والزينة والمتاع، فيتمنون أن يكونوا مثله.

٢٢ ـ ذو الحظ العظيم هو الذي نال نعمة الإيمان والأمان. والرضى والاطمئنان، وفاز بالنجاة والنعيم الخالد.

٢٣ ـ إذا كانت إرادة الحياة الدنيا هي سر السقوط والذل والحسرة، فإن تحصيل العلم والحياة به هو سر الاستعلاء على المحنة، والثبات في الفتنة، والانتصار العظيم.

٢٤ ـ يجب توجيه الأنظار إلى ثواب الله، وتعليق القلوب به، فهو خير لمن آمن وعمل صالحاً. وشتان بين من يريد الدنيا، وبين من يريد ثواب الله الدائم.

٢٥ ـ الصبر الجميل العظيم هو المدد الدائم، والزاد الذي لا ينفد، في مواجهة ضغط الفتن وقوة الإغراءات، وعنف البغي والبطر. ولا يُلقّاها إلا الصابرون.

٢٦ ـ خروج قارون على قومه في زينته، ومبالغته في فتنتهم وابتلائهم بها، كان السبب المباشر لإيقاع العذاب به، وابتلاع الأرض له، ولماله. وهكذا

المترفون الفاجرون فإنهم بممارساتهم وتصرفاتهم الفاجرة يستقدمون عذاب الله، ويستحثونه على الإسراع إليهم لتدميرهم.

٢٧ ـ كان قارون فتنة لقومه، فمنهم من افتتن، ومنهم من انتصر وصبر وثبت، ولما تمت الفتنة والامتحان، أدى قارون دوره، وآن له أن يغادر هذه الدنيا، مقروناً بلعنة الله، مصحوباً بعذابه، وهكذا كان!

٢٨ ـ كل ما يملكه الإنسان من مظاهر هذه الحياة الدنيا، من المال والجاه والقوة والسلطان، لا تنفعه عند وقوع عذاب الله به، ولا تسعفه ولا تنصره من الله سبحانه. فكم هي خسارة الذين يركنون إليها، ويعتمدون عليها، ويجعلونها محط آمالهم ومعقد رجائهم!.

٢٩ ـ عندما خسف الله بقارون زالت الغشاوة عن عيون الذين خُدعوا به، وتغيرت مواقفهم وتمنياتهم. فبالأمس تمنوا مكانه، واليوم حمدوا الله أن لم يكونوا مثله. وهكذا فُسِّرَ التناقض والاضطراب والخطأ عند هؤلاء ـ ومن كان مثلهم ـ هو إرادة الحياة الدنيا فقط.

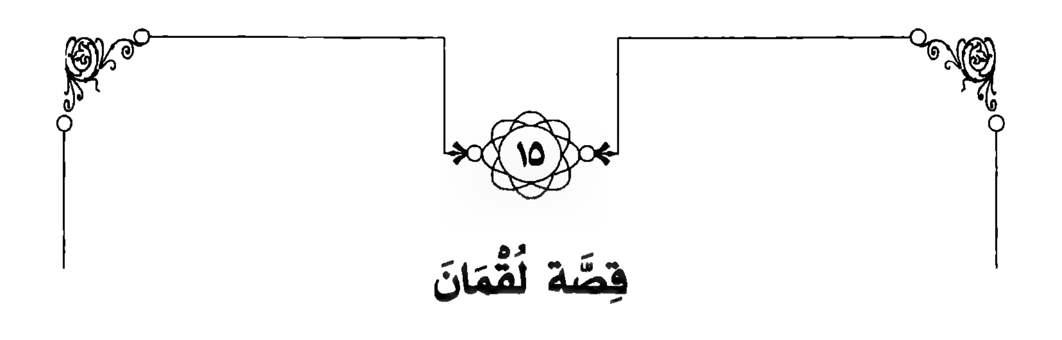
٣٠ ـ شتان بين معرفتين: بين معرفة المؤمنين للحقائق، وهي المعرفة الأصلية الثابتة الناتجة عن الفطنة والوعي والذكاء. وبين المعرفة المتأخرة الحاصلة لدى السذج المغفلين.

٣١ ـ يجعل الله الدار الآخرة للأصفياء الصالحين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

٣٢ ـ العاقبة في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، لا تكون إلا للمتقين، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

٣٣ ـ الله يعامل المحسنين برحمته وفضله فيضاعف لهم المثوبة. ويعامل أصحاب السوء بعدله فيوقع بهم نتائج سوئهم، وهذه سنة الله الدائمة.





قِصَّة لُقْمَانَ

○ القصّة في السّياق القرآني:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٩].

○ إسرائيليات في القصّة:

خاض كثير من السابقين ـ كعادتهم ـ في الإسرائيليات والأساطير، وهم ينظرون في «قصّة لقمان» وأوردوا عن الإسرائيليات أقوالاً وتفصيلات، ونسبوا للقمان أقوالاً وأحداثاً وصفات وعملاً.

ونحن نورد خلاصة تلك الأقوال والتفصيلات من باب التحذير منها وليس من باب الإقرار لها واعتمادها.

أورد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أنّ لقمان كان عبداً حبشياً

نجاراً، وأنّه كان قصيراً أفطس، غليظ الشفتين، مُصفّح القدمين، وأنّ الله أعْطاه الحكمة، ومنعه النبوّة. وأنّه من سادات السودان والحبشة، وأن هؤلاء السادات ثلاثة: لقمان، والنجاشي، وبلال ابن أبي رباح.

وقيل: إن الله خيّر لقمان بين الحكمة والنبوّة، فاختار الحكمة على النبوّة، فأتاه جبريل وهو نائم، فذرّ عليه الحكمة. فأصبح ينطق بها، فقيل له، كيف اخترت الحكمة على النبوّة؟ وقد خيّرك ربك؟ فقال: لو أنّه أرسل إليّ بالنبوّة عَزْمة وأمراً لرجوت فيها الفوز، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكنّه خيّرني، فخفت أن أضعف عن النبوّة، فكانت الحكمة أحبَّ إليّ.

وقيل: إنه من أولاد «آزر» وأنّه عاش ألف سنة، وأنّه كان يفتي الناس قبل داود عليه السلام فلمّا بُعث داود توقف لقمان عن الفتوى، وقال: ألا أكتفي إذا كُفيتُ.

وقيل: إنه كان قاضياً لبني إسرائيل. وإنه نودي بالخلافة قبل داود عليه السلام، فقيل له: يا لقمان: هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق؟ فقال: إن أمرني ربي قبلت، فإني أعلم أنّه إن فعل ذلك أعانني. وعلّمني. وعصمني. وإن خيّرني ربي قبلت العافية، ولم أسأل البلاء. فقالت الملائكة: يا لقمان: لِمَ؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأَكْدَرها، يغشاه الظلم من كل مكان، فيُخذل أو يُعان، فإن أصاب فبالحريّ أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة، وأَنْ يكون في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ضائعاً، ومَن يختار الدنيا على الآخرة، فاتْته الدنيا، ولا يصير إلى مُلك الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه. فنام نومة، فغُطَّ فيها بالحكمة غَطّاً، فانتبه فتكلّم بها. ثم نودي داود عليه السلام بعده بالخلافة، فقبلها، ولم يشترط شرط لقمان، فأهوى في الخطيئة، فصفح الله عنه. وكان لقمان يؤازره بعلمه وحكمته. فقال داود عليه السلام: طوبى لك يا لقمان: أوتيتَ الحكمة فصُرفت عنك البلية، وأوتي داودُ الخلافة فابتُلي بالذنب والفتنة.

وقيل: إنه كان عبداً عند سيده، وأنّه كان من أهونهم عليه. وإنّ أوّل ما رؤي من حكمته، أنّه بينما هو مع مولاه، إذ دخل مولاه ليقضي حاجته، فأطال الجلوس، فناداه لقمان: إن طول الجلوس على الحاجة يَتعب منه الكبد، ويكون منه الباسور، ويصعد الحر إلى الرأس، فاجلس قليلاً واخرج، فخرج سيده وكتب تلك الحكمة على باب «الحُشّ» المعد لقضاء الحاجة. وسكر مولاه يوماً، فشارط قوماً على أن يشرب كل ماء البحيرة، فلما أفاق عرف ما وقع منه. فدعا لقمان فقال: لمثل هذا كنت أُخبئك. فقال له: اجمعهم، فلمّا جمعهم قال لهم: على أيّ شيءٍ شارطتموه؟ قالوا: على أن يشرب ماء هذه البحيرة. قال: فإن هناك مواد فيها ممزوجة بالماء، فافصِلوا تلك المواد عن الماء ليشربه. قالوا: وكيف نستطيع أن نفصل تلك المواد؟ قال: وكيف يستطيع أن يشرب الماء ومعه المواد؟.

وقيل: إن ما أوتيه لقمان، لم يكن عن أهل ولا مال ولا ولد ولا حَسَب ولا خصال. ولكنّه كان رجلاً صمصاماً سكّيتاً، طويلَ التفكّر، عميقَ النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يبزق، ولا يتنحنح، ولا يبول، ولا يتغوّط، ولا يغتسل، ولا يعبث، ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه، إلا أن يقول كلمة يستعيدُها إيّاه، وكان قد تزوّج ووُلد له أولاد، فماتوا، فلم يبكِ عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكماء، لينظر ويتفكر ويعتبر.

وقيل: مرّ رجل بلقمان عليه السلام والناس عنده، فقال: ألست عبدَ بني فلان؟ قال: بلى. قال: ألست الذي كنت ترعى عند جبل كذا؟ قال: بلى. قال: فما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: تقوى الله، وصدقُ الحديث، وأداءُ الأمانة، وطول السكوت عمّا لا يعنيني»[1].

إن موقفنا من تلك الأقوال هو «التوقُّف» فيها. فلا نقول بها ولا ننسبها للقمان، ولا نقرر أنّها وقعت له، لأنها لم ترد بأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي ٦:٥٠٩ ـ ٥١٢.

كما أننا لا نجزم بنفيها عنه، لا نقول إنّها لم تقع له، أو أنّه لم يقلها، لاحتمال أن تكون قد حصلت فعلاً.

إن الموقف السليم هو التوقف، فلا ننفيها ولا نثبتها، ولا نقبلها ولا نردها، وبخاصة أنّها لا تتضمن فوائد علمية، ولا يُبنى عليها ثمرة نافعة أو عمل مقبول. ولا تتوقف معرفة الآيات عليها.

إننا ندعو إلى السكوت عما سكت عنه القرآن والحديث الصحيح، وإننا نحذِّر من قبول كل ما زاد عليهما من القول في قصص السابقين، ولا نجيز ذكر ذلك إلا لأجل التحذير منه.

○ بعضُ ما نسب إلى لقمان من الحكَم:

هذا وقد أورد علماء سابقون أقوالاً رائعة، وحِكَمَاً بالغة، وعبارات بليغة، نسبوها إلى لقمان.

ونورد فيما يلي أهم تلك الأقوال والحكم، لا على أنّها أقوال صادرة عن لقمان، فلا نذهب إلى أنه قالها، كما لا ننفي قوله لها، بل نتوقف في نسبتها له. ولكننا نوردها على أنّها أقوال لطيفة، وحكم بليغة، فننظر فيها في ذاتها، بغضِّ النظر عن قائلها وصاحبها، ونأخذ عنها ما توحي به وما تقرره، والحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق الناس بها، وقد قيل قديماً: لا تنظر إلى القائل، ولكن انظر إلى عظمة القول.

١ ـ إن الله إذا استُودِع شيئاً حفظه.

٢ ـ يا بنيّ: ارجُ الله رجاءً، لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس فيها من رحمته. قال: كيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: المؤمن له قلبان: قلب يرجو به، وقلب يخاف به.

٣ ـ يا بنيّ: أكثِرْ من قول: رب اغفر لي. فإن لله ساعةً لا يرُد فيها سائلاً.

٤ ـ قيل: دخل لقمان على داود ﷺ، وهو يسرد الدرع، فلم يدْرِ لقمان ماذا يصنع داود، وجعل يتعجب، ويريد أن يسأله، وتمنعه حكمتُه أن يسأله.

فلما فرغ داود من الدرع لبسها. وقال: نعْم درع الحرب هذه. فقال لقمان: الصمت خير من الحكمة، وقليل فاعلُه، كنت أردت أن أسألك، فسكتُّ حتى كفيتَني.

٥ ـ وقيل إن السيد الذي يعمل عنده لقمان، قال له يوماً: اذبح لي شاة، وائتني بأطيب مضغتين فيها، فأتاه باللسان والقلب، ثم قال له يوماً آخر: اذبح لي شاة، وألق أخبث مضغتين فيها. فألقى اللسان والقلب. فتعجب سيده من تصرّفه، ولما سأله عن ذلك قال له لقمان: إنّه ليس شيء بأطيب من القلب واللسان إذا طابا، ولا شيء بأخبث منهما إذا خبثا!.

٦ ـ وقال: يا بنيّ: حملتُ الحجارةَ والحديدَ والحملَ الثقيل، فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء. يا بنيّ إنّي قد ذقت المرّ كلّه، فلم أذق شيئاً أمرَّ من الفقر.

٧ ـ وقال: يا بنيّ إنّ العمل لا يُستطاع إلّا باليقين، ومن يضعف يقينه يضعف عمله.

٨ ـ وقال: يا بنيّ: اتّخذ تقوى الله تجارة، يأتك الربح من غير بضاعة.

٩ ـ وقال: يا بنيّ: من كذب ذهب ماءُ وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمّه، ونقْل الصخور من موضعها أيسرُ من إفهام مَن لا يفهم.

١٠ ـ وقال: يا بنيّ: لا تكونَنَّ أعجز من هذا الديك، الذي يصوّت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

١١ ـ وقال: يا بنيّ: شرّ الناس، الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً.

١٢ ـ وقال: يا بنيّ: لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشاور في أمرك العلماء.

١٣ ـ وقال: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزّاً، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية.

١٤ ـ وقال: يا بنيّ: إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

١٥ ـ وقال: يا بنيّ جالس الصالحين من عباد الله، فإنّك تصيب بمجالستهم خيراً، ولعله يكون آخر ذلك تنزل عليهم الرحمة فتصيبك معهم، يا بني لا تجالس الأشرار، فإنّك لا يصيبك من مجالستهم خَيْرٌ، ولعله أن يكون في آخر ذلك، أن تنزل عليهم عقوبة فتصيبك معهم.

١٦ ـ وقيل: إن لقمان كان مسافراً، فلمّا قدم من السفر، لقيه غلام، فسأل لقمانُ الغلام: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: الحمد لله ملكتُ أمري. قال: ما فعلت أمّي؟ قال: ماتت. قال: ذهب همّي. قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت. قال: جددتُ فراشي. قال: ما فعلت أختي؟ قال: ماتت. قال: سترتُ عورتي. قال: ما فعل أخي؟ قال: مات. قال: آه، انقطع ظهري.

١٧ ـ وقال: يا بنيّ: جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله ليحيي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

١٨ ـ وقال: ثلاثة لا يعرفون إلّا في ثلاثة مواطن: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، وأخوك عند حاجتك إليه.

١٩ ـ وقال: يا بنيّ: إيّاك والديْن، فإنّه ذل في النهار وهمٌّ في الليل.

٢٠ ـ وقال: يا بنيّ: أُرج الله رجاء لا يُجَرِّئكَ على معصيته، وخَفْ الله خَوفَاً لا يُؤْيِسُك من رحمته(١).

نكتفي بهذه الحِكَم العشرين، ونذكِّر مرة أخرى، بأننا أوردناها لا من باب نسبتها إلى لقمان ـ فنحن نتوقف في تلك النسبة ـ ولكن من باب دقة معناها ولطافته.

○ مبهمات في قصّة لقمان:

هناك مبهمات في قصّة لقمان، لا يمكن الجزم بتبيينها، ولا فائدة من الخوض فيها، ولهذا نتركها على إبهامها.

---

(١) انظر: هذه الحكم في «الدر المنثور» ٦: ٥١٢ ـ ٥٢٠.

من هذه المبهمات:

١ ـ أصل لقمان ونَسَبُه وقومه وقبيلته، فلا ندري أهو حبشي أم عربي أم من بني إسرائيل، ولا ندري عن اسم أبيه وجده. كما لا ندري عن جسمه وصفته ولونه.

٢ ـ الزمن الذي وُجد فيه لقمان، والحاكم الذي عاش في حكمه، والمدينة التي أقام فيها. والعمل الذي كان يمارسه.

٣ ـ اسم ابنه الذي كان يعظه، وهل استجاب لوعْظه أم أبى؟.

٤ ـ كيف كانت نهايته ووفاته؟.

٥ ـ هل هو نبي أم لا؟ لأن إثبات نبوّة أحد من السابقين يحتاج إلى دليل، وهو إما آية أو حديث، ولا نملك دليلاً هنا. كذلك لا ننفي عنه النبوّة، ولا نجزم بأنه غير نبي، لاحتمال أن يكون نبياً. فالأسلم في هذا الموضوع التوقف.

لا داعي للخوض في هذه التفصيلات والمسائل، ولا يترتب عليها علم أو فائدة أو منفعة، ولو علم الله أنّ في بيانها خيراً لبيّنها لنا.

إننا لا نعرف عن قصّة لقمان إلّا ما ذكرتْه آيات القصة. والواجب يفرض علينا أن نتدبّر الآيات، وأن نأخذ منها دروساً ودلالات ومعانيَ وعِبَراً، تنفعنا في حياتنا ومسيرتنا وعبادتنا، بدل أن نضيِّع جهودنا وأوقاتنا وعقولنا فيما لا نفع فيه، ولا فائدة منه!.

○ كلمات غريبة في الآيات:

١ ـ **الحكمة**: المعرفة، والفعل الموافق لها.

٢ ـ **وهنا على وهْن**: ضعفاً على ضعف.

٣ ـ **فصالُه**: رضاعه.

٤ ـ **أناب إليّ**: عاد ورجع إليّ.

٥ ـ مثقال حبة: وزن حبة.

٦ ـ **من خردل**: هو النبات المعروف، وحبّه من أصغر أنواع الحب.

٧ ـ **لا تُصعِّر خدّك**: لا تُمل خدك تكبراً وفخراً وخيلاء.

٨ ـ **مرحاً**: فرحاً وبطراً وعلوّاً وإفساداً.

٩ ـ **مختال فخور**: متكبر متفاخر.

١٠ ـ **اقصد في مشيك**: القصد هو التوسط والاعتدال. أي مشي بدون تكبُّر ولا ضعف.

١١ ـ **اغضض من صوتك**: انقص من صوتك واخفض منه.

○ لقمان راوٍ للعقيدة:

لقد اختار القرآن الكريم لقمان ليكون راوياً، يروي لنا كثيراً من مبادئ الإيمان وخصائص العقيدة، وقضيةِ التوحيد والآخرة، وتوجيهات الأخلاق والفضائل.

عرضَ لنا هذه المعاني من خلال موعظته التي قدمها لابنه، وكأنه لا يعظ ابنه فقط، وإنما يعظ المسلمين منذ نزول هذه الآيات وحتى قيام الساعة، يعظهم من خلال وعْظه لابنه.

وعندما ترى تركيزه على قضية الإيمان والتوحيد، تخرجُ بدلالة على وحدة العقيدة عند جميع الأنبياء والمصلحين الدعاة.

كما ترى في اختيار القرآن لقمان ليروي لنا ما روى، أهمية القصّة والرواية، من حيث كونها وسيلة من وسائل عرض العقيدة والأمور النظرية، وأنها ذات أثر كبير في استقرار موضوعها ومادتها في النفس.

○ لقمان الحكيم والحكمة:

اشتهر لقمان بالحكمة، ولازَمه لقب «الحكيم»، ولعله لأجل هذا نسبتْ له الكثير من الحكم، أو وُضعت على لسانه، ليكون أدعى إلى قبولها بين الناس.

وقرر القرآن أن الله هو الذي آتى لقمان الحكمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

فما هو معنى «الحكمة» في القرآن؟.

قال الإمام الراغب في المفردات: (حَكَمَ: أصله مَنَعَ منعاً لإصلاح. وحكمتُ الدابة: منعتها بحكْمة.

وقال الشاعر: أَبَني حنيفة أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكم.

والحكمة: إصابةُ الحق بالعلم والعَقْل.

والحكمة من الله: معرفةُ الأشياء، وإيجادُها على غاية الإِحْكام.

ومن الإنسان: معرفةُ الموجودات، وفعلُ الخيرات. وهذا هو الذي وُصف به لقمان في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾. ونبّه على جملتها بما وصفه بها.

فإذا قيل في الله تعالى هو حكيم، فمعناه بخلاف معناه إذا وُصف به غيره)[1].

الحكمة إذن تقوم على المعرفة والصواب والمنع والفعل.

١ ـ المعرفة من خلال إعمالِ العقل، وتحصيلِ العلم، وتقليبِ النظر، وتدريبِ الفكر.

٢ ـ الإصابة والصواب ثمرة من ثمارها، حيث تقود صاحبها للقول الصائب، والنطقِ الصائب، والفعلِ الصائب، والتفكيرِ الصائب، والتعلمِ الصائب..

٣ ـ كما أن الحكمة لها ثمرة أُخرى هامة، وهي المنع، أي أنها تمنع صاحبها من السوء والشر، قولاً كان أو فعلاً، أو تصرفاً أو سلوكاً، أو تخطيطاً أو تفكيراً، لأنها تحكُمه، وتُحسن حُكمه، وقيادَه إلى الخير، وصرفه عن الشر.

٤ ـ وإذا كانت الحكمة لها مهمة سلبية وهي منع صاحبها من الشر، فإنها تقدم له البديل الإيجابي العملي، حيث تدفعه إلى فعل الخيرات، والإحسان إلى الناس في اللسان واليد والتصرف والحياة.

---

(١) المفردات: ١٢٦ ـ ١٢٧ باختصار.

كل هذه المعاني يشير لها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

○ الحكمة في القرآن:

وردت «الحكمة» في القرآن، عشرين مرة.

وعندما ننظر في الآيات التي أوردتْها، فسنقف منها على عدة لطائف:

١ ـ إن الحكمة لا تكون إلّا من الله، فهو الذي يهبها لأصحابها، ويمنحها لهم، ويؤتيها إياهم:

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: آيتا ٢٦٨ ـ ٢٦٩].

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢].

وبما أن الحكمة لا تكون إلّا من الله، وبما أن الله عليم حكيم، فإنه سبحانه لا يهبها إلّا لمن يستحقُّها ويُحسنها ويتعامل معها وينتفع بها. لا يهبها إلّا لمن كان صالحاً مطيعاً لله.

٢ ـ ولعل هذا يردُّ على من زعَم أن الحكماء هم الفلاسفة، وأن الحكمة هي الفلسفة، وأن الإنسان قد يُعتبر حكيماً ولو لم يكن مؤمناً.

إن القرآن لم يَصف أحد الكافرين أو الظالمين بالحكمة، لأنها وصفُ تكريم وتشريف، وهذا لا يكون إلّا للمؤمن. إن القرآن لم يصف بالحكمة إلّا الأنبياء أو المؤمنين الصالحين.

يجب أن نُجرد الفلاسفة وغيرَهم من هذا اللقب «الحكماء» وأن لا

نصفهم بهذه الصفة الحبيبة «الحكمة» لأنها لا تكون إلّا فضْلاً ومنحة من الله، وهذا لا يكون لغير المؤمنين الصالحين!.

٣ ـ الحكمة وصفٌ أُطلق على ما جاء من عند الله، لأن كلام الله كلَّه حكمة، ولأن كتب الله هي وعاءُ الحكمة ومكانُ وجودها:

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١].

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [صٓ: ٢٠].

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

٤ ـ بما أنّ الله آتى الأنبياء الحكمة، وبما أن كلام الله هو الحكمة، فقد جعل الله من مهمّات الأنبياء ووظائفهم تعليمَ أتباعهم الكتاب والحكمة، وهذا يعني أن الحكمة قد تحصل وتتحقق بالتعليم والكسب، وأن الحكمة لا تحصل إلّا بتعلُّم كلام الله وشرعه وأحكامه.

ومع أن الأنبياء كلَّهم علَّموا أتباعهم الحكمة، فإن القرآن أفرد رسول الله ﷺ بذكْر تعليمها للمؤمنين، حيث نسب إليه، وجعل من وظيفته تلاوةَ آيات الله على المؤمنين، وتزكيتهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١].

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

٥ ـ وبعد أن يعلِّم الأنبياءُ أتباعَهم الحكمة، يقوم أتباعهم بواجبهم في الدعوة إلى الله، مزوَّدين بتلك الحكمة زاداً، ومستخدمين لها أسلوباً ناجحاً من أساليب الدعوة، ووسيلة من وسائلها.

لقد أمر الله كل مسلم بالدعوة إلى الله، وأرشده إلى وسيلتين من وسائل الدعوة. قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وإذا فعل المؤمن ذلك يكون قد استفاد من الحكمة التي وَهَبَهَا الله له، والتي علَّمهَا النبي إياه، أو أخذها هو عن النبي ﷺ، ويكون قد نجح في التأثير في الناس، لأن الحكمة هي أهمُّ وأقوى وأنفعُ وسيلة لتحقيق الغاية.

○ الحكمة والشكر:

ربطت الآية بين الحكمة والشكر، بل فُسِّرَت الحكمة بالشكر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

إن الحكمة هي شكرُ الله. لأنها فُسِّرَت به ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾، و«أنْ» هي «أن التفسيرية» عند العلماء.

وقد عرفنا معنى «الحكمة» فيما سبق. والآن نعرف معنى الشكر.

قال الإمام الراغب: «الشكرُ هو تصوُّرُ النعمة وإظهارُها. قيل: هو مقلوب عن الكَشْر، أي الكشف.

ويضادُّه الكفر: وهو نسيان النعمة وسترها.

ودابّة شَكور: مُظْهِرة بسِمَنِها إسداءَ صاحبها إليها.

وقيل: أصله: من عين شَكرى. أي ممتلئة.

والشكر على هذا: هو الامتلاءُ من ذكر المنعِم عليه.

والشكر ثلاثة أضرب:

شكرُ القلب: وهو تصوُّر النعمة.

وشكرُ اللسان: وهو الثناء على المنِعم.

وشكرُ سائر الجوارح: وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه.

وإذا وُصِفَ الله بالشكر، فإنما معناه: إنعامُه على عباده، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة)[1].

وإذا كانت الحكمة من الله وحده، فإن الشكر حقيقة لا يكون إلّا لله وحده، ولهذا نَسب الشكر إليه وأضافه إليه ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

وتفسير الحكمة بالشكر، يعني أن الشكر هو الثمرة الطبيعية للحكمة، فكل حكيم إنما هو شاكر لله سبحانه، وإذا رأينا مَنْ يعتبر نفسه حكيماً، وهو غير مؤمن بالله ولا شاكر له ـ كما يظن كثير من الناس ـ فإنه ليس حكيماً ولا حكمة معه. لأن الحكمة بدون شكر لا حقيقة لها ولا نفع منها. وهذا دليل آخر على تجريد الفلاسفة والمفكرين الكفّار من الحكمة، وقصْرها على المفكرين المسلمين، لأنهم هم الذين يشكرون الله.

ولا ننسى أن الشكر المقصود هنا هو الشكر العام، بأنواعه الثلاثة: شكر القلب وشكر اللسان وشكر الجوارح. والتوجُّه إلى الله بكل ما يصدر عن تلك الأقسام الثلاثة، وجعلُها وسائل للثناء على الله ومدْحِه وتحبيبِ الناس به.

قال الإمام القُمّي النيسابوري في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾:

(قال العلماء: هذا أمر تكوين. أي جعلناه شاكراً. فإن أمر التكليف يستوي فيه الجاهل والحكيم. وفيه تنبيهٌ على أن شكرَ المعبود الحق رأسُ كل عبادة وسنامُ الحكمة. وفائدته ترجع إلى العبد لا إلى المعبود، فإنه غني عن شكر الشاكرين، مستحق للحمد)[2].

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ الإضافة للتخصيص، لأن الشكر حقيقة لا يكون إلا لله.

﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ الحصر والإضافة للنفع، أي الذي يستفيد وينتفع منه هو صاحبه فقط:

---

(١) المفردات: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ باختصار.
(٢) غرائب القرآن ٢١: ٤٩.

○ وعْظ الأب لابنه:

قدّم لقمان نموذجاً عملياً للآباء في تعاملهم مع أبنائهم، ونصحهم لهم، وذلك حين وعظ ابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾.

والوعظ هو: «زجرٌ مقترنٌ بالتخويف».

إننا لا نعرف شيئاً عن ابنه، لا نعرف اسمه، ولا عمره عندما وعظه، ولا نعرف عقيدته، وهل كان مؤمناً بالله أم مشركاً به؟ كما لا نعرف هل استجاب الابن لمواعظ أبيه أم لا.

إن لقمان كان يقوم بواجب الأب تجاه الابن..

وقد أوجب الإسلام على الآباء نُصح ووعظ وتوجيه أبنائهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقد يستجيب الابن لمواعظ وتوجيهات أبيه، إن كان فيه خير، وعنده بِرٌّ لأبيه، فإذا استجاب فهو الذي ينتفع ويكسب، ويُقرُّ عين أبيه، وقد لا يستجيب لذلك، فعلى نفسه جنى، لكنه يُحزن بذلك أباه.

إن الولد الصالح البارّ قُرة عين لأبيه، وإن الآباء الصالحين يطلبون من الله أن يهبهم الأبناء البررة: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

أما الولد العنيد العاق فإنه عذابٌ لأبيه، وتنغيصٌ لحياته.

ولكن الأب مع ذلك مأمورٌ أن يعظ ابنه، وأن ينصحه ويوجهه، وأن لا يملّ من ذلك، بل يستمر عليه كل ما سنحت له الفرصة، ولا يتعلل بأنه لا يسمع ولا يستجيب، لأن الله لا يطالب الأب باستجابة الابن، ولا يعلّق أجره على تلك الاستجابة، بل يُجري الله له الأجر والثواب بمجرد الوعظ والنطق، أما إن لم يعظ فإنه يُعرِّض نفسه للمسؤولية والعذاب يوم القيامة.

○ مواعظ لقمان لابنه:

يلاحَظ أن مواعظ لقمان لابنه كانت عامة، حيث شملتْ أمورَ الإيمان والعبادة والأخلاق والدعوة:

١ ـ أمَره بالتوحيد والإيمان بالله، ونهاه عن الشرك والكفر، وبيّن له ضرر الشرك وخطره: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

٢ ـ أوصاه بوالديْه، وخص أمه بالذكر، وطالبه بالبر بهما، والإحسان إلَيهما، وطاعَتِهما، ومصاحبتِهما بالمعروف. وقدّم لنا من خلال ذلك القاعدة الإسلامية العامة في البر بالوالدين، حتى وإن كانا كافريْنِ، حيث يبرهما ويصاحبهما في الدنيا معروفاً، ولا يستجيب لهما عند دعوته للكفر: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ويلاحظ أن هذه الوصية بالوالدين أخلاقية اجتماعية.

هذا، وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه التوجيهات بخصوص الوالدين ليست من وصية لقمان لابنه، وإنما هي تقريرٌ من الله، وُضع ضمن وصايا لقمان لابنه، لكونها بها أليَق وأنسَب، ويقررون أن هذه الآيات نزلت بشأن سعد بن أبي وقاص مع أمه، عندما طلبتْ منه أن يرتد عن الإسلام، وأصرَّت على ذلك وهددْته وآذتْه، لكنه ثبت على إسلامه، واستعلى على تهديداتها..

٣ ـ يعرِّف لقمان ابنَه على الله، ويدله على بعض صفاته، كما يقرر عقيدة البعث والحساب في الآخرة، ويعرض صورةً عجيبةً لعلم الله الشامل لكل شيء، المحيط بكل شيء، الذي لا يندُّ عنه شيء مهما صغُر: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

كم تزن حبة الخردل؟ إنها أشبه بالهباءة التي لا تزن شيئاً. وهذه الحبة الصغيرة الضائعة «في صخرة» صلبة محشورةٍ فيها لا تظهر «أو في السموات» الهائلة الشاسعة، التي يبدو النجم الكبير فيها نقطةً سابحةً أو ذرةً تائهةً «أو في

الأرض» ضائعةً في ثراها وحصاها. هذه ذرة الخردل ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فعلْمُه مطلق عليها، وقدرته لا تفلتُها[1].

وصَدق مَن قَال: إن الله يرى ويسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الملساء - الصماء - في الليلة الظلماء.

وصدق من ناجى ربه قائلاً:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ

٥ - وبعد توجيهاته في العقيدة والإيمان، يوصيه بالعبادة: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على اعتبار أن العبادة بعد العقيدة، فبعد أن عرف الله وآمن به، يتوجه له بالشعائر التعبدية، التي أبرزها الصلاة.

وتوجيهُ لقمان لابنه نحو الصلاة، يدل على أهمية الصلاة، وعلى وجوبها على السابقين، لأنها هي الصلة بين العبد وربه.

٦ - أمرُه له بالدعوة إلى الله من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصيتهُ بذلك، يدل على وجوب الدعوة والأمر بالعروف والنهي عن المنكر على السابقين كما هو واجب علينا، ولا غرابة في ذلك فكل دين لا ينتشر إلَّا من خلال الدعوة، والناس لا يلتزمون به إلَّا من خلال النصح والإرشاد. والصالح لا يرضى أن يكون وحده صالحاً، بل يحرص على توصيل الخير والنفع للآخرين.

وقد أشار القرآن إلى وجوب الدعوة على الآخرين بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦ - ١١٧].

وهناك لفتة لطيفة من ذكْر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد إقامة

---

(١) انظر: الظلال ٥: ٢٧٨٩.

الصلاة، فبالصلاة يتصل بربه، ويستمد منه القوة والجرأة والثبات، وبالصلاة يتزود بالزاد الإيماني الذي يعينه على القيام بالدعوة والنصح، وبالصلاة لا يرضى المنكر ولا يقبل به فينهى عنه، وبالصلاة يحب المعروف فيأمر به، إن الصلاة ـ عندما تؤدّىٰ على طريقة رسول الله ﷺ من أفضل الوسائل والأدوات للقيام بواجب الدعوة إلى الله، فإذا لم تثمر الصلاة عند صاحبها ثمرة الدعوة والنصح فإنها صلاة ميتة، مجرد حركات ظاهرية.

٧ ـ أرشده إلى الصبر على ما سيصيبه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ وذكْر الصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يشير إلى حقيقة قرآنية قاطعة، وهي أن مَنْ دَعَا إلى الله، ونصح الناس، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، فإنه سيكون عرضةً للإيذاء والابتلاء، حيث يسخرون منه، ويستهزئون به، ويكذبونه، ويضطهدونه، ويؤذونه، ويضربونه، ويتهمونه، وقد يقتلونه. فإذا لم يتزودْ لذلك بزاد الصبر، فلن يثبتَ على طريقه، ولن يقومَ بواجبه، ولن ينصحَ الآخرين، وسوف يُؤْثر السلامة والراحة والعزلة.

إن الصبر سلاح فعال ضد الباطل وأهلِهِ، وهو زاد إيمانيّ ربانيّ يزودنا الله به، وهو «وسيلة» لا بدّ منها لأداء الواجب الذي أمرنا الله به.

وإذا نظرنا في وصية لقمان لابنه في الأمر والنهي، فإننا نلاحظ أنهُ جعلها متوسطة بين أمرين آخرين: حيث سبقها الأمر بإقامة الصلاة، وتبعها الأمر بالصبر، وهذا أمر مقصود: إن الصلاة هي الباعث على الأمر والنهي، وإن الصبر هو الشرط لاستمرار القيام به.

٨ ـ قدَّم له توجيهات أخلاقية، ضروريةً للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقبول كلامه عند الناس، وتأثيره فيهم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

أ ـ لا تصعِّر خدك للناس: لا تُمِل خدك عن الناس. أي لا تتكبرْ على الناس، إنك تدعو الناس، وتريد لهم أن يستجيبوا لك، وإنهم لن يسمعوا إلَّا

ممن كان قريباً منهم، متواضعاً معهم، يقدم لهم دعوته ودينه وفكْره، على بساط من المحبة والرحمة والتواضع.

أما المتكبر عليهم، الذي يتيه عليهم كبراً وخيلاء، ويعاملهم بعجرفة مرذولة، ويصعِّر خدَّه لهم، وينظر لهم بازدراء واحتقار، فإنهم سيرفضونه وينبذونه ويتخلون عنه.

ب ـ ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً: وهو ملازم لحركة تصعير الخد للناس، باعتبار الحركتيْن ناتجتيْن عن التكبر والزهو والخيلاء.

المشيُ في الأرض مرحاً هو المشي في تخايلٍ ونفخةٍ وقلةِ مبالاة بالناس. وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلْق. وهي تعبير عن شعور مريض بالذات، يتنفس في مشية الخيلاء.

جـ ـ واقصِد في مشيك: حيث أرشده إلى المشية المقبولة الصحيحة، بعدما نهاه عن المشية المرذولة الباطلة.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ تعني أن تكون مشيتك مقتصدة معتدلة متوسطة، فلا هي مشيةُ المرِح المتكبِّرِ المنتفِخِ، ولا هي مشيةُ الضعيفِ الذليلِ المتمَاوِتِ، بل مشية المعتدلِ المقتصد، وخير الأمور أوساطها.

كما أن ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ تعني أن تكون المشية مقصودة، وليست عبثاً أو ضياعاً، وأن تكون المشية لهدفٍ وقصْد وغاية، وذلك لأن كل ما لدى المسلم موظفٌ للهدف والغاية التي يريدها المسلم نفسه، إنه يوظف كل ما يملكه لهدفه وغايته، فمشيته وسيلة لهدفه، ولذلك فهي مقتصِدة مقصودة.

د ـ واغضض من صوتك: «والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته. وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلّا سيِّئُ الأدب، أو شاكٌّ في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدَّة والغلظة والزعاق.

والأسلوب القرآني يُرذِّل هذا الفعل ويقبِّحه في صورة منفِّرة محتقَرَة بشعة، حين يعقِّب عليه بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ فيرتسم مشهدٌ مضحك

يدعو إلى الهزء والسخرية، مع النفور والبشاعة، ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع، ثم يحاول.. شيئاً من صوت هذا الحمير..»[1].

○ نظرات في آيات القصة:

ننظر في آيات قصة لقمان، ونسجل أهمَّ ما نأخذه عنها، من لطائف ودلالات وعبر وعظات، وإشارات وإيحاءات:

١ ـ في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ إشارةُ إلى أن الحكمة لا تكون إلَّا من الله، يؤتيها الله من يشاء من عباده، وأنَّ مَن آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً. وأن الحكمة يمكن أن يُحصِّلها الإنسان بالسعي والكسب.

٢ ـ يمكن أن تعرَّف الحكمة بأنها: القول المناسب للشخص المناسب في الوقت المناسب بالمقدار المناسب والأسلوب المناسب!.

٣ ـ في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسير الحكمة بالشكر، وهذا يعني أن الشكر لله ثمرة من ثمار الحكمة، والشكر لله من لوازم الإيمان، فلا حكيم إلَّا المؤمن، ولا حكيم إلَّا الشاكر لله، ولا حكيم إلَّا مَن وجَّه حياته لله.

٤ ـ عبَّر عن الشكر بصيغة الفعل المضارع: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ومعلوم أن الفعل المضارع فعل حيوي فاعل حي متجدد ـ وهو أحب الأفعال الثلاثة إلى قلب المؤمن الفاعل المتحرك ـ والفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار، ولعل الحكمة من التعبير عن الشكر بالمضارع، هي لتوجيه المؤمن إلى أن يكون شكره لربه متجدداً، بمعنى أن يقدِّم لربه شكراً في كل لحظة ودقيقة وساعة من يومه، وذلك لأن نِعَم ربه عليه متجددة، لا تنقطع لحظة من ليل أو نهار، والنعمة تحتاج إلى شكر، وبالشكر تدوم النعم وتزداد: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

٥ ـ ذكرت آيات القصة مجالين من مجالات الشكر:

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٢٧٩٠.

الأول: الشكر لله: في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

الثاني: شكر الوالدين في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

ويُؤخذ من ذلك جواز شكر البشر الذين يقدّمون للإنسان خيراً ومعروفاً، فشكر الوالدين واجب بنص الآية.

ولكن الشكر في الحقيقة لا يكون إلّا لله، وما شكرُ المحسنين إلّا شكر لله، لأن الله هو الذي ألهمهم الإحسان للإنسان، فيشكر اللهَ من خلال شكره لهم.

وما شكر الوالدين إلّا شكر لله، فهو وإن كان شكراً لهما في الظاهر، إلّا أنّه شكر لله في الحقيقة، الذي جعلهما سبباً في وجود الإنسان، وجعل فيهما الرحمة والرأفة به.

٦ ـ وما دمنا في باب الشكر، فإننا نلاحظ أن الكلمة وردت أربع مرّات:

مرتان في صيغة فعل الأمر: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ و﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ وهذا في سياق التكليف بالشكر، وبيان الجهة التي يتوجه لها بالشكر.

ومرتان في صيغة الفعل المضارع ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ وهذا في سياق القيام بالشكر، وبيان المستفيد من ذلك الشكر، حيث لا يستفيد منه إلّا صاحبه.

٧ ـ ختم آية الأمر بالشكر بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ واختار اسمين من أسماء الله ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وهذا ختم يتناسق مع موضوع الآية، حيث وجَّهت الآية إلى الشكر، وأمرت المؤمن الحكيم بشكر الله، وحتى لا يظن ظان أن الله هو المستفيد من شكر الناس، ذكرت الآية اسم الغني، للإشارة إلى غنى الله عن الناس، سواء شكروا أم لم يشكروا، فلا يزيده شكرهم شيء.

كما ذَكرت اسم «الحميد» للإشارة إلى أن الله هو المستحق للحمد ولو لم يحمده أحد، فهو حميد ولو كفر الناس به وجحدوا فضله.

وكأن الآية تقول لنا:

ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، لأن الله غني.

ومن كفر فقد جنى على نفسه لأن الله حميد.

٨ ـ وعْظ لقمان لابنه ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ فيه توجيه للآباء إلى وجوب وعْظهم لأبنائهم، ونصْحهم لهم، ولو لم يستجيبوا لهم.

٩ ـ من مواعظ لقمان لابنه نهيُه عن الشرك ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وفي هذا إشارة إلى وجوب شمول المواعظ لكل موضوعات الإسلام، من إيمان ودعوة ونظم وأحكام وفضائل وأخلاق، فهذه الموعظة التي قدمها لقمان لابنه موعظة إيمانية اعتقادية.

١٠ ـ اعتبرت الآية أن الشركَ ظلمٌ عظيم. وفسَّر بها رسول الله ﷺ آية الأنعام ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فقد ظنّ الصحابة أن المراد بالظلم هو المعصية والذنب، فبما أنهم معرَّضون للذنوب والمعاصي، فلن يكون أحد منهم آمناً. ولذلك شَقَّ الأمرُ عَلَيهم، وقالوا: «وَأَيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تظنُّون. إنَّما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»[1].

١١ ـ كثيراً ما عبَّر القرآن عن الشرك والكفر بالظلم، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ووجْه كَون الكفر والشرك ظلماً، هو أن الكافر والمشرك ظالم بذلك، لأن الظلم هو التعدّي وتجاوزُ الحد، ونصرُ الباطل، ومجانبةُ الحق، وإخفاءُ الحقيقة، والمشرك ظالم بذلك.

إن المشرك **ظالم لنفسه**: لسيره في طريق الباطل والعذاب والنار. **وظالم للحقيقة**: لتجاوزه لها ومجانبته عنها. **وظالم للمؤمنين**: لأنه لم يكن معهم، ناصراً للحق محارباً للباطل. **وظالم للكافرين**: لأنه كان قدوة لهم في الكفر، مساعداً لهم على باطلهم.

كل كفر ظلم وكل كافرٍ مشركٍ ظالم.

---

(١) مسلم (١) كتاب الإيمان (٥٦) باب صدق الإيمان وإخلاصه. حديث: ١٧٨.

ولكن ليس كل ظلم كفراً وشركاً، لأن القرآن قد يُطلق الظلم على المعصية والذنب، فقد يكون المسلم ظالماً لمعصيته وذنبه، ولكنه لا يكفر بمجرد ارتكاب المعصية والذنب.

١٢ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ في ذلك لفتة لطيفة، هي أن الله يوصي من يكون مظنَّة التقصير والإساءة. فمن هم الذين يمكن أن يقصِّروا في حق الآخرين الأبناء أم الآباء؟ إنهم الأبناء. ولذلك وصَّاهم الله بآبائهم ولم يوصِ القرآن الآباءَ بأبنائهم لأنهم لا يحتاجون إلى ذلك، فهم حريصون ـ فطرياً ـ على أبنائهم، وعلى مصلحتهم ونفعهم. أما الأبناء فهم الذين يحتاجون لتلك الوصية، لأن الابن غالباً ينظر أمامه، لتحقيق مصلحته، وتأمين مستقبله، وتحقيق الخير لأولاده، وغالباً لا يلتفت خلفه، ولا يكاد ينظر لأبويْه اللَّذيْن وليَّا، وأوشكا أن يغادرا هذه الدنيا. ونظراً لذلك تدعوه الآية إلى الالتفات للوراء، إلى الإِحسان للشخصيْن اللذيْن وقفا حياتهما له، وبذلا كل جهد لإِسعاده.

١٣ ـ في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ تسجيل لحقيقة قاطعة، وهي أن الأم تبقى واهنة ضعيفة متعَبة ـ والوهن هو الضعف ـ طيلة مدة الحمل، ويبدأ وهنها منذ بداية الحمل، ويتمثل في أمراض «الوَحَم» و«التقيُّؤ» ويستمر ذلك حتى تضع حملها، ويستمر إلى ما بعد الوضع أيضاً.

ولعل هذه الحكمة من جمع الوهن إلى الوهن، فوهنها دائم مستمر طيلة الحمل.

ولم تقيّد الآية الوهن بصورة من الصور، بل جعلتْه مطلقاً عاماً، ليشمل كل صور الوهن وحالاته وآفاقه. فهو وهْن في الجسم، ووهْن في النفس، ووهْن في الشعور، ووهْن في القوة، ووهْن في العمل والأداء، وَوهْن في الخلُق والسلوك، ووهْن في الصِّلات والتصرفات، ووهْن في المشاعر والأحاسيس. إلى غير ذلك.

ومع ذلك الوهن المستمر المتضاعف المتجدِّد، يبقى مرغوباً فيه من قبل

المرأة، ويبقى مطلوباً محبوباً، فإذا لم تَحمل تسعى لتَحمل، وتبذل كل ما تملك لتَحمل! وسبحان من فطرها على التلذذ بالوهن وطلبه والرغبة فيه!.

١٤ ـ في قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ إشارة إلى مدة الرضاع الطبيعية الضرورية للطفل، إنها عامان. فإذا قلَّت عن عامين لا يأخذ حاجته من الحليب الطبيعي الضروري، حليبِ الأم، وإذا زادت عن عامين فإنه لا يستفيد منها، ولا ينتفع بها، وتكون وبالاً عليه، على جسمه وأخلاقه، حيث يتحول إلى شخص مدلَّل رخو مائع.

ولعل السر في أمراض أطفال هذا الزمان هو في عدم رضاعتهم الطبيعية، إن حليب الأم ضروري لسلامة الطفل صحيّاً ونفسياً وخلقياً، ولنمو جسمه، وسلامة مداركه، إن الأم ترضع ابنها المحَبَّة والمودة والرحمة والحنان والشفقة، مع ما تقدمه له من الحليب. فكم طفل يرضع من أمه حولين كاملين؟.

١٥ ـ قدَّمت الآيات للابن قاعدةً مأمونة متَّزنة في صِلته بوالديه وبره بهما: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾.

إن بر الوالدين واجب ومطلوب على كل حال، سواء أخطأا مع الابن أو أحْسنا إليه، عامَلاه بمودة أو عاملاه بغلظة وقسوة.

وإن هذا البر لا يَسقط عن الابن، ولو ارتكبا ذنباً ومعصية، بل لا يسقط حتَّى لو كانا كافِريْن مشركيْن بالله. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾.

لكن طاعة الابن للوالدين طاعةٌ مبصرةٌ واعيةٌ. بمعنى أن يطيعهما في ما يُرضي الله، ولا يطيعهما فيما يُغضب الله. يطيعهما عندما يأمرانه بالطاعة، ولا يطيعهما عندما يأمرانه بالمعصية، ولا يطيعهما عندما يطلبان منه الكفر بالله أو الشرك به. لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

إن الآية فرَّقت بين أمرين: البر والطاعة.

فالبر مع الوالديْن مطلوب على كل حال، ولو كانا كافرين.

ولكن الطاعة مقيدةٌ بطاعة الله، فلا طاعة لهما إذا تعارضت أوامرهما مع أوامر الله.

لكن البر مطلوب حتى مع هذه الحالة، حيث يخالف أمرَهما بالمعصية، لكن يخالفه بالبر والمعروف والإِحسان. فلا يسب أو يشتم أو يلعن، بل يكتفي بالمخالفة، ويبقى على إحسان المعاملة معهما.

١٦ ـ عرَضت الآيات صورة عجيبة لطيفة محبَّبة، لعلم الله وشموله لكل صغيرة وكبيرة، ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾.

إن علم الله شامل لكل شيء، وإنه لا يغيب عن الله شيء، فحبة الخردل ـ التي هي مثالٌ لأصغر الأشياء ـ يعلمها الله أينما كان مكانها في هذه الأرض الواسعة، وتلك السموات الشاسعة، وهو قادر على الإِتيان بها.

والمهم من الصورة المرسومة هو تأثيرها على نفس سامعها، حيث يستشعر علم الله به، واطّلاعه عليه، ويعيش حقيقة أن الله ناظر إليه، وأن الله مطلع عليه. وهذا يدفعه إلى الإِخلاص معه، وإحسان عِبادته، والحياءِ من التقصير في حقه، والالتزام بأحكامه، والابتعاد عن معصيته ومخالفته.

١٧ ـ خَتَمَ تلك الآية، المصوِّرة لعلم الله وقدرته باختيار اسمين من أسماء الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

وهو ختام يتناسق مع موضوع الآية:

إن الله لطيف، فعلمه شامل لكل شيء، وهو نافذ في كل شيء، ولا يقف أمامه أي شيء، ولا يستعصي عليه أي شيء، لأنه علم لله المطلع على كل شيء.

وإن الله خبير، والخبرة هنا بمعنى العلم، أي عالم بكل شيء.

١٨ ـ في جو العقيدة والإِيمان، والابنُ متأثر بالصورة المعروضة لعلم الله وقدرته. يكلِّف الأب ابنه بالعبادات، فيأمره بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيكون للتكليف معناه وحياته وحيويته، لأن القلب الممتلئ إيماناً باللهِ وتعظيماً له، سيلتزم بتلك التكليفات.

١٩ ـ أفعال الأمر الموجَّهة من لقمان لابنه ستة، وأفعال النهي ثلاثة:

١ ـ أَقِمْ الصلاة.

٢ ـ أْمُرْ بِالمعروف.

٣ ـ إنْهَ عن المنكر.

٤ ـ إصبر على ما أصابك.

٥ ـ إقصد في مشيك.

٦ ـ أُغضض من صوتك.

- أما أفعال النهي فهي:

١ ـ لا تشرك بالله.

٢ ـ لا تصعِّر خدك للناس.

٣ ـ لا تمشِ في الأرض مرحاً.

وهذه الأمور كلها ذات أبعاد عبادية، فيصح أن تسمى «عبادات» والمؤمن يعبد الله من خلال التزامه الأوامر، مهما كان موضوعها، ويعبد الله من خلال اجتنابه المنهيات، مهما كان موضوعها. إن أداء الأوامر عبادة لله، وإن ترك المحرمات عبادة لله.

يجب أن نوسع مفهوم «العبادة» فلا نجعلها مقصورة على «الشعائر التعبدية» فقط. لأن العبادة شاملة لكل حياة المسلم، ولا تخرج لحظة من لحظات حياته عن العبادة. إنه عابد لله في الشعائر التعبدية، وفي التشريعات والمعاملات، وفي الفضائل والأخلاق، وفي التعامل والصِّلات.

إنه عابد لله بفكره وعقله، وبإيمانه وقلبه، وبجسده وجوارحه، عابد لله في بيته ومسجده، ووظيفته وعمله، في ليله ونهاره، ويقظته ومنامه.

إنه عابد لله في الصلاة والصيام، وفي الخُلُق والسلوك، وفي التعامل والكلام، وفي المال والاقتصاد، وفي السياسة والوظيفة، وفي اللعب المباح والفن الهادف والخيال..

٢٠ ـ عقبت الآية على الأوامر العبادية بعبارة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ «والعَزْم هو عقْدُ القلب على إمضاء الأمر»[1]، أي إن إقَامَةَ الصلاة والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر والصبرَ على الأذى، أمور تحتاج إلى عزم القلب وعزيمته وهمته وجهده، إنها تكاليف شاقة، لا يطيقها كل الناس، ولذلك سيتخلى كثير عنها، إنه لا ينهض بها إلَّا ذوو عزم وعزيمة، ولا يقدر عليها إلَّا أصحاب العزائم:

وَإِذَا كَـانَـت الـنُّـفُـوسُ عِـظَـامَـاً تَـعِـبَـتْ فِـي مُـرَادِهَـا الأَجْـسَـامُ

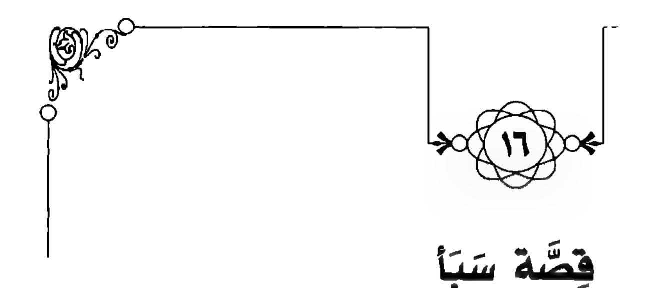
٢١ ـ عقَّبت الآية على النواهي بعبارة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فالاختيال والتكبر والفخر أخلاق مذمومة لا يحبها الله، ولا يحب أصحابها، وهذه دعوة من القرآن للتخلي عن تلك الرذائل.

إن القرآن يرغِّب بالأخلاق الحميدة، ويدعو المؤمنين للالتزام بها، بعبارة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ . . .﴾ وما أن يسمع المؤمن كلمة «يحب» حتى يحرص على معرفة ما بعدها، ليتخلق بها، لأنه يعلم أن هذا هو طريق محبة الله.

وإن القرآن ينفِّر من الأخلاق المذمومة بكلمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ وما أَن يسمع المؤمن كلمة «لا يحب» حتى يحرص على معرفة ما بعدها، ليتجنَّبها، لأن ذلك يحْرمه من محبة الله. فهل نجمع آيات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ لنلتزم بتلك الصفات؟ وهل نجمع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ لنتخلى عن تلك الصفات؟.

* * *

(١) المفردات: ٣٣٤.



١٦

قِصَّة سَبَأ

○ القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ١٥ ـ ٢١].

○ شرح الكلمات الغريبة:

١ ـ **سبأ**: اسم لقبيلة قوية سكنت اليمن، وأنشأت فيها حضارة.

٢ ـ **آية**: في قصتهم عبرة وعِظة ودرس للآخرين.

٣ ـ **جنّتان**: بستانان عظيمان واسعان.

٤ ـ **أعرضوا**: كفروا وطغوا وبغوا.

٥ ـ **سيل العرم**: سيل سد مأرب، بعد تدميره اجتاحهم وعمّهم.

٦ ـ **جنتين ذواتَيْ أُكُل**: جنتين صاحبتي أُكُلْ. وذواتي مثَنّى مؤنث لكلمة «ذو».

٧ ـ **أُكُل خَمْط**: الخَمْط هو شجر صحراوي مرّ له شوك. لا يؤكَل.

٨ ـ **أَثْل**: هو نوع من أشجار الصحراء. يسمى «الطَّرفاء».

٩ ـ **سِدْر**: نوع ثالث من أشجار الصحراء، له شوك. يسمى «النَّبَق».

١٠ ـ **القرى التي باركنا فيها**: هي قرى البلاد المباركة في فلسطين وما حولها.

١١ ـ **قرى ظاهرة**: هي القرى بين اليمن والشام. وهي بلاد الحجاز.

١٢ ـ **قَدَّرْنا فيها السير**: جعلناه سيراً مقدَّراً محدَّداً على مراحل معروفة.

١٣ ـ **جعلناهم أحاديث**: دمّرناهم، وجعلناهم قصصاً يتحدث بها الناس في مجالسهم.

١٤ ـ **مزَّقناهم كل ممزق**: فرّقناهم في بلاد العرب والشام والعراق ومصر.

١٥ ـ **صبَّار شكور**: صيغتا مبالغة من الصبر والشكر، كثير الصبر والشكر.

١٦ ـ **صدَّق عليهم إبليس**: حقق فيهم هدفه في إِضْلالهم.

○ كلام في قصَة سبأ:

أورد الإِخباريون والمؤرِّخون كلاماً مفصَّلاً عن قصّة سبأ، وبداية مُلكهم، وتَفصيل النعمة عليهم، وبدايات نقض السد عليهم، وما جرى لهم بعد ذلك.

وسوف نشير إلى بعض تلك التفصيلات، ونوردها، لا تسليماً بها أو قبولاً لها، بل من أجل إِطْلاع القراء عليها، ولدعوتهم إلى «التوقف» فيها، كما توقَّفْنا، فلا نقول بها ولا نثبتها، كما أننا لا نردها أو نرفضها، فالتوقف هو الأسلم، والأكثر اتفاقاً مع العلم والبحث. لعدم وجود وسائل علمية يقينية، نتمكن بها من التمييز بين الطيب والخبيث منها، والتفرقة بين الصدق والكذب. ثم هي مما لا يترتب عليها فائدة علمية، ولا يضرنا الجهل بها، ولا يضيرُنا شيء عندما نتوقف فيها.

قال المؤرِّخون والإِخباريون: إن «سبأ» هو أوّل من مَلَكَ اليمن. وأنَّ اسمه هو «عَبْدُ شَمْس بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان».

وسمِّي «سبأ» لأنه أول مَلِك من العرب، سبى أعداءه.

وكان يقال له «الرائش» لأنه كان يقدم لقومه المال الذي يغنمه من الحرب، والعرب يسمون المال ريشاً ورياشاً.

قالوا: وكانت «سبأ» في نِعم غامرة، حيث أعطاهم الله من كل شيء، كما توحي بذلك الآيات.

وأقاموا حضارة متقدمة، واستطاعوا التحكم في ماء الوديان، حيث أنشأوا سداً منيعاً عند مدينة مأرب. سمّي «سد مأرب». وكان ذلك السدّ بين جبلين، وتحكّموا في مياه السد في ري أراضيهم، وسقْي بساتينهم.

وتمكّنوا من إنشاء الجنّات والبساتين، وفيها ما فيها من الأشجار، وجَنَوْا منها ما جنَوْا من الثمار.

قالوا: كان لسبأ جنتان بين جبلين. فكانت المرأة تمر وسط الجنّات، ومكتلها على رأسها، فيمتلئ مكتلها بالفاكهة التي تتساقط فيه بدون أن يقطفها أحد. وذلك لكثرتها ونضجها.

قالوا: ولم يكن ببلدهم شيء من الذباب أو البعوض أو البراغيث، أو شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء، وصحة المزاج وعناية الله بهم ليعبدوه ويوحدوه.

وكان من ملوكهم «بلقيس» التي جرت لها قصة مع نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، انتهت بإسلامها لله، ودخولها في دينه، كما أشارت إلى ذلك سورة «النمل».

لكن أهل «سبأ» بعد موت بلقيس، كفروا بالله، وأشركوا به، وبطروا وبغوا وطغوا. فحقّت عليهم سنّة الله، وأوقع الله بهم العذاب. حيث دمَّر الله «سد مأرب» وأرسل عليهم ما كان وراءه من ماء، فكان سيلاً عظيماً مدمِّراً، سمّاه القرآن «سيل العرم». أغرق الجنات والبساتين، وأهلك الأشجار والثمار، وأزال الله عنهم تلك النعم، بسبب ما كسبوا.

ويذكُر المؤرِّخون: والإخباريون، تفصيلاتٍ لبداية تدمير السد، واجتياح السيل العرم، خلاصتها: أنهم كانوا يعرفون ـ كما أخبرهم الكهنة ـ أن سبب

تدمير السدّ هو «الجُرَذ». فجعلوا على كل مكان من السد «هِرّاً» للحراسة.

ولمّا حلَّ بهم أمر الله، أقدمت الجرذ على السدّ، وغلبت القطط وهزمتها.

وشاهد ذلك أحد زعمائهم، وهو «عمرو بن عامر». فأيقن بقرْب الهلاك، وفكّر في وسيلة يأخذ فيها ثمن أراضيه وأملاكه. فدعا ابنَ أخيه وقال له: إذا أنا جلستُ العشية في نادي قومي، فائتني فقل: علام تحبس عليَّ ما لي؟ فإني سأقول لك: ليس عندي مال لك، ولا ترك أبوك شيئاً، وإنك لكاذب. فإذا أنا كذّبتك فكذِّبني، واردد عليّ ما قلت لك، فإذا فعلتَ ذلك فإنّي سأشتمك، فاشتمني. فإذا شتمتني لطمتك، فإذا أنا لطمتك فقم إليّ فالطمني.

فقال له ابن أخيه: ما كنتُ لأستقبلك يا عمّ بذلك! فقال له: بلى افعل فإني أريد بها صلاحَك وصلاح أهل بيتك، فقال الفتى: نعم.

فجاء فقال ما أمره به عمّه حتّى لطمه، فتناوله الفتى فلطمه! فقال الرجل: يا بني فلان: أُلْطَمْ فيكُمْ؟ لا سكنت في بلد لطمني فيه فلان أبداً. من يشتري منّي دوري وأرضي وعقاري. فلما عرفوا منه الجد اشتروا منه كل ما يملك.

ولمّا صار المال معه، وجهّز نفسه وأهله للخروج والسفر، نادى قومه وقال لهم: أي قوم: إن العذاب قد أظلكم، وزوال أمركم قد دنا.

فمن أراد منكم داراً جديداً، وجملاً شديداً، وسفراً، فليلحق بعُمان. ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير فليلحق ببُصرى.

ومن أراد منكم الراسخات في الوحل، المُطعِمات في المحل، المقيمات في الضّحل، فليلحق بيثرب، ذات النخل.

فأطاعه قوم منهم، وتفرقوا:

فخرج الأزد إلى عُمان.

وخرجت غسّان إلى بُصرى.

وخرجت الأوس والخزرج وبنو كعب بن عمرو إلى المدينة «يثرب».

فلما كانوا ببطن نخل، وقبل وصولهم المدينة، قال بنو كعب: هذا مكان صالح لا نبتغي به بدلاً، فأقاموا فيه، فلذلك سُمّوا «خُزاعة» لأنهم انخزعوا - أي انفصلوا - عن أقوامهم.

وأقبلت الأوس والخزرج حتّى نزلوا بيثرب.

أمّا «سبأ» فإن الله أرسل عليها «السيل» حيث تمكنت الجُرذُ من نقض «سد مأرب» فاجتاحت مياهُ «سيل العرم» ما يملكونه من جنات، وأتلفت أشجارهم ومزروعاتهم.

وبادت تلك الحضارة وزالت وانقرضت، بسبب كفرهم وبطرهم: «ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل نجازي إلّا الكفور»؟.

وفي ما حل بقوم سبأ، يقول الشاعر الأعشى «ميمون بن قيس»:

وفي ذاك لِلمُؤْتسِيْ أُسْوَةٌ ... وَمَأْرِبُ عَفّى عَلَيْه العَرِم
رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَرٌ ... إذا جاء مَوَّارهُ لم يُرِم
فأروى الزروع وَأَعْنابَهَا ... عَلَى سَعَةٍ مَاؤهُمْ إِذْ قُسِمْ
فَصَارُوا أَيَادِيَ ما يقْدرون ... عَلَى شُرْبِ طِفْلٍ إذا مَا فُطِمْ[1]

هذه التفصيلات في قصة سبأ وتدمير السدّ وهجرة القوم، نوردها لا لاعتمادنا لها وقبولنا لما جاءَ فيها، فنحن متوقفون فيها، لا نقول فيها شيئاً، لا بنفي أو إثبات، ونريد من القارئ أن يتوقف فيها أيضاً، فلا يقبلها ولا يرفضها.

○ ملكة سبأ في سورة النمل:

وقبل أن ندخل في تفصيلات آيات قصة سبأ، كما وردت في سورة سبأ، نقف قليلاً أمام آيات من سورة النمل، تحدثت عن قصة ملكة سبأ، وما جرى بينها وبين نبيّ الله سليمان عليه السلام:

---

(١) انظر: هذه الأخبار والتفصيلات في: البداية والنهاية ٢: ١٥٨ - ١٦٢ وتفسير ابن كثير ٣: ٥٣٠ - ٥٣٥ والدر المنثور للسيوطي ٦: ٦٨٦ - ٦٩١.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٤٤].

○ بعض دلالات الآيات:

١ ـ حُكم سليمان ﵇ للأنس والجن والطير، وإخضاعُها له، وانقيادها لأمره، حيث كان الطير في جيشه.

٢ ـ اهتمام سليمان عليه السلام بجنوده، ولو كانوا من الطير، كما ظهر في تفقده للطير.

٣ ـ حزْم الحاكم تجاه جنوده، حتى لا يكون التسيّب والفوضى، حيث هدّد سليمان الهدهد، لغيابه عن الجيش بدون عذر.

٤ ـ جواز إيقاع العقوبة في الجندي المقصّر المتخلف غير المنضبط. لقول سليمان: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾.

٥ ـ عدل الحاكم مع رعيّته، وسماحه للمقصّر بالدفاع عن نفسه، وتقديم بيناته، لقول سليمان: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

٦ ـ جرأة المسلم وشجاعته، وإقدامه وعزّته، فبما أنه على الحق فلماذا يضعف أو يذل أو يهون أو يجبن؟ فالهدهد جاء سليمان، وخاطبه بعزّة وثبات، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

٧ ـ كل فرد في المجتمع الإسلامي، حريص على مصلحة هذا المجتمع، ومجنّد لخدمته، وساعٍ من أجله، فالهدهد ذهب إلى سبأ، ليقدّم من هناك أخباراً ومعلومات لمصلَحة وخدمة مجتمعه، في جيش سليمان.

٨ ـ إن الحاكم قد لا يُلم بالأمور كلها، بل إنه لا يلم بها كلها قطعاً، ولا يحيط بها علماً، ولهذا يسمع من الآخرين، ويقبل منهم ما يقدّمونه، ويأخذ منهم ما غاب عنه. فها هو الهدهد يقول لسليمان النبيّ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾.

٩ ـ وجوب أن تكون الأخبار والمعلومات التي يقدمها المسلم لولي الأمر، صادقة صحيحة بيّنة، وأن يتأكد منها، ويتثبت منها قبل تقديمها، لقول الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

١٠ ـ كان الهدهد موفَّقاً في استكشافه سبأ، ذكياً في اطلاعه على مظاهر قوّتها، بليغاً في تقديم تقريره الصادق عنها. حيث ذكر فيه خلاصةَ واقِعها: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

١١ ـ حاكمة سبأ كانت امرأة. ونقل كثيرون أن اسمها كان «بلقيس».

لكن هذا لم يُنقل بحديث صحيح، ولهذا فنحن نتوقف فيه، فلا نقول به ولا نردّه، ونتعامل معه كما نتعامل مع باقي «مبهمات القرآن».

١٢ ـ إيجاز الهدهد في وصفه قوة ملكة سَبَأ، في قولِهِ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ولعل هذا الشيء كان شاملاً لكل مظاهر وألوان وأنواع الخير والرزق والقوة والتمكين، فقد منحها الله من كل شيء طرفاً، سواء كان في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، حيث أوتيت من كل شيء في الرزق والأشجار والخضار والثمار والمياه والأمطار والأموال والبنين والرخاء والأمن والاستقرار والقوّة والسلطان. . . والعرش العظيم.

١٣ ـ اهتمام الهدهد بمعرفة دين ملكة سبأ وقومها، حيث رآهم يسجدون للشمس من دون الله، وفي هذا تقرير أنّهم كانوا يعبدون الشمس.

١٤ ـ غيرةُ الهدهد على التوحيد والإِيمان، ولذلك أنكر على قوم سبأ سجودهم للشمس من دون الله، وتعجب من عدم سجودهم لله الذي يخرج الخَبْءَ في السموات والأرض، ويعلم ما يفعله كل النّاس، فهو وحده رب العالمين، رب العرش العظيم.

لقد كان الهدهد داعيةً إلى الإِيمان، محارباً للشرك والكفر، صاحب حسٍ إيماني، وغيرة دينية.

والمسلمون أوْلى من الهدهد بذلك الموقف والحس، وتلك الغيرة الواعية، لأن الله أمرهم بذلك في القرآن، وكلّفهم القيام به.

١٥ ـ كل مخلوق يفهم الأمر من الزاوية التي تهمّه، وينظر له بالمنظار الذي يعنيه، وعلى الصورة التي تبدو له.

فها هو الهدهد يتعرف على الله من خلال حاجاته هو، واهتماماته هو، فالله بالنسبة له هو الذي يخرج الخَبْءَ في السموات والأرض. والخبءُ هو الحب المخبوء في باطن الأرض، الذي يهتم به كباقي الطيور، ويبحث عنه في منقاره، وهو يعلم أن الله هو الذي يخرجه له ويقدمه له، وما منقاره إلّا وسيلةٌ وسبب ظاهري فقط.

١٦ ـ لعل الحكمة من ذكر عرش الله العظيم، هو الدعوة إلى عدم اغترار الناس بمظاهر الحياة الدنيا، وتواضعِهم عند حصولهم على بعضها، فإذا كانت ملكة سبأ تملك عرشاً عظيماً، فهذا لا يساوي شيئاً في الحقيقة، فإن الله القويّ الغنيّ هو رب العرش العظيم. وأين عرش ملكة سبأ من عرش الله؟ وماذا تساوي عظمته بالقياس إلى عظمة عرش الله؟.

١٧ ـ وجوب تأكد الحاكم من صحّة الكلام الذي يقدَّم له، وعدم قبوله مباشرة، فقد لا يكون صاحبه صادقاً، ولو كان صادقاً فقد لا يكون متأكداً مما يقول. فسليمان عليه السلام قال للهدهد بعد أن سمع كلامه: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

١٨ ـ كان الهدهد موفَداً خاصاً من سليمان لملكة سبأ، حيث حمل كتابه إليها، لقد كان الهدهد يتحرك لدعوته، ويحرص على نشر دينه، فإذا كان الطير غير المكلّف بذلك يحرص على القيام به، فكيف بالمسلم الذي كلّفه الله بذلك، وأمَره أن يقوم به؟.

١٩ ـ أمَر سليمان الهدهد بالحذر عند إيصال الكتاب، والحرصِ على أن لا يُكتشف أمرُه: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾. يلقيه إليهم، ثم يبتعد عنهم قليلاً، ويراقب الأمر عن كثب، فيرى ماذا يفعلون، وينظر ماذا يرجعون.

٢٠ ـ وصفت الملكة كتاب سليمان بأنّه كريم: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ ولعل الحكمة من ذلك هي كون الملكة عارفة بسليمان سامعةً به، مطلعةً على قوته وسلطانه. كما أن هذا الوصف يشير إلى وعي الملكة وذكائها، وحسن تلقيها لكتب الملوك.

٢١ ـ قرأت الملكة على قومها، نص كتاب سليمان:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وهذا الكتاب من أكثر الكتب اختصاراً بليغاً، وكأنه برقية موجزة، حيث كل كلمة فيه اختيرت بعناية.

٢٢ ـ ورغم اختصار الكتاب، ورغم الحرص على عدم حشوه بالكلمات التي لا داعي لها، فقد أبقى سليمان عليه السلام البسملة، حيث أخذت نصف الكتاب، وهذا يوحي بأهمية البسملة وافتتاح الكتب بها.

٢٣ ـ طلبَ سليمان عليه السلام منهم طلباً محدداً: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، وهذا يدل على هدف سليمان مِنْ فتوحاته وقتاله. إن هدفه هو أن يُسْلِم الناس لله رب العالمين. وما سليمان بجهاده إلَّا داعية لدين الله.

ولعل في هذا رداً على الذين يشوِّهون صورة سليمان، ويعتبرونه حريصاً على الفتح والتوسع واحتلال البلدان واستعمار الآخرين لشهوة الحكم والسلطان.

٢٤ ـ الحُكم في مملكة سبأ كان شوريّاً ـ إذا جاز هذا التعبير ـ فلم تكن الملكة تنفرد باتخاذ القرارات، بل كانت تُشرك كبار دولتها معها، وتستشيرهم في الأمر: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾.

ولعل هذه نقلة بعيدة في نظام الحكم في سبأ في ذلك الزمان السحيق، حيث كانت أنظمة الحكم استبداديَّة فرديَّة مطلَقَة، الحاكم هو الذي يقرر ما شاء، وما على الرعية إلَّا الموافقة والتنفيذ.

لقد كانت سبأ متقدمة في نظام حكمها قليلاً بالقياس إلى زمنها.

٢٥ ـ العجيب أن الملأ في سبأ تنازلوا عن آرائهم وشخصياتهم، ورضوا أن يكونوا مجرد أتْباع للملكة، منفِّذين لما تأمر به، فهي تستشيرهم وتُشركهم معها، وهم يردّون عليها قائلين: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

وهذه طبيعَة الشعوب المستضعَفَة، التي اختارت بإرادتها الاستضعاف، وحرصتْ عليه، فهي ترفض أية دعوة للنهوض والقوة والعزة، وتفضِّل عليها التبعية والذل والاستضعاف.

٢٦ ـ أطلقتْ ملكة سبأ حكمَها على كل الملوك قائلة: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا

دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وهي تعني بذلك ـ أول ما تعني ـ الملك النبي سليمان عليه السلام، وهي بذلك تذمُّه ولا تُثني عليه. وطبعاً كلامها غيرُ صحيح ولا مقبول في حق سليمان عليه السلام.

وبعض الناس يعمِّمون قولَ ملكة سبأ هذا على كل الملوك، ويعتبرون هذه الآية دليلاً على فسادهم وإفسادهم.

وهذا الاستشهادُ بالآية غيرُ دقيق ولا مسلَّم به.

إن الدعوى قد تكون صحيحة، والقضية قد تكون صواباً ـ وهي غالباً كذلك ـ فكل الملوك غير الملتزمين بدين الله حقَّ الالتزام، يحرصون على الفساد والإِفساد واستعْباد الآخرين وإذلالهم وإخضاعهم لهم.

لكن الدليل على ذلك لا يكون من هذه الآية. لأن الآية حَكَتْ كلام ملكة سبأ. وملكةُ سبأ عندما قالته كانت كافرة، وهي تعني به سليمان النبيَّ عليه السلام، وتصفه فيه بالفساد والإِفساد. فكيف نعتمد كلام ملكة كافرة تذم به نبيّاً عادلاً عليه السلام؟.

إن القرآن قد يورد كلام الكفار، من باب الحكاية والإِخبار، وأحياناً يردُّه وينقضه، وأحياناً يسكت عليه. وفي الحالتين كلتيْهما لا يُستدل بذلك الكلام على قضية ما، لأن القرآن أورده وحكاه. إن أقوال الكفار التي حكاها القرآن لا تُعتمد، ولا يُستدل بها إلّا إذا اعتمدها القرآن نفسه.

فكلام ملكة سبأ ليس دليلاً على فساد وإفساد الملوك، ولنبحث لهذه الدعوى الصحيحة ـ غالباً ـ عن دليل آخر يدل عليها.

٢٧ ـ لم تَخْتر ملكة سبأ الحربَ مع سليمان، بل اختارت المفاوضات والسلام والمهادنة. ولعل السبب في ذلك هو أن المرأة لا تميل ـ بطبيعتها ـ إلى الحرب والقتال والعنف وسفك الدماء، فإذا ما ملكت المرأة القوم، وَوُوْجِهَتْ بهجوم الأعداء، فإنها ـ غالباً ـ لا ترغب في القتال والمواجهة، وبذلك تُضيع قومها أمام الأعداء.

٢٨ ـ أرادت ملكة سبأ اختبارَ سليمان، ومعرفةَ مدى جدّيته في الدعوة

إلى الإسلام، وهل هو رجل دعوة أو متاجرٌ بالدعوة، ولذلك قدمتْ له المال رشوة، ليكفّ عنها، ويدَعَها مع شركها وكفرها.

٢٩ ـ أطلقتْ ملكة سبأ على المال المقدم لسليمان اسم «هدية» فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾. لكن هل هي هدية فعلاً؟ إنها رشوة لسليمان ليكفَّ عنها، ولكنها أسمت الرشوة هدية. ولقد رد سليمان رشوتها، وقال للرسل: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

واعتُبرتْ تلك الهدية رشوة، لأنها قُدمت لسليمان الحاكم الملك النبي عليه السلام، ومعلومٌ أن هدية الموظف في وظيفته، والوالي في ولايته، رشوةٌ وليست هدية.

ولم تُستعمل كلمة «هدية» في القرآن إلّا بمعنى الرشوة، لأنها لم تُذكر إلّا في هاتين المرَّتين، في قصة سليمان مع ملكة سبأ!.

٣٠ ـ استعلاء سليمان عليه السلام على إغراء المال، وقطعُه طريق المفاوضة والمهادنة، وعدمُ إضاعته الوقت في الرسل والمبعوثين، يجعله قدوةً للحكام المسلمين في مواجهتهم للأعداء.

لما جاء الرسُل سليمان ومعهم هداياهم، قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

٣١ ـ ونلحظ إشارة أخرى من هذه اللقطة في القصة، فالأعداء حريصون على إضاعة وقت الأمة في المفاوضات، وإشغالها بالتوافه والسفاسف عن الأمور الأساسية الهامة. كما فعلتْ ملكة سبأ عندما بعثت الرسُل بالهدايا لسليمان، لتدخله في المفاوضات والمهادنات.

وعلى «ولاة الأمر» في الأمة أن يفطنوا لهدف الأعداء الخبيث، وأن يفوّتوا عليهم غرضهم، ولا ينشغلوا بما يقدمونه لهم عن هدفهم الأساسي.

٣٢ ـ كان للموقف الحازم الحاسم الجازم لسليمان أثرُه المباشر على الخصم، حيث استسلمتْ ملكةُ سبأ لسلطانه، وأدرك سليمان ذلك، وأراد أن يقدّم لها أدلة أخرى على ضعفها وهزيمتها.

وعندما تمر الأمة بضائقة أو مشكلة، وعندما تواجه تحدياً خطيراً يتهدد وجودَها وحياتها، فهي مطالبة بوقفة حازمة، وعلى «ولاة الأمر» فيها ـ الذين بيدهم القرار والحكم ـ أن يواجهوا الأعداء بجزم وحزم وحسم، وأن يتعاملوا مع الخطر بجليَّة وصدق وتجرُّد.

٣٣ ـ أراد سليمان إحضارَ عرشها العظيم الذي تتباهى به، ليريها ضعفها أمامه، وهزيمتها أمام قوته.

٣٤ ـ أجرى سليمان ﷺ تنافساً أمام خاصته والمقرَّبين إليه، وقال لهم: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وتفاوتت قواتهم وطاقاتهم وقدراتهم.

ووجد سليمان نفسه أمامه عَرْضين:

العرض الأول: قدَّمه عفريت من الجن: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

العرض الثاني: قدَّمه الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾.

٣٥ ـ وفي هذا الأمر نجد التفصيلات مبهمة، حيث لم يذكر القرآن ولا الحديثُ الصحيح عنها شيئاً. فلا يجوز لنا أن نحاول بيان تلك المبهمات، أو الخوض في تلك التفصيلات. والذهاب في بيانها إلى الإسرائيليات.

لا ندري اسم العفريت من الجن، ولا كيف سيقدِّم العرش قبل قيام سليمان من مقامه.

ولا ندري اسمَ الذي عنده عِلمٌ من الكتاب، ولا وظيفتَه عند سليمان، ولا العلمَ الذي معه، ولا كيف سيقدِّم العرش لسليمان قبل أن يفتح عينيه.

لا تهمنا معرفةُ ذلك، لأنها لا تُرتِّب فائدةً أو علماً.

٣٦ ـ في إحضار العرش لسليمان كرامةٌ للذي عنده علمٌ من الكتاب، ومعجزةٌ لسليمان عليه السلام، ومظهرٌ لقدرة الله القادرة، وانتصارٌ للحق، وهزيمةٌ للباطل الذي تمثله ملكة سبأ.

٣٧ ـ ماذا قال سليمان لما رأى العرش مستقراً عنده؟ ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

إنه لم يغترَّ بالقوة، ولم يكن في تيهٍ وبَطَر وَتَكَبُّر وفساد، بل كان متواضعاً أمام قوة الله، ذاكراً له، شاكراً لفضله.

وهو في هذا الموقف قدوةٌ للحكام والولاة في تصرفهم أمام قوتهم وانتصارهم.

٣٨ ـ أراد سليمان أن يقدِّم لملكة سبأ مفاجآتٍ، الهدفُ منها إظهارُ ضعْفها وخطئها وجهلها. وهذه المفاجآت هي:

أ ـ إحضار العرش من سبأ، بعد خروجها إلى سليمان، ووضْعُه أمامها عند دخولها عليه.

ب ـ تنكيرُ العرش بتغيير بعض معالمه البسيطة: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

جـ ـ وضعُ صرْحٍ أمامها لتمرَّ عليه وتعبره، حيث بنى لها ممرّاً زجاجياً، ويبدو أن الماء كان تحته. ليوهمها أنها ستدخل الماء.

٣٩ ـ كانت ملكة سبأ ذكية أمام السؤال عن العرش، حيث قيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾.

فلما رأته لم تجزم بأنه ليس هو، لأنه يشبهه تماماً! ولم تُثبت أنه هو، لأنها تركتْه وراءها، فما الذي جاء به ووضعه أمامها: فوقعتْ في حيرة، أنقذها منها ذكاؤُها وعقلها. فأجابت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾.

وهذا الجواب لتحفظ خطَّ الرجعة، فهي لم تنفِ ولم تُثبت.

٤٠ ـ لما ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾، أيْ ماءً، فكشفتْ عن ساقيْهَا بأن رفعت ثوبها قليلاً، استعداداً لخوض اللجة، فاعتُبرت تلك الحركة منها سذاجة، فتهكموا عليها وسخروا منها، وقالوا: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾، أيْ إنه بناء من زجاج شفّاف أملس.

وقد ذكر دعاةُ الغرائب والإسرائيليات، تعليلاً عجيباً لكشفها عن ساقيْها، حيث زعموا أن ملكة سبأ ـ التي أطلقوا عليها بلقيس ـ كانت أمُّها من الجن، ولهذا كانت تملك رِجْلين كأرجل الجن، وكانتا تُشبهان أرجلَ الغَنَم، وأراد سليمان أن يتأكد من ذلك، فأعدّ لها الصرح الممرَّد من قوارير، فلما رأى ساقيها رآهما ساقيْن بشريتيْن جميلتيْن! ولا يجوز أن نفسِّر القرآن بتلك الغرائب والأباطيل.

٤١ ـ أدركت ملكةُ سبأ خطأها، وعرفتْ أنها لا تملك شيئاً بالقياس إلى قوة سليمان، وأنها عاجزةٌ عن مقاومته، كما أدركت أنها على باطل لأنها مشركة بالله، وأن سليمان على حق، وأن دينه هو الصواب، وقذف الله الإيمان في قلبها، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٤٢ ـ وتسكت آيات القرآن عن ما جرى بين ملكة سبأ وسليمان بعد ذلك، ولذلك تبقى أسئلةٌ عنه بدون جواب يقينيّ، مثل: هل تزوّجها أم لا؟ وهل أقامت في مملكته أم عادت لسبأ؟ وهل أسلم قومُها معها ودخلوا في دين سليمان؟ وهل سليمان مَلَكَ اليمن أم لا؟ وكيف كانت الصلةُ بين بني إسرائيل وبين سبأ بعد موت سليمان وموت ملكة سبأ؟.

هذه أسئلة لا جواب عليها، لأن المصادر اليقينية الصحيحة لم تتحدث عنها، ولذلك يجب أن نتوقف عند تلك المصادر، ولا يجوز أن نذهب إلى الإسرائيليات والأباطيل والأساطير لنأخذ منها الجواب.

لقد كانت خاتمة قصة سليمان مع ملكة سبأ في سورة النمل، خاتمةً إيمانيةً دعويةً مقصودةً، حيث كان آخرُ لقطاتها دخولَ ملكةِ سبأ في دين الله، ونبذَها الشرك والكفر، وإسلامهَا مع سليمان النبي الداعية لله رب العالمين.

وهذه الخاتمة تشير إلى الهدف من عرض القصة، **وهو دعوة الدعاة للاقتداء بالداعية النبيِّ القوي سليمان ﷺ، وجعْل الدعْوَةِ لَهَا هَدَفٌ، وهو أن يتوجه المدعوون إلى الإسلام، وأن يلتزموا به عملياً.**

○ خلاصة قصة سليمان مع ملكة سبأ:

نستخلص في نهاية كلامنا الموجز عن قصة سليمان مع ملكة سبأ: أن سبأ زمن ملكتهم وصلوا إلى مرحلة متقدِّمة من القوة والغِنى والرفاه والنعم، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ بهذا العموم والشمول، وأن ملكتهم كانت تشاور قومها في حكمها، ولكن القوم كانوا أتباعاً لها منفّذين لتوجيهاتها، وأن سليمان لما علم بها عن طريق الهدهد، دعاها إلى الإيمان، وأعدَّ لها مفاجآت عرَفت منها ضعفَها وعجزَها وجهلَها؛ وأيقنَتْ قوته وتقدمه، وعزَتْ هذا إلى دينه الصحيح، فدخلت فيه، وأسلمت لله رب العالمين.

○ سياق القصة في سورة سبأ:

نعود الآن إلى سورة سبأ، لنقف منها على دلالاتٍ وعبرٍ وعظات. ونبدأ ذلك بالنظر في السياق الذي وردت فيه قصة سبأ.

لقد سبقها الحديث عن داود وابنه سليمان عليهما السلام باعتبارهما مَلكين عادلَيْن مؤمنَيْن شاكرَيْن. ثم ذكر قصة سبأ نموذجاً للكفر والبغي والبطر.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب عن السياق، وعن ربط القصة بما ورد عنها في سورة النمل: «وفي قصة آل داود تُعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله، وحسن التصرف في نعمائه. والصفحة المقابلة هي صفحة سبأ.

وقد مضى في سورة النمل ما كان بين مَلكتهم وبين سليمان من قصص.

وهنا يجيء نبؤُهم بعد قصة سليمان. مما يوحي بأن الأحداث التي تضمنُها وقعت بعدما كان بينها وبين سليمان من خبر.

يرجِّح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقِهم بعد ذلك، وتمزُّقِهم كل ممزق. وهم كانوا على عهد الملكة التي جاء نبؤها في سورة النمل مع سليمان في مُلك عظيم، وفي خير عميم، ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وقد أعقب ذلك إسلامُ الملكة مع سليمان لله رب العالمين.

فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله، وتحكي ما حلّ بهم بعد إعراضهم عن شكره وعلى ما كانوا فيه من نعيم»[١].

○ حديث صحيح عن سبأ:

عن ابن عباس ﵄ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو؟؟ أَرَجُلٌ أم امرأة أم أرض؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: بل هو رجل وَلَدَ عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة فأما **اليمانيُّون**: فَمُذْحِجٌ وكندةُ والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، عَرَباً كلها وأما الشامية: فَلَخَمٌ وَجُذَامُ وعاملة وغسان»[٢].

قال ابن كثير في معنى الحديث: «ومعنى قوله ﷺ: «ولد له عشرة من العرب»: أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم وُلدوا من صلْبه. بل منهم من بيْنه وبينه الأَبَوَان والثلاثة والأقل والأكثر.

ومعنى قوله: «فتيامنَ منهم ستة وتشاءم أربعة»: أي بعدما أرسل الله عليهم سيل العَرِم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها»[٣].

○ سبأ آية:

قال الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾.

والآية هي العلامة الظاهرة، والدلالة الواضحة، والعبرة البالغة.

ووجْه كونها آية، أن الله أنعم عليهم نعماً كثيرة غامرة، وطالبهم بعبادته وشكره، ولكنهم أبوا ذلك، وكفروا وطغوْا وبغوْا، فأوقع الله بهم عذابه، وحقت عليهم كلمته، وحلت بهم سنته، فزالت النعم عنهم.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٠٠.

(٢) رواه أحمد والطبراني والحاكم وقال عنه ابن كثير: إن إسناده حسن. وقال أحمد شاكر في تحقيق أحاديث ابن عباس في مسند أحمد: إسناده صحيح.
انظر: مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٤: ٣٢٢ حديث رقم ٢٩٠٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٣: ٥٣٢.

وبذلك اعتُبروا نموذجاً عملياً واقعياً لكل من تمرد على أوامر الله، واستخدم نعم الله على غير وجهها.

إن القرآن يحذِّر الناس ـ وبخاصة الذين ينعم الله عليهم بالثراء والغنى ـ أن يسلكوا سبيل قوم سبأ، وأن يكونوا مثلهم، حتى لا يحل بهم ما حلّ بأولئك القوم.

لقد كان فيهم آية، لكن مَن هم الذين يستفيدون منها؟ ويعتبرون بها؟ إنهم المؤمنون أولو الألباب، أصحاب القلوب الحية، والنظراتِ النافذة.

أمَّا عبيد المال والهوى والشهوة فلا يَعتبرون ولا يتَّعظون، إنهم لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل. ولذلك ترى هؤلاء لا يلتفتون لآيات الله، فكم من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون!.

○ نعم الله على سبأ:

لم يفصِّل القرآن النعم الغامرة التي منحها الله لسبأ، وإنما عَرَضها بجملة موجزة: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾.

هي جملة واحدة، نَعَم، لكنها جملة معجزة مصوِّرة، تقدِّم للقارئ صورة فنية لتلك النعم، وتُلقي ظلَّ الكثرة فِيهَا، وهي بذلك تغني عن كل شرح وتفصيل.

إن النعم الربانية تمثلت في جنتيْن وارفتيْن، واحدة عن اليمين، والثانية عن الشمال: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾.

وهما رمز الخصْب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل.

وماذا يريد الإنسان في الدنيا أكثر من أن يسير وسط جنات غنَّاءٍ، عن يمينه وعن شماله؟.

واختيار كلمة جنة يوحي بما منحهم الله من غنى ونِعم ووفرة وثمار.

وهذا ناتج عن الماء الذي ألهمهم حسْن حبسه وتصريفه واستغلاله، فعندما تحكموا به أنشأوا من ذلك جنتين وارفتين.

○ جنة الكفار في الدنيا زائلة:

أطلق القرآن على نِعَم الكفار في الدنيا، لفظ: جنة أو جنتين، أو جنات، وذلك أنهم يَعتبرون ما هم فيه من النعيم هو الجنة المطلوبة، ولا يؤمنون بوجود جنة تساوي جنتهم فضلاً عن أن تفضُلها.

والملاحظ أن القرآن كان يذكر زوال تلك النِعَم عن الكفار، وتدمير جنتهم، وإزالتها عن الأرض.

١ ـ **فها هم قوم سبأ**: أنعم الله عليهم بجنتين عن يمين وشمال، ولما كفروا وطغوا وأعرضوا، أبدلهم الله بهما جنتيْن ذواتي أُكلٍ خمط وأثل وشيء من سدر قليل.

٢ ـ **وها هو صاحب الجنتيْن** في سورة الكهف، إذ جعل الله له: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٣].

ثم ماذا حصل بعد كفره وبطره وغروره؟ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾ [الكهف: ٤٢].

٣ ـ **وها هم أصحاب الجنة** في سورة القلم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٠].

٤ ـ **وها هم قوم فرعون**، لما استجابوا لفرعون وحاربوا موسى عليه السلام، ولحقوا به، أغرقهم الله مع فرعون: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩].

٥ ـ **وها هو هود** عليه السلام يحذر قومه من زوال الجنات عنهم: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٥]. فَلَما كفروا أهلكهم الله، وأزال جنّاتهم وعيونهم.

٦ ـ **وها هو صالح** عليه السلام، يقدِّم نفس التحذير لثمود: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ

ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٠].

٧ ـ ويحذر القرآن كلَّ مَنْ كفر وطغى واستخدم نعمة الله في الفساد، بزوالِ جنته واحتراقها: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦].

كل جنات الكفار في الدنيا إلى تدمير وزوال. هذه هي سنَّة الله!.

○ كلوا واشكروا:

قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾.

وهذا الأمر نتيجة لإنعام الله عليهم، وثمرة من ثمار الجنتين. فالأكل مقصود من إنشاء البساتين، وزرْع الأشجار والزروع.

وعندما ننظر في فِعْلَي الأمر: «كلوا، واشكروا» فإننا نلحظ بعض الإيحاءات والإشارات:

١ ـ الأمر بالأكل للإباحة وليس للوجوب.

٢ ـ من: للتبعيض: أي كلوا بعض رزق ربّكم، ولعل في هذا إشارة إلى التقليل من الطعام، وأكْل بعضه لا كلّه، فالمقصود من الأكل هو سد حاجات الجسم، والإنسان يأكل حتى يصل إلى الاكتفاء وليس الامتلاء.

٣ ـ إضافة الرزق إلى الرب لمعنى إيماني وتربوي. وهذه الإضافة للتخصيص، فالرزق هو من عند الله وحده، ولا يجوز نسبته لغير الله، إلّا من باب السببية، على اعتباره سبباً ماديّاً له، أمّا المسبِّب الرازق فهو الله.

٤ ـ اختيار كلمة الرب في السياق مقصود، فالله هو المربّي، يربّي عباده وعبيده بالنعمة، فيمنحها لهم ليعبدوه ويشكروه.

٥ ـ عطف الأمر بالشكر على الأمر بالأكل، على اعتبار الشكر لله ثمرةً من

ثمار أكل رزقه، ونتيجة لذلك الأكل، وشرطاً للانتفاع بالأكل، ودوام ذلك الرزق، بل قل: إن شكر الله هو ثمن ذلك الأكل، إن الله يريد من الآكل أن يدفع ثمن ما يأكل، وهو شكره لله على نعمه.

٦ ـ إن شكر الله الرزاق المنعم دليل على الخير والبر والإيمان عند المؤمن، ودليل على السماحة والأريحية والبذل والكرم والعطاء. وإذا لم يشكر الإنسان ربّه المنعم على ما رزقه، فهذا دليل على بخله وكنوده وجحوده وضلاله.

٧ ـ وهناك إشارة أخرى من عطف الشكر على الأكل، وهي أن شكر الله المنعم سبب لاستمرار الرزق، والزيادة منه، والتمتع بالأكل منه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وعدم شكر الله سببٌ لزوال النعمة، وقطعِ الأرزاق، والحرمانِ من الأكل، كما حصل مع قوم سبأ.

ومعلوم أن شكر الله لا يكون باللسان فقط، بل هو بالكيان كله، باللسان والعقل والقلب والخيال والجوارح. ثم هو شكر عملي يتجلّى في استخدام تلك النِعَم في طاعة الله ونفع عباده.

٨ ـ أمّا تعدية الشكر باللام في قوله: «واشكروا له» ولم يقل «واشكروه» فلأنّ اللام هي لام «التقوية» من حيث اللغة، لأنها قوّتْ وصول الفعل للمفعول به، والضميرُ بعدها، مجرور لفظاً منصوب محلاً.

وهذه اللام يمكن أن تُسمّى «لام الإخلاص» أي أن الشكر لا يكون إلّا لله، والشاكر مخلص لله بشكره.

وكذلك يمكن أن تُسمّى هذه اللام «لام الاستعانة» لأن الشاكر يشكر الله من خلال رزقه ونعمه عليه، فيستخدم ذلك الرزق في طاعة الله، ويستعين به على عبادته.

وغالب أفعال الشكر في القرآن تتعدى باللام: لام التقوية والاستعانة والإخلاص. ـ والله أعلم ـ.

○ فأعرضوا فأرسلنا:

أمر الله قوم سبأ بالأكل من رزقه، كما أمرهم بشكره، وأشار إلى أن بلدتهم طيّبة، وأنّه غفور: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾.

وأصل الطيّب ـ كما يقول الإمام الراغب ـ هو:

«ما تستلذّه الحواس، وما تستلذّهُ النفس.

والطعام الطيب في الشرع: ما كان متناوَلاً من حيث ما يَجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طيّباً عاجلاً وآجلاً لا يُسْتَوْخَمْ، وإلّا فإنّه وإن كان طيباً عاجلاً لم يَطب آجلاً»[1].

لكن ماذا فعل قوم سبأ؟ وكيف تصرّفُوا بنعم الله؟.

لقد أعرضوا. أي كفروا بالله، ورفضوا عبادته وشكره، وتولّوا عن طاعته، وآثروا الهوى والشهوات، واتبعوا الشياطين، واستخدموا نعم الله في معصيته.

وبذلك حقت عليهم سنّة الله، فما من أمّة تكفر بالله، وتستخدم نعمه في الكفر والفساد، إلّا ويحل بها عذاب الله، فيسلبها النعم، ويوقع بها الهلاك.

وجاءهم عذاب الله سريعاً، كما توحي بذلك «الفاء» ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ والفاء هي للترتيب مع التعقيب الفوري.

إن في هذه الجملة ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ لسنّة ربانية دائمة، لا تختلف ولا تتبدل، تحكم البشرية كلها أينما كانت.

إن الإعراض عن شرع الله ودينه، يعقبه عذاب الله وانتقامه، وإن هذا الإعراض هو طريق للهلاك والدمار.

وآيات كثيرة تقرر هذه السنّة الربّانيّة، أكتفي منها بهذه الآية: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

○ هلاك سبأ بما كان نعمة عليهم: سيل العَرِم:

أهلك الله سبأ بالماء ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾.

---

(١) المفردات: ٣٠٨.

وسيلُ العَرِم: هو سدّ «مأرب» الذي كان يحجز الماء عنهم، فنقضه الله، وأرسل الماء من ورائه سيلاً جارفاً عارماً، عم جنّاتهم فأتى عليها وأهلكها.

قال الراغب في معنى العَرِم: «العرامة: شراسة وصعوبة في الخُلُق، وتظهر في الفعل.

يقال: عَرَم فلان فهو عارم، وعَرِم تخلق بذلك.

وقوله: «سيل العرم» أراد سَيْلَ الأمر العرم»[1].

ويلحظ المؤمن البصير طرفاً من آيات الله في إهلاكهم، حيث أهلكهم بالماء وبالسد وبالسيل. لقد أنعم الله عليهم بالماء، وجعله وسيلة للرفاه والخصب والتقدم والرقيّ عندهم، وأرشدهم إلى حسن استغلاله والتصرف فيه، وطالبهم مقابل ذلك بشكره.

فلما أعرضوا حوّل نعمته عليهم إلى نقمة، وخيْره إلى عذاب، إن الأمر بقي لم يتغير، لكن أثرَه فيهم هو الذي تغيّر، لأن الله أراد أن يحوّله إلى الطرف الآخر، جزاء بغيهم وكفرهم.

الماء كان نعمة، أنشؤوا به الجنّات، وحجزوه خلف السد، وعاشوا به سعداء.

والماء نفسه جعله الله نقمة وعذاباً، فأرسل عليهم سيلاً عرماً من خلف السد، وكان بهذا الماء تدمير جنّاتهم، وهلاك مزروعاتهم.

وهذا من آيات الله، بالماء تنشأ لهم الجنّات، ثم بالماء نفسه، تدمّر تلك الجنّات، بالماء عاشوا أغنياء وسعداء، وبالماء نفسه ذلّوا وافتقروا.

لعل هذا درس للأمم، التي منحها الله النعم، أن تعبد الله وتشكره، لتُبْقي على تلك النعم نعماً، وإلا فإن النعم نفسها تتغير إلى نِقَمْ.

وكم من الناس مَنْ تتحول نعمته بكفره وفساده إلى نقمة وعذاب! وكم من أمّة شقيتْ بما كان المأمول به سعادتها! وصدق الله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ

(١) المفردات: ٣٣٢.

أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

○ البديل المرّ:

بعدما أرسل الله عليهم سيل العَرِم، وأهلك جنّتَيْهم، أشار القرآن إلى البديل المرّ الذي كَانَ لَهُمْ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

الجنّتان بقيتا جنّتين من حيث الظاهر لا من حيث الحقيقة، إذ ذهبت أشجارهما وثمارهما، وأنبت الله مكان تلك الأشجار أشجاراً صحراوية مرّة شائكة، ضعيفة عاجزة ذاوية. منها أشجار كلّها شوك، وثمرها أُكُلُهُ خَمْط: أي مُرّ شائِه كريه.

قال الراغب في معنى خمط: «تخمّطَ: إذا غضب، يقال: تَخَمّطَ الفحل: هَدَرَ»[١].

وهذا معنى لطيف، أي: كأنَّ هذا الشجر البديل الجديد، غضب على قوم سبأ لكفرهم وبغيهم، فأخرج لهم أكلاً نحساً خمطاً مرّاً شائهاً. أي كأن الأشجار تغضب من الكفار، وتسخط عليهم، وتقدّم لهم ما يليق بهم.

ومنها أشجارُ أَثْل: وهو شجر صحراوي اسمه الطّرفاء، سريع الاشتعال، تشتعل به النار ولو كان أخضر طريّاً.

وقال الراغب في معناها: «أثل: ثابت الأصل، وشجر متأثّل ثابت لثبوته»[٢].

ومنها أشجار السِّدْر: وثمرها قليل لا غناء له، صغير لا يكاد يكفي، وهو المسمّى بشجر «النَّبَق».

وقال الراغب في معناها: «السِّدْر: شجر قليل الغناء عند الأكل»[٣].

---

(١) المفردات: ١٥٩.
(٢) المفردات: ١٠.
(٣) المرجع السابق: ٢٢٧.

هذا هو البديل الذي أخذوه، وشتان بين ما كانوا فيه من رغد ونعيم، وبين ما صاروا إليه من بؤس وعذاب وفقر.

قال الإمام ابن كثير: «فهذا الذي صار أمر تينك الجنّتين إليه، بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظِّلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلّت إلى شجر الأراك والطَّرفاء، والسِّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل»[1].

وقال الأستاذ الإمام سيد قطب: «أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح، والتصرّف الحميد، فيما أنعم الله عليهم، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه، وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه وهي الحجارة لشدّة تدفقه، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك، فجفت واحترقت، وتبدلّت تلك الجنان الفيحُ صحراء، تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة»[2].

○ جزاؤهم ببغيهم وكفرهم:

وَعَلى أنقاض سد مأرب، وعلى آثار التدمير والهلاك، وقف القرآن يعقّب ويبين الحكمة مما جرى لسبأ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾.

جزيناهم من الجزاء. وقال الراغب عنه: الجزاء: الغَناء والكِفاية. والجزاء ما فيه الكفاية. من المقابلة. إنْ خيْراً فخيْر. وإن شراً فشر. يقال: جزيته كذا، وجزيته بكذا.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨].

وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠].

ويقال: جزيته بكذا، وجازيته بكذا.

ولم يجئ في القرآن إلّا جَزَى دون جازى. وذلك أن المُجَازَاةَ هي المكافأة، وهي المقابلة من كل واحد من الرجُلين، والمكافأة هي مقابلة نعمة بمثلها، هي كفؤها.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٥٣٣.

(٢) الظلال ٥: ٢٩٠١.

ونعمةُ الله ليست من ذلك، ولهذا لا يُستعمل لفظ المكافأة في الله»[1].

والجزاء هنا معناه العقاب، أي عاقبناهم ببغيهم.

والباء في قوله: «بما كفروا» هي باء السببيّة. أي عاقبناهم وعذّبْناهم بسبب بغيهم وكفرهم، ومعلوم أن ما بعد باء السببية سبب في حصول ما قبلها، أو أن ما بعدها طريق وسبيل لوقوع ما قبلها.

قال تعالى عن الكفّار في النار: ﴿لِلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبأ: ٢٢ ـ ٢٨].

إن القرآن يعلل ما وقع لقوم سبأ، ويبين الحكمة منه، وهو حريص على بيان العدل في أفعال الله، وإظهاره أمام الناس، حتى لا يوسوس لهم الشيطان بشبهة ظلم من الله لعباده سبحانه.

ولذلك يبّين أن الله عاقبهم بسبب بغيهم، وأوقع بهم نتيجة كفرهم. والجزاء من جنس العمل، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وباءُ السببيّة «جزيناهم ببغيهم» تشير إلى سنّة ربّانيّة قاطعة، وهي أنّ كل مَنْ فعل ما بعدها من خير أو شر، فإن الله يعطيه أو يوقع به، ما قبلها من ثواب أو عقاب، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل.

○ وهل نجازي إلّا الكَفور:

تساءل القرآن أثناء تعقيبه على ما جرى لسبأ بقوله: وهل نُجازي إلّا الكَفور.

والاستفهام هنا تقريري، حيث يقرر أنّ الله لا يجازي إلّا الكفور.

ومعنى المجازاة هنا المعاقبة والتعذيب، لأن عقاب الله وعذابه لا يحل إلّا بالكافر الكَفور. أمّا الشاكر المطيع فهو في منجاة عن العقاب.

قال الإمام الراغب في التفريق بين الكفر والكفران والكَفور:

---

(١) المفردات: ٩٣.

«الكفر في الحقيقة ستر الشيء.

وكفر النعمة وكفرانها: سَتْرُهَا بترك أداء شكرها.

وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوّة.

والكُفران: في جحود النعمة أكثر استعمالاً.

والكُفر: في الدين كثير.

والكُفور: فيهما جميعاً».

هذا من حيث المصدر.

أما من حيث الصيغ المنبثقة منه. فقد فرّق الراغب بين تلك الصيغ في ورودها في القرآن. قال:

«الكافر: على الإطلاق: متعارَف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوّة أو الشريعة أو ثلاثتها.

والكَفور هو المبالغ في كفران النعمة.

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾.

إن قيل: كيف وصَف الإنسانَ ههنا بالكَفور، ولم يرضَ بذلك حتى أدخل عليه الألف واللام للتأكيد.

الجواب: إن هذا تنبيه على ما ينطوي عليه الإنسان من كفران النعمة، وقلّةِ ما يقوم بأداء الشكر. وعلى هذا قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ١٧﴾ [عبس: ١٧].

ولذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

والكَفّار: أبلغ من الكَفور)[١].

ونلاحظ ذكْر القرآنِ للَّفظين المتقابلين في سورة سبأ: الشكور والكفور.

حيث ذكَر الشَّكور في وصْف نبي الله داود عليه السلام وآله، والشَّكور صيغة مبالغة من الشاكر.

---

(١) المفردات: ٤٣٣ ـ ٤٣٤ باختصار.

وذكَر الكَفور في التعقيب على إهلاك جنات سبأ، حيث وصف بها الإنسان السَّبَئِيّ. وهي صيغة مبالغة من الكافر.

كما نلاحظ أنه ختم التعقيب على قصة سبأ، بأن بيَّن الذين يتعظون مما جرى لهم، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. وسوف نرجئ الكلام عنها إلى حين.

○ سبأ لا يعتبرون:

أرسل الله على سبأ السَّيل، ودمَّر جناتهم لعلهم يعتبرون ويتّعِظون، ويرجعون إلى الله، ولكنهم طُمس على عيونهم، وخُتِم على قلوبهم، فلم يتَّعِظُوا ولم يعتبروا: قال تعالى عن ما جرى لهم بعد تدمير السد: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

قال الإمام الأستاذ سيد قطب في تفسير هذه الآيات، وبيان ما جرى لهم بعد تدمير السد:

«وكانوا إلى هذا الوقت، ما يزالون في قراهم وبيوتهم. ضيَّق الله عليهم في الرزق، وبدَّلهم من الرفاهية والنعماء، خشونةً وشدّة، ولكنه لم يمزّقْهم ولم يفرّقْهم.

وكان العمران ما يزال متصلاً بينَهم وبين القرى المباركة: مكة في الجزيرة، وبيت المقدس في الشام. فقد كانت اليمن ما تزال عامرة في شمال بلاد سبأ، ومتصلة بالقرى المباركة، والطريق بينهما عامر مطروق مسْلوك مأمون:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

وقيل: كان المسافر يخرج من قرية، فيدخل في الأخرى قبل دخول الظلام. فكان السَّفَر فيها محدود المسافات، مأموناً على المسافرين. كما

كانت الراحة موفورةً، لتقارب المنازل، وتقارب المحطات في الطريق.

وَغَلَبَتْ الشقوةُ على سبأ، فلم ينفعهم النذير الأول، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله، لعله يرُدُّ عليهم ما ذهب من الرخاء. بل دَعَوْا دَعْوةَ الْحُمق والجهل:

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾.

تطلبوا الأسفارَ البعيدة المدى، التي لا تقع إلّا مَرّات متباعدة على مدار العام. لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل، التي لا تُشبع لذّةَ الرحلات! وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس:

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

واستجيبت دعوتُهم. ولكن كما ينبغي أن تُستجاب دعوةُ البَطِر:

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾.

شُرِّدُوا وَمُزِّقُوا. وتفرّقوا في أنحاء الجزيرة مبدَّدي الشمل، وعادوا أحاديث يرويها الرواة. وقصةً على الألسن والأفواه. بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

يَذكر الصبر إلى جوار الشكر. الصبر في البأساء، والشكر في النعماء. وفي قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء.

هذا فهْم في الآية..

وهناك فهْم آخر: فقد يكون المقصود بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾. أي: قرىً غالبة ذاتُ سلطان. بينما تحوَّل سبأ إلى قوم فقراء، حياتهم صحراوية جافة، وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ومواضِع الماء. فلم يصبروا على الابتلاء، وقالوا: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾. أيْ: قلِّل من أسفارنا فقد تعبنا. ولم يَصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم، وكانوا قد بطروا النعمة، ولم يصبروا للمحنة،

ففعل الله بهم ما فعل، ومزقهم كل ممزق، فأصبحوا أثراً بعد عين، وحديثاً يُروى، وقصّة تُحكى. ويكون التعقيب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، مناسباً لقلّة شكرهم على النعمة، وقلةِ صبرهم على المحنة.

وهو وجْه رأيتُه في الآية. والله أعلم بمراده)[1].

ومع أن الوجه الأول الذي ذكره سيد قطب أوجه وأولى وأقرب وعليه جمهور المفسرين.. إلّا أنّ الوجه الثاني ليس بعيداً.

○ سبأ أصبحوا أحاديث:

أزال الله عن سبأ نعَمه، وأحلَّ بهم بأسه، بسبب ظلمهم وبغيهم وكفرهم.

وبذلك مزَّقَهم الله كل ممزّق، وتحولوا إلى أحاديث: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

والأحاديث جمع حديث، والحديث هو: «كل كلام يبلغ الإنسانَ من جهة السمع أو الوحي، في يقظته أو منامه»[2].

ومعنى كونهم أحاديث ـ كما قال الإمام الراغب ـ أنهم أصبحوا: «أخباراً يُتمَثَّل بهم».

والمفارقة واضحة بين الحالتين:

فرق بعيد بين الحالة الأولى التي كانوا فيها، يعمرون الأرض، ويتنعمون بخيراتها، ويعيشون حياة مرفَّهة، يتناقل الآخرون أخبارهم، ويروون ما هم فيه من رغد ومال وسلطان، ومنزلة ورخاء ونعيم، ويشيدون بهم وبحياتهم.

وبين الحالة الجديدة التي صاروا إليها، في فقر وضنك وعوز وحاجة، ضعافاً متفرقين متمزقين مشتتين.

صار الآخرون يقارنون بين الحالتين، ويقفون على المفارقات بينهما.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٠١ ـ ٢٩٠٢.

(٢) المفردات: ١١٠.

وبذلك تحولت سبأ من قوم كانوا ملء السمع والبصر، إلى قوم زالوا وبادوا، وأصبحوا مضرب الأمثال، وأخبار السابقين، وأحاديث المجالس، وموضوعات السمر.

وصاغ العرب أمثالاً سائرة، منها المثل المشهور «تَفَرَّقوا أَيْدي سَبَأ» الذي أخذوه من الحالة التي صارت إليها سبأ، وصاروا يضربون هذا المثل لكل أمة أو قبيلة تتبدل حالتها من غنىً إلى فقر، ومن عزٍ إلى ذُلٍ، ومن سلطان إلى ضعف، ومن اتفاقٍ وانسجامٍ إلى فرقةٍ وتمزّق.

لكن هل هذه لسبأ خاصة؟ أم هي سنَّة عامة لكل الأمم والأقوام؟.

إنها سنة عامة لكل قوم أينما كانوا، وحيثما وُجدوا. ما من قوم أو أمة أو قبيلة، يبدِّلون نعمة الله كفراً، ويعيشون حياتهم في ظلم وبغي وإفساد وفسوق وانحلال، إلَّا ويسلبهم الله تلك النعم، ويوقع بهم العذاب والهوان، ويزولون من موقع التأثير والإنتاج، وينتقلون إلى زاوية الإهمال والنسيان، ويتحولون إلى مجرد أحاديث للمجالس، وأخبار للرواة.

هذا ما يقرره القرآن، حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤].

والتاريخ البشري كله مظهر لصدق هذه الحقيقة القرآنية، حيث سجَّل ما كانت فيه الأمم متمتعةً بنعم الله، وما صارت إليه بعد كُفرِهَا بنعم الله، وتحوُّلِهَا إلى أحاديث.

أين سبأ؟ وأين عاد وثمود؟ وأين فرعون وهامان وقارون؟ أين الفينيقيون والبابليون والآشوريون والفُرس والهنود؟ أين اليونان والرومان؟ أين المغول والصليبيون؟ أين ألمانيا؟ وبريطانيا العُظمى؟ وأين وأين؟.

جعلهم الله أحاديث، ومزَّقهم كل ممزق، فبعداً لقوم لا يؤمنون!.

في سبأ آيات:

يقرر القرآن أن في قصة سبأ آيات، ذوات دلالات، وعبراً بالغات.

في بداية كلام القرآن عن سبأ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾.

ولما انتهى من ذكر القصة، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾.

والذي يستوقفنا في السياق هو التعبير بالمفرد أولاً ثم بالجمع بعد ذلك: آية وآيات.

ولعل الحكمة من ذلك لها جانبان:

الجانب الأول: تناسبُها مع الموضوع الذي تتحدث عنه، فقوم سبأ عندما عاشوا نعم الله، كانوا سعداء منعَّمين، وكانوا مجتمعين متفقين كأنهم رجل واحد. ولذلك ناسب أن يعبِّر عنهم بالمفرد ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾.

ثم الآية تناسب المسكن، فالمسكن مفرد، والآية مفردة.

أمّا بعد تدمير السد، وتمزيقهم كل ممزَّق، وتشتيتهم في البلاد، فقد تحوّلت الأُمة إلى أمم، والقبيلة إلى قبائل، والمسكن إلى مساكن. ولهذا التقسيم والتفريق ناسب أن يُعبِّر بالجمع، فجعل الآية الواحدة المنطبقة على القوم المجتمعين، آيات عديدة، لتصيب كلٌّ واحدة منها كلَّ تجمُّع لهم، وكلَّ مسكن وكل قبيلة ـ والله أعلم ـ.

الجانب الثاني: أن الآيات تشمل الآية: ففي سبأ آية في تمكين الله للناس، وآية في توفيره الرغد والرخاء للناس، وآية في ظلم الناس وكفرهم وبغيهم، واستخدامهم نِعم ربهم في غير ما يريد الله، وآية في غفلة أناس، وعدم اتعاظهم واعتبارهم مما يجري لهم، وآية في اعتبار أن ما يصيب الناس إنما هو بسبب كسبهم وفعلهم، وآية في نفاذ السنن الربانية وانطباقِها على الناس في كل زمان ومكان، وآية في ترتب النتائج على المقدمات، وآية في انتقام الله من الظالمين، وتعذيبِهِ للكافرين، وأخْذه للمستكبرين المتجبرين، وآية في أن ما يحصل للأمة من رخاء ورغد ورزق إنما هو بفضل الله وكرمه، وأن ما يصيبهم من فقر وجوع وحرمان إنما هو بما كسبته أيديهم، وآية في حسن التعليل والتفسير التاريخي لأسباب نشوء الأمم والأقوام والدول، وأسباب اندثارها وزوالها. وآية في غير ذلك.

ولذلك كان في سبأ آيات. آيات يقف أمامها الناس، ويأخذون منها دلالات وعبراً وعظات.

○ الآيات لكل صبّار شكور:

في قصة سبأ آيات!.

لكن هل كلُّ الناس يدرك تلك الآيات، ويحسن التعامل معها، والفهم عنها، وأخْذ ما توحي به من المعاني والعبر والدروس؟.

صحيح أن الآيات موجَّهةٌ للجميع، وأنها صفحةٌ مفتوحةٌ أمام الجميع، وأنها دعوة خاصة لكل إنسان ليقف أمامها ويعيها.

لكن لا يفهم عنها الغافلون، ولا الكافرون والظالمون، ولا المخدوعون، المعْرضون، الذين قال الله عنهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

يقرر القرآن أنه لا يستفيد من الآيات إلَّا كل صبّار شكور، ولا يفهم عليها ولا يتلقى منها إلّا كل صبّار شكور: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الصَّبّار: صيغة مبالغة من الصبر، إن صاحبها ليس صابراً فقط ولكنه «صبّار» والصَّبّار هو كثيرُ الصبر، الدائم الصبر، المُستمرُّ على الصبر، المبالغُ في الصبر.

والشَّكور، صيغة مبالغة من الشكر، فهو ليس شاكراً فقط، ولكنه شكور. أيْ كثيرُ الشكر، دائم الشكر مبالغٌ في الشكر، مستمرٌ في الشكر.

لماذا لا يستفيد من الآيات إلّا الصَّبّار الشكور؟ لماذا الصبر والشكر ضروريان لفهم الآيات والاعتبارِ بها؟.

لأن الصبر يعني الابتلاء والامتحان، يعني إدراك الصَّبار أن الله يبتليه ويمتحنه في حياته، في كل ما ينعم عليه فيها، وما يمنحه فيها. وإدراكُه لهذا يعني استخدامه هذه النعم والمنح في طاعة الله، وتحقيق محبته ورضوانه.

لا بد من الصبر في التعامل مع نعم الله، وقطْع مسيرة هذه الحياة. الصبر بكل مظاهره وألوانه وصوره ومجالاته. الصبر على النعمة، والصبرُ على الغنى، والصبرُ على القوة والسلطان، والصبر على الرخاء والرفاه، والصبر على المال والثراء، والصبر على الابتلاء والتنبيه، والصبر على المحنة والفتنة، والصبر على الضرّاء والمصيبة، والصبر على الزجر والتأديب.

فمَنْ تعامل مع كل ذلك بصبْر كان صبَّاراً، ونجح في الابتلاء والامتحان. وشكَرَ الله على نعمه، واستخدمها فيما يرضيه.

والصبر يقوده للشكر، وكلٌّ صبّار شكور، وإذا شكر الله أدام عليه نعمته، وزاده منها، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

هذا، وقد قرن القرآن بين الصَّبَّار والشَّكُور، فلم يذكر الصبّار إلّا ذكر بجانبه الشكور، بحيث تكونان صفتيْن متلازمتيْن: الصبر والشكر، وتكونان متلازمتيْن لصاحبهما، وتكونان صيغتيْ مبالغة من الصبر والشكر.

كلمة «صبّار» ذُكرت في القرآن أربع مرّات. وهي في المرات الأربعة مقترنة بالشكور:

١ ـ أمر الله موسى عليه السلام أن يذكِّر قومه بأيام الله، وقال له:

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

٢ ـ وعَرَّفَنا الله على بعض آياته علينا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١].

٣ ـ وها هي سبأ:

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

٤ ـ وفي سورة الشورى يقرر أن السفن تجري في البحر بنعمة الله، وفي ذلك آيات لكل صبّار شكور:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٢ ـ ٣٣].

الصَّبَّار الشَّكُور هو الواعي العاقل الذكي في هذه الحياة، لأنه يُحسن التعامل مع الحياة، والفهم عنها، ويتعامل مع ما يقدمه الله له بصبر وشكر. وكل حاسّة من حواسّه تكون عوناً له على الصبر والشكر، وكل جزئية من كيانه، وجانب من جوانب شخصيته تساعده على أن يكون صبّاراً شَكُوراً.

وهؤلاء الصبّارون الشكورون قليلون في هذه الحياة، لأن معظم الناس غافلون مخدوعون. ولهذا ورد في سورة سبأ قولُ الله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

إنه لا يشكر إلّا صبّار، ولا يصبر إلّا الشّكور، وقليل من عبادي الصَّبَّارُ الشَّكُور.

○ سبأ: نجح إبليس في إغوائهم:

عقَّب القرآن على قصّة سبأ، ومن جملة ذلك التعقيب قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

ومعنى قوله: صدّق عليهم إبليسُ ظَنَّه: حقَّق فيهم هدفه وغايته ورسالته، ونجح في إغوائهم وإضلالهم وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

رسالةُ إبليس التي وقف حياته لها، وغايتُه من هذه الحياة، هي ما صرّح به يخاطب الله بتبجُّح: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

فقال الله له: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥].

وحذَّرَنا الله من الشيطان، وبيَّن عداوتَه لنا، وطَالَبَنا بأن نتخذه عدواً، حتى

لا ينجح في إغوائِنا، ولا يصدِّق علينا ظنَّه، ولا يُحقِّق فينا غايتَه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

كم هم خاسرون أولئك الذين يستسلمون للشيطان، ويسْلمون قيادَهُمْ له، وينفّذون وساوسه ونزغاته، إنهم خاسرون هالكون معذَّبون في الدنيا والآخرة.

ها هم أهل سبأ، وها هي نتائج استسلامهم للشيطان. وما من أمة يستسلمون للشيطان إلَّا يجْنون من ذلك ما جناه أهل سبأ. وما من إنسان يستسلم للشيطان إلّا ويقع به ما وقع على كل شخص من أهل سبأ.

إن الذين ينقادون للشيطان سذّج أغبياء. فلولاهم لما حقَّق غايته، ولولاهم لما صدَّق ظنّه.

وللأسف الشديد، فإننا نرى كثيراً من الناس، في كل فترة من فترات التاريخ، ممن يَقْبَلُون أن يمارس فيهم إبليس مهمته، وينجح في تحقيق غايته، ويسيرون معه، ويتبعون خطواته. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

لكن: هل هم مُكْرَهون على الاستجابة للشيطان؟ مضطرون لاتباع خطواته؟ هل له عليهم سلطان قاهر؟.

كلا. ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾.

لذلك، فهم المسؤولون عن اتِّباعه، والمحاسَبون على الاستجابة له، لأنهم اتَّبعوه مختارين، واستجابوا له راضين، وفتحوا له قلوبهم وحواسّهم.

والشيطان الذي يُغري أتباعَه السذّج الأغبياء بالوعود والأماني، يتخلى عنهم وقْت حاجتهم له، ويتركهم يواجهون سنّة الله في الكافرين المخالفين وحدهم، ويذوقون بأس الله وعذابه وحدهم، وينصرف عنهم ماكراً ساخراً.

في الدنيا يقول لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وفي الآخرة، يقف بينهم خطيباً وسْط جهنم، يوبِّخهم ويلومُهُم ويسخر منهم ويتهكّم عليهم ويتبرّأ منهم. يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

حقاً إن إبليس إبليس، وإن الشيطان شيطان!.

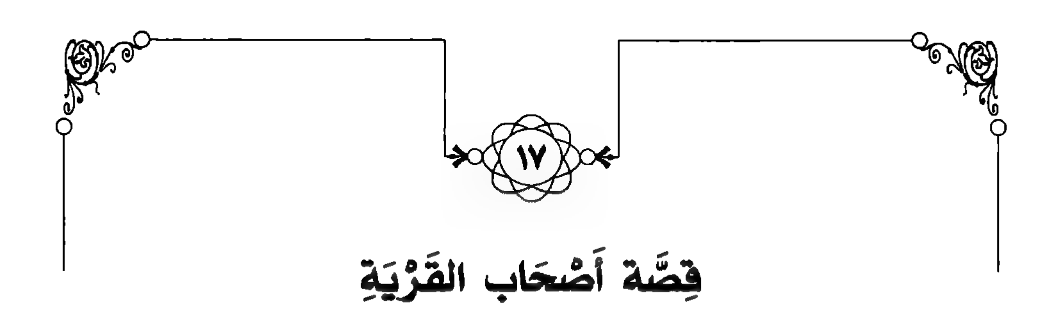
استجابت سبأ للشيطان، وصدّق عليها ظنه، فحقّت عليها كلمة الله، وانطبقت عليها سنّتُهُ، ووقع بها ما وقع بكل أمة تكفر وتظلم وتفسق وتفسد، فمزقها الله كل ممزق، وجعلها أحاديث، فبُعداً لها كما بعِدت أمم قبلها من الكافرين الباغين: قوم عاد وثمود ومدين وغيرهم..

وهذه نتيجة تنتظر كل من استجاب للشيطان.

وتبقى قصة سبأ من سورة سبأ، تقدِّم الكثير من الآيات والدروس والدلالات والعِبَر والعِظات. لكن لا يعيها إلّا الصابرون الشاكرون:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

* * *



قِصَّة أَصْحَاب القَرْيَةِ

○ القصة في سياقها القرآني:

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ١٣ ـ ٢٩].

○ إسرائيليات حول القصة:

نَسَجَت الإسرائيليات رواياتٍ مطوَّلة متعارضة حول قصة أصحاب القرية. وقد أقبل عليها رواةُ الأخبار والأساطير، وأوردها مؤرِّخون ومفسرون في كتبهم.

وسوف نشير إلى خلاصة هذه الروايات والإسرائيليات، لنحذِّر منها.

قالوا: إن تلكَ القرية هي «أنْطاكية» وكانت مدينة رومية، يحكمها مِلِك ظالم يعبد الأصنام، اسمه «أنْطيخُس».

فأراد عيسى عليه السلام دعوةَ أهلها إلى الإيمان بالله، فبعث لها رجلين من الحواريّين، فكذَّبهما أهلها، فأرسل لهم حوارياً ثالثاً.

واختلفوا في أسماء الرسُل الثلاثة اختلافاً بيّناً. والراجح لدى جمهور السابقين أنهم: شمعون ويوحنا. ثم بولس.

قالوا: أرسل عيسى عليه السلام الرسولَيْن إلى إنطاكية، فلقيا رجلاً عجوزاً يرعى غنيْمات له. وهو «حبيب النجار» فدعواه إلى الله، وبيّنا له أن معجزتهما هي شفاء المرضى. وكان له ابن مجنون، فمسحاه فقام صحيحاً، فآمن الرجل بهما.

وفشا أمرهما في المدينة، وشفيا كثيراً من المرضى، وسمع بهما الملك الكافر عابد الأصنام، فغضب عليهما، ووضعهما في السجن.

ولمّا علم عيسى عليه السلام بما جرى لهما، أرسل إلى المدينة رجلاً ثالثاً، هو «شمعون»، فاحتال شمعون حتى وصل إلى الملك، وكتمَ عليه إيمانه ودينه، وعاشر الملكَ وتمكن لديه، فقربه الملك منه، وجعله مؤنسَه ورفيقه.

فقال له يوماً: بلغني أنك حبست يوماً رجلين دعَواك إلى الله، فلو سألت عنهما أو سألتهما. فقال الملك: إن الغضب قد حال بيني وبين سؤالهما. فقال للملك: لو أحضرتَهما.

فلما حضرا قال لهما شمعون: ما برهانكما على دينكما؟ قالا: نبرئ الأكمهَ والأبرص.

فجاؤوا لهما بغلام أكمه، ممسوح العينين، مَوضعُ عينيه كالجبهة. فدعَوَا الله، فانشق موضعُ البصر، وعاد الغلام بصيراً.

فعجب الملك مما رأى. وقال: ها هُنا غلام مات منذ سبعة أيام ولم أدفنْه حتى يجئ أبوه، فهل يحييه ربكما؟ قالا: نعم.

فدعَوَا الله علانية، ودعا شمعون اللهَ سراً، فأحيا الله الميت، وقام يخاطب الناس وقال لهم: إني مِتُّ منذ سبعة أيام، ووُجدتُ مشركاً، وأُدخلتُ في سبعةٍ من أودية النار، فأحذركم ما أنتم فيه، وآمنوا بالله.

ثم فُتحتْ أبوابُ السماء فرأيتُ شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة،

شمعون وصاحبيْه، حتى أحياني الله، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله.

قالوا له: وهذا شمعون أيضاً معهم؟ قال: نعم وهو أفضلهُم.

فأعلَمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم، ودعاهم إلى الله.

قالوا: فآمن الملك في قوم كثير، وكفر آخرون.

وقيل: إن الملك لم يؤمن، بل ازداد كفراً وعناداً، واضطهدَهُم وعذَّبهم، وأراد أن يقتلهم ويقضي عليهم.

فجاء من أقصى المدينة رجل يسعى. هو «حبيب بن مري. وهو حبيب النجار» الذي مرّ به الرسولان وشفيا ابنَه المجنون. وخاطب الملكَ والحاشية، ودعاهم إلى الإِيمان بالله ورسله. وأعلن أمام الجميع إيمانه.

فغضب الملك منه، وأمر جنوده بقتله، فوثبوا عليه فقتلوه.

قيل: وطئوا عليه بأرجلهم، حتى خرجت أمعاؤه من دبره حتى مات.

وقيل: إنهم كانوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون.

فقتلوه وقتلوا الرسل الثلاثة. وقيل إنهم لما أرادوا قتل حبيب النجار رفعه الله إلى السماء، وأدخله إلى الجنة.

أما أهل القرية، فقد جاءهم جبريل بالصيحة، فأهلكهم جميعاً[1].

وهذه الإِسرائيلياتُ والروايات في تفصيلات القصة، لم يُنقل منها شيء عن رسول الله ﷺ، ولذلك هي من القول بالظن والخرْص والتخمين، وقصص السابقين لا يقال فيها بذلك. بل لا بد من حديث صحيح عن رسول الله ﷺ.

ولذلك فنحن مضطَّرون إلى السكوت عن تلك الإِسرائيليات. فلا نقول بها، كما أننا لا ننفيها كلها، ونجزمُ ببطلانها.

ولا نجيز رواية تلك الإِسرائيليات عنّا، إلّا من باب التحذير منها.

---

(١) انظر: هذه التفصيلات عند القرطبي ١٥: ١٣ ـ ٢٣. وعرائس المجالس: ٣٦٣ ـ ٣٦٦.

○ مبهمات في القصة:

من المبهمات في القصة التي لا نُتعب أنفسَنا في محاولة بيانها، ولا نجيز لغيرنا بيانَها، لعدم وجود أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ:

١ ـ اسم القرية التي أُرسل إليها المرسلون. واسم ملكها.

٢ ـ أسماء الرسل الثلاثة الذين أُرسلوا إلى تلك القرية.

٣ ـ اسم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى.

٤ ـ هل الرسل الثلاثة رسل من الله مباشرة أم أتباعٌ لعيسى عليه السلام؟.

٥ ـ كيفية وصولهم إلى القرية، وما جرى لهم أثناءه.

٦ ـ تفصيلات ما جرى بينهم وبين أهل القرية.

٧ ـ ماذا جرى لهم في القرية، وهل عُذبوا أم لا؟ وهل استجاب لهم أحد من تلك القرية أم لا؟.

٨ ـ كيفية نهايتهم في القرية، وهل قتلوا أم ماتوا. أم غادروها إلى غيرها.

٩ ـ كيفية قدوم الرجل من أقصى المدينة يسعى، وطبيعة عمله.

١٠ ـ أثر نصرته للرسل الثلاثة على أهل المدينة. وهل اتبعه منهم أحد.

١١ ـ كيفية نهاية ذلك الرجل، وهل قتلوه، وكيف، وهل رفع إلى السماء.

١٢ ـ تفصيلات ما جرى لأهل القرية، بعد تقديم الرجل المؤمن بيانه، وكيف كانت نهايتهم.

يقول الأستاذ الإمام سيد قطب حول الإبهام في القصة:

«ولم يذكر القرآن مَنْ هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية. وقد اختَلَفت فيها الروايات، ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات.

وعدمُ إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها. ومن ثم أغفل التحديد، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها.

فهي قرية، أَرسل الله إليها رسولين، كما أرسل موسى وأخاه هارون عليهما السلام

إلى فرعون وملَئِه. فكذَّبهما أهل تلك القرية، فعززهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله. وتَقدم ثلاثتُهم بدعواهم ودعوتهم من جديد. فقالوا إنَّا إليكم مرسلون»[1].

○ مناسبة القصة لسورة يَس:

أشار الأستاذ الإِمام سيد قطب إلى الربط بين قصة أصحاب القرية وسورة يَس، ومناسبة ذكْرها فيها.

فبيَّن أن موضوع سورة يَس هو موضوع السور المكيَّة عموماً، وهي العقيدة بأهم قضاياها: الألوهية والعبودية والرسالة والآخرة.

وذكر أن سورة يَس تهدف إلى تحقيق أهداف ثلاثة:

الأول: هو بناء أسس العقيدة، وبيان طبيعة الوحي وصدق الرسالة. وتسوق قصةَ أصحاب القرية، لتحذِّر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، وتَعرض هذه العاقبة في القصة، على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه.

الثاني: التركيز على قضية البعث والنشور.

الثالث: التأكيد على قضية الألوهية والوحدانية[2].

واعتبر سيد قطب السورة ثلاثة أشواط:

الشوط الأول ـ وهو الذي يعنينا هنا، الآيات من ١ ـ ٢٩.

قال عن موضوعه: «يبدأ الشوط الأول بالقَسَم بالحرفين «يا. سين» وبالقرآن الحكيم، على رسالة النبي ﷺ، وأنه على صراط مستقيم. يتلو ذلك الكشفَ عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذِّبون. وهي حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلاً. وأن يحال بينهم وبينها أبداً. وبيان أن الإِنذار يَنفع مَن اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموحِياتِ الإِيمان.

---

(١) الظلال ٥:٢٩٦١.

(٢) الظلال ٥:٢٩٥٦ باختصار.

ثم يوجِّه الله رسوله ﷺ إلى أن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية، فيقص قصة التكذيب وعاقبةَ المكذبين. كما يعرض طبيعةَ الإِيمان في قلب الرجل المؤمن، وعاقبةَ الإِيمان والتصديق»[1].

ولما انتقل سيد قطب إلى تفسير آيات القصة، مهَّد لها بقوله: «وبعد عرْض قضية الوحي والرسالة، وقضية البعث والحساب، في هذه الصورة التقريريَّة، يعود ليعرضهما في صورة قصصية، تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإِيمان، وعواقبهما، معروضة للعيان»[2].

○ القصة مشهدان:

يمكن تقسيم القصة إلى مشهديْن اثنيْن:

المشهد الأول: المواجهة بين الرسل الثلاثة وبين أهل القرية. إذ توجَّه الرسل إليهم، وقدَّموا أنفسهم لهم على أنهم رسل الله إليهم، ولكن أهل القرية كذبوهم، وطعنوا في رسالتهم، وأثاروا شبهات حولها، وتطيروا وتشاءموا بهم، ورد الرسل على كل ذلك. وهذا المشهد يضم الآيات من ١٣ ـ ١٩.

المشهد الثاني: مجيء الرجل المؤمن من أقصى المدينة يسعى، مؤيِّداً للرسل مؤمِناً بهم، ناصحاً لقومه، داعياً لهم إلى تصديق الرسل والإِيمان بهم والاستجابة لدعوتهم، وقد فنَّد شبهاتهم ضد الرسل والرسالة، وعرَض العقيدة والإِيمان بأحسن أسلوب، وحذَّرهم من عاقبة الكفر والتكذيب. وأعلن أمامهم إيمانه.

ويبدو أن أهل القرية لم يكتفوا بتكذيبه، ولكن أقدموا على قتله وإزهاق روحه، فلقي الله شهيداً، وبشَّره الله بالجنة، فتمنى لو يعلم قومه بحسن عاقبته وعِظم ثوابه.

وهذا المشهد يضم الآيات من ٢٠ ـ ٢٧.

وبعدَ عرْض المشهديْن، عقب السياق القرآني على القصة بآيتين ذكَرَ فيهما

---

(١) الظلال ٥:٢٩٥٧.　　(٢) الظلال ٥:٢٩٦٠.

ما أصاب أهل القرية من عذاب ودمار وهلاك، بسبب كفرهم وتكذيبهم، حيث أخذتهم الصيحة، فأصبحوا خامدين. الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

○ وقفة مع المواجهة بين الرسل والقوم:

قلنا إن المشهد الأول في القصة يتضمن المواجَهة بين الرسل وبين أهل القرية. حيث قدَّم الرسلُ الثلاثة أنفسَهم لأهل القرية، وعرَّفوهم برسالتهم ومهمتهم، ولكنهم كذبوهم وكفروا بهم.

وسوف نقف وقفة قصيرة مع المواجهة نستخرج منها بعض اللطائف والإِشارات والدلالات.

١ ـ هل الرسل الثلاثة من قبل الله؟

أخبر القرآن عن إرسال اثنين إلى أهل القرية، ثم تعزيزهما بثالث، ووصَف الثلاثة بأنهم رسل، ووردت هذه الكلمة ﴿مُّرْسَلُونَ﴾ أربع مرات.

١ ـ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية، إذ جاءها المرسَلون.

٢ ـ فقالوا: إنا إليكم مرسلون.

٣ ـ قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون.

٤ ـ قال: يا قوم اتبعوا المرسلين.

وقد تساءل كثير من المفسرين: هل كانوا رسلاً من الله، أم كانوا رسلاً من قبل رسول الله؟.

كثير من المفسرين والإِخباريين على أنهم لم يكونوا مرسَلين من قبل الله، بل مرسلين من قبل رسول الله. وهذا الرسول هو عيسى عليه السلام.

نختار من هؤلاء الإِمام الرازي الذي يقول:

«إِذْ جَاءَهَا المرسَلون: أي جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم. أي لَم يكن مجيئُهم من تلقاء أنفسهم، وإنما جاؤوهم حيث أُمِروا».

وهذا فيه لطيفة: وهي أن في الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام، أرسَلَهم إلى إنطاكية. فقال تعالى: إِرسال عيسى عليه السلام هو إرسالُنا،

ورسول رسول الله بإذن الله رسولُ الله، فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله، فإن تكذيبهم كتكذيبك[1].

ويرى فريق من المفسرين أنهم كانوا رسلاً من الله مباشرة. ولا غرابة أو استحالة أن يرسل الله رسولين إلى القرية، ثم يَتْبعهما بثالث يُعززُهما.

وفي هذا المعنى يقول الأستاذ الإمام سيد قطب: «هي قرية أرسل الله إليها رسولَيْن. كما أرسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون وملَئِه، فكذّبهما أهلُ تلك القرية، فعززهما الله برسول ثالث، يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله»[2].

ولعل هذا هو الراجح، لأنه هو المتفق مع ظاهر النص القرآني فقد أسند القرآن إرسالَهم إلى الله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ واعتبرهم القرآن مرسَلين إلى أهل القرية.

والأصل هو الأخذُ بظاهر النص القرآني، والقولُ بما يوحي به، وعدمُ العدول عن الظاهر إلى المجاز والاستعارة إلّا عند الضرورة، وذلك عند تعذر واستحالة الحمل على الظاهر، وهذه قاعدة مطردة من قواعد التفسير، ولا ضرورة هنا تضطرنا للقول بالاستعارة. فهم رسل من الله مباشرة ـ والله أعلم ـ.

٢ ـ الإصرار على الإرسال:

*** عزّزْنا بثالث:**

قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ ومعنى عزّزْنَا: قوّينا بثالث.

وفيها قراءتان:

الأولى: عَزَزْنا: بتخفيف الزاي الأولى. ومعناها: غَلَبْنَا. من قولهم عَزَّ: أي غَلَب.

الثانية: عَزَّزْنا. بتشديد الزاي: أي قوَّيْنا وشدَدْنا[3].

---

(١) تفسير الرازي ٢٦: ٥١. (٢) الظلال ٥: ٢٩٦١.

(٣) حجة القراءات لابن زنجلة: ٥٩٧.

فعلى قراءة التخفيف يكون المعنى أن الحق عَزَّ وظهر وغَلَب بالرسول الثالث المصدِّق للرسولَيْن قبله.

أمَّا على قراءة التشديد فيكون المعنى: أننا قوَّيْنا حجةَ النبيَّيْن السابقيْن بالثالث، وشدَدْنا عَضُداهما به، وأضفنا حجتَه لحجتهما، ودعمنا بمواقفه موقفَهما.

والقراءتان متقاربتان في المعنى.

لكن الناظر في الجملة ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ تستوقفه لفتة بيانية، وهي حذف المفعول به لفعل «عززنا»!.

وقد تساءل الإمام الزمخشري في كشافه عن الحكمة من ذلك، ثم قال: «الغرضُ من ذلك ذكْر المعزَّز بِه، وما لَطُف فيه من التدبير، حتى عزَّ الحقُّ وذلَّ الباطل.

وإذا كان الكلام منصَبّاً إلى غرض من الأغراض، جَعَلَ سياقَه له، وتوجُّهَه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوض مطروح. ونظيره قولك: حكم السلطان اليوم بالحق. الغرضُ المسوق له قولك: بالحق: فلذلك رفضْتَ ذكْر المحكوم له والمحكوم عليه»[1].

وإذا ما نظرنا في الحكمة من إرسال رسولين ثم تعزيزهما بثالث، فإنها قد تبدو فيما يلي:

١ ـ إن الرسول يتقوَّى بالرسول الآخر. والرسولَيْن يتعززان بالرسول الثالث. كما قال موسى عليه السلام لربه عن أخيه هارون: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٤].

فاستجاب الله وقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

٢ ـ إن إِرْسَالَ الرَسول الثالث هو ردٌّ على تكذيب أهل القرية للرسولَيْن،

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣:٣١٧ ـ ٣١٨.

وهذا فيه الإِصرارُ على الإِرسال، والإِصرارُ على التبليغ، وهذا درس دعوي بالغ. فالدعاة إلى الله يواجهون الناس ويدعونهم. وقد لا يستجيب المدعوون إليهم بل يصُدّون عنهم. فعلى الدعاة الاستمرارُ في الدعوة، والحرصُ على النصح، والإِصرارُ على التبليغ. ولا يحملنَّهم الإِعراضُ عنهم على ترك الدعوة، والقعودِ عن الواجب.

٣ ـ بشرية الرسل والبلاغ المبين:

قدَّم الرسلُ الثلاثة أنفسهم إلى أهل القرية. وقالوا لهم: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

لكن أهل القرية أثاروا أمامهم أول شبهة، وهي شبهة «بشرية الرسل» وبنوْا على تلك الشبهة نتيجةً خاطئة، وهي أنهم كاذبون وليسوا مرسلين: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وهذه هي الشبهة التي واجَهَ بها كلُّ قوم رسولَهم، واعتبروها مانعاً من تصديقه والإِيمان به، وطلبوا أن يكون الرسول مَلَكاً من الملائكة، وعلقوا إيمانهم على «ملائكية الرسل».

وقد بيَّن الأستاذ الإِمام سيد قطب ضلال وسذاجة هذا التصوُّر والطلب بقوله:

«وهذا الاعتراض المتكرِّر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإِدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول. فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سِرٌّ غامض في شخصية الرسول وحياته، تكمن وراءه الأوهام والأساطير. . أليس رسول السماء إلى الأرض، فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير،؟ كيف يكون شخصيةً مكشوفةً بسيطةً، لا أسرار فيها، ولا ألغاز حولها؟ شخصيةً بشريةً عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت؟.

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير، فالأسرار والألغاز ليست صفةً ملازمة للنبوة والرسالة. وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية. وإن هناك لسراً هائلاً ضخماً، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة حقيقةِ إيداعِ إنسان من

هؤلاء البشر الاستعدادَ اللدنّي الذي يتلقى به وحيَ السماء، حين يختاره الله لتلقِّي هذا الوحي العجيب. وهو أعجب من أن يكون الرسول ملَكاً كما كانوا يقترحون.

والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإِلهي. النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به. وهم بشر. فلا بدّ أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه.

ومن ثم كانت حياة الرسول ﷺ معروضةً لأنظار أمته، وسجَّل القرآن ـ كتاب الله الثابت ـ المعالمَ الرئيسية في هذه الحياة، بأصغر تفصيلاتها وأحداثها، بوصْفها تلك الصفحةُ المعروضةُ لأنظار أمته على مدار السنين والقرون»[1].

وأمام تلك الشبهة، وأمام ذلك الاتهام للرسل بالكذب، حدَّد الرسل لأهل القرية مهمتهم عندهم: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

إنهم مرسلون. لأن الله سبحانه هو الذي أرسلهم، وهو يعلم أنهم مرسلون، ويكفيهم علمُ الله بهم، وشهادتُه لهم، وتأييدُه لهم! ولا يضيرُهُم شيئاً تكذيبُ الناس لهم، واعتراضُهم عليهم.

ومهمتهم بين القوم هي: البلاغ المبين. أَخبروا القوم بها بهذا الحسم والجزم والتحديد.

ليست مهمةُ الرسل في قصْرهم على الإِيمان وإكراهِهم عليه، وليست وظيفتُهم في قذف الإِيمان في قلوبهم. ولكنها فقط: البلاغ المبين.

يبلغونهم رسالتهم، ويقيمون الحجّة عليهم، وينصرفون عنهم. وما على القوم إِلّا الاختيار، الاختيار بحرّية وإرادة وسعي وكسب، فإمّا أن يختاروا

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٦١.

طريق الإيمان بالرسل واتّباعَهم فيفوزون وينجحون. وإما أن يختاروا طريق الكفر والتكذيب فيهلكون ويُعذَّبون. وفي كلا الأمرين هم الذين اختاروا، وعليهم تحمُّل المسؤولية، وقبول النتيجة!.

وإذا كانت مهمة الرسل عند الأقوام هي البلاغ المبين، فإن مهمة أتباع الرسل من الدعاة والمصلحين هي البلاغ المبين، وتنتهي هذه المهمة عند أداء البلاغ المبين.

٤ ـ التطير من الرسل والدعاة:

ردَّ أهلُ القرية على بيان الرسل الثلاثة، بأن أخبروهم أنهم تطيروا بهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾.

والتطير هو التشاؤم. أي إنّا تشاءَمْنا منكم، ونتوقع من بقائكم بيننا الشرَّ والأذى، وأنتم لا تحملون لنا خيراً ولا نفعاً.

وواجه الرسل هذا التشاؤم بمنطق إيماني واثق صريح: ﴿قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝١٩﴾.

طائركم معكم: تشاؤمكم معكم. والشرُّ الذي تتوقعونه ليس بسببنا، بل بسببكم أنتم، إنه بسبب أعمالكم وتصوراتكم. وإن ما يصيب الإنسانَ من خير أو شر ليس بسبب خارجي عنه، حتى يتطير به أو يتشاءم منه، بل هو كامن في الإنسان نفسه، ومن داخل نفسه، وهو بسبب ما يعمله من خير أو شر.

إن تطيُّرَ الإنسان بغيره، وتشاؤمَه منه، هو إلقاءُ المسؤولية على غيره، وتهرُّبُه هو من المسؤولية. ولذلك نراه يتشاءم من الأشخاص، أو من الوجوه، أو من الأماكن، أو من الأزمنة، أو من الكلمات، أو من الحركات.

ولهذا المعنى يحرِّم الإسلام التطيُّرَ بالغير والتشاؤم منه، لأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فهو بسبب عمله، وإن ما وقع به بسبب ذلك فهو من الله وحده، وفق سنّتِه سبحانه، ولا يَدَ للآخرين الذين يتشاءم منهم في حصوله له، كما أنه لا أثر لابتعادهم في صرْفه عنه.

وقولُ الرسل الثلاثة لأهل القرية: طائركم معكم. يحمل معنى آخر، وهو التهديدُ بالعذاب. وكأنهم يقولون لهم: إن ما ينتظركم من العذاب والهلاك والدمار ليس بسببنا، بل بسبب ما أنتم عليه من الكفر.

فإذا أردتم صرْفَ ما ينتظركم من الخطر والشر، فعليكم أن تُغيِّروا ما بأنفسكم، وأن تتخلّوا عن كفركم.

بقي أن نقول إن التطيّرَ من الرسل، ليس خاصاً بأهل القرية، بل هو سنّةٌ عامة، وموقف محدَّد مطَّرد، فما من قوم جاءهم رسول إلّا تطيّروا به وتشاءموا من دعوته.

ها هم قوم ثمود يتطيرون برسولهم صالح عليه السلام، وها هو يردّ عليهم: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

وقوم فرعون: تطيّروا بموسى عليه السلام ومن معه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣١].

والكافرون واجهوا محمداً ﷺ بالتطيُّر والتشاؤم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وهل التطيُّر والتشاؤم ضدّ الرسل فقط؟ كلا. إنَّه موقف دائم واجَه به الكُفَّارُ والأعداء كلَّ الدعاة والمربين والمصلحين، في كل زمان ومكان.

وقد حاول الإمام الزمخشري أن يحلِّل نفسية الكفّار والأعداء المتطيِّرين من الحق وأهلِه تحليلاً نفسياً، فقال: (وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منهم نفوسهم.

وعادة الجهّال أن يتيمَّنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوْه وآثروه وقَبِلَتْهُ طِباعُهُمْ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه. فإنْ أصابهمْ نعمة أو بلاء قالوا:

ببركة هذا، وبشؤم هذا)[1].

على الدعاة أن يردوا على المتطيِّرين تطيُّرهم، وعلى المتشائمين تشاؤمهم، وأن يبينوا أن طائرهم معهم، وأن ما سوف يصيبهم من الشر والدمار، ليس بسبب الدعاة أو دعواتهم أو دعائهم، بل بسبب ضلال القوم وانحرافِهم وذنوبهم ومعاصيهم.

عليهم أن يواجهوهم بما واجه به الرسل الثلاثة قومهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

والمسرفون قد يكونون مسرفين في الكفر أو الشرك أو الفساد أو الذنوب أو التطير أو التهديد أو التعذيب. المهم أنهم مسرفون مجاوزون للحد الطبيعي.

٥ ـ سلاح الرجم والتعذيب:

وجَّه أهل القرية ضد الرسل الثلاثة سلاحاً ظنّوه فتاكاً مؤثِّراً، وذلك عندما قالوا لهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وبهذا السلاح أسفر الكفّار المسرفون في القرية عن حقيقتهم، وأظهروا غُشْمهم وبغيهم وظلمهم، واستخدموا الأسلوب الغليظ العنيف البشع، وعاملوا الرسل الهداة بإرهاب وإفساد واضطهاد وتعذيب.

إنهم يَضيقون بوجود الهداة الدعاة، ولا يحتملون رؤيتهم، ولا يقبلون بوجودهم معهم. ومع ذلك هم عاجزون عن مقاومة المنطق بالمنطق، وإبطال الحجة بالحجة، ومواجهة الفكرة بالفكرة، لأنهم لا يملكون منطقاً أو حجّة أو فكراً يواجهون به منطقَ وحجّةَ وفكرَ الرسل. ولذلك يلجؤون إلى السلاح البدائي الحيواني، سلاحِ التهديد والرجم والتعذيب والإيذاء.

ولجوءُ الكفّار من أهل تلك القرية إلى ذلك السلاح الهمجي البدائي، ليس موقفاً خاصاً بهم وحدَهم. بل هو السلاح نفسه الذي لجأ إليه واستخدمه الكفار دائماً ضد الرسل والأنبياء. استخدمه الكفار ضد نوح وهود وصالح

---

(١) الكشاف ٣:٣١٨.

وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام.

وهو السلاح نفسه الذي يلجأ إليه ويستخدمه الأعداء الظالمون المفسدون الطغاة البغاة، ضد أتْباع الرسل من الدعاة والمصلحين، وقد حوى تاريخُنا نماذج كثيرة من استخدام هذا السلاح ضد جنود هذا الدين، وسجَّل التاريخ الحديث المعاصر الذي يعتبره كثيرون القمة في الحضارة والمدنية والرقيّ، نماذجَ صارخةً لاستخدام أولئك الطغاة البغاة لهذا السلاح الهمجي البدائي الحيواني «الرجم والتعذيب والقتل» ضد الدعاة إلى الله. حيث أوقعوه بهم بطريقة ما كان إنسان يتخيل أو يتصور أن يسلكها إنسان بشر ضد إنسان آخر، ولكنهم سلكوها وفعلوها!.

وكانوا بذلك السلاح يهدفون إلى إسكات صوت الحق، والقضاءِ على الدعوة إلى الله. فماذا كانت النتيجة؟.

لقد قَوِيَت الدعوةُ وتمكّنتْ واستقرّتْ، وتوسعتْ وتقدّمتْ وانتشرتْ، رغم ما واجهها من صعوبات ومعوقات. ورغم ما تحمَّله أهلُها من آلام وتضحيات. لأنَّ الدعوة إلى الله لا تتقوى إلّا بالمحنة والشدّة والابتلاء.

وذهب أولئك الطغاة المعذِّبون الراجمون الباطشون، ذهبوا يجرُّون أذيالَ الهزيمة والفشل، ويُشيعون باللعنات والسخريات، وذهبوا إلى ربهم يذوقون أصناف العذاب.

ما من دعوة إلى الله إلّا وُوجِهَتْ بسلاح الاضطهاد والتعذيب، وما من دعاة إلى الله إلّا ووجِهوا بسلاح الرجم والتعذيب. وما من أعداء لهذا الدين إلّا تعاملوا مع الدعاة من خلال قول أصحاب القرية لرسلهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ولكن أولئك الدعاة اقتدوا بالرسل الثلاثة، وواجهوا قومهم بما واجه به الرسل أهل القرية: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

○ مع الرجل المؤمن في نصرة الرسُل:

المشهد الثاني في قصة أصحاب القرية مع الرسُل، هو مجيءُ الرجل

المؤمن من أقصى المدينة يسعى، لينصر المرسلين، ويدعو إلى اتّباعهم.

وقد ربط سيد قطب بين المشهدين، وبيَّن الصلة بين جزأي القصة، فقال: «تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل. وهي مثل للقلوب التي تحدثت عنها السورة في الجولة الأولى، وصورةٌ واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك.

فأمّا النوذج الآخر الذي اتّبع الذكر وخشي الرحمٰن بالغيب، فكان له مسلك آخر، وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة»[1].

○ مع سيد قطب في تحليل نفسية الرجل:

وقف سيد قطب أمام النموذج الخيّر الطيّب، الرجل المؤمن المستجيب لدعوة الرسل، وحلّل نفسيته الفاضلة، فقال:

«إنّها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحقّ المستقيمة، فيها الصدق. والبساطة. والحرارة. واستقامة الإدراك. وتلبية الإيقاع القويّ للحق المبين.

فهذا الرجل سمعَ الدعوة واستجاب لها، بعدما رأى فيها دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه.

وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحرّكت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً. ولم يقبع في داره بعقيدته، وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنّه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. سعى به إلى قومه وهم يكذّبون ويجحدون ويتوعدون ويهدّدون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفّهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبّوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزّةٍ من قومه أو منعة من عشيرته، ولكنّها العقيدة الحيّة في ضميره، تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها»[2].

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٦٢.

(٢) الظلال ٥: ٢٩٦٢ ـ ٢٩٦٣.

○ **ومع الإمام الرازي في لطائفه البيانية:**

للرازي وقفاتٌ ممتعة لطيفة، أمام السياق القرآني، يَلحظ فيها لفتاتٍ ولطائف طريفة، ويسجل فيها تحليلات وتعليلات طيِّبة.

وقد وقف أمام السياق القرآني عن الرجل المؤمن، وأورد حوله بعض النظرات، ونحن نسجّل أهمها بتصرُّف واختصار:

١ ـ في ارتباط موقف الرجل المؤمن مع ما سبق من آيات القصّة وجهان:

أحدهما: أنّه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين، حيث آمن بهم الرجل الساعي، وعلى هذا ففي قوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ بلاغةٌ باهرة، فهو يدل على أن إنذار الرسل قد بلغ إلى أقصى المدينة.

الثاني: أن ذكر قصة الرجل المؤمن بالمرسلين تسليةٌ لقلوب أصحاب الرسول ﷺ، وتثبيتهم على الدعوة، كما كان ذكر الرسل الثلاثة تسليةً لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ في تنكير ﴿رَجُلٌ﴾ فائدتان وحكمتان:

الأولى: أن يكون تعظيماً لشأنه، أي رجلٌ كاملٌ في الرجولية.

الثانية: أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين، حيث آمن رجلٌ من الرجال لا معرفة لهم به، فلا يقال أنّهم تواطؤوا.

٣ ـ في قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ تبصيرٌ للمؤمنين وهداية لهم، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم، ساعين فيه، مقتدين بذلك الرجل الذي جاء يسعى.

٤ ـ في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ معنى لطيف: حيث يشير إلى إشفاقه عليهم، وإضافتهم إليه دليل على أنّه لا يريد بهم إلّا خيراً.

٥ ـ في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دعوة منه لهم إلى اتّباع المرسلين، ولم يقل: «اتبعوني» كما دعا مؤمن آل فرعون في سورة غافر. وذلك لأنّه جاء من أقصى المدينة، ولم يكن معهم ولا بينهم، فدعا إلى اتّباع المرسلين الذين أظهروا لهم الدليل، وأوضحوا لهم السبيل.

٦ ـ جمع في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بين إظهار النصيحة في قوله: «اتَّبِعُوا» وإظهار الإيمان في قوله: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وقدَّم النصيحة على الإيمان لكونه أبلغ في النصح.

٧ ـ في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ معنى حسن لطيف، واستخدامٌ لأحسن الأساليب في النقاش والجدال والإقناع. حيث نزل فيه درجةً لإقناعهم. وكأنه يقول لهم: افترضوا أنهم ليسوا مرسَلين ولا هداة، لكنهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة التي توصلهم إلى الحق. ثم هم لا يسألونكم أجراً ولا مالاً. وهذا الأمر يدعوكم إلى اتِّباعهم والاستجابة لهم.

٨ ـ في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ استفهام إنكاري، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الأمر من جهة عبادة الله وحده لا خفاءَ فيه، وعلى الذي لا يعبده أن يقدِّم السبب الذي يمنعه من عبادته، أما أنا فلا أجد مانعاً يمنعني من عبادته.

٩ ـ وفي قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ لطيفة أخرى، حيث عدَل عن مخاطبة القوم إلى الحديث عن نفسه، والحكمةُ في ذلك، هو أنه لا يَخفى عليه حالُ نفسه، ولذلك فهو لا يطلب العلةَ والدليلَ من أحد آخر، لأنه أعلم بحال نفسه.

١٠ ـ جمع في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ بين أمريْن في إيمانه بالله.

الأول: هو عدم المانع الذي يمنعه من الإيمان في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾.

والثاني: هو قيامُ المقتضي الذي يدعوه إلى الإيمان، وهو في قوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، فالله الخالق مالكٌ ومنعِم وعلى العبيد عبادته وشكره.

١١ ـ قدَّم عدمَ المانع من الإيمان على المقتضي الذي يدعوه للإيمان في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولم يقل ﴿فَطَرَكُمۡ﴾، لأنه هو الأهم من المقصود من السياق.

١٢ ـ قال: ﴿فَطَرَنِي﴾ ولم يقل «فطركم» لأنه يتحدث عن نفسه وليس عنهم، ولتناسقه مع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾، حيث أسند العبادة إلى نفسه فناسب أن يسند الخلق إلى نفسه.

١٣ - يتضمن قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الخوف والرجاء في عبادة الله، فمن يكون إليه المرجع والمآب، يُخَاف منه ويُرْجى.

١٤ - هناك حكمة لطيفة من الالتفات إليهم في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ليبيِّن الفرق بينه وبينهم في الرجوع إلى الله، فرجوعه هو إلى الله ليس كرجوعهم هم.

رجوعه هو إلى الله رجوعُ العابد المؤمن بالله، ولهذا رجوعُه للإكرام والإنعام.

أما رجوعهم هم فهو رجوعُ الكافر العاصي، ليحاسَب ويعاقَب ويعذَّب، فرجوعهم للعذاب والإهانة.

وشتان بين الرجوعيْن!.

١٥ - في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إشارةٌ إلى كمال التوحيد، فقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ إشارةٌ إلى وجود الله، وفي قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إشارةٌ لنفي الشرك به وعدم عبادة غيره.

١٦ - في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إشارة لطيفة، فالدونيَّةُ هنا مقصودة، فبما أنه ثبت أن الله وحده هو الخالق المعبود، فكل غير الله هم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ وهؤلاء جميعاً مشتركون في كونهم مخلوقين ضعفاءَ، محتاجين إلى الله، مفتقرين إليه، ولذلك يجب أن يكونوا جميعاً عابدين له. وبما أنهم كلهم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ شركاء في الدونية، فكيف يكون من بينهم آلهة؟.

١٧ - في قوله: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يخاطب الجميع، سواء كانوا من المرسَلين أو من أهل القرية، لكنه أول ما يتوجه إلى أهل القرية، حيث يثبت لهم أن الله هو وحده ربُّهم.

١٨ - في قوله: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ ما يدلّ على أنه كلامٌ متروٍّ مفكِّر، فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعةً سامعين، فإنه يتفكر فيه.

كما أنه يَقصد أن يُسمعَهم ليقيم الحجة عليهم، وكأنه يقول لهم: إني أخبرتُكُمْ بما فعلتُ، حتى لا تقولوا: لِمَ أخْفَيْتَ عنا أمرَك، ولو أظهرتَ أمرَكَ لاتّبعناك.

١٩ ـ المراد بالسماع في قوله: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ ليس مجرد سماع الصوت، بل قبولُ الدعوة، والاستجابة لصوت الحق، والدخول في الإِيمان(١).

○ بين هذا الرجل وبين صاحب موسى:

رجلان مؤمنان، وقَفا موقفين إيمانيين مشهودَيْن:

أحدهما: صاحب موسى في سورة القصص.

والثاني: صاحب يَس في قصة أصحاب القرية.

وعندما تحدث القرآن عن كل منهما، حصل اختلاف في التعبير عن ذلك:

قال القرآن عن صاحب موسى عليه السلام: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: ٢٠].

وقال القرآن عن الرجل صاحب يَس: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ونلاحظ في التعبير أنه بالنسبة لصاحب موسى قدَّم ذكْر الرجل وأخبر عن المكان الذي قدم منه وهو أقصى المدينة. بينما الرجل صاحب يَس قدَّمَ ذكْر المكان الذي قدم منه، وأخر ذكر الرجل.

فما هي الحكمة من ذلك؟.

إن ترتيب كلمات الجملة في الآية، على حسب السياق والمقصود منه.

ففي قصة موسى في سورة القَصص، كان المقصود هو الإِشارة إلى موقف الرجل الناصح الذي جاء يحذِّر موسى، وينصحه بمغادرة المدينة، ولم يكن المقصود بيانُ المكان الذي جاء منه، فلا يهم إن جاء من أقصى المدينة أو من طرفها. ولهذا قدم ذكره ـ والله أعلم ـ.

أما في قصة أصحاب القرية فإن المقصود هو المكان الذي قَدِمَ منه الرجل أوَّلاً، ليشير إلى وصول دعوة الرسل الثلاثة إلى أبعد نقطة في المدينة، وهي أقصى المدينة، فلماذا لا يستجيبُ أهل القرية للرسل وهم قريبون منهم؟

---

(١) تفسير الرازي ٢٦: ٥٤ ـ ٦٠ بتصرف واختصار.

ولهذا قدَّم ذكْر المكان الذي قدم منه الرجل يسعى ـ والله أعلم ـ.

يقول حول هذا التقديم والتأخير الإمام المبدِع ابن الزبير الغرناطي، في كتابه الفريد «ملاك التأويل»:

إن وروده في سورة القَصص متقدِّماً ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ واردٌ على الوضع الطبيعي، لأن مرتبةَ الفاعل في الأصل أن يتقدَّم بحيث يلي الفعل.

أما تأخيرُ الفاعل في سورة يَس وتقديم المجرور عليه ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾، فإنه يشير إلى معنى جليل، وهو فضيلةُ السابق إلى الإيمان ولو بَعُدَتْ إقامته، فَبُعْدُ الدار لم يضره طالما هو قريبٌ من الرسل بقلبه، وفي المقابل فإن الكافر القريبَ من الرسل بداره لم ينفعه ذلك القربُ المكاني، لوجود الكفر عنده يُبْعِدُ المنزلةَ بينه وبين الرسل.

وفي هذا إشارة إلى حال قريش وحال الأنصار في المدينة.

فقريش قريبةٌ في المكان من رسول الله ﷺ، ولكنها بعيدةٌ عنه بقلوبها، فلم ينفعها ذلك القربُ الحسّي. أما الأنصار فإن بُعْد الإقامة والمكان لم يمنعهم من الاقتراب من رسول الله عليه الصلاة والسلام والدخول في دينه.

فموقف قريش يشبه موقفَ أهل القرية. وموقف الرجل المؤمن يشبه موقفَ الأنصار.

فمجيء الرجل المؤمن من أقصى المدينة مثال لمن بَعُدَ منزلُه فلم يضرَّه، وذكْر أهلِ القرية مثال لمن قرُب وطالت مباشرتُه ولم ينفعه قربُه. فقدَّم المَجرور عل الفاعل في سورة يَس ليحقق المعنى المقصود، فالتقديم للاعتناء»[1].

○ الوصف بالرجولة للمدح والتعظيم:

وصف القرآنُ ذلك المؤمن بالرجولة. وهذا الوصف للمدح والثناء والتكريم والتعظيم.

---

(١) ملاك التأويل لابن الزبير ٢: ٧٥٦ ـ ٧٥٨ بتصرف واختصار.

ومعلوم أن هناك فرْقاً بين الرجولة وبين الذكورة، فإن الذكورة تقابل الأنوثة. فالزوجان هما الذكر والأنثى.

لكن لا تستلزم الذكورةُ الرجولةَ، بل هي مظنَّة لوجودها فقط. فليس كل ذَكر رجلاً، ولكن كل رجل ذكر.

الذكورةُ صفةٌ جسديةٌ بدنيةٌ ليس إلَّا.

لكن الرجولةَ تشير إلى القوة والشدة والتحمُّل والشجاعة والثبات، فهي تشير إلى صفاتٍ نفسية، ومزايا معنوية، وفضائل أخلاقية.

ولعله لأجل هذا وردت صفة الرجولة في مقام مدحٍ وثناءٍ وإشارةٍ:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ...﴾.

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ...﴾ [غافر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

وقَالَ تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

إنه لا يقدِّر الرجال إلَّا الرجال، ولا يثبت معهم إلَّا الرجال.

○ حكمة أخرى من تنكير الرجل:

ردَّدْنا فيما سبق مع الإمام الرازي حكمتيْن لتنكير كلمة ﴿رَجُلٌ﴾:

الأولى: للثناء عليه. فالتنكير للتكريم والتعظيم.

والثانية: لإبعاد التهمة عنه ونفي التواطؤ بينه وبين المرسلين، فهو رجل من بين الرجال، لا معرفة مسبقة بينه وبينهم.

لكننا نلحظ حكمةً أخرى من تنكير كلمة ﴿رَجُلٍ﴾: فالتنكير هنا للإِبْهام والإِجمال، لا للتحديد والتبيين والتوضيح.

إنه رجل مبهَم من بين الرجال، رجل غيرُ معيَّن ولا مبيَّن ولا محدَّد. وقصَد القرآنُ إلى إبهامه. فلا يعنينا اسمُه ولا معرفةُ قومه أو أهله، ولا عملُه ومركزُه. فكل هذه مبهمات سكت عنها القرآن، ولو علم الله أن في بيانها خيراً أو فائدة أو نفعاً، لبينها وحددها. ولكنه علم أنه لا فائدة ولا نفع منها فأبقاها على إبهامها، وجاء بدلها بالتنوين ـ تنوين التنكير والإِبهام ـ.

ولذلك لم يَفْهم عن القرآن هذه الإِشارة كلُّ الذين خاضوا في تعيين وتبيين ذلك الرجل. فقال بعضهم هو يوسف النجار وقال آخرون هو شمعون. أما نحن فقد وعَيْنا عن القرآن إشارتَه وقصْدَه لإِبهام الرجل، ولذلك لم نحاول تعيينه، ولم نقل في ذلك شيئاً.

○ آمنت بربكم فاسمعون:

ونقف لحظةً أمام قول الرجل المؤمن: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ لنأخذ منه درساً إيمانياً بالغاً:

إنه دافَع عن المرسلين، ودعا قومه إلى اتباعهم، ونَصحهم بالتخلي عن ما هم فيه من الكفر، وأَتْبع هذا النصح والبيان بحركة عملية واقعية حيث أعلن عن إيمانه واتِّباعه المرسلين، وطلب من قومه أن يسمعوا ما يقول، وأن يفهموا حقيقة ما يفعل.

لقد سبق أن أوردْنا ملاحظة الإمام الرازي، من أن قوله لقومه: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ يدل على أن كلامه كلامُ رجل متروٍّ مفكِّر، وليس نتيجة فورةٍ أو عاطفة أو اندفاع، وأن حقيقة قوله ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ يعني استجيبوا إليَّ وادخلوا فيما دخلتُ فيه.

لكن الذي يعنينا هنا هو فهمُ حقيقة موقفه، وبيانُ وجه الاقتداء به:

إن خطوته العملية الإِيمانية تُعتبر مَعْلماً بارزاً من معالم الطريق إلى الله، والدعوةِ إليه، حيث أَتْبع القناعة النظرية بحركة عملية، وهذا دليل على قوةِ

وحيوية وفاعلية إيمانه، إذ لم يقبل أن يبقى في منطقة الذهن النظري فقط، بل أثبتَ نفسَه في عالم الواقع.

وخطوةُ ذلك الرجل المؤمن تُعتبر موقفاً إيمانياً عظيماً، وتدل على أن الحياة فعلاً مواقف، وأن الرجال بمواقفهم لا بأعمارهم، لقد آمن في وقتِ المحنة والشدة والابتلاء، واتَّبع المرسلين وهم مستضعَفون، وتحدى بذلك القوةَ المادية الغاشمة، وأعلن عن إيمانه وطلب منهم أن يسمعوه. مع أنه يرى الخطر أمامه، ويتوقع أن يناله الأذى والمكروه، وقد يؤدي موقفُه إلى إزهاق روحه، ومع ذلك آمن وأعلن إيمانه، واستعد لتحمُّل نتيجةِ موقفه.

وقد تُعتبر خطوته تلك تهوُّراً، وقد يُعتبر موقفه ذلك انتحاراً، وإلقاءً بنفسه إلى التهلكة، لكن عند أصحاب النظرة المادية التجارية، الذين يقيسون عالم الإيمان والدعوة كما يقيسون عالم المال والتجارة، وما فيه من أرباح وخسائر، فلا يُقْدمون إلَّا إذا ضمنوا الربح المادي في هذه الدنيا.

وهذه النظرة مرفوضة وملغاة في عالم الإيمان والدعوة، أليس قد آمن وصدَّق واقتنع؟ فلماذا لا يُعلن إيمانه، ويدعو قومه للاقتداء به؟ أليس المرسَلون بحاجة إلى من ينصرهم ويقف معهم؟ فلماذا يجبن عن ذلك الموقف؟.

ما الذي يمنعه من ذلك الموقف؟ هل هو الخطر والأذى والمحنة والتعذيب؟ ومنذ متى كانت هذه الأمور صوارفَ تصرفُ عن الإيمان، أو معوقات تعيق عن الدعوة؟.

ثم هو الرابح الفائز في الحقيقة، باختياره لطريقه الجديد، وإعلانه عنه، ودعوته الآخرين لاتباعه.

ويبقى موقفُ ذلك الرجل الإيماني مَعْلَمَاً بارزاً على الطريق إلى الله، يَقتدي به الدعاةُ في انحيازهم إلى جانب الحق والتزامهِ والدعوة إليه. ولسانُ حال أحدهم يقول للآخرين: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾.

ولا ينتصرُ الحق، ولا يتعرف عليهِ الناس إلَّا بأن نكون نحن معه، ونتبعه ونعلن عن ذلك، ونرفع أصواتَنا لإسماع الآخرين وإقامة الحجة عليهم.

إذا لم نُسمعْهم نحن فمن هو الذي يُسمعهم؟ وإذا جبُنّا عن تمثيل صوت الحق فمن هو الذي يمثّله؟ وإذا لم نفعل هذا فكيف يتم البلاغ؟ وكيف نقدِّم لهم الحق؟ وكيف نقيم عليهم الحجة؟.

إن الحياةَ لا تزكو ولا تَحلو إلا بنصرة الحق وتحدِّي الباطل، وإن الرجال المؤمنين لا يُعرفون ولا يرتقون ولا يَسْمُون إِلَّا بمواقِفهم الإيمانية.

فَلْنجعل موقف ذلك الرجل موقفاً دَائماً لنا، ولنجعل هُتافه هُتافاً لنا، وشعاراً لنا، وإعلاناً لنا: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥﴾.

○ ماذا جرى للرجل بعد إيمانه؟

سكت القرآن عن بيان ما جرى للرجل بعد إعلان إيمانه، وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥﴾ وترَكها «فَجْوَة» فنية في السياق القصصي والعرْض الفني، وتركَ لخيال القارئ أن يملأها، من خلال تصوُّره أو توقُّعه لما سيصيبه.

إن ما جرى له معروف من خلال الجو الذي يعيشه، والناس الذين حوله، وإلَّا فماذا نتوقع لرجل أعلن إيمانه، وسط قوم من الكفار، يستعدون لمحاربة المرسلين، ويقولون لهم: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؟.

إنهم سيرجمون ذلك الرجل الذي تجرأ وتحدَّاهم، وسيناله منهم عذاب أليم.

إن هذه النهاية متوقَّعة، ولكننا لا نقول شيئاً في تفصيلها، فلا نُثبت فيها أحداثاً وتفصيلات لم تحدث يقيناً. صحيح أن السابقين سجَّلوا بعض تلك الأحداث والتفصيلات، وقالوا: فعلوا به كذا وكذا. لكن ليس لكلامهم دليل صحيح نذهب إليه، وكلٌّ ما سجلوه إما أخذوه من الأساطير أو الإسرائيليات، ونحن لا نجيز الأخذ عنها، وإما سجلوا ما توقعوه بخيالهم، وهذا التوقُّع المتخيَّل لا يلزم أن يكون هو ما حصل في عالم الواقع.

يجب أن نبقى عند حدود النص القرآني، لا نجاوزه ولا نتعدّاه، فالرجل

آذاه قومه وعذبوه واضطهدوه، ولعلَّهم قتلوه وأزهقوا روحه، لأن هذا ما يشير به القرآن في قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ أما تفصيلات ما جرى له فلا نقول فيها شيئاً!.

○ قيل ادخُلِ الجنة:

وقف المفسرون أمام حقيقة قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾. فذهب بعضهم إلى أنه قيل له ذلك، وأن الملائكة قد أخذتْه وأدخلتْه الجنة فعلاً، وأنه يعيش فيها حقيقة.

وذهب بعضهم إلى أنه لم يدخل الجنة حقيقة، لأن دخول المؤمنين الجنة لا يكون إلَّا بعد البعث والحساب يوم القيامة، وقرروا أن قوله: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعني إخبارَه بأنه استحق دخول الجنة بموقفه الإِيماني، وتبشيره بذلك، لينال عاجل البشرى[1].

ونحن مع القول الثاني ـ والله أعلم ـ.

إنه يستحق البشارة باستحقاقه الجنة، وأنها وجبتْ له، لموقفه الإِيماني، يستحق ذلك لانحيازه إلى جانب الحق، وتحديه للباطل.

ونقف هنا لنتساءل: هل كان خاسراً في اختياره وموقفه أم كان رابحاً فائزاً؟.

ما الذي دفَعه ثمناً لإِيمانه؟ دفع حياتَه وعمرَه ودنيَاه، وهو هبة ومنحة من الله.

لكن ماذا نال؟ نال الجنة. الأمَل والغايةَ والهدفَ.

نال الجنة بحياتها الدائمة، ونعيمها الخالد، ولذّاتها المتجددة.

هل يمكن أن تسمي هذا خسارة؟.

لقد كان رابحاً ربحاً وفيراً، وفائزاً فوزاً عظيماً، رابحاً وفائزاً بجميع

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥:١٩.

الحسابات والمقاييس والموازين. أليس قد نال الجنة؟ أليس قيل له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ فماذا يريد غيرها؟.

وهكذا كل مَنِ اختار جانب الحق، ونصر دين الله وجنودَه، والتزم دعوة الله، وواجه أعداء الله، واستعلى على ما يواجهه في سبيل الله، ودفع الثمن راضياً، محتسباً لله، إنه بذلك يَدخلِ الجنة، ويستحق ما فيها من نعيم مقيم. وتبشره الملائكة بقولها: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾.

○ قال: يا ليت قومي يعلمون:

بعد تبشيره باستحقاقه الجنة تذكَّر قومه الذين آذوه، فقال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾.

وقد قال المفسرون في حقيقَة تمنيه بقولين:

الأول: أنَه تمنى أن يعلموا بحاله، ليعلموا حُسْن مآله وحميد عاقبته.

الثاني: أنه تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى مثل حاله. ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لقد نَصَحَ قومه حياً وميْتاً[1].

وقد رجَّح الإِمام الزمخشري الاحتمال الثاني، وأيد ابنَ عباس فيا رُوي عنه، وأَخَذَ من ذلك دلالة لطيفة قال فيها:

«وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلمِ عن أهل الجهل، والترؤُّفِ على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتَّشَمُّر في تخليصه، والتلطفِ في افتدائه، والاشتغالِ بذلك عن الشماتة به، والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنّى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرةٌ عبدة أصنام»[2].

تمنى أن يعرف قومه نهايته وعاقبته، لعلهم يُسْلمون.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥: ٢٠.

(٢) الكشاف للزمخشري ٣:٣١٩ ـ ٣٢٠ وعنه أخذ مفسرون آخرون بالنص، انظر: القرطبي ١٥: ٢٠ وقارن بينهما لتقف على كيفية تقويم التفاسير.

لقد قتله قومه، وقضوا عليه، وأوقعوه في خسارة بالغة وما دروا أنهم بذلك قد قدَّموا له خيراً ومعروفاً، لقد جعلوه يغادر هذه الدنيا غيرَ آسف عليها، ويُحرمُ مما فيها من لذات زائلة، وحياة منغَّصة، ويَذهب إلى الجنة الغالية ذات النعيم الدائم والحياة الخالدة.

قدموا له خيراً ومعروفاً من حيث لم يقصدوا ولم يريدوا. ولهذا تمنّى لهم الهداية. فنصحهم في حياته ونصحهم في مماته.

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ متى غَفَر له؟ ومتى أكْرمه؟ بعد نصرته لدين الله، واتباعه المرسلين، ومواجهته للكافرين.

لو بقي على قناعته النظرية، ولو لم يخطُ خَطوتَه العملية فهل كان سينال المغفرة، ويحظى بذلك التكريم؟.

وهكذا كلُّ داعية إلى الله، يصيبه ما يصيبه من أجل دعوته وطريقه، وعندما يعرف ما أعد الله له من جنة ونعيم ومغفرة وتكريم، يتمنى لو يعلم قومه الذين آذوه عاقبتَه، فيأسى لهم، ويشفقُ عليهم، ويحزنُ لحالهم، ويرجو لهم الهداية والإيمان والالتزام ليحظوا بالخير العميم.

وشتان بين الموقفين!.

○ إهلاك أهل القرية:

رفضَ أهل القرية الدعوةَ إلى الإيمان، وكذَّبوا الرسل وآذوهم، واضطهدوا الرجل الذي آمَن. ولعلَّهم قتلوا الرسل والذي آمن معهم.

وبسبب تلك الجرائم استقدَموا عذاب الله وبأسه وانتقامه، فجاءهم سريعاً، إذ لم يرسل الله عليهم جنداً ملائكةً مِن السماء لإهلاكهم، بل أخذهم بالصيحة، قال تعالى: ﴿۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

لقد أخذتهم الصيحةُ من السماء، فإذا هم خامدون كما تخمد النار بعد الاشتعال، إذا هم جثثٌ هامدة بعدما كانوا يملَؤون الأرض حركةً ونشاطاً وبَغْياً وكفراً وإفساداً.

ولقد عذَّب الله كفاراً بالصيحة:

فقوم ثمود لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة قال الله عنهم: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨].

وقوم مدين لما كذبوا شعيباً قال الله عنهم: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥].

وقوم لوط: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر: ٧٤ ـ ٧٥].

وقال الله عن عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٣٨ ـ ٤٠].

وبالنسبة لأهل القرية، وقف الإمام الزمخشري متسائلاً عن الْحِكْمة من عدم إرسال الملائكة جنوداً عليهم لتدميرهم، بل إهلاكهم بِالصَيحة. بينما أنزل الله الملائكةَ يوم بدر والخندق لنصرة رسوله ﷺ وإهلاكِ الكفار من قريش والأحزاب.

قال في الجواب: «إن الله أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض، وما ذلك إلَّا بناءً على ما اقتضتْه الحكمة، وأوجبتْه المصلحة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾.

فإن قلتَ: فَلِمَ أَنْزَلَ الجنودَ من السماء يوم بدر والخندق؟ قلت: إنما كان يكفي مَلَكٌ وَاحد، فقد أُهْلكت مدائن قوم لوط بِريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود بصيحة منه.

ولكن الله فضَّل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل، وَأَوْلاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يُولِ أحداً، فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء.

وكأنه أشار بقوله: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ إِلَى أنَّ إنزالَ الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهَّل لها إلَّا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك»[١].

أما الأستاذُ الإمام سيد قطب فيسجل حكمةً أخرى من إهلاكهم بالصيحة وعدم إنزال الجنود من السماء عليهم. وذلك حيث يقول:

«ولا يطيلُ هنا في وصْف مصرع القوم، تَهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم. فما كانت إلَّا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم.. ويُسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل»[٢].

لمّا جاءهم أمر الله عجزوا عن مواجهته، ولم ينفعهم ما هم عليه من كفر وبغي، ولم يجدوا مَنْ ينصرهم من دون الله.

الصيحة واحدة، فإذا هم خامدون. ليسوا غالبين ولا منتصرين، وغادروا هذه الدنيا أذلّاء مهانين، وهم الذين كانوا يتهددون ويتوعدون، ويقولون للرسل: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ألا ما أَضعفَ الإنسان، وما أعجزه عن دفْع قدر الله إذا ما وقع به.

أما الكافرون فما أشد غباءَهم وجهلهم وسذاجتهم، إنهم يظنون أنفسهم أقوياء، فإذا هم أمام الله ضعافاً مهازيل أذلاء مُهَانين. إنهم يستطيلون على دعوة الله، وينتقصون من دين الله، ويؤذون جنود الله، ويعذِّبون أولياء الله، ويظنون أنفسهم ناجين من عذاب الله. أليسوا جهلاء أغبياء في ذلك التصور وتلك الأعمال؟.

ومتى وقع بهم عذاب الله؟ ومتى أخذتْهم الصيحة،؟ إنها بعد تكذيبهم

---

(١) الكشاف ٣: ٣٢٠.
(٢) الظلال ٥: ٢٩٦٤.

وتعذيبهم للمرسلين. إنهم بذلك قد جَنَوْا نتيجة أعمالهم، وقطفوا ثمار طغيانهم وبغيهم وإجرامهم.

وهذه هي سنة الله في إهلاك القوم الكافرين. حيث يأخذهم بسبب بغيهم وكفرهم. ونتيجة إيذائهم لجنوده وأحبابه وأوليائه.

○ يا حسرة على العباد:

وقبل أن نغادر قصة أصحاب القرية، نقف لحظة أمام تعقيب القرآن على قصتهم، وأخذهم بالصيحة، لنستخلص منه درساً دائماً، وعبرة بالغة.

قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: ٣٠ ـ ٣٢].

قال الأستاذ سيد قطب في بيان هذا التعقيب:

«والحسرة انفعالٌ نفسي على حال مؤسِفة، لا يملك الإنسان شيئاً حيالها، سوى أن يتحسَّر وتألَم نفسُه.

والله سبحانه وتعالى: لا يتحسر على العباد ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسْرة المتحسِّرين! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم!.

يا حسرة على العباد: تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها. ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة، ويسيئون الأدب مع الله»[1].

إن الكفار الظالمين لا يعتبرون مما جرى لمن قبلهم، ولا يتعظون من أحداث التاريخ، ويتعاملون مع الدعاة الناصحين المصلحين بسذاجة وجهل

---

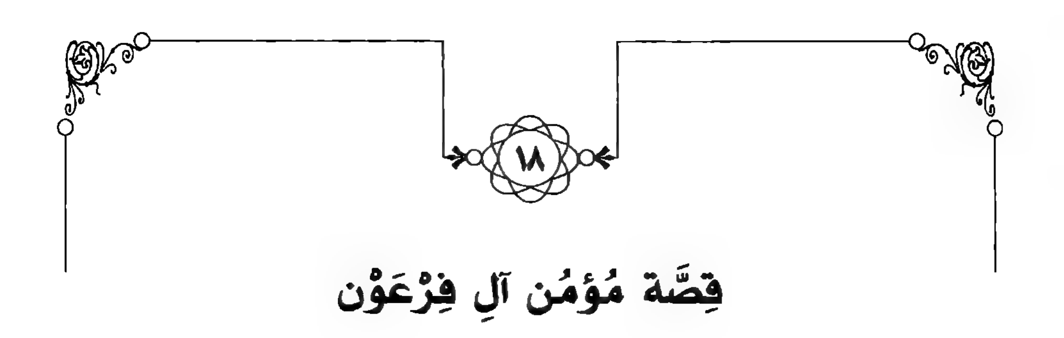
(١) الظلال ٥: ٢٩٦٦ ـ ٢٩٦٧.

وغباء، فيظلمونهم ويؤذونهم ويعذبونهم ويقتلونهم، فتحق عليهم سنَّة الله، فيأخذهم ويهلكهم ويدمرهم.

إنهم بسذاجتهم وغبائهم يستحقون الحسرة والإشفاق والأسى، فيا حسرة على العباد.

تكذيب الكفار بالحق وأهله سنَّةٌ دائمةٌ، واستهزاؤهم بأولياء الله ومحاربتهم سنَّةٌ دائمةٌ، لكن نصرَ الله لأوليائه وإنجاءهم سنَّةٌ، وإهلاكَه للكفار وتدميرَهم سنَّةٌ ربانية. ويا ليت قومي يعلمون!.





قِصَّة مُؤمُن آلِ فِرْعَوْن

○ القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ

مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٤٦].

○ من هو مؤمن آل فرعون؟

اختلف المؤرِّخون والمفسرون في تحديد شخصية مؤمن آل فرعون، وبيان قصته مع فرعون وقومه، وكيف كانت بداية أمره وكيف كانت نهايته.

فقال بعضهم بأنه كان ابن عم فرعون، وأنه كان يكتم إيمانه خوفاً من فرعون على نفسه.

واختلفوا في تعيين اسمه. فمنهم من ذهب إلى أن اسمه «شمعون»، وبعضهم قال: هو «خَيْر»، وبعضهم قال: هو «حَبْرَك». وقيل هو «شمعان» وقيل: «حبيب» ومال كثير منهم إلى أن اسمه «حزفيل»[1].

وقد أورد الثعلبي في «عرائس المجالس» طرفاً من قصته. منه: إنه كان من أصحاب فرعون، وإنه كان نجاراً، وإنه هو الذي صنع التابوت لأم موسى

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١: ٢٦٠.

حين ولدته وألقته في اليم. وقيل إنه كان خازناً لفرعون، خزن له مائة سنة، ولم يُظهر إيمانه إلا من بعد ما أظهر الله موسى ﷺ على السحرة. وإن نهايته كانت مع السحرة، حيث أخذه فرعون معهم، وصلبه مثلهم، وقتله معهم. وإن امرأته هي «ماشطة» ابنة فرعون وإنها كانت مؤمنة مثله، وقد أخذها فرعون بعد قتله وقتلها مع أولادها[1].

○ هو من المبهمات التي لا تبيين لها:

إننا إذا ما توجهنا للمصادر المأمونة الموثوقة، لنسأل عن مؤمن آل فرعون، فإننا سنجدها تسكت عن تفصيلات قصته، وتجعل اسمه من «مبهمات القرآن».

لم يَرد في القرآن تبيين اسمه وتفصيل أحداث قصته، ورسول الله ﷺ لم يبين شيئاً من ذلك. ولقد توقف الصحابة الكرام عن الخوض في قصته، واكتفوا بما ذكره القرآن منها.

ولذلك فنحن نتوقف في قصة مؤمن آل فرعون عند حدود القرآن والحديث، ونعتقد أنه يكفينا ذلك البيان، وأنه يسعنا ما وسع الصحابة والتابعين والعلماء الموضوعيين.

إن مؤمن آل فرعون من «مبهمات القرآن» التي لم تبيَّن فيه، ويجب أن يبقى من المبهمات حيث أبقاه القرآن، ولا يجوز الذهاب إلى الإسرائيليات لتبيين أمره.

وإننا بدل أن نخوض فيما لا علم لنا به، مطالبون بالوقوف أمام قصته في القرآن، لنأخذ منها اللفتات والدلالات والدروس والعبر، في موضوع الإيمان والدعوة والجرأة والشجاعة، والبيان والتأثير والجهاد.

وقد أضرب الإمام ابن كثير عن تفصيلات أمره، وأشار إلى استخراج الدلالات والدروس منها فقال: «والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه،

---

(١) عرائس المجالس «قصص الأنبياء» للثعلبي: ١٦٦.

فلما همَّ فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك، وشاور ملأه فيه، خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه بين الترغيب والترهيب»[1].

○ هو من آل فرعون:

نفهم من القرآن أن هذا الرجل المؤمن كان من آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾. فهو من العائلة الفرعونية المالكة، وليس من بني إسرائيل.

واختيارُ هذا الرجل المقرَّبِ من فرعون القريبِ له الإيمانَ بالله وبموسى، يوحي لنا ببعض الإيحاءات منها:

١ ـ زوال الولاءات والانتماءات والارتباطات العائلية والقبلية والعشائرية والقومية عند تعارضها مع الإيمان، فالإيمان لا يفرق بين شخص وشخص، ولا بين عائلة وعائلة، ولا بين قوم وقوم، وإنما الناس ـ حسب المفهوم الإيماني ـ أحد رجلين: إما مؤمن وإما كافر.

٢ ـ إن هذا الرجل المؤمن كان يملك قلباً سليماً حياً، وفطرة سوية، وأنها لم تفسد بالقرب من الحاكم. وأن الإنسان يقدر على أن يحتفظ بالخير والإيمان والفضيلة مهما كان موقعه، إذا أراد هو ذلك، وسلك الطريق الجاد لتحقيق ذلك.

٣ ـ إن هذا الرجل المؤمن كان يتمتع بإيمان عظيم، أثّر في حياته فقاده إلى الاستعلاء على الدنيا وما فيها، والزهد بمظاهر الحياة والمنزلة الزائفة، وإيثار ما عند الله على الدنيا وما فيها، والزهد بمظاهر الجاه والمنزلة الزائفة. ولذلك دفع تكاليف الإيمان برجولة، وواجه المحن والابتلاءات باستعلاء وجرأة وثبات.

٤ ـ لقد كان بيت فرعون مختَرقاً إيمانياً من الداخل. فقد كان ممثِّلاً

(١) البداية والنهاية ١: ٢٦٠.

للكفر والباطل، وكان قصره قلعة الكفر والباطل، وكان هو يدَّعي الألوهية والربوبية، ويُعبِّد الناس له من دون الله. ولكن الله ـ من باب المكر بفرعون وإظهار ضعف الكفر ـ وجَّه قلوب بعض المقربين من فرعون إلى الإيمان بالله وحده. فها هو هذا الرجل من آل فرعون يختار الإيمان، وتلك هي امرأة فرعون تسير في طريق الإيمان.

٥ ـ كان موسى عليه السلام ناجحاً في دعوته، حيث أوصلها إلى موقع متقدم من قوات خصمه، وجنَّد لها رجلاً يبدو أنه كان مقرّباً من قيادة أعدائه، ولعل هذا الرجل المؤمن كان يقدم لموسى معلومات هامة عن حرب أعدائه له.

○ مشاهد القصة:

عندما نمعن النظر في الآيات التي عرضت قصة مؤمن آل فرعون، فسنجدها تقسِّم قصته إلى أربعة مشاهد وخاتمة:

المشهد الأول: فرعون يتآمر على موسى عليه السلام أو يريد قتله.

المشهد الثاني: ظهور الرجل المؤمن، ودفاعه عن موسى عليه السلام، ونجاحه في مخاطبة الجماهير.

المشهد الثالث: فرعون يُشغل الجماهير، كي لا تستجيب للرجل المؤمن.

المشهد الرابع: الرجل المؤمن يدعو الجماهير لاتباعه.

الخاتمة: الرجل المؤمن يغادر قومه مفوِّضاً أمره إلى الله.

المشهد الأول: ضم الآيات: ٢٣ ـ ٢٧ من القصة.

المشهد الثاني: ضم الآيات: ٢٨ ـ ٣٥ من القصة.

المشهد الثالث: ضم الآيات: ٣٦ ـ ٣٧ من القصة.

المشهد الرابع: ضم الآيات: ٣٨ ـ ٤٣ من القصة.

الخاتمة: ضمت الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ من القصة.

وقد حوى كل مشهد لقطات عديدة، تُبرز أشخاصاً وأحداثاً، وتعرض

مواقف وحركات، وتقدم لنا حقائق ودلالات. بقوة وحيوية، وتصوير وتأثير.

وستكون نظراتنا في اللقطات والمقاطع والمشاهد نظرات تحليلية موضوعية، لتسجيل دلالاتها الإيمانية والدعوية والحركية، ولن نتعرض إلى لفتات فنية بيانية أسلوبية بلاغية إلا قليلاً، لأنها ليست هدفنا من هذا الكتاب. والله المستعان.

○ المشهد الأول:

* موسى يبلغ دعوة الله وفرعون يكيد له:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٧].

إن قصة مؤمن آل فرعون ليست مستقلة، وإنما هي حلقة من حلقات قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، التي وردت في عدة سور من القرآن.

وقصة مؤمن آل فرعون لم ترد في غير هذه السورة. ولهذه السورة اسمان توقيفيان:

الأول: سورة غافر.

الثاني: سورة المؤمن. والمراد بالمؤمن هو هذا الرجل المؤمن، ولعلها سميت باسمه تكريماً له، وإشادة بموقفه، ودعوة المؤمنين لاتباعه والاقتداء به في دعوته.

أغفلت سورة غافر ـ أوالمؤمن ـ تفصيلات قدوم موسى عليه السلام من مدين، وتكليم الله له عند جبل الطور، وآيتي العصا واليد، وتكليف الله له الذهاب ـ مع أخيه هارون ـ إلى فرعون وقومه، ودعوتهم إلى الله وإخلاء سبيل بني إسرائيل.

أغفلت السورة هذه التفصيلات، وتفصيلات مواجهة موسى لفرعون، ومشاهد التحدي والمباراة، وإيمان السحرة وثباتهم، وخروج موسى مع قومه ولحوق فرعون بهم، ونجاتهم وهلاكه.

لقد أبرزت سورة غافر ـ أو المؤمن ـ موقف الرجل المؤمن، لأنه هو المقصود من السورة.

نظرة فنية في لقطات المشهد:

ضم المشهد الأول هذه اللقطات:

اللقطة الأولى: الطواغيت الثلاثة ـ فرعون وهامان وقارون ـ على مسرح الحكم والتوجيه يمارسون الفساد والطغيان على الجماهير.

اللقطة الثانية: موسى عليه الصلاة والسلام يأتي إلى الطواغيت الثلاثة، ويدعوهم إلى الإيمان بالله، والكف عن الفساد والطغيان.

اللقطة الثالثة: الطواغيت الثلاثة يرفضون دعوة موسى عليه السلام، ويتهمونه بأنه ساحر كذاب.

اللقطة الرابعة: موسى عليه السلام يقدم ما عنده من الآيات والمعجزات للتدليل على صدقه ونبوته.

اللقطة الخامسة: الطغاة يحاربون دعوة موسى عليه السلام بمحاربة أتباعه: بقتل أولادهم واستحياء نسائهم.

اللقطة السادسة: الطاغية فرعون يكيد لموسى عليه السلام، ويريد قتله، ويطلب من قومه الإذن له بذلك، ويقدم الأسباب الوجيهة لتبرير طلبه.

اللقطة السابعة: موسى عليه السلام يعوذ بربه ويلجأ إليه، ويعتصم به، في مواجهة كيد فرعون له، ويقدم الأسباب الحقيقية لطلب فرعون قتله، ويبين سر انحراف شخصيته!.

وبهذه اللقطة يُخْتَم المشهد الأول، فتكون هذه هي الخاتمة الطبيعية وتكون خاتمة فنية بيانية مؤثرة، وخاتمة موضوعية بليغة.

إن موسى عليه السلام ـ في هذا المشهد ـ يختم مهمته، ويغادر قومه ـ مغادرة فنية من خلال الآيات ـ وهو عائذ بربه، ملتجئ إليه، متوكل عليه، وبهذا الزاد الإِيماني العظيم يواجه مؤامرة فرعون على حياته، ويواجه فرعون نفسه برجولة وإيمان وثبات وجهاد.

وكأن الآيات تريد أن تقر هذه الحقيقة الإِيمانية الدعوية في كيان المؤمنين وهم يقرؤون الآيات، ليقتدوا بموسى عليه السلام في هذا الموقف.

لن نجد خاتمة فنية أفضل من هذه الخاتمة، ولن نجد خاتمة إيمانية دعوية أجود من هذه الخاتمة!.

*** وسائلهم في مواجهة الحق:**

جاء موسى عليه السلام فرعون وقومه بالحق من الله، وقدم لهم الآيات والمعجزات التي تدل على صدقه ونبوته. ولكنهم بدل أن يخضعوا للحق الباهر الذي معه، وأن يتبعوه ويدخلوا في دينه، كذبوه واتهموه بالسحر والكذب، وقالوا عنه: ساحر كذاب.

ويا ليتهم اكتفوا بالكفر به وتكذيبه ـ وهو موقف شنيع وجريمة منكرة ـ ولكنهم انتقلوا إلى مرحلة أخرى، أشد كفراً وطغياناً وإفساداً.

حاربوهُ حرباً حاقدة، واتخذوا في ذلك وسيلة خسيسة، لا تتفق مع عرف ولا قانون ولا أخلاق، حاربوه من خلال أتباعه، حيث قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا واستحيوا نساءهم.

هي وسيلة تدل على ما في قلوبهم من حقد وكيد وانتقام، ملأ تلك القلوب الجامدة، فأخرج منها كل معاني العطف والبر والخير والرحمة والإِنسانية.

لماذا يقتلون الأبناء ويستحيون النساء؟.

يفعلون هذا ليقفوا في طريق الدعوة، ويوقفوا انتشارها بين الآخرين، حيث سيفكر هؤلاء الآخرون طويلاً قبل انضمامهم للدعوة، خوفاً على أبنائهم ونسائهم.

وهم يفعلون هذا ليضغطوا على المؤمنين ضغطاً مؤلماً، ومن النقطة التي تؤلمهم أكثر من غيرها، والتي يظنونها نقطة ضعف عندهم، وقد تقودهم إلى التخلي عن الدعوة والداعية. إنها نقطة الأسرة والعائلة، والأولاد والبنات. وهي نقطة ضعف حقاً، والضغط عليها مؤلم جداً، قد يفضي بأناس إلى التخلي عن الحق فعلاً.

لكن اتجاههم لمحاربة أناس أبرياء ـ هم الأولاد والنساء ـ يمثل ظلماً وعدواناً منهم، لأنهم يأخذون الأبرياء بشيء لم يفعلوه. كما يمثل حقداً وكيداً وقسوة، لأنهم يحاربون أطفالاً صغاراً ضعافاً لا طاقة لهم بالحرب، ولم يستعدوا لها.

ألم نقل إنها وسيلة خالية من كل معاني الرحمة والإنسانية، وإنها لا تتفق مع عرف أو حق أو مبدأ أو قانون؟ ولكن متى كان أصحاب الباطل يلتزمون بالقوانين والمبادئ في محاربة الحق وأهله؟.

بقي أن نقول: إن وسيلة: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم. ليست خاصة بفرعون وقومه، ولكنها وسيلة دائمة مطَّردة، يستخدمها أصحاب الباطل دائماً في مواجهة أصحاب الحق. وكم وعى التاريخ، وسجل في ذاكرته ـ في القديم والحديث ـ من نماذج شديدة أليمة لهذه الوسيلة الشيطانية الحاقدة!.

*** لماذا يطلب فرعون السماح بقتل موسى؟**

وجه فرعون كيده وحقده ضد موسى عليه السلام، وأراد قتله ليقتل بذلك دعوته، وطلب من قومه الإذن له بذلك: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

والعجيب في طلب فرعون من قومه الإذن بقتل موسى! لقد كان يحكم فيهم كما يشاء، وما كان يجد بينهم مخالفين، لقد كانوا معه في آرائه، حتى عندما ادعى الألوهية والربوبية؟.

فما معنى أن يطلب الإذن منهم بقتل موسى؟ وهم لن يعارضوه لو فعل!.

لعله أراد من هذا الطلب أن يظهر بمظهر الحريص على مشاركة قومه، المستشير لهم.

ولعله أراد أن يشركهم معه في هذا الأمر الخطير، وأن يُشعرهم بأن موسى عدوهم مثل ما هو عدوه، وأنهم أصحاب قضية، فيتحمسون في معاداته!

ولعله أراد أن يحمِّلهم نتيجة قتله، حتى لا يفكروا في مساءلة فرعون أو محاسبته!.

إن الطواغيت ـ أينما كانوا ـ يسلكون طريق فرعون في محاربة الحق وقتل قادته ورجاله، وهم يشركون معهم شعوبهم في تحمل وزر وإثم ودماء هؤلاء، فيعملون استبيانات، ويُعدُّون استفتاءات، ويُجْرون لقاءات ومقابلات، يخرجون منها بما يشاؤون من قرارات.

*** توقُّح فرعون في قوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾:**

يريد فرعون أن يقتل موسى، وهو لا يحسب حساباً لربه، ولا يخاف منه ولا يوقره، وقد ترجم عن هذا بقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

وهذه الكلمة الفاجرة تدل على تبجحه ووقاحته واستهتاره. إنه كافر برب موسى مستخِفٌّ به. لِيدْع موسى ربه فإن هذا لن يخيف فرعون، ولن يوقفه عن قتله.

إن عدم الخوف من الله، هو السبب في إقدام أي طاغية على محاربة دعاة الحق وإيذائهم وقتلهم، ولو كان هذا الطاغية مؤمناً بالله، موقراً له، لما آذى أولياءه.

وهذه العبارة الفرعونية الفاجرة، يرددها الطغاة عندما يحاربون جنود الله، يقولها بعضهم بألسنتهم، ويتصرف بعضهم وفقها في أعمالهم وسلوكهم.

عندما آذى طغاةٌ دعاةً إلى الله، ووضعوهم في السجون، وصبّوا عليهم أصناف التعذيب، توجه أحد الدعاة إلى الله، واستغاث به، وقال: «يا الله» فما كان من ذلك الجلاد الطاغية إلا أن قال: «لو جاء ربك لوضعتُه معك في الزنزانة!». وهو عندما قالها كان أفجر من فرعون وأوقح وأقسى!.

*** فرعون يزعم الدفاع عن الأمن والدين:**

ما هي الأسباب التي سيقدمها فرعون إلى قومه؟ ويبرر بها قَتل موسى؟

إنها في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

هما سببان: **الأول**: الحفاظ على الدين، فموسى عدو للدين، وفرعون حريص عليه.

الثاني: الحفاظ على الأمن، فموسى ضد الأمن، وفرعون هو حامي الأمن.

فرعون الكافر، الذي قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وقال لهم: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ أصبح غيوراً على الدين، حارساً له من التغيير والتبديل، الذي يتهدده على يد موسى.

وفرعون المفسد بطغيانه وكفره، المخرب بتجبره وتكبره، أصبح داعية إصلاح وخير وأمن ورفاه.

وهذا التعليل الفرعوني، هو الذي يلجأ إليه كل طاغية في محاربة الحق وأهله. يقدم الطاغية نفسه للناس على أنه المؤمن المتدين، الحارس على الإيمان، الحريص على الفضائل، الغيور على الأخلاق، الراغب في التعمير والتقدم والأمن والازدهار. بينما يقدم هذا الطاغيةُ الدعاةَ إلى الله على أنهم مفسدون مخربون، ضالون مضلون، أعداء الله والأمة والوطن، وحلفاء الشيطان ورؤوس الفتنة، ودعاة الضلال، ولهذا يجب القضاء عليهم قبل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

قال سيد قطب عن تبرير فرعون لقتل موسى واستخدام الطغاة له ضد الدعاة: «فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني، عن موسى رسول الله عليه السلام إني أخاف أن يبدل دينكم، أو أن يُظهِر في الأرض الفساد.

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟.

إنه منطق واحد، يتكرر كلما الْتقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الأزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة

مكرورة، تُعرض بين الحين والحين»[1].

*** موسى عليه السلام يلجأ إلى ربه:**

كيف واجه موسى كيد فرعون وحقده ومكره وعدوانه؟ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

لقد لجأ موسى إلى ربه، وعاذَ به، وتوكل عليه، وفوَّض أمره إليه، لأنه يعلم أن الله حسْبُه وكافيه وكافله، وأنه سيعيذه وينجده، ويخلصه من كيد فرعون وعدوانه.

وهذا الموقف الإيماني العظيم من موسى عليه السلام، يجب أن يكون مثالاً يُحتذى، من قِبل كل داعية، يواجَه بكيد وحقد الطغاة. إنه ليس له إلا الله، ولا ينجيه إلا الالتجاء إليه واللَّوْذَ بِحِماه. وهذا هو صريح الإيمان وشرطه، فإن لم يفعل ذلك، ولجأ إلى البشر الضعاف المهازيل، فإن هذا يقدح في إيمانه، ويخدش عقيدته، ثم هو لن يجد عندهم حلاً ولا خلاصاً ولا نجاة.

كل داعية يردد بلسانه قولة موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ويعيشها حقائق حياتية مُعاشة!.

*** موسى عليه السلام يحلل نفوس الطغاة:**

إن كلام موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يقدم لنا التعليل الصحيح والتفسير الصائب والتحليل السليم لمواقف الطغاة. ويحلل لنا نفسية كل طاغية، وسر طغيانه.

إن الطغيان له سببان، يدعوان صاحبه إلى الطغيان والبغي والعدوان.

أولهما: التكبر. فهو الذي يدفع هؤلاء إلى ارتكاب الجرائم والإفساد في الحياة، وهو الذي يمنعهم من التنازل عن المكاسب المحرمة التي حصَّلوها، والمظاهر الفارغة التي يحيطون نفوسهم بها. إن التكبر هو المانع لهؤلاء عن الانقياد للحق والإذعان له واتباع دعاته.

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٣٠٨٧.

إنه لا يرفض الحق إلا متكبر. ولا يحارب أهله إلا متكبر.

ثانيهما: الكفر بيوم الحساب. فالطاغية يظن أن حياته الدنيا هي كل شيء، ويعتقد أن قوته باقية وسلطانه دائم. ولو آمن هذا بيوم القيامة، وخاف الحساب في يوم الحساب، لأقلع عن بغيه وطغيانه.

سبب الجرائم والانحرافات هو الكفر بيوم الحساب.

وصمام الأمان للإنسان وأساس إصلاح الحياة هو الإيمان بيوم الحساب، هو الكفيل بردْع الطاغية عن طغيانه. وإذعانه للحق واستسلامه له.

*** ظهور الرجل المؤمن في الوقت المناسب:**

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾.

كان هذا الرجل يكتم إيمانه، ثم اضطر إلى إظهار إيمانه، ويبدو أن الذي دفعه إلى إظهار إيمانه هو قول فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ حيث اعتبر هذا الكلام تهديداً مباشراً لحياة موسى عليه السلام. وموسى هو قائده، إن حياة قائد الدعوة في خطر، مما يجعل الدعوة نفسها في خطر، فهل يبقى كاتماً لإيمانه؟ وماذا ينفعه إيمانه الذي يكتمه لو قُضي على قائد الدعوة، ولو قُضي على الدعوة نفسها؟.

إذا جاز له كَتمُ إيمانه في السابق فلأنَّ الظرف كان يسمح بذلك، أما الآن فلا يجوز له ذلك.

لقد كان هذا الرجل المؤمن بين خيارين أحلاهما مرّ.

فإما أن يبقى كاتماً لإيمانه، مؤثراً السلامة والعافية، ولو قضِي على الدعوة وقائدها.

وإما أن يُظهِر إيمانه، ويتقدم للدفاع عن دعوته وقائده، ولو كَشَف أمره، وعرّض نفسه للأذى والخطر.

لقد اختار الخيار الثاني، وكان رجلاً عظيماً في إظهار إيمانه، كما كان من قبل رجلاً عظيماً في كتم إيمانه!.

ولعل هذا الموقف الإيمانيَّ الدعوي من هذا الرجل المؤمن، يقدم لنا مَعْلَماً من معالم الدعوة إلى الله، ودرساً دعوياً ضرورياً للدعاة، وتعليماً لكل داعية: متى يكتم دعوته ويُسر بها، ومتى يُظهر دعوته ويجهر بها!.

طيب وجيد أن يكتم بعض الدعاة دعوتهم أحياناً، وأن يُسِروا بها، لكن قد تجدُّ ظروف جديدة، تحتم على هؤلاء تحديد مواقفهم، وتدعوهم إلى إظهار دعوتهم والجهر بإيمانهم. فإذا ما آثر أحدهم الإسرار والكتمان في هذه الظروف، فقد يكون هذا نوعاً من الجبن أو التهرب، أو إيثار السلامة والعافية، أو الركون إلى الدنيا، أو تقديم المصلحة الشخصية على مصلحة الدعوة.

إن مصلحة الدعوة مقدمة على مصلحة الدعاة الشخصية، ومنافعهم الذاتية. وإذا كان كتمان الدعوة والإسرار بها في بعض الظروف حنكة وفطنة وبُعد نظر، فإن الجهر بالدعوة وإظهار الإيمان في أحيان أخرى يكون أكثر حنكة وفطنة ورجولة وثباتاً وإقداماً.

فليعرف كل داعية متى يكتم دعوته، ومتى يُظهرها، ولينسق بين الموقفين بتناسق وموضوعية ورجولة واتزان. وليكن دافعه إلى الكتمان أو الإعلان مصلحة الدعوة وقوتها وتقدمها وانتصارها.

○ المشهد الثاني:

* دفاع المؤمن عن موسى ونجاحه في مخاطبة الجماهير:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ

﴿... فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٣٥].

تقدم الرجل المؤمن في الوقت المناسب، وأعلن إيمانه؛ وواجه فرعون وطغيانه، ودافع عن موسى دفاعاً ناجحاً، وعَرض على الجماهير دعوته عرضاً موفقاً، ونجح في مخاطبتهم نجاحاً باهراً، وسلك في ذلك أساليب رائعة.

لقد حدد أسلوبه وعباراته تحديداً مبرمجاً. وانتقل مع الموجودين بدعوته من مرحلة إلى مرحلة، ومن موقع إلى موقع، وكان مدرِكاً لما يقول مخطِّطاً ومبرمِجاً له.

وهو يقدم للدعاة درساً دعوياً بالغاً في طريقة عرض الدعوة وأساليب التأثير في السامعين. يجب أن يقتدي به كل داعية يتحرك بدعوته، ويبغي النجاح في أسلوبه.

تلطف هذا الرجل المؤمن في دعوته، ورتب خطواته، وحدد كلامه، وانتقل من خطوة إلى خطوة، ومن مرحلة إلى مرحلة، وبنى المراحل والخطوات والمواقف على بعضها. وقام بجولة دعوية موفقة.

ظهر على المسرح ـ كما يبدو من العرض القرآني ـ وقد كان فرعون هو الآمر الناهي المتآمر على موسى عليه السلام، كان فرعون هو المتكلم الوحيد، والكل له مستمعون. هو يزهو وينتفش وينتفخ ويهدد ويتوعد ويتوقح.

برز له الرجل المؤمن، ووقف أمامه، وصار يخاطب الجماهير خطاباً مؤثراً، وبدأ يكسبهم إلى جانبه، وفي كل موقف منه وحركة، يُحرج فرعون ويفحمه ويضيق عليه، ويُظهره أمام الآخرين في صورة الباغي المتجبر المتكبر النزق، الذي لا يملك حجة ولا برهاناً ولا منطقاً ولا إقناعاً.

وصار يتحكم في المسرح وما يعرَض فيه، ويخفت صوت فرعون، ويتلاشى وجوده. وما أن انتهى من بيانه وإعلانه وخطابه حتى خَلا المسرح من

فرعون، وانتصب الرجل المؤمن عليه وحده داعياً موجهاً ناصحاً، والكل له سامعون، ولبيانه متأثرون.

ثم غادر المسرح بعد أن قام بواجبه، وعرَّفهم به وبدعوته. غادر المسرح متوكلاً على ربه، مفوضاً أمره إليه. ويُسدَل الستار.

لئن نجح الرجل المؤمن أولاً في كتم إيمانه، فقد كان نجاحه أعظم بعد ذلك في إظهار إيمانه. ولئن كان فطناً ذكياً في كتم إيمانه، فقد كان أكثر فطنة وذكاء في إظهار إيمانه، ولئن كان رجلاً في كتم إيمانه، فقد كان أقوى رجولة من بعد في إظهار إيمانه!.

*** لقطات المشهد الثاني:**

لقد ختَم المشهد الأول بلقطة إيمانية رائعة. لجأ فيها موسى عليه السلام إلى ربه، وفوض أمره إليه، واعتمد عليه في مواجهة فرعون وكيده ومكره.

وبدأ المشهد الثاني بلقطة إيمانية رائعة، لمؤمن آل فرعون، يدافع فيها عن موسى عليه السلام، وينكر على فرعون وقومه رغبتهم في قتل موسى عليه السلام.

لكن الحاكي يقدم الرجل المؤمن الذي سيصعد إلى المسرح، ويعرِّف الموجودين عليه، حيث يصفه بقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾.

ويمكن أن نلاحظ في المشهد الثاني هذه اللقطات:

اللقطة الأولى: ظهور الرجل المؤمن، وإنكاره على قومه رغبتهم في قتل موسى عليه السلام، وتخويفهم من الإقدام على هذه الجريمة.

اللقطة الثانية: ظهور فرعون، ومخاطبة قومه بأن الرأي رأيه، والطريق طريقه، وما عليهم إلا السير معه.

اللقطة الثالثة: ظهور الرجل المؤمن بعده، ووقفته المطولة يخاطب الجماهير، يذكِّرهم بالماضي ويبصرهم بيوم القيامة، يستخدم في هذا الخطاب شتى المؤثرات.

ونلاحظ في هذه اللقطات الثلاث، أن وقوف الرجل المؤمن أمام الجماهير كان طويلاً، وعرْضَه وبيانه كان شاملاً، بينما كانت «فقرة» فرعون على المسرح قصيرة، وعبارته فيها قليلة، ويبدو فيها تكبره وطغيانه وجبروته واستخفافه بالآخرين.

*** نظرة في البيان الدعوي للرجل المؤمن:**

استخدم الرجل المؤمن في بيانه الدعوي مؤثرات مختلفة، ووظَّف فيه موضوعات عدة، وقدم فيه حقائق ومبادئ، وكان متمتعاً بثقافة تاريخية ونفسية وبيانية ودعوية وسننية. . .

وسوف ننظر في بيانه نظرات سريعة متعجلة:

١ ـ في قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾؟.

تجاهَل فرعون المنتفش على المسرح، والداعي إلى قتل موسى بقوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وتوجه بكلامه للجماهير ـ التي طلب منها فرعون الإذن ـ تجاهل فرعون لأنه ليس مقصوداً بكلامه، لأنه يعلم أنه لن يستجيب له، فلماذا يضيِّع وقته معه؟ فلْيتوجه بكلامه لمن يُرْجى منه الاستجابة.

أتقتلون رجلاً: كيف يقول لهم ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾ والذي سيقتل فرعون وليس هم؟ إن فرعون يطلب منهم الإذن بالقتل، فإن وافقوه على ذلك، فهم شركاء معه في الجريمة، وهم قتلة مثله. ويريد الرجل المؤمن أن يخوِّفهم مما هم مقدمون عليه، وأن يحمِّلهم مسؤولية قتل موسى، إن وافقوا فرعون على ذلك؛ لأنه سيقتله باسمهم وبموافقتهم! إن الموافق على القتل قاتل، وإن لم يشترك في عملية القتل عملياً، وإن الساكت عن نصرة المظلوم القتيل قاتل كذلك، لأنه أعان بسكوته القاتل على جريمته.

٢ ـ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾: بهذا التنكير، ليدل على حياديته في الموضوع أولاً، ولرغبته في عدم الكشف عن كل أوراقه الإيمانية أمامهم دفعة واحدة، ليضمن إقناعهم. لم يقل: أتقتلون موسى رسول الله وأنا على دينه؟ وإنما ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾؟.

٣ ـ أن يقول ربي الله! ما هي الجريمة التي استحق بها القتل؟ هل قوله: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ يعتبر جريمة؟ ثم هو يقدمه للناس ليتعرفوا عليه وعلى دعوته بعبارة موجزة. إنه يقول: ربي الله.

ثم هو يلمزهم بطريقة خفية ليزحزحهم عما هم فيه. إن موسى يقول: ربي الله. وهم يقولون: ربنا فرعون. وشتان بين القولين؟.

٤ ـ ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ إنه يملك الأدلة على دعوته، وإنه قد جاءكم أنتم بالبينات، من ربكم. فربكم هو الله، وليس فرعون كما تزعمون.

٥ ـ ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

هذا هو الأسلوب الدعوي الحكيم، إنه يريد أن يوجِد عند المدعوين اهتماماً بالدعوة وصاحبها، ويدعوهم إلى النظر إلى ذلك بحيادية وموضوعية، وأن يفكروا ويُعملوا عقولهم.

إن موسى إما كاذب في دعوته وإما صادق! هل هناك احتمال ثالث؟.

ومن باب الموضوعية والحيادية قدم احتمال الكذب. فإن كان كاذباً فعليه كذبه، ولن يؤاخذهم الله هم بسببه! لكن ألا يمكن أن يكون صادقاً في دعواه؟ ـ ولو من باب الاحتمال فقط ـ الجواب: نعم. فما موقفهم فيما لو صح هذا الافتراض ورجَح هذا الاحتمال؟ ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

لقد رجَّح لهم احتمال صدقه عندما قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فبما أن الله هدى موسى وأيده بالمعجزات، فهو صادق وليس كاذباً.

٦ ـ ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

استخدام من الداعية الحكيم للمؤثر الدنيوي الاقتصادي الحضاري، وهو

يهم الجميع، لأنهم لا يريدون أن يفقدوا ملكهم وسلطانهم، فإذا آذوا موسى فسينتقم الله منهم، ويوقع بأسه وعذابه بهم، من ينصرهم عندها؟ فرعون؟.

ولاحِظْ تحببه إلى قومه وتقربه منهم، واعتبار نفسه واحداً منهم، يهمه أمرهم، ويحرص على مصلحتهم. ويبدو هذا من قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، ومن جعْله نفسه معهم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾.

٧ - ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾.

استخدام منه للمؤثر التاريخي الذي يحقق وعد الله، ويصدق تحذيره لهم. وكأنه يقول لهم: التفتوا للتاريخ الماضي وادرسوه، وانظروا كيف دمر الله الأحزاب من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الكفار. لقد كفروا بالله وآذوا جنوده، فأوقع الله بهم بأسه، فدمرهم وأهلكهم، ولم ينصرهم أحد. انظروا في التاريخ لتلاحظوا صدق كلامي لكم. يا قوم.

٨ - ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾.

إنه يخاف عليهم ما ينتظرهم في المستقبل يوم القيامة، يوم التناد، يوم ينادي الناس بعضهم على بعض، فلا يستجيب بعضهم لبعض، ويولّون مدبرين.

ما لهم من الله من عاصم في الدنيا، وما لهم من الله من عاصم يوم القيامة. فكيف يؤذون رسول الله موسى عليه السلام؟.

٩ - ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾.

وهي لفتة تاريخية عقيدية. حيث يذكِّرهم بيوسف عليه السلام، وموقفهم منه، وشكهم في رسالته، وفرحهم بموته، وظنهم انقطاع الرسالة بعده. إنهم يعلمون هذا الموقف لأجدادهم، وهو فقط يذكِّرهم به. أما المؤثر الإيماني، فهو استخدامه رسالة يوسف عليه السلام في إثبات رسالة موسى عليه السلام.

إن موسى مرتبط بيوسف عليه السلام من حيث النسب ومن حيث الرسالة.

أما من حيث النسب فهذا متفق عليه.

وأما من حيث الرسالة فطالما ثبت أن يوسف رسول الله، فيثبت أن موسى رسول الله، والله الذي أرسل يوسف من قبل بالبينات، هو الذي أرسل موسى الآن بالبينات.

ثم يهدف إلى شيء آخر ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ إنه يذكِّرهم بموقفهم من يوسف عليه السلام الذي يقوم على الشك والجحود، ويدعوهم إلى عدم تكرار الموقف مع موسى عليه السلام. فلماذا نفس الموقف يكررونه؟ ألا يتعظون من الماضي؟.

إن المؤمن الداعية يستخدم في هذا المشهد عدة مؤثرات ودلالات وإيحاءات: نفسية وتاريخية وعقيدية واقتصادية واجتماعية وحضارية.

إنه يقرن بين أسلوب الترغيب وأسلوب الترهيب، وبين أسلوب التذكير وأسلوب التخويف. ويوظف ثقافته الشاملة، وبيانه المؤثِّر، وموضوعيته الملحوظة، وعقليته المتفتحة في الوصول إلى قلوب السامعين، وقد فعل!.

○ المشهد الثالث:

* فرعون يُشغِل الجماهير:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

نجح مؤمن آل فرعون ـ كما لاحظْنا في المشهد الثاني ـ في الوصول إلى قلوب الناس والتأثير فيهم، ولمس قلوبهم لمسات لطيفة مؤثرة، وأقصى فرعونَ الطاغيَ عن الحضور المؤثر، والبيان الناجح، بحيث كان فرعون لا يظهر عليهم إلا بتكبر وعجرفة واستعلاء.

ويبدو أن فرعون لاحظ نجاح المؤمن في الوصول إلى الناس والتأثير فيهم، وخشي فرعون أن يفلت الأمر من يديه، وأن يتحول الناس عنه إلى الرجل المؤمن ودعوته.

فاضطر فرعون إلى التراجع عن طلبه الأول بالسماح له بقتل موسى، وقام بحركة خبيثة ماكرة، وقدم للناس مسرحية عابثة بهدف إلهائهم وإشغالهم.

طلب من وزيره «هامان» أن يبني له صرحاً عالياً، وبناءً شامخاً، يصل إلى عنان السماء، وذلك بهدف صعوده إلى السموات ليبحث فيها عن إله موسى، وهو لن يجده، ولكنه يريد أن يكشف كذبه أمام الجماهير، ويُري حقيقته لذلك الرجل المؤمن الذي يدافع عنه!.

* هامان وصرحه:

ذكر القرآن اسم «هامان» ست مرات، وفيها كلها كان مقترناً بفرعون. مما يدل على أنه كان يعمل عنده، وكان مقرَّباً منه، مستشاراً له، منفذاً لتعاليمه وأوامره.

ولا نعرف عن هامان أكثر من هذا، ولا نَسْتفت في أمره غير القرآن والحديث الصريح.

ففي قصة مؤمن آل فرعون نجد أن فرعون قد طلب من وزيره «هامان» أن يبني له صرحاً. والصرح هو البنيان المرتفع العالي كالبرج.

وقد أشارت سورة القصص إلى هذا الصرح: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

ونفهم من آية سورة القصص أن هذا الصرح بُني من الطين المحروق ـ وهو «اللَّبِن» أو «الطوب» ـ وأن فرعون أوهم الناس أنه يريد أن يصعد فيه، ليبلغ أسباب السموات، وأسباب السموات هي طرقها وأبوابها ومسالكها، ليبحث فيها عن إله موسى!.

* أهداف فرعون من بناء الصرح:

قلنا إن هذه الحركة المسرحية من فرعون، أراد بها إشغال الجماهير وإلهاءهم، فكيف؟ وما هي أهدافه منها؟.

إنه بهذه الحركة يحقق عدة أهداف:

١ ـ إنه بها يُنسي الناس القضية الأساسية، وهي الدعوة الناجحة التي عرضها الرجل المؤمن، وذلك بإشغالهم بأمر ثانوي وهو بناء الصرح ومتابعته.

٢ ـ كما يريد أن يُنسيهم الدعوة والتفكير فيها عن طريق عامل الزمن، وبناء الصرح فيه تأخير وتسويف وتطويل وإِشْغال. إن التطويل والتأخير مقصود من البناء، بل إن الكلمات التي عرضت الأمر تساعد على تطويل المشهد ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ . التطويل في تحويل التراب إلى طين، ثم الإِيقاد على الطين، وإشعال النار تحته، ثم حرق الطين ليكون آجُرًّا، ثم استخدام هذا الآجُر المحروق في بناء الصرح. وبعد الانتهاء من عملية البناء المطوَّلة يصعد فيه فرعون بتمهل وبطء، وهناك يبلغ أسباب السموات وطرقها، ويبحث فيها بحثاً متأنياً عن إله موسى. ثم يعود إلى الجماهير من رحلته الطويلة المتأنية ليخبرها بما وجده هناك!.

كل هذا التطويل والبطء، والجماهير تنتظر نتيجة هذه الرحلة الفرعونية. وسيمر عليهم الزمن الطويل وهم ينتظرون، بحيث ينسون حجج الرجل المؤمن التي سمعوها.

٣ ـ ثم هو يريد من بناء الصرح أن تفقد حجة الرجل المؤمن عند الجماهير قوتَها وحيويتها. إنهم الآن يفكرون بها لأنها حية ساخنة، لها دفْعُها وحيويتها وسخونتها. أما إذا انشغلوا عنها ببناء الصرح، فستتحول من قضية رئيسية عند الجماهير لها المقام الأول، إلى قضية ثانوية هامشية فرعية، عندها سوف تبرد في تصورهم وتفكيرهم، لتتحول إلى قضية نظرية جامدة باردة.

٤ ـ يريد أن يَظهر أمام الناس بمظهر الموضوعية والمنهجية، والبحث الجاد، وأنه لم يكذِّب موسى إلا لأنه لم يجد إلهه الذي يبحث عنه. أظهر أنه جاد في بناء الصرح، وجاد في البحث عن إله موسى. وما هو في العملية كلها إلا هازل ساخر عابث!.

وعندما نتصور ما سينفق في بناء الصرح من أموال، وما يبذَل له من

طاقات وقدرات، وما تضيع فيه من أوقات، وهذه هي أهداف بنائه، نقف على صورة من استخفاف الطغاة بعقول الجماهير، وإشغالِهم لها بالتوافه لتنسىٰ الحقائق، وتضييعِهم الأموال والأوقات والجهود والطاقات، فيما لا يقدم للناس خيراً ولا نفعاً. فكم وكم ينفقون من هذه الضروريات في مسرحيات هازلة عابثة. وكم يذهب من هذه المقومات إرضاءاً لشهوات الطغاة!.

*** تراجع فرعون أمام منطق المؤمن:**

تدلنا الآيات على أن فرعون قد تراجع خطوات أمام منطق الرجل المؤمن، وحسن بيانه، وتأثيره فيمن خاطبهم. ولم يكن تراجع فرعون اقتناعاً منه حقيقياً بحجج الرجل ولا قبولاً لدعوته، وإنما كان تراجعه حتى لا يكسب الرجل المؤمن الجماهير، ولا ينتصر على فرعون أمامهم.

وقد تمثل تراجعه في الأمور التالية:

١ ـ في السابق قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾، والآن يتراجع عن هذا الطلب، ويطلب بناء الصرح بحجة البحث عن إله موسى.

٢ ـ في السابق طلب من قومه الإذن له بقتل موسى، والآن يطلب من قومه الحيادية والانتظار، ليطلعهم على نتيجة رحلته في السموات.

٣ ـ في السابق جزم بأن موسى ساحر كذَّاب، والآن تراجع عن الجزم إلى الظن والحدس: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾.

وفرعون الظالم الطاغية لم يتراجع إلا أمام قوة الرجل المؤمن، القوي بإيمانه، المعتز بربه. كما يدل تراجعه على هزيمته الفكرية ـ وهو صاحب الأمر والسلطان ـ أمام الرجل المؤمن ـ المجرد من مظاهر القوة المادية ـ.

وهذه هي طبيعة الباطل المنتفش الغاشم، إذا وقف أمام الحق الواضح القوي المتين، فما من لقاء أو مواجهة أو معركة فكرية بين الحق والباطل، إلا ويخرج الباطل منها مهزوماً ضعيفاً، ويخرج الحق منتصراً ثابتاً، فيضطر الباطل المهزوم فكرياً إلى استخدام الوسائل الحيوانية: وسائل الجلد والسوط والإِيذاء والاضطهاد والتعذيب والقتل.

وسلوا التاريخ القديم والوسيط والمعاصر، يقدم لكم الجواب على مصداقية هذه الحقيقة.

○ المشهد الرابع:

*** الرجل المؤمن يدعو الناس إلى اتباعه:**

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٤٣].

الرجل المؤمن ذكي فطن. لقد أدرك هدف فرعون من بناء الصرح. فرد على ذلك المكر الفرعوني الخبيث، بحركة علمية دعوية ومدروسة، حيث طلب من الناس الذين سمعوا له وسمعوا لفرعون طلباً إيمانياً محدداً. طلب منهم اتباعه.

لقد تكلم معهم نظرياً بما فيه الكفاية، ولقد بذل جهده في الإقناع والتأثير. والآن بقي عليه أن يحقق الغاية من ذلك الكلام والجدل والبيان. إنها الغاية العملية التي تتمثل في اتباعهم له، واختيارهم لدعوته.

وشرح لهم دعوته بإيجاز، وعرض عليهم أهم حقائقها وأسسها، ليقيم عليهم الحجة، ولا يُبقي لهم عذراً في الجهل بها، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

لكنه متى طلب منهم اتِّباعه؟ لم يطلب هذا في أول لقاء بينه وبينهم، ولو فعلها لصُدموا بكلامه، وفوجئوا بدعوته، وعندها يتخلون عنه.

طلب منهم اتِّباعه بعد حلقات مسلسلة مدروسة بعناية، وبعد استخدامه عدة مؤثرات للتأثير فيهم، وبعد ما وصل إلى عقولهم وقلوبهم.

إن دعوته الناس إلى اتباعه، تعتبر ـ في جانب آخر ـ تحدياً منه لفرعون، ورداً على دعوة الأخير الناس إليه.

قال لهم فرعون من قبل: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

والآن يقول لهم الرجل المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

فكلامه ودعوته دليل على جرأته وشجاعته وإقدامه، وإلا فكيف يرد على فرعون دعوته، أو يخالفه في اختياره؟ ويتحداه في موقفه؟ ويفارقه في طريقه؟.

وإذا وقفنا نقارن بين الجملتين، بين كلمة فرعون للناس، وبين كلمته هو لهم، فإننا سنجد الفرق بينهما، هو الفرق بين تواضعه وتكبر فرعون، بين إعطائه هو الجماهير مجالها في الحرية والاختيار، وبين سلب فرعون الجماهير تلك الحرية. الفرق بين تقربه هو منهم وتحببه إليهم في قوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وبين استعلاء فرعون عليهم وإهانته لهم وإلغائه لعقولهم في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾.

فرعون يسلب منهم التفكير والبحث والاهتداء، ويتولى هو التفكير عنهم والبحث بدلهم، وهم ببغاوات يرددون كلامه، ويلتزمون برأيه.

والمؤمن يمنحهم حرية البحث والإقناع والتفكير والاختيار، ويجعل منهم شخصية ذاتية يقدرون بها على الاتباع الهادي البصير ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وأطال الكلام معهم قليلاً، وقدّم لهم خلاصة لدينه ودعوته، ليكونوا على بينة من الأمر.

ونلاحظ أنه في ذلك التعريف، قد ركز على الإيمان أولاً، وعلى موضوع الدنيا والآخرة، وعلى منزلة الدنيا بالقياس إلى الآخرة بحيث ربط قلوبهم بالآخرة، وجعل أنظارهم تتجه نحو الآخرة.

*** الداعية يقارن بين دعوتين:**

هناك دعوتان موجهتان إلى الناس المستمعين:

دعوة فرعون الذي قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ودعوة الرجل المؤمن الذي قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وهاتان الدعوتان متناقضتان. دعوة إلى النار ودعوة إلى الجنة. وقد يقع الناس في حيرة، ولا يعرفون الاختيار.

وحتى يوضح الرجل المؤمن لقومه الطريقة، ويزيل ما قد يكون فيها من لبس وغموض، وحتى يساعدهم على حسن الاختيار، وقف يقارن لهم بين الدعوتين. بين دعوته وبين دعوة فرعون:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

وعندما ننظر في مقارنته بين الدعوتين، فسنلاحظ فيها ما يلي:

١ ـ هما دعوتان لا ثالث لهما: دعوة الحق ودعوة الباطل. دعوة إلى الإيمان بالله، ودعوة إلى الشرك بالله، دعوة إلى طاعة الله، ودعوة إلى معصية الله.

٢ ـ وينتج عن الاستجابة للدعوتين نتيجتها الملزمة. فمن استجاب لدعوة الحق، وآمن بالله وأطاعه، نال الجنة وحقق الخير وكتبت له النجاة. ومن استجاب لدعوة الباطل وكفر بالله وعصاه، خسر وهلك، وكان من أهل النار.

وقد أبرز المؤمن الداعية نتيجة الدعوتين وما يترتب على الاستجابة عليهما فقال: ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟.

٣ ـ عرَّف المؤمن الداعية كلاً من الدعوتين. بذكر أبرز ما يميز الواحدة

عن الأخرى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

٤ ـ قوله لهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾: رغبة منه في لمس قلوبهم والتأثير فيهم، فهو ما زال يتقرب إليهم ويتحبب إليهم، ليشعرهم بأنه منهم وهم منه، فهم قومه وهو واحد منهم.

٥ ـ في قوله لهم: ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ لفتة دعوية لطيفة: من هو الذي دعاه إلى النار؟ إنه فرعون وليس قومه! فلماذا نسب الدعوة إلى النار إليهم، مع أنهم لم يدعوه إليها؟.

لقد سبق أن أشركهم في فعل فرعون في قوله لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾. وهنا أشركهم في دعوة فرعون إلى النار. لأنهم إن استجابوا لدعوة فرعون إلى النار فهم شركاء له فيها، لأنهم لم ينكروا عليه دعوته، ولم يقفوا في وجهه، فهم شركاء في توجيه الدعوة إلى النار، وفي الإعلان عنها والدعاية لها، وفي عاقبتها ونتيجتها الوخيمة يوم القيامة.

وكأن الرجل المؤمن يريد من نسبة الدعوة إليهم أن يدعوهم إلى عدم تلبية دعوة فرعون أولاً، وإلى الإنكار عليه والوقوف في وجهه بعد ذلك، ثم اتباع الرجل المؤمن في دعوته لهم إلى النجاة.

٦ ـ ذكر اسمين من أسماء الله، وهو يعرِّفهم بدعوة الله، ويذكر لهم نتيجتها: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

واختيار هذين الاسمين هنا مقصود، وهو الأنسب للسياق.

إن الله عزيز قوي، وإنه يمنح من يؤمن به ويستجيب لدعوته القوة والعزة، وبهذا يجاهد الباطل، ويواجه الطغيان.

والعزة أنسب صفة في مواجهة فرعون وباطله وطغيانه وجبروته.

أما الغفار فلأن الله يغفر لمن يستجيب له، يغفر له ماضيه، وما ارتكب فيه من كفر ومعصية، يتوب عليه ليبدأ بعد إيمانه حياة إيمانية جديدة.

إنه ترغيب للقوم بالإيمان بالله. إنهم عندما يؤمنون بالله العزيز الغفار،

فسيكونون أعزة كراماً، وسوف يحظون بالمنزلة العالية عند الله، ويغفر لهم ويتوب عليهم.

٧ ـ في قول الرجل المؤمن: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ تجريد لفرعون من كل معاني القوة والفاعلية والتأثير، وبيان أنه لا يملك من هذه المقومات شيئاً: لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإن الإنسان ليعجب من هذا الأمر: رجل مؤمن مجرد من كل ألوان القوة المادية المشاهَدة، يقف أمام أعتى وأطغى وأظلم طاغية «فرعون»، فرعون الذي يملك ما يملك من ألوان ومظاهر القوة المادية بما فيها من جاه وسلطان.

يقف أمامه برجولة وإيمان، ويتحداه بثبات واستعلاء. فلا ترهبه تلك المظاهر والقوى المادية!.

ثم ينتقل إلى خطوة أخرى أعجب. إذ يجرد فرعون من مقومات القوة والتأثير!.

لقد نظر الرجل المؤمن إلى فرعون وسلطانه ودعوته بالمنظار الإيماني الصادق، فوجد فرعون مجرداً من القوة والتأثير، ووجده ضعيفاً لا يملك دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

لم يُخدع الرجل المؤمن بالمظاهر المادية التي أحاطت بفرعون، وإنما أنفذ بصره ـ بمنظاره الإيماني الأصيل ـ إلى حقائق الوجود والحياة والخير والحق، فوجد فرعون مجرداً من هذه الحقائق.

وهكذا كل ظالم طاغية، إنه لا يملك من حقائق الأمور شيئاً، وإن ما حوله من مظاهر القوة، ما هي إلا «هالات» زائفة، وألوان خادعة، لا تخدع إلا الضعاف السذَّج، فيظنونه على شيء، وأنه يملك من حقائق الحياة شيئاً!.

إن الدعاة بحاجة إلى أن يقتدوا بالرجل المؤمن في موقفه الإيماني العظيم، وأن يستخدموا المنظار الإيماني الهادي، ليعرفوا الطغاة البغاة على حقيقتهم، ويعرفوا ما يملكون من المظاهر على حقيقتها، ويكتشفوا ما في هذه المظاهر من خداع وزيف وغرور. وعندها يعتقدون أن ما مع هؤلاء الطغاة ما

هو إلا كمثل السراب يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً!.

○ خاتمة عرض القصة:

*** الرجل يغادر قومه مفوضاً أمره إلى الله:**

قال تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٦].

نصل الآن إلى خاتمة عرض قصة مؤمن آل فرعون.

لقد ظهر الرجل المؤمن، ودافع عن نبي الله موسى عليه السلام، ورد على فرعون دعوته، ودعا الجماهير إلى اتِّباعه، ووضح لهم دعوته، ورغَّبهم في الآخرة، وحثهم على اختيار طاعة الله ورضوانه، ودلهم على طريق النجاة والفوز، وحذرهم من طريق الخسارة والهلاك!.

ماذا بقي عنده؟ هل بقي شيء آخر يقوله لهم؟ وهل عليه أكثر من ذلك؟.

لقد أقام عليهم الحجة، وأرشدهم إلى السلامة، وبين لهم الطريق. لقد قال ما عنده، وأدى ما عليه!.

لم يبقَ عنده شيءٌ. فما عليه إلا أن يغادر مسرح الأحداث.

لقد غادر المسرح، وودع قومه قائلاً: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

إن هذه «اللقطة» هي أنسب اللقطات لإنهاء مشاهد القصة، وختْمها بختام فني، يؤدي غرضه الإيماني والدعوي.

*** فستذكرون ما أقول لكم:**

تدل هذه الجملة البليغة على معلم بارز من معالم الدعوة إلى الله، على الدعاة أن يلتفتوا إليه وأن يلتزموا به.

الداعية يعرض دعوته على الناس، ويدعوهم إلى اتباع الحق الذي معه،

ويواجه الباطل ويرد عليه، ويفند أفكاره ويكشف زيفه، وينتصر للحق ويوضحه ويعرِّف به. ويستخدم في ذلك أفضل الأساليب وأبلغ المؤثرات وأجود النصائح.

ولا يملك الداعية أكثر من هذا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢].

إذا وصل الداعية مع المدعوين إلى هذه المرحلة، فعليه أن يتركهم ليفكروا فيما قال، لينظروا ويبحثوا ويراجعوا موقفهم. عليه أن يعطيهم مهلة للتفكير والاختيار. عليه أن يَدعَهم فترة لعقولهم وأفكارِهم: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦].

إذا وصل معهم إلى هذه المرحلة فلْيستخدم معهم منطق الرجل المؤمن ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ﴾.

إن هذه العبارة الواثقة الواعدة ليست تهديداً، وإنما هي نصيحة وتذكير. كما أنها ليست تخلياً عنهم. وإنما هي وسيلة من وسائل التأثير فيهم لاختيارهم الحق.

إن الداعية يقول لقومه: لقد قمت بواجبي، وقدمت لكم دعوتي، وبذلت غاية وسعي في نصحكم. وبذلك أديت ما عليّ. والخطوة التالية عليكم والاختيار الآن لكم. وأنتم تتحملون نتيجة اختياركم.

سوف تنعكس عليكم نتائج اختياركم في الدنيا والآخرة. إن اخترتم طريق الإيمان والحق جنيتم ثمارها الطيبة النافعة في الدنيا والآخرة. وإن اخترتم طريق الباطل والكفر حصدتم ثمارها النكدة في الدنيا والآخرة.

وعندما تختارون إحدى الطريقين، وتقطفون ثمارها. عندها ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ﴾.

عندها: إذا اخترتم طريق الباطل: فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم!.

* وأفوض أمري إلى الله:

وأمَّا قول الرجل المؤمن: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيدل على معلَم بارز من معالم الإِيمان والدعوة، وقاعدة أساسية من قواعد الجهاد والمجاهدة: لا يجوز نسيانه أو الغفلة عنه. وعلى الدعاة أن يطيلوا الوقفة أمامه، وأن يُحسنوا استيعابه وفهمه ومعايشته.

إن مؤمن آل فرعون قد واجه الباطل، وتحدى فرعون، ولم يرهَب طغيانه ولا سلطانه ولا بطشه، فدافع عن موسى عليه السلام، وفنَّد كلام فرعون، ودعا الجماهير إلى اتباعه هو، ونهاهم عن اتباع فرعون.

وهو بموقفه الإِيماني، وجهاده البطولي، وتحديه الرجولي، قد أصبح عُرضة لأذى فرعون وعذابه، وحقده وانتقامه، وكيده وسخطه.

إن فرعون لن يسكت عنه، وسوف يعذبه ويضطهده.

وفرعون يملك الأساليب والأدوات لذلك، وحوله جنوده وزبانيته الذين ينفذون أمره.

أما الرجل المؤمن فإنه في الميدان وحيداً ـ حسب الظاهر ـ إنه مجرد من الحَوْل والطَّوْل والقوة والمنعة. إنه ضعيف ـ في مقاييس البشر المادية ـ ولذلك فهو خاسر مهزوم، لأنه لا يقدر على أن يرُد عن نفسه بطش فرعون وعذابه، فضلاً عن أن يحاربه.

هذه هي القضية بالمنطق المادي الجاهلي.

أما بالمنطق الإِيماني، فإن القضية لها بُعد آخر:

إن الرجل المؤمن لم يتحرك من تلقاء نفسه، وإلا لكان مجنوناً.

وإنه لم يكن وحيداً أمام فرعون، وإلا لكان منتحراً.

لقد تحرك من وحي إيمانه، وكان ينفذ تكليف الله له بالدعوة والجهاد، ولقد كان الله معه بتأييده وتثبيته.

إن الدعوة دعوة الله، وإن الله ناصرٌ دعوته، وإن موسى رسول الله،

وإن الله يدافع عنه. وإن الرجل المؤمن قد نصر دين الله، وإن الله سيؤيده. وإن فرعون قد حارب الله وإن الله سيهزمه.

لقد واجه الرجل المؤمن فرعون، وهو مؤمنٌ بالله، معتمدٌ عليه، واثقٌ من نصره، مستمد للقوة منه. أما فرعون فإنه عدو لله، وإنه عندما يحارب المؤمن فإنما يحارب الله حقيقة. وكل من حارب اللَّهَ مهزوم!.

هذه هي حقيقة المعركة بين الرجل المؤمن وبين فرعون، وهذه هي حقيقة القوى فيها.

إن القوى البشرية كلها تتصاغر وتتضاءل وتذوي أمام قوة الله سبحانه، مهما ملكت من القوى والمظاهر المادية. وإن ألوان كيدها وصور بطشها ضائعة باطلة لا تضر أحداً إلا بإذن الله.

على ضوء هذا البيان نفهم قول الرجل المؤمن: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

إن هذه العبارة الإيمانية الواثقة تقدم لنا منهجاً في الإيمان والدعوة، منهج يلزمه كل داعية عندما يواجه قوى الباطل والطغيان.

إن الداعية يدخل المعركة مع قوى الباطل، وهو ممتلئ بالمعاني الإيمانية. وهو مدرك لحقيقة المعركة وقواها وأطرافها. إنه يدخل المعركة وكله إيمان بالله، وتوكلٌ عليه، واستنصار واستغاثة به، وتفويض مطلق إليه، وطلب للمدد والتثبيت منه.

وعندما يفوض الداعية أمره إلى الله، يجد الله معه، وعندما يستنصر الله يجد الله نعم النصير، وعندما يتوكل على الله يجد الله نعم الوكيل.

إن هذه العبارة الإيمانية، ليست مجرد كلمة يقولها الداعية، مجردة من المعاني والحقائق، ولكنها جملة حقائق إيمانية ودعوية وجهادية يعيشها.

وهي ليست موقفاً قصيراً، ولكنها حياة إيمانية حقيقية يعيشها كل لحظة من حياته.

والداعية يقرن مع هذه العبارة الإيمانية، آياتٍ أخرى، تكوّن كلها منهجاً إيمانياً دعوياً جهادياً له.

من تلك الآيات قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

*** فوقاه الله سيئات ما مكروا:**

بعدما قام الرجل المؤمن بواجبه، يبدو أن فرعون قد توعَّده وهدّده، وخوّفه بطشه وعذابه، فلم يَرْهبه بل فوض أمره إلى الله.

وكان تفويض أمره إلى الله خاتمة بيانه الإيماني الدعوي، وهي خاتمة مناسبة للقصة، كما أنها مقصودة من أهداف عرضها في القرآن.

إن القرآن يريد أن يرسخ هذا الموقف عند المسلمين، ويقرر هذا المعنى في مخيلة وذهن وشعور كل واحد منهم. إن القرآن يريد أن يعلِّم المسلمين ـ من خلال قصصه ـ الإيمان بالله والتوكل عليه واللجوء إليه، وتفويض الأمر كله له، والاستسلام بين يديه.

ويسكت عن تفصيلات الأحداث بعد ذلك، ولم يبين ما جرى للرجل المؤمن، لأنه غير مقصود، في القصة، ولأن بيانه لا يفيد كثيراً.

إننا قد نتوقع ـ في خيالنا ـ الأذى والاضطهاد ضد الرجل المؤمن. وقد نتوقع صنوفاً وألواناً من الكيد الفرعوني وحقده ومكره ضد الرجل المؤمن.

لا حرج من هذا التوقُّع المتخيَّل، ولا مانع أن يكمِّل خيالنا هذه اللقطات. لكن على أن يكون من باب التخيُّل وليس من باب الجزم والرواية. لا يجوز أن نقول: فعل به فرعون كذا وكذا وكذا، طالما لم يرد في القرآن والحديث.

المهم أن نقف لحظة أمام إخبار الله عنه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾.

لقد أسلم الرجل المؤمن نفسه لله، وفوّض أمره إليه، فهل يتخلى الله عنه؟ وهل يُسْلِمه إلى فرعون وكيده ومكره؟.

إن الله لا يتخلى عن أوليائه، ولا يسْلمهم إلى أعدائهم وأعدائه، بل يكون معهم بالنصر والتثبيت.

إنها سنة ربانية لا تتخلف، وكم عرض القرآن من نماذج لهذه السنة الربانية، وما مؤمن آل فرعون إلا نموذج من هذه النماذج.

وهذا الخبر القرآني الصادق بُشْرى يقدمها القرآن للمؤمنين عندما يطالبهم بالتوكل على الله، وتفويض الأمر إليه. كما أنه أمل يبثه القرآن في نفوس المؤمنين عندما ينصرون دين الله، ويجاهدون أعداء الله.

وكم يعجبني في هذا المقام قول الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه:

عجبت لمن ابتلي بأربع، كيف يغفل عن أربع:

١ ـ عجبت لمن خاف، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فإني سمعت الله يقول بعَقِبها ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

٢ ـ وعجبت لمن اغتم، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

٣ ـ وعجبت لمن مُكِر به، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥].

٤ ـ وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها، كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾[1] [الكهف: ٣٩ ـ ٤٠].

*** وحاق بآل فرعون سوء العذاب:**

وقى الله الرجل المؤمن سيئات مكر فرعون، وأنجاه الله منه.

ولا نعرف ماذا جرى له بعد إلقاء بيانه الإيماني الدعوي. لا ندري هل قتله فرعون مع السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام، أم سجنه ومات في سجنه؟. هل مات في مصر موتاً طبيعياً؟ أم غادرها مع بني إسرائيل ومات بعد ذلك؟.

لا ندري! لأن القرآن لم يوضح ذلك، كما لم توضحه الأحاديث الصحيحة. وبما أن هذين المصدريْن اليقينييْن سكتا عن بيان تلك التفصيلات، فنحن ملزمون بالسكوت عنها، وعدم بحثها في غيرهما من المصادر. ويكفينا ما فيهما من بيان.

وقاه الله مكر فرعون وقومه. وأوقع بهم عاقبة مكرهم ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

حل بفرعون وقومه نتيجة كيدهم ومكرهم، وجنوا ثمار ما خططوا من السوء، وحاق بهم مكرهم السيئ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ﴾ وهذه قاعدة ثابتة من قواعد القرآن، وسنة مطردة من سنن الله سبحانه.

---

(١) الخبر مذكور في كتاب: «جعفر بن محمد الصادق» لعبد العزيز سيد الأهل ٦٨.

حاق بآل فرعون سوء العذاب، فأغرق الله فرعون وجنوده عندما لحقوا بموسى عليه السلام والذين آمنوا معه، وغادروا هذه الدنيا غير مأسوف عليهم: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩].

وانتقل فرعون وآله من حياة الدنيا إلى حياة «البرزخ» حيث يعذَّبون فيها في قبورهم حتى قيام الساعة.

وقد بيَّن القرآن سوء العذاب الذي يقع عليهم في قبورهم بأنه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فيُعْرضون على النار كل يوم: في الصباح وفي المساء. إنهما وجبتان يومياً يعذَّبون فيهما، منذ أن أغرقهم الله وحتى قيام الساعة! فكم مضى عليهم في هذا العذاب اليومي من قرون! وكم سيمضي عليهم ـ حتى قيام الساعة ـ من قرون!.

ويوم تقوم الساعة، يُساق فرعون وآله للحساب، ثم تَصدر الأوامر إلى زبانية العذاب بإدخالهم النار ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وقد اعتبر علماء التفسير هذه الآية نصاً في عذاب القبر. وقالوا: إن عذاب القبر ونعيمه كذلك ـ ثابت بصريح القرآن، وصحيح الحديث.

أما صريح القرآن فقول الله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

وأما صحيح الحديث فمثاله ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات، عُرِض عليه مقعده من الغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[١].

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ٢٣، باب الميت يعرض عليه مقعده، رقم ٨٩، حديث رقم ١٣٧٩.

* **بين أبي بكر الصديق ومؤمن آل فرعون:**

لعل الإمام البخاري ﷺ أراد أن يقارن بين مؤمن آل فرعون في نصرته لموسى عليه السلام، وبين أبي بكر الصديق في نصرته لرسول الله ﷺ في مكة، وأن يُبين أن أبا بكر الصديق أفضل من ذلك الرجل المؤمن.

ففي كتاب التفسير من جامعه الصحيح، أورد حديث عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه، ودفع عن رسول الله ﷺ. وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟»[1].

وقد قارن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، بين أبي بكر الصديق ومؤمن آل فرعون، وفضَّل أبا بكر على مؤمن آل فرعون:

أورد الإمام ابن كثير في تاريخه ـ نقلاً عن البزّار ـ عن محمد بن عقيل، أن علي بن أبي طالب ﷺ خطب الناس يوماً فقال: يا أيها الناس: مَنْ أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه! ولكنه أبو بكر. إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً. فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ؟ فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يَهْوي إليه أحد إلا أهوى إليه. فهذا أشجع الناس!.

ثم قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ، وقد أخذته قريش، فهذا يحادُّه، وهذا يُتَلْتِلُه؟ ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجاهد هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟.

= ورواه مسلم في كتاب الجنة ونعيمها ٥١، باب عرض مقعد الميت ١٧، حديث رقم ٢٨٦٦.

(١) البخاري، كتاب التفسير ٦٥، باب ٤٠، سورة المؤمن، حديث رقم ٤٨١٥.

ثم ردَّ عليٌّ بُردةً كانت عليه، فبكى. حتى اخضلَّت لحيته. ثم قال: أُنشدكم الله: أمؤمن آل فرعون خيرٌ أم هو؟ فسكت القوم. فقال عليٌّ: فو الله لساعة مع أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون! ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه»[1].

○ تلخيص لأهم الدروس والدلالات:

والآن ـ وبعدما قاربت جولتنا مع قصة مؤمن آل فرعون على الانتهاء ـ نقف أمام القصة لنستخلص أهم ما فيها من دروس ودلالات، ملخصين لها:

١ ـ يستخدم الظالمون والطغاة وسائل وأساليب غير قانونية ولا أخلاقية، ولا إنسانية، في مواجهة الحق وجنوده، منها قتل أبناء المؤمنين واستحياء نسائهم. كما فعل آل فرعون.

٢ ـ الطغاة يريدون من وسائلهم في حرب الدعوة والدعاة إرهاب الآخرين وتخويفهم عن طريق البطش بالدعاة.

٣ ـ الطغاة يحرصون على أن يظهروا بمظهر الديمقراطية، فيدَّعون التقرب إلى الجماهير، ويُعِدون لهم استفتاءات شكلية ومظاهر خادعة.

٤ ـ الطغاة يحرصون على أن يُشركوا معهم الجماهير في مقاومة الحق والبطش بجنوده، وتحميلهم مسؤولية ذلك، وإشعارهم بأنه قضيتهم الأساسية.

٥ ـ الطغاة يَظهرون أمام الناس على أنهم حماة الدين، ورسل الإصلاح وحرّاس الأمن.

٦ ـ الطغاة يتهمون الدعاة بالكفر والفساد والتخريب، وأنهم ضد الدين والأمن والإصلاح.

٧ ـ على الداعية وهو يواجه الطغيان أن يلجأ إلى ربه، ويتوكل عليه، ويركن إليه.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢٧١، ٢٧٢.

٨ ـ سر الطغيان في أمرين هما: التكبر والكفر بيوم الحساب، وسر الصلاح في أمرين: التواضع والإيمان بيوم الحساب.

٩ ـ الطغيان مدمرٌ لصاحبه، مفسدٌ للحياة، مؤذٍ للآخرين، والإيمان هو صمام الأمان للحياة الفاضلة السعيدة لصاحبه وللآخرين.

١٠ ـ جواز أن يكتم المؤمن إيمانه، وأن يُسر به، إذا كان في ذلك مصلحة للدعوة، كما فعل مؤمن آل فرعون، وكما فعل رسول الله ﷺ في بداية الدعوة السرية في مكة.

١١ ـ على الداعية أن ينسق بين خطواته ومواقفه الدعوية، فيعرف متى يكتم إيمانه ومتى يجهر به، ففي حالات الخطر المباشر الذي يواجه الدعوة وقيادتها، والذي يقدر فيه الداعية على الانتصار لها، لا يُقبَل منه كتمان إيمانه إيثاراً للسلامة والعافية.

١٢ ـ إقبال شخص على الإيمان، وانتماؤه للدعوة، دليل تمكن الخير منه، وتوفر معاني الفضيلة والرجولة والصدق فيه.

١٣ ـ كيان الكفر والطغيان ضعيف هزيل، وقد يُخترق من الداخل، فيوجَد فيه مؤمنون صالحون.

١٤ ـ الداعية يقف أمام قوى الباطل ويتحدى عناصر البشر برجولة وصدق وثبات وإيمان، ولو كان وحيداً مجرداً من مظاهر القوة المادية.

١٥ ـ الكلمة الصادقة الواثقة الجريئة أقوى من الباطل، ولن يصمد لها الباطل في أية مواجهة فكرية حوارية جدلية. بشرط أن يتصف أصحابها بالشروط اللازمة للانتصار والنجاح.

١٦ ـ على الداعية أن يستخدم أفضل الأساليب، وشتى المؤثرات، ومختلف الوسائل، التي يصل بها إلى قلوب المدعوِّين. وعليه أن يرتب خطواته ومواقفه وكلماته. وأن يدخل ميدان الدعوة بعلمية ومنهجية مدروسة مبرمجة.

١٧ ـ الداعية بأسلوبه الدعوي الناجح، ومنطقه الإيماني المؤثر، يهزم الباطل والضلال والكفر، لأنها لا تقوم على أساس، ولا تملك حجة ولا سلطاناً.

١٨ ـ على الداعية الاتصاف بالموضوعية وهو يخاطب الآخرين، وأن

يحترم عقولهم وثقافاتهم، وأن يعرف كيف يؤثر فيهم ويغير مواقفهم.

١٩ ـ من أساليب نجاح الداعية في إقناع وحوار الآخرين: الالتفات إلى المؤثرات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والحضارية، وإثارة الأسئلة التي تزعزع قناعاتهم السابقة، وتقربهم إلى صفه.

٢٠ ـ فرق بين منطق الطغاة في مخاطبة الجماهير، حيث يقوم على التكبر والاستعلاء، وبين منطق الدعاة في مخاطبتهم حيث يقوم على التحبب والتقرب والاحترام.

٢١ ـ الطغاة يدعون الجماهير إلى أن تلغي عقولها، وتمتنع عن البحث والتفكير، فهم يفكرون عنها، ويكفونها هذه المهمة، وما عليها إلا أن تأخذ ما يقدمونه لها من آراء وأفكار.

٢٢ ـ الطغاة لا يسمحون برأي معارض لهم، ولا بأُناس يخالفونهم ويقفون أمامهم.

٢٣ ـ إذا أحس الطغاة بتأثير الدعاة على الجماهير، وخشوا أن يفلت الأمر من أيديهم، وأن تنحاز الجماهير للدعاة، يعلنون التراجع، ويدّعون العلمية والموضوعية، ويزعمون دراسة دعوة ومطالب الدعاة. ليقرروا بعد ذلك أنهم كاذبون.

٢٤ ـ إن قوة منطق الدعاة، وحسن تأثيرهم في الناس، كفيل بتراجع الطغاة، وتغيير مواقفهم ـ ولو حسب الظاهر ـ.

٢٥ ـ يحرص الطغاة على إشغال الجماهير بأمور جانبية هامشية ثانوية، ليشغلوهم عن الأمور الأساسية، ويُنْسوهم القضايا المصيرية، وقد يوقعون بعض الدعاة في هذا الشَّرَك، ليتحولوا عن أهدافهم الأساسية.

٢٦ ـ قد يستخدم الطغاة عامل «الزمن» لتموت قضية الدعوة عند الجماهير، وتفقدَ حياتها وحيويتها وسخونتها. وما على الدعاة إلا أن يستمروا في طرح الدعوة بقوة وفاعلية، وإبقائها حاضرة حية عند الناس.

٢٧ ـ كم ينفق الطغاة من طاقات وقدرات وأموال وأوقات الأمة على مظاهر وأشياء وأعمال، لا نفع فيها ولا خير، وإنما هي مسرحيات لإِلهاء الناس وإشغالهم.

٢٨ ـ على الداعية أن يوصِل المدعوين إلى مفترق الطرق، بحيث لا يرون أمامهم إلا طريقين: طريق الإِيمان والهدى والنجاة والجنة، أو طريق الكفر والضلال والهلاك والنار. ثم يدعوهم إلى الاختيار المدروس. ويعطيهم فرصة ومهلة للاختيار، يبتعد عنهم فيها قليلاً، ليحسوا أن اختيارَهم كان بحرية ذاتية.

٢٩ ـ على الداعية أن يستخدم مع المدعوين منطق الانتظار، وعامل المستقبل ليروا فيه مصداق كلامه، وتحققَه في عالم الواقع، وليذكروا ما قاله لهم من قبل، وحذرهم من الوقوع فيه، فيقوم بتذكيرهم بذلك، ليكون أدعى إلى اتباعه!.

٣٠ ـ على الداعية أن يستعلي بإيمانه، ويعتز بدينه، ويتوكل على ربه، فهذا أعظم عوامل الثبات في مواجهة قوى الطغيان. وإن تفويض الداعية أمره إلى الله، واستسلامه المطلقَ له، واستنجاده الصادق به، معلَم إيماني دعوي بارز، وأساس الثبات والانتصار في المواجهة.

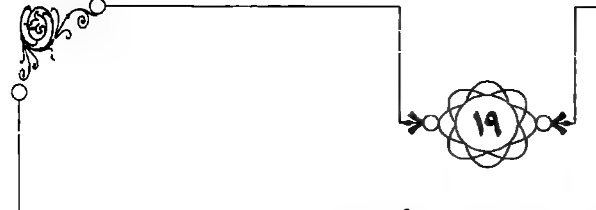
٣١ ـ الله مع عباده وجنوده بالتثبيت، والتوجيه، والنصر، والتمكين، وهو ضد أعدائهم ـ وأعدائه ـ يهزمهم ويبطل كيدهم ومكرهم.

٣٢ ـ الدعاة ينقذون أنفسهم وأمتهم في الدنيا والآخرة، والطغاة يهلكون أنفسهم وأمتهم في الدنيا والآخرة.

٣٣ ـ ساحة المعركة بين الحق والباطل ليست محدودة بمكان ولا زمان ولا موقع ولا ميدان، فهي شاملة لكل المواقع والميادين، والمجالات والأزمان والأمكنة. كما أنها لا تختص بهذه الدنيا فقط، بل تنتقل إلى حياة البرزخ وساحات العرْض وساعات الحساب.

إن جنود الباطل مهزومون في الدنيا ـ وصور الهزيمة كثيرة ـ معذَّبون في قبورهم، أذلاءُ مهانون يوم القيامة، ثم هم خالدون في نار جهنم.

وإن جنود الحق منتصرون في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ـ وصور النصر كثيرة ـ وهم منعَّمون في قبورهم، مكرَّمون يوم الحساب، مخلَّدون في النعيم المقيم في جنات الخلد!.



قِصَّة أَصْحَاب الأُخْدُود

○ إشارات سورة البروج:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ١ ـ ٢٢].

○ لفتات من الآيات:

سورة البروج المكّيةُ القصيرة، تعرض ـ كما يقول سيّد قطب ـ «حقائق العقيدة، وقواعد التصور الإيماني... أموراً عظيمة، وتشعُّ حولها أضواءً قوية بعيدة المدى، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبِّر عنها نصوصها، حتى لتكاد كل آية ـ وأحياناً كل كلمة في الآية ـ أن تفتح كوَّة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة»(١).

وتعرض هذه السورة قصّة أصحاب الأخدود، فهي موضوعُها الأساسي،

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٧١.

لكنها تعرضها على طريقة القرآن في عرض قصص السابقين، حيث يغفل ـ غالباً ـ عامداً الحديث عن تفصيلات القصّة، وأسماءِ أبطالها، ومكانها وزمانها، ولا يعرض من تفصيلاتها ومشاهدها ولقطاتها إلّا بمقدار ما يحقق العبرة والعِظَة.

هكذا عرضت سورةُ البروج قصةَ أصحاب الأخدود.

وسوف نقف وقفات سريعة أمام الآيات وهي تتحدث عن القصة، ونستخرج منها بعض اللفتات والإشارات والإيحاءات:

○ القَسَم في السورة:

١ ـ مهَّدَت السورة للقصة بجو عظيم وهو جو القَسَم. حيث أقسمت بأربعة أشياء:

(أ) أقسَمَتْ بالسماء ذات البروج ـ ومنه أخذت السورة اسمَها ـ والسماء عظيمة ضخمة واسعة، وبروجُها عظيمة كذلك ضخمة. وقد يُرادُ بالبروج النجومَ الكبيرة أو المجرات الهائلة، أو يراد بها منازل تلك النجوم والكواكب، التي تنتقل إليها في جريانها في الفضاء. وعلى كلا الأمرين تُلقي ظلَّ الضخامة والاهتمام(١).

(ب) وأقسَمَتْ باليوم الموعود، وهو يوم القيامة، الذي وعده الله المؤمنين.

(جـ) وأقسَمَتْ بالشاهد، وقد يراد بالشاهد رسول الله ﷺ، الذي يستشهده الله على الأمة. كما قال الله عنه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح: ٨]. وقد يراد به الشاهد ـ أيُّ شاهد ـ الذي يستشهده الله يوم القيامة.

(د) وأقسَمَتْ بالمشهود، والمشهود قد يكون يوم القيامة، لأن جميع الخلائق تشهده، وكما قال الله عنه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]. وقد يُراد به الأعمال التي تكون مشهودة، يشهدُها أصحابها في ذلك اليوم.

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٧٣.

وتعتبر هذه الأمورُ الأربعة العظيمة بدايةً جيدة للحديث عن قصة أصحاب الأخدود، حيث تمهِّد برسم الجو الخاص الذي تُعرض من خلاله أحداث القصة.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب عن هذا الجو:

(وتلتقي السماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، تلتقي جميعاً في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة، على الجو الذي يُعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود. كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضَع فيه هذا الحادث، وتوزَن فيه حقيقته، ويُصفّى فيه حسابه. وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا، وأجلِها المحدود)[1].

○ من صفات الطواغيت:

٢ ـ **قُتل أصحاب الأخدود**: وأصحابُ الأخدود هم الظالمون الكافرون، الذي حَفَروا الأخدود في الأرض ثم أشعلوه ناراً، ثم ألقوا فيه المؤمنين، وتفرجوا عليهم وهي تأكلهم.

وفي الآية دعاءٌ عليهم بالقتل. والدعاء من الله واقع لا محالة، ودعاء الله عليهم بالقتل يدل على بشاعةِ وشناعةِ وقبحِ جريمتهم، ويدلّ على مدى ظلمهم وبغيهم الذي أغضب الله سبحانه عليهم، فدعا عليهم بالقتل.

٣ ـ **النارِ ذات الوقود**: ووردت النار في السورة بدلاً من الأخدود: الأخدودِ النارِ ذات الوقود. وهذا يوحي بعِظم وضخامة النار التي أوقدوها في الأخدود. والتي تدلّ على مدى حقدهم على المؤمنين، حيث سعَّروها وزادوها، لتقضي على مخالفيهم ليستريحوا منهم.

٤ ـ **إذ هم عليها قعود**: إنهم قاعدون على جوانب النار ذات الأخدود، قاعدون يتفرجون على منظر المؤمنين وهم يحترقون بالنار، قاعدون يتسلون ويتفرجون ويتلهون ويتمتعون. وهل منظر حرْق المؤمنين بالنار يدعو إلى الفرجة

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٧٣.

والتسلية؟ هل هو ملهاة؟ ماذا تقول عن الذين يفعلون ذلك؟ هل هم بشر؟ هل بقي عندهم شيء من المشاعر والعواطف والأحاسيس؟ لقد فقدوا كل ذلك، وتحوّلوا إلى جمادات ميتة فاقدة الإِحساس.

لكن هل هم وحدهم الذين كانوا يتفرجون ويتسلّون على إحراق المؤمنين؟ إن الذين يفعلون فعلهم ويقتدون بهم من الطواغيت البغاة، كثيرون في هذه الدنيا. وقد سجَّل التاريخ ـ وبخاصة المعاصر منه ـ نماذجَ بشعةً مفزعةً لهؤلاء الطواغيت، الذين قعدوا في ساحات وغرف التعذيب، يتسلون ويتفرجون على منظر التعذيب الوحشي الرهيب للمؤمنين.

٥ ـ **وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود**: هم شهود يشاهدون تعذيب المؤمنين وحرْقهم بالنار. وهذا يعني أن أعوانهم من الجلادين البشعين ما كانوا يفعلون ذلك إلّا بإذنهم ورضاهم وقبولهم. إنهم يشاهدون ذلك التعذيب برضى، ويتابعونه بشغف واهتمام.

○ الشهود في سورة البروج:

وردت الشهادة ومشتقاتها أربعَ مرّات في سورة البروج:

مرّتان عن الشاهد والمشهود ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾. بمعناه العام الذي يشمل رسول الله الشاهد وغيرَه من الشاهدين، ويشمل يوم القيامة المشهود وغيره من الأعمال المشهودة.

ونلاحظ أن كلمة ﴿وَشَاهِدٍ﴾ اسم فاعل. وكلمة ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ اسم مفعول.

ومرة عن أصحاب الأخدود الشاهدين على التعذيب، المشاهِدين لحرْق المؤمنين بالنار: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾.

والمرة الرابعة تحدث فيها عن شهود الله لهذه المعركة وغيرها. فهو الله الذي له ملك السموات والأرض، وهو على كل شيء شهيد.

ومعنى كون الله شهيداً: أنه شاهد على ما وقع من الطغاة، وأنه شاهد على ثبات المؤمنين على إيمانهم، وأنه شاهد على ثواب المؤمنين وتعذيب الكافرين.

○ ذنب المؤمنين عندهم:

ما هو ذنْب المؤمنين الذي استحقّوا به الإِحراقَ بالنار؟ ما هي جريمتهم؟ ما هي تهمتهم؟.

الجواب في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

إنَّ ذنْبَهم الوحيد عند قومهم هو إيمانهم بالله! وهل الإِيمان بالله وحده ذنْب يُلام عليه صاحبه؟ وهل المؤمن مذنب؟.

ما هو الذنب في الحقيقة؟ إنه الكفر والظلم والعصيان.

ومن هو المذنب في الحقيقة؟ إنه الكافر والظالم والعاصي.

فكيف انقلبت المفاهيم والموازين عند القوم الكفار أصحاب الأخدود؟ وكيف نظروا للإِيمان والكفر بذلك المنظار المادي الجاهلي المنحرف؟

جريمة المؤمنين والمؤمنات في هذه القصة هي في عبادتهم لله وعبوديتهم له، وخضوعهم له، واستسلامهم له. إنها جريمة بشعة استحقوا بها أن تُشق لهم الأخاديد في باطن الأرض، وأن تُوقد فيها النيران، وأن يُلقَوا فيها أحياء لتُحرَقَ أجسادهم، وتُزهق أرواحهم!.

يا لها من عقوبة عادلة لتلك الجريمة النكراء، في عرف ونظام وقانون القوم هناك!.

إن كفر القوم وانحرافهم وظلمهم وفسادهم، جعلهم يقلبون الحقائق، ويُزيفون الأمور، ويجعلون الحق باطلاً والباطل حقاً، فيعاقبون على الإِيمان والعبادة والاستقامة والطاعة، ويثيبون على الكفر والضلال والظلم والفساد.

وهكذا يفعلون دائماً، وما أكثر النماذج البشعة التي سجلها تاريخ البشرية القديم والوسيط والحديث، التي طبقوا فيها هذه القوانين! وكم أصاب المؤمنين من مصائب وآلامٍ ونكباتٍ ومآسٍ، وكم دفعوا لذلك من أرواحهم ودمائهم وأجسادهم وأموالهم!.

وتذكر الآية صفاتٍ لله الذي آمن به المؤمنون فعُوقبوا على ذلك بذلك العقاب.

إنه الله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض والذي على كل شهيد.

○ نقمة الكفار على المؤمنين:

أثناء بيان الآية لذنب المؤمنين وجريمتهم في عرف قومهم الكافرين، وأثناء حديثها عن سبب المعركة بين الفريقين، ذكرت كلمةً واحدة، عرفنا من خلالها طبيعة تلك المعركة ضد المؤمنين: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

إنها كلمة ﴿نَقَمُوا۟﴾.

إنها بيان لطبيعة المعركة وجوّها، وتصويرٌ لمدى بشاعتها وشراستها. إنها تحليل لنفسيات الكفار ومشاعرهم أثناءها.

إنها معركة انتقامية، طابعها العام هو الانتقام من المؤمنين، وهم انتقاميون، ينتقمون من المؤمنين.

وتصوَّرْ مدى شراسة وبشاعة معركة، رجالها منتقمون انتقاميون. يحرّكهم الانتقام والحقد واللؤم والكيد، ويوجِّه حركاتهم وأفعالهم.

إن حرب الكفّار للمؤمنين في قصة أصحاب الأخدود حربٌ انتقامية حاقدة لئيمة، ولذلك كانت بشعة شرسة.

وليست هذه الحرب فقط. بل هكذا هي كل حروب الكفّار ضد المؤمنين، في أي زمان ومكان.

قال الله عن كفّار الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

وقال السحرة لفرعون عندما هددهم بعد إيمانهم بالله واتّباعهم لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وَأمر الله رسولَه ﷺ ـ وهو أمرٌ لنا أيضاً ـ بأن يبيِّن لأهل الكتاب طبيعة عداوتهم لنا، وأنها تقوم على النقمة والحقد والانتقام: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٩].

وبيَّن القرآن في آية رابعة أن النقمة نفسها هي التي سيَّرتْ ووجهت مكائد وجرائم المنافقين ضد رسول الله ﷺ ومَن معه مِنَ المؤمنين. قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤].

إنَّ فِعْل «نَقَمَ» لم يُذكر في القرآن إلّا في الأربعة مواضع التي أوردْناها. وهو في هذه المواضع كلها في سياقٍ واحد، هو العداءُ بين المؤمنين والكافرين، والحربُ البشعة التي يشنها الكافرون على المؤمنين.

إنّ القرآن بهذا يبيِّن لنا طبيعةَ الحرب ضد المسلمين، إنّها الحرب الانتقاميّة!.

○ معنى تلك النقمة ونتائجها:

الكفّار ناقمون على المؤمنين، وينتقمون منهم، ولذلك يحاربونهم. فما معنى هذه النقمة وهذا الانتقام؟.

إن القرآن يعرِّف المؤمن على عدوّه الكافر الظالم، ويحلّل له نفسيَّتَه، ويصوِّر له حقيقتَه من داخل نفسه. إن عدوه رجل ناقم حاقد حاسد ظالم باغٍ، ولهذا يحاربه بكل ما في نفسه الحاقدة المنتقمة من حقد وَحَسَد وظلم وبغي وانتقام وكيد وشراسة وبشاعة.

ثم إن الكافر الذي يواجه المؤمن بهذه الرذائل والنقائص، لا يمكن أن يسالم المؤمن أو يسكت عنه أو يتركه أو يوقِف عداوته له.

وصدق المتنبّي في قوله:

سِوَى حَسَدِ الْحُسّادِ دَاوٍ فَإِنَّه إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

أما نتائجُ نقمة الكفّار على المسلمين في حربهم لهم، وآثارُها على تلك الحرب، فهي بارزة واضحة بيِّنة.

ماذا تتصور من حرب يتزود الكفار لها بكل ما يقدرون عليه من الحقد والنقمة واللؤم والظلم والكيد والشراسة والبشاعة؟.

كم سيصيب المؤمنين من ذلك الغل والحقد؟.

صدق الله إذ يقول عن هذه الحرب وعن حقد الكفّار على المؤمنين فيها: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ٨ ـ ١٠].

إنهم لا يرقُبُون في مؤمن إِلًّا وَلَا ذِمَّة. ومعنى هذا أنهم لا يراعون في حربهم للمؤمنين عهداً ولا قرابة.

لماذا؟ لأنهم حاقدون: يُرضُونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم.

يحاربون بكل ما تملك قلوبهم من حقد ونقمة.

وهم في سبيل القضاء على المؤمنين لا يراعون عهداً ولا قرابة، ويلغون من قاموسهم كلمات: العدل، والرحمة، والحرية، والديمقراطية، والحقوق، والكرامة، وغير ذلك.

إنهم في حربهم للمؤمنين، يوقفون العمل بالقوانين والتشريعات والمبادئ والنظم، ويُبعدون عن المؤمنين القضاة والمحامين والمحاكم المدنية، ويعلنون حالة الطوارئ، ويسلبون المؤمنين حقوقهم المدنية والجزائية، ويطبّقون عليهم أحكام المحاكم العسكرية الاستثنائية، وأوامر الحاكم العسكري الجائرة، التي يصادِر فيها كل ما يملكه المؤمن من حقوق ومزايا.

وابحث في هذا الجو الاستثنائي الحاقد الجائر عن المؤمن المنكوب، ابحث عن حقوقه وحريته، وعن وظائفه وأعماله ومشاريعه، وعن أمواله ودخْله، وعن أسرته وعائلته، وعن زوجته وأولاده. ابحث عن نفسه وجسمه، وعن حريته وكرامته، وعن دينه وإيمانه، وعن عِرْضه وقلبه، وعن حواسه وجوارحه، وعن دمائه ونبضاته... ابحث عن روحه إن كان قد بقي له روح، أو ما زالت فيه حياة!.

وصدق الله إذ يقول: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

آثار الحرب الانتقامية الكافرة ضد المؤمنين تتمثل في قول فرعون مهدداً السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٤].

وفي قوله لهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

آثار هذه الحرب ونتائجها في فعْلة الكفار بالمؤمنين في قصة أصحاب الأخـــدود: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾.

آثار هذه الحرب ونتائجها في ما سجّله التاريخ من تعذيب رهيب صبّه الرومان الذين ألّهوا عيسى عليه السلام منهم، ضد الرهبان الصالحين الذين آمنوا بأنّ عيسى هو عبد الله ورسوله، وبخاصة أتباع المؤمنِ الشهيد «عبد الله آرْيوس» من الأريسِيّنَ الشهداء.

آثار هذه الحرب في ما سجّله التاريخ من مصائب ونكبات أصابت المسلمين في الأندلس على أيدي الصليبيين في «محاكم التفتيش».

آثار هذه الحرب في ما صُبَّ على دعاة الإسلام من تعذيب في سجون مصر الثورية في عهد عبد الناصر والسادات وغيرهما[١].

○ ثم لم يتوبوا:

في تعقيب القرآن على قصة أصحاب الأخدود، عبارةٌ ذات أبعاد بالغة: هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

إنها جملة ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾.

---

(١) اقرأ كتب: البوابة السوداء لأحمد رائف. وأيام من حياتي لزينب الغزالي. ويوميات سجين في السجن الحربي لكمال فرماوي. ورسائل من السجن الحربي لسمير الهضيبي، وغير ذلك.

إنها تفتح الباب أمام الظالمين الحاقدين الناقمين، الذين حرقوا المؤمنين وقتلوهم وأزهقوا أرواحهم.

تفتح أمامهم باب التوبة، وتدعوهم إلى دخوله، وتدعوهم إلى الاستفادة من ذلك، وكسْب آخر فرصة، قبل أن يُغلق الباب.

الذين فعلوا ما فعلوا بالمؤمنين، ماذا يفعل الله بهم إنْ آمنوا وأسلموا، واستغفروا لذنوبهم، وتابوا إلى ربهم، وتراجعوا عن جرائمهم، وأخلصوا دينهم لله، والتزموا بعبادته؟.

إن الله يتوب عليهم، ويتجاوز عن كل جرائمهم وسيئاتهم، ويقبلهم مع جنوده وأوليائه.

وإن المؤمنين يُغيِّرون موقفَهم من أولئك، ونظرتَهم إليهم، وصلتَهم بهم، وتعاملَهم معهم. إنهم ينسون كل ما فعلوه بهم، ويتجاوزون عن كل جرائمهم، ويحتسبون عند الله كلَّ ما نالهم منهم، وأصابهم على أيديهم، ويفتحون معهم حياة جديدة تقوم على المحبة والأخوة والمودّة.

ما أعظم رحمة الله وأوسعها، الذي يقبل كلَّ مَن جاءه تائباً منيباً مسلماً مطيعاً، ويتوب عليه، ويعفو عن كل ما ارتكبه ضد دينه وجنوده وأوليائه.

وما أعظم هذا الدين الذي يقيم هذه المبادئ السامية، والحقائقَ الأصيلة، والقيمَ النبيلة، التي يسمو بها على كل المبادئ والنظم البشرية المادية.

وما أحلم المؤمن، الذي يتجاوز عن كل مَنْ أساؤوا إليه، ويعفو ويصفح عنهم، ويجعلهم إخوة أحباباً له، طالما شاركوه لذّة العبادة والجندية لله.

○ أين حريق من حريق؟

إذا تاب الظالمون وأنابوا فهُمْ إخوان للمؤمنين، مقبولون عند الله. لكنهم إذا لم ينتهزوا تلك الفرصة، ولم يدخلوا باب التوبة، وأصرّوا على كفرهم وحقدهم، فأمامهم عذاب رهيب عظيم أليم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

لقد أحرقوا المؤمنين بنار الأخدود ذات الوقود. فناسَبَ أن يعذِّبهم الله بالنار. وأن يحرقهم بالنار. وفق القاعدة المطَّردة التي تبين أنّ الجزاء من جنس العمل. فإحراقهم للمؤمنين بنار الدنيا يناسبه أن يحرقهم الله بنار جهنم الخالدة يوم القيامة. جزاء وفاقاً، وما ربك بظلّام للعبيد.

أين حريق من حريق؟ أين حريق الدنيا من حريق جهنم؟.

يقول سيد قطب: «ويُنَصّ على «الحريق» وهو مفهوم من عذاب جهنم. ولكنه ينطق به وينص عليه، ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود. وبنفس اللفظ الذي يدل على الحَدَث.

ولكن أين حريق من حريق؟ في شدّته أو في مدّته! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق!.

وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله!.

ومع حريق الدنيا رضى اللَّهِ عن المؤمنين، وانتصارٌ لذلك المعنى الإنساني الكريم. ومع حريق الآخرة غضب الله، والارتكاسُ الهابط الذميم»[1].

كم هو بائس وشقي ومحروم، ذلك الذي يرتكب في دنياه ما يُعرضُه لعذاب جهنم وعذاب الحريق! والذي لا يحرص على النجاة من ذلك الحريق الدائم الرهيب!.

○ الفوز الكبير للمؤمنين:

ماذا جنى المؤمنون الذين ثبتوا على إيمانهم، وآثروا ما عند الله، وتحمَّلوا النار والحريق في سبيل الله؟ هل ربحوا أم خسروا؟ وهل فازوا أم فشلوا؟.

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٧٤.

الجواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

لقد كانوا فائزين ناجحين مفلحين، نالوا الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار، واستحقّوها بفضل الله وبرحمته، وبسبب ما دفعوه ثمناً لها من حياتهم وأجسادهم وأعمارهم وأرواحهم.

لقد فازوا بذلك الفوز الكبير الذي ما بعده فوز. وَمَنْ فَازَ بالجنّة فقد فاز، كما قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إن الدنيا ليست النهاية، إن النهاية هناك، والمهم هو العاقبة يوم القيامة، صحيح أن المؤمنين في القصة غادروا هذه الدنيا، واعتبرهم الناس خاسرين هالكين أمواتاً، لكن العبرة بمصيرهم يوم القيامة، منعَّمين في جنات تجري من تحتها الأنهار.

هل كان أولئك المؤمنون فائزين أم خاسرين؟ لقد كانوا فائزين بكل مظاهر الفوز ومعانيه وصوره ومجالاته.

وتعال معنا نردد مع الإمام الشهيد سيد قطب قوله عن فوزهم:

(قد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد. إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً، هذا الذي ربحوه وهم بعدُ في الأرض... ربحوه وهم يجدون مسَّ النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب... لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ذلك الفوز الكبير...)[1].

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٧٤.

○ قصّة أصحاب الأخدود في الحديث الصحيح:

أورد رسول الله ﷺ بعض التفصيلات في قصّة أصحاب الأخدود، وفيها إضافات نافعة قيّمة على ما ورد في القرآن منها.

وطالما صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ، فيجب أن نأخذه وأنْ نقول به، وأن نضيف ما دلَّ عليه إلى ما دلّ عليه القرآن، وأن ننظر في المصدرين معاً، وأن نخرج بدلالاتهما مجتمعة.

روى مسلمٌ في صحيحه عن صُهَيْب بن سنان الرومي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

كان ملكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر.

فلما كبر قال للملك: إنّي قد كبرت. فابعث إليّ غلاماً أعَلِّمْه السحر. فبعث إليه غلاماً يعلمُه.

فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه.

فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه. فشكا ذلك إلى الراهب. فقال: إذا خشيتَ الساحر فقل حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلَك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابّة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم أعلم آلساحرُ أفضل أم الراهب؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدّابة، حتّى يمضيَ النّاس. فرماها فقتلها. ومضى النّاس.

فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: أيْ بنيّ: أنت اليوم أفضل منّي، قد بلغ من أمرك ما أرى. وإنّك ستُبتلى، فإن ابتُليت فلا تدلّ عليّ.

وكان الغلامُ يبرئ الأكمه[1] والأبرص ويداوي النّاس من سائر الأدواء. فسمع جليسٌ للملك كان قد عمي. فأتاه بهدايا كثيرة. فقال: ما ههنا لك

---

(١) الأكمه: الذي خلق أعمى.

أجمع، إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أَشفي أحداً، إنّما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله، دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله.

فأتى الملكَ، فجلس إليه كما كان يجلس. فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربّي وربّك الله.

فأخذه فلم يزل يعذِّبه، حتّى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أيْ بنيّ! قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إنّي لا أشفي أحداً. إنّما يشفي الله.

فأخذه فلم يزل يعذِّبه. حتّى دلّ على الراهب، فجيء بالراهب. فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى. فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقّه حتّى وقع شقاه.

ثم جيء بجليس الملك، فقيل له ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه، حتى وقع شقّاه.

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى.

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفِنِيْهِم بما شئت. فَرَجَفَ بِهِمُ الجبلُ فسقطوا.

وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانِيهمُ الله.

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قُرقور[1]، فتوسَّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلّا فاقذفوه. فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا.

وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهُم الله.

---

(١) القرقور: السفينة الصغيرة.

فقال للملك: إنّك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ[1] واحد، وتصلبني على جِذع. ثم خُذْ سهماً من كنانتي. ثم ضع السهم في كبد القوس[2]. ثم قل: باسم الله رب الغلام. ثم ارمني. فإنّك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته. ثم وضع السهم في كبد القوس. ثم قال: باسم الله رب الغلام. ثم رماه. فوقع السهم في صُدْغه، فوضع يده في صُدغه في موضع السهم. فمات.

فقال النّاس: آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام.

فأُتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك. قد آمن النّاس.

فأمر بالأخدود في أفواه السّكك[3] فخُدَّتْ. وأُضرم النِّيران.

وقال: من لم يرجع عن دينه، فَأَحِمُّوهُ فيها[4]. أو قيل له: اقتحم. ففعلوا.

حتّى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها. فتقاعست[5] أن تقع فيها. فقال لها الغلام: يا أمّه، اصبري، فإنّك على الحقّ»[6].

○ القصّة في رواية ابن إسحاق:

أورد الإمام ابن إسحاق في السيرة روايةً أخرى عن قصّة أصحاب الأخدود، تختلف عن ما أورده الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ. وهو لم يرفعها إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وإنّما أخذها عن التابعي محمد بن كعْب القُرظي.

---

(١) الصعيد: الأرض البارزة.

(٢) كبد القوس: مقبضها عند الرمي.

(٣) أفواه السلك: أبواب الطرق.

(٤) أحموه: بمعنى ألقوه.

(٥) تقاعست: توقفت.

(٦) صحيح مسلم٥٣، كتاب الزهد والرقائق ١٧، باب قصة أصحاب الأخدود. حديث رقم ٣٠٠٥.

قال ابن إسحاق:

حدّثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، وحدّثني أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها:

أن أهل نجران كانوا أهلَ شرك يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر، يعلّم غلمان أهل نجران السحر.

فلمّا نزلها «فَيْمِيُونْ» ـ ولم يسمُّوه لي باسمه الذي سمّاه به وهب بن مُنَبِّه، قالوا: نزلها رجل[1] ـ ابتنى خيمة بين نجران، وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر، يعلمهم السحر.

فبعث إليه «الثّامر» ابنه، «عبد الله الثّامر» مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مرّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى منه من صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه، ويسمع منه. حتّى أسلم، فوحّد الله وعبده، وجعل يسأل عن شرائع الإسلام.

حتى إذا فقه فيه جعل يسأل عن الاسم الأعظم، فكتمه إياه، وقال له: يا ابن أخي إنّك لن تحمله، أخشى عليك ضعفك.

والثّامر ـ أبو عبد الله ـ لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر، كما يختلف الغلمان.

فلمّا رأى عبد الله أن صاحبه الراهب، قد ضَنَّ بالاسم الأعظم عنه، وتخوّف ضعفه عليه، عمد إلى قِداح فجمعها، ثم لم يُبق لله اسماً يعلمُه إلا كتبه في قدح، لكل اسم قدح. حتّى إذا أحصاها أوقد لها النار، ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً. حتّى إذا مرّ بالاسم الأعظم قُذف فيها بقدحه، فوثب القدح، حتّى خرج منها لم تضرّه شيئاً، فأخذه ثم أتى صاحبه الراهب، فأخبره بأنّه قد

---

(١) ذكر ابن إسحاق قبيل قصة ابن الثامر وأصحاب الأخدود حديث فَيمِيُون الراهب الصالح، وتفصيلات خروجه من الشام إلى نجران، ودعوته إلى دين عيسى ﷺ في نجران، وتتلمُذ ابن الثامر عليه. وأخذ قصته عن التابعي وهب بن منبه، والله أعلم بذلك الراهب فَيمِيُون وبقصته كيف كانت. انظر: الروض الأنف ١: ١٩١ ـ ١٩٥.

علم الاسم الذي كتمه. فقال: ما هو؟ قال: هو كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. قال له: أيْ ابن أخي: قد أصبتَه، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يَلق أحداً به ضُرّ إلّا قال له: يا عبد الله: أتوحّد الله، وتدخل في ديني، وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم. فيوحد الله ويسلم، فيدعو له فيشفى. حتّى لم يبقَ بنجران أحد به ضر إلّا أتاه فاتبعه على أمره.

حتى رُفع شأنُهُ إلى ملك نجران. فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي. لأمثّلن بك، قال له: لا تقدر على ذلك.

فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيُطرح على رأسه، فيقع إلى الأرض، ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بُحورٍ لا يقع فيها شيء إلّا هلك. فيُلقى فيها، فيخرج ليس به بأس.

فلمّا غلبه، قال له عبد الله بن الثامر: إنّك والله لن تقدر على قتلي حتّى توحّد الله، فتؤمن بما آمنت به، فإنّك إنْ فعلت ذلك، سُلّطت علي فقتَلتني. فوحّد الملك الله، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر. ثم ضربه في عصا في يده، فشجّه شجّة غير كبيرة فقتله. ثم هلك الملك مكانه.

واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكْمه. ثم أصابهم مثلُ ما أصاب أهل دينهم من الأحداث. فمن هنالك كان أصل النصرانية بنجران. والله أعلم بذلك.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر. والله أعلم أيّ ذلك كان!.

قال ابن إسحاق: ثم سار إلى أهل نجران ذو نُواس ـ ملك اليمن ـ بجنوده، فدعاهم إلى اليهودية. وخيّرهم بين ذلك والقتل. فاختاروا القتل.

فخدّ لهم الأُخدود. وَحَرَقَ بِالنّار مَنْ حَرَقَ، وَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ بِالسَيْفِ، ومَثّلَ بِهِمْ. حَتّى قَتَلَ مِنْهمْ قَرِيْباً مِنْ عِشْرِيْنَ أَلْفاً.

ففي ذي نُواس وجنده تلك، أنزل الله تعالى على رسوله سيدنا محمد ﷺ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾.

قال ابن إسحاق: حدّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أنّه حُدِّث: أنّ رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطّاب ﷺ، حَفَرَ خِرْبَةً من خِرَبِ نَجرَان لبعض حاجته، فوجدوا عبد الله بن الثامر تحت دَفْن منها قاعداً، وَاضِعاً يَدَهُ عَلَى ضربة في رأسه، ممسكاً عليها بيده، فإذا أُخِّرَتْ يده عنها تنبعث دماً، وإذا أُرسلت يده ردّها عليها، فأمسكتْ دمها. وفي يده خاتم مكتوب فيه: «ربّي الله». فكُتب فيه إلى عمر بن الخطَّاب يخبر بأمره. فكتب إليهم عمر ﷺ: أن أَقِرّوه على حاله. وردوا عليه الدفن الذي كان عليه. ففعلوا»[1].

○ تعليق على رواية ابن إسحاق:

يلاحظ أن ابن إسحاق في إيراده قصّة عبد الله بن الثامر ونصارى نجران، لم يروِ ذلك عن رسول الله ولا عن أحدٍ من صحابته الكرام، وإنما رواه موقوفاً على محمد بن كعب القرظي ـ التابعي الجليل ـ عن بعض أهل نجران.

ورغم أنهم اعتَبروا آياتِ سورة البروج نازلة في عبد الله بن الثامر وإخوانه من أصحاب الأخدود، إلّا أننا لا نقول بذلك.

إننا نعتمد الحديث الصحيح الذي أورده مسلم والترمذي عن صهيب الرومي عن رسول الله ﷺ، والذي أورد بعضَ التفصيلات في قصة أصحاب الأخدود، والذي أبهمَ الكلامَ عن أسماء الأشخاص والزمان والمكان في أحداث القصة.

---

(١) الروض الأنف للسهيلي بتحقيق عبد الرحمن الوكيل ١: ١٩٦ ـ ٢١٧ وانظر: شرح السهيلي لبعض كلام ابن إسحاق المذكور، وتعليق عبد الرحمن الوكيل على ذلك في الكتاب.

أما رواية ابن إسحاق، فلا نجزمُ بوقوعها، لعدم ورودها في المصادر المأمونة الثابتة عن رسول الله ﷺ، وكم بيَّنا مراراً أن قصصَ السابقينَ وأخبارَ الماضين لا تُؤخذ إلَّا من صريح القرآن أو صحيح الحديث عن الرسول ﷺ.

لذلك لا نجزم بوقوع أحداث رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن الثامر ولا نجزم أنهم هم المعنيّون بآيات سورة البروج.

وكذلك لا نجزم بنفي تلك الرواية، لأن النفيَ مثلُ الإثبات يحتاج إلى أدلة يقينية، ونحن لا نملكها للحكم على رواية ابن إسحاق.

فالأسلم هو التوقف فيها، بلا نفي ولا إثبات، فلا نحكم لها ولا عليها. ولا نثبت أن عبد الله بن الثّامر هو الغلام المؤمن الداعية الشهيد، كما لا ننفي أن يكون هو فعلاً المقصود بكلام رسول الله ﷺ.

○ هي أخاديد وليست أخدوداً واحداً:

كثير من العلماء والمؤرّخين يقولون إنّ قصةَ أصحاب الأخدود ليست خاصة بقوم ما، ولا في زمان أو مكان ما. بل تكررتْ هذه القصة عدةَ مرات، وشملت مؤمنين بالله آذاهم قومهم الكفار، وحفروا لهم الأخاديد، وألقوهم فيها.

وفي هذا يقول جبير بن نُفَير: الذين خَدّوا الأخاديد ثلاثة:

الأخدود الأول: في اليمن زمن تبّع.

والأخدود الثاني: في القسطنطينية زمن قسطنطين وأمه هيلانة، عندما ادَّعيا الدخول في النصرانية، حيث صرف قسطنطين النصارى عن دين المسيح والتوحيد، وقال بأن عيسى ابن الله، واتخذ الأخدود وألقى فيه النصارى الذين كانوا على التوحيد.

والأخدود الثالث: في بابل في العراق في زمن بختنصر، حيث صنع صنماً وأمر الناس بالسجود له، فامتنع دانيال وصاحباه، فأوقد لهم النار في الأخدود وألقاهم فيها، فجعلها الله برداً وسلاماً عليهم.

وقال السُّدِّي: كانت الأخاديد ثلاثة: خُدّ بالشام، وخُدّ بالعراق، وخُدّ باليمن[1].

وقال مقاتل: الأخاديد ثلاثة: واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس، حُرِّقوا بالنار. أما التي بالشام فهو أنطانيوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصر، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس. فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله فيهم قرآناً، وأنزل قرآناً في التي كانت بنجران[2].

ولا نعلق على أقوال هؤلاء العلماء إلَّا بقولنا: الله أعلم أيُّ ذلك كان.

○ نظرات في رواية الإمام مسلم للقصة:

سبق أن أوردْنا رواية الإمام مسلم لقصة أصحاب الأخدود، عن صهيب الرومي عن رسول الله ﷺ.

وتبدو في الحديث دلالاتٌ وإشاراتٌ وعبرٌ كثيرة، ويمكن أن تُؤخذ منه دروس وإيحاءات نافعة.

وبين يديَّ رسالةٌ بعنوان **أَصْحَابُ الأُخْدُودِ** لِرفاعي سُرور، وقف فيها صاحبها أمام الحديث وقفات، ونظر فيه نظرات، ثم استخلص منه كثيراً من العبر والعِظات والدلالات.

وسوف ألخص فيما يلي أهم ما يمكن أن يؤخذ من الحديث:

١ ـ في قوله: «كان فيمن كان قبلكم ملك»:

بيانٌ لبداية القصة. وإشارةٌ لزمانها التاريخي. ونلاحظ حرص الرسول ﷺ على إبهام الأشخاص، فلم يحدد لنا اسمَ القوم. أو المكان الذي وقعت عليه، أو القرن الذي حدثت فيه. مما يدعونا إلى الالتزام بالمنهج النبوي في عرْض قصص السابقين، والبحث في أخبارهم.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢: ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) الروض الأنف ١: ٢١٧ حاشية الوكيل.

٢ ـ وفي تجريد أحداث القصة من أسماء الأشخاص والزمان والمكان حكمةٌ أخرى، وهي أن تتجاوز القصة القَيْد التاريخي، لتبقى قائمة في كل مراحل التاريخ. فهي وإنْ وقعت في زمن مضى، إلّا أنها تقدم نفسَها بدروسها ودلالتها تجربةً قائمةً حيَّةً حتى قيام الساعة.

٣ ـ كلمة «قبلكم» في قوله: «كان فيمن كان قبلكم» ربطٌ للماضي بالحاضر، حيث ربط رسول الله ﷺ بين أصحاب الأخدود الشهداء، وبين حاضر الصحابة المستضعفين في مكة. فالصحابة في مكة هم امتدادٌ صحيح للدعوة التي استُشهد من أجلها شهداء الأخدود.

٤ ـ ذكْر الملك في بداية القصة «كان ملك فيمن كان قبلكم» إشارةٌ إلى طبيعة أعداء الدعوة في كل زمان ومكان. أنهم الملأ المستكبرون أصحاب السلطة والجاه.

ثم فيها إشارة إلى طبيعة الدعوة، وضرورة المواجهة منذ البداية بين الدعوة وبين الملأ الكفار والسلطة الظالمة.

٥ ـ في قوله: «وكان له ساحر» بيانُ الارتباط بين الملك والساحر، أو الارتباط الوثيق بين الأنظمة الجاهلية الكافرة وبين السحرة والدّجالين. إن الطواغيت يعتمدون على السحرة، لينشروا الوهم والخرافة بين شعوبهم، ليضمنوا خضوعَهم لهم، لأن تفكيرَ الشعوب ووعيَهم وثقافتَهم كفيل بتحررهم، وزوال أنظمة الكفر عنهم. فيقوم السحرة بعملية وأد الفكر وطمس الوعي.

٦ ـ لما كبر الساحر أشار على الملك باختيار غلام ليتعلم السحر. وفي هذا بيان لحرص بطانة السوء حول الكافرين الحكام على بقاء الأوضاع كما هي، وعلى استمرارها.

كما أن في طلب الساحر إشارةً إلى رغبته في استمرار عمله ووظيفته ورسالته من بعده، فبما أنه كبر واقترب أجله، فليعمل على توريث عمله لغيره.

٧ ـ طلب الساحر غلاماً «فابعث إليّ غلاماً أعلّمه السحر» وفيه إشارةٌ إلى تخطيط الجاهليين ومكرهم وتآمرهم في إفساد الناس، واستمرار الجاهلية،

وتنشئة الأجيال اللاحقة على مبادئ الجاهلية وضلالها وكفرها وسحرها.

وطلبه لغلام، يدل على اختيارهم الأطفال الصغار ليبنؤوا معهم الانحراف، وليطمسوا الحق من فطرتهم، ويشوهوها بما يقدمونه لهم من كفر وسحر وضلال.

٨ ـ «فبعث إليه غلاماً يعلمه» فالغلام الآن في محنة وفتنة، وفطرتُه توشك أن تُطمس ويُقضى عليها. وهكذا تصرُف الجاهليين بالأطفال والغلمان، كما قال نوح عليه السلام عنهم: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

٩ ـ سخر الله لذلك الغلام راهباً في طريقه «فكان في طريقه إذا سلك راهب» ويقدِّر الله للغلام أن يلتقي بالراهب. وفي هذا بيان لنفاذ قدر الله ومشيئته سبحانه، ولفشل الطواغيت في تخطيطهم ومكرهم.

إن الملك والساحر قد أرادا إفساد الغلام وتعليمَه السحر، وإن الله قد أراد فشلهما فيما سعيَا فيه، وأراد للغلام أن يكون مؤمناً داعياً إلى الله شهيداً في سبيل الله. ولا يكون إلّا ما يريده الله.

١٠ ـ وجود الراهب في ذلك المجتمع الجاهلي، والجوِّ الموبوء، إشارةٌ إلى أن الناس ـ غالباً ـ لا يخلون من أفراد مؤمنين صالحين طيبين، ولو كانوا قليلين مستَخْفين أومضطَّهدين.

١١ ـ قعد الغلام إلى الراهب وسمع كلامه وأعجبه. وفي هذا إشارة إلى إرادة الخير به وله. وإلى حسْن أسلوب الراهب في الدعوة إلى الله، وجودة كلامه. وإلى حسْن الاستعداد عند الغلام، وصفاء فطرته، ونقاء سريرته، وأن الملك والساحر لم يتمكنا من إفساده.

١٢ ـ صار الغلام يتلقى من مصدريْن متناقضيْن، معلومات متعارضة. فهو يتعلم من الراهب الدينَ والحقَّ الصحيح، ويتعلم من الساحر السحر والضلال.

ولكنه كان يُحسن التلقي والاختيار، لقد كان يستوعب كلام الراهب ويقبله لأنه الحق، أما كلام الساحر فما كان يقبله ولا يرضى به، بل كان

يسمعه كارهاً، ويقابل الساحر كارهاً، وما كان يُدخل كلامه إلى عقله وقلبه، بل يلقيه سريعاً من سمعه.

١٣ ـ كان الغلام مصرّاً على الذهاب إلى الراهب، كلما ذهب إلى الساحر، وفي هذا إشارة إلى حرصِه على التزود من الراهب بالزاد الإِيماني الذي يمكنه من الثبات أمام الساحر وسحره.

١٤ ـ كان الساحر يضربُ الغلام، لأنه يأتيه متأخراً، وفي هذا إشارة إلى عنف الجاهلية وقسوتها على الأطفال، واستخدامها للضرب والعقاب البدني.

كما أن في ضرب الساحر للغلام، إشارةً إلى وقوع البلاء والابتلاء والمحنة بالغلام، وهي ملازمة لكل من سار في طريق الله.

١٥ ـ تقدَّم الغلام بالشكوى مما يعانيه إلى الراهب، لأن الراهب هو شيخُه ومربيه وموجهه، والداعية يَطلب من مربيه توجيهَه، ومن قائده حلَّ مشكلاته.

ولم تكن شكوى الغلام بهدف تقديم المعاذير والتراجع عن الطريق. بل بهدف حل المشكلة التي تعيق سيره واستمراره.

١٦ ـ لما سمع الراهب شكوى الغلام، قدم له الحلَّ والعلاج، لأنه المربّي والقائد، وهكذا فليفعل القادة بمشكلات الجنود.

١٧ ـ حلَّ الراهب مشكلة الغلام بأن أباح له الكذب على الساحر الكافر. فيقول للساحر حَبَسني أهلي لينجو من الضرب، ويقول لأهله حبسني الساحر لينجو من ضربهم.

وكِذبُه إنما هو للخروج من المحنة وتجاوز الفتنة، ولذلك أذِن له فيه الراهب للضرورة. وليس في هذا إباحةٌ للكذب، فهو محرَّمٌ منهيٌّ عنه، ولكنه مأذون فيه للضرورة.

ومعلوم أنه في ديننا مأذون فيه في حالات ثلاث: في الصلح بين اثنيْن متخاصميْن. وفي إشادة الرجل بجمال زوجته. وفي مواجهة الرجل للكفار حفاظاً على أسرار المسلمين.

لكننا لا نطبق هذه الحالات على إذْن الراهب للغلام، لأنه لم يكن على شرعنا، فله شريعته الخاصة به، فلماذا نطبق عليه شريعةً لم يكلفْه الله بها، ولم تكن قد شرعت في زمانه؟.

١٨ ـ سخّر الله للغلام دابةً عظيمةً حبَست الناس، فدعا الله إنْ كان أمر الراهب أحبَّ إليه أن يقتلها، فرماها بحجر فقتلها، ومضى الناس.

ولعل قوله: «اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب» يشير إلى قلَقه لتلقّيه من الساحر والراهب في نفس الوقت، معلوماتٍ متعارضة، ورغْبته في إنهاء هذه الازدواجية المُتْعبة.

وفي هذا إشارة إلى تأثُّره بما عليه الراهب، واختياره لطريقه، وتلقّيه دينَه ليس معلوماتٍ نظرية عقلية ثقافية، ولكن حقائق معيشة، وقيماً حياتية.

فقد كان ممكناً أن يستمر في تلقّي الدين والسحر معاً دون قلق، إذا كان يسمع للراهب والساحر بدون تفكير أو شعور، لأن سماعَه سيكون مجرداً من التأثير، وسيكون الدين والسحر عنده مجرَد كلام.

ولكن الغلام لم يفعل هذا لأن الدين الذي تلقّاه يريد منه غير هذا.

١٩ ـ قول الغلام في دعائه: «إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر» ليس معناه أن الراهب والساحر كانا في نظره سواء، ويريد أن يطمئن إلى أحدهما، كما قد يفهم بعض الناس. ولكن دعاءه يعني أنه كان يطلب اليقين على أمر الراهب ودينِه من الواقع، بعد وصوله إلى يقين الفطرة والفكر والنظر.

ومما يدل على اقتناعه بأمر الراهب وقبوله له، قوله: «اللهم» وخطابُه اللَّهَ بهذه الصيغة التي تعلَّمها من الراهب، والتي تدلُّ على إيمانه بالله.

٢٠ ـ كونُ الدابة التي تحبس الناس مجالاً للاختبار ثم اليقين، بشرى خير، وفألاً حسناً.

فتلك الدابة في حبْسها للناس تمثل الملك الطاغية الذي يُعبِّد الناسَ له من دون الله، ويصدُّهم عن دين الله.

وقتْلُه للدابة بالحجر يوحي بأنه هو الذي سيخلِّص الناس من ذلك الطاغية، ويدلُّهم على طريق الله، ويقودهم إلى جنته.

٢١ ـ اختيار الغلام للدابة ليخلِّص الناس منها، إشارة إلى بدئه دعوتَه بخدمة الناس وتقديم الخير لهم، وصدّ الأذى والمكروه عنهم، وبذلك قدَّم نفسه ودعوته للناس من خلال هذا الطرح العملي والخدمة الاجتماعية، وفي هذا حياةٌ للدعوة، وتمهيد لقبول الناس لها.

٢٢ ـ لما قتل الغلام الدابة، ورجع إلى الراهب وأخبره، سُرَّ الراهب بفعل الغلام، وقال له: «أي بني: أنت اليوم أفضل مني».

وإخباره بكونه أفضلَ منه بعبارة: أيْ بني، وهي كلمة التحبب والتودد، يدل على العلاقة الروحية المتينة بينهما، ويدل على رضى نفس الراهب وهو يخبره.

٢٣ ـ إخبار الراهب الغلام بأنه أصبح أفضلَ منه يدل على إخلاصه لله وزهْده في هذه الدنيا، وتجرُّده عن كل حظوظ النفس.

٢٤ ـ كون الغلام أفضلَ مِن الراهب، وهو تلميذه، والراهبُ أسبق منه في عالم الإيمان، وقَطَع سنوات طويلة في السير إلى الله، يدل على أن الفضل والمنزلة في الدعوة لا تكون بالعمر الذي يعيشه المسلم فيها، بل بمقدار الإيمان والتقوى والإخلاص والتجرد.

٢٥ ـ أخبر الراهب الغلام بأنه سيُبتلى. وهو في هذا يعرِّف الغلامَ ـ كما يعرفُنا نحن أيضاً ـ على طريق الدعوات، وعلى معالمه وسماته ويقدم حقيقة قاطعة، وسنّة مطردة دائمة، وهي أن الابتلاء سنّة الدعوات، وأن الدعاة لا بدّ أن يصيبهم منه ما قدره الله لهم.

وإخباره للغلام بذلك في بداية المرحلة العلنية للدعوة، حتى يوطِّن نفسه على ما سيلاقيه، ويستعد له، ويتزود له بالصبر والتقوى والثبات.

وعلى القادة والمربين الدعاة، أن يُعرِّفوا أتباعهم على طريق الدعوة، وعلى معالمه وسماته، وأن يُبيّنوا لهم ما هم مقدِمون عليه، وما ينتظرهم

خلاله، حتى يكونوا على بينة من الأمر، وحتى يستعدوا لمواجهة الأخطار.

٢٦ ـ طلب الراهب من الغلام أن لا يدل عليه. وفي هذا أخذ بمبدأ «السِّرِّيَّة» في التنظيم الدعوي.

والسرية التنظيمية للدعوة، من حيث التنظيم والقيادة، أمر لا بدّ منه للدعوات في أي زمان ومكان.

وهذه السرية بارزة في كثير من حياة السابقين، كما توحي بذلك لقطاتُ ومشاهدُ من قصصهم في القرآن.

وأبرز ما تَبدو هذه السرية في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص. وفي دفاع الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه عن موسى عليه السلام أمام فرعون كما في سورة غافر.

أما في سيرة الرسول ﷺ، وبخاصة في الفترة المكية من الدعوة فإن السرية كانت ملحوظةً مقصودةً مُرَادةً، في كثير من حياة الصحابة وتصرفاتهم وأعمالهم. وأبرز مثال على ذلك قصةُ إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه. وهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

٢٧ ـ بعدما عُرف الغلام،واشْتَهر أمره بين الناس، انطلق بدعوته بينهم. وفي هذا انتقال منه من السرية إلى العلنية في الدعوة.

٢٨ ـ اختار الغلام مجالاً طيّباً وميداناً مؤثِّراً، لتعريف الناس به وبدعوته وبدينه. إنه مجال خدمتهم، وتقديم الخير لهم، وكف الأذى عنهم. حيث صار يبرئ الأكْمَهَ والأبرصَ، ويداوي الناس من سائر الأدواء.

وقد كان الغلام موفَّقاً في هذا الميدان، ناجحاً في هذا المجال. لأن الناس سوف يحبونه لِخِدمته لهم، ويحبون دينه الذي يقدمه لهم، ويحبون الله ربَّه الذي يشفيهم.

وعلى الدعاة أن يَعْرفوا هذا الدرس من طريقة الغلام في الدعوة.

٢٩ ـ معالجتُه الناس من الأدواء، وإبراؤه للأكمه والأبرص بإذن الله،

بدون تعلُّم منه لأسس العلاج ومبادئ الطب، يُعتبر كرامةً من الله سبحانه له، وهذا من كرامات الأولياء، التي يكرمهم الله بها.

إن الشفاء والبرء بإذن الله وإرادته، لكن تصرُّف الغلام هو سبب مادي ظاهري بشري لتحقيق قدر الله سبحانه.

٣٠ ـ ما جرى بينه وبين جليس الملك الذي كان قد عَميَ، وجاءه ليعالجه يعتبر درساً للدعاة في صلتهم بالناس.

فقد جاءه الجليس بهدايا كثيرة، وقال له: ما ها هنا لك أجمع، إن أنت شفيتَني.

فتجرَّدَ الغلامُ لربه ودعوته، ورفضَ هدايا الجليس الكثيرة كلها.

على الداعية أن يتجرد لدينه وربه ودعوته، وأن لا يسأل الناسَ شيئاً، وأن لا يأخذ منهم شيئاً، وأن لا يطلب منهم على دعوته أجراً، وأن لا يكلفهم مالاً ولا متاعاً، وإذا قدموا له من ذلك شيئاً، فيحاول ردَّه إليهم. لتبقى صلتُه بهم خالصةً من أية شائبة مالية أو مادية.

لأن هذا أَدْعى لمحبة الناس له، وقبولِهم لدعوته. فالزهد بما في أيدي الناس سبب لمحبة الناس للزاهد.

٣١ ـ رد الغلام على عرض الجليس المادي بقوله: «أنا لا أشفي، ولكن الله هو الذي يشفي».

إنه يعرِّف الجليس على الله، ويقدم له العقيدة والإيمان، بصفاء ووضوح. كما أنه يبدأ مع المدعو بالأساس والأهم وهو العقيدة والإيمان.

٣٢ ـ طلب الغلام من الجليس الإيمانَ باللَّهِ إن أراد الشفاء: إن آمنتَ بالله دعوتُ الله فشفاك.

وهو في ذلك يستغل حاجةَ الجليسِ إلى الشفاء ليعرض عليه الإيمان، أو بالأصح يستغلُّ قُربه إلى اللَّهِ وحاجتَه له وتوجُّهَ قلبه وفطرته له، لأن الإنسان أقرب ما يكون إلى الله، في حالة الاضطرار والحاجة.

٣٣ ـ استجابَ الجليس لدعوة الغلام، فآمن بالله، فشفاه الله بدعاء الغلام، وردَّ له بصره.

وهذا يدل على أن الإيمان كامنٌ في أعماق قلوب الناس، وأن فِطَرهم تتوجه إلى الله، لكن كفر أُناس ومعاصيهم وذنوبهم تُغطي على تلك الفطر، وتطمس على قلوبهم. فإذا وَجَدَ أحدُهم الداعيةَ الناجح المؤثر، والأسلوبَ الصحيح الفعال، فإنه يصحو قلبه، وتستيقظ فطرته، ويتوجه إلى ربه.

٣٤ ـ هناك فرق بعيد بين موقف الراهب مع الغلام، وموقف الغلام مع الملك.

فقد عرفْنا رغبة الراهب في السرية، ولذلك أوصاه بأن لا يدل عليه عند المحنة والإيذاء والابتلاء.

بينما لا نجد هذه الوصية في صلة الغلام بالجليس. إنه لم يقل له: لا تدل عليَّ!.

فما هو الفرق بين الوقفتيْن؟.

إن الفرق هو في المرحلة التي وصلتْها الدعوة.

عند وصية الراهب للغلام كانت الدعوة سرية، ولذلك حرص الراهب على عدم كشفها.

أما عند معالجة الجليس فقد كانت الدعوة علنية، لأن الغلام انتقل بها إلى مرحلة العمل العلني والتحرك العلني، حيث كان يداوي الناس من سائر الأدواء، الناسَ كلَّ الناس.

لقد أصبح معروفاً للناس، فلا معنى لأن يطلب من الجليس أن لا يدل عليه.

في المرحلة الأولى السريَّة، كان الارتباط فردياً بين الراهب والغلام.

أما في المرحلة الثانية فقد كان الارتباط عاماً بين الغلام وبين الناس، من خلال اتصاله بهم ومعالجته لهم.

ثم إن الراهب في المرحلة الأولى آثر العمل السري، ولم يدخل المجال العلني. أما الغلام فقد تحرك تحركاً علنياً، أثَّر به في الناس، وكسَبَ قلوبهم وتأييدهم.

التحرّك في المرحلة الأولى كان محدوداً ضيقاً قليلاً، كما يبدو في تعرف الغلام على الراهب ولقائه به. بينما هذا التحرك في المرحلة الثانية كان علنياً جماهيرياً.

لهذه الفروق بين المرحلتَيْن ناسَب أن يوصي الراهب غلامه أن لا يدل عليه، بينما أسقط الغلام هذه الوصية للجليس، وكأنه يوصيه بعكسها، ويطلب منه أن يدل النَّاس عليه!.

٣٥ ـ ذهب الجليس إلى الملك مزوَّداً ببصره، ومزوّداً بعزّته وجرأته وكرامته وشجاعته، والأهم أنه مزوَّد بإيمانه.

وجلس إلى الملك كما كان يجلس. فوجئ الملك به وقد عاد إليه بصرُه. فسأله: من ردَّ عليك بصرك؟ فأجابه: ربّي. فسأل: ولك ربٌّ غيري؟ فأجابه الجليس البصير المؤمن: ربّي وربك الله.

لقد تحوَّل هذا الرجل من جليسٍ للملك، سميرٍ له، عابدٍ له، ذليلٍ بين يديه، إلى مؤمن داعية إلى الله.

واختار لدعوته أعتى رجل وأظلم رجل. إنه الملك الذي يدّعي الربوبية، والذي يُعبِّد الناسَ له من دون الله. اختاره للدعوة والبلاغ والإعلان. إنه يقول له كلاماً عجيباً يسمعه لأول مرة، ويهزه من الداخل هزاً عنيفاً: ربّي وربك الله.

وتَلحظ في عبارة الجليس البصير المؤمن: الجرأةَ والشجاعةَ والصراحةَ والعزةَ والحرصَ على البيان والدعوة والتبليغ.

٣٦ ـ ويُصيب الجليسَ البصيرَ ما يصيب كلَّ داعية من أعدائه، حيث يعذبه الملك عذاباً رهيباً، فيثبت على دينه.

إن موقفَه شبيه بموقف السحرة الذين جاؤوا فرعون مرتزقة مأجورين، فلما آمنوا برب العالمين، وخالط الإيمانُ قلوبَهم، تحوّلوا إلى دعاة مبلِّغين، وواجهوا تعذيبَ فرعون بصبر وثبات ويقين.

٣٧ ـ بعدما اكتشف الملك أمرَ الغلام، قال له: أيْ بنيّ. إنه يخاطبه بهذه العبارة التي ظاهرُها المودة والمحبة والرأفة. ولكنها في الحقيقة كلُّها مكر وخبث وخداع. وكأنه يريد أن يضغط عليه عن طريق الإغراء بأن يشير له بمزايا القرْبِ منه، والخضوعِ له. وأن يَعِدَه بما ينتظره من مستقبل زاهر وحياة مترفة.

فرْق بعيد بين الكلمة الأبويّة الرحيمة الرقيقة التي قالها الراهب للغلام أيْ بنيّ. وبين الكلمة الماكرة الخبيثة الصادرة له من الملك: أيْ بنيّ.

إن الحروف في الحالتين واحدة والكلمات واحدة، ولكن الفرق في هدف قائلها منها، وفي حالته وهو يقولها.

٣٨ ـ ويتجلى خبثُ الملك ومكرُه في قوله للغلام: قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. حيث يحاول بذلك أن ينسب نجاح الغلام إليه، وأن يفسر أعماله بالسحر الذي تلقّاه عن ساحر الملك. وفي هذا تزويرٌ للحقائق، وتلبيسٌ للأمور على الناس، وتفسير للحق بالباطل، لإخفاء الحقيقة على الناس.

٣٩ ـ وينجح الغلام في مواجهته للملك، ويجتاز منعطفَ الإغراء، ويستعلي عليه بفضل الله.

ويقف أمام الملك بإيمان وجرأة واستعلاء وثبات: إني لا أشفي أحداً. إنما يشفي اللَّهُ.

ولا ينجح في مواجهة كبراء الطغاة إلّا عظماءُ الدعاة الرجال المؤمنين.

٤٠ ـ ويمر الغلام بمرحلة أخرى خطيرة، حيث يأخذه الملك، ويعذبُه. ولم يزل يعذبه. ويثبتُ على دينه، ولكنه لا يثبت على سرِّ أستاذه، حيث يضطرُّ مرغماً إلى إفشاء سره، فيدل على الراهب.

ولم يكن الغلام الداعية مؤاخَذاً في هذا ولا آثماً. ولكنها الأسرار

التنظيمية، التي قد لا تبقى أسراراً أمام الاضطهاد البشع، والتعذيب الرهيب.

كم من الأسرار التنظيمية الدعوية التي أُفشيتْ من قبل دعاة صادقين ملتزمين، في ساحات التعذيب و«زنازينه» ووسائله وأدواته. أفشاها الدعاة كارهين مضطرين، وأحياناً أفشوها وهم في حالة لا إرادية.

إن الطغاةَ يخترعون من وسائل التعذيب الرهيبة، ما يجعلون بها الداعية المعذَّب، يفقد وعيه وعقله وإدراكه واختياره، فتفلت منه أسراره من «خانة» اللاوعي أو اللاشعور، فينطق بها وهو شبه مخدَّر أو منوَّم.

ولعل هذا الأمر يدعو الدعاة، إلى التقلل من الأسرار الدعوية التنظيمية، وإلى عدم البحث فيما لا يعنيهم من تلك الأمور والأسرار الدعوية التنظيمية، وإلى عدم الإكثار من الأخبار والمعلومات عن إخوانهم وتنظيمهم. فإذا ما عاشوا في التعذيب حالةَ الهَذَر والهذيان، لم يجد الطغاة عند عقلهم الباطن أخباراً أو معلومات.

كما أنه على القيادة أن تقدِّر الوضْعَ والجوَّ والحالة التي أفضى فيها الداعية بما عنده، وقدم للطغاة بعض أسرار دعوته، فلا تعامل الجميع معاملة واحدة، إدانةً أو عفواً وإعذاراً، ولكن تُصدر حكمَها بالإدانة والعقوبة، أو العفو والصفح، على حسب الحالة القائمة، ووضْع الداعية أمام الطغاة، وطريقةِ وكيفية إفضائه بما عنده، ومستوى ما قدَّم لهم من معلومات وأخبار.

٤١ ـ قام الملك بتعذيب الجليس والراهب، وكان حريصاً على ارتدادهما، لأن في ارتدادهما قتْلاً للدعوة، وفي قتلهما حياةً لها. ولهذا عرض عليهما الرجوع عن الدين، ولما أبيا قَتَلَهما بنشرهما بالمنشار.

وقتلُهما بواسطة المنشار يدل على تمكُّن الحقد من قلب الملك، على الدعوة والدين، كما يدل على الحرب الانتقامية الناقمة التي يشنُّها الأعداء ضد الدعاة، وعلى استخدامهم وسائل غير إنسانية ولا معقولة فيها.

كما أن في لجوء الملك إلى أسلوب القتل دليلاً على أن الكافرين لا يُحسنُون إلَّا هذا الأسلوب في مواجهة الحق وأهله، وأنهم يرفضون الحوار والمناقشة والإقناع والمناظرة.

أما ثبات الجليس والراهب على الدين، وإيثارُهما الشهادةَ على الردة، فدليل على تمكُّن الإيمان فيهما، وعلى ثباتهما واستعلائهما وطلبهما لرحمة الله ومرضاته.

٤٢ ـ كان الملك يعتبرُ الغلام القائدَ العملي للدعوة، ولهذا كان حريصاً على ردتِّه وإغوائه، وعلى عدم قتله، لأن في تخليه عن دينه قتلاً لدعوته، ثم إن قتله يحدث بلبلة وفتنة لدى الناس، فهو معروف عِندهم، مشهور بينهم، محبوب من قِبلهم، لخدمته لهم.

٤٣ ـ يَظهرُ حرصُ الملك على عدم قتل الغلام في أنه أراه مصرع الراهب والجليس، لعله يضعف أو يتأثر فيتراجع. ثم أرسله مع طائفة من الجنود ليلقوه من الجبل أو يغرقوه في البحر، وكان بإمكانه أن ينشر جسمه بالمنشار كما فعل مع زميليْه وأخويْه.

٤٤ ـ لعل في اختيار الملك تلك الوسيلة في قتل الغلام هدفاً آخر. حيث كان يريد أن يتيح للغلام فرصةً للتفكير والتردد ثم التراجع عن ما هو عليه، وذلك أثناء المسافة الطويلة، في طريقه إلى الجبل، أو البحر.

٤٥ ـ كان الغلام مؤمناً بربه، متوكِّلاً عليه، مفوِّضاً أمره إليه، طالباً منه وحده الخلاص والفرج، كما يبدو هذا من دعائه ربه وهو على قمة الجبل وفي وسط البحر: اللهم اكفنيهم بما شئت.

لقد كان الغلام وقتَها عاجزاً عن إنقاذ نفسه، ولا يملك من الأسباب المادية شيئاً للخلاص، فتركَ الأمر لربه، أن يكفيه شرَّهم بأي سبب يختاره سبحانه، وبأية كيفية يريدها ﷻ.

٤٦ ـ تظهر في استجابة الله للغلام، وتخليصهِ له من بين الزبانية، حيث رجف بهم الجبل فسقطوا وماتوا، وانكفأت بهم السفينة فغرقوا، تظهر نصرةُ الله له، وكونه سبحانه معه، ودفاعه عنه، وتسخيره ما يشاء من المؤيدات له.

وتظهر في ذلك أيضاً كرامة من الله لهذا الغلام الداعية الناصر لدين الله وتضاف إلى كراماته السابقة.

٤٧ ـ ماذا فعل الغلام بعد هلاك الزبانية في المرتيْن؟ هل هرب من الميدان وكان بإمكانه ذلك؟ هل اختفى عن العيون والأنظار؟ ومع أن حياته مهددة بالخطر، فهل كان حريصاً على الحياة؟.

لقد جاء في المرتيْن يمشي إلى الملك! وهو يعلم ماذا تعني عودتُه إلى الملك، وماذا ينتظره عند الملك.

لماذا عاد إلى الخطر المباشر؟ لأنه في مواجهة قوية، ومعركة ساخنة، واختفاؤه وإيثاره للنجاة يعني هزيمتَه وهزيمةَ دعوته في تلك المعركة.

لقد وَجَدَ مصلحته في مصلحة الدعوة، وحياتَه في حياة الدعوة، وطالما أن من مصلحة الدعوة ركوبَ الخطر فليفعل. وحتى لو كان في مصلحة الدعوة موتُه والقضاءُ على حياته، فليفعل.

لا تفسَّرُ عودته على أنها تهوُّر، كما لا تفسر نجاته على أنها حكمة وكياسة. لقد كان في عودته في قمة الشجاعة.

يجب أن نفرق في مواقف المواجهة مع الطغاة وأعوانهم بين ثلاث كلمات: الجبن والتهور والشجاعة.

فالجبن: هو عدم الاستعداد للبذل والتضحية عند الحاجة لذلك.

والتهوُّر: هو التضحية بلا ضرورة ولا حاجة.

والشجاعة: هي التضحية الضرورية النافعة.

٤٩ ـ تبدو لنا حكمة من قول الملك له لدى عودته: ما فعل أصحابك؟ حيث نسبَ الزبانية إلى الغلام، وأضافَهم له، وجعلَهم أصحابَه، مع أنهم يريدون قتله، وخرجوا لتعذيبه، فما معنى هذه الصحبة.

لقد كانوا قبل خروجهم أصحاباً للملك، حيث قال: «فدفعه إلى نفر من أصحابه» والضمير هنا يعود على الملك. ووجْه صُحبتهم للملك أنهم خرجوا بتكليف منه، منفِّذين لأمره.

أما بعد هزيمتهم أمام ثبات الغلام، وإهلاك الله لهم، فلم يعودوا أصحاباً

للملك، لقد تخلى الملك عنهم بعد هزيمتهم، وهكذا يتخلى الطغاة عن أعوانهم عند فشلهم. لم ينسبهم الملك له، حتى لا ينسب هزيمتهم له أمام الغلام المنتصر.

٥٠ ـ أيقن الملك أنه عاجز عن قتل الغلام، وعرف الغلام بعجزه، فصار يُصدر إليه الأمر، والملكُ ينفِّذ ذلك!.

قال له: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به؟ قال: وما هو؟.

سبحان الله. كيف يمكر الله بأعدائه، ويُذل الطواغيت. لقد كان الملك قبل قليل هو الآمر الناهي، المتكبِّر المنتفش، يزعم أنه رب الناس. وها هو الآن ذليل على يديْ الغلام، ذليل بين يديْ الغلام، واقف أمامه بعجزه وذله وصَغاره وهوانه.

إنه يريد الخلاصَ من هذا المأزق، والقضاءَ على الغلام بأية طريقة، حتى لا ينتشر دينه بين الناس، فيخسر الملك، وإنه ليسمع أية نصيحة في ذلك، حتى لو صدرت عن الغلام نفسه.

الغلام الآن عملاق أمام الملك، الذي تحوَّل إلى قزم صغير. الغلام الآن هو الآمر، والملك يتلقى الأمر للتنفيذ.

الغلام يقول له: حتى تفعل ما آمرك به، والملك يقول بلهفة: ما هو؟.

ولعل هذا أول أمر يتلقاه الملك في حياته! ويجد نفسه مضطراً إلى تنفيذه!.

٥١ ـ ونقف أمام تبيين الغلام طريقةَ قتْله والخلاص منه، لنقول: إنه يعلم أن المرحلة القادمة تقتضي ذلك. إن حياته موقوفةٌ على دعوته، وإنه يبذلها لهذه الدعوة.

إنه يريد إنهاءَ ادعاء الملك للربوبية، وأن يُرِي الناسَ ضعفه وعجزه، ولو كان هذا على حساب روحه وحياته.

٥٢ ـ في قول الغلام للملك: «تجمع الناس في صعيدٍ واحد» يبدو حرصُه على دعوة الجماهير، ليشهدوا الأحداث ويفكروا فيها، ويعرفوا الحق من

الباطل، إنه في هذا ينتقل إليهم، ويريد أن لا يبقوا غائبين أو متفرِّجين، يريد لهم أن يدخلوا المعركة، وأن يشاركوا فيها، وأن ينحازوا إلى جانب الحق فيها.

إن الطغاة عندما يواجِهون الحق، يحرصون على تغييب الجماهير وتحييدها، وعلى مواجهة جنود الحق والتنكيل بهم في معزل عن تلك الجماهير، لأنهم يخشون استيقاظَ الفطرة في قلوب هؤلاء، فينحازون إلى جانب الحق.

٥٣ ـ دل الغلامُ على طريقة الخلاص منه، وأمَر الملكَ بتنفيذها: أن يصلبه على جذع: وذلك ليكتمل ضعف الغلام أمام الجماهير المحتشدة، فينفعلون لذلك المنظر؛ غلام صغير ضعيف مجرَّد من القوى المادية، مصلوب على جذع شجرة.

وفي هذا مشاركة وجدانية عاطفية بين الغلام والناس.

٥٤ ـ أمَر الملكَ بأخذ سهم من كنانة الغلام المصلوب، وليس من أي مكان آخر، ليَعْلم الملكُ والناس أن سبب القتل أيضاً يملكه الغلام ولا يملكه الملك.

٥٥ ـ يوجِّه الغلام الملكَ إلى كل حركة في عملية قتله، ويأمره بالخطوات التفصيلية المفهومة ضمناً، وذلك حيث يقول له: «ثم تضع السهم في كبد القوس» إنه يريد إظهارَ عجز الملك، وأن لا يتصرف من عنده، ولا يتحرك حركة من تلقاء نفسه، ليكون خضوعُه للغلام كاملاً، وضعْفُه أمامه بالغاً.

٥٦ ـ وأمر الغلام الملك أن يعترف باللّهِ ربه ورب الغلام، وأن يقتل الغلام باسم الله: قل: بسم الله ربِّ الغلام.

إنه يريد قبل أن يموت، أن يقدِّم للجماهير التفسير الصحيح للأحداث، وأن يعرِّفهم على الله، وأن يريَهم عجزَ الملك وضعفَه، فكيف يتخذونه رباً لهم من دون الله؟.

٥٧ ـ لقد أراد الملك قتل الغلام مرتيْن، وعجز، وأهلك الله جنوده، ومهما حاول قتْله فسوف يعجز ويفشل لأن الله لا يريد ذلك.

أما عندما يريد الله موت الغلام فلا يكون إلَّا ما يريد سبحانه، فاختيار الغلام هذه الطريقة المؤثِّرة الدعوية لنهايته. ليَعرف الناسُ أن هلاكه وقتله إنما بقدر الله ومشيئته وإرادته، وليس بإرادة الملك الذي عرفوا عجزه عن ذلك.

٥٨ ـ ويستجيب الملك لأوامر الغلام استجابة الضعيف المضطر، لأنه وجد نفسه أمام ثلاثة أمور:

١ ـ إمّا أن يترك الغلام، يدعو كما شاء، وفي هذا سيؤمنون بالله.

٢ ـ وإما أن يستمر في محاولات قتْله، وسوف يستمر في تأكيد عجزه أمام الناس.

٣ ـ وإما أن يقتله حسبما يأمر هو. ليتخلّص منه.

لقد اختار الأمر الثالث، مُكرَهاً مضطَراً، وما درى العاجز المسكين أن الناس سيؤمنون باللَّهِ رب الغلام.

٥٩ ـ اختيار الغلام لعبارة: «باسم الله ربِّ الغلام» لقتْله، يهدف منه إلى تعريف الناس باللَّهِ ربِّ الملك، فقد أحبه الناسُ لما قدَّمه لهم من خير ومنفعةٍ، فبقي قبل أن يغادر دنياهم إلى ربه، أن يدلَّهم على الله ربه الذي ألهمه خدمتَهم ونفعَهم، والذي كان هو الشافي لهم.

كما يهدف منه أن يريهم مقدار العجز والضعف الذي بلغه الملك، فهو الطاغية الجبار الذي كان يدَّعي الربوبية، ويقتل من لا يُقر له بذلك، كما فعل مع الراهب والجليس، انتهى به الأمر إلى أن يعترف باللَّهِ رب الغلام، وأن يقتله باسمه.

٦٠ ـ نفَّذ الملك ما أمره به الغلام، ورمى الغلام بسهم، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده في صدغه في موضع السهم، فمات.

والناس ينظرون، ويتأثرون لهذه النهاية المحزنة للغلام، والذي أحبه كثيرون منهم لما قدمه لهم.

ويغادر الغلامُ هذه الدنيا داعية ثابتاً مجاهداً، وينال الشهادة غايةَ الأماني ونهايةَ الآمال. ويفوز بما عند الله.

لقد جعل الغلام عمره وقفاً على دعوته، ولذلك بَذَلَه في سبيلها، ودعا إلى الله، في حياته وفي مماته. كانت حياته دعوة إلى الله، وكان موته دعوة إلى الله.

٦١ ـ أحدث استشهاد الغلام الأثَرَ المطلوبَ في نفوس الناس، وصاروا يفكرون: غلام صغير يحبهم ويقدِّم لهم الخير والنفع، ويموت من أجلهم، ويُثبت لهم عجز الملك وضعفه، فلماذا لا يؤمنون برب الغلام؟.

وزال الخوف من الملك المقهورِ العاجز من قلوبهم، وآمنوا برب الغلام.

متى آمن الناس؟ بعد استشهاد الغلام.

فكروا فعرفوا أنها دعوة سامية عظيمة، تلك التي يقدِّم صاحبها روحَه وحياتَه من أجلها، والتي يؤْثِرها على كل ما في الدنيا، والتي يَخرج صاحبها من هذه الدنيا متجرداً من كل ما فيها. لأنه ذاهب إلى ما هو خير وأبقى.

إن الناس يريدون من أصحاب الدعوات التضحية والزهد والتجرد، وعندما يرون هؤلاء الدعاةَ يبذلون لدعواتهم ما يبذلون من أموالهم وأوقاتهم وأعمالهم وآمالهم وأجسامهم ودمائهم وأرواحهم، يتأثرون بهم، ويدخلون في دعواتهم، وقد يكونُ هذا بعد مغادرة الدعاة هذه الدنيا شهداء في سبيل الله.

٦٢ ـ صار الناس يهتفون: آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام.

وكان إيمانُهم العظيم في لحظة الانطلاق من قيود الوهم والجهل.

وفي لحظة العزة بعد القهر والذل.

وفي لحظة القوة بعد الوهن والخوف والضعف.

لقد كانوا عظماءَ في إيمانهم برب الغلام، متجرِّدين لله، منيبين إليه، مستعدين للبذل والتضحية في سبيله.

إنهم يعلمون أن إيمانهم سيكلفهم الكثير، وهم على استعداد لبذل ذلك الكثير، إنهم يشهدون استشهاد الغلام، ويعلمون أنهم قد يصيبهم ما أصابه، وتكون نهايتهم مثلَ نهايته. ومع ذلك لم يخافوا ولم يجبُنوا، بل جهروا بإيمانهم.

كانوا قبل لحظات ضِعافاً خائفين أذلاء مستَعْبَدين، والآن تحولوا إلى قوة عظيمة أثبت من الجبال، وتتحدى الأهوال.

حقاً إن الإِيمان يصنع الأمجاد والبطولات.

٦٣ ـ وأُسقط في يد الملك، وأُفلتت الأمور من بين يديه، وفقد السيطرة على تلك الجموع، وجاءه من يقسم له قائلاً: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس.

مكر ضد الحق، ومكر الله به، والله خير الماكرين.

٦٤ ـ لجأ الملك في مواجهة جماهير المؤمنين إلى الوسيلة ذاتها، التي يلجأ إليها كل طاغية. وهي التعذيب والاضطهاد، وقتل المؤمنين وسفك دمائهم.

حيث أمر بالأخاديد على أبواب الطرق فشُقت، وأُضرمت فيها النار ذات الوقود، وأمر أن يُعرض الناسُ المؤمنون عليها، فَمَنْ تَخلّى عن دِيْنِهِ وَإِيْمَانِهِ يعود عنده معزّزاً مكرّماً. ومن بقي على دينه وإيمانه يقذفونه فيها، أو يقولون له: اقتحمها بنفسك.

وسلوك الطغاة أساليب البطش والقتل يعني فشلهم في مواجهة الحق، وهزيمتهم في المعركة النظرية الفكرية معه.

لماذا لا يسلكون معه أسلوب الحوار والنقاش والجدال؟ لماذا لا يحاولون إيقافه ونقض حقائقه؟ لأنهم لا يملكون حجّة أو دليلاً أو منطقاً، ولذلك يوقنون بهزيمتهم أمامه.

فلا يبقى أمامهم إلّا الوسيلة غير الإِنسانية، الوسيلة التي تلجأ لها حيوانات الغابة لتسوية حساباتها فيما بينها، وحلّ مشكلاتِها وفضّ نزاعاتها، أسلوب الضرب والأذى والقتل وسفك الدماء.

٦٥ ـ هل أوقفت الأخاديد زحف الجماهير الإيماني؟ وهل نجحت في ردّتهم عن دينهم؟ وهل أوقعت في نفوسهم الخوف والجبن والهلع؟.

منذ متى تنجح وسائل البطش والتعذيب في ردّة الناس وإغوائهم؟ ومنذ متى تقضي تلك الوسائل على دعوة الحق؟.

إن دعوات الحق لا تتقوّى إلّا بالشدّة، ولا تمتد وتنمو وتترسخ إلّا بالابتلاء، ولا تثبت إلّا بالمحن.

واصلتْ جَمَاهِيرُ المُؤْمِنِين اندفاعها حتّى أَخَادِيدِ النّيرَان.

ثبتت الجماهير المؤمنة على إيمانها، وآثرت ما عند ربّها، وبَذَلَتْ أَروَاحَهَا فِي سَبِيلِ دِينِها.

احترقت أجسادهم بالنّار ذات الوقود، وَحَلَّقَتْ أَرْوَاحُهُم في سماء العلياء، وفازوا بالشهادة والجنّة، وغادروا هذه الدنيا غير آسفين عليها.

○ هذا هو الطريق:

نختم كلامنا عن قصّة أصحاب الأخدود، بِفَصْل «هَذَا هُوَ الطَرِيق» الذي جعله الأستاذ الإمام سيد قطب، آخر فصل في كتابه الرائد «معالم في الطريق». والذي علّق فيه على قصّة أصحاب الأخدود، وسجّل فيه بعض ما توحي به القصّة من معالم الطريق.

وقد كتب سيد قطب هذا الفصل تعقيباً منه على تفسير سورة البروج في الظلال، على أنْ يُطبع مع الظلال، ولكن الرقابة المصرية منعت نشره عندما طُبع الظلال.

فأبقى سيد قطب ذلك التعقيب ونشره في كتاب «المعالم».

وإذا علمنا أنّ كتاب «معالم في الطريق» هو آخر ما صدر لسيّد قطب، وعلمنا أنّ فصل «هذا هو الطريق» آخر فصول الكتاب، أدركنا كأن سيد قطب كان يرى لنفسه نهاية كنهاية أصحاب الأخدود، وشهادة في سبيل الله ينالها كما نالها أصحاب الأخدود، وكأنّه ينعى لنا نفسه من خلال هذا الفصل.

وكأن سيد قطب في هذا الفصل يوصي الدعاة من بعده، وهو يغادر دنياهم مودّعاً، بالثبات على الطريق، مهما واجهوا فيه، فهذا هو الطريق الذي قدّره الله للدعاة.

○ نصّ كلام سيد قطب:

إن قصّة أصحاب الأخدود ـ كما وردت في سورة البروج ـ حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كلّ أرض وفي كلّ جيل. فالقرآن بإيرادها في هذا الأسلوب، مع مقدمتها والتعقيبات عليها، والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها. . . كان يخطّ بها خطوطاً عميقة في تصوّر طبيعة الدعوة إلى الله، ودور البشر فيها، واحتمالاتها المتوقّعة في مجالها الواسع ـ وهو أوسع من رقعة الأرض، وأبعد مدى من الحياة الدنيا ـ وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق، ويعد نفوسهم لتلقّي أيٍّ من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور.

إنّها قصّة فئة آمنت بربها، واستعلنت حقيقة إيمانها. ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبّارين بطّاشين، مستهترين بحق الإنسان في حرّية الاعتقاد بالحقّ، والإيمان بالله العزيز الحميد، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلّى الطغاة بآلام تعذيبها، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالتحريق.

وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة، ولم تفتن عن دينها، وهي تحترق بالنّار حتّى تموت.

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة، وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعاً، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها.

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيّرة الرفيعة الكريمة، كانت هناك جبلّات جاحدة شريرة مجرمة لئيمة. وجلس أصحاب هذه الجبلات على النار. يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون. جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها

النار، والأناس الكرام يتحولون وقوداً وتراباً. وكلما أُلقي فتى أو فتاة، صبية أو عجوز، طفل أو شيخ، من المؤمنين الخيّرين الكرام في النار، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة، وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء!.

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبلات الطغاة، وارتكست في هذه الحمأة، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف، بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط، فالوحش يفترس ليقتات، لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسّة.

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين، وتحررت، وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع، الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال والعصور.



وفي حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان، وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان.

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث، كما لا تذكر النصوص القرآنية، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة، كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط. أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر.

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة!.

أفهكذا ينتهي الأمر، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخدود؟ بينما تذهب الفئة الباغية التي ارتكبت هذه الحمأة، ناجية؟.

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة!.

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئاً آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى،

ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها، وبمجال المعركة التي يخوضونها.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان... ليست هي القيمة الكبرى في الميزان... وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة. والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة. فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإِيمان. وإن النصر في أرفع صُوَرِه هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الآلام، وانتصار الإِيمان على الفتنة. وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار... وهذا هو الانتصار.

إن الناس جميعاً يموتون... وتختلف الأسباب. ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق... إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت، وتنفرد دون الناس في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس أيضاً، إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال...

قد كان في استطاعة المؤمنين، أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإِيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كما كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد؟.

إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً، هذا الذي ربحوه وهم بعدُ في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار، تحترق أجسادهم الفانية، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار!.

ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها، وليس هو الحياة الدنيا وحدها. وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال. إن الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض، ويشهدها ويشهد عليها. ويزنها بميزان غير ميزان الأرض، في جيل من أجيالها، وغير ميزان الأرض في أجيالها جميعاً. والملأ الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعاف ما تضم الأرض من الناس... وما من شك أن ثناء الملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الأرض، وتقديرهم على الإطلاق!.

وبعد ذلك كله هناك الآخرة، وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض، ولا ينفصل عنه، لا في الحقيقة الواقعة، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة.

فالمعركة إذن لم تنتهِ، وخاتمتها الحقيقية لم تجئ بعد، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد.



النظرة الأولى هي النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التي تعن للإنسان العجول. والنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى، هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها، لأنها تمثل الحقيقة التي يقوم عليها التصور الإيماني الصحيح.

ومن ثم كان وعد الله للمؤمنين جزاء على الإيمان والطاعة، والصبر على الابتلاء، والانتصار على فتن الحياة... هو طمأنينة القلب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ...﴾ [الرعد: ٢٨].

وهو الرضوان والود من الرحمن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦].

وهو الذكر في الملأ الأعلى... قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمِدَكَ واسترجعَ.

فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد...»[1].

وقال ﷺ: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني. فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم. فإن اقترب إليّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إليّ ذراعاً اقتربتُ منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[2].

وهو اشتغال الملأ الأعلى بأمر المؤمنين في الأرض... ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر: ٧].

وهو الحياة عند الله للشهداء: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

كما كان وعده المتكرر، بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين في الآخرة، والإملاء لهم في الأرض، والإمهال إلى حين... وإن كان أحياناً قد أخذ بعضهم في الدنيا... ولكن التركيز كله على الآخرة في الجزء الأخير: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧].

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣].

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾ [المعارج: ٤٢ ـ ٤٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز عن رسول الله ﷺ. باب فضل المصيبة إذا احتسب رقم ٩٤٢، والحديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الشيخان.

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الأعلى، واتصلت الدنيا بالآخرة، ولم تعد الأرض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر، والحق والباطل، والإيمان والطغيان. ولم تعد الحياة الدنيا هي خاتمة المطاف، ولا موعد الفصل في هذا الصراع... كما أن الحياة وكل ما يتعلق بها من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان، لم تعد هي القيمة العليا في الميزان.

انفسح المجال في المكان، وانفسح المجال في الزمان، وانفسح المجال في القيم والموازين، واتسعت آفاق النفس المؤمنة، وكبرت اهتماماتها، فصغرت الأرض وما عليها، والحياة الدنيا وما يتعلق بها. وكبر المؤمن بمقدار ما رأى وما عرف من الآفاق والحيوات، وكانت قصة أصحاب الأخدود في القمة، في إنشاء هذا التصور الإيماني الواسع الشامل الكبير الكريم.



هنالك إشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج، حول طبيعة الدعوة إلى الله، وموقف الداعية أمام كل احتمال.

لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله، نماذج منوّعة من نهايات في الأرض مختلفة للدعوات...

شهد مصارع قوم نوح، وقوم هود، وقوم شعيب، وقوم لوط، ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد، مجرد النجاة. ولم يذكر القرآن للناجين دوراً بعد ذلك في الأرض والحياة. وهذه النماذج تقرر أن الله ﷻ يريد أحياناً أن يعجل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا، أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك.

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده، ونجاة موسى وقومه، مع التمكين للقوم في الأرض، فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم. وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة، وإلى إقامة دين الله في الأرض... منهجاً للحياة شاملاً... وهذا النموذج غير النماذج الأولى.

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد ﷺ، وانتصار المؤمنين انتصاراً كاملاً، مع انتصار العقيدة في

نفوسهم انتصاراً عجيباً. وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله، مهيمناً على الحياة، في صورة لم تعرفها البشرية قط، من قبل ولا من بعد.

وشهد ـ كما رأينا ـ نموذج أصحاب الأخدود... وشهد نماذج أخرى أقل ظهوراً في سجل التاريخ الإيماني، في القديم والحديث... وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات التي حفظها على مدار القرون.

ولم يكن بد من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود، إلى جانب النماذج الأخرى، القريب منها والبعيد...

لم يكن بد من هذا النموذج، الذي لا ينجو فيه المؤمنون، ولا يؤخذ فيه الكافرون! ذلك ليستقر في حس المؤمنين ـ أصحاب دعوة الله ـ أنهم قد يُدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله. وأن ليس لهم في الأمر شيء، إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله!.

إن عليهم أن يؤدوا واجبهم، ثم يذهبوا. وواجبهم أن يختاروا الله، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة، وأن يصدقوا الله في العمل والنية. ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء. وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه.

إنهم أُجراء عند الله، أينما وحينما وكيفما أرادهم أن يعملوا، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير!.

وهم يقبضون الدفعة الأولى طمأنينة في القلب، ورفعة في الشعور، وجمالاً في التصور، وانطلاقاً من الأوهاق والجواذب، وتحرراً من الخوف والقلق، في كل حال من الأحوال. وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء في الملأ الأعلى، وذكراً وكرامة، وهم بعد على هذه الأرض الصغيرة.

ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرة، حساباً يسيراً، ونعيماً كبيراً.

ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعاً، رضوان الله، وأنهم مختارون

ليكونوا أداة لقدره، وستاراً لقدرته. يفعل بهم في الأرض ما يشاء...

❖ ❖ ❖

وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من المسلمين في الصدر الأول إلى هذا التطور، الذي أطلقهم من أمر ذواتهم وشخوصهم. فأخرجوا أنفسهم من الأمر البتة، وعملوا أُجراء عند صاحب الأمر، ورضوا خيرة الله على أي وضع، وعلى أي حال.

وكانت التربية النبوية تتمشى في التوجيهات القرآنية، وتوجه القلوب والأنظار إلى الجنة، وإلى الصبر على الدور المختار حتى يأذن الله بما يشاء في الدنيا وفي الآخرة سواء.

كان ﷺ يرى عماراً وأمه وأباه ﷺ يعذبون العذاب الشديد في مكة، فما يزيد على أن يقول: «صبراً آل ياسر. موعدكم الجنة...».

وعن خباب بن الأرت ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بُردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ أو تدعو الله لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فَيُجعل نصفين. ويُمشطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّهُ ذلك عن دينه. والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلّا الله، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون[1].



إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال. ومدبر هذا الكون كله، المطلع على أوله وآخره، المنسّق لأحداثه وروابطه، هو الذي يعرف الحكمة المكنونة في غيبه المستور، الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل.

وفي بعض الأحيان يكشف لنا ـ بعد أجيال وقرون ـ عن حكمة حادث،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر رقم ٦٤٣٠.

لم يكن معاصروه يدركون حكمته. ولعلهم كانوا يسألون: لماذا؟ لماذا يا رب يقع هذا؟ وهذا السؤال نفسه هو الجهل الذي يتوقاه المؤمن. لأنه يعرف ابتداء أن هناك حكمة وراء كل قدر، ولأن سعة المجال في تصوره، وبعد المدى في الزمان والمكان والقيم والموازين، تغنيه عن التفكير ابتداء في مثل هذا السؤال. فيسير مع دورة القدر في استسلام واطمئنان.

لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد، بحيث لا تتطلع ـ وهي تبذل كل شيء، وتحتمل كل شيء ـ إلى شيء في هذه الأرض، ولا تنظر إلّا إلى الآخرة، ولا ترجو إلّا رضوان الله، قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت. بلا جزاء في هذه الأرض قريب، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة، وغلبة الإِسلام وظهور المسلمين، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين، بأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما فعل بالمكذبين الأوّلين!.

حتى إذا وجدت هذه القلوب، التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض إلّا أن تعطي بلا مقابل ـ أيّ مقابل ـ وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للفصل بين الحق والباطل. وحتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض، وائتمنها عليه. لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإِلهي، وهي أهلٌ لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تُعطاه. وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلّا رضاه.

وكل الآيات التي ذُكر فيها النصر، وذُكر فيها المغانم، وذُكر فيها أخذ المشركين في الأرض بأيدي المؤمنين، نزلت في المدينة... بعد ذلك... وبعد أن أصبحت هذه الأمور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه. وجاء النصر ذاته، لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإِنسانية، تقرره في صورة عملية محددة تراها الأجيال. فلم يكن جزاء على

التعب والنصب والتضحية والآلام. إنما كان قدراً من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن!.

وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله، في كل أرض وفي كل جيل، فهي كفيلة بأن تريهم «معالم الطريق» واضحة بلا غبش، وأن تثبّت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته، كيفما كانت هذه النهاية. ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون. فلا يلتفتون في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والأشلاء، وبالعرق والدماء، إلى نصر أو غلبة، أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الأرض. ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله. لا جزاء على الآلام والتضحيات. لا... فالأرض ليست دار جزاء. وإنما تحقيقاً لقدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي أناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء. وحسبهم هذا الاختيار الكريم، الذي تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة، وكل ما يقع في رحلة الأرض من سراء أو ضراء.



هنالك حقيقة أخرى، يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة أصحاب الأخدود في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑧﴾.

حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل.

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق. وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلّا الإيمان. ولا يسخطون منهم إلّا العقيدة.

إنها ليست معركة سياسية، ولا معركة اقتصادية، ولا معركة عنصرية. ولو كانت شيئاً من ذلك لسهل وقفها، وسهل حلّ إشكالها. ولكنها في صميمها معركة عقيدة ـ إما كفر وإما إيمان... إما جاهلية وإما إسلام.

ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله ﷺ المال والحكم

والمتاع، في مقابل شيء واحد، أن يدع معركة العقيدة، وأن يدهن في هذا الأمر! ولو أجابهم ـ حاشاه ـ إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق.

إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة. وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم. فإنه لا يعاديهم لشيء إلّا لهذه العقيدة ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع!.

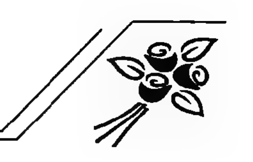
وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة، راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية، كي يموهوا على المؤمنين حقيقة المعركة، ويُطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة. فمن واجب المؤمنين ألّا يُخدعوا، ومن واجبهم أن يُدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيت. وإن الذي يغير راية المعركة، إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها، النصر في أية صورة من الصور، سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود، أو في صورة الهيمنة ـ الناشئة من الانطلاق الروحي ـ كما حدث للجيل الأول من المسلمين.

ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية أن تخدعنا عن حقيقة المعركة، وأن تزور التاريخ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار... كلا... إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر، وفيهم صلاح الدين الكردي، وتوران شاه المملوكي، العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها، فانتصرت تحت راية العقيدة!.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾.

وصدق الله العظيم، وكذب المموهون الخادعون!.





الخاتمة

بهذا ينتهي ما قدره الله لنا أن نقوله عن «قصص السابقين في القرآن» الذي خصصناه لقصص غير الأنبياء في القرآن.

وقد رتبنا هذه القصص وفق ترتيب المصحف، وكانت تسع عشرة قصة، مرتبة في هذا الكتاب كمايلي: قصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة. وقصة هاروت وماروت في سورة البقرة. وقصة طالوت في سورة البقرة. وقصة الذي مرَّ على قرية في سورة البقرة. وقصة تيه بني إسرائيل في سورة المائدة. وقصة ابني آدم في سورة المائدة. وقصة أصحاب السبت في سورة الأعراف. وقصة الذي انسلخ من آيات الله في سورة الأعراف. وقصة أصحاب الكهف في سورة الكهف. وقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف. وقصة موسى مع الخَضِر عليه السلام في سورة الكهف. وقصة ذي القرنين في سورة الكهف. وقصة أم موسى عليها السلام في سورتي طه والقصص. وقصة قارون في سورة القصص. وقصة لقمان في سورة لقمان. وقصة سبأ في سورة سبأ. وقصة أصحاب القرية في سورة يَس. وقصة مؤمن آل فرعون في سورة غافر. وقصة أصحاب الأخدود في سورة البروج.

وكان تركيزنا في تحليل هذه القصص على الدروس والعبر والدلالات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالإيمان والدعوة والجهاد، لأن هذه أهداف عرض تلك القصص في القرآن.

وكان حرصنا عند تحليل هذه القصص على البقاء مع آيات القرآن وما صح من أحاديث رسول الله ﷺ، ولذلك تعمدنا أن لا نذهب إلى الإسرائيليات، وما لم يصح من الأقوال والروايات، فنتحدث فيما تحدث عنه القرآن، ونسكت عن ما سكت عنه القرآن، ويسعنا ما وسع الصحابة عليهم الرضوان.

وندعو إلى ضم هذه الدراسة مع أختيها: «القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث» و«مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه». لأن الدراسات الثلاثة يكمل بعضها بعضاً.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *



المراجـع

١ ـ أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر بن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة عيسى الحلبي، مصر، بدون تاريخ.

٢ ـ الإسرائيليات في التفسير والحديث، للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الإيمان، دمشق، الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣ ـ أصحاب الأخدود، لرفاعي سرور، دار نشر التراث العربي، القاهرة: ١٩٧٧.

٤ ـ أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

٥ ـ الإكليل في استنباط التنزيل، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٦ ـ إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في القرآن. لأبي البقاء العكبري، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٧ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٦٦م.

٨ ـ تأملات في سورة الكهف، لأبي الحسن الندوي، دار القلم، الكويت، ١٩٧١م.

٩ ـ تفسير القرآن الحكيم، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

١٠ ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، المكتبة التجارية، مصر، بدون تاريخ.

١١ ـ التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، بدون تاريخ.

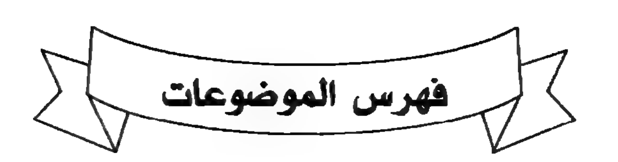
١٢ ـ تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة. بدون تاريخ.

١٣ ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتاب العربي، مصر، الطبعة الثالثة: ١٩٦٧م.

١٤ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت: ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٥ ـ جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري، لأحمد عادل كمال، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٨٠م.
١٦ ـ جعفر بن محمد الصادق، لعبد العزيز سيد الأهل، سلسلة التعريف بالإسلام، الكتاب الثاني عشر، مصر: ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.
١٧ ـ حجة القراءات، لابن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة: ١٩٨٢م.
١٨ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
١٩ ـ ذو القرنين، لمحمد خير رمضان يوسف، دار القلم، الطبعة الأولى: ١٩٨٦م.
٢٠ ـ الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، للسهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ.
٢١ ـ روح المعاني، للإمام الآلوسي، دار إحياء الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
٢٢ ـ الزهر النضر في نبأ الخضر، لابن حجر العسقلاني، مجموعة الرسائل المنيرية، المجلد الأول، الرسالة السابعة، دار إحياء التراث العربي.
٢٣ ـ سنن ابن ماجه، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٢٤ ـ سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٢٥ ـ سنن الترمذي، بعناية عبد الرحمن عثمان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٨٣م.
٢٦ ـ شرح النووي على صحيح مسلم، المطبعة المصرية ومكتبتها، مصر، بدون تاريخ.
٢٧ ـ صحيح الإمام البخاري، مطبعة محمد علي صبيح، مصر، بدون تاريخ.
٢٨ ـ صحيح الإمام مسلم، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت: ١٩٨٣م.
٢٩ ـ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لعبد الفتاح أبو غدة، مكتب نشر المطبوعات الإسلامية، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.
٣٠ ـ عرائس المجالس في قصص الأنبياء، لأبي إسحاق الثعلبي، المكتبة الثقافية، بيروت، بدون تاريخ.

٣١ ـ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، لأحمد شاكر، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.
٣٢ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للقمي النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، طبعة الحلبي بمصر: ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.
٣٣ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بدون تاريخ.
٣٤ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، الطبعة العاشرة: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٣٥ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٣٦ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري، دار صادر، بيروت: ١٩٧٩م.
٣٧ ـ الكشاف، للزمخشري، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٣٨ ـ الكليات، لأبي البقاء الكفوي، إعداد عدنان درويش ومحمد المصري، سوريا: ١٣٨١هـ.
٣٩ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
٤٠ ـ مسند أحمد حنبل، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف بمصر: ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.
٤١ ـ معالم في الطريق، لسيد قطب، دار دمشق، بدون تاريخ.
٤٢ ـ معجم الأدوات والضمائر في القرآن، للدكتور إسماعيل عمايرة وزميله، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.
٤٣ ـ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني بتحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة مصطفى الحلبي، بمصر: ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.
٤٤ ـ ملاك التأويل، لابن الزبير الغرناطي بتحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٤٥ ـ نيل الأوطار، للإمام الشوكاني، دار الجيل، بيروت: ١٩٧٣م.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(٥)

قصة تيه بني إسرائيل

(٦)

قصة ابنيْ آدم

(٧)

قصة أصحاب السبت

(٨)

قصة الذي انسلخ من آيات الله

(٩)

قصة أصحاب الكهف

الموضوع	الصفحة

(١٣)

قصة ام موسى عليها السلام

(١٤)

قصة قارون

كتب صدرت من سلسلة «من كنوز القرآن»

١ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٢ ـ في ظلال الإيمان.
٣ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
٤ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.
٥ ـ مع قصص السابقين في القرآن.
٦ ـ لطائف قرآنية.
٧ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٨ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.
٩ ـ عتاب الرسول ﷺ في القرآن: تحليل وتوجيه.
١٠ ـ الأعلام الأعجمية في القرآن: تعريف وبيان.
١١ ـ وعود القرآن بالتمكين للإسلام.



كتب صدرت للمؤلف مرتبة وفق صدورها

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي.
٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب.
٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب.
٤ ـ مدخل إلى ظلال القرآن.
٥ ـ المنهج الحركي في القرآن.
٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان.
٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.
٨ ـ في ظلال الإيمان.
٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.
١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.
١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن.
١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن.
١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر.
١٤ ـ إسرائيليات معاصرة.
١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد.
١٦ ـ لطائف قرآنية.
١٧ ـ هذا القرآن.
١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية.
١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.
٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن.
٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.
٢٢ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.
٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة.
٢٤ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب.
٢٥ ـ الرسول المبلغ ﷺ.
٢٦ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢٧ ـ تهذيب فضائل الجهاد لابن النحاس.
٢٨ ـ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين.
٢٩ ـ القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية.
٣٠ ـ سيد قطب: الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسر الرائد.
٣١ ـ صور من جهاد الصحابة.
٣٢ ـ إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني.
٣٣ ـ سعد بن أبي وقاص: السباق للإسلام والمبشر بالجنة والقائد المجاهد.
٣٤ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.
٣٥ ـ الحرب الأمريكية بمنظار سيد قطب.